

Marfat.com

Marfat.com

فی ظلال القرآن

بقلم

سید قطب

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم



بقية سورة آل عمران وأوائل سورة النساء

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتألف هذا الجزء من بقية سورة آل عمران ، ومن أوائل سورة النساء ، إلى قوله تعالى: « والمحصنات من النساء ... » .

وهـذه البقية من سورة آل عمران تتألف من أربعة مقاطع رئيسية ، تكمل خط سير السورة ، الذى أفضنا فى الحديث عنه فى مطلعها ـ فى الجزء الثالث ـ بما لا مجال لإعادته هنا ، فيرجع إليه هناك . .

فأما المقطع الأول فيمثل طرفا من المعركة الجدلية بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة فى المدينة ، فى تلك الفترة التى رجحنا أن السورة تناولت أحداثها فى حياة الجماعة المسلمة ـ من بعد غزوة بدر فى رمضان من العام الثانى للهجرة إلى مابعد غزوة أحد فى شوال من العام الثالث .. هذه المعركة التى شغلت مامر من السورة كله . والتى كانت مجالا لتجلية حقيقة التصور الإيمانى وحقيقة « الدين » ، وحقيقة « الإسلام » ، وحقيقة منهج الله الذى جاء به الإسلام ، وجاء به من قبل كل رسول . كما كانت مجالا لكشف حقيقة « أهل الكتاب » الذين يجادلون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ويحاورونهم ؛ وكشف مدى انحرافهم عن دين الله ؛ وفضح تدبيرهم للجماعة المسلمة فى المدينة ، والدوافع الكامنة وراء هذا التدبير ؛ ثم تحذير الجماعة المسلمة من هذا كله ، بعد تسليط الأنوار عليه ، وتجسيم خطره على الجماعة المسلمة لو غفلت عنه ، واستجابت لأعدائها فيه .

وأما المقطع الثانى ـ وهو يشغل مساحة كبيرة من السورة كذلك ـ فهو نقلة إلى معركة أخرى ليست باللسان والكيد والتدبير فقط ؛ ولكنها كذلك بالسيف والرمح والسنان . نقلة إلى « غزوة أحد » وأحداثها والتعقيبات عليها . فى أسلوب هو أسلوب القرآن وحده ! وقد نزلت الآيات بعد المعركة ؛ فكانت مجالا لتجلية نواح متعددة من التصور الإيمانى ؛ كما كانت مجالا لتربية الجماعة المسلمة على ضوء المعركة ، وعلى ضوء ما كشفته من أخطاء فى التصور، واضطراب

Marfat.com

فى التصرف ، وخلل فى الصف .. وفرصة لتوجيه الجماعة المسلمة إلى المضى فى طريقها ، واحتمال تبعاتها ، والارتفاع إلى مستوى الأمانة الضخمة التى ناطها الله بها ، والوفاء بشكر نعمة الله عليها فى اصطفائها لهذا الأمر العظيم .

والمقطع الثالث عودة إلى أهل الكتاب ، ونكولهم عن مواثيقهم مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك المواثيق التى كان قد عقدها معهم أول مقدمه إلى المدينة ؛ والتنديد بانحراف تصوراتهم ، وما اجترحوه من الآثام مع أنبيائهم كذلك . ثم تحذير الجماعة المسلمة من متابعتهم، وتثبيت القلوب المؤمنة على ماينالها من الابتلاء فى النفس والمال،وإيذاء أهل الكتاب والمشركين وتهوين شأن أعدائها على كل حال .

والمقطع الأخير يرسم صورة لحال المؤمنين مع ربهم ، تمثل دبيب الإيمان فى قلوبهم حين يواجهون آيات الله فى الكون ، ويتجهون إلى ربهم ورب هذا الكون بدعاء خاشع واجف . واستجابة ربهم لهم بالمغفرة وحسن الثواب . مع التهوين من شأن الكفار وما ينالونه من متاع قليل فى هذه الأرض ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ..

وتختم السورة بدعوة من الله للذين آمنوا . . دعوة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى لعلهم يفلحون . .

* * *

هذه المقاطع الأربعة المتلاحمة فى السياق تكمل ماسبق عرضه من السورة (فى الجزء الثالث) وتسير مع خطوطها الرئيسية العريضة التى فصلنا الحديث عنها هناك .. وسنتناولها بتفصيل خاص عند مواجهتها فى السياق .

أما الشطر الثانى من هذا الجزء ـ وهو أوائل سورة النساء ـ فسنتحدث عنه ـ إن شاء الله ـ فى موضعه . وبالله التوفيق ..

Marfat.com

Marfat.com

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِلَّا مَاحَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . قُلْ : فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٣﴾

« قُلْ : صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ، وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

« قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ،وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَاتَعْمَلونَ ؟* قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ؟ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ : فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا - إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ - وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ، أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ

Marfat.com

بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » ﴿١٢٠﴾

فى هذا الدرس تبلغ المعركة ذروتها . معركة الجدل والمناظرة مع أهل الكتاب . وهذه الآيات غير داخلة فى نطاق مناظرة وفد نجران ـ كما ذكرت الروايات ـ ولكنها متساوقة معها، ومكملة لها ، والموضوع واحد. وإن كانت آيات هذا الدرس تتمحض للحديث عن اليهود خاصة، وتواجه كيدهم ودسهم للجماعة المسلمة فى المدينة . وتنتهى إلى الحسم القاطع ، والمفاصلة الكاملة. حيث يتجه السياق بعد جولة قصيرة فى هذا الدرس إلى الجماعة المسلمة يخاطبها وحدها ؛ فيبين لها حقيقتها ، ومنهجها ، وتكاليفها . على نحو ماسار السياق فى سورة البقرة بعد استيفاء الحديث عن بنى إسرائيل .. وفى هذه الظاهرة تتشابه السورتان .

ويبدأ الدرس بتقرير أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ـ إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ ويبدو أن هذا التقرير كان ردا على اعتراض بنى إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام . مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم ، فى صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم .

ثم يرد كذلك على اعتراضهم على تحويل القبلة ـ ذلك الموضوع الذى استغرق مساحة واسعة فى سورة البقرة من قبل ـ فيبين لهم أن الكعبة هى بيت إبراهيم ؛ وهى أول بيت وضع للناس فى الأرض للعبادة ، فالاعتراض عليه مستنكر ممن يدعون وراثة إبراهيم !

وعقب هذا البيان يندد بأهل الكتاب لكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله ؛ ورفضهم الاستقامة ، وميلهم إلى الخطة العوجاء ، ورغبتهم فى سيطرتها على الحياة ، وهم يعرفون الحق ولا يجهلونه .

ومن ثم يدع أهل الكتاب جملة ؛ ويتجه إلى الجماعة المسلمة، يحذرها طاعة أهل الكتاب ..

Marfat.com

فإنها الكفر . . ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم ، وفيهم رسوله يعلمهم . ويدعوهم إلى تقوى الله ، والحرص على الإسلام حتى الوفاة ولقاء الله . ويذكرهم نعمة الله عليهم بتأليف قلوبهم ، وتوحيد صفوفهم تحت لواء الإسلام ، بعد ما كانوا فيه من فرقة وخصام ، وهم يومئذ على شفا حفرة من النار أنقذهم منها الله بالإسلام . ويأمرهم بأن يكونوا الأمة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، محافظة على تحقيق منهج الله ، مع تحذيرهم الاستماع لدسائس أهل الكتاب فيهم ، فيهلكوا بالفرقة كما تفرق هؤلاء فهلكوا فى الدنيا والآخرة . . وتذكر الروايات أن هذا التحذير نزل بمناسبة فتنة معينة بين الأوس والخزرج قام بها اليهود .

ثم يعرّف الله المسلمين حقيقة مكانهم فى هذه الأرض ، وحقيقة دورهم فى حياة البشر : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .. فيدلهم بهذا على أصالة دورهم ، وعلى سمة مجتمعهم ..

يلى ذلك التهوين من شأن عدوهم . فهم لن يضروهم فى دينهم ، ولن يظهروا عليهم ظهورا تاما مستقرا . إنما هو الأذى فى جهادهم وكفاحهم ، ثم النصر ما استقاموا على منهجهم . وهؤلاء الأعداء قد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، بسبب ما اقترفوه من الآثام والمعصية وقتل الأنبياء بغير حق . . ويستثنى من أهل الكتاب طائفة جنحت للحق ، فآمنت ، واتخذت منهج المسلمين منهجا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والسعى فى الخيرات . . « وأولئك من الصالحين » . . ويقرر مصير الذين كفروا فلم يجنحوا للإسلام ؛ فهم مأخوذون بكفرهم ، لا تنفعهم أموال ينفقونها ، ولا تغنى عنهم أولاد ، وعاقبتهم البوار .

وينتهى الدرس بتحذير الذين آمنوا من اتخاذ بطانة من دونهم ، يودون لهم العنت ، وتنفث أفواههم البغضاء ، وما تخفى صدورهم أكبر ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، ويفرحون لما ينزل بساحتهم من السوء ؛ ويسوءهم الخير ينال المؤمنين . . ويعدهم الله بالكلاءة والحفظ من كيد هؤلاء الأعداء ماصبروا واتقوا « إن الله بما يعملون محيط » ..

ويدل هذا التوجيه الطويل ، الموّع الإيحاءات ، على ما كانت تعانيه الجماعة المسلمة حينذاك من كيد أهل الكتاب ودسهم فى الصف المسلم ؛ وما كان يحدثه هذا الدس من بلبلة . كما أنه

Marfat.com

يشى بحاجة الجماعة إلى التوجيه القوى ، كى يتم لها التميز الـكامل ، والمفاصلة الحاسمة ، من كافة العلاقات التى كانت تربطها بالجاهلية وبأصدقاء الجاهلية !

ثم يبقى هذا التوجيه يعمل فى أجيال هذه الأمة ، ويبقى كل جيل مطالبا بالحذر من أعداء الإسلام التقليديين . وهم هم تختلف وسائلهم ، ولـكنهم لا يختلفون !

* * *

« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ـ إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الـكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » .

لقد كان اليهود يتصيدون كل حجة ، وكل شبهة ، وكل حيلة ، لينفذوا منها إلى الطعن فى صحة الرسالة المحمدية ، وإلى بلبلة الأفـكار وإشاعة الاضطراب فى العقول والقلوب . . فلما قال القرآن : إنه مصدق لمـا فى التوراة برزوا يقولون : فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بنى إسرائيل ؟ وتذكر الروايات أنهم ذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانهـا . . وهى محرمة على بنى إسرائيل . وهناك محرمات أخرى كذلك أحلها الله للمسلمين .

وهنا يردهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التى يتجاهلونها للتشكيك فى صحة ماجاء فى القرآن من أنه مصدق للتوراة ، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرما على بنى إسرائيل . . هذه الحقيقة هى أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ـ إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ وإسرائيل هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وتقول الروايات إنه مرض مرضا شديدا ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن ـ تطوعا ـ عن لحوم الإبل وألبانها ركانت أحب شىء إلى نفسه . فقبل الله منه نذره . وجرت سنة بنى إسرائيل على اتباع أبيهم فى تحريم ماحرم . . كذلك حرم الله على بنى إسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معصيـات ارتـكبوها . وأشير إلى هذه المحرمات فى آية « الأنعام » : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أو مااختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصـادقون » . . (كانت قبل هـذا التحريم حلالا لبنى إسرائيل .

Marfat.com

Marfat.com

يردهم الله سبحانه إلى هذه الحقيقة ، ليبين أن الأصل فى هذه المطاعم هو الحل ، وأنها إنما حرمت عليهم لملابسات خاصة بهم . فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذى لا يثير الاعتراض ، ولا الشك فى صحة هذا القرآن ، وهذه الشريعة الإلهية الأخيرة .

ويتحداهم أن يرجعوا إلى التوراة ، وأن يأتوا بها ليقرأوها ، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم ، وليست عامة .

« قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » . .

ثم يهدد من يفترى الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم ، لا ينصف الحقيقة ، ولا ينصف نفسه ، ولا ينصف الناس . وعقاب الظالم معروف ، فيكفى أن يوصموا بهذه الوصمة ، ليتقرر نوع العذاب الذى ينتظرهم . وهم يفترون الكذب على الله . وهم إليه راجعون ..

* * *

كذلك كان اليهود يبدئون ويعيدون فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، بعد أن صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت المقدس حتى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة .. ومع أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة كاملة وافية فى سورة البقرة من قبل ، وتبين أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأولى ، وأن اتخاذ بيت المقدس هذه الفترة كان لحكمة معينة بينها الله فى حينها . . مع هذا فقد ظل اليهود يبدئون فى هذا الموضوع ويعيدون ، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح ـ على مثال مايصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين ! وهنا يرد الله عليهم كيدهم ببيان جديد .

« قل : صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ..

ولعل الإشارة هنا فى قوله : « قل صدق الله .. » تعنى ماسبق تقريره فى هذا الأمر ،

من أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا ، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى : ومن ثم يجىء الأمر باتباع إبراهيم فى ملته . وهى التوحيد الخالص المبرأ من الشرك فى كل صورة :

« فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

واليهود كانوا يزعمون أنهم هم ورثة إبراهيم . فهاهو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم ؛ وأنه الميل عن كل شرك . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين : مرة بأنه كان حنيفا · ومرة بأنه ما كان من المشركين . فما بالهم هم مشركين ! !

ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل . فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة وخصص لها ، مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده ، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . وجعله مباركا وجعله هدى للعالمين ، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم . وفيه علامات بينة على أنه مقام إبراهيم . . (ويقال : إن المقصود هو الحجر الأثرى الذى كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقف عليه فى أثناء البناء · وكان ملصقا بالكعبة فأخره عنها الخليفة الراشد عمر ـ رضى الله عنه ـ حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده . وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلى بقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .)

ويذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنا . فهو مثابة الأمن لكل خائف . وليس هذا لمكان آخر فى الأرض . وقد بقى هكذا مذ بناه إبراهيم وإسماعيل. وحتى فى جاهلية العرب ، وفى الفترة التى انحرفوا فيها عن دين إبراهيم ، وعن التوحد الخالص الذى يمثله هذا الدين.. حتى فى هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية ،كما قال الحسن البصرى وغيره: « كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صوفة ، ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول ، فلا يهيجه حتى يخرج » . . وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا ، حتى والناس من حوله فى جاهلية ! وقال ـ سبحانه ـ يمتن على العرب به : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً امنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ » وحتى إنه من جملة تحريم الكعبة حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها . . وفى الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما ،

Marfat.com

قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة : « إن هـذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايعضد شوكه، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه ... الخ »

فهذا هو البيت الذى اختاره الله للمسلمين قبلة ... هو بيت الله الذى جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أقيم فى الأرض للعبادة . وهو بيت أبيهم إبراهيم ، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له . والإسلام هو ملة إبراهيم فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون .وهو مثابة الأمان فى الأرض . وفيه هدى للناس ، بما أنه مثابة هذا الدين .

ثم يقرر أن الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك . وإلا فهو الكفر الذى لا يضر الله شيئاً :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ».

ويلفت النظر ـ فى التعبير ـ هذا التعميم الشامل فى فرضية الحج : «على الناس» .. ففيه أولا إيحاء بأن هذا الحج مكتوب على هؤلاء اليهود الذين يجادلون فى توجه المسلمين إليه فى الصلاة . على حين أنهم هم أنفسهم مطالبون من الله بالحج إلى هذا البيت والتوجه إليه ، بوصفه بيت أبيهم إبراهيم ، وبوصفه أول بيت وضع للناس للعبادة . فهم ـ اليهود ـ المنحرفون المقصرون العاصون ! وفيه ثانيا إيحاء بأن الناس جميعاً مطالبون بالإقرار بهذا الدين ، وتأدية فرائضه وشعائره ، والاتجاه والحج إلى بيت الله الذى يتوجه إليه المؤمنون به .. هذا وإلا فهو الكفر. مهما ادعى المدعون أنهم على دين ! والله غنى عن العالمين . فما به من حاجة ـ سبحانه ـ إلى إيمانهم وحجهم . إنما هى مصلحتهم وفلاحهم بالإيمان والعبادة ..

والحج فريضة فى العمر مرة ، عند أول ما تتوفر الاستطاعة . من الصحة وإمكان السفر وأمن الطريق .. ووقت فرضها مختلف فيه . فالذين يعتمدون رواية أن هذه الآيات نزلت فى عام الوفود ـ فى السنة التاسعة ـ يرون أن الحج فرض فى هذه السنة . ويستدلون على هذا بأن حجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت فقط بعد هذا التاريخ . . وقد قلنا عند الكلام على مسألة تحويل القبلة فى الجزء الثانى من الظلال : إن حجة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

لا دليل فيها على تأخر فرضية الحج . فقد تكون للابسات معينة . منها أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عرايا ، ما يزالون يفعلون هذا بعد فتح مكة . فكره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخالطهم ، حتى نزلت سورة براءة فى العام التاسع ، وحرم على المشركين الطواف بالبيت .. ثم حج ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجته فى العام الذى يليه . . ومن ثم فقد تكون فرضية الحج سابقة على ذلك التاريخ ، ويكون نزول هذه الآية فى الفترة الأولى من الهجرة بعد غزوة أحد أو حواليها .

وقد تقررت هذه الفريضة على كل حال بهذا النص القاطع ، الذى يجعل لله ـ سبحانه ـ حق حج البيت على « الناس » من استطاع إليه سبيلا .

والحج مؤتمر المسلمين السنوى العام . يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه . والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم والذى جعله الله أول بيت فى الأرض لعبادته خالصا . فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه ، التى تطوّف كلها حول المعنى الكريم، الذى يصل الناس بخالقهم العظيم .. معنى العقيدة . استجابة الروح لله الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنسانا . وهو المعنى الذى يليق بالأناسى أن يتجمعوا عليه ، وأن يتوافدوا كل عام إلى المكان المقدس الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم .

* * *

بعد هذا البيان يلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد ، على موقفهم من الحق الذى يعلمونه ، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله . وهم شهداء على صحتها ، وهم من صدقها على يقين :

« قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون ؟ قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون » ..

وقد تكرر مثل هذا التنديد فى هذه السورة ، وفى سور غيرها كثيرة . وأول ما يتركه هذا التنديد من أثر هو مجابهته أهل الكتاب بحقيقة موقفهم، ووصفهم بصفتهم ، التى يدارونها بمظهر الإيمان والتدين ، بينما هم فى حقيقتهم كفار . فهم يكفرون بآيات الله القرآنية . ومن

Marfat.com

Marfat.com

يكفر بشىء من كتاب الله فقد كفر بالكتاب كله . ولو أنهم آمنوا بالنصيب الذى معهم لآمنوا بكل رسول جاء من عند الله بعد رسولهم . فحقيقة الدين واحدة . من عرفها عرف أن كل ما يجىء به الرسل من بعد حق ، وأوجب على نفسه الإسلام لله على أيديهم .. وهى حقيقة من شأنها أن تهزهم وأن تخوفهم عاقبة ماهم فيه .

ثم إن المخدوعين من الجماعة المسلمة بكون هؤلاء الناس أهل كتاب ، يسقط هذا الخداع عنهم ، وهم يرون الله ـ سبحانه ـ يعلن حقيقة أهل الكتاب هؤلاء ، ويدمغهم بالكفر الكامل الصريح . فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب .

وهو ـ سبحانه ـ يهددهم بما يخلع القلوب :

« والله شهيد على ما تعملون » .. « وما الله بغافل عما تعملون » ..

وهو تهديد رعيب، حين يحس إنسان أن الله يشهد عمله . وأنه ليس بغافل عنه. بينما عمله هو الكفر والخداع والإفساد والتضليل !

ويسجل الله تعالى عليهم معرفتهم بالحق الذى يكفرون به ، ويصدون الناس عنه :

« وأنتم شهداء » ..

مما يجزم بأنهم كانوا على يقين من صدق ما يكذبون به ، ومن صلاح ما يصدون الناس عنه . وهو أمر بشع مستنكر ، لا يستحق فاعله ثقة ولا صحبة ، ولا يستأهل إلا الاحتقار والتنديد !

ولا بد من وقفة أمام وصفه تعالى لهؤلاء القوم بقوله :

« لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ... ؟ »

إنها لفتة ذات مغزى كبير .. إن سبيل الله هو الطريق المستقيم . وما عداه عوج غير مستقيم . وحين يصد الناس عن سبيل الله ؛ وحين يصد المؤمنون عن منهج الله ، فإن الأمور كلها تفقد استقامتها ، والموازين كلها تفقد سلامتها ، ولا يكون فى الأرض إلا العوج الذى لا يستقيم .

إنه الفساد . فساد الفطرة بانحرافها . وفساد الحياة باعوجاجها .. وهذا الفساد هو حصيلة صد الناس عن سبيل الله ، وصد المؤمنين عن منهج الله . . وهو فساد فى التصور . وفساد

Marfat.com

فى الضمير . وفساد فى الخلق . وفساد فى السلوك . وفساد فى الروابط . وفساد فى المعاملات . وفساد فى كل ما بين الناس بعضهم وبعض من ارتباطات . وما بينهم وبين الكون الذى يعيشون فيه من أواصر . . وإما أن يستقيم الناس على منهج الله فهى الاستقامة والصلاح والخير ، وإما أن ينحرفوا عنه إلى أية وجهة فهو العوج والفساد والشر . وليس هنالك إلا هاتان الحالتان ، تتعاوران حياة بنى الإنسان : استقامة على منهج الله فهو الخير والصلاح ، وانحراف عن هذا المنهج فهو الشر والفساد !

* * *

وحين يصل السياق إلى هذا الحد ينهى الجدل مع أهل الكتاب ، ويغفل شأنهم كله . ويتجه إلى الجماعة المسلمة بالخطاب ، والتحذير ، والتنبيه ، والتوجيه . وبيان خصائص الجماعة المسلمة وقواعد منهجها وتصورها وحياتها ؛ وطبيعة وسائلها لتحقيق المنهج الذى ناطه الله بها :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ..

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشىء فى الأرض طريقها على منهج الله وحده ، متميزة متفردة ظاهرة . لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله ؛ لتؤدى فى حياة البشر دوراً خاصاً لا ينهض به سواها . لقد وجدت لإقرار منهج الله فى الأرض ، وتحقيقه فى صورة عملية ، ذات معالم منظورة ، تترجم فيها النصوص إلى حركات، وأعمال ، ومشاعر وأخلاق ، وأوضاع وارتباطات .

وهى لا تحقق غاية وجودها ، ولا تستقيم على طريقها ، ولا تنشىء فى الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة ، إلا إذا تلقت من الله وحده ، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من الله وحده . قيادة البشرية .. لا التلقى من أحد من البشر ، ولا اتباع أحد من البشر ، ولا طاعة أحد من البشر . . إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف . .

هذا مايؤكده القرآن ويكرره فى شتى المناسبات . وهذا مايقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة

وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة . . وهنا موضع من هذه المواضع ، مناسبته هى المناظرة مع أهل الكتاب ، ومواجهة كيدهم وتآمرهم على الجماعة المسلمة فى المدينة . . ولكنه ليس محدودا بحدود هذه المناسبة ، فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة ، فى كل جيل من أجيالها . لأنه هو قاعدة حياتها ، بل قاعدة وجودها .

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية . فكيف تتلقى إذن من الجاهلية التى جاءت لتبدلها ولتصلها بالله ، ولتقودها بمنهج الله ؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها إذن ، وليس لوجودها ـ فى هذه الحال ـ من غاية ؟ !

لقد وجدت للقيادة : قيادة التصور الصحيح . والاعتقاد الصحيح . والشعور الصحيح . والخلق الصحيح . والنظام الصحيح . والتنظيم الصحيح .. وفى ظل هذه الاوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول ، وأن تتفتح ، وأن تتعرف إلى هذا الكون ، وأن تعرف أسراره ، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته . . ولكن القيادة الأساسية التى تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله ، وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار ، ولا لتسخيره فى المآرب والشهوات . . ينبغى أن تكون للإيمان ، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة ، مهتدية فيها بتوجيه الله . لا بتوجيه أحد من عبيد الله .

وهنا فى هذا الدرس يحذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها ، ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها . ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب ، وإلا فسيقودونها إلى الكفر لا مناص .

« ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ..

إن طاعة أهل الكتاب والتلقى عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلى عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة . كما تحمل معنى الشك فى كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدا فى طريق النماء والارتقاء . وهذا بذاته دبيب الكفر فى النفس ، وهى لا تشعر به ولا ترى خطره القريب .

Marfat.com

هـــذا من جانب المسلمين . فأما من الجانب الآخر ، فأهل الكتاب لا يحرصون على شىء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها . فهذه العقيدة هى صخرة النجاة ؛ وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة . وأعداؤه يعرفون هذا جيدا . يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً ، ويبذلون فى سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل مافى وسعهم من مكر وحيـلة ، ومن قوة كذلك وعُدة . وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين . وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم ، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، أو ممن ينتسبون ـ زورا ـ للإسلام ، جنودا مجنـدة ، لتنخر لهم فى جسم هذه العقيـدة من داخل الدار ، ولتصد الناس عنها ، ولتزين لهم مناهج غير منهجها ، وأوضاعا غير أوضاعها ، وقيـادة غير قيادتها . .

فحين يجد أهل الـكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا ، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله فى سبيل الغاية التى تؤرقهم ، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلهـا من ورائهم إلى الـكفر والضلال .

ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الـكتاب يردوكم بعـد إيمانكم كافرين » ..

وما كان يفزع المسلم ـ حينذاك ـ ما يفزعه أن يرى نفسه منتـكسا إلى الـكفر بعـد الإيمان . وراجماً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة . وهذا شأن المسلم الحق فى كل زمان . ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير ، ويوقظه بشدة لصوت النذير .. ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير .. فياله من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم . ودواعى الإيمان حاضرة ، والدعوة إلى الإيمان قائمة ، ومفرق الطريق بين الـكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور :

« وكيف تـكفرون وأنتم تتلى عليـكم آيات الله وفيـكم رسوله ؟ »

أجل . إنها لـكبيرة أن يكفر المؤمن فى ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان . . وإذا كان

Marfat.com

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى ، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باق . . ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون ، وطريق العصمة بين ، ولواء العصمة مرفوع :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ..

أجل . إنه الاعتصام بالله يعصم . والله سبحانه باق . وهو ـ سبحانه ـ الحى القيوم .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتشدد مع أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فى أمر التلقى فى شأن العقيدة والمنهج ، بقدر ما كان يفسح لهم فى الرأى والتجربة فى شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة ، كشؤون الزرع ، وخطط القتال، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التى لا علاقة لها بالتصور الاعتقادى ، ولا بالنظام الاجتماعى ، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان .. وفرق بين هذا وذلك بين . فمنهج الحياة شىء ، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شىء آخر . والإسلام الذى جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الإسلام الذى وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادى فى نطاق منهجه للحياة ..

قال الإمام أحمد : « حدثنا عبد الرازق ، أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبى ، عن عبد الله ابن ثابت . قال : جاء عمر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله . إنى أمرت بأخ يهودى من بنى قريظة ، فكتب لى جوامع من التوراة . ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عبد الله ابن ثابت : قلت له : ألا ترى ما وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقال عمر : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا . قال : فسرى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ـ عليه السلام ـ ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم . إنكم حظى من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا حماد عن الشعبى عن جابر . قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء . فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق . وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعنى » . . وفى بعض الأحاديث : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى » ..

Marfat.com

هؤلاء هم أهل الكتاب . وهذا هو هدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التلقى عنهم فى أى أمر يختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج . . ولا ضير ـ وفق روح الإسلام وتوجيهه ـ من الانتفاع بجهود البشر كلهم فى غير هذا من العلوم البحتة ، علما وتطبيقا .. مع ربطها بالمنهج الإيمانى : من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للإنسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها فى خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء . وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية . شكره بالعبادة ، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية ..

فأما التلقى عنهم فى التصور الإيمانى ، وفى تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنسانى . وفى منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفى منهج الأخلاق والسلوك أيضاً .. أما التلقى فى شىء من هذا كله ، فهو الذى تغير وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأيسر شىء منه . وهو الذى حذر الله الأمة المسلمة عاقبته ـ وهى الكفر الصراح ..

هذا هو توجيه الله ـ سبحانه ـ وهذا هو هدى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون ، فأرانا نتلقى فى صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين ! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ، ومن الفلاسفة والمفكرين : الإغريق والرومان والأوربيين والأمريكان ! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة ! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن ، الذى انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين . . أى دين . . ثم نزعم ـ والله ـ أننا مسلمون ! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح . فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ . حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون ـ مثلنا ـ أنهم مسلمون !

إن الإسلام منهج . وهو منهج ذو خصائص متميزة : من ناحية التصور الاعتقادى ، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها . ومن ناحية القواعد الأخلاقية ، التى تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها . فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به

Marfat.com

Marfat.com

البشرية . ومما يتناقض مع طبيعة القيادة ـ كما أسلفنا ـ أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتى .

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء . ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً . بل الأمر اليوم ألزم ، والبشرية بمجموعها تعانى من النظم والمناهج التى انتهت إليها ما تعانى . وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهى ، الذى يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كى يؤدى دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى .

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى فى جهادها لتسخير القوى الكونية . وحققت فى عالم الصناعة والطب مايشبه الخوارق ـ بالنسبة للماضى ـ وما تزال فى طريقها إلى انتصارات جديدة .. ولكن ما أثر هذا كله فى حياتها ؟ ماأثره فى حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . . والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق ! . . إنها لم تتقدم كذلك فى تصور غاية الوجودالإنسانى وأهداف الحياة الإنسانية .. وحين تقاس غاية الوجود الإنسانى وأهداف الحياة الإنسانية فى ذهن الرجل المتحضر المعاصر ، إلى التصور الإسلامى فى هذا الجانب ، تبدو هذه الحضارة فى غاية القزامة ! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه فى هذا الوجود ، وتسفل به ، وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه !.. والحواء يأكل قلب البشرية المكدود ، والحيرة تهد روحها المتعبة . . إنها لا تجد الله . . لقد أبعدتها عنه ملابسات نكده . والعلم الذى كان من شأنه،لو سار تحت منهج الله ، أن يجعل من كل انتصار للبشرية فى ميدانه خطوة تقربها من الله ، هو ذاته الذى تبعد به البشرية أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها . . إنها لاتجد النور الذى يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذى منحه الله لها ووهبها الاستعداد له . ولا تجد المنهج الذى ينسق بين حركتها وحركة الكون ، وفطرتها وفطرة الكون ، وقانونها وناموس الكون . ولا تجد النظام الذى ينسق بين طاقاتها وقواها ، وآخرتها ودنياها ، وأفرادها وجماعاتها ، وواجباتها وحقوقها .. تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا ..

وهذه البشرية هى التى يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادى . وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج « رجعية ! » ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ . وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذى يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة ، كما يقود خطاها إلى النمو والرقى .. ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو . إننا نرى واقع البشرية النكد ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذى تتمرغ فيه. ونرى . نرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين فى هجير الصحراء المحرق ، والمرتقى الوضىء النظيف يلوح للغارقين فى المستنقع ؛ ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهى فى طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان ، ولكل معنى من معانى الإنسان !

وأولى الخطوات فى الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم . . كيما يظل المنهج نظيفا سليما . إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى . والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر، الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك!.. وهذا ما أراد الله سبحانه أن يلقنه للجماعة المسلمة الأولى فى كتابه الكريم ؛ وما حرص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلمها إياه فى تعليمه القويم ..

* * *

وبعد هذا التحذير من التلقى عن أهل الكتاب وطاعتهم واتباعهم ينادى الله الجماعة المسلمة ويوجهها إلى القاعدتين الأساسيتين اللتين تقوم عليهما حياتها ومنهجها . واللتين لابد منهما لكى تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التى ناطها الله بها ، وأخرجها للوجود من أجلها . . هاتان القاعدتان المتلازمتان هما : الإيمان . والأخوة .. الإيمان بالله وتقواه ومراقبته فى كل لحظة من لحظات الحياة . والأخوة فى الله ، تلك التى تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم فى الحياة البشرية ، وفى التاريخ الإنسانى : دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإقامة الحياة على أساس المعروف وتطهيرها من لوثة المنكر :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل

Marfat.com

Marfat.com

الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم : إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » ..

إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدى بهما دورها الشاق العظيم .فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه :

ركيزة الإيمان والتقوى أولا .. التقوى التى تبلغ أن ترقى بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة اليقظة التى لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله :

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » ..

اتقوا الله ـ كما يحق له أن يتقى ـ وهى هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدا فى بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب فى هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدّت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع إلى المقام الذى يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

« ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ..

والموت غيب لا يدرى إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما ، وأن يكون فى كل لحظة مسلما . وذكر الإسلام بعد التقوى يشى بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعا لمنهجه ، واحتكاما إلى كتابه . وهو المعنى الذى تقرره السورة كلها فى كل موضع منها ، على نحو ما أسلفنا .

هذه هى الركيزة الأولى التى تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدى دورها . إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعا جاهليا . ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة ،

إنما تكون هناك مناهج جاهلية . ولا تكون هناك قيادة راشدة فى الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية .

فأما الركيزة الثانية فهى ركيزة الأخوة . . الأخوة فى الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ..

فهى أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام . . من الركيزة الأولى . . أساسها الاعتصام بحبل الله ـ أى عهده ونهجه ودينه ـ وليست مجرد تجمع على أى تصور آخر ، ولا على أى هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ..

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى . وهى نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما . وهو هنا يذكرهم هذه النعمة . يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية « أعداء » .. وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد . وهما الحيان العربيان فى يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون فى نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا . ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذى لا تعمل إلا فيه ، ولا تعيش إلا معه . فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام . . وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة . وما كان إلا حبل الله الذى يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخوانا . وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية . ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال . .

« واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » . .

Marfat.com

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم فى إنقاذهم من النـار التى كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله ـ الركيزة الأولى ـ وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ـ الركيزة الثانية ـ :

« وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

والنص القرآنى يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : « القلب » .. فلا يقول : فألف بينكم . إنما ينفذ إلى المكمن العميق : « فألف بين قلوبكم » فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه . بل مشهدا حيا متحركا تتحرك معه القلوب : « وكنتم على شفا حفرة من النار » .. وبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهى تدرك وتنقذ ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم . وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب ! وهو مشهد متحرك حى تتبعه القلوب واجفة خافقة ، وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال !

وقد ذكر محمد بن إسحاق فى السيرة وغيره أن هذه الآية نزلت فى شأن الأوس والخزرج. وذلك أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه ماهم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلا معه ، وأمره أن يجلس بينهم . ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم « بُعاث » ! وتلك الحروب . ففعل . فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم . وطلبوا أسلحتهم . وتوعدوا إلى « الحرّة » .. فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم ، فجعل يسكنهم ، ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضى الله عنهم .

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه فى التعقيب فى الآية :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية فى طريقه . . هذه صورة من ذلك الكيد الذى تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة ، كلما

Marfat.com

Marfat.com

تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب . كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض . وتقطع بينهم حبل الله المتين ، الذى يتآخون فيه مجتمعين . وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها فى هذا السياق .

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة . فهى تشى ـ مع ماقبلها فى السياق وما بعدها ـ بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم فى المدينة ، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل . والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب ، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم ، ومن التفرق كما تفرقوا .. هذه التحذيرات تشى بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود فى المدينة ، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار .. وهو دأب يهود فى كل زمان . وهو عملها اليوم وغدا فى الصف المسلم ، فى كل مكان.

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التى تقوم على هاتين الركيزتين لكى تنهض بها . . هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله فى الأرض ، ولتعلبب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر . . هذه الوظيفة التى من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه ، ووفق منهجه . . فهى التى تقررها الآية التالية :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . .

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . لا بد من سلطة فى الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والذى يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآنى ذاته . فهناك « دعوة » إلى الخير . ولكن هناك كذلك « أمر » بالمعروف . وهناك « نهى » عن المنكر . وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذى سلطان ، فإن « الأمر والنهى » لا يقوم بهما إلا ذو سلطان .

هذا هو تصور الإسلام للمسألة . إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى . . سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهى عن الشر .. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة فى الله . .

سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله فى حياة البشر . . وتحقيق هذا المنهج يقتضى « دعوة » إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هـــذا المنهج . ويقتضى سلطة « تأمر » بالمعروف « وتنهى » عن المنكر . . فتطاع . . والله يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .. فمنهج الله فى الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان . فهذا شطر . أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهى ، على تحقيق المعروف ونفى المنكر من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذى هوى وكل ذى شهوة وكل ذى مصلحة ، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره ، زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب !

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم . وفيهم الحاكم المتسلط . وفيهم الهابط الذى يكره الصعود . وفيهم المسترخى الذى يكره الاشتداد . وفيهم المنحل الذى يكره الجد . وفيهم الظالم الذى يكره العدل . وفيهم المحرف الذى يكره الاستقامة . . وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ، ولا تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفا ، والمنكر منكرا . . وهذا مايقتضى سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى . . وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين : الإيمان بالله والأخوة فى الله . لتقوم على هـذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذى نا له الله بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف . وجعل القيام به شريطة الفلاح . فقال عن الذين ينهضون به :

« وأولئك هم المفلحون » ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهى ذاته . فهذه الجماعة هى الوسط الذى يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق فى صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون

Marfat.com

Marfat.com

على دعوة الخير . المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل . والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم . . عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر . والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة . والحق فيه أقوى من الباطل . والعدل فيه أنفع من الظلم . . فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانا . وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا . . ومن هنا قيمة هذا التجمع . . إنه البيئة التى ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد ، لأن كل ماحوله وكل من حوله يعاونه . والتى لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة ، لأن كل ماحوله يعارضه ويقاومه .

والتصور الإسلامى عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص.. يختلف فى هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا . فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة . لابد له من وسط غير الوسط الجاهلى ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية .

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامى ويعيش له ؛ فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية فى طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتى بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه . وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وحين توجد القوة الغاشمة التى تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله فى الحياة .

هذا الوسط يتمثل فى الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتى الإيمان والأخوة . الإيمان بالله كى يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوّم به كل ما يعرض لها فى الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله فى الأرض . . والأخوة فى الله . كى يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفى فى ظلالهما مشاعر الأثرة ، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار . الإيثار المنطلق فى يسر ، المندفع فى حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح .

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى ـ فى المدينة ـ على هاتين الركيزتين .. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله ـ سبحانه ـ وتَمَثُّلِ صفاته فى الضمائر ؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا فى الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب

الفياض الرائق ، والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق . . وبلغت تلك الجماعة فى ذلك كله مبلغا ، لولا أنه وقع ، لعد من أحلام الحالمين ! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها فى طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة ! وهى قصة وقعت فى هذه الأرض . ولكنها فى طبيعتها من عالم الخلد والجنان !

وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله فى الأرض فى كل زمان ..

ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ؛ وينذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله قبلها ـ من أهل الكتاب ـ ثم تفرقوا واختلفوا ، فنزع الله الراية منهم ، وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية .. فوق ماينتظرهم من العذاب ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه :

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » . .

وهنا يرسم السياق مشهدا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية . . فنحن فى مشهد هول هول لا يتمثل فى ألفاظ ولا فى أوصاف . ولكن يتمثل فى آدميين أحياء . فى وجوه وسمات .. هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة، وهذه وجوه كمدت من الحزن ، واغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة .. وليست مع هذا متروكة إلى ماهى فيه . ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب :

« أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ! » ..

« وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وهكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار .. على طريقة القرآن .

وهكذا يستقر فى ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة .. بالإيمان والائتلاف .

وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل الكتاب ، الذين تحذّر أن تطيعهم.

Marfat.com

كى لا تشاركهم هذا المصير الأليم فى العذاب العظيم . يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه . .

ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيبا قرآنيا يتمشى مع خطوط السورة العريضة ، يتضمن إثبات صدق الوحى والرسالة . وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة . والعدل المطلق فى حكم الله فى الدنيا والآخرة . وملكية الله المفردة لما فى السماوات وما فى الأرض ورجعة الأمر إليه فى كل حال :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلما للعالمين . ولله مافى السماوات ومافى الأرض . وإلى الله ترجع الأمور » ..

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر .. تلك آيات الله وبيناته لعباده : نتلوها عليك بالحق . فهى حق فيما تقرره من مبادئ وقيم ؛ وهى حق فيما تعرضه من مصائر وجزاءات . وهى تتنزل بالحق ممن يملك تنزيلها ؛ وممن له الحق فى تقرير القيم ، وتقرير المصائر ، وتوقيع الجزاءات . وما يريد بها الله أن يوقع بالعباد ظلما . فهو الحكم العدل . وهو المالك لأمر السماوات والأرض . ولكل مافى السماوات ومافى الأرض . وإليه مصير الأمور . إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجرى العدل ، وأن تمضى الأمور بالجد اللائق بجلال الله .. لا كما يدعى أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودات !

* * *

بعدئذ يصف الأمة المسلمة لنفسها ! ليعرفها مكانها وقيمتها وحقيقتها ؛ ثم يصف لها أهل الكتاب ـ ولا يبخسهم قدرهم ، إنما يبين حقيقتهم ويطمعهم فى ثواب الإيمان وخيره ـ ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم . فهم لن يضروهم فى كيدهم لهم وقتالهم ، ولن ينصروا عليهم وللذين كفروا منهم عذاب النار فى الآخرة ، لا ينفعهم فيه ما أنفقوا فى الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ،وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل

Marfat.com

Marfat.com

من الله وحبل من الناس ـ وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين . إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » ..

إن شطر الآية الأولى فى هذه المجموعة يضع على كاهل الجماعة المسلمة فى الأرض واجباً ثقيلا ، بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. » .

إن التعبير بكلمة « أخرجت » المبنى لغير الفاعل ، تعبير يلفت النظر . وهو يكاد يشى باليد المدبرة اللطيفة ، تخرج هذه الأمة إخراجا ؛ وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله . . إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى ، لطيفة لدبيب . حركة تخرج على مسرح الوجود أمة . أمة ذات دور خاص . لها مقام خاص ، ولها حساب خاص :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس » ..

وهذا ما ينبغى أن تدركه الأمة المسلمة ؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هى خير أمة . والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر فى هذه الأرض . ومن ثم لا ينبغى لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية . إنما ينبغى دائماً أن تعطى هذه الأمم مما لديها . وأن يكون لديها دائما ما تعطيه . ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والمعرفة

الجزء الرابع

الصحيحة ، والعلم الصحيح . . هذا واجبها الذى يحتمه عليها مكانها ، وتحتمه عليها غاية وجودها . واجبها أن تكون فى الطليعة دائماً ، وفى مركز القيادة دائماً . ولهذا المركز تبعاته ، فهو لا يؤخذ ادعاء ، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هى أهلاً له . . وهى بتصورها الاعتقادى ، وبنظامها الاجتماعى أهل له . فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمى ، وبعمارتها للأرض ـ قياما بحق الخلافة ـ أهلا له كذلك . . ومن هذا يتبين أن المنهج الذى تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشىء الكثير ؛ ويدفعها إلى السبق فى كل مجال . . لو أنها تتبعه وتلتزم به ، وتدرك مقتضياته وتكاليفه .

وفى أول مقتضيات هذا المكان ، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد . . وأن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فهى خير أمة أخرجت للناس . لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ـ وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . . كلا ! إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر :

« تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . .

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ماوراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل مافى طريقها من أشواك . . إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد . . وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ؛ ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة . .

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفى . فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل . ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس فى جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه . وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقى فى هذا الكون . . ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية .

Marfat.com

ومن الباعث على إرضاء الله وتوقى غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله فى الضمائر ، وسلطان شريعته فى المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك .

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير ، الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يمضوا فى هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه . وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم ، وثقلة المطامع .. وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هى الإيمان . وسندهم هو الله . . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد . وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ . وكل سند غير سند الله ينهار !

وقد سبق فى السياق الأمر التكليفى للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها . ليدلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التى تعرف بها فى المجتمع الإنسانى . فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ مع الإيمان بالله ـ فهى موجودة وهى مسلمة . وإما أن لا تقوم بشىء من هذا فهى غير موجودة ، وغير متحققة فيها صفة الإسلام .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة ، ندعها لمواضعها . وفى السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوجيهاته نقتطف بعضها :

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (١)

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى

---

(١) أخرجه مسلم .

Marfat.com

ابن مريم . . ثم جلس ـ وكان متكئا ـ فقال : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » (١) أى تعطفوهم وتردوهم .

وعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » (٢) .

وعن عرس ابن عميرة الكندى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها »(٣) .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . . (٤)

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سيد الشهداء حمزة . ورجل قام إلى سلطان جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله » (٥) . .

وغيرها كثير . . وكلها تقرر أصالة هذه السمة فى المجتمع المسلم ، وضرورتها لهذا المجتمع أيضا . وهى تحتوى مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة . وهى إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته(٦) .

ثم نعود إلى الشطر الآخر من الآية الأولى فى هذه المجموعة . .

« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ..

وهو ترغيب لأهل الكتاب فى الإيمان . فهو خير لهم . خير لهم فى هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلهلة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية ، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى .
(٢) أخرجه الترمذى .
(٣) أخرجه أبو داود .
(٤) أخرجه أبو داود والترمذى .
(٥) رواه الحاكم والضياء عن جابر رضى الله عنه .
(٦) يراجع بتوسع كتاب : «قبسات من الرسول» لمحمد قطب . فصل: « قبل أن تدعوا فلا أجيب» .

Marfat.com

إذ تعجز هـذه التصورات عن أن تـكون قاعدة للنظام الاجتماعى لحياتهم ، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية ـ من ثم ـ على غير أساس، عرجاء أو معلقة فى الهواء كـكل نظام اجتماعى لا يقوم على أساس اعتقادى شامل ، وعلى تفسير كامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنسانى ، ومقـام الإنسان فى هذا الـكون . . وخير لهم فى الآخرة يقينهم ماينتظر غير المؤمنين من مصير .

ثم هو بيان كذلك لحالهم ، لا يبخس الصالحين منهم حقهم :

« منهم المؤمنون وأ كثرهم الفاسقون » ..

وقد آمن من أهل الـكتاب جماعة وحسن إسلامهم . منهم عبد الله بن سلام ، وأسد ابن عبيد ، وثعلبة ابن شعبة ، وكعب بن مالك .. وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال ـ وفى آية تالية بالتفصيل ـ أما الأ كثرون فقد فسقوا عن دين الله ، حين لم ينوا بميثاق الله مع النبيين : أن يؤمن كل منهم بأخيه الذى يجىء بعده ، وأن ينصره . وفسقوا عن دين الله وهم يأبون الاستسلام لإرادته فى إرسال آخر الرسل من غير بنى إسرائيل ، واتباع هذا الرسول وطاعته والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله ، أرادها للناس أجمعين .

ولما كان بعض المسلمين مايزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينـة ، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة : عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين ، فقد تـكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين ، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم ، وتفرقهم شيعا وفرقا ، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة .

«لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل من الله وحبل من النـاس ـ وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبيـاء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة ، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء ، وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين :

« لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » ..

فلن يكون ضررا عميقـا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة ، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة

Marfat.com

Marfat.com

المسلمة ، ولن يجليها من الأرض . . إنمـا هو الأذى العارض فى الصدام ، والألم الذاهب مع الأيام .. فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال ، فالهزيمةمكتوبة عليهم ـ فى النهاية ـ والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين .. ذلك أنه قد « ضربت عليهم الذلة » وكتبتلهم مصيرا . فهم فى كل أرض يذلون ، لا تعصمهم إلا ذمـة الله وذمـة المسلمين ـ حين يدخـلون فى ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقهـا ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة ـ ولم تعرف يهود منذ ذلك الحين الأمن إلا فى ذمة المسلمين . ولـكن يهود لم تعادِ أحـدا فى الأرض عداءها للمسلمين ! . . « وباءوا بغضب من الله » .. كأنمـا رجعوا من رحلتهم يحملون هـذا الغضب . « وضربت عليهم المسكنة » تعيش فى ضمائرهم وتـكمن فى مشاعرهم ..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الـكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ماحافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم ، وأقاموا منهج الله فى حياتهم ـ وكتب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم .

ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المـكتوب على يهود . فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم ، مهما تكن دعواهم فى الدين : إنه المعصية والاعتداء :

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بمـا عصوا وكانوا يعتدون » .

فالـكفر بآيات الله ـ سواء بإنـكارها أصلا ، أو عدم الاحتـكام إليها وتنفيـذها فى واقع الحياة ـ وقتل الأنبياء بغير حق . وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس كماجاء فى آية أخرى فى السورة ـ والعصيان والاعتداء ..هذه هى المؤهلات لغضب الله . وللهزيمة والذلة والمسكنة.. وهذه هى المؤهلات التى تتوافر اليوم فى البقايا الشاردة فى الأرض من ذرارى المسلمين . الذين يسمون أنفسهم ـ بغير حق ـ مسلمين ! هذه هى المؤهلات التى يتقدمون بها إلى ربهم اليوم ، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة. فإذا قال أحدهم:

لماذا نغلب فى الأرض ونحن مسلمون ؟ فلينظر قبل أن يقولها : ما هو الإسلام ، ومن هم المسلمون ؟ ! ثم يقول !

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود السياق عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء . فهناك المؤمنون . يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين . ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين .

« ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات. وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » ..

وهى صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيمانا صادقاً عميقاً ، وكاملا شاملا ، وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين .. آمنوا بالله واليوم الآخر .. وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها ـ خير أمة أخرجت للناس ـ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .. وقد رغبت نفوسهم فى الخير جملة ، فجعلوه الهدف الذى يسابقون فيه ، فسارعوا فى الخيرات ، ومن ثم هذه الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين . وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقا ، ولن يُكفروا أجرا . مع الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ علم أنهم من المتقين ..

وهى صورة تُرفع أمام الراغبين فى هذه الشهادة ، وفى هذا الوعد ، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضىء فى أفقها المنير .

هذا فى جانب .. وفى الجانب الآخر ، الكافرون . الكافرون الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ؛ ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شىء منها فى الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم . الخير المنبثق من الإيمان بالله ، على تصور واضح ، وهدف ثابت ، وطريق موصول . وإلا فالخير نزوة عارضة لاثبات لها ، وجنوح يصرّفه الهوى ، ولا يرجع إلى أصل واضح مدرك مفهوم ، ولا إلى منهج كامل شامل مستقيم ..

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ، أصابت حرث قوم

Marfat.com

ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » ..

وهكذا ترتسم هذه الحقيقة فى مشهد ينبض بالحركة ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآنى الجميل ..

إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار .. وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك ، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيرا . فلا خير إلا أن يكون موصولا بالإيمان ، ونابعا من الإيمان . ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر . إنما يرسم مشهدا حيا نابضا بالحياة ..

إننا ننظر فإذا نحن أمام حقل قد تهيأ للإحصاب . فهو حرث . ثم إذا العاصفة تهب . إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة ! تحرق هذا الحرث بما فيها من صِرّ . واللفظة ذاتها كأنها مقذوف بلقى بعنف ، فيصور معناه بجرسه النفاذ . وإذا الحرث كله مدمر خراب !

إنها لحظة يتم فيها كل شىء . يتم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب ! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى هذه الدنيا ـ ولو كان ينفق فيما ظاهره الخير والبر ـ ومثل ما بأيديهم من نعم الأولاد والأموال . . كلها إلى هلاك وفناء . دون ما متاع حقيقى ودون ما جزاء ..

« وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

فهم الذين تنكبوا المنهج الذى يجمع مفردات الخير والبر ، فيجعلها خطا مستقيما ثابتاً واصلا . له هدف مرسوم ، وله دافع مفهوم ، وله طريق معلوم .. فلا يترك للنزوة العارضة ، والرغبة الغامضة ، والفلتة التى لا ترجع إلى منهج ثابت مستقيم ..

هم الذين اختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والانفلات من عصمة الحبل الممدود . فإذا ذهب عملهم كله هباء ـ حتى ما ينفقونه فيما ظاهره الخير ـ وإذا أصاب حرثهم كله الدمار ، فلم يغن عنهم مال ولا ولد .. فما فى هذا ظلم من الله ـ تعالى ـ لهم . إنما هو ظلمهم لأنفسهم بما اختاروه لأنفسهم من تنكب وشرود .

وهكذا يتقرر أن لاجزاء على بذل وأن لاقيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان ـ إلا أن يكون باعثه الإيمان .. يقول الله هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ؛ ولا يجادل فى هذا

Marfat.com

القرار إلا الذين يجادلون فى آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ..

* * *

وفى نهاية الدرس الذى ابتدأ بيانا لما فى سلوك أهل الكتاب من انحراف ، وكشفا لما فى جدالهم من مغالطة ، وفضحا لما يريدونه بالمسلمين من سوء ، وتوجيها للجماعة المسلمة لتنهض بتكاليفها ، دون أن تلقى بالا إلى المجادلين المنحرفين الفاسقين .. فى نهاية هذا الدرس، ونهاية هذا المقطع الطويل من السورة كلها يجىء التحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها الطبيعيين بطانة ،وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا عدو.. يجىء هذا التحذير فى صورة شاملة خالدة، ما نزال نرى مصداقها فى كل وقت، وفى كل أرض. صورة رسمها هذا القرآن الحى ، فغفل عنها أهل هذا القرآن . فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم ،إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط » ..

إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة ، والانفعالات الظاهرة ، والحركة الذاهبة الآيبة . وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرورا فى كل زمان وفى كل مكان . ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء . يتظاهرون للمسلمين ـ فى ساعة قوة المسلمين وغلبتهم ـ بالمودة . فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة . وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون فى إعنات المسلمين ونثر الشوك فى طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ماواتتهم الفرصة فى ليل أو نهار .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

ومامن شك أن هذه الصورة التى رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب ،كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين فى المدينة ؛ وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذى كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشر المبيت ، وللنوايا السيئة التى تجيش فى صدورهم ؛ فى الوقت الذى كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا فى أعداء الله هؤلاء ، وما يزال يفضى إليهم بالمودة ، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ؛ ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار . . فجاء هذا التنوير ، وهذا التحذير ، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر ، ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين ، الذين لا يخلصون لها أبداً ، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة . ولم يجىء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، تواجه واقعاً دائماً.. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود ..

والمسلمون فى غفلة عن أمر ربهم : ألا يتخذوا بطانة من دونهم . بطانة من ناس هم دونهم فى الحقيقة والمنهج والوسيلة .وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة .. المسلمون فى غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعا فى كل أمر ، وكلِ شأن ، وكل وضع ، وكل نظام ، وكل تصور ، وكل منهج ، وكل طريق !

والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم ، يوادون من حاد الله ورسوله ؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم . والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة فى أى جيل :

« ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » ..

والله سبحانه يقول :

« هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » ..

والله سبحانه يقول :

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » ..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن

Marfat.com

المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر . ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء فى الحياة والطريق ! . . وتبلغ بنا المجاملة ، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم فى عقيدتنا فنتحاشى ذكرها ، وفى منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام ، وفى تزوير تاريخنا وطمس معالمه كى نتقى فيه ذكر أى صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين ! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله . ومن هنا نذل ونضعف ونستخذى . ومن هنا نلقى العنت الذى يوده أعداؤنا لنا ، ونلقى الخبال الذى يدسونه فى صفوفنا ..

وهاهو ذا كتاب الله يعلمنا ـ كما علم الجماعة المسلمة الأولى ـ كيف نتقى كيدهم ، وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ :

« وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط » ..

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء ؛ وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع . الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل ؛ ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول .. ثم هو التقوى: الخوف من الله وحده. ومراقبته وحده .. هو تقوى الله التى تربط القلوب بالله ، فلا تلتقى مع أحد إلا فى منهجه ، ولا تعتصم بحبل إلا حبله .. وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته ؛ وستشد هذه الرابطة من عزمته ، فلا يستسلم من قريب ، ولا يواد من حاد الله ورسوله ، طلبا للنجاة أو كسبا للعزة !

هذا هو الطريق : الصبر والتقوى .. التماسك والاعتصام بحبل الله . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة الله وحدها ، وحققوا منهج الله فى حياتهم كلها .. إلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وكانت كلمتهم هى العليا . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين ، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سرا وجهرا ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعوانا وخبراء ومستشارين . إلا كتب الله عليهم

المزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم ، وأذاقهم وبال أمرهم .. والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ؛ وأن سنة الله نافذة . فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان ..

* * *

بهذا ينتهى هذا الدرس ؛ وينتهى كذلك المقطع الأول فى السورة . وقد وصل السياق إلى ذروة المعركة ؛ وقمة المفاصلة الكاملة الشاملة .

ويحسن قبل أن ننهى هذا الدرس أن نقرر حقيقة أخرى ، عن سماحة الإسلام فى وجه كل هذا العداء . فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء . ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها . إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم ، وللكينونة المسلمة .. مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذى يحيطها به الآخرون .. أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا ؛ وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعا ؛ وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعا ؛ يتقى الكيد ولكنه لا يكيد ، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد . إلا أن يحارَب فى دينه ، وأن يفتن فى عقيدته ، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه . فحينئذ هو مطالب أن يحارب ، وأن يمنع الفتنة ، وأن يزيل العقبات التى تصد الناس عن سبيل الله ، وعن تحقيق منهجه فى الحياة . يحارب جهادا فى سبيل الله لا انتقاما لذاته . وحبا لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه . وتحطيما للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس . لا حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال .. وإقامة للنظام القويم الذى يستمتع الجميع فى ظله بالعدل والسلام . لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية !

هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة ؛ ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى ، وهى تعمل فى الأرض وفق هذه النصوص .

إن هذا المنهج خير . وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية . الذين ينبغى لها أن تطاردهم ، حتى تقصيهم عن قيادتها .. وهذا هو الواجب الذى انتدبت له الجماعة المسلمة ،

Marfat.com

فأدته مرة خير ما يكون الأداء . وهى مدعوة دائما إلى أدائه ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.. تحت هذا اللواء ..

« وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ، وَٱللهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ؟* بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ، وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ - وَمَنْ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللهُ ؟ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

Marfat.com

يَعْلَمُونَ * أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ ؟ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ .

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِى ٱللهُ ٱلشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى ٱلشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا ، وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ ٱللهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ، وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ ٱللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ ، وَبِئْسَ

Marfat.com

مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ : مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ : هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ؟ قُلْ : إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ . يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا . قُل : لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ ٱللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَٱللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا ٱللهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى : لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ ٱللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَٱللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ ، إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا

Marfat.com

Marfat.com

ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ؟ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ؟ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللهِ ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١٦﴾

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّىٰ هَٰذَا ؟ ! قُلْ : هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللهِ ، وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَوِ ٱدْفَعُوا . قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا تَّبَعْنَاكُمْ . هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ : فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ، وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللهِ ، وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ .

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

« وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ﴿١٧٩﴾

من معركة الجدل والمناظرة ، والبيان والتنوير ، والتوجيه والتحذير ـ فيما سبق من السورة ـ ينتقل السياق إلى المعركة فى الميدان .. معركة أحد ..

وغزوة أحد لم تكن معركة فى الميدان وحده ؛ إنما كانت معركة كذلك فى الضمير .. كانت معركة ميدانها أوسع الميادين . لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانبا واحدا من ميدانها الهائل الذى دارت فيه .. ميدان النفس البشرية ،وتصوراتها ومشاعرها ، وأطماعها وشهواتها، ودوافعها وكوابحها ، على العموم . . وكان القرآن هناك . يعالج هذه النفس بألطف وأعمق ، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم فى النزال !

وكان النصر أولا ، وكانت الهزيمة ثانيا ، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة .. انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التى جلاها القرآن ؛ واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين . وتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، وانطلاق الجماعة المسلمة ـ بعد ذلك ـ متحررة من كثير من غبش التصور ، وتميع القيم ، وتأرجح المشاعر ، فى الصف المسلم . وذلك بتميز المنافقين فى الصف إلى حد كبير ، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق ، فى القول والفعل ، وفى الشعور والسلوك . ووضوح تكاليف الإيمان ، وتكاليف الدعوة إليه ، والحركة به ، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة ، والاستعداد بالتجرد ، والاستعداد

Marfat.com

بالتنظيم ، والتزام الطاعة والاتباع بعد هـذا كله ، والتوكل على الله وحده ، فى كل خطوة من خطوات الطريق ، ورد الأمر إلى الله وحده فى النصر والهزيمة ، وفى الموت والحياة ، وفى كل أمر وفى كل اتجاه .

وكانت هـذه الحصيلة الضخمة التى استقرت فى الجماعة المسلمة من وراء الأحداث ، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث ، أكبر وأخطر ـ بما لا يقـاس ـ من حصيلة النصر والغنيمة . . لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة .. وقد كانت الجمـاعة المسلمة إذ ذاك أحوج ماتـكون لهذه الحصيلة الضخمة . . كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة . وكان الرصيد الباقى منهـا للأمة المسلمة فى كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة . وكان تدبير الله العلوى من وراء مابدا فى الموقعة من ظواهر النقص والضعف والتميع والغبش فى الصف المسلم ، ومن وراء الهزيمة التى نشأت عن هذه الظواهر . . كان تدبير الله العلوى من وراء هذا الذى وقع وفق سنة الله الجارية ، حسب أسبابه الطبيعية الظاهرة ، تدبيرا كله الخير للجماعة المسلمة فى ذلك الحين ، لتنال هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتربية ، والوعى والنضج ، والتمحيص والتميز ، والتنسيق والتنظيم . وليبقى للأمة المسلمة فى أجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات التى لا تقدر بثمن . ولو كان هـذا الثمن هو النصر والغنيمة !

لقد انتهت المعركة فى ميدان الأرض ، ليبدأها القرآن فى ميدانها الأكبر : ميدان النفس ، وميدان الحياة الشاملة للجماعة المسلمة . وصنع بهذه الجماعة ما تصنعه يد الله ، عن علم وعن حكمة ، وعن خبرة ، وعن بصيرة . وكان ماشاءه الله وما دبره . وكان فيه الخير العظيم ، من وراء الضر والأذى والابتلاء الشاق المرير .

ولعل مما يلفت النظر فى التعقيب القرآنى على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدها ووقائعها ، والتوجيهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع . . وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس ، وتخليصها من غبش التصور ، وتحريرها من ربقة الشهوات ، وثقلة المطـامع ، وظلام الأحقاد ، وظلمة الخطيئة ، وضعف الحرص والشح . والرغبات الدفينة .

Marfat.com

ولعل مما يلفت النظر أكثر ، الـكلام ـ فى صدد التعقيب على معركة حربية ـ عن الربا والنهى عنه ، وعن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية فى النتائج السيئة للمعركة !

ثم .. سعة المساحة التى يعمل فيها المنهج القرآنى فى النفس البشرية ، وفى الحياة الإنسانية ، وتعدد نقط الحركة فيها ، وتداخلها ، وتكاملها العجيب ..

ولـكن الذين يدركون طبيعة هـذا المنهج الربانى لا يعجبون لشىء من ذلك الازدواج وهذه السعة ، وهذا التداخل ، وهذا التـكامل . فالمعركه الحربية فى الحركة الإسلامية ليست معركة أسلحة وخيل ورجال وعدة وعتاد ، وتدبير حربى فحسب .. فهذه المعركة الجزئيـة ليست منعزلة عن المعركة الـكبرى فى عالم الضمير ، وعالم التنظيم الاجتماعى للجماعة المسلمة .. إنها ذات ارتباط وثيـق بصفاء ذلك الضمير ، وخلوصه ، وتجرده ، وتحرره من الأوهاق والقيود التى تطمس على شفافيته ، وتقعد به دون الفرار إلى الله ! وكذلك هى ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التى تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة ، وفق منهج الله القويم . المنهج الذى يقوم على الشورى فى الحياة كلها ـ لا فى نظام الحـكم وحده ـ وعلى النظام التعاونى لا النظام الربوى . والتعاون والربا لا يجتمعان فى نظام !

والقرآن كان يعالج الجماعة المسلمة ، على إثر معركة لم تـكن ـ كما قلنا ـ معركة فى ميدان القتال وحده . إنما كانت معركة فى الميدان الأكبر . ميدان النفس البشرية ، وميدان الحياة الواقعية .. ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ؛ وعوج على الإنفاق فى السراء والضراء فحض عليه ؛ وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ؛ وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس ، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار ، والتوبة وعدم الإصرار ؛ فجعلها كلها مناط الرضوان . كما عرج على رحمة الله المتمثلة فى رحمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولين قلبه للناس . وعلى مبدأ الشورى وتقريره فى أحرج الأوقات . وعلى الأمانة التى تمنع الغلول . وعلى البذل والتحذير من البخل فى نهاية ما نزل فى التعقيب على الغزوة من آيات ..

عرج على هذا كله . لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة فى نطاقها الواسع ؛ الذى يتضمن المعركة الحربية فى إطاره ولا يقتصر عليها . معركة التعبئة الـكاملة للانتصار الـكبير .

Marfat.com

Marfat.com

الانتصار على النفس والشهوات والمطامع والأحقاد ، والانتصار فى تقرير القيم والأوضاع السليمة لحياة الجماعة الشاملة .

وعرج على هذا كله ليشير إلى وحدة هذه العقيدة فى مواجهة الكينونة البشرية ونشاطها كله . ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله ، والعبودية له ، والتوجه إليه فى حساسية وتقوى . وإلى وحدة منهج الله فى الهيمنة على الكينونة البشرية كلها، فى كل حال من أحوالها. وإلى الترابط بين جميع هذه الأحوال فى ظل هذا المنهج . وإلى وحدة النتائج النهائية للنشاط الإنسانى كله ، وتأثير كل حركة من حركات النفس ، وكل جزئية من جزئيات التنظيم فى هذه النتائج النهائية .

وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة . فالنفس لا تنتصر فى المعركة الحربية إلا حين تنتصر فى المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية ، والذين تولوا يوم التقى الجمعان فى «أحد» إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب . والذين انتصروا فى معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب ، والالتجاء إلى الله ، والالتصاق بركنه الركين . والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله ، والرجوع إلى كنفه من عدة النصر ، وليست بمعزل عن الميدان ! واطراح النظام الربوى إلى النظام التعاونى من عدة النصر ؛ والمجتمع التعاونى أقرب إلى النصر من المجتمع الربوى . وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر ، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة ، والتضامن والتواد فى المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك .

كذلك كان من الحقائق التى اتكأ عليها السياق من بدئه إلى نهايته .. حقيقة قدر الله . ورد الأمر إليه جملة . وتصحيح التصور فى هذه النقطة تصحيحا حاسما جازما . وفى الوقت ذاته تقرير سنة الله فى ترتيب العواقب التى تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم ، وخطئهم وإصابتهم ، وطاعتهم ومعصيتهم ، وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه . واعتبارهم بعد هذا كله ستارا للقدرة ، وأداة للمشيئة ، وقدرا من قدر الله يحقق به مايشاء سبحانه .

ثم .. فى النهاية .. إشعار الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شىء . إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره ، من خلال جهادها . وأجرها هى على الله . وليس لها من ثمار النصر شىء من

Marfat.com

أشياء هذه الأرض . ولا لحسابها الخاص يؤتيها الله النصر إذ يشاء . إنما لحساب الأهداف العليا التى يشاؤها الله . وكذلك الهزيمة . فإنها حين تقع بناء على جريان سنـة الله ، وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير وتفريط ، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه ؛ لتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، وتجليـة الحقائق ، وإقرار القيم ، وإقامة الموازين ، وجلاء السنن المستبصرين ..

ولا قيمـة ولا وزن فى نظر الإسلام للانتصار العسكرى أو السياسى أو الاقتصـادى ؛ مالم يقم هذا كله على أساس المنهج الربانى ، فى الانتصار على النفس ، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة . وتقرير الحق الذى أراده الله فى حياة الناس . ليـكون كل نصر نصراً لله ولمنهج الله . وليـكون كل جهد فى سبيل الله ومنهج الله . وإلا فهى جاهلية تنتصر على جاهليـة . ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية . إنمـا الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق . والحق واحد لا يتعدد . إنه منهج الله وحده . ولا حق فى هذا الـكون غيره . وانتصاره لايتم حتى يتم أولا فى ميدان النفس البشرية . وفى نظام الحياة الواقعية . وحين تخلص النفس من حظ ذاتها فى ذاتها ، ومن مطامعها وشهواتها ، ومن أدرانها وأحقادها ، ومن قيودها وأصفادها . وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق . وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها ، لتـكل الأمر كله إلى الله ، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة . وحين تحكم منهج الله فى الأمر كله ، وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها .. حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار فى المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصارا . فى ميزان الله . وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية ، الذى لاوزن له عند الله ولا قيمة !

ومن ثم كان ذلك الازدواج ، وكان ذلك الشمول ، فى التعقيب على المعركة التى دارت يوم أحد ، فى ذلك الميدان الفسيح ، الذى يعد ميدان القتال جانبا واحدا من جوانبه الـكثيرة.

* * *

وقبل أن نأخذ فى استعراض ذلك التعقيب القرآنى على أحداث المعركة يحسن أن نلخص وقائعها كما وردت فى روايات السيرة ؛ لندرك مواضع التعقيب والتوجيه حق الإدراك ، ولنراقب طريقة التربية الإلهية بالقرآن الـكريم ، فى تناول الوقائع والأحداث :

كان المسلمون قد انتصروا فى بدر ، ذلك الانتصار الكامل ، الذى تبدو فيه ـ فى ظل الظروف التى وقع فيها ـ رائحة المعجزة . وقد قتل الله بأيديهم أئمة الكفر ورءوسه من قريش . فرأس فى قريش أبو سفيان ابن حرب ـ بعد ذهاب أشرافهم فى بدر ـ فأخذ يؤلب على المسلمين لأخذ الثأر . وكانت القافلة التى تحمل متاجر قريش قد نجت فلم تقع فى أيدى المسلمين؛ فتآمر المشركون على رصد ما فيها من أموال لحرب المسلمين .

وقد جمع أبو سفيان قريباً من ثلاثة آلاف من قريش وأحلافهم والأحابيش[1] وخرج بهم فى شوال من السنة الثالثة للهجرة ؛ وجاءوا معهم بنسائهم ليحاموا عنهن ولايفروا . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريبا من جبل أحد .

واستشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه : أيخرج إليهم ، أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ؛ فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت[2] . ووافقه على هذا الرأى عبد الله ابن أبى (رأس المنافقين) فبادرت جماعة كبيرة من الصحابة ـ ومعظمهم من الشبان ممن فاتهم يوم بدر ـ فأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه فى ذلك . حتى بدا أن هذا هو الرأى السائد فى الجماعة . فنهض ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل بيته ـ بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولبس لأمته ، وخرج عليهم ، وقد انثنى عزم أولئك. وقالوا : أكرهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخروج! فقالوا : يا رسول الله ، إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .. وألقى عليهم بذلك درسا نبويا عاليا ؛ فللشورى وقتها حتى إذا انتهت جاء وقت العزم والمضى والتوكل على الله . ولم يعد هناك مجال للتردد ، وإعادة الشورى والتأرجح بين الآراء ..إنما تمضى الأمور لغاياتها ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ..

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رأى فى منامه : أن فى سيفه ثلمة ، ورأى أن

---

(١) هم من الأعراب . وقد سموا كذلك لتحالفهم إلى جوار مكان يقال له : الأحبش .
(٢) اعتمدنا فى تقرير أن هذا كان رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما قرره الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه : زاد المعاد .

Marfat.com

Marfat.com

بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده فى درع حصينة .. فتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته . وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة .. وكان إذن يرى عاقبة المعركة . ولكنه فى الوقت ذاته كان يُمضى نظام الشورى ، ونظام الحركة بعد الشورى . . لقد كان يربى أمة . والأمم تربى بالأحداث ، وبرصيد التجارب الذى تتمخض عنه الأحداث .. ثم لقد كان يُمضى قدر الله ، الذى تستقر عليه مشاعره ، ويستقر عليه قلبه ، فيمضى وفق مواقع هذا القدر ، كما يحسها فى قلبه الموصول ..

وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة ، فلما صار بين المدينة وأحد ، انعزل رأس النفاق : عبد الله ابن أبى بنحو ثلث العسكر . وقال : يخالفنى ويسمع للفتية ! فتبعهم عبد الله ابن عمرو ابن حرام ـ والد جابر ابن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ يوبخهم ويحضهم على الرجوع . ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع ! فرجع عنهم وسبهم .

وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود . . فأبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالمعركة هى معركة الإيمان والكفر فماليهود بها ؟ والنصر من عند الله ـ حين يصح التوكل عليه وتتجرد القلوب له ـ وقال : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ؟ » فخرج به بعض الأنصار حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى ، وجعل ظهره إلى أحد ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما أصبح تعبأ للقتال فى سبعمئة ، فيهم خمسون فارسا ، واستعمل على الرماة ـ وكانوا خمسين ـ عبد الله ابن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم ، وألا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر . وكانوا خلف الجيش . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

وظاهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين درعين . وأعطى اللواء مصعب ابن عمير . وجعل على إحدى المجنبتين الزبير ابن العوام ، وعلى الأخرى المنذر ابن عمرو . واستعرض الشبان يومئذ ، فرد من استصغره عن القتال . وكان منهم عبدالله ابن عمرو ، وأسامة ابن زيد ،

وأسيد ابن ظهير ، والبراء ابن عازب ، وزيد ابن أرقم ، وزيد ابن ثابت ، وعرابة ابن أوس ، وعمرو ابن حزام . وأجاز من رآه مطيقا . وكان منهم سمرة ابن جندب ، ورافع ابن خديج ، ولهما خمس عشرة سنة !

وتعبأت قريش للقتال وهم فى ثلاثة آلاف . وفيهم مئتا فارس . فجعلوا على ميمنتهم خالد ابن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبى جهل .

ودفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيفه إلى أبى دجانة سماك ابن خرشة . وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب .

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق . وكان يسمى « الراهب » فسماه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الفاسق » . وكان رأس الأوس فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحضهم على قتاله . ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقى المسلمين . فنادى قومه ، وتعرف إليهم . فقالوا له : لا أنعم الله بك عينا يافاسق ! فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ! ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا .

ولما نشب القتال أبلى أبو دجانة الأنصارى بلاء حسنا . هو وطلحة ابن عبيد الله ، وحمزة ابن عبد المطلب ، وعلى ابن أبى طالب ، والنضر ابن أنس ، وسعد ابن الربيع ..

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار؛ حيث قتل من هؤلاء سبعون من صناديدهم. وانهزم أعداء الله وولوا مدبرين . حتى انتهوا إلى نسائهم . وحتى شمرت النساء ثيابهن عن أرجلهن هاربات !

فلما رأى الرماة هزيمة المشركين وانكشافهم ، تركوا مراكزهم التى أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يبرحوها . وقالوا : ياقوم ، الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ! فذهبوا فى طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر فى أحد !

Marfat.com

عندئذ أدركها خالد ، فكرّ فى خيل المشركين ، فوجدوا الثغر خاليا فاحتلوه من خلف ظهور المسلمين . وأقبل المنهزمون من المشركين حين رأوا خالدا والفرسان قد علوا المسلمين ، أحاطوا بهم !

وانقلبت المعركة ، فدارت الدائرة على المسلمين ، ووقع الهرج والمرج فى الصف ، واستولى الاضطراب والذعر ، لهول المفاجأة التى لم يتوقعها أحد . وكثر القتل واستشهد من المسلمين من كتب الله له الشهادة . وخلص المشركون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أفرد إلا من نفر يعدون على الأصابع قاتلوا عنه حتى قتلوا . وقد جرح وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكسرت سنه الرباعية اليمنى فى الفك الأسفل . وهشمت البيضة على رأسه . ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه ، وسقط فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطاها ! يكيد بها المسلمين . وغاصت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته .

وفى وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين صاح صائح : إن محمدا قتل . . فكانت الطامة التى هدت مابقى من قواهم ، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة منكرة لا يحاولون قتالا ، مما أصابهم من اليأس والكلال !

ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس ابن النضر ـ رضى الله عنه ـ وقد انتهى إلى عمر ابن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم ! فقال : مايجلسكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل المشركين ولقى سعد ابن معاذ فقال : ياسعد واها لريح الجنة إنى أجدها من دون أحد ! فقاتل حتى قتل . . ووجد به بضع وسبعون ضربة . ولم تعرفه إلا أخته . عرفته ببنانه ..

وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو المسلمين . وكان أول من عرفه تحت المغفر، كعب ابن مالك . فصاح بأعلى صوته : يامعشر المسلمين . أبشروا . هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأشار بيده : أن اسكت . واجتمع إليه المسلمون . ونهضوا معه إلى الشعب. وفيهم أبو بكر وعمر والحارث ابن الصمة الأنصارى وغيرهم . . فلما امتدوا صعودا فى الجبل أدرك

Marfat.com

Marfat.com

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبى ابن خلف على جواد له اسمه العود . كان يطعمه فى مكة ويقول : أقتل عليه محمدا . فلما سمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بل أنا أقتله إن شاء الله .. فلما أدركه تناول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحربة من الحارث وطعن بها عدو الله فى ترقوته . فذهب يخور كالثور . وقد أيقن أنه مقتول . كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل ! ومات بالفعل فى طريق عودته !

وأشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتجيبوه . فقال أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر ابن الخطاب ؟ فلم يجيبوه. ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة . فقال : مخاطبا قومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر ـ رضى الله عنه ـ نفسه أن قال : ياعدو الله . إن الذين ذكرتهم أحياء . وقد أبقى الله لك مايسوؤك ! فقال : قد كان فى القوم مثلة ، لم آمر بها ولم تسؤنى ! (يشير بذلك إلى ماصنعته زوجه هند بجثمان حمزة ـ رضى الله عنه ـ بعد أن قتله وحشى . حين بقرت بطنه ، واستخرجت كبده . فلاكتها ثم لفظتها !)

ثم قال : اعلُ هُبل ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تجيبونه ؟ قالوا : بماذا نجيبه ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل.قال : لنا العزى ولا عزى لكم ! قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تجيبونه ؟ قالوا : بماذا نجيبه ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .. قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ لاسواء . قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

ولما انقضت المعركة انصرف المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لسبى الذرارى وإحراز الأموال . فشق ذلك عليهم . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ « اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون . فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . فوالذى نفسى بيده لو أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها » ..

قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون . فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة .

فلما كانوا فى بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم: لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم . فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . . فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنادى فى الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم وقال : « لا يخرج معنا إلا من شهد القتال . فقال له عبدالله ابن أبى : أركب معك قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ؛ وقالوا : سمعا وطاعة . واستأذنه جابر ابن عبد الله . وقال : يارسول الله إنى أحب ألا تشهد مشهدا إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته يوم أحد ، فأذن لى أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد وأقبل معبد ابن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمره أن يلحق بأبى سفيان فيخذّله ، فلحقه بالروحاء ، ولم يعلم بإسلامه ، فقال : وما وراءك يامعبد ؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا فى جمع لم يخرجوا فى مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ماتقول ؟ فقال : ماأرى أن ترتحل حتى يطلع الجيش وراء هذه الأكمة ! فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال : فلا تفعل فإنى لك ناصح ! فرجعوا على أعقابهم إلى مكة .

ولقى أبو سفيان بعض المشركين يريدون المدينة ؛ فقال : هل لك أن تبلغ محمدا رسالة ، وأوقر لك راحلتك زبيبا إذا أتيت إلى مكة ؟ قال : نعم . قال : أبلغ محمدا أنا قد جمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه . فلما بلغهم قوله قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . ولم يفت ذلك فى عضدهم . وأقاموا ثلاثة أيام ينتظرون . ثم عرفوا أن المشركين أبعدوا فى طريقهم إلى مكة منصرفين . فعادوا إلى المدينة . .

* * *

وبعد فإن هذا الملخص لأحداث الغزوة لا يصور كل جوانبها ، ولا يسجل كل ما وقع فيها، إنما هو موضع المثل والعبرة . . ومن ثم نذكر بعض الوقائع الموحية ، تكملة لرسم الجو واستحيائه :

كان عمرو ابن قميئة من المشركين الذين خلصوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

أفرد فى فترة اضطراب المعركة ، عقب تخلى الرماة عن أماكنهم ، وإحاطة الكفار بالمسلمين ، والصيحة بأن محمدا قتل ، وما صنعته فى صفوف المسلمين وعزائمهم .

وفى هذه الغمرة التى يطيش فيها الحليم كانت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تقاتل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتالا شديدا . وقد ضربت عمر ابن قميئة بسيفها ضربات عدة ، ولكن وقته درعان كانتا عليه . وضربها هو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها..

وكان أبو دجانة يترّس بظهره على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبل يقع فيه ، وهو لا يتحرك ، ولا يكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان طلحة ابن عبيد الله يثوب سريعا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقف دونه وحده ، حتى يصرع . . فى صحيح ابن حبان عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد ، انصرف الناس كلهم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكنت أول من فاء إلى النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه . قلت : كن طلحة ! فداك أبى وأمى ! كن طلحة ! فداك أبى وأمى ! فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة ابن الجراح . وإذا هو يشتد كأنه طير ، حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا طلحة بين يديه صريعا . فقال صلى الله عليه وسلم : « دونكم أخاكم فقد أوجب » . وقد رُمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى وجنته ، حتى غابت حلقة من حلق المغفر فى وجنته . فذهبت لأنزعها عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أبو عبيدة : نشدتك الله ياأبا بكر إلا تركتنى ! قال : فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه ، فجعل ينضنضه كراهة أن يؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبى عبيدة . قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتنى ! قال : فأخذه ، فجعل ينضنضه حتى استله ، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى . . ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « دونكم أخاكم فقد أوجب » قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه . وقد أصابته بضع عشرة ضربة .

وجاء على ـ كرم الله وجهه ـ بالماء لغسل جرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان يصب الماء على الجرح ، وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ تغسله . فلما رأت أن الدم لايكف ، أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها بالجرح فاستمسك الدم .

Marfat.com

وقد مصّ مالك والد أبى سعيد الخدرى جرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أنقاه . فقال له : « مجـه » فقال : والله لا أمجه أبدا ! ثم ذهب ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . .

وفى صحيح مسلم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال : « من يردهم عنى وله الجنة ؟» فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل . ثم رهقوه فقال : «من يردهم عنى فله الجنة وهو رفيق فى الجنة» .. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما أنصفنا أصحابنا » .. ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه . وترس عليه أبو دجانة بظهره كما أسلفنا ، حتى انجلت الكربة . . وقد بلغ الإعياء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه وهو يصعد الجبل والمشركون يتبعونه أراد أن يعلو صخرة فلم يستطع لما به ، فجلس طلحة تحته حتى صعدها . وحانت الصلاة . فصلى بهم جالسا .

ومن أحداث هذا اليوم كذلك :

أن حنظلة الأنصارى (الملقب بحنظلة الغسيل) شد على أبى سفيان ، فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد ابن الأسود فقتله . وكان جنبا . فإنه لما سمع صيحة الحرب وهو مع امرأته ، قام من فوره إلى الجهاد . فأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه أن الملائكة تغسله . ثم قال : سلوا أهله ماشأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر !

وقال زيد ابن ثابت : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد أطلب سعد ابن الربيع . قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وبه سبعون ضربة ، مابين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم . فقلت : ياسعد . إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليك السلام ، ويقو لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال وعلى رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ السلام . قل له : يارسول الله أجد ريح الجنة . وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيكم عين تطرف .. وفاضت نفسه من وقته .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط فى دمه ، فقال : يافلان ـ

أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .

وقال عبد الله ابن عمرو ابن حرام : رأيت فى النوم ، قبل أحد ، مبشر ابن عبد المنذر يقول لى : أنت قادم علينا فى أيام . فقلت . وأين أنت ؟ فقال : فى الجنة ، نسرح فيها حيث نشاء . قلت له ألم تقتل يوم بدر ؟ فقال : بلى . ثم أحييت . فذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « هذه الشهادة ياأبا جابر » . .

وقال خيثمة ـ وكان ابنه قد استشهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر : لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصا ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه ، فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة ، يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا . وقد ـ والله يارسوله الله ـ أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة . وقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى . فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ، ومرافقة سعد فى الجنة . فدعا له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك . فقتل بأحد شهيدا .

وقال عبد الله ابن جحش فى ذلك اليوم : اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدا ، فيقتلونى ، ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى . ثم تسألنى فيم ذلك ؟ فأقول : فيك !

وكان عمرو ابن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب ، يغزون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد . فأتى عمرو ابن الجموح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله . إن بنىّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك . والله إنى لأرجو أن استشهد ، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد » . وقال لبنيه : « وما عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ » . . فخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتل يوم أحد شهيداً .

وفى مضطرب المعركة نظر حذيفة ابن اليمان إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله ، لا يعرفونه ،

Marfat.com

وهم يظنونه من المشركين . فقال حذيفة : أى عباد الله ، أبى . فلم يفهموا قوله حتى قتلوه . فقال : يغفر الله لكم . فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤدى ديته . فقال حذيفة : قد تصدقت بديته على المسلمين . فزاد ذلك حذيفة خيرا عند رسول الله .

وقال وحشى غلام جبير ابن مطعم يصف مصرع حمزة سيد الشهداء فى هـذه الغزوة : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس . وكنت رجلا حبشيا ، أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قلما أخطىء بهـا شيئا . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدا ، مايقوم له شىء . فوالله إنى لأتهيأ له أريده ، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى . إذ تقدمنى إليه سباع ابن عبد العزى ، فلما رآه حمزة ضربه ضربة كأنما اختطف رأسه ، فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثنته (أحشائه) حتى خرجت من بين رجليه . وذهب لينوء نحوى فغلب . وتركته وإياها حتى مات . ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر ، فقعدت فيه . إذ لم تكن لى بغيره حاجة . إنما قتلت لأعتق . .

وقد جاءت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، فبقرت بطن حمزة ، وأخرجت كبده ، ولاكتها فلم تقدر عليها . فألقتها . .

ولما وقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد المعركة على جثمان حمزة ـ رضى الله عنه ـ تأثر تأثرا شديدا . وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لن أصاب بمثلك أبدا . وما وقفت قط موقفا أغيظ إلى من هذا » . . ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « أكلت شيئا ؟ » قالوا : لا . قال : « ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة فى النار » . .

وقد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدفن شهداء أحد فى مصارعهم ، ولا ينقلوا إلى مقابر المدينة . وكان بعض الصحابة قد نقلوا قتلاهم . فنادى منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برد القتلى إلى مصارعهم فردوا . ووقف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدفن الرجلين والثلاثة فى اللحد الواحد . وكان يسأل : أيهم أكثر أخذا فى القرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه فى اللحد . ودفن عبد الله ابن عمرو ابن حرام وعمرو ابن الجموح فى قبر واحد

Marfat.com

Marfat.com

لما كان بينهما من المحبة . فقال : « ادفنوا هذين المتحابين فى الدنيا فى قبر واحد » .

* * *

هذه بعض اللقطات من المعركة التى تجاور فيها النصر والهزيمة ، لا تفرق بينهما إلا لحظة من الزمان ، وإلا مخالفة عن الأمر ، وإلا حركة من الهوى ، وإلا لفتة من الشهوة ! والتى تجاورت فيها القمم العالية والسفوح الهابطة ! والنماذج الفريدة فى تاريخ الإيمان والبطولة ، وفى تاريخ النفاق والهزيمة !

وهى مجموعة تكشف عن حالة من عدم التناسق فى الصف حينذاك ، كما تكشف عن حالة من الغبش فى تصورات بعض المسلمين .. وهذه وتلك أنشأت ـ وفق سنة الله وقدره ـ هذه النتائج التى ذاقها المسلمون ؛ وهذه التضحيات الجسام ، التى تتراءى على قمتها تلك التى أصابت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى لا شك أن الصحابة حين ذاك كانوا يحسونها بعمق وعنف ، ويرونها أشد ما نالهم من الآلام . وقد دفعوا الثمن غاليا ليتلقوا الدرس عاليا ، وليمحص الله القلوب ويميز الصفوف ، وليعد الجماعة المسلمة للمهمة العظمى التى ناطها بها : مهمة القيادة الراشدة للبشرية ، وإقرار منهج الله فى الأرض فى صورته المثالية الواقعية . .

فلننظر إذن كيف عالج القرآن الكريم الموقف بطريقة القرآن .

* * *

إن النص القرآنى لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض؛ ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ؛ ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه ..

وهو لا يعرض الحوادث عرضا تاريخيا مسلسلا بقصد التسجيل ؛ إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ؛ ورسم سمات النفوس ، وخلجات القلوب ، وتصوير الجو الذى صاحبها ؛ والسنن الكونية التى تحكمها ؛ والمبادىء الباقية التى تقررها . وبذلك تستحيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات ، والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ؛ ثم يستطرد حولها ؛ ثم يعود إليها ؛ ثم يجول فى أعماق الضمائر ، وفى أغوار الحياة ؛ ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهى برواية الحادث إلى نهايتها

وقد ضم جناحيه على حفل من المعانى والدلائل والقيم والمبادىء ، لم تكن رواية الحادث إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها . وحتى يكون قد تناول ملابسات الحادث وعقابيله فى الضمائر ، فجلاها . ونقاها ، وأراحها فى مواضعها ، فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقا ، ولا تحس فيها لبسا ولا دخلا . .

وينظر الإنسان فى رقعة المعركة ، وما وقع فيها ـ على سعته وتنوعه ـ ثم ينظر إلى رقعة التعقيب القرآنى ، وما تناوله من جوانب ؛ فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك ، وأبقى على الزمن، وألصق بالقلوب ، وأعمق فى النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية ، وحاجات الجماعة الإسلامية ، فى كل موقف تتعرض له فى هذا المجال ، على تتابع الأجيال . فهى تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة ، والمبادىء المطلقة من وراء الحوادث المفردة، والقيم الأصيلة من وراء الظواهر العارضة ، والرصيد الصالح للتزود بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان . .

وهذه الحصيلة الباقية تدخرها النصوص القرآنية لكل قلب يتفتح بالإيمان ، فى أى زمان وفى أى مكان . . وسنعرض لها متجمعة ـ إن شاء الله ـ بعد استعراضها متفرقة فى النصوص . .

* * *

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

هكذا يبدأ باستعادة المشهد الأول للمعركة واستحضاره ـ وقد كان قريباً من نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ومن ذاكرتهم . ولكن ابتداء الحديث على هذا النحو ، واستحضار المشهد الأول بهذا النص ، من شأنه أن يعيد المشهد بكل حرارته وبكل حيويته ؛ وأن يضيف إليه ما وراء المشهد المنظور ـ الذى يعرفونه ـ من حقائق أخرى لا يتضمنها المشهد المنظور . وأولها حقيقة حضور الله ـ سبحانه ـ معهم ، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . وهى الحقيقة التى تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها فى التصور الإسلامى . وهى هى الحقيقة الأساسية الكبيرة ، التى أقام عليها الإسلام منهجه التربوى.

Marfat.com

Marfat.com

والتى لا يستقيم ضمير على المنهج الإسلامى ،.بكل تكاليفه ، إلا أن تستقر فيه هذه الحقيقة ، بكل قوتها ، وبكل حيويتها كذلك :

« وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال .. والله سميع عليم .. » ..

والإشارة هنا إلى غدو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقد لبس لأمته ودرعه ؛ بعد التشاور فى الأمر ، وما انتهى إليه من عزم على الخروج من المدينة للقاء المشركين خارجها .. وما أعقب هذا من تنظيم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصفوف ، ومن أمر للرماة باتخاذ موقفهم على الجبل .. وهو مشهد يعرفونه ، وموقف يتذكرونه .. ولكن الحقيقة الجديدة فيه هى هذه :

« والله سميع عليم » ..

وياله من مشهد ، الله حاضره ! وياله من موقف ، الله شاهده ! ويالها من رهبة إذن ومن روعة تحف به ، وتخالط كل ما دار فيه من تشاور . والسرائر مكشوفة فيه لله . وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ماتهمس به الضمائر .

واللمسة الثانية فى هذا المشهد الأول ، هى حركة الضعف والفشل التى راودت قلوب طائفتين من المسلمين ؛ بعد تلك الحركة الخائنة التى قام بها رأس النفاق « عبد الله ابن أبى ابن سلول » حين انفصل بثلث الجيش ، مغضبا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى شباب أهل المدينة ! وقال : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم ! » فدل بهذا على أن قلبه لم يخلص للعقيدة ؛ وأن شخصه ما يزال يملأ قلبه ، ويطغى فى ذلك القلب على العقيدة .. العقيدة التى لا تحتمل شركة فى قلب صاحبها ، ولا تطيق لها فيه شريكا ! فإما أن يخلص لها وحدها ، وإما أن تجانبه هى وتجتويه !

«إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وهاتان الطائفتان ـ كما ورد فى الصحيح ـ من حديث سفيان ابن عيينة ـ هما بنو حارثة وبنو سلمة . أثرت فيهما حركة عبد الله ابن أبىّ ، وما أحدثته من رجة فى الصف المسلم ، من أول خطوة فى المعركة . فكادتا تفشلان وتضعفان . لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته ، كما أخبر هذا النص القرآنى :

« والله وليهما » ..

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ سمعت جابر ابن عبد الله يقول : فينا نزلت : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .. قال : نحن الطائفتان .. بنو حارثة وبنو سلمة .. وما نحب (أو وما يسرنى) أنها لم تنزل ، لقوله تعالى : « والله وليهما » .. (رواه البخارى ومسلم) ..

وهكذا يكشف الله المحبوء فى مكنونات الضمائر ؛ والذى لم يعلمه إلا أهله ، حين حاك فى صدورهم لحظة ؛ ثم وقاهم الله إياه ، وصرفهُ عنهم ، وأيدهم بولايته ، فمضوا فى الصف .. يكشفه لاستعادة أحداث المعركة ، واستحياء وقائعها ومشاهدها . ثم .. لتصوير خلجات النفوس ، وإشعار أهلها حضور الله معهم ، وعلمه بمكنونات ضمائرهم ـ كما قال لهم : « والله سميع عليم » ـ لتوكيد هذه الحقيقة وتعميقها فى حسهم . ثم لتعريفهم كيف كانت النجاة ؛ وإشعارهم عون الله وولايته ورعايته حين يدركهم الضعف ، ويدب فيهم الفشل ، ليعرفوا أين يتوجهون حين يستشعرون شيئا من هذا وأين يلتجئون . ومن ثم يوجههم هذا الوجه الذى لا وجه غيره للمؤمنين :

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

على وجه القصر والحصر .. على الله وحده فليتوكل المؤمنون . فليس لهم ـ إن كانوا مؤمنين ـ إلا هذا السند المتين .

وهكذا نجد فى الآيتين الأوليين ، اللتين يستحضر بهما القرآن مشهد المعركة وجوها ، هذين التوجيهين الكبيرين الأساسيين فى التصور الإسلامى ، وفى التربية الإسلامية :

« والله سميع عليم » ..

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

نجدهما فى أوانهما المناسب ، وفى جوهما المناسب ؛ حيث يلقيان كل إيقاعاتهما ، وكل إيحاءاتهما ، فى الموعد المناسب ؛ وقد تهيأت القلوب للتلقى والاستجابة والانطباع .. ويتبين ـ من هذين النصين التمهيديين ـ كيف يتولى القرآن استحياء القلوب وتوجيهها وتربيتها ؛ بالتعقيب على الأحداث ، وهى ساخنة ! ويتبين الفرق بين رواية القرآن للأحداث وتوجيهها ،

Marfat.com

وبين سائر المصادر التى قد تروى الأحداث بتفصيل أكثر ؛ ولكنها لا تستهدف القلب البشرى، والحياة البشرية ، بالإحياء والاستجاشة ، وبالتربية والتوجيه . كما يستهدفها القرآن الكريم ، بمنهجه القويم .

* * *

هكذا يبدأ الحديث عن المعركة التى لم ينتصر فيها المسلمون ـ وقد كادوا ـ وهى قد بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله ابن أبى ؛ وتابعه فى حركته أتباعه الذين غلبوا اعتباره الشخصى على عقيدتهم . وبالضعف الذى كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين . ثم انتهت بالمخالفة عن الخطة العسكرية تحت مطارق الطمع فى الغنيمة ! فلم تغن النماذج العالية التى تجلت فى المعركة ، عن المصير الذى انتهت إليه، بسبب ذلك الخلل فى الصف ، وبسبب ذلك الغبش فى التصور ..

وقبل أن يمضى فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر ـ معركة بدر ـ لتكون هذه أمام تلك ، مجالا للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ؛ ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم ـ بعد ذلك ـ ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء . وأن مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفى جميع الأحوال :

« ولقد نصركم الله ببدر ـ وأنتم أذلة ـ فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفا من الذين كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ـ ليس لك من الأمر شىء ـ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم » ..

والنصر فى بدر كان فيه رائحة المعجزة ـ كما أسلفنا ـ فقد تم بغير أداة من الأدوات المادية

Marfat.com

المألوفة للنصر . لم تكن الكفتان فيها ـ بين المؤمنين والمشركين ـ متوازنتين ولا قريبتين من التوازن . كان المشركون حوالى ألف ، خرجوا نفيرا لاستغاثة أبى سفيان ، لحماية القافلة التى كانت معه ، مزودين بالعدة والعتاد ، والحرص على الأموال ، والحمية للكرامة . وكان المسلمون حوالى ثلاثمئة ، لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة ، إنما خرجوا لرحلة هينة . لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها ؛ فلم يكن معهم ـ على قلة العدد ـ إلا القليل من العدة . وكان وراءهم فى المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم ، ومنافقون لهم مكانتهم ، ويهود يتربصون بهم .. وكانوا هم بعد ذلك كله قلة مسلمة فى وسط خضم من الكفر والشرك فى الجزيرة . ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة ، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة فى هذه البيئة !

فهذا كله يذكرهم الله ـ سبحانه ـ ويرد ذلك النصر إلى سببه الأول فى وسط هذه الظروف :

« ولقد نصركم الله ببدر . وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ..

إن الله هو الذى نصرهم ؛ ونصرهم لحكمة نص عليها فى مجموعة هذه الآيات . وهم لاناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم . فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله ، الذى يملك النصر والهزيمة ؛ والذى يملك القوة وحده والسلطان . فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر ؛ وأن تجعله شكراً وافياً لائقاً بنعمة الله عليهم على كل حال .

هذه هى اللمسة الأولى فى تذكيرهم بالنصر فى بدر .. ثم يستحضر مشهدها ويستحيي صورتها فى حسهم ، كأنهم اللحظة فيها :

« إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » ..

وكانت هذه كلمات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر ، للقلة المسلمة التى خرجت معه ؛ والتى رأت نفير المشركين ، وهى خرجت لتلقى طائفة العير الموقرة بالمتاجر ، لا لتلقى طائفة النفير الموقرة بالسلاح ! وقد أبلغهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بلغه يومها ربه ، لتثبيت قلوبهم وأقدامهم ، وهم بشر يحتاجون إلى العون فى صورة قريبة من مشاعرهم وتصوراتهم ومألوفاتهم .. وأبلغهم كذلك شرط هذا المدد . . إنه الصبر والتقوى ؛ الصبر على تلقى صدمة

Marfat.com

الهجوم ، والتقوى التى تربط القلب بالله فى النصر والهزيمـــة :

« بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمـددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائـكة مسومين » (١) ..

فالآن يعلمهم الله أن مرد الأمر كله إليه ، وأن الفاعلية كلها منه ـ سبحانه ـ وأن نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوبهم ؛ لتأنس بهذا وتستبشر ، وتطمئن به وتثبت. أما النصر فمنه مباشرة ، ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة :

« وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ..

وهكذا يحرص السياق القرآنى على رد الأمر كله إلى الله ، كى لا يعلق بتصور المسلم مايشوب هذه القاعدة الأصيلة : قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة ، وقدره المباشر . وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هى الفاعلة . وإنما هى أداة تحرك بها المشيئة . وتحقق بها ما تريده .

« وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . .

وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة فى التصور الإسلامى ، وعلى تنقيتها من كل شائبة ، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هى الفاعلة .. لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب . بين قلب المؤمن وقدر الله . بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط . كما هى فى عالم الحقيقة . .

وبمثل هـذه التوجيهات المكررة فى القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة فى أخلاد المسلمين ، على نحو بديع ، هادىء ، عميق ، مستنير .

عرفوا أن الله هو الفاعل ـ وحده ـ وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب ، وبذل الجهد ، والوفاء بالتكاليف . . فاستيقنوا الحقيقة ، وأطاعوا الأمر ، فى توازن شعورى وحركى عجيب !

ولكن هذا إنما جاء مع الزمن ، ومع الأحداث ، ومع التربية بالأحداث ، والتربية بالتعقيب

---

(١) فورهم هذا : أى من جهتهم هذه ـ مسومين : أى معلمين لهم علامة تميزهم .

Marfat.com

Marfat.com

على الأحداث . . كهذا التعقيب ، ونظائره الكثيرة ، فى هذه السورة . .

وفى هـذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعدِهم الملائكة مددا من عند الله ؛ إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات فى المعركة ـ حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا . . ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل ـ من وراء نزول الملائكة ـ وهو الله . الذى تتعلق الأمور كلها بإرادته . ويتحقق النصر بفعله وإذنه .

« الله العزيز الحكيم » . .

فهو « العزيز » القوى ذو السلطان القادر على تحقيق النصر . وهو « الحكيم » الذى يجرى قدره وفق حكمته ، والذى يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة . .

ثم يبين حكمة هذا النصر . . أى نصر . . وغاياته التى ليس لأحد من البشر منها شىء :

« ليقطع طرفا من الذين كفروا . أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ـ ليس لك من الأمر شىء ـ أو يتوب عليهم . أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصى . كما أنه ليس له ولا لهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ماتشاء ! فلا هم أسباب هذا النصر وصانعوه ؛ ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده :

« ليقطع طرفا من الذين كفروا » . .

فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة ، أو ينقص من فاعليتهم فى الأرض بالهزيمة !

« أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » . .

أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين .

« أو يتوب عليهم » . .

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية . .

« أو يعذبهم فإنهم ظالمون » . .

يعذبهم بنصر المسلمين عليهم . أو بأسرهم . أو بموتهم على الكفر الذى ينتهى بهم إلى العذاب . . جزاء لهم على ظلمهم بالكفر ، وظلمهم بفتنة المسلمين ، وظلمهم بالفساد فى الأرض، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذى يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه . . إلى آخر صنوف الظلم الكامنة فى الكفر والصد عن سبيل الله .

وعلى أية حال فهى حكمة الله ، وليس لبشر منها شىء . . حتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرجه النص من مجال هذا الأمر ، ليجرده لله وحده ـ سبحانه ـ فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك .

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر : من أسبابه ومن نتائجه ! وبذلك يطامنون من الكبر الذى يثيره النصر فى نفوس المنتصرين ، ومن البطر والعجب والزهو الذى تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم ! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شىء ، إنما الأمر كله لله أولا وأخيرا .

وبذلك يرد أمر الناس ـ طائعهم وعاصيهم ـ إلى الله . فهذا الشأن شأن الله وحده ـ سبحانه. شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها : طائعهم وعاصيهم سواء . . وليس للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم ، ثم ينفضوا أيديهم من النتائج ، وأجرهم من الله على الوفاء ، وعلى الولاء ، وعلى الأداء .

وملابسة أخرى فى السياق اقتضت هذا التنصيص : «ليس لك من الأمر شىء » فسيرد فى السياق قول بعضهم : « هل لنا من الأمر شىء ؟ » . . وقولهم : « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » . . ليقول لهم : إن أحدا ليس له من الأمر من شىء . لا فى نصر ولا فى هزيمة . إنما الطاعة والوفاء والأداء هى المطلوبة من الناس . وأما الأمر بعد ذلك فكله لله . ليس لأحد منه شىء . ولا حتى لرسول الله . . فهى الحقيقة الأصيلة فى التصور الإسلامى . وإقرارها فى النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث ، وأكبر من شتى الاعتبارات . .

Marfat.com

ويختم هذا التذكير ببدر ، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة فى التصور ، بالحقيقة الشاملة التى ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره . . يختم هذا التقرير بتقرير أصله الكبير : وهو أن الأمر لله فى الكون كله ، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق مايشاء :

« ولله مافى السماوات ومافى الأرض . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم » . .

فهى المشيئة المطلقة ، المستندة إلى الملكية المطلقة . وهو التصرف المطلق فى شأن العباد ، بحكم هذه الملكية لما فى السماوات ومافى الأرض . وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد ، فى المغفرة أو فى العذاب . إنما يقضى الأمر فى هذا الشأن بالحكمة والعدل ، وبالرحمة والمغفرة . فشأنه ـ سبحانه ـ الرحمة والمغفرة :

« والله غفور رحيم » . .

والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته ، بالعودة إليه ، ورد الأمر كله له ، وأداء الواجب المفروض ، وترك ماوراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب .

* * *

وقبل أن يدخل السياق فى صميم الاستعراض للمعركة ـ معركة أحد ـ والتعقيبات على وقائعها وأحداثها .. تجىء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى ، التى ألمعنا فى مقدمة الحديث إليها . المعركة فى أعماق النفس وفى محيط الحياة .. يجىء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله . وعن الإنفاق فى السراء والضراء ، والنظام التعاونى الكريم المقابل للنظام الربوى الملعون . وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى فى الجماعة . وعن الاستغفار من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة :

« ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . وسارعوا إلى مغفرة من

Marfat.com

Marfat.com

ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » ..

تجىء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول فى سياق المعركة الحربية ؛ لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة : الوحدة والشمول فى مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ؛ ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية له ، والتوجه إليه بالأمر كله . والوحدة والشمول فى منهج الله وهيمنته على الكينونة البشرية فى كل حال من أحوالها ، وفى كل شأن من شؤونها ، وفى كل جانب من جوانب نشاطها . ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنسانى ؛ وتأثير هذا الترابط فى النتائج الأخيرة لسعى الإنسان كله كما أسلفنا .

والمنهج الإسلامى يأخذ النفس من أقطارها ، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفاريق . ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ؛ وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب ، والسيطرة على الأهواء والشهوات ، وإشاعة الود والسماحة فى الجماعة .. فكلها قريب من قريب .. وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات ، وكل توجيه من هذه التوجيهات ، يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة ، وبكل مقدراتها فى ميدان المعركة وفى سائر ميادين الحياة !

« ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ..

ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوى بالتفصيل فى الجزء الثالث من هذه الظلال[1] فلا نكرر الحديث عنه هنا . . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوما يريدون فى

(١) ص ٧٠ إلى ص ٨٦ من الجزء الثالث من ظلال القرآن الطبعة الثانية المنقحة .

هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ، ويتداروا به ، ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة . أما الأربعة فى المئة والخمسة فى المئة والسبعة والتسعة .. فليست أضعافا مضاعفة . وليست داخلة فى نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع، وليست شرطا يتعلق به الحكم. والنص الذى فى سورة البقرة قاطع فى حرمة أصل الربا ـ بلا تحديد ولا تقييد : « وذروا مابقى من الربا » .. أيا كان !

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول : إنه فى الحقيقة ليس وصفا تاريخيا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة ، والتى قصد إليها النهى هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى المقيت ، أيا كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوى معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهى عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهى تنشىء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافا مضاعفة بلا جدال .

إن النظام الربوى يحقق بطبيعته دائما هذا الوصف . فليس هو مقصورا على العمليات التى كانت متبعة فى جزيرة العرب . إنما هو وصف ملازم للنظام فى كل زمان .

ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية ـ كما فصلنا ذلك فى الجزء الثالث ـ كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية ـ كما فصلنا ذلك أيضا ـ ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها ، وتأثيره فى مصائرها جميعا .

والإسلام ـ وهو ينشىء الأمة المسلمة ـ كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية ، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية . وأثر هذا وذاك فى نتائج المعارك التى تخوضها الامة معروف . فالنهى عن أكل الربا فى سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوما فى هذا المنهج الشامل البصير ..

أما التعقيب على هـذا النهى بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ؛ واتقاء النار التى أعدت للكافرين .. أما التعقيب بهاتين اللستين فمفهوم كذلك ؛ وهو أنسب تعقيب :

Marfat.com

Marfat.com

إنه لا يأكل الربا إنسان يتقى الله ويخاف النار التى أعدت للكافرين . . ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو اتباع للمنهج الذى جعله الله ترجمة عملية واقعة لهذا الإيمان . وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه فى الحياة الواقعية ، وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته .

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوى فى مكان . وحيثما قام النظام الربوى فهناك الخروج من هذا الدين جملة ؛ وهناك النار التى أعدت للكافرين ! والمماحكة فى هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة .. والجمع فى هذه الآيات بين النهى عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله ، وإلى اتقاء النار التى أعدت للكافرين ، ليس عبثا ولا مصادفة . إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها فى تصورات المسلمين .

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وبتقوى الله . . فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ، ولتحقيق منهج الله فى حياة الناس . . ولقد سبق الحديث فى الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية ، وويلاته البشعة فى حياة الإنسانية . فلنرجع إلى هذا البيان هناك ، لندرك معنى الفلاح هنا ، واقترانه بترك النظام الربوى المقيت !

ثم يجىء التوكيد الأخير :

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ..

وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول ، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة . ولكن للتعقيب به على النهى عن الربا دلالة خاصة . هى أنه لا طاعة لله وللرسول فى مجتمع يقوم على النظام الربوى ؛ ولا طاعة لله وللرسول فى قلب يأكل الربا فى صورة من صوره .. وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيدا بعد توكيد ..

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التى خولف فيها أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول ، بوصفها وسيلة الفلاح ، وموضع الرجاء فيه ..

ثم لقد سبق فى سورة البقرة ـ فى الجزء الثالث ـ أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا ، والحديث عن الصدقة . بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية فى النظام

الاقتصادى ؛ وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم : النظام الربوى . والنظام التعاونى . . فهنا كذلك نجد هذا الجمع فى الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق فى السراء والضراء ..

فبعد النهى عن أكل الربا ، والتحذير من النار التى أعدت للكافرين،والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح .. بعد هذا يجىء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة؛وإلى جنة عرضها السماوات والأرض (أعدت للمتقين) . . ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو : « الذين ينفقون فى السراء والضراء » ـ فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ـ ثم تجىء بقية الصفات والسمات :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء . والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ... » ..

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية حركية . . يصوره سباقا إلى هدف أو جائزة تنال :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » . . « وجنة عرضها السماوات والأرض » . . سارعوا فهى هناك : المغفرة والجنة .. « أعدت للمتقين » ..

ثم يأخذ فى بيان صفات المتقين :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء » ..

فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطرهم فتلهيهم . والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب فى كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص ؛ ومراقبة الله وتقواه .. وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها .. مايدفع النفس إلى الإنفاق فى كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ، وربقة الحرص ، وثقلة الشح . . دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى

Marfat.com

تشف به الروح وتخلص ، وتنطلق من القيود والأغلال . .

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك فى جو هذه المعركة . فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها ، كما نرى التنديد بالممتنعين والمانعين للبذل ـ كما سيأتى فى السياق القرآنى ـ مكررا كذلك . مما يشير إلى ملابسات خاصة فى جو الغزوة ، وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله.

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ..

كذلك تعمل التقوى فى هذا الحقل ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات . فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ؛ فهو إحدى دفعات التكوين البشرى ، وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛ وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لا تكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن ؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق ..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ؛ ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير .

« والله يحب المحسنين » ..

والذين يجودون بالمال فى السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. والله « يحب » المحسنين .. والحب هنا هو التعبير الودود الحانى الشرق المنير ، الذى يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضىء الكريم ..

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ، ينطلق حب الإحسان فى قلوب أحبائه . وتنبثق

Marfat.com

Marfat.com

الرغبة الدافعة فى هذه القلوب .. فليس هو مجرد التعبير الموحى ، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير !

والجماعة التى يحبها الله ، ويحب الله .. والتى تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان .. هى جماعة متضامة ، وجماعة متآخية ، وجماعة قوية . ومن ثم علاقةهذا التوجيه بالمعركة فى الميدان والمعركة فى الحياة على السواء فى هذا السياق !

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . .

بالسماحة هذا الدين ! إن الله – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا :

إن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين . . ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك فى عداد المتقين « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » . . والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها ، من رحمة الله . ولا تجعلهم فى ذيل القافلة . . قافلة المؤمنين . . إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . . مرتبة « المتقين » . . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . . أن يذكروا اللهفيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا علىمافعلواوهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألايتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء . . وبعبارة أخرى أن يكونوا فى إطارالعبودية لله ، والاستسلام له فى النهاية . فيظلوا فى كنف الله وفى محيط عفوه ورحمته وفضله .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشرى الذى تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان فى حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله فى حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسوعليه ، ولا يبادر إلىطرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب الفاحشة . . المعصية الكبيرة . . وحسبه أن شعلة الإيمان ماتزال فى روحه لم تنطفئ ، وأن نداوة الإيمان ماتزال

Marfat.com

فى قلبه لم تجف ، وأن صلته بالله ماتزال حيـة لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء وأن له ربا يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير .. إنه سائر فى الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل، فليعثر ماشاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل فى النهاية مادامت الشعلة معه ، والحبل فى يده . مادام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق فى وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يلقيه منبوذا حائرا فى التيه ! ولا يدعه مطرودا خائفا من المـآب .. إنه يطمعه فى المغفرة ، ويدله على الطريق ، ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفىء إلى الحمى الآمن ، ويثوب إلى الكنف الأمين .

شىء واحد يتطلبه : ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. ومادام يذكر الله . ما دام فى روحه ذلك المشعل الهـادى . مادام فى ضميره ذلك الهاتف الحـادى . مادام فى قلبه ذلك الندى البليل .. فسيطلع النور فى روحه من جديد ، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت البذرة الهامدة من جديد .

إن طفلك الذى يخطىء ويعرف أن السوط ـ لا سواه ـ فى الدار .. سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة .. فإنه سيعود !

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشرى الضعيف فى لحظات ضعفه .. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب الثقلة رفرفة ، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقا ربانية .. فهو يعطف عليه فى لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقى الصعود ، ويربت عليه فى لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . مادام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يقول : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » (١)

والإسلام لا يدعو ـ بهذا ـ إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والبزار فى مسنده من حديث عثمان ابن واقد .. وفى سنده صحابى مجهول ولكن ابن كثير فى تفسيره صححه . وقال : « حديث حسن » .

المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ، ليستجيش فى النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياء ! فالمغفرة من الله ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة فى وجوههم الأسوار !

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا ، والرحمة بهذه البشرية التى يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبدا ، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها (١) .

... هؤلاء المتقون مالهم ؟

« أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » ..

فهم ليسواسلبيين بالاستغفار من المعصية .كما أنهم ليسواسلبيين بالإنفاق فى السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . . إنما هم عاملون . « ونعم أجر العاملين » .. المغفرة من ربهم، والجنة تجرى من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله .. فهنالك عمل فى أغوار النفس ، وهنالك عمل فى ظاهر الحياة . وكلاهما عمل ، وكلاهما حركة ، وكلاهما نماء .

وهنالك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التى يتعقبها السياق .. وكما أن للنظام الربوى ـ أو النظام التعاونى ـ أثره فى حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة فى الميدان ، فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذى أشرنا إليه فى مطلع الحديث .. فالانتصار على الشح ، والانتصار على الغيظ ، والانتصار على الخطيئة ، والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه .. كلها ضرورية للانتصار على الأعداء فى المعركة . وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح ! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يُخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته . ففى هذا تكون العداوة ، وفى هذا تكون المعركة ، وفى هذا يكون الجهاد . وليس هنالك أسباب أخرى يعادى فيها المسلم ويعارك ويجاهد . فهو إنما يعادى لله ، ويعارك لله ، ويجاهد لله ! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة فى هذا السياق .. كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابسات الخاصة التى

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « سلام الضمير » فى كتاب : « السلام العالمى والإسلام » ..

Marfat.com

Marfat.com

صاحت هذه المعركة . من مخالفة عن أمْر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن طمع فى الغنيمة نشأت عنه المخالفة . ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله ابن أبىّ ومن معه . ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولى من تولى ـ كما سيرد فى السياق ـ ومن غبش فى التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله ، وسؤال بعضهم : « هل لنا من الأمر من شىء »؟ وقول بعضهم : « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » . .

* * *

والقرآن يتناول هذه الملابسات كلها ، واحدة واحدة ، فيجلوها ، ويقرر الحقائق فيها ، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها . . على هذا النحو الفريد الذى نرى نماذج منه فى هذا السياق .

* * *

بعد ذلك يبدأ السياق فى الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركه ذاتها ، ولكنه مايزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة فى التصور الإسلامى ، ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكن إليه هذه الحقائق .

وفى هذه الفقرة يبدأ بالإشارة إلى سنة الله الجارية فى المكذبين ، ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين فى هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر ، وراءه حكمة خاصة . . ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان . فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها فى المعركة ذاتها . وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها : حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب ، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ؛ ووقف المسلمين أمام الموت وجها لوجه وقد كانوا يتمنونه ، ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعى ! ثم فى النهاية محق الكافرين ، بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين . . وإذن فهى الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هى النصر أو هى الهزيمة .

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ـ إن

كنتم مؤمنين ـ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

لقد أصاب المسلمين القرح فى هذه الغزوة ، وأصابهم القتل والهزيمة . أصيبوا فى أرواحهم وأصيبوا فى أبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا ، وكسرت رباعية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشج وجهه ، وأرهقه المشركون ، وأثخن أصحابه بالجراح . . وكان من تتائج هـذا كله هزة فى النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب فى بدر ، حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم : « أنى هذا ؟ » وكيف تجرى الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون ؟ !

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله فى الأرض . يردهم إلى الأصول التى تجرى وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعا فى الحياة ؛ فالنواميس التى تحكم الحياة جارية لا تتخلف ، والأمور لا تمضى جزافا ، إنما هى تتبع هـذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، و إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هـذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان فى ماضى الطريق . ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ؛ بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفى أولها طاعة الله وطاعة الرسول .

والسنن التى يشير إليها السياق هنا ، ويوجه أبصارهم إليها هى :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . ومداولة الأيام بين الناس . والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة فى الشدة ، والتأسية على القرح ، الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من

Marfat.com

أعدائهم عقيدة وهدفا ، وأهدى منهم طريقا ومنهجا ، والعاقبة بعد لهم ، والدائرة على الكافرين .

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » . .

إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ، ولم تكن معارفهم ، ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا . .

إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم ؛ فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجرى وفقها الحياة جميعا . . وهى نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة فى ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة . بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها ، فى ربع قرن من الزمان . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالى إلا بعد قرون وقرون ؛ ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية ، إلا بعد أجيال وأجيال . . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور . . فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورها ، ووقع فى حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة !

« قد خلت من قبلكم سنن » . .

وهى هى التى تحكم الحياة . وهى هى التى قررتها المشيئة الطليقة . فما وقع منها فى غير زمانكم فسيقع مثله - بمشيئة الله - فى زمانكم ، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .

Marfat.com

Marfat.com

« فسيروا فى الأرض » ..

فالأرض كلها وحدة . والأرض كلها مسرح للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر .

« فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ..

وهى عاقبة تشهد بها آثارهم فى الأرض ، وتشهد بها سيرهم التى يتناقلها خلفهم هناك . . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار فى مواضع منه متفرقة . بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه . وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . . وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة : إن ماجرى المكذبين بالأمس سيجرى مثله للمكذبين اليوم وغدا . ذلك كى تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة . وكى تحذر الأزلاق مع المكذبين من جهة أخرى . وقد كان هنالك مايدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير . وفى السياق سيرد من هذه الدواعى الكثير .

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان :

« هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين » . .

هذا بيان للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس يبالغها لولا هذا البيان الهادى . ولكن طائفة خاصة هى التى تجد فيه الهدى ، وتجد فيه الموعظة ، وتنتفع به وتصل على هداه.. طائفة « المتقين » ..

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى . والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقى الذى يخفق لها ويتحرك بها . . والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل ، وبالهدى والضلال .. إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل إنما تنقص الناس الرغبة فى الحق ، والقدرة على اختيار طريقه .. والرغبة فى الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان ، ولا يحفظهما إلا التقوى . . ومن ثم تتكرر فى القرآن أمثال هذه التقريرات . تنص على أن مافى هذا الكتاب من حق ، ومن هدى ، ومن نور ، ومن موعظة ، ومن عبرة . . . إنما هى للمؤمنين وللمتقين . فالإيمان والتقوى هما اللذان

Marfat.com

الجزء الرابع

يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة . وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهـدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة .. واحتمال مشقات الطريق .. وهذا هو الأمر ، وهذا هو لب المسألة .. لا مجرد العلم والمعرفة .. فـكم ممن يعلمون ويعرفون ، وهم فى حمأة الباطل يتمرغون . إما خضوعا لشهوة لا يجـدى معها العلم والمعرفة ، وإما خوفا من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة !

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين » . .

لا تهنوا ـ من الوهن والضعف ـ ولا تحزنوا ـ لما أصابكم ولما فاتـكم ـ وأنتم الأعلون .. عقيدتـكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشىء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجـكم أعلى . فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله ، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها ، الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن النهج ، ضالون عن الطريق . ومكانـكم فى الأرض أعلى ، فلـكم وراثة الأرض التى وعدكم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . . فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هى سنة الله أن تصابوا وتصيبوا ، على أن تكون لـكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص :

« إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الـكافرين » . .

وذكر القرح الذى أصابهم وأصاب المـكذبين قرح مثله ، قد يكون إشارة إلى غزوة بدر . وقد مس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون . وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد . وقد انتصر فيها المسلمون فى أول الأمر ـ حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون ، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين فى ثنايا المعركة فلم يتقدم إليـه منهم أحـد . حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها .. ثم كانت الدولة للمشركين ، حينما خرج

الرماة على أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واختلفوا فيما بينهم . فأصاب المسلمين ماأصابهم فى نهاية المعركة . جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج ، وتحقيقا لسنة من سنن الله التى لا تتخلف ، إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع فى الغنيمة . والله قد كتب النصر فى معارك الجهاد لمن يجاهدون فى سبيله ، لا ينظرون إلى شىء من عرض هذه الدنيا الزهيد . وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله فى الأرض، وهى مداولة الأيام بين الناس ـ وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم ـ فتكون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما . ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون . كما تتكشف الأخطاء . وينجلى الغبش .

إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . . وليعلم الله الذين آمنوا » . .

إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، وطبائع القلوب ، ودرجة الغبش فيها والصفاء ، ودرجة الهلع فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح !

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن : مؤمنين ومنافقين ، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم ، وتتكشف فى دنيا الناس دخائل نفوسهم . ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التى تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده ، وهم مختلطون مبهمون !

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين . والله سبحانه يعلم ماتنطوى عليه الصدور . ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء ، وتجعله واقعا فى حياة الناس ، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر ، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر ، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء . فالله سبحانه لا يحاسب الناس على مايعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم .

ومداولة الأيام ، وتعاقب الشدة والرخاء ، محك لا يخطىء ، وميزان لا يظلم . والرخاء فى هذا كالشدة . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل . والنفس المؤمنة هى التى تصبر للضراء ولا تستخفها السراء ، وتتجه إلى الله فى الحالين ، وتوقن أن ماأصابها من الخير والشر فبإذن الله .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

وقد كان الله يربى هذه الجماعة ـ وهى فى مطالع خطواتها لقيادة البشرية ـ فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء ، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعدالابتلاء بالنصرالعجيب ـ وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية فى النصر والهزيمة . لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة . ولتزيد طاعة لله ، وتوكلا عليه ، والتصاقا بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين .

ويمضى السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس ، وفيما بعد تمييز الصفوف ، وعلم الله للمؤمنين :

« ويتخذ منكم شهداء » . .

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق ـ إن الشهداء لمختارون . يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم لنفسه ـ سبحانه ـ فما هى رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد فى سبيل الله من يستشهد . إنما هو اختيار وانتقاء ، وتكريم واختصاص .. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ، ليستخلصهم لنفسه ـ سبحانه ـ ويخصهم بقربه .

ثم هم شهداء يتخذهم الله ، ويستشهدهم على هذا الحق الذى بعث به للناس . يستشهدهم فيؤدون الشهادة . يؤدونها أداء لاشبهة فيه ، ولا مطعن عليه ، ولا جدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت فى سبيل إحقاق هذا الحق ، وتقريره فى دنيا الناس . يطلب الله ـ سبحانه ـ منهم أداء هذه الشهادة ، على أن ما جاءهم من عنده الحق ؛ وعلى أنهم آمنوا به ، وتجردوا له ، وأعزوه حتى أرخصوا كل شىء دونه ؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق ؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا ، فلم يألوا جهدا فى كفاح الباطل وطرده من حياة الناس ، وإقرار هذا الحق فى عالمهم وتحقيق منهج الله فى حكم الناس .. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون . وتكون شهادتهم هى هذا الجهاد حتى الموت . وهى شهادة لاتقبل الجدال والمحال !

وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . لا يقال له إنه شهد ، إلا أن يؤدى مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلها . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله . فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد ؛ وأخص

خصائص العبودية التلقى من الله .. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقى إلا هذا المصدر ..

ومقتضى هـذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده فى الأرض ، كما بلغها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيصبح المنهج الذى أراده الله للناس ، والذى بلغه عنه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المنهج السائد والغالب والمطاع ، وهو النظام الذى يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء .

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت فى سبيله ، فهو إذن شهيد . أى شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها . واتخذه الله شهيداً .. ورزقه هذا المقام .

هذا فقه ذلك التعبير العجيب :

« ويتخذ منكم شهداء .. » ..

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ومقتضاه .. لاما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع !

« والله لا يحب الظالمين » ..

والظلم كثيرا ما يذكر فى القرآن ويراد به الشرك . بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفى القرآن: « إن الشرك لظلم عظيم » .. وفى الصحيحين عن ابن مسعود : أنه قال : قلت يا رسول الله ـ أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك ... » ..

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله فى المكذبين ؛ فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين ـ فهو توكيد فى صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله . والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين ، يثير فى نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين . وهذه الإثارة فى معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد، لها مناسبتها الحاضرة . فالمؤمن إنما يبذل نفسه فى مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه . وهـذا هو مقام الاستشهاد ، وفى هـذا تكون الشهادة ؛ ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء ..

ثم يمضى السياق القرآنى يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث ، فى تربية الأمة

Marfat.com

للسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ، ولتكون أداة من أدوات قدره فى محق الكافرين ، وستارا لقدرته فى هلاك المكذبين :

« وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ..

والتمحيص درجة بعد الفرز والتميز . التمحيص عملية تتم فى داخل النفس ، وفى مكنون الضمير .. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات . تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غبش ولا ضباب ..

وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه ، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها . وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها ، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير !

وفى هذا التمحيص الذى يتولاه الله ـ سبحانه ـ بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم مالم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية .

ولقد يظن الإنسان فى نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص .. ثم إذا هو يكشف ـ على ضوء التجربة العملية، وفى مواجهة الأحداث الواقعية ـ أن فى نفسه عقابيل لم تمحص . وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ، ليعاود المحاولة فى سبكها من جديد ،على مستوى الضغوط التى تقتضيها طبيعة هذه الدعوة، وعلى مستوى التكاليف التى تقتضيها هذه العقيدة !

والله ـ سبحانه ـ كان يربى هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، وكان يريد بها أمرا فى هذه الأرض . فمحصها هذا التمحيص ، الذى تكشفت عنه الأحداث فى أحد ، لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذى ناطه بها :

« ويمحق الكافرين » ..

تحقيقا لسنته فى دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص .. وفى سؤال استنكارى يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة الله فى الدعوات ، وفى النصر والهزيمة ، وفى العمل والجزاء . ويبين لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وزاده الصبر ،

Marfat.com

على مشاق الطريق ، وليس زاده التمنى والأمانى الطائرة التى لا تثبت على المعاناة والتمحيص :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » ..

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور : تصور أنه يكفى الإنسان أن يقولها كلمة باللسان : أسلمت وأنا على استعداد للموت .فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدى تكاليف الإيمان ، وأن ينتهى إلى الجنة والرضوان !

إنما هى التجربة الواقعية ، والامتحان العملى . وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد ، وعلى معاناة البلاء .

وفى النص القرآنى لفتة ذات مغزى :

« ولما يعلم الله الذين جاهدو منكم » .. « ويعلم الصابرين » ..

فلا يكفى أن يجاهد المؤمنون . إنما هو الصبر على تكاليف هده الدعوة أيضاً . التكاليف المستمرة المتنوعة التى لاتقف عند الجهاد فى الميدان. فربما كان الجهاد فى الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التى يُطلب لها الصبر ، ويختبر بها الإيمان . إنما هنالك المعاناة اليومية التى لاتنتهى : معاناة الاستقامة على أفق الإيمان . والاستقرار على مقتضياته فى الشعور والسلوك ، والصبر فى أثناء ذلك على الضعف الإنسانى : فى النفس وفى الغير ، ممن يتعامل معهم المؤمن فى حياته اليومية . والصبر على الفترات التى يستعلى فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر ! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها فى زحمة الجهد والكرب والنضال . والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد فى الميدان إلا واحدا منها ، فى الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التى لا تنال بالأمانىّ وبكلمات اللسان !

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » ..

وهكذا يقفهم السياق وجها لوجه مرة أخرى أمام الموت الذى واجهوه فى المعركة ، وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه . ليوازنوا فى حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان ، ووزن الحقيقة يواجهها فى العيان . فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حسابا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعى فى نفوسهم ، على ضوء ماواجهوه من حقيقتها حين واجهتهم ! وبذلك

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

يقدرون قيمة الكلمة ، وقيمة الأمنية ، وقيمة الوعد ، فى ضوء الواقع الثقيل ! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة ، والأمانى المرفرفة هى التى تبلغهم الجنة، إنما هو تحقيق الكلمة ، وتجسيم الأمنية ، والجهاد الحقيق ، والصبر على المعاناة . حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعا كائنا فى دنيا الناس !

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء. وكان قادرا أن ينزل الملائكة تقاتل معهم ـ أو بدونهم ـ وتدمر على المشركين ، كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط ..

ولكن المسألة ليست هى النصر .. إنما هى تربية الجماعة المسلمة ، التى تعد لتتسلم قيادة البشرية .. البشرية بكل ضعفها ونقصها ؛ وبكل شهواتها ونزواتها ؛ وبكل جاهليتها وانحرافها.. وقيادتها قيادة راشدة تقتضى استعدادا عاليا من القادة . وأول ماتقتضيه صلابة فى الحلق، وثبات على الحق ، وصبر على المعاناة، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة فى النفس البشرية ، وخبرة بمواطن الزلل ودواعى الانحراف ، ووسائل العلاج .. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة . وصبر على الشدة بعد الرخاء . وطعمها يومئذ لاذع مرير !..

وهذه التربية هى التى يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ، ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق ، الذى ينوطه بها فى هذه الأرض . وقد شاء ـ سبحانه ـ أن يجعل هذا الدور من نصيب «الإنسان» الذى استخلفه فى هذا الملك العريض!

وقدر الله فى إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضى فى طريقه ، بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع .. يمضى أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة ، فتستبشر، وترتفع ثقتها بنفسها ـ فى ظل العون الإلهى ـ وتجرب لذة النصر ، وتصبر على نشوته ،وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء،وعلى التزام التواضع والشكر لله .. ويمضى أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة . فتلجأ إلى الله ، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله . وتجرب مرارة الهزيمة ؛ وتستعلى مع ذلك على الباطل ، بما عندها من الحق المجرد ؛ وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهواتها ، ومزالق أقدامها ؛

فتحاول أن تصلح من هـذا كله فى الجولة القادمة . . وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد .. ويمضى قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحيد ..

وقد كان هذا كله طرفا من رصيد معركة أحد ؛ الذى يحشده السياق القرآنى للجماعة المسلمة ـ على نحو مانرى فى هـذه الآيات ـ وهو رصيد مدخر لـكل جماعة مسلمة ولـكل جيل من أجيال المسلمين .

* * *

ثم يمضى السياق فى تقرير حقائق التصور الإسلامى الـكبيرة ؛ وفى تربية الجماعة المسلمة بهذه الحقائق ؛ متخذا من أحداث المعركة محورا لتقرير تلك الحقائق؛ ووسيلة لتربية الجماعة المسلمة بها على طريقة المنهج القرآنى الفريد :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ؛ وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ؛ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها؛ وسنجزى الشاكرين . وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما ضعفوا وما استـكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الـكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » ..

إن الآية الأولى فى هذه الفقرة تشير إلى واقعة معينة ، حدثت فى غزوة أحد . ذلك حين انـكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك الرماة أماكنهم من الجبل ، فركبه المشركون ، وأوقعوا بالمسلمين ، وكسرت رباعية الرسو ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشج وجهه ، ونزفت جراحه ؛ وحين اختلطت الأمور ، وتفرق المسلمون ، لا يدرى أحدهم مكان الآخر.. حينئذ نادى مناد : إن محمدا قد قتل .. وكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين . فانقلب الـكثيرون منهم عائدين إلى المدينة ، مصعدين فى الجبل منهزمين ، تاركين المعركة يائسين .. لولا أن ثبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك القلة من الرجال ؛ وجعل ينادى المسلمين وهم منقلبون ، حتى فاءوا إليه ،

Marfat.com

وثبت الله قلوبهم ، وأنزل عليهم النعاس أمنة منه وطمأنينة . . كما سيجىء . .

فهذه الحادثة التى أذهلتهم هذا الذهول ، يتخذها القرآن هنا مادة للتوجيه ، ومناسبة لتقرير حقائق التصور الإسلامى ؛ ويجعلها محورا لإشارات موحية فى حقيقة الموت وحقيقة الحياة، وفى تاريخ الإيمان ومواكب المؤمنين :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين » . .

إن محمدا ليس إلا رسولا . سبقته الرسل . وقد مات الرسل . ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله .. هذه حقيقة أولية بسيطة . فما بالكم غفلتم عنها حينما واجهتكم فى المعركة ؟

إن محمدا رسول من عند الله ، جاء ليبلغ كلمة الله . والله باق لا يموت ، وكلمته باقية لاتموت .. وما ينبغى أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبى الذى جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قتل .. وهذه كذلك حقيقة أولية بسيطة غفلوا عنها فى زحمة الهول . وما ينبغى للمؤمنين أن يغفلوا عن هذه الحقيقة الأولية البسيطة !

إن البشر إلى فناء ، والعقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل فى ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس ، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ .. والمسلم الذى يحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذى لم تعرف له النفس البشرية فى تاريخها كله نظيرا . الحب الذى يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة . وقد رأينا أبا دجانة يترس عليه بظهره والنبل يقع فيه ولا يتحرك ! ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحدا إثر واحد .. وما يزال الكثيرون فى كل زمان وفى كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم ، وبكل مشاعرهم ، حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. هذا المسلم الذى يحب محمدا ذلك الحب ، مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعقيدة التى أبلغها وتركها للناس من بعده ، باقية ممتدة موصولة بالله الذى لا يموت .

إن الدعوة أقدم من الداعية :

Marfat.com

Marfat.com

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ..

قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة فى جذور الزمن ، العميقة فى منابت التاريخ ، المبتدئة مع البشرية ، تحدو لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق .

وهى أكبر من الداعية ، وأبقى من الداعية . فدعاتها يجيئون ويذهبون ، وتبقى هى على الأجيال والقرون ، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول ، الذى أرسل بها الرسل ، وهو باق ـ سبحانه ـ يتوجه إليه المؤمنون .. وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه ، ويرتد عن هدى الله . والله حى لا يموت :

ومن ثم هذا الاستنكار ، وهذا التهديد ، وهذا البيان المنير :

« أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . وسيجزى الله الشاكرين » ..

وفى التعبير تصوير حى للارتداد : « انقلبتم على أعقابكم » .. « ومن ينقلب على عقبيه ». فهذه الحركة الحسية فى الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة ، كأنه منظر مشهود . والمقصود أصلا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة فى المعركة ، ولكن حركة الارتداد النفسية التى صاحبتها حينما هتف الهاتف : إن محمدا قد قتل ، فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين ، وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين ، وانتهى أمر الجهاد للمشركين ! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا ، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب ، كارتدادهم فى المعركة على الأعقاب ! وهذا هو الذى حذرهم إياه النضر ابن أنس ـ رضى الله عنه ـ فقال لهم حين وجدهم قد ألقوا بأيديهم ، وقالوا له : إن محمدا قد مات : « فما تصنعون بالحياة من بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم » .

« ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » ..

فإنما هو الخاسر ، الذى يؤذى نفسه فيتنكب الطريق .. وانقلابه لن يضر الله شيئاً فالله غنى عن الناس وعن إيمانهم . ولكنه ـ رحمة منه بالعباد ـ شرع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم ، ولخيرهم هم . وما ينكبه متنكب حتى يلاقى جزاءه من الشقوة والحيرة فى ذات نفسه وفيمن حوله . وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق ، وتعوج الأمور كلها ، ويذوق

الناس وبال أمرهم فى تنكبهم للمنهج الوحيد الذى تستقيم فى ظله الحياة ، وتستقيم فى ظله النفوس ، وتجد الفطرة فى ظله السلام مع ذاتها ، والسلام مع الكون الذى تعيش فيه .

« وسيجزى الله الشاكرين » . .

الذين يعرفون مقدار النعمة التى منحها الله لعباده فى إعطائهم هذاالمنهج ، فيشكرونها باتباع المنهج ، ويشكرونها بالثناء على الله ، ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاء طيبا على شكرهم ، ثم يسعدون بجزاء الله لهم فى الآخرة ، وهو أكبر وأبقى . .

وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الحادثة ، وبهذه الآية ، أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو حى بينهم . وأن يصلهم مباشرة بالنبع النبع الذى لم يفجره محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن جاء فقط ليومئ إليه ، ويدعوالبشر إلى فيضه المتدفق ، كما أومأ إليه من قبله من الرسل ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه !

وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يأخذ بأيديهم ، فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى العروة التى لم يعقدها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما جاء ليعقد بها أيدى البشر ، ثم يدعهم عليها ويمضى وهم بها مستمسكون !

وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشره ، وان يجعل عهدهم مع الله مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم فى هذا العهد أمام الله بلا وسيط . حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة ، التى لا يخليهم منها أن يموت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو يقتل ، فهم إنما بايعوا الله . وهم أمام الله مسؤولون !

وكأنما كان الله ـ سبحانه ـ يعدّ الجماعة المسلمة لتلقى هذه الصدمة الكبرى ـ حين تقع ـ وهو ـ سبحانه ـ يعلم أن وقعها عليهم يكاديتجاوز طاقتهم . فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو ، وبدعوته الباقية ، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول .

ولقد أصيبوا ـ حين وقعت بالفعل ـ بالدهش والذهول . حتى لقد وقف عمر ـ رضى الله عنه ـ شاهرا سيفه ، يهدد به من يقول : إن محمدا قد مات !

ولم يثبت إلا أبو بكر ، الموصول القلب بصاحبه ، وبقدر الله فيه الاتصال المباشر الوثيق .

Marfat.com

وكانت هذه الآية ـ حين ذكرها وذكربها المدهوشين الذاهلين ـ هى النداء الإلهى المسموع، فإذا هم يثوبون ويرجعون !

ثم يلمس السياق القرآنى مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية ، لمسة موحية ، تطرد ذلك الخوف ، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة فى شأن الموت وشأن الحياة ، ومآ بعد الحياة والموت من حكمة الله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ؛ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها . وسنجزى الشاكرين » ..

إن لكل نفس كتابا مؤجلا إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع ، والحرص والتخلف ، لا تطيل أجلا . والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمرا .. فلا كان الجبن ، ولا نامت أعين الجبناء. والأجل المكتوب لاينقص منه يوم ولا يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل فى النفس ، فتترك الاشتغال به ؛ ولا تجعله فى الحساب ، وهى تفكر فى الأداء والوفاء بالإلتزامات والتكاليف الإيمانية . وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته ، فى صبر وطمأنينة ، وتوكل على الله الذى يملك الآجال وحده .

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التى حسم فيها القول .. فإنه إذا كان العمر مكتوبا ، والأجل مرسوما .. فلتنظر نفس ما قدمت لغد ؛ ولتنظر نفس ماذا تريد .. تريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن تحصر همها كله فى هذه الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع ، وإلى حياة أكبر من هذه الحياة ؟ . . مع تساوى هذا الهم وذاك فيما يختص بالعمر والحياة ؟ !

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » .

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ! ـ مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل ـ والذى يعيش لهذه الأرض وحدها ، ويريد ثواب الدنيا وحدها . . إنما يحيا حياة

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

للديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب . والذى يتطلع إلى الأفق الآخر .. إنما يحيا حياة « الإنسان » الذى كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان . ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب . . « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » .

« وسنجزى الشاكرين » ..

الذين يدركون نعمة التكريم الإلهى للإنسان ، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ؛ ويشكرون الله على تلك النعمة ، فينهضون بتبعات الإيمان ..

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التى ينتهى إليها الأحياء ، وفق مايريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان ! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف ـ وهى لا تملك شيئا فى شأن الموت والحياة ـ إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس ، فى الحقل الذى تملكه ، وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الآخرة . وتنال من جزاء الله ماتختار !

ثم يضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم . من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق ، الضارب فى جذور الزمان .. من أولئك الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم ، فلم يجزعوا عند الابتلاء ؛ وتأدبوا ـ وهم مقدمون على الموت ـ بالأدب الإيمانى فى هذا المقام .. مقام الجهاد .. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ؛ وأن يجسموا أخطاءهم فيروها « إسرافا » فى أمرهم . وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار .. وبذلك نالوا ثواب الدارين ، جزاء إحسانهم فى أدب الدعاء ، وإحسانهم فى موقف الجهاد . وكانوا مثلا يضربه الله للمسلمين :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ؛ وثبت أقدامنا ؛ وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين » ..

Marfat.com

لقد كانت الهزيمة فى « أحد » . هى أول هزيمة تصدم المسلمين ، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل ؛ فكأنما وقر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو السنة الكونية . فلما أن صدمتهم أحد ، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه !

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة فى القرآن الكريم . واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالاستنكار تارة ، وبالتقرير تارة ، وبالمثل تارة . تربية لنفوسهم ، وتصحيحا لتصورهم ، وإعدادا لهم . فالطريق أمامهم طويل ، والتجارب أمامهم شاقة ، والتكاليف عليهم باهظة ، والأمر الذى يندبون له عظيم .

والمثل الذى يضربه لهم هنا مثل عام ، لا يحدد فيه نبيا ، ولا يحدد فيه قوما . إنما يربطهم بموكب الإيمان ؛ ويعلمهم أدب المؤمنين ؛ ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد فى كل دعوة وفى كل دين ؛ ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء ؛ ليقرر فى حسهم قرابة المؤمنين المؤمنين؛ ويقر فى أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد . وأنهم كتيبة فى الجيش الإيمانى الكبير :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » ..

.. وكم من نبىقاتلت معه جماعات كثيرة . فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح . وما ضعفت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء .. فهذا هو شأن المؤمنين ، المنافحين عن عقيدة ودين ..

« والله يحب اا ابرين » ..

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون .. والتعبير بالحب من الله للصابرين ، له وقعه . وله إيحاؤه . فهو الحب الذى يأسو الجراح ، ويمسح على القرح ، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير !

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين فى موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضى بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم . صورة الأدب فى حق الله ، وهم يواجهون الهول الذى يذهل النفوس ، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه . ولكنه

لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله .. لاتطلب النصر أول ماتطلب ـ وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس ـ ولـكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة ، قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء :

« وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الـكافرين » ..

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء. بل لم يطلبوا ثواباً ولا جزاء .. لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب لآخرة . لقد كانوا أكثر أدبا مع الله ، وهم يتوجهون إليه، بينما هم يقاتلون فى سبيله . فلم يطلبوا منـه ـ سبحانه ـ إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام .. والنصر على الـكفار . فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للـكفر وعقوبة للـكفار .. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين فى حق الله الـكريم .

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئاً ، أعطاهم الله من عنده كل شىء . أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة . وأعطاهم كذلك كل مايتمناه طلاب الآخرة ويرجونه :

« فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة » ..

وشهد لهم ـ سبحانه ـ بالإحسان . فقدأحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب :

« والله يحب المحسنين » ..

وهكذا تنتهى هذه الفقرة فى الاستعراض ؛ وقد تضمنت تلك الحقائق الـكبيرة فى التصور الإسلامى . وقد أدت هذا الدور فى تربية الجماعة المسلمة . وقد ادخرت هـذا الرصيد للأمة المسلمة فى كل جيل ..

* * *

ثم يمضى السياق خطوة أخرى فى استعراض أحداث المعركة ؛ واتخاذها محورا للتعقيبات ، يتوخى بهاتصحيح التصور ، وتربية الضمائر ، والتحذير من مزالق الطريق ، والتنبيه إلى ما يحيط بالجماعة المسلمة من الـكيد ، وما يبيته لها أعداؤها المتربصون :

Marfat.com

ولقد كانت الهزيمة فى أحد مجالا لدسائس الكفار والمنافقين واليهود فى المدينة . وكانت المدينة لم تخلص بعد للإسلام ؛ بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير . نبتة غريبة أحاطتها « بدر » بسياج من الرهبة ، بما كان فيها من النصر الأبلج . فلما كانت الهزيمة فى أحد تغير الموقف إلى حد كبير ؛ وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم ، وأن ينفثوا سمومهم ؛ وأن يجدوا فى جو الفجائع التى دخلت كل بيت من بيوت المسلمين ـ وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابتهم الجراح المثخنة ـ ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة فى الأفكار والصفوف .

وفى هذه الفقرة التالية من الاستعراض القرآنى الموجه ـ وهى تمثل جسم المعركة وأضخم مشاهدها ـ نسمع الله سبحانه يدعو الذين آمنوا ليحذرهم من طاعة الذين كفروا ؛ ونسمعه ـ سبحانه ـ يعدهم النصر على عدوهم ، وإلقاء الرعب فى قلبه ؛ ويذكرهم بالنصر الذى حققه لهم فى أول المعركة، حسب وعده لهم ؛ والذى إنما أضاعوه هم بضعفهم ونزاعهم وخلافهم عن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يستحضر مشهد المعركة بشطريه ، فى صورة فائضة بالحيوية والحركة . ثم ما أعقب الهزيمة والفزع ، من إنزال الطمأنينة فى قلوب المؤمنين منهم ؛ بينما القلق والحيرة والحسرة تأكل قلوب المنافقين ، الذين ساء ظنهم بالله سبحانه . ويكشف لهم كذلك عن جانب من حكمته الخفية وتدبيره اللطيف ، فى سير الأحداث سيرتها تلك ، مع تقرير حقيقة قدر الله فى آجال العباد . ويحذرهم فى نهاية هذه الفقرة من ضلال التصورات التى يشيعها الكفار فى قضية الموت والاستشهاد . ويردهم إلى حقيقة البعث ، التى ينتهى إليها الناس .. ماتوا أو قتلوا .. وإلى أنهم مرجوعون إلى الله على كل حال :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين .. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ؛ ومأواهم النار ؛ وبئس مثوى الظالمين ! ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ؛

Marfat.com

فأثابكم غما بغم ، لكى لا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله بما تعملون خبير . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ، نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله مافى صدوركم ، وليمحص مافى قلوبكم ؛ والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ؛ ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم ـ إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى ـ : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » ..

وحين ننظر فى هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية ، ومن الحقائق الكبيرة الأصيلة فى التصور الإسلامى ، وفى الحياة الإنسانية . وفى السنن الكونية .. نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة ، فلا تدع منها جانبا إلا سجلته تسجيلا يستجيش المشاعر والخواطر ؛ وهى بدون شك أشد حيوية وأشد استحضارا للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها ، وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها .. من كل تصوير آخر ورد فى روايات السيرة ـ على طولها وتشعبها ـ ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق فى صورتها الحية الفاعلة فى النفوس ، البانية للتصور الصحيح .

وما من شك أن احتشاد هذه المشاهد كلها ، وهذه الحقائق كلها ، فى هذا القدر من الألفاظ والعبارات ـ مع حيويتها وحركتها وإيحائها على هذا النحو ـ أمر غير معهود فى التعبير البشرى . يدرك ذلك من يدركون أسرار الأساليب ، وطاقات الأداء ، وبخاصة من يعالجون منهم التعبير ، ويعانون أسرار الأداء !

Marfat.com

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » . .

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود فى المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ، ليثبطوا عزائمهم ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال ، وعواقب الاشتباك مع مشركى قريش وحلفائهم . . وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب ، وخلخلة الصفوف ، وإشاعة عدم الثقة فى القيادة ؛ والتشكيك فى جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء ؛ وتزيين الانسحاب منها ، ومسالمة المنتصرين فيها ! مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية ؛ وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ، ثم لهدم كيان العقيدة ، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين !

ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة ، وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر . فالمؤمن إما أن يمضى فى طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل والمبطلين ، وإما أن يرتد على عقبيه كافرا ـ والعياذ بالله ـ ومحال أن يقف سلبيا بين بين ، محافظا على موقفه ، ومحتفظا بدينه .. إنه قد يخيل إليه هذا .. يخيل إليه فى أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح ، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو وهم كبير . فالذى لا يتحرك إلى الأمام فى هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء ، والذى لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ، لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ! والذى لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين، والاستماع إليهم ، والثقة بهم يتنازل ـ فى الحقيقة ـ عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى .. إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته ، وأن يستمع إلى وسوستهم ، وأن يطيع توجيهاتهم . . الهزيمة بادئ ذى بدء . فلا عاصم له من الهزيمة فى النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، ولو لم يحس فى خطواته الأولى أنه فى طريقه إلى هذا المصير البائس . . إن المؤمن يجد فى عقيدته ، وفى قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته . فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار

Marfat.com

الجزء الرابع

فى طريق الارتداد على الأعقاب .. حقيقة فطرية وحقيقة واقعية، ينبه الله المؤمنين لها، ويحذرهم إياها ، وهو يناديهم باسم الإيمان :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين» ..

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب ، من الإيمان إلى الكفر ؟ وأى ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان ؟

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم ، فهو وهم ، يضرب السياق صفحا عنه ، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية :

« بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين » .

فهذه هى الجهة التى يطلب المؤمنون عندها الولاية ، ويطلبون عندها النصرة . ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟

ثم يمضى السياق يثبت قلوب المسلمين ، ويبشرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم ، بسبب إشراكهم بالله مالم ينزل به سلطانا ، ولم يجعل له قوة وقدرة . وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين :

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا . ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين » . .

والوعد من الله الجليل القادر القاهر ، بإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ، كفيل بنهاية المعركة ، وضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه . .

وهو وعد قائم فى كل معركة يلتقى فيها الكفر بالإيمان . فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم ،ويتحرك الرعب الملقى من الله فى قلوبهم . ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين . حقيقة الشعور بولاية الله وحده ، والثقة المطلقة بهذه الولاية ، والتجرد من كل شائبة من شك فى أن جند الله هم الغالبون ، وأن الله غالب على أمره ، وأن

Marfat.com

الذين كفروا غير معجزين فى الأرض ولا سابقين لله سبحانه ! والتعامل مع وعد الله هذا ، مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه ، فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم !

إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح . لأنهم لا يستندون إلى قوة ولا إلى ذى قوة . إنهم أشركوا بالله آلهة لا سلطان لها ، لأن الله لم يمنحها سلطانا .

والتعبير : « مالم ينزل به سلطانا » ذو معنى عميق ، وهو يصادفنا فى القرآن كثيرا . مرة توصف به الآلهة المدعاة ، ومرة توصف به العقائد الزائفة . . وهو يشير إلى حقيقة أساسية عميقة :

إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة . . إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ماتحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار مافيها من « الحق » أى بمقدار مافيها من توافق مع القاعدة التى أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التى تعمل فى هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين فى هذا الوجود . وإلا فهى زائفة باطلة ضعيفة واهية ، مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش !

والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى ـ فى صور شتى ـ ويقوم الشرك ابتداء على إعطاء غير الله ـ سبحانه ـ شيئا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها . وفى مقدمة هذه الخصائص حق التشريع للعباد فى شؤون حياتهم كلها ؛ وحق وضع القيم التى يتحاكم إليها العباد فى سلوكهم وفى مجتمعاتهم ؛ وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم . . ثم تأتى مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه ، وواحدة منها !

فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذى أقام الله عليه الكون ؟ إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد ؛ وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ؛ ولتتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع ؛ ولتعبده وحده حق عبادته بلا أنداد . . فكل ما يخرج على قاعدة التوحيد فى معناها الشامل، فهو زائف باطل،مناقض للحق الكامن فى بنية الكون. ومن ثم فهو واهٍ هزيل ، لا يحمل قوة ولا سلطانا ، ولا يملك أن يؤثر فى مجرى الحياة ؛ بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة !

وما دام أولئك المشركون يشركون بالله مالم ينزل به سلطانا ؛ من الآلهة والعقائد والتصورات فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء ، وهم أبدا خوارون ضعفاء ؛ وهم أبدا فى رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذى السلطان ..

وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل . وكم من مرة وقف الباطل مدججا بالسلاح أمام الحق الأعزل . ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ، ويرتجف من كل حركة وكل صوت ـ وهو فى حشده المسلح المحشود ! فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب فى صفوف الباطل ؛ ولو كانت له الحشود ، وكان للحق القلة ، تصديقا لوعد الله الصادق :

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا » ..

ذلك فى الدنيا . فأما فى الآخرة .. فهناك المصير المحزن البائس الذى يليق بالظالمين .

« ومأواهم النار . وبئس مثوى الظالمين ! » ..

وهنا يردهم السياق إلى مصداق وعد الله هذا فى غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق فى أوائلها . ولقد استحر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار ، وتركوا وراءهم الغنائم ، وسقط لواؤهم فلم تمتد يد لرفعه حتى رفعته لهم امرأة ! . . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم ؛ وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا عن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيهم وقائدهم .. وهنا يردهم السياق إلى صميم المعركة ومشاهدها ومواقفها وأحداثها وملابساتها ، فى حيوية عجيبة :

« ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم ـ من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون :

Marfat.com

Marfat.com

هل لنـا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . يقولون : لو كان لنـا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله مافى صدوركم . وليمحص مافى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا. ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم » ..

إن التعبير القرآنى هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ، ولتداول النصر والهزيمة . مشهدا لا يترك حركة فى الميدان ، ولا خاطرة فى النفوس ، ولا سمة فى الوجوه، ولا خالجة فى الضمائر ، إلا ويثبتها .. وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر ، ويحمل فى كل حركة صورا جديدة نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد فى الجبل ، والهروب فى دهش وذعر ، ودعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للفارين المرتدين عن المعركة ، المصعدين للهرب . يصحب ذلك كله حركة النفوس ، ومايدور فيها من خوالج وخواطر وانفعالات ومطامع..ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركة النابضة،تلك التوجيهات والتقريرات التى يتميز بها أسلوب القرآن ، ومنهج القرآن التربوى العجيب :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » ..

وكان ذلك فى مطالع المعركة ، حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين ، أى يخمدون حسهم ، أو يستأصلون شأفتهم . قبل أن يلهيهم الطمع فى الغنيمة . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قال لهم : « لكم النصر ماصبرتم » فصدقهم الله وعده على لسان نبيه .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ..

وهو تقرير لحال الرماة . وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتهى الأمر إلى العصيان. بعد مارأوا بأعينهم طلائع النصر الذى يحبونه . فكانوا فريقين : فريقا يريد غنيمة الدنيا ، وفريقا يريد ثواب الآخرة . وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ، ولم يعد الهدف واحدا .

Marfat.com

وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذى لابد منه فى معركة العقيدة . فمعركة العقيدة ليست ككل معركة . إنها معركة فى الميدان ومعركة فى الضمير . ولا انتصار فى معركة الميدان دون الانتصار فى معركة الضمير . إنها معركة لله ، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له . ومادامو يرفعون راية الله وينتسبون إليها ، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذامحصهم ومحضهم للراية التى رفعوها ؛ كى لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة فى بعض المعارك ـ لحكمة يعلمها الله ـ أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد ، فلا يمنحهم الله النصر أبدا ، حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا .. وهذا مايريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم فى المعركة ، وهذا ماأراد الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه للجماعة المسلمة ، وهى تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح !

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ..

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب ، التى ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها فى قلوبهم .. عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الدنيا ، حتى نزل فينا يوم أحد : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » (١) .. وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ؛ ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها !

وفى الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره ، وراء هذه الآلام التى تعرضوا لها ؛ ووراء هذه الأحداث التى وقعت بأسبابها الظاهرة :

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » . .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين

---

(١) رواه ابن كثير فى التفسير وقال : روى من غير وجه عن ابن مسعود . ورواه ابن مردويه فى تفسيره .

عن الميدان ، فلاذوا بالفرار .. وقع كل هذا مرتبا على ما صدر منهم ؛ ولكن مدبرا من الله ليبتليهم .. ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ؛ وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ، ومن تمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ـ كما سيجىء .

وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها ، وهى فى الوقت ذاته مدبرة بحسابها . بلا تعارض بين هذا وذاك . فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير .. من اللطيف الخبير ..

« ولقد عفا عنكم » ..

عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ؛ وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد .. عفا عنكم فضلا منه ومنة ، وتجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة .. عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون فى دائرة الإيمان بالله ، والاستسلام له ، وتسليم قيادكم لمشيئته :

« والله ذو فضل على المؤمنين » ..

ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ، ماداموا سائرين على منهجه ، مقرين بعبوديتهم له ؛ لايدعون من خصائص الألوهية شيئا لأنفسهم ، ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ، ولا موازينهم إلا منه .. فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أوعن طيش ودفعة .. فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص ..

ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة :

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم » ..

كى يعمق وقع المشهد فى حسهم ؛ ويثير الخجل والحياء من الفعل ، ومقدماته التى نشأ عنها، من الضعف والتنازع والعصيان .. والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى ألفاظ قلائل .. فهم مصعدون فى الجبل هربا ، فى اضطراب ورعب ودهش ، لايلتفت أحدمنهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعى أحد ! والرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ يدعوهم، ليطمئنهم على حياته بعد ماصاح صائح : إن محمدا قد قتل ، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم .. إنه مشهد كامل فى ألفاظ قلائل ..

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

بفرارهم ، غما يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه ـ وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون ـ ذلك كى لا يحفلوا شيئاً فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وهذا الألم الذى أصاب نبيهم ـ وهو أشق عليهم من كل مانزل بهم ـ وذلك الندم الذى ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذى أصابهم . . كل ذلك سيصغر فى نفوسهم كلّ مايفوتهم من عرض ، وكل مايصيبهم من مشقة :

« فأثابكم غما بغم ، لكى لا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم » . .

والله المطلع على الخفايا ، يعلم حقيقة أعمالكم ، ودوافع حركاتكم :

« والله خبير بما تعملون » . .

ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها ، وهرجها ومرجها ، سكون عجيب . سكون فى نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى نبيهم . لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين !

والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم ، حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع :

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم » . .

وهى ظاهرة عجيبة تشى برحمة الله التى تحف بعباده المؤمنين ؛ فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ، يفعل فى كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقا جديدا ، ويسكب فى قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب فى كيانهم الراحة . بطريقة مجهولة الكنه والكيف ! أقول هذا وقد جربته فى لحظة كرب وشدة . فأحسست فيه رحمة الله الندية العميقة بصورة تعجز عن وصفها العبارة البشرية القاصرة !

روى الترمذى والنسائى والحاكم من حديث حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال : « رفعت رأسى يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس » .

Marfat.com

وفى رواية أخرى عن أبى طلحة : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه » . .

أما الطائفة الآخرى ؛ فهم ذوو الإيمان المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ، ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة ، ولم يستسلموا بكليتهم لقدره ، ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ماأصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص ، وليس تخليا من الله عن أوليائه لأعدائه ، ولا قضاء منه ـ سبحانه ـ للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل :

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ » . .

إن هذه العقيدة تعلم أصحابها ـ فيما تعلم ـ أن ليس لهم فى أنفسهم شىء ، فهم كلهم لله ؛ وأنهم حين يخرجون للجهاد فى سبيله يخرجون له ، ويتحركون له ، ويقاتلون له ، بلا هدف آخر لذواتهم فى هذا الجهاد ، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره ، فيتلقون مايأتيهم به هذا القدر فى رضى وفى تسليم ، كائنا هذا القدر مايكون .

فأما الذين تهمهم أنفسهم ، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم ، ومحور اهتمامهم وانشغالهم .. فهؤلاء لم تكتمل فى نفوسهم حقيقة الإيمان . ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الموضع . طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهم فى قلق وفى أرجحة ، يحسون أنهم مضيعون فى أمر غير واضح فى تصورهم ، ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعا ولا إرادة لهم فيها ؛ وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير ، ويؤدون الثمن فادحا من القتل والقرح والألم . . وهم لا يعرفون الله على حقيقته ، فهم يظنون بالله غير الحق ، كما تظن الجاهلية . ومن الظن غير الحق بالله أن يتصوروا أنه ـ سبحانه ـ مضيعهم فى هذه المعركة ، التى ليس لهم من أمرها شىء ، وإنما دفعوا إليها دفعا ليموتوا ويجرحوا ، والله لا ينصرهم ولا ينقذهم ؛ إنما يدعهم فريسة لأعدائهم ، ويتساءلون :

« هل لنا من الأمر من شىء ؟ » .

وتتضمن قولتهم هذه الاعتراض على خطة القيادة والمعركة . . ولعلهم ممن كان رأيهم عدم

Marfat.com

الخروج من المدينة ؛ ممن لم يرجعوا مع عبد الله بن أبى . . ولـكن قلوبهم لم تـكن قد استقرت واطمأنت . .

وقبل أن يكمل السياق عرض وساوسهم وظنونهم ، يبادر بتصحيح الأمر وتقرير الحقيقة فيما يتساءلون فيه ، ويرد على قولتهم : « هل لنا من الأمر من شىء ؟» .

« قل : إن الأمر كله لله » . .

فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم . ومن قبل قال الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليس لك من الأمر شىء » . فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه فى الأرض ، وهداية القلوب له . . كلها من أمر الله ، وليس للبشر فيها من شىء ، إلا أن يؤدوا واجبهم ، ويفوا ببيعتهم ، ثم يكون مايشاؤه الله كيف يكون !

ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوسهم وظنونهم :

« يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » . .

فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس ، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ؛ وسؤالهم : « هل لنا من الأمر من شىء » . . يخفى وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه ! وأنهم ضحية سوء القيادة ، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة مالاقوا هذا المصير .

« يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » . .

وهو الهاجس الذى يجيش فى النفوس التى لم تخلص للعقيدة، حينما تصطدم فى موقعة بالهزيمة، وحينما تعانى آلام الهزيمة ! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن ؛ وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ، وحين تفتش فى ضمائرها فلا ترى الأمر واضحا ولا مستقرا ؛ وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذى ألقى بها فى هـذه المهلـكة ، وكانت فى نجوة من الأمر لو كان أمرها فى يدها ! وهى لا يمكن ـ بهـذا الغبش فى التصور ـ أن ترى يد الله وراء الأحداث ، ولا حكمته فى الابتلاء . إنما المسألة كلها ـ فى اعتبارها ـ خسارة فى خسارة ! وضياع فى ضياع !

هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله . لأمر الحياة والموت . ولأمر الحـكمة الـكامنة وراء الابتلاء :

Marfat.com

Marfat.com

« قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله مافى صدوركم ، وليمحص مافى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » ..

قل لو كنتم فى بيوتكم ؛ ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة ، وكان أمركم كله لتقديركم . . لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . . إن هنالك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر . وإن هنالك مضجعا مقسوما لابد أن يجىء إليه صاحبه فيضجع فيه ! فإذا حم الأجل ، سعى صاحبه بقدميه إليه،وجاء إلى مضجعه برجليه ، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم ، ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم !

وياللتعبير العجيب .. « إلى مضاجعهم » .. فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذى تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهى إليه الضاربون فى الأرض .. مضجع يأتون إليه بدافع خفى لا يدركونه ولا يملكونه ، إنما هو يدركهم ويملكهم ؛ ويتصرف فى أمرهم كما يشاء . والاستسلام له أروح للقلب ، أهدأ للنفس ، وأريح للضمير !

إنه قدر الله . ووراءه حكمته :

« وليبتلى الله مافى صدوركم ، وليمحص مافى قلوبكم » ..

فليس كالمحنة محك يكشف مافى الصدور،ويصهر مافى القلوب ، فينفى عنها الزيف والرياء، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .. فهو الابتلاء والاختبار لما فى الصدور ، ليظهر على حقيقته ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف. وهو التصحيح والتجلية للتصور؛ فلا يبقى فيه غبش ولا خلل :

« والله عليم بذات الصدور » .

وذات الصدور هى الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، الصاحبة لها ، التى لا تبارحها ولا تتكشف فى النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . ولكنه ـ سبحانه ـ يريد أن يكشفها للناس ، ويكشفها لأصحابها أنفسهم ، فقد لا يعلمونها من أنفسهم ، حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم !

ولقد علم الله دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان فى الغزوة . إنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها ؛ فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها ، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ ، واستزلهم فزلوا وسقطوا :

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » ..

وقد تكون الإشارة فى هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال فى نفوسهم الطمع فى الغنيمة كما جال فيها أن رسول الله سيحرمهم أنصبتهم . فكان هذا هو الذى كسبوه ، وهو الذى استزلهم الشيطان به ..

ولكنها فى عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها فى قوتها ، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس ، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة ، وهى بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين .

ومن هنا كان الاستغفار من الذنب هو أول ما توجه به الربيون الذين قاتلوا مع النبيين فى مواجهة الأعداء . الاستغفار الذى يردهم إلى الله ، ويقوى صلتهم به ، ويعفى قلوبهم من الأرجحة ، ويطرد عنها الوساوس ، ويسد الثغرة التى يدخل منها الشيطان ، ثغرة الانطقاع عن الله ، والبعد عن حماه . هذه الثغرة التى يدخل منها فيزل أقدامهم مرة ومرة ، حتى ينقطع بهم فى التيه ، بعيدا بعيدا عن الحمى الذى لا ينالهم فيه !

ويحدثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم . . ويعرفهم بنفسه ـ سبحانه ـ فهو غفور حليم . لا يطرد الخطاة ولا يعجل عليهم ؛ متى علم من نفوسهم التطلع إليه ، والاتصال به ؛ ولم يعلم منها التمرد والتفلت والإباق !

ويتم السياق بيان حقيقة قدر الله فى الموت والحياة ، وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر ، مناديا الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء . ويردهم فى النهاية إلى قيم أخرى وإلى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم ـ إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى ـ : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » ..

Marfat.com

وظاهر من مناسبة هذه الآيات فى سياق المعركة ، أن هـذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة ، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا فى الإسلام ؛ ولـكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات .. وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء فى أحد ، مادة لإثارة الحسرة فى قلوب أهليهم ، واستجاشة الأسى على فقدهم فى المعركة ـ نتيجة لخروجهم ـ ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية مما يترك فى الصف المسلم الخلخلة والبلبلة . ومن ثم جاء هذا البيان القرآنى لتصحيح القيم والتصورات ، ورد هذا الـكيد إلى نحور كائديه .

إن قول الـكافرين : « لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا » .. ليـكشف عن الفارق الأساسى فى تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها ، للسنن التى تسير عليها الحياة كلها وأحداثها : سراؤها وضراؤها .. إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف إلى مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله . إنه يعـلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئـه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع ، ولا يتلقى السراء بالزهو ، ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ؛ ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقى كذا ، أو ليستجلب كذا ، بعـد وقوع الأمر وانتهائه ! فمجال التقدير والتدبير والرأى والمشورة ، كله قبل الإقدام والحركة ؛ فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير ـ فى حدود علمه وفى حدود أمر الله ونهيه ـ فـكل ما يقع من النتائج ، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم ؛ موقنا أنه وقع وفقا لقـدر الله وتدبيره وحكمته ؛ وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ؛ ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله ! .. توازن بين العمل والتسليم ، وبين الإيجابية والتوكل ، يستقيم عليه الخطو ، ويستريح عليه الضمير .. فأما الذى يفرغ قلبه من العقيدة فى الله على هذه الصورة المستقيمة ، فهو أبدا مستطار ، أبدا فى قلق ! أبدا فى « لو » و « لولا » و « ياليت » و « وا أسفاه » !

والله ـ فى تربيته للجماعة المسلمة ، وفى ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها ـ يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا . أولئك الذين تصيبهم الحسرات ، كلما مات لهم قريب وهو يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو قتل فى ثنايا المعركة وهو يجاهد :

« ياأيها الذين آمنوا لا تـكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ..

Marfat.com

يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة مايجرى فى الكون ،ولحقيقة القوة الفاعلة فى كل مايجرى. فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة واللابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله ، وعن قدره الجارى فى الحياة .

« ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » ..

فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا فى الأرض فى طلب الرزق فيموتوا ، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا . . إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهى استيفاء الأجل ، ونداء المضجع ، وقدر الله ، وسنته فى الموت والحياة ، ما تحسروا . ولتلقوا الابتلاء صابرين ، ولفاءوا إلى الله راضين :

« والله يحيي ويميت » ..

فبيده إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، فى الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس فى بيوتهم وبين أهلهم ، أوفى ميادين الكفاح للرزق أوللعقيدة . وعنده الجزاء، وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر :

« والله بما تعملون بصير .. » ..

على أن الأمر لا ينتهى بالموت أو القتل ؛ فهذه ليست نهاية المطاف . وعلى أن الحياة فى الأرض ليست خير ما يمنحه الله للناس من عطاء . فهناك قيم أخرى ، واعتبارات أرقى فى ميزان الله :

« ولئن قتلتم ـ فى سبيل الله ـ أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » ..

فالموت أو القتل فى سبيل الله ـ بهذا القيد ، وبهذا الاعتبار ـ خير من الحياة ، وخير مما يجمعه الناس فى الحياة من أعراضها الصغار : من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع. خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته ، وهى فى ميزان الحقيقة خير مما يجمعون . وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين .. إنه لا يكلهم ـ فى هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية ، ولا إلى اعتبارات

Marfat.com

Marfat.com

بشرية . إنما يكلهم إلى ما عند الله ، ويعلق قلوبهم برحمة الله . وهى خير مما يجمع الناس على الإطلاق ، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض ..

وكلهم مرجوعون إلى الله ، محشورون إليه على كل حال . ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون فى الأرض ، أو قتلوا وهم يجاهدون فى الميدان . فما لهم مرجع سوى هـذا المرجع ؛ ومالهم مصير سوى هـذا المصير . . والتفاوت إذن إنما يكون فى العمل والنية وفى الاتجاه والاهتمام . . أما النهاية فواحدة : موت أو قتل فى الموعد المحتوم ، والأجل المقسوم . ورجعة إلى الله وحشر فى يوم الجمع والحشر .. ومغفرة من الله ورحمة ، أو غضب من الله وعذاب .. فأحمق الحمق من يختار لنفسه المصير البائس . وهو ميت على كل حال !

بذلك تستقر فى القلوب حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة قدر الله . وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر ؛ وإلى ما وراء القدر من حكمة ، وما وراء الابتلاء من جزاء . . وبذلك تنتهى هـذه الجولة فى صميم أحداث المعركة ، وفيما صاحبها من ملابسات . .

* * *

ثم يمضى السياق القرآنى فى جولة جديدة . . جولة محورها شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحقيقته النبوية الكريمة ؛ وقيمة هذه الحقيقة الكبيرة فى حياة الأمة المسلمة ؛ ومدى ما يتجلى فيها من رحمة الله بهذه الأمة . . وحول هذا المحور خيوط أخرى من المنهج الإسلامى فى تنظيم حياة الجماعة المسلمة ، وأسس هـذا التنظيم ؛ ومن التصور الإسلامى والحقائق التى يقوم عليها ، ومن قيمة هذا التصور وذلك المنهج فى حياة البشرية بصفة عامة :

« فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما كان لنبى أن يغل . ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ،ومأواه جهنم وبئس

المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون . لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . .

وننظر فى هذه الفقرة ، وفى الحقائق الكثيرة الأصيلة المشدودة إلى محورها ـ وهى الحقيقة النبوية الكريمة ـ فنجد كذلك أصولا كبيرة تحتويها عبارات قصيرة .. نجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة فى أخلاق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطبيعته الخيرة الرحيمة الهينة اللينة ، المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس .. ونجد أصل النظام الذى تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية ـ وهو الشورى ـ يؤمر به فى الموضع الذى كان للشورى ـ فى ظاهر الأمر ـ نتائج مريرة ! ونجد مع مبدأ الشورى مبدأ الحزم والمضى ـ بعد الشورى ـ فى مضاء وحسم . ونجد حقيقة التوكل على الله ـ إلى جانب الشورى والمضاء ـ حيث تتكامل الأسس التصويرية والحركية والتنظيمية . ونجد حقيقة قدر الله ، ورد الأمر كله إليه وفاعليته التى لا فاعلية غيرها فى تصريف الأحداث والنتائج . ونجد التحذير من الخيانة والغلول والطمع فى الغنيمة . ونجد التفرقة الحاسمة بين من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله ، تبرز منها حقيقة القيم والاعتبارات والكسب والخسارة . . وتختم الفقرة بالإشادة بالمنة الإلهية الممثلة فى رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذه الأمة ، المنة التى تتضاءل إلى جانبها الغنائم ، كما تتضاءل إلى جانبها الآلام سواء !

هذا الحشد كله فى تلك الآيات القلائل المعدودات !

« فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين » .

إن السياق يتجه هنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى نفسه شىء من القوم ؛ تحمسوا للخروج ، ثم اضطربت صفوفهم ، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ؛ وخالفوا ـ بعد ذلك ـ عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ، وانقلبوا على

Marfat.com

أعقابهم مهزومين ، وأفردوه فى النفر القليل ، وتركوه يئخن بالجراح وهو صامد يدعوهم فى أخراهم ، وهم لا يلوون على أحد ... يتوجه إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطيب قلبه ، وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به . ويذكره ويذكرهم رحمة الله الممثلة فى خلقه الكريم الرحيم ، الذى تتجمع حوله القلوب . . ذلك ليستجيش كوامن الرحمة فى قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه ؛ وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبى الرحيم. ثم يدعوه أن يعفو عنهم ، ويستغفر الله لهم . . وأن يشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم ؛ غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسى فى الحياة الإسلامية .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ؛ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . .

فهى رحمة الله التى نالته ونالتهم ؛ فجعلته ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحيما بهم ، لينا معهم . ولو كان فظا غليظ القلب ماتألفت حوله القلوب ، ولا تجمعت حوله المشاعر . فالناس فى حاجة إلى كنف رحيم ، وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم . . فى حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ؛ ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ؛ ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء . . وهكذا كان قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا كانت حياته مع الناس . ماغضب لنفسه قط . ولا ضاق صدره بضعفهم البشرى . ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ماملكت يداه فى سماحة ندية ووسعهم حلمه وبره وعطفه وودّه الكريم . وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ؛ نتيجة لما أفاض عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نفسه الكبيرة الرحيبة .

وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته . . يذكرهم بها فى هذا الموقف . ليرتب عليها مايريده ـ سبحانه ـ لحياة هذه الأمة من تنظيم :

« فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » . .

وبهذا النص الجازم : « وشاورهم فى الأمر» .. يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

المسلمة شكا فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه . . أما شكل الشورى ، والوسيلة التى تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتهـا . وكل شكل وكل وسيلة ، تتم بهـا حقيقة الشورى ـ لا مظهرها ـ فهى من الإسلام .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو فى ظاهرها خطيرة مريرة ! فقد كان من جرائها ظاهريا وقوع خلل فى وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء . فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون فى المدينة محتمين بها ، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة . وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين . وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل فى وحدة الصف . إذ عاد عبد الله ابن أبى ابن سلول بثلث الجيش ، والعدو على الأبواب ـ وهو حدث ضخم وخلل مخيف ـ كذلك بدا أن الخطة التى نفذت لم تكن ـ فى ظاهرها ـ أسلم الخطط من الناحية العسكرية . إذ أنها كانت مخالفة «للسوابق» فى الدفاع عن المدينة ـ كما قال عبد الله ابن أبى ـ وقد اتبع المسلمون عكسها فى غزوة الأحزاب التالية ، فبقوا فعلا فى المدينة ، وأقاموا الخندق ، ولم يخرجوا للقاء العدو . منتفعين بالدرس الذى تلقوه فى أحد !

ولم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجهل النتائج الخطيرة التى تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج . فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة ، التى رآها ، والتى يعرف مدى صدقها . وقد تأولها قتيلا من أهل بيته ، وقتلى من صحابته ، وتأول المدينة درعا حصينة . . وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليـه الأمر نتيجة للشورى . . ولـكنه أمضاها وهو يدرك ماوراءها من الآلام والخسائر والتضحيات . لأن إقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة ، وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة . أمام ما أحدثته من انقسام فى الصفوف فى أحرج الظروف ؛ وأمام النتائج المريرة التى انتهت إليها المعركة ! ولـكن الإسلام كان ينشىء أمة ، ويربيها ، ويعدها لقيادة البشرية . وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة ، أن تربى بالشورى ؛ وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن

Marfat.com

بخطىء ـ مهما يكن الخطأ جسيما وذا نتائج مريرة ـ لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها . فهى لاتتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ . . والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة . واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر فى حياة الأمة ليس فيه شىء من الكسب لها ، إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية . إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية . ولكنها تخسر نفسها ، وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية . كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى ـ مثلا ـ لتوفير العثرات والحبطات . أو توفير الحذاء !

كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ، ويعدها للقيادة الراشدة . فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها ، ويرفع عنها الوصاية فى حركات حياتها العملية الواقعية ، كى تدرب عليها فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبإشرافه . ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبا عمليا واقعيا فى أخطر الشؤون ـ كمعركة أحد التى قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيا ، وهى أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب ـ ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة ـ لو كان وجود القيادة الراشدة فى الأمة يكفى ويسد مسد مزاولة الشورى فى أخطر الشؤون ، لكان وجود محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه الوحى من الله سبحانه وتعالى ـ كافيا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ! ـ وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التى صاحبتها فى ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة. ولكن وجود محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه الوحى الإلهى ووقوع تلك الأحداث، ووجود تلك الملابسات ، لم يلغ هذا الحق . لأن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن لابد من مزاولته فى أخطر الشؤون ، ومهما تكن النتائج ، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصف، ومهما تكن التضحيات المريرة، ومهما تكن الأخطار المحيطة .. لأن هذه كلها جزئيات لاتقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة ، المدربة بالفعل على الحياة ؛ المدركة لتبعات الرأى والعمل ، الواعية لنتائج الرأى والعمل .. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهى ، فى هذا الوقت بالذات :

« فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » ..

Marfat.com

الجزء الرابع

ليقرر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحبت استعماله ؛ وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة أياً كانت الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق ؛ وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة ، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصف ، كما وقع فى « أحد » والعدو على الأبواب . . لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ . ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق!

على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامى لا تكمل حتى نمضى مع بقية الآية ؛ فنرى أن الشورى لا تنتهى أبدا إلى الأرجحة والتعويق ، ولا تغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية المطاف :

« فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين » ..

إن مهمة الشورى هى تقليب أوجه الرأى ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة . فإذا انتهى الأمر إلى هـذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ . . التنفيذ فى عزم وحسم ، وفى توكل على الله ، يصل الأمر بقدر الله ، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء .

وكما ألقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ درسه النبوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء الرأى ، واحتمال تبعته بتنفيذه ، فى أخطر الشؤون وأكبرها .. كذلك ألقى عليها درسه الثانى فى المضاء بعد الشورى ، وفى التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدره ـ على علم بمجراه واتجاهه ـ فأمضى الأمر فى الخروج ، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته ـ وهو يعلم إلى أين هو ماض، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات .. وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مالا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى .. حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع . لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله . درس الشورى . ثم العزم والمضى . مع التوكل على الله والاستسلام لقدره . وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأى من جديد . فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى .. إنما هو رأى وشورى . وعزم ومضاء . وتوكل على الله ، يحبه الله :

« إن الله يحب المتوكلين » ..

والخلة التى يحبها الله ويحب أهلها هى الخلة التى ينبغى أن يحرص عليها المؤمنون . بل هى التى تميز المؤمنين .. والتوكل على الله ، ورد الأمر إليه فى النهاية ، هو خط التوازن الأخير فى التصور الإسلامى وفى الحياة الإسلامية . وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مرد الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد ..

لقد كان هذا درسا من دروس « أحد » الكبار . هو رصيد الأمة المسلمة فى أجيالها كلها ، وليس رصيد جيل بعينه فى زمن من الأزمان ..

ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضى السياق فيقرر أن القوة الفاعلة فى النصر والخذلان هى قوة الله ، فعندها يلتمس النصر ، ومنها تتقى الهزيمة ، وإليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ، ونفض الأيدى من العواقب ، وتعليقها بقدر الله :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

إن التصور الإسلامى يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله ـ سبحانه ـ وتحقق هذا القدر فى الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .. إن سنة الله تجرى بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هى التى « تنشىء » النتائج . فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته .. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدى واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفى بالتزاماته . وبقدر مايوفى بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها . . وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذى يأذن لها بالوجود حين يشاء ، وكيفما يشاء .. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله . فهو يعمل ويبذل مافى طوقه ؛ وهو يتعلق فى نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته . ولاحتمية فى تصوره بين النتائج والأسباب . فهو لا يحتم أمرا بعينه على الله !

وهنا فى قضية النصر والخذلان ، بوصفهما نتيجتين للمعركة ـ أية معركة ـ يرد المسلمين

Marfat.com

إلى قدر الله ومشيئته ؛ ويعلقهم بإرادة الله وقدرته : إن ينصرهم الله فلا غالب لهم . وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده .. وهى الحقيقة الكلية المطلقة فى هذا الوجود . حيث لا قوة إلا قوة الله ، ولا قدرة إلا قدرته ، ولا مشيئة إلا مشيئته . وعنها تصدر الأشياء والأحداث .. ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفى المسلمين من اتباع المنهج ، وطاعة التوجيه ، والنهوض بالتكاليف ، وبذل الجهد ، والتوكل بعد هذا كله على الله :

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شىء من عند غير الله ؛ ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة فى هذا الوجود ؛ فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ؛ ويتوكل على الله وحده فى إحداث النتائج ، وتحقيق المصاير ، وتدبير الأمر بحكمته ، وتقبل مايجىء به قدر الله فى اطمئنان أيا كان .

إنه التوازن العجيب ، الذى لا يعرفه القلب البشرى إلا فى الإسلام .

ثم يعود إلى الحديث عن النبوة وخصائصها الخلقية ؛ ليمد من هذا المحور خيوطا فى التوجيه للأمانة ، والنهى عن الغلول ، والتذكير بالحساب ، وتوفية النفوس دون إجحاف :

« وما كان لنبي أن يغل.ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة . ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون » ..

ولقد كان من بين العوامل التى جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل ، خوفهم ألا يقسم لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنائم ! كذلك كان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر من قبل قد اختفت ؛ ولم يستحوا أن يهمسوا باسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا المجال .

فهنا يأتى السياق بحكم عام ينفى عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا . . أى أن يحتجزوا شيئا من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض ، أو يخونوا إجمالا فى شىء :

« وما كان لنبي أن يغل » ..

ما كان له . فهو ليس من شأنه أصلا ولا من طبعه ولا من خلقه . فالنفى هنا نفى لإمكان

Marfat.com

Marfat.com

وقوع الفعل . وليس نفيا لحله أو جوازه . فطبيعة النبي الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء . . وفى قراءة : « يُغلّ » على بناء الفعل لغير الفاعل . أى لا يجوز أن يخان . ولا أن يخفى عنه أتباعه شيئاً .. فيكون نهيا عن خيانة النبي فى شىء . وهو يتمشى مع عجز الآية . وهى قراءة الحسن البصرى .

ثم يهدد الذين يغلون ، ويخفون شيئا من المال العام أو من الغنائم ، ذلك التهديد المخيف :

« ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة . ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ..

روى الإمام أحمد . حدثنا سفيان عن الزهرى ، سمع عروة يقول : حدثنا أبو حميد الساعدى قال : استعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتيبة . على الصدقة . فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى إلى . فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر فقال : « مابال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده ، لا يأتى أحدكم منها بشىء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، وإن بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » .. ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه . ثم قال : « اللهم هل بلغت ؟ » ـ ثلاثا ـ . . (وأخرجه الشيخان) وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبى هريرة قال: قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما فذكر الغلول ، فعظمه وعظم أمره . ثم قال : « لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبتــه بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس لهـا حمحمة ، فيقول : يارسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت . فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك » .. (وأخرجه الشيخان من حديث أبى حيان) ..

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عدى ابن عميرة الكندى . قال : قال رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا أيها الناس . من عمل لنا منكم عملا ، فكتمنا منه مخيطا (١) فما فوقه ، فهو غل يأتى به يوم القيامة » .. قال : فقام رجل من الأنصار أسود ـ قال مجاهد : هو سعد ابن عبادة كأنى أنظر إليه ـ فقال : يارسول الله ، اقبل منى عملك. قال : « وما ذاك؟ » قال : سمعتك تقول : كذا وكذا . قال : « وأنا أقول ذلك الآن . من استعملناه على عمل فليجىء بقليله وكثيره . فما أوتى منه أخذه ؛ وما نهى عنه انتهى » .. (ورواه مسلم وأبو داود من طرق عن إسماعيل ابن أبى رافع) ..

وقد عملت هذه الآية القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عملها فى تربية الجماعة المسلمة ؛ حتى أتت بالعجب العجاب ؛ وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع والتحرج من الغلول فى أية صورة من صوره ، كما لم تتمثل قط فى مجموعة بشرية . وقد كان الرجل من أفناء الناس من المسلمين يقع فى يده الثمين من الغنيمة ، لا يراه أحد ، فيأتى به إلى أمره ، لا تحدثه نفسه بشىء منه ، خشية أن ينطبق عليه النص القرآنى المرهوب ، وخشية أن يلقى نبيه على الصورة المفزعة المخجلة التى حذره أن يلقاه عليها يوم القيامة ! فقد كان المسلم يعيش هذه الحقيقة فعلا . وكانت الآخرة فى حسه واقعا ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه ، فيتوقاها ويفزع أن يكون فيها . وكان هذا هو سر تقواه وخشيته وتحرجه . فالآخرة كانت حقيقة يعيشها ، لا وعدا بعيدا ! وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت ، وهم لا يظلمون ..

روى ابن جرير الطبرى فى تاريخه قال : لما هبط المسلمون المدائن ، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض . فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ماأتيتكم به . فعرفوا أن للرجل شأنا . فقالوا : من أنت ؟ فقال : لاوالله لاأخبركم لتحمدونى، ولا غيركم ليقرظونى ! ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه . فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه فإذا عامر بن عبد قيس (٢) ..

---

(١) يعنى إبرة خياطة .

(٢) تاريخ الطبرى جزء ٤ ص ١٦

Marfat.com

Marfat.com

وقد حملت الغنائم إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ بعد القادسية ، وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يقومان بثمن .. فنظر ـ رضى الله عنه ـ إلى ما أداه الجند فى غبطة وقال : « إن قوما أدوا هذا لأمينهم لأمناء » ..

وهكذا ربى الإسلام المسلمين تلك التربية العجيبة التى تكاد أخبارها تحسب فى الأساطير .

ثم يستطرد السياق ـ فى معرض الحديث عن الغنائم والغلول ـ يوازن بين القيم . . القيم الحقيقية التى يليق أن يلتفت إليها القلب المؤمن ، وأن يشغل بها :

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون » ..

إنها النقلة التى تصغر فى ظلها الغنائم ، ويصغر فى ظلها التفكير فى هذه الأعراض . وهى لمسة من لمسات المنهج القرآنى العجيب فى تربية القلوب ، ورفع اهتماماتها، وتوسيع آفاقها وشغلها بالسباق الحقيقى فى الميدان الأصيل .

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ..

هذه هى القيم ، وهذا هو مجال الطمع ! ومجال الاختيار . وهذا هو ميدان الكسب والخسار . وشتان بين من يتبع رضوان الله فيفوز به ، ومن يعود وفى وطابه سخط الله !يذهب به إلى جهنم .. وبئس المصير !

هذه درجة وهذه درجة .. وشتان شتان :

« هم درجات عند الله » ..

وكل ينال درجته باستحقاق ، فلا ظلم ولا إجحاف ، ولا محاباة ولا جزاف !

« والله بصير بما يعملون » ..

ثم يختم الفقرة بالرجوع إلى محورها الأصيل : شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته وعظم المنة بها على المؤمنين .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ..

إن ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيمتها الذاتية ، وعظم المنة الإلهية بها ، ودورها فى إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها ، ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمة والطهارة .. إن هذا الختام يتضمن لمسات قرآنية كثيرة منوعة عميقة :

إنها تجىء ابتداء تعقيبا على الغنائم والطمع فيها والغلول ، والانشغال بهذا الأمر الصغير ، الذى كان الانشغال به هو السبب المباشر الذى قلب الموقف فى المعركة ، وبدل النصر هزيمة ، وفعل بالمسلمين الأفاعيل .. فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة ، والمنة العظيمة المتمثلة فيها ، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة . تبدو فى ظلها غنائم الأرض كلها ، وأسلاب الأرض كلها ، وأعراض الأرض كلها ، شيئا تافها زهيدا ، لا يذكر ولا يقدر . شيئا تخجل النفس المؤمنة أن تذكره ، بل تستحى أن تفكر فيه ! فضلا عن أن تشغل به !

وهى تجىء فى سياق الحديث عن الهزيمة والقرح والألم والخسارة التى أصابت الجماعة المسلمة فى المعركة .. فالإشارة إلى تلك الحقيقة الكبيرة ، وما تمثله من منة عظيمة ، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية العجيبة ، تصغر فى ظلها الآلام والخسائر ، وتصغر إلى جانبها الجراح والتضحيات . على حين تعظم المنة ، ويتجلى العطاء الذى يرجح كل شىء فى حياة الأمة المسلمة على الإطلاق .

ثم .. الإشارة إلى آثار هذه المنة فى حياة الأمة المسلمة « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .. وهى تشى بالنقلة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن عهد إلى عهد . فتشعر الأمة المسلمة بما وراء هذه النقلة من قدر الله الذى يريد بهذه الأمة أمرا ضخما فى تاريخ الأرض ، وفى حياة البشر ، والذى يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما ينبغى لأمة هذا شأنها ، أن تشغل بالها بالغنائم التى تبدو تافهة زهيدة فى ظل هذا الهدف الضخم ، ولا أن تجزع من التضحيات والآلام ، التى تبدو هينة يسيرة فى ظل هذه الغاية الكبيرة ..

هذه بعض اللمسات المستفادة من ذكر هذه المنة فى هذا السياق . نذكرها باختصار

Marfat.com

وإجمال ، لنواجه النص القرآنى الحافل بالإيحاءات والظـلال :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ..

إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولا ، وأن يكون هذا الرسول « من أنفسهم » . . إن العناية من الله الجليل ، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه ، هى المنة التى لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهى . المنة الخالصة التى لا يقابلها شىء من جانب البشر . وإلا فمن هم هؤلاء الناس ، ومن هم هؤلاء الخلق ، حتى يذكرهم الله هذا الذكر ، ويعنى بهم هـذه العناية ؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم ، أن يرسل لهم رسولا من عنده ، يحدثهم بآاته ـ سبحانه ـ وكلماته ، لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب ، ويغمر خلائقه بلا سبب منهم ولا مقابل ؟

وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول « من أنفسهم » . . لم يقل « منهم » فإن للتعبير القرآنى « من أنفسهم » ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة . . إن الصلة بين المؤمنين والرسول هى صلة النفس بالنفس ، لا صلة الفرد بالجنس . فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى . إنما هى أعمق من ذلك وأرق . ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على. الله فهو منة على المؤمنين.. فالمنة مضاعفة ، ممثلة فى إرسال الرسول، وفى وصل أنفسهم بنفس الرسول ، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب .

ثم تتجلى هذه المنة العلوية فى آثارها العملية .. فى نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنسانى :

« يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة » . .

تتجلى هذه المنة فى أكبر مجاليها . فى تكريم الله لهم . بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل :

« يتلو عليهم آياته » ..

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى مايتمالك أن ينصب قامته أمام الله ، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة !

ولو تأمل أن الله الجليل ـ سبحانه ـ يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته . يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته ؛ وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها . ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو ـ

Marfat.com

هو الإنسان ـ هو العبد الصغير الضئيل ـ وعن حياته ، وعن خوالجه ، وعن حركاته وسكناته . يخاطبه ليدعوه إلى مايحييه ، وليرشده إلى مايصلح قلبه وحاله ، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

فهل هو إلا الكرم الفائض الذى يجرى بهذه المنة ، وهذا التفضل ، وهذا العطاء ؟

إن الله الجليل غنى عن العالمين . وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحووج .. ولكن الجليل هو الذى يحفل هذا الضئيل ، ويتلمسه بعنايته ، ويتابعه بدعوته ! والغنى هو الذى يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته !

فيا للكرم ! ويالله المنة ! ويالله الفضل والعطاء الذى لا كفاء له من الشكر والوفاء !

« ويزكيهم » ..

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم . يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم . ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم . ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم . . يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه فى الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته .. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم .

وقد كان لكل جاهلية من حولهم أرجاسها ، وكان للعرب جاهليتهم وأرجاسها .

من أرجاسها هذا الذى وصفه جعفر ابن أبى طالب وهو يحدث نجاشى الحبشة فى مواجهة رسولى قريش إليه ، وقد جاءا إليه ليسلمهما المهاجرين من المسلمين عنده . . يقول جعفر :

« أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله وحده لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن

Marfat.com

الفواحش ، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . .

ومن أرجاسها ماحكته عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى تصور أنواع الاتصال بين الجنسين فى الجاهلية كما جاء فى صحيح البخارى ، فى هذه الصورة الهابطة الحيوانية المزرية :

« إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء . فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ! ويعتزلها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ! فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الرجل ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر يجتمع الرهط مادون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت . فهو ابنك يافلان . تسمى من أحبت منهم باسمه ، فيلحق به ولدها . ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ! والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ـ وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ـ فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ، ودعى ابنه ، لايمتنع من ذلك ! » . .

ودلالة هـذه السورة على هبوط التصور الإنسانى وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق . ويكفى تصور الرجل ، وهو يرسل امرأته إلى « فلان » لتأتى له منه بولد نجيب . تماما كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب ، لتأتى له منه بنتاج جيد !

ويكفى تصور الرجال ـ مادون العشرة ! ـ يدخلون إلى المرأة مجتمعين ـ « كلهم يصيبها ! » . . ثم تختار هى أحدهم لتلحق به ولدها !

أما البغاء ـ وهو الصورة الرابعة ـ فهو البغاء ! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة ! لا يجد فى ذلك معرة ! ولا يمتنع من ذلك !

Marfat.com

Marfat.com

إنه الوحل . الذى طهر الإسلام منه العرب . وزكاهم . وكانوا ـ لولا الإسلام ـ غارقين إلى الأذقان فيه !

ولم يكن هذا الوحل فى العلاقات الجنسية إلا طرفا من النظرة الهابطة إلى المرأة فى الجاهلية . يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » :

« وكانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عرضة غبن وحيف ، تؤكل حقوقها . وتبتز أموالها . وتحرم من إرثها ، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجا ترضاه[1] . وتورث كما يورث المتاع أو الدابة[2] . عن ابن عباس قال : « كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه . فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها ، أو تموت فيذهب بمالها » .. وقال عطاء ابن رباح : « إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل . فترك امرأة حبسها أهله على الصبى يكون فيهم » . . وقال السدى : إن الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه ، فإذا مات وترك امرأته ، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو ينكحها فيأخذ مهرها . وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهى أحق بنفسها » [3]. وكانت المرأة فى الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هى بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتى من مهر ، وتمسك ضرارا للاعتداء[4]. وتلاقى من بعلها نشوزا أو إعراضا ، وتترك فى بعض الأحيان كالمعلقة [5] . ومن المأكولات ماهو خالص للذكور ومحرم على الإناث [6] . وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من غير تحديد [7] .

« وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد. ذكر الهيثم ابن عدى ـ على ماحكاه عنه الميدانى ـ أن الوأد كان مستعملا فى قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة . فجاء الإسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة فى وأد الأولاد . فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن . ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء . أو

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٢
(٢) سورة النساء: ١٩
(٣) تفسير الطبرى جزء ٤ ص ٣٠٨ .
(٤) سورة البقرة : ٢٣١ .
(٥) سورة النساء : ١٣٩ .
(٦) سورة الأنعام : ١٤٠
(٧) سورة النساء : ٣

شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤما منهم بهـذه الصفات . ومنهم كان يقتل أولاده خشية الإنفاق ، وخوف الفقر . .

« وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة فى بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله ، فلا يئدها إلا وقد كبرت ، وصارت تعقل. وقد حكوا فى ذلك عن أنفسهم مبكيات . وقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق » [1] ..

ومن أرجاسها ـ وأصل هـذه الأرجاس جميعا ـ الشرك والوثنية الهابطة الساذجة : كما يصورها فى إجمال الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه :

« انغمست الأمة فى الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها . فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة ، صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصى . قال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر مايصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول مايصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا » [2] . واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ؛ ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب [3] . وكان فى جوف الكعبة ـ البيت الذى بنى لعبادة الله وحده ـ وفى فنائها ثلاثمئة وستون صنما [4] . وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة . روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى ، قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خيرا منه ألقيناه وأخذنا الآخر ؛ فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به [5] . وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربا ، وجعل ثلاث أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه [6] .

« وكان للعرب ـ شأن كل أمة مشركة فى كل زمان ومكان ـ آلهة شتى من الملائكة والجن

---

(١) بلوغ الأرب فى أحوال العرب .
(٢) كتاب الأصنام
(٣) المصدر السابق
(٤) الجامع الصحيح للبخارى
(٥) المصدر السابق
(٦) كتاب الأصنام

Marfat.com

Marfat.com

والكواكب . فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ، ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله . واتخذوا كذلك معه الجن شركاء لله ، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم ، وعبدوهم[1] . قال الكلبي : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن[2] . وقال صاعد : كانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وتميم الدبران . ولخم وجذام المشترى . وطى سهيلا . وقيس الشعرى العبور . وأسد عطاردا »[3] .

ويكفى أن يتصفح الإنسان هذه الصورة البدائية الغليظة من الوثنية ، ليعرف أى رجس كانت تنشره فى القلوب والتصورات وفى واقع الحياة ! ويدرك النقلة الضخمة التى نقلها الإسلام للقوم ، والطهارة التى أسبغها على تصوراتهم وعلى حياتهم سواء . ومن هذه الأرجاس تلك الأدواء الخلقية والاجتماعية ، التى كانت فى الوقت ذاته من مفاخرهم فى أشعارهم ! ومن مفاخراتهم فى أسواقهم ! من الخمر إلى القمار إلى الثارات القبلية الصغيرة ، التى تشغل اهتماماتهم ، فلا ترتفع على تلك التصورات المحلية المحدودة :

« هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر . فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ، ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا أن كليبا رئيس معد ، رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها ؛ وقتل جساس ابن مرة كليبا ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب . وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحياة ، وثكلت الأمهات ، ويتم الأولاد . دموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن » .

« وكذلك حرب داحس والغبراء . فما كان سببها إلا أن داحسا فرس قيس ابن زهير ، كان سابقا فى رهان بين قيس ابن زهير وحذيفة ابن بدر ، فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة ، فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل . وتلا ذلك قتل ، ثم أخذ بالثأر . ونصر القبائل لأبنائها ، وأسر ، ونزح للقبائل ، وقتل فى ذلك ألوف من الناس »[4] .

---

(١) كتاب الأصنام
(٢) المصدر السابق
(٣) طبقات الأمم لصاعد
(٤) كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٤

وكان ذلك علامة فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة ، التى تشغلهم عن تفريغ الطاقة فى هذه الملابسات الصغيرة . إذ لم تكن لهم رسالة للحياة ، ولا فكرة للبشرية ، ولا دور للإنسانية ، يشغلهم عن هذا السفساف .. ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الدميمة . . وماذا يكون الناس من غير عقيدة إلهية ؟ ماذا تكون اهتماماتهم ؟ وماذا تكون تصوراتهم ؟ وماذا تكون أخلاقهم ؟

إن الجاهلية هى الجاهلية . ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها . لا يهم موقعها من الزمان والمكان . فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة ـ منبثقة من هذه العقيدة ـ تحكم حياتهم ، فلن تكون إلا الجاهلية فى صورة من صورها الكثيرة . . والجاهلية التى تمرغ البشرية اليوم فى وحلها ، لا تختلف فى طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التى عاصرتها فى أنحاء الأرض ، حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكاها .

إن البشرية اليوم تعيش فى ماخور كبير ! ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها . ومسابقات جمالها ، ومراقصها ، وحاناتها . وإذاعاتها . ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العارى ، والأوضاع المثيرة ، والإيحاءات المريضة ، فى الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلها . . إلى جانب نظامها الربوى ، وما يكمن وراءه من سعار للمال ، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره ، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون [1] . . وإلى جانب التدهور الخلقى والانحلال الاجتماعى ، الذى أصبح يهدد كل نفس وكل بيت ، وكل نظام ، وكل تجمع إنسانى . . نظرة إلى هذا كله تكفى للحكم على المصير البائس الذى تدلف إليه البشرية فى ظل هذه الجاهلية .

إن البشرية تأكل إنسانيتها ، وتتحلل آدميتها ، وهى تلهث وراء الحيوان ، ومثيرات الحيوان ، لتلحق بعالمه الهابط ! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر . لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تميع ، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة ، ومن نظام

---

(١) يراجع ماجاء عن الربا فى الجزء الثالث من الظلال ص ٧٠ ـ ٨٦
ويراجع كتاب : الربا للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان .

Marfat.com

العقيدة ، ويرتد إلى الجاهلية التى أنقذه الله منها ، والتى يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها فى تلك الآية الكريمة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » ..

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالا . أمية القلم ، وأمية العقل سواء . وما كان لهم من المعرفة شىء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة ، فى أى باب من الأبواب . وما كان لهم فى حياتهم من هموم كبيرة تنشىء معرفة ذات قيمة عالمية فى أى باب من الأبواب . فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا ، وحكماء العالم ، وأصحاب المنهج العقيدى والفكرى والاجتماعى والتنظيمى ، الذى ينقذ البشرية كلها من جاهليتها فى ذلك الزمان . والذى يرتقب دوره فى الجولة القادمة ـ بإذن الله ـ لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها الحديثة ، التى تتمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة ؛ من النواحى الأخلاقية والاجتماعية ؛ وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغاياتها كذلك ! على الرغم من فتوحات العلم المادى والإنتاج الصناعى ، والرخاء الحضارى !

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

ضلال فى التصور والاعتقاد ، وضلال فى مفهومات الحياة ، وضلال فى الغاية والاتجاه ، وضلال فى العادات والسلوك ، وضلال فى الأنظمة والأوضاع ، وضلال فى المجتمع والأخلاق ..

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون ـ ولا شك ـ ماضى حياتهم وأوضاعهم ، ويعرفون طبيعة النقلة التى نقلهم إليها الإسلام ، وما كانوا يبالغونها بغير الإسلام ؛ وهى نقلة غير معهودة فى تاريخ بنى الإنسان .

كانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى نقلهم من طور القبيلة ، واهتمامات القبيلة ، وثارات القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب . ولكن ليكونوا ـ على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن ـ أمة تقود البشرية ، وترسم لها مثلها ، ومناهج حياتها ، وأنظمتها كذلك ، فى صورة غير معهودة فى تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى منحهم وجودهم القومى ، ووجودهم السياسى ووجودهم الدولى .. وقبل كل شىء وأهم من كل شىء .. وجودهم الإنسانى ،

Marfat.com

Marfat.com

الذى يرفع إنسانيتهم ، ويكرم آدميتهم ، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم ، الذى جاءهم هدية ومنة من لدن ربهم الكريم . والذى أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك ، وعلموها كيف تحترم « الإنسان » وتكرمه بتكريم الله . غير مسبوقين فى هذا ، لا فى الجزيرة العربية ، ولا فى أى مكان .. وفى اللفتة السابقة إلى « الشورى » طرف من هذا المنهج الإلهى، الذى كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله .

وكانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم، ونظرية للحياة البشرية ، ومذهبا مميزا للحياة الإنسانية .. والأمة لا توجد فى الحقل الإنسانى الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب ، تقدمه للبشرية ، لتدفع بالبشرية إلى الأمام .

وقد كان الإسلام ، وتصوره للوجود ، ورأيه فى الحياة ، وشريعته للمجتمع ، وتنظيمه للحياة البشرية ، ومنهجه المثالى الواقعى الإيجابى لإقامة نظام يسعد فى ظله « الإنسان » .. كان الإسلام بخصائصه هذه هو «بطاقة الشخصية» التى تقدم بها العرب للعالم ، فعرفهم ، واحترمهم، وسلمهم القيادة .

وهم اليوم وغدا لا يحملون إلا هذه البطاقة . ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم. وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم ؛ وإما أن ينبذوها فيعودوا هملا ـ كما كانوا ـ لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد !

وما الذى يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟

يقدمون لها عبقريات فى الآداب والفنون والعلوم ؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض فى هذه الحقول . والبشرية تغص بالعبقريات فى هذه الحقول الفرعية للحياة ؛ وليست فى حاجة ولا فى انتظار إلى عبقريات من هناك فى هذه الحقول الفرعية للحياة !

يقدمون لها عبقريات فى الإنتاج الصناعى المتفوق ، تنحنى له الجباه ، ويغرقون به أسواقها ، ويغطون به على ماعندها من إنتاج ؟ ؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، فى يدها عجلة القيادة فى هذا المضمار !

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن

Marfat.com

وحى أفكارهم البشرية ؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية . وتشقى بها جميعا غاية الشقاء !

ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟

لا شىء إلا هذه الرسالة الكبيرة . لا شىء إلا هذا المنهج الفريد . لا شىء إلا هذه المنة التى اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم . والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهى تتردى فى هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس !

إنها ـ وحدها ـ بطاقة الشخصية التى تقدموا بها قديما للبشرية ، فأحنت لها هامتها . والتى يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ .

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة . وأكبر أمة هى التى تحمل أكبر رسالة . وهى التى تقدم أكبر منهج . وهى التى تنفرد فى الأرض بأرفع مذهب للحياة .

والعرب يملكون هذه الرسالة ـ وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء ـ فأى شيطان ياترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟ أى شيطان ؟!

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة . وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان .. وهى مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان !

* * *

ثم يمضى السياق خطوة فى استعراض أحداث المعركة ، والتعقيب عليها ؛ فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور ، واستغرابهم لوقوع ماوقع بهم ـ وهم المسلمون ـ مما يشى بسذاجة تصورهم للأمر يومذاك قبل أن تطحنهم التجربة ، وتصوغهم صياغة واقعية ، تتعامل مع واقع الأمر ، وطبيعة السنن ، وجدية هذا الواقع الذى لا يحابى أحدا لا يأخذ بالسنن ، ولا يستقيم مع الجدالصارم فى طبيعة الكون والحياةوالعقيدة ! ومن ثم يقفهم على الأرض الصلبةالمكشوفة؛ وهو يبين لهم أن ماأصابهم كان بفعلهم ، وكان الثمرة الطبيعية لتصرفهم !.. ولكنه لا يتركهم عند هذه النقطة ـ التى وإن كانت حقيقة إلا أنها ليست نهاية الحقيقة ـ بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج ؛ وبمشيئة الله الطليقة من وراء السنن والقوانين ؛ فيكشف لهم عن

حكمة ماوقع، وعن تدبير الله فيه ليحقق من ورائه الخير لهم ، والدعوة التى يجاهدون فى سبيلها؛ وليعدهم بهذه التجربة لما بعدها ، وليمحص قلوبهم ، ويميز صفوفهم ، من المنافقين الذين كشفتهم الأحداث . فالأمر فى النهاية مرجعه إلى قدر الله وتدبيره .. وبذلك تتكامل الحقيقة فى تصورهم ومشاعرهم من وراء هذا البيان القرآنى الدقيق العميق :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ! هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - : لو أطاعونا ماقتلوا . قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ..

لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته ، وأصحاب عقيدته .. ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان فى قلوبهم ؛ وباستيفاء مقتضيات الإيمان فى تنظيمهم وسلوكهم ؛ وباستكمال العدة التى فى طاقتهم ، وببذل الجهد الذى فى وسعهم . . فهذه سنة الله . وسنة الله لا تحابى أحدا .. فأما حين يقصرون فى أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير . فإن كونهم مسلمين لا يقتضى خرق السنن لهم وإبطال الناموس. فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس ..

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك ، ولا يضيع هباء . فإن استسلامهم لله ، وحملهم لرايته ، وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه .. من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة فى النهاية - بعد استيفاء مايترتب عليها من التضحية والألم والقرح - وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسا وتجارب ، تزيد فى نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ؛ وتؤهل للنصر الموعود ؛ وتنتهى بالخير والبركة .. ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته . بل تمدهم بزاد الطريق . مهما يسهم من البرح والألم والضيق فى أثناء الطريق .

Marfat.com

Marfat.com

وبهذا الوضوح والصرامة مما يأخذ الله الجماعة المسلمة ؛ وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ؛ ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ؛ كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره ـ سبحانه ـ ويواجه المنافقين بحقيقة الموت ، التى لا يعصم منها حذر ولا قعود :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شىء قدير » ..

والمسلمون الذين أصيبوا فى أحد بما أصيبوا؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التى عانوها فى هذا اليوم المرير ؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم ، وهم المسلمون، وهم يجاهدون فى سبيل الله ، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله .. المسلمون الذين أصيبوا بهذه المصيبة ، كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها : أصابوا مثليها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش . وأصابوا مثليها يوم أحد فى مطلع المعركة ، حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم . وقبل أن تهجس فى أنفسهم الخواطر التى لا ينبغى أن تهجس فى ضمائر المؤمنين !

ويذكرهم الله هذا كله ، وهو يرد على دهشتهم المتسائلة ، فيرجع بما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب :

« قل : هو من عند أنفسكم » ..

أنفسكم هى التى تخلخلت وفشلت وتنازعت فى الأمر . وأنفسكم هى التى أخلت بشرط الله وشرط رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنفسكم هى التى خالجتها الأطماع والهواجس . وأنفسكم هى التى عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة . . فهذا الذى تستنكرون أن يقع لكم ، وتقولون : كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم ، بانطباق سنة الله عليكم ، حين عرّضتم أنفسكم لها . فالإنسان حين يعرّض نفسه لسنة الله لابد أن تنطبق عليه، مسلما كان أومشركا، ولاتنخرق محاباة له ، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداء !

« إن الله على كل شىء قدير » ..

ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته ، وأن يحكم ناموسه ، وأن تمضى الأمور وفق حكمه

وإرادته ، وألا تتعطل سننه التى أقام عليها الكون والحياة والأحداث .

ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله لحكمة يراها . وقدر الله دائماً من وراء كل أمر يحدث ، ومن وراء كل حركة وكل نأمة ، وكل انبثاقة فى هذا الكون كله :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ... » ..

لم يقع مصادفة ولا جزافا ، ولم يقع عبثا ولا سدى . فكل حركة محسوب حسابها فى تصميم هذا الكون ؛ ومقدر لها علتها ونتائجها ؛ وهى فى مجموعها - ومع جرياتها وفق السنن والقوانين الثابتة التى لا تتخرق ولا تتعطل ولا تحابى - تحقق الحكمة الكامنة وراءها ؛ وتكمل « التصميم » النهائى للكون فى مجموعه !

إن التصور الإسلامى يبلغ من الشمول والتوازن فى هذه القضية ، مالا يبلغه أى تصور آخر فى تاريخ البشرية ..

هنالك ناموس ثابت وسنن حتمية . . وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة . وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة مدبرة يجرى كل شىء فى نطاقها . . والناموس يتحكم والسنن تجرى فى كل شىء - ومن بينها الإنسان - والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة ، وبفعله الذى ينشئه حسب تفكيره وتدبيره ، فتنطبق عليه ، وتؤثر فيه .. ولكن هذا كله يقع موافقا لقدر الله ومشيئته ؛ ويحقق فى الوقت ذاته حكمته وتقديره . . وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هى جزء من سنن الله وناموسه ؛ يفعل بها ما يفعل ، ويحقق بها ما يحقق فى نطاق قدره وتدبيره . فليس شىء منها خارجا على السنن والناموس . ولا مقابلا لها ومناهضا لفعلها ، كما يتصور الذين يضعون إرادة الله وقدره فى كفة ، ويضعون إرادة الإنسان وفاعليته فى الكفة المقابلة . . كلا . ليس الأمر هكذا فى التصور الإسلامى .. فالإنسان ليس ندا لله ، ولا عدوا له كذلك . والله - سبحانه - حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته فى الأرض ، لم يجعل شيئاً من هذا كله متعارضا مع سنته - سبحانه - ولا مناهضا لمشيئته ، ولا خارجا كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره فى هذا الكون الكبير .. ولكن جعل من سنته وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر ؛ وأن يتحرك ويؤثر ؛ وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه ؛ وأن يلقى جزاء

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

هذا التعرض كاملا من لذة وألم ، وراحة وتعب ، وسعادة وشقاوة .. وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته ، قدر الله المحيط بكل شيء ، فى تناسق وتوازن ..

وهذا الذى وقع فى غزوة أحد ، مثل لهذا الذى نقوله عن التصور الإسلامى الشامل الكامل . فقد عرف الله المسلمين سنته وشرطه فى النصر والهزيمة. فخالفوا هم عن سنته وشرطه، فتعرضوا للألم والقرح الذى تعرضوا له .. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله فى تميز المؤمنين من المنافقين فى الصف ، وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية مافيها من غبش فى التصور ، ومن ضعف أو قصور ..

وهذا بدوره خير ينتهى إليه أمر المسلمين ـ من وراء الألم والضر ـ وقد ذلوه وفق سنة الله كذلك . فمن سنته أن المسلمين الذين يسلمون بمنهج الله ويستسلمون له فى عمومه ، يعينهم الله ويرعاهم ، ويجعل من أخطائهم وسيلة لخيرهم النهائى ـ ولو ذاقوا مغبتها من الألم ـ لأن هذا الألم وسيلة من وسائل التمحيص والتربية والإعداد .

وعلى هذا الموقف الصلب المكشوف تستريح أقدام المسلمين وتطمئن قلوبهم ، بلا أرجحة ولا قلق ولا حيرة ، وهم يواجهون قدر الله ، ويتعاملون مع سنته فى الحياة ؛ وهم يحسون أن الله يصنع بهم فى أنفسهم وفيمن حولهم ما يريده ، وأنهم أداة من أدوات القدر يفعل بها الله ما يشاء ، وأن خطأهم وصوابهم ـ وكل مايلقونه من نتائج لخطئهم وصوابهم ـ متساوق مع قدر الله وحكمته ، وصائر بهم إلى الخير ما داموا فى الطريق :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله .. وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون » ..

وهو يشير فى هذه الآية إلى موقف عبد الله ابن أبى ابن سلول ، ومن معه ، ويسميهم : « الذين نافقوا »..وقد كشفهم الله فى هذه الموقعة ، وميز الصف الإسلامى منهم . وقرر حقيقة موقفهم يومذاك : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » .. وهم غير صادقين فى احتجاجهم بأنهم يرجعون لأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين . فلم يكن هذا هو السبب

فى حقيقة الأمر ، وإنما هم : « يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » .. فقد كان فى قلوبهم النفاق ، الذى لا يجعلها خالصة للعقيدة ، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها . فالذى كان برأس النفاق ـ عبد الله ابن أبى ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأخذ برأيه يوم أحد . والذى كان به قبل هذا أن قدومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة بالرسالة الإلهية حرمه ما كانوا يعدونه له من الرياسة فيهم ، وجعل الرياسة لدين الله ، ولحامل هذا الدين !.. فهذا الذى كان فى قلوبهم، والذى جعلهم يرجعون يوم أحد ،والمشركون على أبواب المدينة ، وجعلهم يرفضون الاستجابة إلى المسلم الصادق عبد الله ابن عمرو ابن حرام، وهو يقول لهم : « تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » محتجين بأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا ! وهذا ما فضحهم الله به فى هذه الآية :

« والله أعلم بما يكتمون » ..

ثم مضى يكشف بقية موقفهم فى محاولة خلخلة الصفوف والنفوس :

« الذين قالوا لإخوانهم ـ وقعدوا ـ لو أطاعونا ما قتلوا » ..

فهم لم يكتفوا بالتخلف ـ والمعركة على الأبواب ـ وما يحدثه هذا التخلف من رجة وزلزلة فى الصفوف والنفوس ، وبخاصة أن عبد الله ابن أبى ، كان مايزال سيدا فى قومه ، ولم يكشف لهم نفاقه بعد ، ولم يدمغه الله بهذا الوصف الذى يهز مقامه فى نفوس المسلمين منهم . بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة ، وهم يقولون :

« لو أطاعونا ما قتلوا » ..

فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتباعه مغرما ومضرة . وأكثر من هذا كله يفسدون التصور الإسلامى الناصع لقدر الله ، ولحتمية الأجل ، ولحقيقة الموت والحياة ، وتعلقهما بقدر الله وحده . . ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع ، الذى يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش من ناحية :

« قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ..

Marfat.com

فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان. ولا يرده حرص ولا حذر. ولا يؤجله جبن ولا قعود. والواقع هو البرهان الذى لا يقبل المراء .. وهذا الواقع هو الذى يجبههم به القرآن الكريم، فيرد كيدهم اللئيم، ويقر الحق فى نصابه، ويثبت قلوب المسلمين. ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين ..

ومما يلفت النظر فى الاستعراض القرآنى لأحداث المعركة، تأخيره ذكر هـذا الحادث ـ حادث نكول عبدالله ابن أبى ومن معه عن المعركة ـ وقد وقع فى أول أحدائها وقبل ابتدائها .. تأخيره إلى هذا الموضع من السياق ..

وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية . . فقد أخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامى التى قررها ؛ وحتى يقر فى الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التى أقرها ؛ وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التى وضعها . . ثم يشير هذه الإشارة إلى « الذين نافقوا » . وفعلتهم وتصرفهم بعدها ، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما فى هذه الفعلة وما فى هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح ، وعن القيم الصحيحة فى الميزان الصحيح .. وهكذا ينبغى أن تنشأ التصورات والقيم الإيمانية فى النفس المسلمة ، وأن توضع لها الموازين الصحيحة التى تعود إليها لاختبار التصورات والقيم ، ووزن الأعمال والأشخاص ، ثم تعرض عليها الأعمال والأشخاص ـ بعد ذلك ـ فتحكم عليها الحكم المستنير الصحيح ، بذلك الحس الإيمانى الصحيح ..

ولعل هنالك لفتة أخرى من لفتات المنهج الفريد . فعبد الله ابن أبىّ كان إلى ذلك الحين ما يزال عظيما فى قومه ـ كما أسلفنا ـ وقد ورم أنفه لأن النبى صلى الله عليـه وسلم لم يأخذ برأيه ـ لأن إقرار مبدأ الشورى وإنفاذه اقتضى الأخذ بالرأى الآخر الذى بدا رجحان الاتجاه إليه فى الجماعة ـ وقد أحدث تصرف هذا المنافق الكبير رجة فى الصف المسلم، وبلبلة فى الأفكار، كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حسرات فى القلوب وبلبلة فى الخواطر . . فكان من حكمة المنهج إظهار الاستهانة به وبفعلته وبقوله ؛ وعدم تصدير الاستعراض القرآنى لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذى وقع فى أولها ؛ وتأخيره إلى هذا الموضع المتأخر من السياق . مع وصف الفئة التى قامت به بوصفها الصحيح : « الذين نافقوا » والتعجيب من أمرهم فى هذه

Marfat.com

الصيغة المجملة : « ألم تر إلى الذين نافقوا ؟» ، وعدم إبراز اسم كبيرهم أوشخصه ، ليبقى نكرة فى : « الذين نافقوا » كما يستحق من يفعل فعلته، وكماتساوى حقيقته فى ميزان الإيمان .. ميزان الإيمان الذى أقامه فيما سبق من السياق . .

* * *

وبعد أن تستريح القلوب ، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية فى الكون ، وعلى حقيقة قدر الله فى الأمور ، وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير والتدبير .. ثم على حقيقة الأجل المكتوب ، والموت المقدور ، الذى لا يؤجله قعود ، ولا يقدمه خروج ، ولا يمنعه حرص ولا حذر ولا تدبير ..

بعد ذلك يمضى السياق فى بيان حقيقة أخرى .. حقيقة ضخمة فى ذاتها وضخمة فى آثارها .. حقيقة أن الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحيـاء . أحياء عنـد ربهم يرزقون ؛ لم ينقطعوا عن حيـاة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة .

ويربط بين حياة الشهداء فى معركة أحد وبين الأحداث التى تلت استشهادهم برباط محكم ، ثم ينتقل إلى تصوير موقف العصبة المؤمنة ، التى استجابت لله والرسول بعد كل ما أصابها من القرح ، وخرجت تتعقب قريشا بعد ذهابها خوفا من كرة قريش على المدينة ، ولم تبال تخويف الناس بجموع قريش ، متوكلة على الله وحده ، محققة بهذا الموقف معنى الإيمان وحقيقته :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم .. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » . .

Marfat.com

لقد شاء الله بعد أن جلا فى قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل ، وتحدى مايبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى : « لو أطاعونا ماقتلوا » فقال يتحداهم : « قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » . .

شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة . . أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة . فكشف لها عن مصير الشهداء : الذين قتلوا فى سبيل الله ـ وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون فى سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى ، مجردة من كل ملابسة أخرى ـ فإذا هؤلاء الشهداء أحياء ، لهم كل خصائص الأحياء . فهم « يرزقون » عند ربهم . وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بصائر من وراءهم من المؤمنين . وهم يحفلون الأحداث التى تمر بمن خلفهم من إخوانهم . . فهذه خصائص الأحياء : من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير . فما الحسرة على فراقهم ؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث ، فوق ماينالهم من فضل الله ، وفوق مالقوا عنده من الرزق والمكانة ؟ وما هذه الفواصل التى يقيمها الناس فى تصوراتهم بين الشهيد الحى ومن خلفه من إخوانه ؟ والتى يقيمونها بين عالم الحياة وعالم مابعد الحياة ؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين ، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله .. ؟

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة فى تصور الأمور . إنها تعدّل ـ بل تنشىء إنشاء ـ تصور المسلم للحركة الكونية التى تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها ، وهى موصولة لا تنقطع ؛ فليس الموت خاتمة المطاف ؛ بل ليس حاجزا بين ماقبله وما بعده على الإطلاق !

إنها نظرة جديدة لهذا الأمر ، ذات آثار ضخمة فى مشاعر المؤمنين ، واستقبالهم للحياة والموت ، وتصورهم لما هنا وما هناك .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » . .

والآية نص فى النهى عن حسبان أن الذين قتلوا فى سبيل الله ، وفارقوا هذه الحياة ، وبعدوا عن أعين الناس . . أموات . . ونص كذلك فى إثبات أنهم « أحياء » . .

Marfat.com

« عند ربهم » . ثم يلى هذا النهى وهذا الإثبات ، وصف مالهم من خصائص الحياة . فهم « يرزقون » . .

ومع أننا نحن ـ فى هـذه الفانية ـ لا نعرف نوع الحيـاة التى يحياها الشهداء ، إلا مايبلغنا من وصفها فى الأحاديث الصحاح . . إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة ، وما بينهما من انفصال والتئام . وكفيل وحـده بأن يعلمنا أن الأمور فى حقيقتها ليست كما هىَ فى ظواهرها التى ندركها ؛ وأننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التى ندركها ، لا ننتهى إلى إدراك حقيق لها ؛ وأنه أولى لنا أن ننتظر البيان فى شأنها ممن يملك البيان سبحانه وتعالى .

فهؤلاء ناس منا ، يقتلون ، وتفارقهم الحياة التى نعرف ظواهرها ، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها . ولـكن لأنهم : « قتلوا فى سبيل الله » ؛ وتجردوا له من كل الأعراض والأغراض الجزئية الصغيرة ؛ واتصلت أرواحهم بالله ، فجادوا بأرواحهم فى سبيله .. لأنهم قتلوا كذلك ، فإن الله ـ سبحانه ـ يخبرنا في الخبر الصادق ، أنهم ليسوا أمواتاً . وينهانا أن نحسبهم كذلك ، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده ، وأنهم يرزقون . فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء .. ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى :

« فرحين بما آتاهم الله من فضله » ..

فهم يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه « من فضله » عليهم . فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا فى سبيل الله . فأى شىء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذى يتمثل فيه رضاه ؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم ؛ وهم مستبشرون لهم ؛ لما علموه من رضى الله عن المؤمنين المجاهدين :

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم « الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » ولم تنقطع بهم صلاتهم .

Marfat.com

Marfat.com

إنهم « أحياء » كذلك معهم ، مستبشرون بما لهم فى الدنيا والآخرة . موضع استبشارهم لهم : « أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم «عند ربهم» ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل، ومن يقينهم بأن هذا شأن الله مع المؤمنين الصادقين. وأنه لا يضيع أجر المؤمنين ..

فما الذى يبقى من خصائص الحياة غير متحقق للشهداء ـ الذين قتلوا فى سبيل الله ؟ ـ وما الذى يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ؟ وما الذى يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة فى نفس الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ؛ وهى أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس ، عن هذه الرحلة إلى جوار الله ، مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة !

إنها تعديل كامل لمفهوم الموت ـ متى كان فى سبيل الله ـ وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفى النفوس التى يخلفونها من ورائهم . وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها ، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة ، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة . وحيث تستقر فى مجال فسيح عريض ، لا تعترضه الحواجز التى تقوم فى أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة !

ووفقا لهذا المفهوم الجديد الذى أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم فى قلوب المسلمين ، سارت خطى المجاهدين الكرام فى طلب الشهادة ـ فى سبيل الله ـ وكانت منها تلك النماذج التى ذكرنا بعضها فى مقدمات الحديث عن هذه الغزوة . فيرجع إليها هناك (١).

وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن « المؤمنين » الذين يستبشر الشهداء فى الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم . فيعين من هم ؛ ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا . وقالوا :

---

(١) ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ من هذا الجزء ..

حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » ..

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة . وهم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس فى المعركة . وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة ، ومرارة الهزيمة ، وشدة الكرب . وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا ، فقل عددهم ، فوق ماهم مثخنون بالجراح !

ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعاهم . ودعاهم وحدهم . ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم ـ ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال ! ـ فاستجابوا .. استجابوا لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى دعوة الله ـ كما يقرر السياق وكما هى فى حقيقتها وفى مفهومهم كذلك ـ فاستجابوا بهذا لله والرسول « من بعد ما أصابهم القرح » ، ونزل بهم الضر ، وأثخنتهم الجراح .

لقد دعاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعاهم وحدهم . وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى ، وتومىء إلى حقائق كبرى ، نشير إلى شىء منها :

فلعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاء ألا يكون آخر ماتنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم ، هو شعور الهزيمة ، وآلام البرح والقرح ؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش ، وتعقبها ، كى يقر فى أخلادهم أنها تجربة وابتلاء ، وليست نهاية المطاف . وأنهم بعد ذلك أقوياء ، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء ، إنما هى واحدة وتمضى ، ولهم الكرة عليهم ، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل ، واستجابوا لدعوة الله والرسول .

ولعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاء فى الجانب الآخر ألا تمضى قريش ، وفى جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته . فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس ؛ يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالا . وأنه بقى لها منهم من يتعقبها ويكر عليها . .

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة

Marfat.com

Marfat.com

ولعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاء أن يشعر المسلمين ، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التى وجدت فى هذه الأرض .. حقيقة أن هناك عقيدة هى كل شىء فى نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب فى الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية فى حياتهم سواها . عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقى لهم فى أنفسهم شىء بعدها ، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية فى أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يقدمونها فداها ..

لقد كان هذا أمرا جديدا فى هذه الأرض فى ذلك الحين . ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها ـ بعد أن يشعر المؤمنون ـ بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة .

ولم يكن أقوى فى التعبير عن ميلاد هـذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح . ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة: صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم ـ كما أبلغهم رسل أبى سفيان ـ وكما هوّل المنافقون فى أمر قريش وهو مالابد أن يفعلوا ـ :

« الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه ا 'تيقة الكبيرة . وكان هذا بعض ماتشير إليه الخطة النبوية الحكيمة ..

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة :

قال محمد ابن إسحاق : حدثنى عبد الله ابن خارجة ابن زيد ابن ثابت عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى عبد الأشهل كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا وأخى ، فرجعنا جريحين . فلما أذن مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخروج فى طلب العدو ، قلت لأخى ـ أو قال لى ـ أتفوتنا غزوة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ـ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل : فخرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكنت أيسر جراحا منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة .. حتى انتهيا إلى ماانتهى إليه المسلمون .

Marfat.com

وقال محمد ابن إسحاق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس . فكلمه جابر ابن عبد الله ابن عمرو ابن حرام . فقال : يارسول الله إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع . وقال : يابنى إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن . ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نفسى . فتخلف على إخوتك . فتخلفت عليهن .. فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج معه ..

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة ، فى تلك النفوس الكبيرة . النفوس التى لا تعرف إلا الله وكيلا ، وترضى به وحده وتكتفى ، وتزداد إيمانا به فى ساعة الشدة ، وتقول فى مواجهة تخويف الناس لهم بالناس :

« حسبنا الله ، ونعم الوكيل » ..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه ، المكتفين به ، المتجردين له:

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله » .

فأصابوا النجاة ـ لم يمسسهم سوء ـ ونالوا رضوان الله . وعادوا بالنجاة والرضى .

« بنعمة من الله وفضل » ..

فهنا يردهم إلى السبب الأول فى العطاء : نعمة الله وفضله على من يشاء . ومع التنويه بموقفهم الرائع ، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله ، لأن هذا هو الأصل الكبير ، الذى يرجع إليه كل فضل ، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل !

« والله ذو فضل عظيم » ..

بهذا يسجل الله لهم فى كتابه الخالد » وفى كلامه الذى تتجاوب به جوانب الكون كله، صورتهم هذه ، وموقفهم هذا ، وهى صورة رفيعة ، وهو موقف كريم .

وينظر الإنسان فى هذه الصورة وفى هذا الموقف ، فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة . نضجت . وتناسقت . واطمأنت إلى الأرض التى تقف عليها . وانجلى الغبش

Marfat.com

عن تصورها . وأخذت الأمر جدا كله . وخلصت من تلك الأرجحة والقلقـلة ، التى حدثت بالأمس فقط فى التصورات والصفوف . فما كانت سوى ليـلة واحدة هى التى تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس . . والفارق هائل والمسافة بعيدة . . لقد فعلت التجربة المريرة فعلها فى النفوس ؛ وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا . أطار الغبش ، وأيقظ القلوب ، وثبت الأقدام ، وملأ النفوس بالعزم والتصميم ..

نعم . وكان فضل الله عظيما فى الابتلاء المرير ..

وأخيرا يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفزع والجزع ..إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة . . ومن ثم ينبغى أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولتـه . فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ، ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوى القاهر القادر ، الذى ينبغى أن يخاف :

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

إن الشيطان هو الذى يضخم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة ، ويوقع فى القلوب أنهم ذوو حول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضر . . ذلك ليقضى بهم لبانانه وأغراضه ، وليحقق بهم الشر فى الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع فى وجوههم صوت بالإنكار ؛ ولا يفكر أحد فى الانتقاض عليهم ، ودفعهم عن الشر والفساد .

والشيطان صاحب مصلحة فى أن ينتفش الباطل ، وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا ، لا تقف فى وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب . . الشيطان صاحب مصلحة فى أن يبدو الأمر هكذا . فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفى ظل الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه فى الأرض مايقر عينه ا يقلبون المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل ، ويقيمون أنفسهم آلهة فى الأرض تحمى الشر وتقتل الخير . . دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف فى وجههم ، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة . بل

دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذى يروجون له ، وجلاء الحق الذى يطمسونه ..

والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفى وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم فى صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله ، ويوقفه عاريا لايستره ثوب من كيده ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ، ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته .. إن القوة الوحيدة التى تخشى وتخاف هى القرة التى تملك النفع والضر . هى قوة الله . وهى القوة التى يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة فى الأرض .. لاقوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان :

« فلا تخافوهم . وخافون إن كنتم مؤمنين » ..

* * *

وأخيرا يتجه السياق فى ختام الاستعراض والتعقيب ، إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسليه ويؤسيه عما يقع فى قلبه الكريم من الأسى والحزن ، من مسارعة الكفار إلى الكفر ، ونشاطهم فيه كأنهم فى سباق إلى هدف ! فإن هذا لن يضر الله شيئا . وإنما هى فتنة الله لهم ، وقدر الله بهم ، فقد علم الله من أمرهم وكفرهم مايؤهلهم للحرمان فى الآخرة ؛ فتركهم يسارعون فى الكفر إلى نهايته ! وقد كان الهدى مبذولا لهم ، فآثروا عليه الكفر ؛ فتركوا يسارعون فى الكفر . وأملى لهم ليزدادوا إثما مع الإملاء فى الزمن والإملاء فى الرخاء . فهذا الإمهال والإملاء إنما هو وبال عليهم وبلاء .. ويختم الاستعراض بكشف حكمة الله وتدبيره من وراء الأحداث كلها : من وراء ابتلاء المؤمنين وإمهال الكافرين . إنها تميز الخبيث من الطيب ، بالاختبار والابتلاء ، فقد كان أمر القلوب غيبا مما يستأثر الله به ، ولا يطلع الناس عليه ، فشاء سبحانه أن يكشف هذا الغيب بالصورة المناسبة للبشر ، وبالوسيلة التى يدركها البشر .. فكان الابتلاء للمؤمنين والإمهال للكافرين ، ليتكشف المخبوء فى القلوب ، ويتميز الخبيث من الطيب ؛ ويتبين المؤمنون بالله ورسله على وجه القطع واليقين :

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل

Marfat.com

Marfat.com

لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ..

إن هذا الختام هو أنسب ختام لاستعراض الغزوة التى أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة ؛ والتى رجع منها المشركون بالنصر والغلبة . . فهناك دائما تلك الشبهة الكاذبة التى تحيك فى بعض الصدور ؛ أو الأمنية العاتبة التى تهمس فى بعض القلوب ، أمام المعارك التى تنشب بين الحق والباطل . ثم يعود فيها الحق بمثل هذه الإصابة ، ويعود منها الباطل ذا صولة وجولة !

هناك دائما الشبهة الكاذبة ، أو الأمنية العاتبة : لماذا يارب ؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل ؟ لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل ، ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذى ينبغى أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة ، وفيها فتنة للقلوب وهزة ؟!

ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد فى دهشة واستغراب : « أنى هذا ؟ ! »..

ففى هذا المقطع الختامى يجىء الجواب الأخير ، والبيان الأخير . ويريح الله القلوب المتعبة ، ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى القلوب من هذه الناحية ، ويبين سنته وقدره وتدبيره فى الأمر كله : أمس واليوم وغدا . وحيثما التقى الحق والباطل فى معركة فانتهت بمثل هذه النهاية :

إن ذهاب الباطل ناجيا فى معركة من المعارك . وبقاءه منتفشا فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب ، أو بحيث يضر الحق ضررا باقيا قاضيا . .

وإن ذهاب الحق مبتلى فى معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه ! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه . .

Marfat.com

كلا . إنما هى حكمة وتدبير .. هنا وهناك .. يملى للباطل ليمضى إلى نهاية الطريق ؛ وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ! .. ويبتلى الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضى مع الابتلاء ويثبت . . فهو الكسب للحق والخسار للباطل ، مضاعفا هذا وذاك ! هنا وهناك !

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم » . .

إنه يواسى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدفع عنه الحزن الذى يساور خاطره ؛ وهو يرى المغالين فى الكفر ، يسارعون فيه ، ويمضون بعنف واندفاع وسرعة ، كأنما هنالك هدف منصوب لهم يسارعون إلى بلوغه !

وهو تعبير مصور لحالة نفسية واقعية . فبعض الناس يرى مشتدا فى طريق الكفر والباطل والشر والمعصية ؛ كأنه يجهد لنيل السبق فيه ! فهو يمضى فى عنف واندفاع وحماسة كأن هناك من يطارده من الخلف ، أو من يهتف له من الأمام ، إلى جائزة تُنال !

وكان الحزن يساور قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسرة على هؤلاء العباد ؛ الذين يراهم مشمرين ساعين إلى النار ، وهو لا يملك لهم ردا ، وهم لا يسمعون له نذارة ! وكان الحزن يساور قلبه كذلك لما يثيره هؤلاء المشمرون إلى النار المسارعون فى الكفر ، من الشر والأذى يصيب المسلمين ، ويصيب دعوة الله ، وسيرها بين الجماهير ، التى كانت تنتظر نتائج المعركة مع قريش لتختار الصف الذى تنحاز إليه فى النهاية .. فلما أسلمت قريش واستسلمت دخل الناس فى دين الله أفواجا . . ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الاعتبارات وقعها فى قلب الرسول الكريم . فيطمئن الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويواسى قلبه ، ويمسح عنه الحزن الذى يساوره .

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر . إنهم لن يضروا الله شيئا » . .

وهؤلاء العباد المهازيل لا يبلغون أن يضروا الله شيئا . والأمر فى هذا لا يحتاج إلى بيان . إنما يريد الله سبحانه أن يجعل قضية العقيدة قضيته هو ؛ وأن يجعل المعركة مع المشركين معركته هو . ويريد أن يرفع عبء هذه العقيدة وعبء هذه المعركة عن عاتق الرسول ـ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم ـ وعاتق المسلمين جملة . . فالذين يسارعون فى الكفر يحاربون الله ، وهم أضعف من أن يضروا الله شيئا . . وهم إذن لن يضروا دعوته . وان يضروا حملة هذه الدعوة . مهما سارعوا فى الكفر ، ومهما أصابوا أولياء الله بالأذى .

إذن لماذا يتركهم الله يذهبون ناجين ، وينتفشون غالبين ، وهم أعداؤه المباشرون ؟

لأنه يدبر لهم ماهو أنكى وأخزى !

« يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة » . .

يريد لهم أن يستنفدوا رصيدهم كله ؛ وأن يحملوا وزرهم كله ، وأن يستحقوا عذابهم كله ، وأن يمضوا مسارعين فى الكفر إلى نهاية الطريق !

« ولهم عذاب عظيم » . .

ولماذ يريد الله بهم هذه النهاية الفظيعة ؟ لأنهم استحقوها بشرائهم الكفر بالإيمان .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاولهم عذاب أليم » . .

ولقد كان الإيمان فى متناول أيديهم . دلائله مبثوثة فى صفحات الكون ، وفى أعماق الفطرة . وأماراته قائمة فى « تصميم » هذا الوجود العجيب ، وفى تناسقه وتكامله الغريب ، وقائمة كذلك فى « تصميم » الفطرة المباشرة ، وتجاوبها مع هذا الوجود ، وشعورها باليد الصانعة ، وبطابع الصنعة البارعة . . ثم إن الدعوة إلى الإيمان ـ بعد هذا كله قائمة على لسان الرسل ، وقائمة فى طبيعة الدعوة وما فيها من تلبية الفطرة ، ومن جمال التناسق ، ومن صلاحية للحياة والناس . .

أجل كان الإيمان مبذولا لهم ، فباعوه واشتروا به الكفر ، على علم وعن بينة ، ومن هنا استحقوا أن يتركهم الله يسارعون فى الكفر ، ليستنفدوا رصيدهم كله ، ولا يستبقوا لهم حظا من ثواب الآخرة . ومن هنا كذلك كانوا أضعف من أن يضروا الله شيئا . فهم فى ضلالة كاملة ليس معهم من الحق شىء . ولم ينزل الله بالضلالة سلطانا ؛ ولم يجعل فى الباطل قوة . فهم أضعف من أن يضروا أولياء الله ودعوته ، بهذه القوة الضئيلة الهزيلة ، مهما انتفشت ، ومهما أوقعت بالمؤمنين من أذى وقتى إلى حين !

« ولهم عذاب أليم » ..

أشد إيلاما - بما لايقاس - مما يملكون إيقاعه بالمؤمنين من آلام !

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مهين » ..

وفى هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التى تحيك فى بعض الصدور ، والشبهة التى تجول فى بعض القلوب ، والعتاب الذى تجيش به بعض الأرواح ، وهى ترى أعداء الله وأعداء الحق ، متروكين لا يأخذهم العذاب ، ممتعين فى ظاهر الأمر ، بالقوة والسلطة والمال والجاه ! مما يوقع الفتنة فى قلوبهم وفى قلوب الناس من حولهم ؛ ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ؛ يحسبون أن الله - حاشاه - يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان ، فيملى له ويرخى له العنان ! أو يحسبون أن الله - سبحانه - لا يتدخل فى المعركة بين الحق والباطل ، فيدع للباطل أن يحطم الحق ، ولا يتدخل لنصرته ! أو يحسبون أن هذا الباطل حق ، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب ؟! أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق فى هذه الأرض ، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر ! ثم .. يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين ، يلجون فى عتوهم ، ويسارعون فى كفرهم ، ويلجون فى طغيانهم ؛ ويظنون أن الأمر قد استقام لهم ، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف فى وجههم !!!

وهذا كله وهم باطل ، وظن بالله غير الحق ، والأمر ليس كذلك . وها هو ذا الله سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن .. إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذى يسارعون فيه ، وإذا كان يعطيهم حظا فى الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه .. إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء ، فإنما هى الفتنة ؛ وإنما هو الكيد المتين ، وإنما هو الاستدراج البعيد :

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم .. إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » !

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة ، بالابتلاء الموقظ ، لابتلاهم .. ولكنه لا يريد بهم خيرا ، وقد اشتروا الكفر بالإيمان ، وسارعوا فى الكفر واجتهدوا فيه ! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة - غمرة النعمة والسلطان - بالابتلاء !

Marfat.com

Marfat.com

« ولهم عذاب مهين » . .

والإهانة هى المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء .

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير . فإذا أصابت أولياءه ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم ـ ولو وقع الابتلاء مترتبا على تصرفات هؤلاء الأولياء ـ فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف ، وفضل الله على أوليائه المؤمنين .

وهكذا تستقر القلوب ، وتطمئن النفوس ، وتستقر الحقائق الأصيلة البسيطة فى التصور الإسلامى الواضح المستقيم .

ولقد شاءت حكمة الله وبره بالمؤمنين ، أن يميزهم من المنافقين ، الذين اندسوا فى الصفوف ، تحت تأثير ملابسات شتى ، ليست من حب الإسلام فى شىء[1] . فابتلاهم الله هذا الابتلاء ـ فى أحد ـ بسبب من تصرفاتهم وتصوراتهم ، ليميز الخبيث من الطيب ، عن هذا الطريق :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » . .

ويقطع النص القرآنى بأنه ليس من شأن الله ـ سبحانه ـ وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصف المسلم مختلطا غير مميز ؛ يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام . فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدى دورا كونيا كبيرا ، ولتحمل منهجا إلهيا عظيما ، ولتنشىء فى الأرض واقعا فريدا ، ونظاما جديدا . . وهذا الدور الكبير يقتضى التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضى ألا يكون فى الصف خلل ، ولا فى بنائه دخل . . وبتعبير مختصر يقتضى أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامى عظمة الدور الذى قدره الله لها فى هذه الأرض ؛ وتسامى المكانة التى أعدها الله لها فى الآخرة . .

وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث . وأن يضغط لتتهاوى اللبنات

---

(١) ص ٢٧ ، ٢٨ من الجزء الأول من الظلال (الطبعة الثانية المزيدة المنقحة) .

الضعيفة . وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر . . ومن ثم كان شأن الله ـ سبحانه ـ أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة !

كذلك ما كان من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يطلع البشر على الغيب ، الذى استأثر به ، فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التى فطرهم عليها للاطلاع على الغيب ، وجهازهم البشرى الذى أعطاه الله لهم ليس « مصمما » على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار . وهو مصمم هكذا بحكمة . مصمم لأداء وظيفة الخلافة فى الأرض . وهى لا تحتاج للاطلاع على الغيب . ولو فتح الجهاز الإنسانى على الغيب لتحطم . لأنه ليس معدا لاستقباله إلا بالمقدار الذى يصل روحه بخالقه ، ويصل كيانه بكيان هذا الكون . وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها ، ألا يحرك يدا ولا رجلا فى عمارة الأرض ، أو أن يظل قلقا مشغولا بهذه المصائر ، بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض !

من أجل ذلك لم يكن من شأن الله سبحانه ، ولا من مقتضى حكمته ، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب .

إذن كيف يميز الله الخبيث من الطيب ؟ وكيف يحقق شأنه وسنته فى تطهير الصف المسلم ، وتجريده من الغبش ، وتمحيصه من النفاق ، وإعداده للدور الكونى العظيم ، الذى أخرج الأمة المسلمة لتنهض به ؟

« ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » ..

وعن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم فى طريق الجهاد .. عن طريق هذا كله يتم شأن الله ، وتتحقق سنته ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويمحص القلوب ، ويطهر النفوس .. ويكون من قدر الله ما يكون ..

وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله ، وهى تتحقق فى الحياة ؛ وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة ..

Marfat.com

وأمام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة ، يتجه إلى الذين آمنوا ليحققوا فى ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه ، ويلوح لهم بفضل الله العظيم ، الذى ينتظر المؤمنين .

« فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » . .

فيكون هـذا التوجيه وهـذا الترغيب ، بعد ذلك البيان وذلك الاطمئنان ، خير خاتمة لاستعراض الاحداث فى « أحد » والتعقيب على هذه الأحداث ..

* * *

وبعد . . فقد تمخضت المعركة والتعقيب القرآنى عليها عن حقائق ضخمة منوعة ، يصعب إحصاؤها ثم إيفاؤها حقها من البسط والعرض فى هذا السياق من الظلال . فنكتفى بالإشارة إلى أشملها وأبرزها ، ليقاس عليه سائر مافى الغزوة كما عرضها القرآن الكريم من مواضع للعبرة والاستدلال :

١ ـ لقد تمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة فى طبيعة هـذا الدين الذى هو المنهج الإلهى للحياة البشرية ، وفى طريقته فى العمل فى حياة البشر . وهى حقيقة أولية بسيطة ، ولكنها كثيرا ماتنسى ، أو لاتدرك ابتداء ، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم فى النظر إلى هـذا الدين : فى حقيقته وفى واقعه التاريخى فى حياة الإنسانية ، وفى دوره أمس واليوم وغدا . .

إن بعضنا ينتظر من هذا الدين ـ مادام هو المنهج الإلهى للحياة البشرية ـ أن يعمل فى حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ! دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقتهم الفطرية ، ولواقعهم المادى ، فى أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفى أية بيئة من بيئاتهم !

وحين يرون أنه لايعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو يعمل فى حدود الطاقة البشرية ،وحدود الواقع المادى للبشر . وأن هذه الطاقة وهـذا الواقع يتفاعلان معه ، فيتأثران به فى فترات تأثرا واضحا ، أو يؤثران فى مدى استجابة النـاس له ، وقد يكون تأثيرهما مضادا فى فترات أخرى فتقعد بالناس ثقلة الطين ، وجاذبية المطامع والشهوات ، دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه فى طريقه اتجاها كاملا . . حين يرون هذه الظواهر فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا

Marfat.com

يتوقعونها ! ـ مادام هذا الدين من عند الله ـ أو يصابون بخلخلة فى ثقتهم بجدية المنهج الدينى للحياة وواقعيته ! أو يصابون بالشك فى الدين إطلاقا !

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد ، هوعدم إدراك طبيعة هذا الدين ، وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إن هذا الدين منهج للحياة البشرية ، يتم تحقيقه فى حياة البشر بجهد بشرى ، فى حدود الطاقة البشرية ، ويبدأ فى العمل من النقطة التى يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادى ، ويسير بهم إلى نهاية الطريق ، فى حدود جهـدهم البشرى وطاقتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمـكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه .

وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة ، فى أية خطة ، وفى أية خطوة ، عن طبيعـة فطرة الإنسان ، وحدود طاقته ، وواقعه المادى أيضاً . وأنه فى الوقت ذاته يبلغ به ـ كما تحقق ذلك فعلا فى بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة ـ مالم يبلغه ومالا يبلغه أى منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق .

ولـكن الخطأ كله ـ كما تقدم ـ ينشأ من عدم الإدراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها؛ ومن انتظار الخوارق التى لا ترتـكن على الواقع البشرى ؛ والتى تبدل فطرة الإنسان ، وتنشئه نشأة أخرى ، لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداده وطاقاته ، وواقعه المادى كله !

أليس هو من عند الله ؟ أليس دينا من عند القوة القادرة التى لا يعجزها شىء ؟ فلماذا إذن يعمل فقط فى حدود الطاقة البشرية ؟ ولماذا يحتاج إلى الجهد البشرى ليعمل ؟ ثم لماذا لا ينتصر دائما ؟ ولا ينتصر أصحابه دائما ؟ لماذا تغلب عليه ثقلة الطبع والشهوات والواقع المادى أحيانا ؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه وهم أهل الحق أحيانا ؟

وكلها ـ كما نرى ـ أسئلة وشبهات تنبع من عدم إدراك الحقيقة الأولية البسيطة لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها !

إن الله قادر ـ طبعا ـ على تبديل فطرة الإنسان ـعن طريق هذا الدينأو من غيرطريقه ـ وكان قادرا على أن يخلقه منذ البدء بفطرة أخرى . . ولـكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه

Marfat.com

الجزء الرابع

الفطرة . وشاء أن يجعل لهذا الإنسان إرادة واستجابة . وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقى والاستجابة . وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائما ، ولا تمحى ، ولا تبدل ، ولا تعطل. وشاء أن يتم تحقيق منهجه للحياة فى حياة البشر عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية . وشاء أن يبلغ « الإنسان » من هذا كله بقدر مايبذل من الجهد فى حدود ملابسات حياته الواقعة .

وليس لأحد من خلقه أن يسأله : لماذا شاء هذا ؟ مادام أن أحدا من خلقه ليس إلها ! وليس لديه العلم ، ولا إمكان العلم ، بالنظام الكلى للكون ، وبمقتضيات هذا النظام فى طبيعة كل كائن فى هذا الوجود ، وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا « التصميم » الخاص !

و« لماذا ؟ » ـ فى هذا المقام ـ سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله كذلك ملحد جاد.. المؤمن لا يسأله ، لأنه أكثر أدبا مع الله ـ الذى يعرفه قلبه بحقيقته وصفاته ـ وأكثر معرفة بأن الإدراك البشرى لم يهيأ للعمل فى هذا المجال .. والكافر لا يسأله ، لأنه لا يعترف بالله ابتداء . فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه ـ سبحانه ـ ومقتضى ألوهيته !

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ، ولا هو ملحد جاد .. ومن ثم لا ينبغى الاحتفال به ولا الجد فى أخذه !

وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية .. فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر. إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية ـ حتى يعرفها فهو مؤمن ، أو ينكرها فهو ملحد .. وبهذا ينتهى الجدل إلا أن يكون مراء !

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله ـ سبحانه ـ لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنسانى بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة ، لا تمحى ، ولا تعدل ، ولا تعطل ! ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهى يتحقق فى حياته عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية ؟

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ؛ ويراها وهى تعمل فى واقع البشرية، ويفسر التاريخ البشرى على ضوئها ؛ فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى .

Marfat.com

هذا المنهج الإلهى الذى يمثله الإسلام ـ كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ لا يتحقق فى الأرض فى دنيا الناس ، بمجرد تنزله من عند الله . ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الإلهى على نحو ما يُمضى الله ناموسه فى دورة الفلك وسير الكواكب، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية .. إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر ، تؤمن به إيمانا كاملا ، وتستقيم عليه ـ بقدر طاقتها ـ وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها ؛ وتجهد لتحقيقه فى قلوب الآخرين وفى حياتهم العملية كذلك ؛ وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقى جهدا ولا طاقة .. تجاهد الضعف البشرى ، والهوى البشرى ، والجهل البشرى فى أنفسها وأنفس الآخرين . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف فى وجه هذا المنهج .. وتبلغ ـ بعد ذلك كله ـ من تحقيق هذا المنهج الإلهى إلى الحد والمستوى الذى تطيقه فطرة البشر . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا ؛ ولا تغفل واقعهم ، ومقتضيات هذا الواقع ، فى سير مراحل هذا المنهج وتتابعها .. ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة؛ وتنهزم فى المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة . بقدر ماتبذل من الجهد ؛ وبقدر ماتتخذ من الأساليب العملية ؛ وبقدر ما توفق فى اختيار هذه الأساليب .. وقبل كل شىء ، وقبل كل جهد ، وقبل كل وسيلة .. هنالك عنصر آخر : هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض . ومدى تمثيلها لحقيقة هـذا المنهج فى ذات نفسها ؛ ومدى ارتباطها بالله صاحب هـذا المنهج ، وثقتها به ، وتوكلها عليه .

هذه هى حقيقة هذا الدين وطريقته ، وهذه هى خطته الحركية ووسيلته ..

وهـذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة ، وهو يربيها بأحداث معركة أحد ؛ وبالتعقيب على هذه الأحداث . .

حينما قصرت فى تمثيل حقيقة هذا الدين فى ذات نفسها فى بعض مواقف المعركة . وحينما قصرت فى اتخاذ الوسائل العملية فى بعض مواقفها . وحينما غفلت عن تلك الحقيقة الأولية أو نسيتها ؛ وفهمت أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتما بغض النظر عن تصورها وتصرفها ـ حينئذ تركها الله تلاقى الهزيمة ؛ وتعانى آلامها المريرة. ثم جاء التعقيب القرآنى

Marfat.com

Marfat.com

يردها إلى تلك الحقيقة : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير » ..

ولكنه ـ كما قلنا فى سياق الاستعراض للنصوص ـ لا يترك المسلمين عند هذه النقطة ، بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج ؛ ويكشف لهم عن إرادة الخير بهم من وراء الابتلاء ، الذى وقع بأسبابه الظاهرة من تصرفاتهم الواقعة ..

إن ترك المنهج الإلهى يعمل ويتحقق عن طريق الجهد البشرى ، ويتأثر بتصرف البشر إزاءه . . هو خير فى عمومه ، فهو يصلح الحياة البشرية ولا يفسدها أو يعطلها ؛ ويصلح الفطرة البشرية ويوقظها ويردها إلى سوائها . . ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس فى أمر هذا الإيمان . مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ؛ومجاهدتهم باليد لدفعهم من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية . . وحتى يتعرض فى هذه المجاهدة للابتلاء والصبر على الجهد ، والصبر على الأذى ، والصبر على الهزيمة ، والصبر على النصر أيضا ـ فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة ـ وحتى يتمحص القلب ، ويتميز الصف ، وتستقيم الجماعة على الطريق ، وتمضى فيه راشدة صاعدة ، متوكلة على الله .

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس فى أمر هذا الإيمان . لأنه يجاهد نفسه أولا فى أثناء مجاهدته للناس ؛ وتتفتح له فى الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدا ، وهو قاعد آمن سالم ؛ وتتبين له حقائق فى الناس ، وفى الحياة ، لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة ؛ ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته ، وبعاداته وطباعه ، وبانفعالاته واستجاباته، مالم يكن ليبلغه أبدا ، بدون هذه التجربة الشاقة المريرة .

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى جماعة ، حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء ، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته ، وعلى حقيقة غايته ؛ ثم تتعرف هى على حقيقة اللبنات التى تتألف منها . مدى احتمال كل لبنة ، ثم مدى تماسك هذه اللبنات فى ساعة الصدام .

وهذا ماأراد الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه للجماعة المسلمة ، وهو يربيها بالأحداث فى « أحد » وبالتعقيب على هذه الأحداث فى هذه السورة . وهو يقول لها ، بعد بيان السبب الظاهر فى

ماأصابها : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا » . . وهو يقول : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » . ثم .. وهو يردهم إلى قدر الله وحكمته من وراء الأسباب والوقائع جميعا ؛ فيردهم إلى حقيقةالإيمان الكبرى التى لا يتم إلا باستقرارها فى النفس المؤمنة : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ،وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لايحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ..

وإذن فهو ـ فى النهاية ـ قدر الله وتدبيره وحكمته ، من وراء الأسباب والأحداث والأشخاص والحركات .. وهو التصور الإسلامى الشامل الكامل ، يستقر فى النفس من وراء الأحداث ، والتعقيب المنير على هذه الأحداث ..

٢ ـ وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية وطبيعة الفطرة الإنسانية ، وطبيعة الجهد البشرى ، ومدى مايمكن أن يبلغه فى تحقيق المنهج الإلهى :

إن النفس البشرية ليست كاملة ـ فى واقعها ـ ولكنها فى الوقت ذاته قابلة للنموو الارتقاء، حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وهانحن أولاء نرى قطاعا من قطاعات البشرية ـ كما هو وعلى الطبيعة ـ ممثلا فى الجماعة التى تمثل قمة الأمة التى يقول الله عنها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . . وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق . . فماذا نرى ؟ نرى مجموعة من البشر ، فيهم الضعف وفيهم النقص ، وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » . ومن يبلغ أن يقول الله عنهم : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم عفا عنكم » وفيهم من يقول الله عنهم : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .. وفيهم من ينهزم وينكشف ، وتبلغ منهم الهزيمة ماوصفه الله سبحانه بقوله : « إذ تصعدون

Marfat.com

ولا تلوون على أحـد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم . فأثابكم غما بغم لكى لا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم » . .

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ؛ ولكنهم كانوا فى أوائل الطريق . كانوا فى دور التربية والتكوين . ولكنهم كانوا جادين فى أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله ، مرتضين قيادته ، ومستسلمين لمنهجه . ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم ؛ وأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعفو عنهم ، ويستغفر لهم ، وأمره أن يشاورهم فى الأمر ، بعد كل ماوقع منهم ، وبعد كل ماوقع من جراء المشورة ! نعم إنه ـ سبحانه ـ تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك ، وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير .. ولكنه لم يطردهم خارج الصف ، ولم يقل لهم : إنكم لا تصلحون لشىء من هذا الأمر ، بعدما بدا منكم فى التجربة من النقص والضعف .. لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم ، ورباهم بالابتلاء ، ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء ، والتوجيه إلى مافيه من عبر وعظات . فى رحمة وفى عفو وفى سماحة ؛ كما يربت الكبير على الصغار ؛ وهم يكتوون بالنار ، ليعرفوا ويدركوا وينضجوا . وكشف لهم ضعفهم ، ومجـآت نفوسهم ، لا ليفضحهم بها ، ويرذلهم ، ويحقرهم ، ولا ليرهقهم ويحملهم مالا يطيقون له حملا . ولكن ليأخذ بأيديهم ، ويوحى إليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا يحتقروها ولا ييأسوا من الوصول مادامواموصولين بحبل الله المتين .

ثم وصلوا . . وصلوا فى النهاية ، وغلبت فيهم النماذج التى كانت فى أول المعركة معدودة . وإذا هم فى اليوم التالى للهزيمة والقرح ، يخرجون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير هيابين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنويه الله بهم . « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

ولما كبروا بعد ذلك شيئا فشيئا .. تغيرت معاملتهم ، وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار . بعد ماكانوا يربتون هنا كما يربت الأطفال ! والذى يراجع غزوة تبوك فى سورة براءة ؛ ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين ، تلك المؤاخذة العسيرة ، يجد الفرق واضحا فى المعاملة ؛ ويجد الفرق واضحا فى مراحل التربية الإلهية العجيبة . كما يجد الفارق بين القوم يوم

Marfat.com

Marfat.com

أحد ، والقوم يوم تبوك .. وهم هم .. ولكن بلغت بهم التربية الإلهية هذا المستوى السامق .. ولكنهم مع هذا ظلوا بشرا . وظل فيهم الضعف ، والنقص ، والخطأ . ولكن ظل فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله .

إنها الطبيعة البشرية التى يحافظ عليها هذا المنهج ؛ ولا يبدلها أو يعطلها ، ولا يحملها مالا تطيق . وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة فى إعطاء الأمل الدائم للبشرية ، لتحاول وتبلغ ، فى ظل هذا المنهج الفريد . فهذه القمة السامقة التى بلغتها تلك الجماعة ، إنما بدأت تنهد إليها من السفح الذى التقطها منه . وهذه الخطى المتعثرة فى الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة فى الجاهلية . متخلفة فى كل شىء . على النحو الذى عرضنا نماذج منه فى سياق هذا الدرس . . وكل ذلك يعطى البشرية أملا كبيرا فى إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامى ، مهما تكن قابعة فى السفح . ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة ، فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر . فهى ليست وليدة خارقة عابرة . إنما هى وليدة المنهج الإلهى ، الذى يتحقق بالجهد البشرى ، فى حدود الطاقة البشرية ـ والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير !

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التى هى فيها ، ومن الواقع المادى الذى هى فيه . ثم يمضى بها صعدا . كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة .. من السفح .. ثم انتهى بها فى فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان ، إلى ذلك الأوج السامق ..

شرط واحد لابد أن يتحقق .. أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج . أن تؤمن به . وأن تستسلم له . وأن تتخذه قاعدة حياتها ، وشعار حركتها ، وحادى خطاها فى الطريق الشاق الطويل ..

٣ ـ وحقيقة ثالثة تمخضت عنها المعركة والتعقيب عليها .. حقيقة الارتباط الوثيق فى منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة ، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها فى أى ميدان . الارتباط بين العقيدة والتصور والخلق والسلوك والتنظيم السياسى والاقتصادى

والاجتماعى .. وبين النصر أو الهزيمة فى كل معركة .. فكل هذه عوامل أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة .

والمنهج الإلهى ـ من ثم ـ يعمل فى مساحة هائلة فى النفس الإنسانية وفى الحياة البشرية . مساحة متداخلة الساحات والنقط والخطوط والخيوط ، متكاملة فى الوقت ذاته وشاملة. والخطة يصيبها الخلل والفشل حين يختل الترابط والتناسق بين هذه الساحات كلها والنقط والخطوط والخيوط .. وهذه ميزة ذلك المنهج الكلى الشامل ، الذى يأخذ الحياة جملة ، ولا يأخذها مزقا وتفاريق . والذى يتناول النفس والحياة من أقطارها جميعا ، ويلم خيوطها المتشابكة المتباعدة ،فى قبضته ، فيحركها كلها حركة واحدة متناسقة ، لا تصيب النفس بالفصام،ولا تصيب الحياة بالتمزق والانقسام .

ومن نماذج هذا التجميع ، وهذه الارتباطات المتداخلة الكثيرة حديثه ـ فى التعقيب القرآنى ـ عن الخطيئة ، وأثرها فى النصر والهزيمة . فهو يقرر أن الهزيمة كانت موصولة بالشيطان الذى استغل ضعف الذين تولوا بسبب مما كسبوا : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » .. كما يقرر أن الذين قاتلوا مع الأنبياء ووفوا ـ وهم النموذج الذى يطلب إلى المؤمنين الاقتداء به ـ بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب :

« وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ـ والله يحب الصابرين ـ وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين » .. وفى توجيهاته للجماعة المسلمة يسبق نهيه لها عن الوهن والحزن فى المعركة ، توجيهها للتطهر والاستغفار : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ... » .. ومن قبل يذكر عن سبب ذلة أهل الكتاب وانكسارهم : الاعتداء

Marfat.com

والمعصية : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ـ وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ..

وكذلك نجد الحديث عن الخطيئة والتوبة ، يتخلل التعقيب على أحداث الغزوة ، كما نجد الكلام عن « التقوى » وتصوير حالات المتقين ، يتخلل سياق السورة كلها بوفرة ملحوظة . ويربط بين جو السورة كلها ـ على اختلاف موضوعاتها ـ وجو المعركة . كما نجد الدعوة إلى ترك الربا ، وإلى طاعة الله والرسول ، وإلى العفو عن الناس ، وكظم الغيظ ، والإحسان ، .. وكلها تطهير للنفس وللحياة وللأوضاع الاجتماعية .. والسورة كلها وحدة متماسكة فى التوجيه إلى هذا الهدف الأساسى الهام .

٤ ـ وحقيقة رابعة ..عن طبيعة منهج التربية الإسلامى.. فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث، وما تنشئه فى النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث .. على النحو الذى يمثله التعقيب القرآنى على غزوة أحد .. وهو فى التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة ، ليصحح تأثره ، ويرسب فيه الحقيقة التى يريد لها أن تستقر وتستريح ! وهو لا يدع جانبا من الجوانب ، ولا خاطرة من الخواطر ، ولا تصورا من التصورات ، ولا استجابة من الاستجابات ، حتى يوجه إليها الأنظار ، ويسلط عليها الأنوار ، ويكشف عن المخبوء منها فى دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة ، ويقف النفس تجاهها مكشوفة عارية ؛ وبذلك يمحص الدخائل ، وينظفها ويطهرها فى وضح النور ؛ ويصحح المشاعر والتصورات والقيم ؛ ويقر المبادىء التى يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامى المتين ، وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة .. مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التى تقع للجماعة المسلمة فى كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق . .

وننظر فى التعقيب على غزوة أحد ، فنجد الدقة والعمق والشمول .. الدقة فى تناول كل موقف ، وكل حركة ، وكل خالجة ؛ والعمق فى التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة ؛ والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث . ونجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب

Marfat.com

Marfat.com

والنتائج . والعوامل المتعددة الفاعلة فى الموقف ، المسيرة للحادث ، كما نجد الحيوية فى التصوير والإيقاع والإيحاء ؛ بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجا عميقا عنيفا ، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف ، والتعقيب . فهو وصف حى ، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ ، والإيحاء المثير .

٥ ـ وحقيقة خامسة كذلك . . عن واقعية المنهج الإلهى .. فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره فى عالم الواقع ، مزاولته بالفعل ، فهو لا يقدم مبادىء نظرية ، ولا توجيهات مجردة . . ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته . وأظهر مثل على واقعية المنهج فى هذه الغزوة ، هو موقفه إزاء مبدأ الشورى ..

لقد كان فى استطاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة ، التى تعرضت لها ـ وهى بعد ناشئة ومحاطة بالأعداء من كل جانب ، والعدو رابض فى داخل أسوارها ذاتها ـ نقول كان فى استطاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التى تعرضت لها ، لو أنه قضى برأيه فى خطة المعركة ، مستندا إلى رؤياه الصادقة ؛ وفيها ما يشير إلى أن المدينة درع حصينة ؛ ولم يستشر أصحابه ، أو لم يأخذ بالرأى الذى انجلت المشورة عن رجحانه فى تقدير الجماعة ! أو لو أنه رجع عن الرأى عندما سنحت له فرصة الرجوع ، وقد خرج من بيته ، فرأى أصحاب هذا الرأى نادمين أن يكونوا قد استكرهوه على غير مايريد !

ولكنه ـ وهو يقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورى . وأنفذ مااستقرت عليه ،ذلك كى تجابه الجماعة المسلمة نتائج البيعة الجماعية ، وتتعلم كيف تحتمل تبعة الرأى ، وتبعة العمل . لأن هذا فى تقديره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى تقدير المنهج الإسلامى الذى ينفذه ، أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة ، ومن تجنيب الجماعة تلك التجربة المريرة . فتجنيب الجماعة التجربة معناه حرمانها الخبرة ، وحرمانها المعرفة ، وحرمانها التربية !

ثم يجىء الأمر الإلهى له بالشورى ـ بعد المعركة كذلك ـ تثبيتا للمبدأ فى مواجهة نتائجه المريرة . فيكون هذا أقوى وأعمق فى إقراره من ناحية ، وفى إيضاح قواعد المنهج من ناحية ..

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته ! فهو يعلم أنها لن تستعد أبدا لمزاولته إلا إذا زاولته فعلا ، وأن حرمانها من مزاولة مبادئ حيلتها الأساسية ـ كمبدأ الشورى ـ شر من النتائج المريرة التى تتعرض لها فى بدء استعماله ، وأن الأخطاء فى مزاولته ـ مهما بلغت من الجسامة ـ لاتبرر إلغاءه ، بل لاتبرر وقفه فترة من الوقت ، لإنه إلغاء أو وقف لنموها الذاتى ، ونمو خبرتها بالحياة والتكاليف . بل هو إلغاء لوجودها كأمة إطلاقا !

وهذا هو الإيحاء المستفاد من قوله تعالى ـ بعد كل ما كان من نتائج الشورى فى المعركة : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » .

كما أن المزاولة العملية للمبادئ النظرية تتجلى فى تصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما رفض أن يعود إلى الشورى بعد العزم على الرأى المعين ، واعتباره هذا ترددا وأرجحة . وذلك لصيانة مبدأ الشورى ذاته ، من أن يصبح وسيلة للتأرجح الدائم ، والشلل الحركى . فقال قولته التربوية المأثورة : « ما كان لنبى أن يضع لأمته حتى يحكم الله له » . . ثم جاء التوجيه الإلهى الأخير : « فإذا عزمت فتوكل على الله » .. فتطابق ـ فى المنهج ـ التوجيه والتنفيذ . .

٦ ـ وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآنى على مواقف الجماعة المسلمة التى صاحبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله . . وهى حقيقة نافعة لنا فى طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله . .

إن منهج الله ثابت ، وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ، ويخطئون ويصيبون فى قواعد التصور وقواعد السلوك . ولكن ليس شىء من أخطائهم محسوبا على المنهج ، ولا مغيرا لقيمه وموازينه الثابتة .

وحين يخطىء البشر فى التصور أو السلوك ، فإنه يصفهم بالخطأ . وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف . ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم ـ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـ ولا ينحرف هو ليجارى انحرافهم !

ونتعلم نحن من هذا ، أن تبرئة الأشخاص لا تساوى تشويه المنهج ! وأنه من الخير للأمة

Marfat.com

المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذى يستحقونه ـ أيا كانوا ـ وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبدا ، بتحريف المنهج ، وتبديل قيمه وموازينه . فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف . . فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص . والواقع التاريخى للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون فى تاريخهم . وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقا تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة .. وإلا فهو خطأ أوانحراف لايحسب على الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ؛ إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذى يستحقونه : من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام . . إن تاريخ « الإسلام » ليس هو تاريخ « المسلمين » ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان ! إن تاريخ « الإسلام » هو تاريخ التطبيق الحقيقى للإسلام ، فى تصورات الناس وسلوكهم ، وفى أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم .. فالإسلام محور ثابت ، تدور حوله حياة الناس فى إطار ثابت . فإذا هم خرجوا عن هـذا الإطار ، أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتا ، فما للإسلام ومالهم يومئذ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الإسلام ، أو يفسر بها الإسلام ؟ بل مالهم هم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام، وأبوا تطبيقه فى حياتهم ،وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج فى حياتهم ، لالأن أسماءهم أسماء مسلمين ، ولا لأنهم يقولون بأفواههم : إنهم مسلمون ؟ !

وهذا ما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه للأمة المسلمة ، وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة ، ويسجل عليها النقص والضعف ، ثم يرحمها بعد ذلك ويعفو عنها ، ويعفيها من جرائر النقص والضعف فى حسابه . وإن يكن أذاقها جرائر هذا النقص والضعف فى ساحة الابتلاء!

« وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ

Marfat.com

مَا قَالُوا . وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * ٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ . قُلْ : قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ .

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ .

« وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ . فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ﴿١٨٩﴾

انتهى الاستعراض القرآنى للمعركة[1] ـ معركة أحد ـ ولكن المعركة الدائبة بين الجماعة المسلمة وأعدائها المحيطين بها فى المدينة ـ وبخاصة اليهود ـ لم تكن قد انتهت بعد . معركة الجدل والمراء ، والتشكيك والبلبلة ، والكيد والدس ، والتربص والتدبير .. هذه المعركة التى استغرقت الشطر الأكبر من هذه السورة .

---

(١) هنالك رواية أن الآية الأولى فى هذا الدرس وهى تمام ستين آية نزلت فى غزوة أحد . ولكننا نرى أنها ألصق بهذا الدرس فألحقناها به ..

Marfat.com

Marfat.com

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أجلى بنى قينقاع عن جواره فى المدينة ، بعد ما كان منهم ـ عقب غزوة بدر ـ من غيظ وكيد ، وتحرش بالمسلمين ، ونقض للمواثيق التى عقدها معهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند مقدمه إلى المدينة ، وقيام الدولة المسلمة برياسته مرتكنة إلى المسلمين من الأوس والخزرج . . ولكن كان بقى من حوله : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وغيرهم من يهود خيبر وسواهم فى الجزيرة . . وكلهم يتراسلون ويتجمعون ، ويتصلون بالمنافقين فى المدينة ، وبالمشركين فى مكة وفيما حول المدينة ، ويكيدون للمسلمين كيدا لا ينقطع ولا يكف .

وقد ورد فى أوائل سورة آل عمران تحذير لليهود أن يصيبهم على أيدى المسلمين ماأصاب المشركين : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا . فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .. فلما أبلغهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التحذير ـ الذى جاء ردا على أفاعيلهم وما بدا منهم من الغيظ والدس والكيد عقب بدر ـ أساءوا أدبهم فى استقباله ؛ وقالوا : يامحمد . لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال . إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وإنك لم تلق مثلنا . ثم مضوا فى دسهم وكيدهم، الذى روت هذه السورة منه ألوانا شتى، حتى انتهى أمرهم بنقض مابينهم وبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العهد . فحاصرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلوا على حكمه ،فأجلاهم عن المدينة إلى أذرعات . . وبقيت الطائفتان الأخريان : بنو قريظة وبنو النضير بالمدينة على عهدهما ـ فى الظاهر ـ مع الكيد والدس والتلبيس والتضليل والبلبلة والفتنة .. وسائر مابرعت فيه يهود فى تاريخها كله ، وسجله عليها السجل الصادق ـ كتاب الله ـ وتعارفه أهل الأرض كلهم ، عن ذلك الجنس الملعون !

وفى هذا الدرس استعراض لبعض أفاعيل يهود وأقاويلها . يبدو فيه سوء الأدب مع الله ـ سبحانه ـ بعد سوء الفعل مع المسلمين . وهم يبخلون بالوفاء بتعهداتهم المالية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يزيدون فيقولون : « إن الله فقير ونحن أغنياء » !

Marfat.com

ويبدو فيه التعلل الواهى ، الذى يدفعون به دعوة الإسلام الموجهة إليهم ؛ وكذب هذا التعلل ، ومخالفته لواقعهم التاريخى المعروف . هذا الواقع الذى ينضح بمخالفتهم لعهد الله معهم، وبكتمانهم لما أمرهم الله ببيانه من الحق ، ونبذه وراء ظهورهم ، وشرائهم به ثمنا قليلا . وبقتلهم أنبياءهم بغير حق ، وقد جاءوهم بالخوارق التى طلبوها ، وجاءوهم بالبينات فرفضوها .

وهذا الكشف المخجل لأفاعيل اليهود مع أنبيائهم ، وأقاويلهم على ربهم ، كان هو الأمر الذى يقتضيه سوء موقفهم من الجماعة المسلمة ، وتأثير كيدهم ودسهم وإيذائهم ـ هم والمشركون ـ للمسلمين . كما كانت تقتضيه تربية الله للجماعة المسلمة تربية واعية ؛ تبصرهم بما حولهم ، وبمن حولهم ؛ وتعرفهم طبيعة الأرض التى يعملون فيها ، وطبيعة العقبات والفخاخ المنصوبة لهم ، وطبيعة الآلام والتضحيات المرصودة لهم فى الطريق .. وقد كان الكيد اليهودى للجماعة المسلمة فى المدينة أقسى وأخطر من عداوة المشركين لهم فى مكة . ولعله مايزال أخطر مايرصد للجماعات المسلمة فى كل مكان ، على مدار التاريخ ..

ومن ثم نجد التوجيهات الربانية تتوالى على المسلمين فى ثنايا الاستعراض المثير .. نجد توجيههم إلى حقيقة القيم الباقية والقيم الزائلة . فالحياة فى هذه الأرض محدودة بأجل . وكل نفس ذائقة الموت على كل حال . إنما الجزاء هناك ، والكسب والخسارة هناك . « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .. وهم مبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، والأذى سينالهم من أعدائهم المشركين وأهل الكتاب . فلا عاصم لهم إلا الصبر والتقوى ، والمضى مع المنهج ، الذى يزحزحهم عن النار !

وهذا التوجيه الإلهى للجماعة المسلمة فى المدينة ما يزال هو هو ، قائما اليوم وغدا ، يبصر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق ، لإعادة نشأة الإسلام ، ولاستئناف حياة إسلامية فى ظل الله .. يبصرها بطبيعة أعدائها ـ وهم مشركين وملحدين وأهل كتاب ـ الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية ! ـ ويبصرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة فى طريقها ، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء . ويعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك . بما عند الله . ويهوّن عليها الأذى والموت والفتنة فى النفس والمال . وينابيها ـ كما نادى الجماعة المسلمة

Marfat.com

الجزء الرابع

الأولى ـ : « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتبلون فى أموالكم وأنفسكم؛ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

والقرآن هو القرآن . كتاب هذه الأمة الخالد . ودستورها الشامل . وحاديها الهادى . وقائدها الأمين . وأعداؤها هم أعداؤها .. والطريق هو الطريق ..

* * *

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار . قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم، فلم قتلتموهم ، إن كنتم صادقين ؟ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » ..

لم ترد فى الآية الأولى من هذه المجموعة رواية مؤكدة، عمن تعنيهم ، ومن تحذرهم البخل، وعاقبة يوم القيامة .. ولكن ورودها فى هذا السياق يرجح أنها متصلة بما بعدها من الآيات ، فى شأن اليهود . فهم ـ قبحهم الله ـ الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . وهم الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

والظاهر أن الآيات فى عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوتهم كذلك إلى الإيمان بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإنفاق فى سبيل الله .

وقد نزل هذا التحذير التهديدى ، مع فضح تعلات اليهود فى عدم الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ردا على مابدا من سوء أدبهم مع ربهم ، ومن كذب تعلاتهم ؛ ونزلت معه المواساة

للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تكذيبهم ، بما وقع للرسل قبله مع أقوامهم . ومنهم أنبياء بنى إسرائيل ، الذين قتلوهم بعد ماجاءوهم بالبينات والخوارق كما هو معروف فى تاريخ بنى إسرائيل :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السماوات والأرض . والله بما تعملون خبير » . .

إن مدلول الآية عام . فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم ، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله ؛ ويحسبون أن هذا البخل خير لهم ، يحفظ لهم أموالهم ، فلا تذهب بالإنفاق .

والنص القرآنى ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب ؛ ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة نارا.. وهو تهديد مفزع .. والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم « يبخلون بما آتاهم الله من فضله » .. فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم . فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئا .. ولا جلودهم . . ! فآتاهم الله من فضله فأغناهم . حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا « من فضله » شيئا لم يذكروا فضل الله عليهم . وبخلوا بالقليل ، وحسبوا أن فى كنزه خيرا لهم. وهو شر فظيع.وهم ـ بعد هذا كله ـ ذاهبون وتاركوه وراءهم . فالله هو الوارث: « ولله ميراث السماوات والأرض » . . فهذا الكنز إلى أمد قصير . ثم يعود كله إلى الله . ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذى أنفقوه ابتغاء مرضاته ، فيبقى مدخرا لهم عنده ، بدلا من أن يطوقهم إياه يوم القيامة !

ثم يندد باليهود الذى وجدوا فى أيديهم المال ـ الذى آتاهم الله من فضله ـ فحسبوا أنفسهم أغنياءعن الله ، لاحاجة بهم إلى جزائه ، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التى يعدها لمن يبذل فى سبيله ـ وهو مايسميه تفضلا منه ومنة إقراضا له سبحانه ـ وقالوا فى وقاحة : ما بال الله يطلب إلينا أن نقرضه من مالنا . ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة ، وهو ينهى عن الربا والأضعاف المضاعفة ؟ ! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب فى حق الله :

Marfat.com

Marfat.com

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ماقالوا ! وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

وسوء تصور اليهود للحقيقة الإلهية شائع فى كتبهم المحرفة . ولكن هذه تبلغ مبلغا عظيما من سوء التصور ومن سوء الأدب معاً .. ومن ثم يستحقون هذا التهديد المتلاحق :

« سنكتب ماقالوا » ..

لنحاسبهم عليه ، فما هو بمتروك ولا منسى ولا مهمل .. وإلى جانبه تسجيل آثامهم السابقة ـ وهى آثام جنسهم وأجيالهم متضامنة فيه ـ فكلهم جبلة واحدة فى المعصية والإثم :

« وقتلهم الأنبياء بغير حق » . .

وقد حفظ تاريخ بنى إسرائيل سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء ، آخرها محاولتهم قتل المسيح عليه السلام . . وهم يزعمون أنهم قتلوه ، متباهين بهذا الجرم العظيم ..!

« ونقول ذوقوا عذاب الحريق » ..

والنص على «الحريق» هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه . ولتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه .. جزاء على الفعلة الشنيعة : قتل الأنبياء بغير حق . وجزاء على القولة الشنيعة : إن الله فقير ونحن أغنياء .

« ذلك بما قدمت أيديكم » ..

جزاء وفاقا ، لا ظلم فيه ، ولا قسوة :

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والتعبير بالعبيد هنا ، إبراز لحقيقة وضعهم ـ وهم عبيد من العبيد ـ بالقياس إلى الله تعالى . وهو يزيد فى شناعة الجرم ، وفظاعة سوء الأدب . الذى يتجلى فى قول العبيد : « إن الله فقير ونحن أغنياء » والذى يتجلى كذلك فى قتل الأنبياء ..

هؤلاء الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، والذين قتلوا الأنبياء .. هم الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله عهد إليهم ـ بزعمهم ـ ألا يؤمنوا

لرسول ، حتى يأتيهم بقربان يقدمونه ، فتقع المعجزة ، وتهبط نار تأكله ، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بنى إسرائيل . ومادام محمد لم يقدم لهم هـذه المعجزة فهم على عهـد مع الله !!

هنا يجبههم القرآن بواقعهم التاريخى . . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالخوارق التى طلبوها ، وجاءوهم بآيات الله بينات :

« الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار . قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ » .

وهى مجابهة قوية ، تـكشف عن كذبهم والتوائهم وإصرارهم على الـكفر ، وتبجحهم بعد ذلك وافترائهم على الله !

وهنا يلتفت إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسليا مواسيا ، مهونا عليه مايلقاه منهم ، وهو مالقيه إخوانه الـكرام من الرسل على توالى العصور :

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك ، جاءوا بالبينات والزبر والـكتاب المنير » .

فما هو أول رسول يتلقى بالتكذيب . والأجيال المتعاقبة ـ وبخاصة من بنى إسرائيل ـ تلقوا بالتـكذيب رسلا جاءوهم بالبينات والخوارق ، وجاءوهم بالصحائف المتضمنة للتوجيهات الإلهية ـ وهى الزبر ـ وجاءوهم بالـكتاب المنير كالتوراة والإنجيل .. فهذا هو طريق الرسل والرسالات . . وما فيه من عناء ومشقة . وهو وحده الطريق .

* * *

بعد ذلك يتجه السياق إلى الجماعة المسلمة ؛ يحدثها عن القيم التى ينبغى لها أن تحرص عليها، وتضحى من أجلها ؛ ويحدثها عن أشواك الطريق ومتاعبها وآلامها ؛ ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال :

« كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن

Marfat.com

Marfat.com

من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

إنه لابد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس : حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة ، محدودة بأجل ؛ ثم تأتى نهايتها حتما . . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن . . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص .

الكل يموت .. « كل نفس ذائقة الموت » .. كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة .. لافارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع . إنما الفارق فى شىء آخر . الفارق فى قيمة أخرى . الفارق فى المصير الأخير :

« وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » ..

هذه هى القيمة التى يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة الباقية التى تستحق السعى والكد . والمصير المخوف الذى يستحق أن يحسب له ألف حساب :

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » ..

ولفظ « زحزح » بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقى ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل فى مجالها ! فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ، ويدخل الجنة .. فقد فاز ..

صورة قوية . بل مشهدى . فيه حركة وشد وجذب ! وهو كذلك فى حقيقته وفى طبيعته. فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس فى حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هى زحزحتها عن النار ! أليس الإنسان ـ حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة ـ يظل أبدا مقصرا فى العمل . . إلا أن يدركه فضل الله ؟ بلى ! وهذه

هى الزحزحة عن النار ؛ حين يدرك الإنسان فضل الله ، فيزحزحه عن النار !

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..

إنها متاع . ولكنه ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو واليقظة . . إنها متاع الغرور . المتاع الذى يخدع الإنسان فيحسبه متاعا . أو المتاع الذى ينشىء الغرور والخداع ! فأما المتاع الحق . المتاع الذى يستحق الجهد فى تحصيله . . فهو ذاك . . هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار .

وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت فى النفس . عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة ـ إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال ـ وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل . . عندئذ يحدث الله المؤمنين عما ينتظرهم من بلاء فى الأموال والأنفس . وقد استعدت نفوسهم للبلاء :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

إنها سنة العقائد والدعوات . لابد من بلاء ، ولا بد من أذى فى الأموال والأنفس ، ولابد من صبر ومقاومة واعتزام .

إنه الطريق إلى الجنة . وقد حفت الجنة بالمكاره . بينما حفت النار بالشهوات .

ثم إنه هو الطريق الذى لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة التى تحمل هذه الدعوة ، وتنهض بتكاليفها . طريق التربية لهذه الجماعة ؛ وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال . وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف ؛ والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة .

ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا . فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها .. فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكى تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا فيها بعد ذلك ، مهما تكن الأحوال .

Marfat.com

Marfat.com

وذلك لكى يصلب عود الدعوة والدعاة . فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها . والدعوة الجديدة فى حاجة إلى استثارة هذه القوى ، لتتأصل جذورها وتتعمق ؛ وتتصل بالتربة الخصبة الغنية فى أعماق الفطرة . .

وذلك لكى يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم ؛ وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية . ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها . وحقيقة الجماعات والمجتمعات . وهم يرون كيف تصطرع مبادىء دعوتهم ، مع الشهوات فى أنفسهم وفى أنفس الناس . ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ، ومسارب الضلال !

ثم .. لكى يشعر المعارضون لها فى النهاية أنه لابد فيها من خير ، ولابد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون . . فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها إليها .. أفواجا .. فى نهاية المطاف !

إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ؛ ويحافظ فى ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدى وهو يرد الاعتداء ؛ ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله فى نصره وهو يعانى الشدائد .. مايصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء :

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

وهكذا علمت الجماعة المسلمة فى المدينة ما ينتظرها من تضحيات وآلام . وما ينتظرها من أذى وبلاء فى الأنفس والأموال . من أهل الكتاب من حولها . ومن المشركين أعدائها . . ولكنها سارت فى الطريق . لم تتخاذل ، ولم تتراجع ، ولم تنكص على أعقابها . . لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت . وأن توفية الأجور يوم القيامة . وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وأن الحياة الدنيا ماهى إلا متاع الغرور ..على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف ؛ وفى هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو . . والأرض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة فى كل زمان . والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان . وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها ، تتوالى القرون والأجيال ؛ وهم ماضون فى الكيد لها من وراء القرون والأجيال .. والقرآن هو القرآن ..

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان ؛ وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة

المسلمة ، ووسائل إيذائها فى سمعتها وفى مقوماتها وفى أعراضها وفى أهدافها وأغراضها .. ولكن القاعدة واحدة : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » !

ولقد حفلت السورة بصور من مكايد أهل الكتاب والمشركين ؛ وصور من دعايتهم للبلبلة والتشكيك . أحيانا فى أصول الدعوة وحقيقتها ، وأحيانا فى أصحابها وقيادتها . وهذه الصور تتجدد مع الزمان . وتتنوع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة ، وتوجه كلها إلى الإسلام فى أصوله الاعتقادية ، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية . فلا تخرج على هذه القاعدة التى كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى ، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق ، وطبيعة الأعداء الراصدين لها فى الطريق ..

ويبقى هذا التوجيه القرآنى رصيدا للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة ، وأن تحاول تحقيق منهج الله فى الأرض ؛ فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة ، ووسائل الدعاية الحديثة ، لتشويه أهدافها ، وتمزيق أوصالها . . يبقى هذا التوجيه القرآنى حاضرا يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة ، وطبيعة طريقها . وطبيعة أعدائها الراصدين لها فى الطريق . ويبث فى قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك؛ فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى، وحين تعوى حولها بالدعاية ، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة . . أنها سائرة فى الطريق ، وأنها ترى معالم الطريق !

ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذى . . تستبشر بهذا كله ، لأنها تستيقن منه أنها ماضية فى الطريق التى وصفها الله لها من قبل . وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق . ويبطل عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى ؛ وتمضى فى طريقها الموعود ، إلى الأمل المنشود .. فى صبر وفى تقوى. وفى عزم أكيد ..

* * *

ثم يمضى السياق القرآنى يفضح موقف أهل الكتاب فى مخالفتهم عن عهد الله معهم يوم

Marfat.com

آتاهم الكتاب . ونبذهم له . وكتمانهم لما ائتمنهم عليه منه ، حين يسألون عنه :

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب : لتبيننه للناس ولا تكتمونه . فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا . فبئس مايشترون » !

وقد تضمن سياق السورة الكثير من أفاعيل أهل الكتاب وأقاويلهم ـ وبخاصة اليهود ـ وأبرز هذه الأفاعيل والأقاويل كتمانهم للحق الذى يعلمونه ، ولبسه بالباطل ، لإحداث البلبلة والاضطراب فى مفهوم الدين ، وفى صحة الإسلام ، وفى وحدة الأسس والمبادئ بينه وبين الأديان قبله ، وفى تصديقه لها وتصديقها له . . وكانت التوراة بين أيديهم يعلمون منها أن ماجاء به محمد حق ؛ وأنه من ذات المصدر الذى جاءتهم منه التوراة . .

فالآن يبدو هذا الموقف منهم بشعا غاية البشاعة ؛ حين ينكشف أيضا أن الله ـ سبحانه ـ قد أخذ عليهم العهد ـ وهو يعطيهم الكتاب ـ أن يبينوه للناس ، ويبلغوه ، ولا يكتموه أو يخفوه . وأنهم نبذوا هذا العهد مع الله ـ والتعبير يجسم إهمالهم وإخلافهم للعهد ؛ فيمثله فى حركة :

« فنبذوه وراء ظهورهم » !

وأنهم فعلوا هذه الفعلة الفاضحة ، ابتغاء ثمن قليل :

« واشتروا به ثمنا قليلا » .

هو عرض من أعراض هذه الأرض ، ومصلحة شخصية للأحبار أو قومية لليهود ! وكله ثمن قليل ، ولو كان ملك الأرض كلها طوال الدهور ! فما أقل هذا الثمن ثمنا لعهد الله ! وما أقل هـذا المتاع متاعا حين يقاس بما عند الله !

« فبئس ما يشترون » !

* * *

وقد ورد فى رواية للبخارى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شىء ، فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ماسألهم عنه . وأنه فى هذا نزلت آية :

« ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » . .

Marfat.com

وفى رواية أخرى للبخارى ـ بإسناده ـ عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا إذا خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فنزلت : « ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . . . » .

ومسألة نزول آية بعينها فى مسألة بعينها ليست قطعية فى هذا . فكثيرا مايكون الذى وقع هو الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها . فيروى أنها نزلت فيها . أو تكون الآية منطبقة على الحادثة فيقال كذلك : إنها نزلت فيها .. ومن ثم لا نجزم فى الروايتين بقول .

فأما إذا كانت الأولى ، فهناك مناسبة فى السياق عن أهل الكتاب ، وكتمانهم لما ائتمنهم الله عليه من الكتاب ليبينه للناس ولا يكتمونه . ثم هم يكتمونه . ويقولون غير الحق ويمضون فى الكذب والخداع ، حتى ليطلبوا أن يحمدوا على بيانهم الكاذب وردهم المفترى !

وأما إذا كانت الثانية ، ففى سياق السورة حديث عن المنافقين يصلح أن تلحق به هذه الآية . وهى تصور نموذجا من الناس يوجد على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوجد فى كل جماعة . نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف العقيدة ، فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فإن غلب المكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم ، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .. أما إذا انتصر المكافحون وغنموا ، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم ؛ وينتحلون لأنفسهم يدا فى النصر ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا !

إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء . نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين . فإذا ملامحه واضحة للعيان ، وسماته خالدة فى الزمان .. وتلك طريقة القرآن .

هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لا نجاة لهم من العذاب . وأن الذى ينتظرهم عذاب أليم لا مفر لهم منه ولا معين :

Marfat.com

« فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

والذى يتوعدهم به هو الله . مالك السماوات والأرض . القادر على كل شىء . فأين المفازة إذن ؟ وكيف النجاة ؟

« ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء قدير » ..

* * *

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ؛ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ . فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ! * لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ .

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ،

Marfat.com

خَاشِعِينَ لِلّٰهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ، وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ﴿٢٠٠﴾

هذا هو الدرس الأخير فى السورة التى ضمت ذلك الحشد الضخم الذى استعرضناه : من مقوّمات التصور الإسلامى . وتقرير هذه المقوّمات وتجليتها من الغبش واللبس فى الجدل مع أهل الكتاب ، ثم فى الجدل مع المنافقين والمشركين . وبيان طبيعة هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى الأنفس والأموال . وتعليم الجماعة المسلمة كيف تنهض بهذه التكاليف ، وكيف تستقبل الابتلاء بالسراء والضراء ، وكيف تتجرد لهذه العقيدة وتكاليفها الضخمة فى الأنفس والأموال .. إلى آخر ماضمه سياق السورة ، واستعرضناه فى الجزئين الثالث والرابع من هذه الظلال ..

فالآن يجىء هذا الإيقاع الأخير فى السورة ـ أو هذه الإيقاعات الأخيرة ـ متناسقة فى موضوعها وفى أسلوبها مع ذلك الحشد من الإيقاعات من ناحية الموضوع ومن ناحية الأداء .

تجىء بحقيقة عميقة : إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح ، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته ؛ ويشى بما وراءه من يد تدبره بحكمة ؛ ويوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة ، وحسابا وجزاء .. إنما يدرك هذه الدلائل ، ويقرأ هذه الآيات ، ويرى هذه الحكمة، ويسمع هذه الايحاءات « أولو الألباب » من الناس ، الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح ، وبهذه الآيات الباهرة مغمضى الأعين غير واعين !

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامى عن هذا « الكون » والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة « الإنسان » والتفاهم الداخلى الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان ؛

Marfat.com

Marfat.com

ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة ؛ وعلى الناموس الذى يصرّفه وما يصاحبه من « غاية » و « حكمة » و « قصد » من جهة أخرى .. وهى ذات أهمية بالغة فى تقرير موقف « الإنسان » من « الكون » و « إله » الكون سبحانه وتعالى . فهى ركيزة من ركائز التصور الإسلامى للوجود (١) .

بلى هذه الحقيقة فى سياق الدرس استجابة الله « لأولى الألباب » وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب ؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح ، ويتأملون ماينطق به من الآيات ، ومايوحى به من الغايات .. استجابته لهم استجابة توجيهية إلى العمل والجهاد والتضحية والصبر ، والنهوض بتكاليف هذا الإيمان ، الذى ثابوا به من جولتهم الخاشعة فى كتاب الكون المفتوح .. مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هذه الحياة . وإبراز القيم الباقية فى الجزاء الأخروى ، التى ينبغى أن يحفل بها المؤمنون الأبرار .

وعطفا على الحديث الطويل فى السورة عن أهل الكتاب ومواقفهم من المؤمنين ، يرد هنا فى هذا القطاع الأخير ذكر الفريق المؤمن ، وجزاؤه المناسب ، ويبرز من صفاتهم صفة الخشوع ، التى تتناسق مع مشهد أولى الألباب أمام كتاب الكون المفتوح ، ودعائهم الخاشع المنيب . وصفة الحياء من الله أن يشتروا بآياته ثمنا قليلا ، كأولئك الذين كفروا من أهل الكتاب ، وتقدم وصفهم فى السورة .

ثم تجىء الآية الخاتمة تلخص التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة ، وتمثل خصائصها المطلوبة ، وتكاليفها المحددة ، والتى بها يكون الفلاح :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله ، لعلكم تفلحون » ..

وهو ختام يناسب محور السورة الأصيل ، وموضوعاتها الرئيسية ، ويتسق معها كل الاتساق .

* * *

(١) التصور الإسلامى للوجود أو « فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان » بحث يظهر قريبا إن شاء الله .

« إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم . فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ... » ..

ما الآيات التى فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار ؟ ما الآيات التى تتراءى لأولى الألباب عندما يتفكرون فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وما علاقة التفكر فى هذه الآيات بذكرهم الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وكيف ينتهون من التفكر فيها إلى هذا الدعاء الخاشع الواجف :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ! فقنا عذاب النار » ..

إلى نهاية ذلك الدعاء ؟

إن التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثراتّ الكونية فى الإدراك السليم . وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار فى صميم الكون ، بالليل والنهار .

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدا إلى هذا الكتاب المفتوح ؛ الذى لا تفتأ صفحاته تقلب ، فتتبدى فى كل صفحة آية موحية ، تستعيش فى الفطرة السليمة إحساسا بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب ، وفى « تصميم » هذا البناء ، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق ، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان ! ! ! وأولو الألباب . . أولو الإدراك الصحيح .. يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ؛ ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات . ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده ، وعلة نشأته ، وقوام فطرته . بالإلهام

Marfat.com

الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هـذا الوجود .

ومشهد السماوات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار .. لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا . لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة . لو استنقذنا حسنا من همود الإلف ، وخمود التكرار .. لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ، ولأحسسنا أن وراء مافيه من تناسق لابد من يد تنسق ؛ ووراء مافيه من نظام لابد من عقل يدبر ؛ ووراء مافيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلف .. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا ، ولا يمكن أن يكون جزافا ، ولا يمكن أن يكون باطلا .

ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس . ولا أن تناسق السماوات والأرض مرتكز إلى « الجاذبية » أو غير الجاذبية .. هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى فى كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هـذه العجيبة الكونية ، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التى تحكمها وتحفظها . . وهـذه النواميس ـ أيا كان اسمها عنـد الباحثين من بنى الإنسان ـ هى آية القدرة ، وآية الحق ، فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار .

والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا ، وهو فى الوقت ذاته تصوير إيحائى ، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح ، فى التعامل مع الكون ، وفى التخاطب معه بلغته ، والتجاوب مع فطرته وحقيقته ، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته . ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب « معرفة » للإنسان المؤمن الموصول بالله ، وبما تبدعه يد الله (١) .

وإنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته : « قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ..

---

(١) كتاب : التصور الإسلامى للوجود أو « فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان » .

Marfat.com

وبين التفكر فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار . . فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة ، ويجعله جانبا من مشهد الذكر . . فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين .

الحقيقة الأولى : أن التفكر فى خلق الله ، والتدبر فى كتاب الكون المفتوح ، وتتبع يد الله المبدعة ، وهى تحرك هذا الكون ، وتقلب صفحات هذا الكتاب . . هو عبادة لله من صميم العبادة ، وذكر لله من صميم الذكر . ولو اتصلت العلوم الكونية ، التى تبحث فى تصميم الكون ، وفى نواميسه وسننه ، وفى قواه ومدخراته ، وفى أسراره وطاقاته . . لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره ، والشعور بجلاله وفضله . لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة . ولاستقامت الحياة ـ بهذه العلوم ـ واتجهت إلى الله . ولكن الاتجاه المادى الكافر ، يقطع مابين الكون وخالقه ، ويقطع مابين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية ؛ ومن هنا يتحول العلم ـ أجمل هبة من الله للإنسان ـ لعنة تطارد الإنسان ، وتحيل حياته إلى جحيم منكرة ، وإلى حياة قلقة مهددة ، وإلى خواء روحى يطارد الإنسان كالمارد الجبار !

والحقيقة الثانية : أن آيات الله فى الكون ، لا تتجلى على حقيقتها الموحية ، إلا للقلوب الذاكرة العابدة . وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ـ وهم يتفكرون فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ـ هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهى الموصل إلى النجاة والخير والصلاح . . فأما الذين يكتفون بظاهر من الحياة الدنيا ، ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية ـ بدون هذا الاتصال ـ فهم يدمرون الحياة ويدمرون أنفسهم بما يصلون إليه من هذه الأسرار ، ويحولون حياتهم إلى جحيم نكد ، وإلى قلق خانق . ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه فى نهاية المطاف !

فهما أمران متلا زمان ، تعرضهما هذه الصورة التى يرسمها القرآن لأولى الألباب فى لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

إنها لحظة تمثل صفاء القلب ، وشفافية الروح ، وتفتح الإدراك ، واستعداده للتلقى . كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع ..

إنها لحظة العبادة . وهى بهذا الوصف لحظة اتصال ، ولحظة استقبال . فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ؛ وأن يكون مجرد التفكر فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا . ومن ثم تكون الحصيلة المباشرة ، للخطة الواصلة .

« ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ! » ..

ماخلقت هذا الكون ليكون باطلا . ولكن ليكون حقا . الحق قوامه . والحق قانونه . والحق أصيل فيه . إن لهذا الكون حقيقة ، فهو ليس « عدما » كما تقول بعض الفلسفات ! وهو يسير وفق ناموس ، فليس متروكا للفوضى . وهو يمضى لغاية ، فليس متروكا للمصادفة . وهو محكوم فى وجوده وفى حركته وفى غايته بالحق لا يتلبس به الباطل .

هذه هى اللمسة الأولى ، التى تمس قلوب « أولى الألباب » من التفكر فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار بشعور العبادة والذكر والاتصال . وهى اللمسة التى تطبع حسهم بالحق الأصيل فى تصميم هذا الكون ، فتطلق ألسنتهم بتسبيح الله وتنزيهه عن أن يخلق هذا الكون باطلا :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك ! » ..

ثم تتوالى الحركات النفسية ، تجاه لمسات الكون وإيحاءاته .

« . . . فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته . وما للظالمين من أنصار . . . » ..

فما العلاقة الوجدانية ، بين إدراك مافى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار من حق ، وبين هذه الارتعاشة المنطلقة بالدعاء الخائف الواجف من النار ؟

إن إدراك الحق الذى فى تصميم هذا الكون وفى ظواهره ، معناه ـ عند أولى الألباب ـ أن هناك تقديرا وتدبيرا ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقا وعدلا وراء حياة الناس

Marfat.com

فى هذا الكوكب . ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على مايقدم الناس من أعمال . ولا بد إذن من دار غيرهذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل فى الجزاء .

فهى سلسلة من منطق الفطرة والبداهة ، تتداعى حلقاتها فى حسهم على هذا النحوالسريع. لذلك تقفز إلى خيالهم صورة النار ، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها ، هو الخاطر الأول ، المصاحب لإدراك الحق الكامن فى هذا الوجود .. وهى لفتة عجيبة إلى تداعى المشاعر عند ذوى البصائر .. ثم تنطلق ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل ، الخاشع الواجف الراجف المنيب ، ذى النغم العذب ، والإيقاع المنساب ، والحرارة البادية فى المقاطع والأنغام !

ولا بد من وقفةأمام الرجفة الأولى وهم يتجهون إلى ربهم ليقيهم عذاب النار .. لا بد من وقفة أمام قولهم :

« ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » .. « وما للظالمين من أنصار » ..

إنها تشى بأن خوفهم من النار ، إنما هو خوف ـ قبل كل شىء ـ من الخزى الذى يصيب أهل النار . وهـذه الرجفة التى تصيبهم هى أولا رجفة الحياء من الخزى الذى ينال أهل النار . فهى ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، فهم أشد حساسية به من لذع النار ! كما أنها تشى بشعورهم القوى بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالهم من أنصار ..

ثم نمضى مع الدعاء الخاشع الطويل :

« ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم . فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » ..

فهى قلوب مفتوحة ؛ ما إن تتلقى حتى تستجيب . وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة ، فتبحث أول ماتبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار .

ويتسق ظل هـذه الفقرة فى الدعاء مع ظلال السورة كلها ، فى الاتجاه إلى الاستغفار والتطهر من الذنب والمعصية ، فى المعركة الشاملة مع شهوات النفس ومع الذنب والخطيئة . المعركة التى يتوقف على الانتصار فيها ابتداء كل انتصار فىمعارك الميدان ، معأعداء الله وأعداء الإيمان .. والسورة كلها وحدة متكاملة متناسقة الإيقاعات والظلال .

الجزء الرابع

وختام هذا الدعاء . توجه ورجاء . واعتماد واستمداد من الثقة بوفاء الله بالميعاد :

« ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » ..

فهو استنجاز لوعد الله ، الذى بلغته الرسل ، وثقة بوعد الله الذى لا يخلف الميعاد ، ورجاء فى الإعفاء من الخزى يوم القيامة ، يتصل بالرجفة الأولى فى هذا الدعاء ، ويدل على شدة الخوف من هذا الخزى ، وشدة تذكره واستحضاره فى مطلع الدعاء وفى ختامه . مما يشى بحساسية هذه القلوب ورقتها وشفافيتها وتقواها وحيائها من الله .

والدعاء فى مجموعه يمثل الاستجابة الصادقة العميقة ، لإيحاء هذا الكون وإيقاع الحق الكامن فيه ، فى القلوب السليمة المفتوحة ..

ولا بد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء ، من جانب الجمال الفنى والتناسق فى الأداء ..

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة لآياتها ـ والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فهى ليست حرفا متحدا ، ولكنها إيقاع متشابه ـ مثل : « بصير . حكيم . مبين . مريب » . . « الألباب ، الأبصار . النار . قرار » . . « خفيا . شقيا . شرقيا شيئاً » . . . الخ .

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير . والثانية فى مواضع الدعاء . والثالثة فى مواضع الحكاية .

وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى . ولم تبعد عنها إلا فى موضعين : أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء . والثانى هنا عند هذا الدعاء الجديد ..

وذلك من بدائع التناسق الفنى فى التعبير القرآنى .. فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية ، وعذوبة صوتية . تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال .

وهناك ظاهرة فنية أخرى.. إن عرض هذا المشهد: مشهد التفكر والتدبر فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، يناسبه دعاء خاشع مرتل طويل النغم ، عميق النبرات . فيطول بذلك عرض المشهد وإيحاءاته ومؤثراته ، على الأعصاب والأسماع والخيال ، فيؤثر فى الوجدان، بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجه وارتجاف .. وهنا طال المشهد بعباراته وطال بنغماته

Marfat.com

مما يؤدى غرضا أصيلا من أغراض التعبير القرآنى ، ويحقق سمة فنية أصيلة من سماته . ثم . . طال بالرد عليه والاستجابة له كذلك :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى - بعضكم من بعض - فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب .. لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نزلا من عند الله . وما عند الله خير للأبرار » ..

وهى استجابة مفصلة ، وتعبير مطول ، يتناسق مع السمة الفنية للتعبير القرآنى ؛ وفق مقتضى الحال ، ومتطلبات الموقف ، من الجانب النفسى والشعورى (١) .

ثم نخلص لمحتويات هذه الاستجابة الإلهية، ودلالتها على طبيعة هذا المنهج الإلهى ومقوماته، ثم على طبيعة منهج التربية الإسلامية وخصائصه ..

إن أولى الألباب هؤلاء ، تفكروا فى خلق السماوات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار ، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكن فيه ، فاتجهوا إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع الواجف الطويل العميق ..ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم ، على دعائهم المخلص الودود .. فماذا كانت الاستجابة ؟

لقد كانت قبولا للدعاء ، وتوجيها إلى مقومات هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى آن :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم . . من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » ..

إنه ليس مجرد التفكر ومجرد التدبر . وليس مجرد الخشوع والارتجاف . وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزى ومن النار . . إنما هو «العمل» . العمل

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

الإيجابى ، الذى ينشأ عن هذا التلقى ، وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة فى هذه الارتجافة . العمل الذى يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر ، والذكر والاستغفار ، والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء . بل العمل الذى يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة ، والذى يقبل من الجميع : ذكرانا وإناثا بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس . فكلهم سواء فى الإنسانية ـ بعضهم من بعض ـ وكلهم سواء فى الميزان ..

ثم تفصيل للعمل ، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة فى النفس والمال ؛ كما تتبين منه طبيعة المنهج ، وطبيعة الأرض التى يقوم عليها ، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك ، وضرورة مغالبة العوائق ، وتكسير الأشواك ، وتمهيد التربة للنبتة الطيبة ، والتمكين لها فى الأرض ، أيا كانت التضحيات ، وأيا كانت العقبات :

« فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا . لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » ..

وقد كانت هذه صورة الداعين المخاطبين بهذا القرآن أول مرة . الذين هاجروا من مكة ، وأخرجوا من ديارهم ، فى سبيل العقيدة ، وأوذوا فى سبيل الله لا فى أى غاية سواه ، وقاتلوا وقتلوا . . ولكنها صورة أصحاب هذه العقيدة فى صميمها . . فى كل أرض وفى كل زمان . . صورتها وهى تنشأ فى الجاهلية ـ أية جاهلية ـ فى الأرض المعادية لها ـ أية أرض ـ وبين القوم المعادين ـ أى قوم ـ فتضيق بها الصدور ، وتتأذى بها الأطماع والشهوات ، وتتعرض للأذى والمطاردة ، وأصحابها ـ فى أول الأمر ـ قلة مستضعفة . . ثم تنمو النبتة الطيبة ـ كما لابد أن تنمو ـ على الرغم من الأذى ، وعلى الرغم من المطاردة ، ثم تملك الصمود والمقاومة والدفاع عن نفسها . فيكون القتال ، ويكون القتل .. وعلى هذا الجهد الشاق المرير يكون تكفير السيئات ، ويكون الجزاء ويكون الثواب .

هذا هو الطريق .. طريق هذا المنهج الربانى ، الذى قدر الله أن يكون تحققه فى واقع الحياة بالجهد البشرى ، وعن طريق هذا الجهد ، وبالقدر الذى يبذله المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله . ابتغاء وجه الله .

Marfat.com

وهذه هى طبيعة هذا المنهج ، ومقوماته ، وتكاليفه . . ثم هذه هى طريقة المنهج فى التربية ، وطريقته فى التوجيه ، للانتقال من مرحلة التأثر الوجدانى بالتفكر والتدبر فى خلق الله ؛ إلى مرحلة العمل الإيجابى وفق هذا التأثر تحقيقا للمنهج الذى أراده الله (١) .

ثم التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة فى المتاع المتاح فى هذه الأرض للكفار والعصاة والمعاندين للمنهج الله . . التفاتة لإعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة ، حتى لا يكون فتنة لأصحابه ، ثم كى لا يكون فتنة للمؤمنين ، الذى يعانون ما يعانون ، من أذى وإخراج من الديار ، وقتل وقتال :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل .. ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها نزلا من عند الله . وما عند الله خير للأبرار » ..

وتقلب الذين كفروا فى البلاد ، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك فى القلوب منه شىء لامحالة . يحيك منه شىء فى قلوب المؤمنين؛ وهم يعانون الشظف والحرمان ، ويعانون الأذى والجهد ، ويعانون المطاردة أو الجهاد . . وكلها مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون ! .. ويحيك منه شىء فى قلوب الجماهير الغافلة ، وهى ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله فى منجاة ، بل فى مسلاة ! ويحيك منه شىء فى قلوب الضالين المبطلين أنفسهم ؛ فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا فى الشر والفساد .

هنا تأتى هذه اللمسة :

« لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

متاع قليل .. ينتهى ويذهب .. أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم .. وبئس المهاد !

وفى مقابل المتاع القليل الذاهب جنات . وخلود . وتكريم من الله :

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب فصل « تربية العقل » ص ٩٦-٩٧

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

« جنات تجرى من تحتها الأنهار » . . « خالدين فيها » . . « نزلا من عند الله » . . « وما عند الله خير للأبرار » . .

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب فى كفة ، وهذا النصيب فى كفة ، أن ما عند الله خير للأبرار . وما تبقى فى القلب شبهة فى أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا فى هذا الميزان . وما يتردد ذو عقل فى اختيار النصيب الذى يختاره لأنفسهم أولو الألباب !

إن الله ـ سبحانه ـ فى موضع التربية ، وفى مجال إقرار القيم الأساسية فى التصور الإسلامى لا يعد المؤمنين هنا بالنصر ، ولا يعدهم بقهر الأعداء ، ولا يعدهم بالتمكين فى الأرض ، ولا يعدهم شيئا من الأشياء فى هذه الحياة . . مما يعدهم به فى مواضع أخرى ، ومما يكتبه على نفسه لأوليائه فى صراعهم مع أعدائه .

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا . هو « ماعند الله » . فهذا هو الأصل فى هذه الدعوة . وهذه هى نقطة الانطلاق فى هذه العقيدة : التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع ـ حتى رغبة المؤمن فى غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله ـ حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، ويكلوا أمرها إليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها !

هذه العقيدة : عطاء ووفاء وأداء . . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شىء هناك !

ثم يقع النصر ، ويقع التمكين ، ويقع الاستعلاء . . ولكن هذا ليس داخلا فى البيعة ليس جزءا من الصفقة . ليس فى الصفقة مقابل فى هذه الدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء . . والابتلاء . .

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة فى مكة ؛ وعلى هذا كان البيع والشراء . ولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء :

قال محمد ابن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لرسول

Marfat.com

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى ليلة العقبة (ونقباء الأوس والخزرج يبايعونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الهجرة إليهم) : اشترط لربك ولنفسك ماشئت . فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . . قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . . قالوا : ربح البيع . ولا نقيل ولا نستقيل » . .

هكذا . . « الجنة » . . والجنة فقط ! لم يقل : النصر والعز والوحدة . والقوة . والتمكين . والقيادة . والمال . والرخاء ـ مما منحهم الله وأجراه على أيديهم ـ فذلك كله خارج عن الصفقة !

وهكذا .. ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل .. لقد أخذوها صفقة بين متبايعين ؛ أنهى أمرها ، وأمضى عقدها . ولم تعد هناك مساومة حولها !

وهكذا ربى الله الجماعة التى قدر أن يضع فى يدها مقاليد الأرض ، وزمام القيادة ، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها ، وكل رغباتها ، وكل شهواتها ، حتى مايختص منها بالدعوة التى تحملها ، والمنهج الذى تحققه ، والعقيدة التى تموت من أجلها . فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقى له أرب لنفسه فى نفسه ، أو بقيت فيه بقية لم تدخل فى السلم كافة[1] .

* * *

وقبل ختام السورة يعود السياق إلى أهل الكتاب ، فيقرر أن فريقا منهم يؤمن إيمان المسلمين ، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم . وسار سيرتهم . وله كذلك جزاؤهم :

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم . خاشعين لله ، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب ».

إنه الحساب الختامى مع أهل الكتاب . وقد ذكر من طوائفهم ومواقفهم فيما سبق من السورة الكثير . ففى معرض الإيمان ، وفى مشهد الدعاء والاستجابة ، يذكر كذلك أن من

---

(١) راجع ص ١٣٤ ـ ١٤٢ من الجزء الثانى فى تفسير قوله تعالى: « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ».

أهل الكتاب من سلكوا الطريق ، وانتهوا إلى النهاية . فآمنوا بالكتاب كله ، ولم يفرقوا بين الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد من رسله . آمنوا بما أنزل إليهم من قبل ، وآمنوا بما أنزل للمسلمين ـ وهذه سمة هذه العقيدة التى تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القرب والود ؛ وتنظر إلى خط العقيدة موصولا بالله ، وتنظر إلى منهج الله فى وحدته وكليته الشاملة ، ويبرز من سمات المؤمنين من أهل الكتاب : سمة الخشوع لله وسمة عدم شرائهم بآياته ثمنا قليلا .. ليفرقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب ، وسمتهم الأصيلة هى التبجح وقلة الحياء من الله . ثم التزوير والكتمان لآيات الله ، لقاء أعراض الحياة الرخيصة !

ويعدهم أجر المؤمنين عندالله . الذى لا يعطل المتعاملين معه ـ حاشاه ـ !

« إن الله سريع الحساب »..

* * *

ثم يجىء الإيقاع الأخير ، فى نداء الله للذين آمنوا ، وتلخيص أعباء المنهج ، وشرط الطريق :

« ياأيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

إنه النداء العلوى للذين آمنوا . نداؤهم بالصفة التى تربطهم بمصدر النداء . والتى تلقى عليهم هذه الأعباء . والتى تؤهلهم للنداء وتؤهلهم للأعباء ، وتكرمهم فى الأرض كما تكرمهم فى السماء :

« يا أيها الذين آمنوا » .

النداء لهم . للصبر والمصابرة ، والمرابطة ، والتقوى ..

وسياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى .. يذكران مفردين ، ويذكران مجتمعين .. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلة ، ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة ، وإلى المرابطة والتقوى ، فيكون هذا أنسب ختام .

والصبر هو زاد الطريق فى هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء ، وبالإيذاء والابتلاء .. الصبر على أشياء كثيرة : الصبر على شهوات

Marfat.com

Marfat.com

النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من قريب ! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم ، وانحراف طباعهم ، وأثرتهم ، وغرورهم ، والتوائهم ، واستعجالهم للثمار ! والصبر على تنفج الباطل ، ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة ، وتصعير الغرور والخيلاء ! والصبر على قلة الناصر ، وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعات الكرب والضيق ! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره فى النفس من انفعالات متنوعة . من الألم والغيظ ، والحنق ، والضيق ، وضعف الثقة أحيانا فى الخير ، وقلة الرجاء أحيانا فى الفطرة البشرية ؛ والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط ! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس فى ساعة القدرة والانتصار والغلبة ، واستقبال الرخاء فى تواضع وشكر ، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام ، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء ! والبقاء فى السراء والضراء على صلة بالله ، واستسلام لقدره ، ورد الأمر إليه كله فى طمأنينة وثقة وخشوع ..

والصبر على هذا كله ـ وعلى مثله ـ مما يصادف السالك فى هذا الطريق الطويل .. لا تصوره حقيقة الكلمات . فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقى لهذه المعاناة . إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق ؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات !

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقى . فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء . كانوا يعرفون معنى الصبر الذى يطلب الله إليهم أن يزاولوه ..

والمصابرة .. وهى مفاعلة من الصبر .. مصابرة هذه المشاعر كلها ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين .. مصابرتها ومصابرتهم ، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة . بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى : أعدائهم من كوامن الصدور ، وأعدائهم من شرار الناس سواء . فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم ، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر ، والدفع بالدفع ، والجهد بالجهد ، والإصرار بالإصرار .. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء . وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضى فى الطريق ، فما أجدر الحق أن يكون أشد إصرارا وأعظم صبرا على المضى فى الطريق !

Marfat.com

والمرابطة . . الإقامة فى مواقع الجهاد ، وفى الثغور المعرضة لهجوم الأعداء . . وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدا ، ولا تستسلم للرقاد ! فما هادنها أعداؤها قط ، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة ، والتعرض بها للناس . وما يهادنها أعداؤها قط فى أى زمان أو فى أى مكان وما تستغنى عن المرابطة للجهاد ، حيثما كانت إلى آخر الزمان !

إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعى . منهج يتحكم فى ضمائرهم ، كما يتحكم فى أموالهم ، كما يتحكم فى نظام حياتهم ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم . ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم ؛ والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة ؛ والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة .. ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان . ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال . وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار . وينهد لحربها المستهترون المنحلون ، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات .. ولابد من مجاهدتهم جميعا . ولابد من الصبر والمصابرة . ولابد من المرابطة والحراسة . كى لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين ، الدائمين فى كل أرض وفى كل جيل ..

هذه طبيعة هذه الدعوة ، وهذا طريقها .. إنها لا تريد أن تعتدى ؛ ولكن تريد أن تقيم فى الأرض منهجها القويم ونظامها السليم .. وهى واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام . ومن يقف فى طريقها بالقوة والكيد . ومن يتربص بها الدوائر . ومن يحاربها باليد والقلب واللسان .. ولابد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها ، ولابد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام !!!

والتقوى .. التقوى تصاحب هذا كله . فهى الحارس اليقظ فى الضمير يحرسه أن يغفل ؛ ويحرسه أن يضعف ؛ ويحرسه أن يعتدى ؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك .

ولا يدرك الحاجة إلى هـذا الحارس اليقظ ، إلا من يعانى مشاق هذا الطريق ؛ ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة فى شتى الحالات وشتى اللحظات ..

إنه الإيقاع الأخير فى السورة التى حوت ذلك الحشد من الإيقاعات . وهو جماعها كلها ، وجماع التكاليف التى تفرضها هذه الدعوة فى عمومها .. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح فى هذا المضمار :

« لعلكم تفلحون » .

وصدق الله العظيم ..

Marfat.com

Marfat.com

سُورَةُ النِّسَاءِ
مدنية وآياتها ١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مدنية ، وهى أطول سور القرآن ـ بعد سورة البقرة ـ وترتيبها فى النزول بعد سورة الممتحنة ، التى تقول الروايات: إن بعضها نزل فى غزوة الفتح فى السنة الثامنة للهجرة، وبعضها نزل فى غزوة الحديبية قبلها فى السنة السادسة .

ولكن الأمر فى ترتيب السور حسب النزول ـ كما بينا فى مطالع الكلام على سورة البقرة فى الجزء الأول ـ ليس قطعيا . كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة فى زمن واحد. فقد كانت الآيات تنزل من سور متعددة ؛ ثم يأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، بوضع كل منها فى موضعه من سورة بذاتها . والسورة الواحدة ـ على هذا ـ كانت تظل « مفتوحة » فترة من الزمان تطول أو تقصر . وقد تمتد عدة سنوات . وفى سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل فى المدينة ، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن .

وكذلك الشأن فى هذه السورة . فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة فى السنة السادسة وفى السنة الثامنة كذلك. ولكن منها الكثير نزل فى أوائل العهد بالهجرة . والمنتظر ـ على كل حال ـ أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد فى السنة الثالثة الهجرية ، إلى ما بعد السنة الثامنة ، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة .

ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة فى هذه السورة عن حكم الزانيات : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ، حتى

Marfat.com

يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .. فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التى بينت حد الزنا : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .. وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك فى السنة الخامسة (أو فى السنة الرابعة على رواية) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت : « خذوا عنى . خذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلا . . . » [1] إلخ . وكان السبيل هو هذا الحكم الذى تضمنته آية النور .

وفى السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج ، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب . على النحو الذى بيناه فى مطالع الكلام عن سورة البقرة [2] ..

* * *

هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذى أنفقه الإسلام فى بناء الجماعة المسلمة ، وإنشاء المجتمع الإسلامى ؛ وفى حماية تلك الجماعة ، وصيانة هـذا المجتمع . وتعرض نموذجا من فعل القرآن فى المجتمع الجديد ، الذى انبثق أصلا من خلال نصوصه ، والذى نشأ ابتداء من خلال المنهج الربانى . وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج فى تعامله مع الكائن الإنسانى ؛ كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الربانى .. تفاعله معه وهو يقود خطاه فى المرتقى الصاعد، من السفح الهابط ، إلى القمة السامقة .. خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة .. بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب ؛ وبين أشواك الطريق التى لا تخلو منها خطوة واحدة ؛ وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك !

وكما رأينا من قبل ـ فى سورة البقرة وسورة آل عمران ـ مواجهة القرآن لكل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة فى المدينة ؛ وبيان طبيعة المنهج الربانى الذى تنشأ الجماعة على أساسه؛ وتقرير الحقائق الأساسية التى يقوم عليها التصور الإسلامى ، والقيم والموازين التى تنبثق من

---

(١) رواه الإمام أحمد فى سنده والإمام مسلم فى صحيحه وابن ماجه .
(٢) ص ٢٢ من الطبعة الثانية المنقحة .

هذا التصور ؛ وإبراز التكاليف التى يقتضيها النهوض بهذه الأمانة فى الأرض ؛ وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التى تقوم عليه فى الأرض ، وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ودسائسهم ؛ وبيان مافى عقائدهم من زيف وانحراف ، ومافى وسائلهم من خسة والتواء . . . إلخ . . . فكذلك نرى القرآن ـ فى هذه السورة ـ يواجه جملة هذه الملابسات والحقائق . .

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، ومحورها الذى تشد إليه موضوعاتها جميعا .. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات فى كل سورة وتتناسق حول محورها فى نظام خاص بها ، تبرز فيه ملامحها ، وتتميز به شخصيتها . كالكائن الحى المميز السمات والملامح ، وهو ـ مع هذا ـ واحد من جنسه على العموم !

ونحن نرى فى هذه السورة ـ ونكاد نحس ـ أنها كائن حى ، يستهدف غرضا معينا ، ويجهد له ، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل .. والفقرات والآيات والكلمات فى السورة ، هى الوسائل التى تبلغ بها ماتريد ! ومن ثم نستشعر تجاهها ـ كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن ـ إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحى، المعروف السمات ، المميز الملامح، صاحب القصد والوجهة ، وصاحب الحياة والحركة ، وصاحب الحس والشعور !

إن السورة تعمل بجد وجهد فى محو ملامح المجتمع الجاهلى ـ الذى منه التقطت المجموعة المسلمة ـ ونبذ رواسبه ؛ وفى تكييف ملامح المجتمع المسلم ، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه ، وجلاء شخصيته الخاصة . كما تعمل بجد وجهد فى استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة ، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذى منه انبثقت هذه الكينونة المميزة ، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله ـ من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود ـ وأعدائه المتميعين فيه ـ من ضعاف الإيمان والمنافقين ـ وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم ، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم . مع وضع الأنظمة والتشريعات التى تنظم هذا كله وتحدده ، وتصبه فى القالب التنفيذى المضبوط .

وفى الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية ، وهى تتصارع مع المنهج الجديد ، والقيم الجديدة،

Marfat.com

والاعتبارات الجديدة . ونرى ملامح الجاهلية وهى تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة . ونشهد المعركة التى يخوضها المنهج الربانى بهذا القرآن فى هذا الميدان . وهى معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة ، عن المعركة التى يخوضها فى الميدان الآخر ، مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه !

وحين ندقق النظر فى الرواسب التى حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلى الذى منه جاء ، والتى تعالج هذه السورة جوانب منها ـ كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى ـ قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب ، حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التى رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها . . ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر . . ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التى انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد، بالجماعة المسلمة . وقد التقطها من ذلك السفح الهابط ، الذى تمثله تلك الرواسب ، فارتقى بها فى ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة . . القمة التى لم ترتق إليها البشرية قط ، إلا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد . المنهج الذى يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح ، فيرتقى بها إلى تلك القمة ، رويدا رويدا ، فى يسر ورفق ، وفى ثبات وصبر ، وفى خطو متناسق موزون !

والذى يدقق النظر فى هذه الظاهرة الفريدة فى تاريخ البشرية ، يتجلى له جانب من حكمة الله فى اختيار « الأميين » فى الجزيرة العربية ، فى ذلك الحين ، لهذه الرسالة العظيمة . . حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة ، بكل مقوماتها . الاعتقادية والتصورية ، والعقلية والفكرية ، والأخلاقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج ، وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة ، التى لا يملك أن يأتى بها منهج آخر ، فى كل ماعرفت الأرض من مناهج ، وليرتسم فيهم خط هذا المنهج، بكل مراحله ـ من السفح إلى القمة ـ وبكل ظواهره ، وبكل تجاربه ؛ ولترى البشرية ـ فى عمرها كله ـ أين تجد المنهج الذى يأخذ بيدها إلى القمة السامقة ، أيا كان موقفها فى المرتقى الصاعد . سواء كانت فى درجة من درجاته ، أم كانت فى سفحه الذى التقط منه « الأميين » !

إن هذا المنهج ثابت فى أصوله ومقوماته ، لأنه يتعامل مع « الإنسان » . وللإنسان

Marfat.com

Marfat.com

كينونة ثابتة ، فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى . وكل التحورات والتطورات التى تلابس حياته لا تغير من طبيعته ، ولا تبدل من كينونته ، ولا تحوّله خلقا آخر . إنما هى تغيرات وتطورات سطحية ، كالأمواج فى الخضم ، لا تغير من طبيعته المائية ، بل لا تؤثر فى تياراته التحتية الدائمة ، المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة !

ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة ، تلك الكينونة البشرية الثابتة . ولأنها من صنع المصدر الذى صنع الإنسان ، فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة ، وأطوارها المتجددة ، بنفس المرونة التى يواجه بها « الإنسان » ظروف الحياة المتغيرة ، وأطوارها المتجددة ، وهو محافظ على مقوماته الأساسية . . مقوّمات الإنسان ..

وفى « الإنسان » هذا الاستعداد ، وهذه المرونة ، وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها ، وهى ليست ثابتة من حوله . وفى المنهج الربانى الموضوع لهذا الإنسان ، ذات الخصائص ، بحكم أنه صادر من المصدر الذى صدر منه الإنسان ، ومودعٌ خصائصه ذاتها ، ومعدٌّ للعمل معه إلى آخر الزمان .

وهكذا يستطيع ذلك المنهج ، وتستطيع هذه النصوص ، أن تلتقط الفرد الإنسانى ، وأن تلتقط المجموعة الإنسانية ، من أى مستوى ، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد ، فيتنهى به وبها إلى القمة السامقة . . إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء ، ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل فى المرتقى . كما أنه لا يضيق به ولا بها ، ولا يعجز عن رفعه ورفعها ، أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق !

المجتمع البدائى المتخلف كالمجتمع العربى فى الجاهلية القديمة ، والمجتمع الصناعى المتحضر كالمجتمع الأوربى والأمريكى فى الجاهلية الحديثة . . كلاهما يجد فى المنهج الربانى والنصوص القرآنية مكانه ، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان ، فيرقى به فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة ، التى حققها الإسلام ، فى فترة حية من فترات التاريخ الإنسانى . .

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ . إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم فى كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففى كل

المناهج التى تعتنقها البشرية اليوم ، يأخذ البشر عن بشر مثلهم : التصورات والمبادئ ، والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد . . وهذه هى الجاهلية بكل مقوماتها . الجاهلية التى تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله .

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد ، الذى يتحرر فيه البشر من عبودية البشر . لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ ، والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد ، من يد الله ـ سبحانه ـ فإذا أحنوا رءوسهم فإنما يحنونها لله وحده ، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده ، وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد ، حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك .

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية ـ فى كل صورة من صورها ـ وبين الإسلام . وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذى لا تبقى معه ريبة لمستريب

* * *

ومفهوم أن كل أمر أو نهى أو توجيه ورد فى القرآن الكريم ، كان يواجه حالة واقعة فى المجتمع الجاهلى ، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة ، وإما إبطال حالة قائمة . . وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » . ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل فى كل جيل وفى كل بيئة كما أسلفنا . وفى هذا تكمن المعجزة . فهذه النصوص التى جاءت لتواجه أحوالا بعينها ، هى ذاتها التى تواجه الجماعة الإنسانية ، فى أى طور من أطوارها . والمنهج الذى التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية ، هو ذاته الذى يلتقط أية مجموعة ـ أيا كان موقفها على الدرج الصاعد ـ ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة ، التى بلغ إليها بالمجموعة الأولى ، يوم التقطها من ذلك السفح السحيق !

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلى ، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته ؛ كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التى يريد أن ينشئها ، وأن يثبتها فى المجتمع الجديد . .

فماذا نحن واجدون ـ فى هذه السورة ـ من ملامح المجتمع الجاهلى التى ظلت راسبة فى

Marfat.com

الجزء الرابع

الجماعة المسلمة ، منذ أن التقطها المنهج الربانى من سفح الجاهلية ؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التى يراد إنشاؤها فى المجتمع الإسلامى الجديد وتثبيتها !

إننا نجد مجتمعا تؤكل فيه حقوق الأيتام ـ وبخاصة اليتيمات ـ فى حجور الأهل والأولياء والأوصياء ، ويستبدل الخبيث منها بالطيب ، ويعمل فيها بالإسراف والطمع ، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها ! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال ، ليتخذهن الأولياء زوجات ، طمعا فى مالهن لا رغبة فيهن ! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته !

ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء ؛ فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيق من الميراث . إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء ، القادرون على حمل السلاح ؛ ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات . وهذا الفتات الذى تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات ، هو الذى يحتجزن من أجله ، ويحبسن على الأطفال من الذكور ؛ أو على الشيوخ من الأولياء . كى لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب فى الغرباء !

ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم، ويعاملها بالعسف والجور. فى كل أدوار حياتها. يحرمها الميراث ـ كما قلنا ـ أو يحبسها لما ينالها منه ؛ ويورثها للرجل كما يورثه المتاع ! فإذا مات زوجها جاء وليه ، فألقى عليها ثوبه ، فيعرف أنها محجوزة له . إن شاء نكحها بغير مهر ، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها ! ويعضلها زوجها إذا طلقها ، فيدعها لاهى زوجة ، ولاهى مطلقة، حتى تفتدى نفسها منه وتفك أسرها !

ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه ، علاوة على اضطراب قواعد التبنى والولاء ، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب ، فوق ما فيه من فوضى فى العلاقات الجنسية والعائلية . حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة .

ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل فى المعاملات الربوية . وتغتصب فيه الحقوق . وتجحد فيه الأمانات . وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح . ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء . كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس ، اجتلابا للمفاخر ، ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء !

Marfat.com

وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية ـ وهى التى تصدت لها هذه السورة ـ ووراءها ما صورته السور الأخرى ، وما تحفل به أخبار هذه الجاهليـة فى العرب ، وفيمن حولهم من الأمم (١) ..

إنه لم يكن ـ قطعا ـ مجتمعا بلا فضائل . فقد كانت له فضائله ، التى تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الـكبرى . ولـكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا ، ووجهها الوجهة البناءة . وكانت ـ لولا الإسلام ـ مضيعة تحت ركام هذه الرذائل ، مفرقة غير متجمعة، وضائعة غير موجهة . وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة ، لولا هذا المنهج ، الذى جعل يمحو ملامح الجاهلية الشائهة، وينشىء أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة، ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة، شأنها فى هذا شأن سائر أمم الجاهلية التى عاصرتها ، والتى اندثرت كلها ، لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة !

من تلك الجاهلية ، التى هذه بعض ملامحها ، التقط الإسلام المجموعة التى قسم الله لها الخير ، وقدّر أن يسلمها قيادة البشر ، فـكون منها الجماعة المسلمة ، وأنشأ بها المجتمع المسلم . ذلك المجتمع الذى بلغ إلى القمة التى لم تبلغها البشرية قط ، والتى ما تزال أملا للبشرية ، يمكن أن تحاوله ، حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق .

وفى هذه السورة نجد بعض الملامح التى يتوخى المنهج الإسلامى إنشاءها وتثبيتها فى المجتمع المسلم ، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية ، التى تـكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها فى الواقع الاجتماعى .

نجد فى مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها ، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذى أنشأها منه ربها ، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة ، واتصالها بوشيجة الرحم ، مع استجاشة هذه الروابط كلها فى الضمير البشرى ، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامى على أساسها ، وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة ، ذات الخالق الواحد ،

---

(١) يراجع ما سبق تفصيله من ملامح الجاهلية العربية فى هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ... » ص ١٢٧

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة ؛ وتنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، والمجتمع الإنسانى كله ، على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » .. وهذه الحقيقة الكبيرة التى تتضمنها آية الافتتاح تمثل قاعدة أصيلة فى التصور الإسلامى ، تقوم عليها الحياة الجماعية . نرجو أن نعرض لها بالتفصيل فى مكانها من سياق السورة .

ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلى للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة :

فى حماية اليتامى نجد التوجيه الموحى ، والتحذير المخيف ، والتشريع المحدد الأصول : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ؛ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً (آية ٢) .. « وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ؛ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ؛ ولا تأكلوها إسرافا ، وبدارا أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا» (آية ٦) . . « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » (٩-١٠) ..

وفى حماية الإناث خاصة ـ يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات ـ وحفظ حقهن جميعا فى الميراث ، وفى الكسب ، وفى حقهن فى أنفسهن ، واستنقاذهن من عسف الجاهلية ،وتقاليدها الظالمة المهينة . . نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا [1] . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » . . (٣-٤) . . « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون .

---

(١) تعولوا : تجوروا .

Marfat.com

مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » (آية : ٧) .. « يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ـ وعاشروهن بالمعروف ؛ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا. وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا.أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ » .. (١٩-٢١) .. « ويستفتونك فى النساء . قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن. والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » . . (آية ١٢٧) . .

وفى تنظيم الأسرة ، وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة ، وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة فى جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية .. ترد مثل هذه التوجيهات والتنظيمات ـ بالإضافة إلى ماورد منها فى ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات ـ : « ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف . إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ـ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ـ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف ـ إن الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء ـ إلا ماملكت أيمانكم ـ كتاب الله عليكم . وأحل لكم ـ ماوراء ذلكم ـ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما » (٢٢-٢٤) .. « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ؛ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن

سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » .. (٣٤–٣٥) .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ؛ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » . . (١٢٨–١٣٠) ..

وفى تنظيم علاقات الميراث والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ؛ وبين الموالى والأولياء الذين كانوا متعاقدين قبل نزول تشريعات النسب ، وإبطال التبنى ، ترد هذه المبادئ الجامعة وهذه التشريعات المحددة ، ذات الأهداف الاجتماعية البعيدة:« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (آية ٧) .. « يوصيكم الله فى أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف . ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك – إن كان له ولد – فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة فلأمه السدس – من بعد وصية يوصى بها أو دين – آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا. فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ماترك أزواجكم – إن لم يكن لهن ولد – فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن – من بعد وصية يوصين بها أو دين – ولهن الربع مما تركتم – إن لم يكن لكم ولد – فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم – من بعد وصية توصون بها أو دين – وإن كان رجل يورث كلالة ، أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث – من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار – وصية من الله والله عليم حليم » . . (١١–١٢) . . « يستفتونك . قل الله يفتيكم فى الكلالة : إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ماترك . وهو يرثها إن لم يكن لها ولد . فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وإن كانوا إخوة رجالا ونساء

Marfat.com

فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم » .. (آية ١٧٦).. « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شيء شهيدا » .. (آية ٣٣) . .

وفى حماية المجتمع من الفاحشة ، وتوفير أسباب الإحصان والوقاية . . نجد مثل هذه التنظيمات : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إن الله كان توابا رحيما » . . (١٥-١٦) . . « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشى العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .. (٢٥-٢٦) ..

وفى تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله ؛ وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح، والأمانة ، والعدل ، والسماحة والمودة ، والإحسان .. ترد توجيهات وتشريعات شتى - إلى جانب ماذكرنا من قبل - نذكر منها هنا على سبيل المثال بضعة نماذج ولا نستقصيها ؛ فستأتى كلها فى مكانها من سياق السورة : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » (آية ٥) .. « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .. (آية ٨) « ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل - إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم - ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » .. (٢٩-٣٠) .. « ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل

Marfat.com

شيء عليما » .. (آية ٣٢) .. « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا،وبذى القربى ، واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » .. (٣٦-٣٨) .. « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » .. (آية ٥٩) .. « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ؛ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ؛ وكان الله على كل شيء مقيتا . وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا » .. (٨٥ - ٨٦) .. « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ .. » « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » .. (٩٢ - ٩٣) .. « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» . (آية ١٣٥) .. « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . وكان الله سميعا بصيرا . إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفوا قديرا » . . (١٤٨ - ١٤٩) ..

* * *

إلى جانب ذلك الهدف الكبير فى تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل والمودة والطهارة ؛ ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية ؛ وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة . . . نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا فى حياة المجتمع المسلم - إن لم يكن هو الأساس الذى يقوم عليه الهدف الأول - ذلك هو تحديد معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، وربط كل الأنظمة والتشريعات التى تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين ، وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام .

إن الدين هو النظام الذى قرره الله للحياة البشرية بجملتها ، والمنهج الذى يسير عليه

Marfat.com

Marfat.com

نشاط الحياة برمتها . والله وحده هو صاحب الحق فى وضع هذا المنهج بلا شريك . والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التى لها وحدها حق الطاعة والاتباع ، ومنها وحدها يكون التلقى ، ولها وحدها يكون الاستسلام .. فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة ـ كما له عقيدة خاصة وتصور خاص ـ قيادة ربانية متمثلة فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه . وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هى التى تمنحه صفة الإسلام وتحمل منه « مجتمعا مسلما » . وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون « مسلما » بحال . وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى الله والرسول ، ورد الأمر كله إلى الله ، والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم .

وتبلغ نصوص السورة فى بيان هذه الحقيقة ، وتقرير هذا الأصل ، مبلغا حاسما جازما ، لا سبيل للجدال فيه ، أو الاحتيال عليه ، أو تمويهه وتلبيسه ، لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال !

وتقرير هـذا المبدأ الأساسى يتمثل فى نصوص كثيرة كثرة واضحة فى السورة . وسيجىء استعراضها التفصيلى فى مكانها من السياق . فنكتفى هنا بذكر بعضها إجمالا :

يتمثل على وجه الإجمال فى آية الافتتاح فى السورة : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ... » .. كما يتمثل فى مثل هذه الآيات : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ... » (آية ٢٧) .. « إن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. (آية ٤٨) ..

ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد فى مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .. (٥٩ ـ ٦١) .. « وما أرسلنا من

Marfat.com

رسول إلا ليطاع بإذن الله » .. (آية ٦٤) . . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . . (آية ٦٥) . . « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » . . (آية ٨٠) .. « ومن يشاقق الرسول ـ من بعد ما تبين له الهدى ـ ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » .. (آية ١١٥) ..

وهكذا يتحدد معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، ونظام المجتمع المسلم ، ومنهجه فى الحياة . وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ؛ ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات ، ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات . . إنما هو إلى جانب هذا وذلك ، وقبل هذا وذلك . نظام يحكم ، ومنهج يتحكم ، وقيادة تطاع ، ووضع يستند إلى نظام معين ، ومنهج معين ، وقيادة معينة . وبغير هذا كله لا يكون إيمان ، ولا يكون إسلام ، ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام .

* * *

وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسى توجيهات كثيرة فى السورة . كلها تفريعات على هذا الأصل الكبير :

١ ـ يترتب عليه أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها فى المجتمع ـ شأنها شأن الشعائر التعبدية ـ مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير ، مستندة إلى معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، على هذا النحو الذى قررته تلك النماذج التى أسلفنا . فهى ليست مجرد تنظيمات وتشريعات . إنما هى مقتضى الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته ، وإفراده بالألوهية ، والتلقى من القيادة التى يحددها .. ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات التى أشرنا إليها تستند إلى هذه الجهة ، وينص فى أعقابها نصا على هذه الحقيقة :

آية الافتتاح التى تقرر وحدة البشرية ، وتدعو الناس إلى رعاية وشيجة الرحم ، وتعد مقدمة لسائر التنظيمات التى تلتها فى السورة .. تبدأ بدعوة الناس إلى تقوى ربهم الذى خلقهم من نفس واحدة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .. وتنتهى إلى

Marfat.com

تقواه ، وتحذيرهم من رقابته : « إن الله كان عليكم رقيبا » ..

والآيات التى تحض على رعاية أموال اليتامى ، وتبين طريقة التصرف فى أموالهم تنتهى بالتذكير بالله وحسابه : « وكفى بالله حسيبا » ..

وتوزيع أنصبة الميراث فى الأسرة يجىء وصية من الله : « يوصيكم الله فى أولادكم . . . » « فريضة من الله » .. وتنتهى تشريعات الإرث بهذا التعقيب : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » ..

وفى تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . . « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . . كتاب الله عليكم . . » . . « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم »..

« فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا » . .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . . تسبق فى الآية الوصية بالإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين .. الخ » ..

وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات بالله ، وتستمد من شريعته ، وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التى لها وحدها حق الطاعة والاتباع .

٢ ـ ويترتب على إقرار ذلك الأصل الكبير أن يكون ولاء المؤمنين لقيادتهم وجماعتهم المؤمنة . فلا يتولوا أحدا لا يؤمن إيمانهم ، ولا يتبع منهجهم ، ولا يخضع لنظامهم ، ولا يتلقى من قيادتهم . كائنة ما كانت العلاقة التى تربطهم بهذا الأحد . علاقة قرابة . أو جنس . أو أرض أو مصلحة . وإلا فهو الشرك أو النفاق ، وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال : « ومن يشاقق الرسول ـ من بعد ماتبين له الهدى ـ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ، ونُصلهِ جهنم ، وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » . . (١١٥ ـ ١١٦) . . « بشر المنافقين بأن لهم

عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا » . . (آية ١٣٩) . . « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما » . . (١٤٤ - ١٤٦) . .

٣ - ويترتب عليه وجوب هجرة المسلمين من دار الحرب - وهى كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة المسلمة - ليلحقوا بالجماعة المسلمة متى قامت فى الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان - وليستظلوا براية القيادة المسلمة ولا يخضعوا لراية الكفر - وهى كل راية غير راية الإسلام - وإلا فهو النفاق أو الكفر ؛ وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال : « فمالكم فى المنافقين فئتين ؟ والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ؛ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » . . (٨٨ - ٨٩) . . « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفورا رحيما » . . (٩٧ - ١٠٠) . .

٤ - ويترتب عليه أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين ، الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر ، وضمهم إلى الجماعة المسلمة فى دار الإسلام ، كى لا يفتنوا عن دينهم ، ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام ، ولا يخضعوا لنظام غير نظامه . ثم لكى يتمتعوا بالنظام الإسلامى الرفيع ، وبالحياة فى المجتمع الإسلامى النظيف . وهو حق كل مسلم ، والحرمان منه حرمان من أكبر نعم الله فى الأرض ، ومن أفضل طيبات الحياة :

Marfat.com

Marfat.com

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » . . (آية ٧٥) .

* * *

ويستتبع هذا الأمر جملة ضخمة للحض على الجهاد بالنفس والمال ، والتنديد بالمعوقين والمبطئين والقاعدين . وهى حملة تستغرق قطاعا كبيرا من السورة ، يرتفع عندها نبض السورة الهادئة الأنفاس ! ويشتد إيقاعها ، وتحمى لذعاتها فى التوجيه والتنديد !

ولا نملك هنا استعراض هذا القطاع بترتيبه فى السياق ـ ولهذا الترتيب أهمية خاصة وإيحاء معين ـ فندع هذا إلى مكانه من السياق . ونكتفى بمقتطفات من هذا القطاع : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات (١) أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ ياليتنى كنت معهم ، فأفوز فوزا عظيما . فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة بالدنيا بالآخرة ؛ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . . (٧٢ - ٧٦) . . « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » .. (آية ٨٤) .. « لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما » ..

---

(١) جماعات أو سرايا .

(٩٥ - ٩٦) . . « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما .. (آية : ١٠٥) .

وفى ثنايا هذه الحملة للحض على الجهاد توضع بعض قواعد المعاملات الدولية بين « دار الإسلام » والمعسكرات المتعددة التى تدور معها المعاملات ، والحلافات :

فى التعقيب على انقسام المسلمين فئتين ورأيين فى أمر المنافقين ، الذين يدخلون المدينة للتجارة والمنافع والاتصال مع أهلها ، حتى إذا خرجوا منها عادوا موالين لمعسكرات الأعداء ، يقول : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ؛ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا . إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم . ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم، ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ؛ وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » . . (٨٩ - ٩١) . . « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيرا » . . (آية ٩٤) ..

وكذلك تجىء فى ثنايا الحديث عن الجهاد بعض الأحكام الخاصة بالصلاة فى حالة الخوف وحالة الأمن ؛ مع توصيات الله للمؤمنين وتحذيرهم من أعدائهم المتربصين : « وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة - إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا - إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ! ولا جناح عليكم - إن كان بكم أذى من

Marfat.com

Marfat.com

مطر أو كنتم مرضى ـ أن تضعوا أسلحتكم ؛ وخذوا حذركم ، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .. (١٠١-١٠٣) ..

وتدل هذه الآيات على مكان الصلاة من الحياة الإسلامية ؛ حتى لتذكر فى مقام الخوف ، وتبين كيفياتها فى هذا المقام ؛ كما تدل على تكامل هذا المنهج ، فى مواجهة الحياة الإنسانية فى كل حالاتها ؛ ومتابعة الفرد المسلم والجماعة المسلمة فى كل لحظة وفى كل حال ..

ويستتبع الأمر بالجهاد كذلك حملة ضخمة على المنافقين وعلى موالاتهم لليهود فى المدينة بينهم يكيدون لدين الله ، وللجماعة المسلمة ، وللقيادة المسلمة كيدا شديدا . وعلى ألاعيبهم فى الصف المسلم ، وتمييعهم للقيم والنظم. وفى الآيات التى اقتطفناها من قطاع الجهاد طرف من الحملة على المنافقين ، نضم إليه هذا القطاع المصور لحالهم وصفاتهم ، الكاشف لطبيعتهم ووسائلهم : « ويقولون طاعة .فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول، والله يكتب مايبيتون. فأعرض عنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .. (٨١-٨٣) .. « إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا . وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذن مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله

إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » . . (١٣٧ - ١٤٥) .

* * *

وفى قطاع الجهاد - وفى غيره من القطاعات الأخرى فى السورة - نلتقى بالحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة ، وعلى العقيدة الإسلامية ، والقيادة الإسلامية كذلك ، من أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - وحلفائهم من المنافقين فى المدينة ، والمشركين فى مكة ، وما حولها . . وهى الحرب التى التقينا بها فى سورة البقرة ، وفى سورة آل عمران ، من قبل .. ونلتقى كذلك بالمنهج الربانى . وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة ، والأحابيل الماكرة ، يقودها ، ويوجهها ، ويحذرها ، ويكشف لها طبيعة أعدائها ، وطبيعة المعركة التى تخوضها ، وطبيعة الأرض التى تدور فيها المعركة ، وزواياها وجوانبها الخبيثة .

ومن علامات الإعجاز فى هذا القرآن ، أن هذه النصوص التى نزلت لتواجه معركة معينة ، ما تزال هى بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة فى كل مكان ، وعلى توالى الأجيال ، وبين أعدائها التقليديين ؛ الذين مايزالون هم هم ، وما تزال حوافزهم هى هى فى أصلها ، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة ، وما تزال أهدافهم هى هى فى طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها ، وما تزال زلزلة العقيدة ، وزعزعة الصف ، والتشكيك فى القيادة الربانية ، هى الأهداف التى تصوب إليها طلقاتهم الماكرة ، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة ، والتصرف فى مقاديرها ، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها ، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج فى المدينة ، قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام ، وبالقيادة المسلمة ، وبالمنهج الربانى .

وقد حفلت هذه السورة كما حفلت سورتا البقرة وآل عمران بالحديث عن تلك المؤامرات التى لا تنقطع من اليهود ضد الجماعة المسلمة ، بالاتفاق مع المنافقين ومع المشركين . وستجىء

Marfat.com

Marfat.com

هذه النصوص مشروحة عند استعراضها فى مكانها فى السياق . فنكتفى هنا بإثبات طرف من هذه الحملة العنيفة :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا ـ ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ـ ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، واسمع ، وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما . ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ، ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به إثما مبينا . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا ؟ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيرا .. » .. (٤٤ – ٥٥) ..

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .. (١٥٠ – ١٥١) ..

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء . فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات ، فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجدا ؛ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم

الجزء الرابع

ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم ؛ فلا يؤمنون إلا قليلا . . . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » . . (١٥٣ - ١٦١) .

ومن هذه المقتطفات تتبين بعض أفاعيل اليهود ، التى يتصدى لها القرآن بالكشف والتنديد ؛ وبالتكذيب والتفنيد .. وهذه الحملة ، وتسمية اليهود فيها بالكافرين ، ووصفهم بأنهم «أعداء» ، تشى بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من هذه الأفاعيل ؛ وبضرورة التعرض لها بالتفنيد والتكذيب، وكشف ماوراءها من أهداف خبيثة ، وبواعث خبيثة ، من هذه الجبلة الخبيثة ؛ التى لم تستسلم أبدا للهدى فى تاريخها الطويل ؛ ولم تستقم على الهدى إلا ريثما تنحرف وتقتل أنبياءها بغير الحق . والتى كان يدفعها الحقد والحسد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن آتاه الله الرسالة ـ وهو من غيرهم ـ وللمسلمين أن جمعهم الله على الهدى ؛ فتكيد لهم هذا الكيد الذى لم ينقطع منذ أن اقتحم الإسلام المدينة عليهم ، إلى يومنا هذا . والذى ما يزال هو هو اليوم وغدا يتلقى كل تجمع إسلامى ، وكل حركة إسلامية ، وكل بعث إسلامى ، على مدار القرون !

ولقد كان التشكيك فى نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته ، هو الهدف الأول لحملات اليهود ؛ الذى يسهل بعد بلوغه تحويل المسلمين عن قيادتهم الأمينة ـ بعد تحويلهم عن عقيدتهم القويمة . ومن ثم يسهل تفتيت الصف المسلم ، وإيهان تماسكه . فهذا التماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الأمينة ، هو الذى يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة ـ فى كل زمان ـ وهو الذى يكلفهم الجهد والمشقة . ومن ثم تتجه جهودهم أولا لتحطيمه . وتسليم مقادة المسلمين إلى الهوى والجاهلية من جديد !

ومن ثم نجد فى السورة بيانا للحقيقة البسيطة فى رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهى ليست بدعا من الرسالات ؛ ولا غريبة من الغرائب ، التى لا عهد للأرض بها ؛ أو لا عهد بها لبنى إسرائيل أنفسهم . إنما هى حلقة من سلسلة الحجة التى يأخذها الله على العباد قبل الحساب.

Marfat.com

فقد أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله . وقد آتاه الله النبوة والحكم ، كما آتى أنبياء بنى إسرائيل ! فلا غرابة فى رسالته ، ولا غرابة فى قيادته ، ولا غرابة فى حاكميته . وكلها مألوف فى عالم الرسالات . وكل تعلات بنى إسرائيل فى هذا الأمر كاذبة ، وكل شبهاتهم كذلك باطلة . ولهم سوابق مثلها مع نبيهم الأكبر موسى عليه السلام ، ومع أنبيائهم من بعده ، وبخاصة مع عيسى عليه السلام ، ومن ثم لا يجوز أن يلقى باله إليها أحد من المسلمين .

وتتولى آيات كثيرة فى السورة بيان هذه الحقيقة . نقتطف بعضها فى هذا المجمل ؛ حتى تجىء كلها مشروحة فى مكانها من السياق :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا » .. (١٦٣-١٦٦) ..

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة ... فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ... وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم :- إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم - رسول الله - وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .. » (١٥٣ - ١٥٧) .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه .. » .. (٥٤-٥٥) ..

* * *

وكما تتولى السورة نصيبها من تنظيم المجتمع المسلم وتطهيره من رواسب الجاهلية ؛ وبيان معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ؛ وترتب على هذا البيان مقتضياته من المبادئ والتوجيهات التى أسلفنا بيانها بصفه عامة ؛ وتتولى دفع شبهات اليهود وكيدهم - وبخاصة فيما يتعلق

Marfat.com

بصحة الرسالة ـ فهى كذلك تتولى بيان بعض مقومات التصور الإسلامى الأساسية، وتجلو عنها الغبش . وتبين ما فى عقيدة أهل الكتاب ـ من النصارى ـ من غلو ، بعد دفع المقولات اليهودية الكاذبة عن عيسى عليه السلام وأمه الطاهرة ، وتقرر وحدة الألوهية وحقيقة العبودية ، وتبين حقيقة قدر الله وعلاقته بخلقه ، وحقيقة الأجل وعلاقته بقدر الله ، وحدود ما يغفره الله من الذنوب ، وحدود التوبة وحقيقتها . وقواعد العمل والجزاء . . . إلى آخر هذه المقومات الاعتقادية الأصيلة . . وذلك فى مثل هذه النصوص :

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ! ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » . . (١٧ – ١٨) .

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » .. (٢٦–٢٨) ..

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريما » .. (آية ٣١) ..

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .. (٤٠) ..

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ـ ولو كنتم فى بروج مشيدة ـ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ! قل : كل من عند الله ، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا . ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .. (٧٧ – ٧٩) ..

Marfat.com

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (١١٦) ..

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .. (١٢٣ - ١٢٤) ..

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » .. (١٤٧) ..

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما » .. (١٥٠-١٥٢) ..

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة . انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد ! له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .. (١٧١-١٧٣) ..

* * *

ثم الأسس الأخلاقية الرفيعة ، التى يقام عليها بناء المجتمع المسلم . . والسورة تعرض من هذه الأسس جمهرة صالحة . سبقت الإشارة إلى بعضها . فالعنصر الأخلاقى أصيل وعميق فى كيان التصور الإسلامى ، وفى كيان المجتمع المسلم ؛ بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله . . ونحن نكتفى هنا بالإشارة السريعة المجملة إلى بعض الأسس المستمدة من هذا العنصر الأصيل فى حياة الجماعة المسلمة ؛ بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من محتويات السورة ..

Marfat.com

Marfat.com

إنه مجتمع يقوم على العبودية لله وحده ؛ فهو مجتمع متحرر إذن من كل عبودية للعبيد ، فى أية صورة من صور العبودية ، المتحققة فى كل نظام على وجه الأرض ، ما عدا النظام الإسلامى ؛ الذى تتوحد فيه الألوهية وتتمحض لله ؛ فلا تخلع خاصية من خواصها على أحد من عباده ؛ ولا يدين بها الناس لأحد من عبيده . . ومن هذه الحرية تنطلق الفضائل كلها ، وتنطلق الأخلاقيات كلها ، لأن مرجعها جميعا إلى ابتغاء رضوان الله ، ومرتقاها ممتد إلى التحلى بأخلاق الله ،وهى مبرأة إذن من النفاق والرياء ، والتطلع إلى غيروجه الله .. وهذا هو الأصل الكبير فى أخلاقية الإسلام ، وفى فضائل المجتمع المسلم ..

ثم ترد بعض مفردات العنصر الأخلاقى ـ إلى جانب ذلك الأصل الكبير ـ فى السورة .. فهو مجتمع يقوم على الأمانة . والعدل . وعدم أكل الأموال بالباطل . وعدم النجوى والتآمر إلا فى معروف . وعدم الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . والشفاعة الحسنة . والتحية الحسنة . ومنع الفاحشة . وتحريم السفاح والمخادنة . وعدم الاختيال والفخر ، والرياء والبخل ، والحسد والغل . . كما يقوم على التكافل والتعاون والتناصح والتسامح ، والنخوة والنجدة ، وطاعة القيادة التى لها وحدها حق الطاعة ... الخ .

وقد سبق ذكر معظم النصوص التى تشير إلى هذه الأسس.. وسيرد تفصيلها عند استعراضها فى موضعها من السياق.. فنكتفى هنا بالإشارة إلى الحادث الفذ ، الذى يشير إلى القمة السامقة ، التى تتطلع إليها أنظار الإنسانية ، وتظل تتطلع ، ولا تبلغ إليها أبدا ـ كما لم تبلغ إليها قط ـ إلا فى ظل هذا المنهج الفريد العجيب :

. . فى الوقت الذى كانت يهود تكيد ذلك الكيد الجاهد للإسلام ونبيه ، وللصف المسلم وقيادته .. كان القرآن يصنع الأمة المسلمة على عين الله ، فيرتفع بتصوراتها وأخلاقها ، ونظامها وإجراءاتها إلى تلك القمة السامقة .. وكان يعالج حادثا يتعلق بيهودى فرد ، هذا العلاج الذى سنذكره ..

كان الله يأمر الأمة المسلمة بالأمانة المطلقة ، وبالعدل المطلق « بين الناس » .. الناس على اختلاف أجناسهم وعقائدهم ، وقومياتهم وأوطانهم .. كان يقول لهم : « إن الله يأمركم

أن تؤدوا الأمانات إلى أهلهـا ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحـكموا بالعـدل . إن الله نعما يعظـكم به ! إن الله كان سميعا بصيرا » .. (آية ٥٨) .. وكان يقول لهم : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعـدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

ثم .. كانت الآيات ذوات العدد من القرآن تتنزل لإنصاف يهودى . . فرد . . من اتهام ظالم ، وجهته إليه عصبة من المسلمين من الأنصار ، ممن لم ترسخ فى قلوبهم هـذه المبادئ السامقة بعد ، ولم تخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية كل الخلوص . فدفعتهم عصبيـة الدم والعشيرة إلى تبرئة أحدهم باتهام هذا اليهودى! والتواطؤ على اتهامه، والشهادة ضده ـ فى حادث سرقة درع ـ أمام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى كاد أن يقضى عليه بحد السرقة ، ويبرئ الفاعل الأصلى !

تنزلت هذه الآيات ذوات العدد ، فيها عتاب شديد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيهـا إيحاء باللائمة على العصبة من أهل المدينة الذين آووا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعزروه ونصروه .. إنصافا ليهودى ، من تلك الفئة التى تؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشد الإيذاء ، وتنصب لدعوته ، وتـكيد له وللمسلمين هذا الـكيد اللئيم ! وفيها تهديد وإنذار لمن يكسب خطيئة أو إثمـا ثم يرمى به بريئا . وفيهـا ـ من ثم ـ تلك النقـلة العجيبة ، إلى تلك القمة السامقة ، وتلك الإشارة الوضيئة إلى ذلك المرتقى الصاعد .

لقد تنزلت هذه الآيات كلها فى حادث ذلك اليهودى .. من يهود ..

« إنا أنزلنا إليك الـكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما[1] . واستغفر الله ، إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ـ وهو معهم ـ إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله

---

(١) خصيما : محاميا ومدافعا .

Marfat.com

يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما . لا خير فى كثير من نجواهم ، إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ، ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » . . (١٠٥ - ١١٦) . .

فماذا ؟ ماذا يملك الإنسان أن يقول ؟ إلا أنه المنهج الفريد ، الذى يملك ـ وحده ـ أن يلتقط الجماعة البشرية ، من سفح الجاهلية ذاك ؛ فيرتقى بها فى ذلك المرتقى الصاعد ؛ فيبلغ بها إلى تلك القمة السامقة ، فى مثل هذا الزمن القصير ؟ !

* * *

والآن نكتفى بهذه التقدمة للسورة ، وموضوعاتها ، وخط سيرها . . وقد أشرنا إلى دلك الحشد من الحقائق والتصورات ، والتوجيهات والتشريعات ، التى تتضمنها . . مجرد إشارة . . عسى أن نبلغ شيئا فى بيانها التفصيلى ، عند استعراض النصوص فى مكانها من السياق . .

والموفق هو الله . .

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ① وَآتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا

Marfat.com

فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً . فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً * وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ، وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفاً * وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ؛ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ؛ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ـ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ـ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُو ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفاً .

« وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ①

« يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ : لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ . فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ . وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ـ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ـ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ . فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ـ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً . فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ

Marfat.com

Marfat.com

عَلِيماً حَكِيماً * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ - إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ - فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ - مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ - وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ - إِن لَمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ - فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم - مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ - وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ، أَوِ امْرَأَةٌ ، وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ . فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ - مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ - وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ . وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ، وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ » ⑭

هذا الشوط الأول فى السورة يبدأ بآية الافتتاح ، التى ترد « الناس » إلى رب واحد ، وخالق واحد ؛ كما تردهم إلى أصل واحد ، وأسرة واحدة ، وتجعل وحدة الإنسانية هى « النفس » ووحدة المجتمع هى الأسرة ، وتستجيش فى النفس تقوى الرب ، ورعاية الرحم . . لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم فى الأسرة الواحدة ، ثم فى الإنسانية الواحدة . وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التى تتضمنها السورة .

وهذا الشوط يضم من هذه تلك التكاليف ومن هذه التشريعات ، ما يتعلق بالضعاف فى الأسرة وفى الإنسانية من اليتامى ، وتنظم طريقة القيام عليهم وعلى أموالهم كما تنظم طريقة انتقال الميراث بين أفراد الأسرة الواحدة ، وأنصباء الأقرباء المتعددى الطبقات والجهات ، فى الحالات المتعددة . . وهى ترد هذا كله إلى الأصل الكبير الذى تضمنته آية الافتتاح . . التذكير بهذا الأصل فى مطالع بعض الآيات أو فى ثناياها ، أو فى خواتيمها ، توثيقا للارتباط

بين هذه التنظيمات والتشريعات ، وبين الأصل الذى تنبثق منه ، وهو الربوبية ، التى لها حق التشريع والتنظيم ، هذا الحق الذى منه وحده ينبثق كل تشريع وكل تنظيم .

* * *

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » ..

إنه الخطاب « للناس » .. بصفتهم هذه ، لردهم جميعا إلى ربهم « الذى خلقهم » .. والذى خلقهم « من نفس واحدة » .. « وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ..

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة لهى حقائق كبيرة جدا ، وعميقة جدا ، وثقيلة جدا .. ولو ألقى « الناس » أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة فى حياتهم ، وبنقلهم من الجاهلية ـ أو من الجاهليات المختلفة ـ إلى الإيمان والرشد والهدى ، وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة « بالناس » و « بالنفس » واللائقة بالخلق الذى ربه وخالقه هو الله ..

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالا فسيحا لتأملات شتى :

١ ـ إنها ابتداء تذكر « الناس » بمصدرهم الذى صدروا عنه ؛ وتردهم إلى خالقهم الذى أنشأهم فى هذه الأرض .. هذه الحقيقة التى ينساها « الناس » فينسون كل شىء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

إن الناس جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه .. فمن الذى جاء بهم ؟ إنهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم . فقد كانوا ـ قبل أن يجيئوا ـ عدما لا إرادة له . . لا إرادة له تقرر المجىء أو عدم المجىء. فإرادة أخرى ـ إذن ـ غير إرادتهم ، هى التى جاءت بهم إلى هنا .. إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هى التى قررت أن تخلقهم .. إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هى التى رسمت لهم الطريق ، وهى التى اختارت لهم خط الحياة . . إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هى التى منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم ، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ، ومنحتهم

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

القدرة على التعامل مع هـذا الـكون الذى جىء بهم إليه من حيث لا يشعرون ! وعلى غير استعداد ، إلا الاستعداد الذى منحتهم إياه تلك الإرادة التى تفعل ماتريد .

ولو تذكر النـاس هـذه الحقيقة البديهية التى يغفلون عنهـا لثابوا إلى الرشد من أول الطريق . .

إن هذه الإرادة التى جاءت بهم إلى هـذا العالم ، وخطت لهم طريق الحياة فيه ، ومنحتهم القدرة على التعامل معه ، لهى وحدها التى تملك لهم كل شىء ، وهى وحدها التى تعرف عنهم كل شىء ، وهى وحدها التى تدبر أمرهم خير تدبير . وإنها لهى وحدها صاحبة الحق فى أن ترسم لهم منبع حياتهم ، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم ، وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم . وهى وحدها التى يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف فى شأن من هذه الشؤون ، فيرجعون إلى النهج الواحد الذى أراده الله رب العالمين .

٢ ـ كما أنها توحى بأن هذه البشرية التى صدرت من إرادة واحـدة ، تتصل فى رحم واحدة ، وتلتقى فى وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد :

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقـكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » . .

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت فى حسهم كل الفروق الطارئة ، التى نشأت فى حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء « النفس » الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ماكان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها فى الرعاية ، وصلة النفس وحقها فى المودة ، وصلة الربوبية وحقها فى التقوى .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع العنصرى ، الذى ذاقت منه البشرية ما ذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة ؛ فى الجاهلية الحديثة ، التى تفرق بين الألوان ، وتفرق بين العناصر ، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة ، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم ، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا كذلك باستبعاد الاستعباد الطبقى السائد فى وثنية الهند

Marfat.com

والصراع الطبقى ، الذى تسيل فيه الدماء أنهارا ، فى الدول الشيوعية ، والذى ماتزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية ، ونقطة انطلاقها إلى تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة ، ناسية النفس الواحدة التى انبثق منها الجميع ، والربوبية الواحدة التى يرجع إليها الجميع !

٣ ـ والحقيقة الأخرى التى تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة « خلق منها زوجها » .. كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة ، التى تردت فيها ، وهى تتصور فى المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء .. وهى من النفس الأولى فطرة وطبعا ، خلقها الله لتكون لها زوجا ، وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، فلا فارق فى الأصل والفطرة ، إنما الفارق فى الاستعداد والوظيفة . .

ولقد خبطت البشرية فى هذا التيه طويلا . جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها . فترة من الزمان . تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له . فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت فى الضفة الأخرى ، وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين ، إنما هما زوجان متكاملان .

والمنهج الربانى القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد ..

٤ ـ كذلك توحى الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هى الأسرة . فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة فى الأرض بأسرة واحدة . خلق ابتداء نفسا واحدة ، وخلق منها زوجها . فكانت أسرة من زوجين . « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » . . ولو شاء الله لخلق ـ فى أول النشأة ـ رجالا كثيرا ونساء ، وزوجهم ، فكانوا أسرا شتى من أول الطريق . لا رحم بينها من مبدأ الأمر . ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد . وهى الوشيجة الأولى . ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها ، أن يضاعف الوشائج . فيبدأ بها من وشيجة الربوبية ـ وهى أصل وأول الوشائج ـ ثم يثنى بوشيجة الرحم ، فتقوم

الأسرة الأولى من ذكر وأنثى ـ هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة ـ ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالا كثيرا ونساء ، كلهم يرجعون انداءً إلى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة . التى يقوم عليها نظام المجتمع الإنسانى . بعد قيامه على أساس العقيدة .

ومن ثم هذه الرعاية للأسرة فى النظام الإسلامى ، وهذه العناية بتوثيق عراها ، وتثبيت بنيانها ، وحمايتها من جميع المؤثرات التى توهن هـذا البناء ـ وفى أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة ، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض ، وتـكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى .

وفى هذه السورة وفى غيرها من السور حشد من مظاهر تلك العناية بالأسرة فى النظام الإسلامى .. وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوى ، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة ، وتلك النظرة الهابطة التى تلقاها فى الجاهلية ـ كل جاهلية ـ ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة (١) .

٥ ـ وأخيرا فإن نظرة إلى التنوع فى خصائص الأفراد واستعداداتهم ـ بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة ـ على هذا المدى الواسع ، الذى لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل ، على توالى العصور ، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد فى جميع الأجيال .. التنوع فى الأشـكال والسمات واللامح . والتنوع فى الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر . والتنوع فى الاستعدادات والاهتمامات والوظائف .. إن نظرة إلى هـذا التنوع المنبثق من ذلك المجتمع لتشى بالقدرة المبدعة على غير مثال ، المدبرة عن علم وحكمة ، وتطلق القلب والعين يجولان فى ذلك المتحف الحى العجيب ، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التى لا تنفد ، والتى دائما تتجدد ، والتى لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله . فالإرادة التى لا حد لما تريد ، والتى تفعل ماتريد ، هى وحدها التى تملك هذا التنويع الذى لا ينتهى ، من ذلك الأصل الواحد الفريد ! والتأمل فى « الناس » على هـذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زادا من الأنس والمتاع ،

---

(١) يراجع بتوسع فصل « سلام البيت » فى كتاب « السلام العالمى والإسلام » ..

Marfat.com

فوق زاد الإيمان والتقوى . . وهو كسب فوق كسب ، وارتفاع بعد ارتفاع !

وفى ختام آية الافتتاح التى توحى بكل هـذه الحشود من الخواطر ، يردّ « الناس » إلى تقوى الله ، الذى يسأل بعضهم بعضا به ، وإلى تقوى الأرحام التى يرجعون إليها جميعا :

« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » ..

واتقوا الله الذى تتعاهدون باسمه ، وتتعاقدون باسمه ، ويسأل بعضكم بعضا الوفاء باسمه ، ويحلف بعضكم لبعض باسمه .. اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات .

.. وتقوى الله مفهومة وممهودة لتكرارها فى القرآن . أما تقوى الأرحام ، فهى تعبير عجيب . يلقى ظلاله الشعورية فى النفس ، ثم لا يكاد الإنسان يجد مايشرح به تلك الظلال ! اتقوا الأرحام . أرهفوا مشاعركم للإحساس بوشائجها . والإحساس بحقها . وتوقى هضمها وظلمها ، والتحرج من خدشها ومسها .. توقوا أن تؤذوها ، وأن تجرحوها ، وأن تغضبوها .. أرهفوا حساسيتكم بها ، وتوقيركم لها ، وحنينكم إلى نداها وظلها .

ثم رقابة الله يختم بها الآية الموحية :

« إن الله كان عليكم رقيبا » ..

وما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذى يعلم من خلق ، وهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ، لافى ظواهر الأفعال ولافى خفايا القلوب .

* * *

من هذا الافتتاح القوى المؤثر ، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة ، ومن هذا الأصل الأساسى الكبير ، يأخذ فى إقامة الأسس التى ينهض عليها نظام المجتمع وحياته : من التكافل فى الأسرة والجماعة ، والرعاية لحقوق الضعاف فيها ، والصيانة لحق المرأة وكرامتها ، والمحافظة على أموال الجماعة فى عمومها ، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع ..

ويبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد . وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهم طمعا فى أموالهن . أما السفهاء الذين يخشى

Marfat.com

من إتلافهم للمال ، إذا هم تسلموه ، فلا يعطى لهم المال ، لأنه فى حقيقته مال الجماعة ، ولها فيه قيام ومصلحة ، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه ، وأن يراعوا العدل والمعروف فى عشرتهم للنساء عامة .

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم. إنه كان حوبا كبيرا . وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ماملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا . ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا. وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » ..

وتشى هذه التوصيات المشددة ـ كما قلنا ـ بما كان واقعا فى الجاهلية العربية من تضييع لحقوق الضعاف بصفة عامة . والأيتام والنساء بصفة خاصة . . هذه الرواسب التى ظلت باقية فى المجتمع المسلم ـ المقتطع أصلا من المجتمع الجاهلى ـ حتى جاء القرآن يذيبها ويزيلها، وينشىء فى الجماعة المسلمة تصورات جديدة ، ومشاعر جديدة ، وعرفا جديدا ، وملامح جديدة .

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، إنه كان حوبا كبيرا » ..

أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ، ولا تعطوهم الردىء فى مقابل الجيد . كأن تأخذوا أرضهم الجيدة ، وتبدلوهم منها من أرضكم الرديئة ، أو ماشيتهم ، أو أسهمهم ، أو نقودهم ـ وفى النقد الجيد ذو القيمة العالية والردىء ذو القيمة الهابطة ـ أو أى نوع من أنواع المال ، فيه الجيد وفيه الردىء . . وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمها إلى أموالكم ، كلها أو بعضها .. إن ذلك كله كان ذنبا كبيرا . والله يحذركم من هذا الذنب الكبير ..

فلقد كان هذا كله يقع إذن فى البيئة التى خوطبت بهذه الآية أول مرة . فالخطاب يشى

Marfat.com

أنه كان موجها إلى مخاطبين فيهم من تقع منه هـذه الأمور . وهى أثر مصاحب من آثار الجاهلية .. وفى كل جاهلية يقع مثل هذا . ونحن نرى أمثاله فى جاهليتنا الحاضرة فى المدن والقرى . وما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق ، وشتى الحيل ، من أكثر الأوصياء، على الرغم من كل الاحتياطات القانونية ، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للإشراف على أموال القصر . فهـذه المسألة لا تفلح فيها التشريعات القانونية ، ولا الرقابة الظاهرية . . كلا لا يفلح فيها إلا أمر واحد .. التقوى .. فهى التى تكفل الرقابة الداخلية على الضمائر ، فتصبح للتشريع قيمته وأثره . كما وقع بعد نزول هذه الآية ، إذ بلغ التحرج من الأوصياء أن يعزلوا مال اليتيم عن مالهم، ويعزلوا طعامه عن طعامهم ،مبالغة فى التحرج والتوقى من الوقوع فى الذنب العظيم ، الذى حذرهم الله منه وهو يقول : « إنه كان حوبا كبيرا » ..

إن هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات . مالم يكن هنـاك رقابة من التقوى فى الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات .. وهذه التقوى لا تجيش ـ تجاه التشريعات والتنظيمات ـ إلا حين تكون صادرة من الجهة المطلعة على السرائر ، الرقيبـة على الضمائر .. عندئذ يحس الفرد ـ وهو يهم بانتهاك حرمة القانون ـ أنه يخون الله ، ويعصى أمره ، ويصادم إرادته ؛ وأن الله مطلع على نيته هـذه وعلى فعله .. وعندئذ تتزلزل أقدامه ، وترتجف مفاصله ، وتجيش تقواه ..

إن الله أعلم بعباده ، وأعرف بفطرتهم ، وأخبر بتكوينهم النفسى والعصبى ـ وهو خلقهم ـ ومن ثم جعل التشريع تشريعه ، والقانون قانونه ، والنظام نظامه ، والمنهج منهجه ، ليكون له فى القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته .. وقد علم ـ سبحانه ـ أنه لايطاع أبدا شرع لايرتكن إلى هذه الجهة التى تخشاها وترجوها القلوب ، وتعرف أنها مطلعة على خفايا السرائر وخبايا القلوب . وأنه مهما أطاع العبيد تشريع العبيد ، تحت تأثير البطش والإرهاب ، والرقابة الظاهرية التى لا تطلع على الأفئدة ، فإنهم لابد متفلتون منها كلما غافلوا الرقابة ، وكلما واتتهم الحيلة . مع شعورهم دائما بالقهر والكبت والتهيؤ للانتقاض ..

* * *

Marfat.com

الجزء الرابع

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أوما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » ..

عن عروة بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ أنه سأل عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » فقالت : « يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر ولبها ، تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل مايعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ؛ ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن » قال عروة : قالت عائشة : « وإن الناس استفتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الآية ، فأنزل الله : « ويستفتونك فى النساء . قل الله يفتيكم فيهن . وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ... » قالت عائشة : « وقول الله فى هذه الآية الأخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال » (١) .

وحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ يصور جانبا من التصورات والتقاليد التى كانت سائدة فى الجاهلية ، ثم بقيت فى المجتمع المسلم ، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها ، بهذه التوجيهات الرفيعة ، ويكل الأمر إلى الضمائر ، وهو يقول : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » .. فهى مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله إذا توقع الولى ألا يعدل مع اليتيمة فى حجره ، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل ، فالمطلوب هو العدل فى كل صوره وبكل معانيه فى هذه الحالة ، سواء فيما يختص بالصداق ، أو فيما يتعلق بأى اعتبار آخر . كأن ينكحها رغبة فى مالها ، لا لأن لها فى قلبه مودة ، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية فى عشرتها لذاتها . وكأن ينكحها وهناك فارق كبير من السن لا تستقيم معه الحياة ، دون مراعاة لرغبتها هى فى إبرام هذا النكاح ، هذه الرغبة التى قد لا تفصح عنها حياء أو خوفا من ضياع مالها إذا هى خالفت عن إرادته .. إلى

---

(١) أخرجه البخارى .

Marfat.com

آخر تلك الملابسات التى يخشى ألا يتحقق فيها العدل .. والقرآن يقيم الضمير حارسا ، والتقوى رقيبا . وقد أسلف فى الآية السابقة التى رتب عليها هذه التوجيهات كلها قوله : « إن الله كان عليكم رقيبا » ..

فعندما لا يكون الأولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتى فى حجورهم ، فهناك النساء غيرهن ، وفى المجال متسع للبعد عن الشبهة والمظنة :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا » ..

وهذه الرخصة فى التعدد ، مع هذا التحفظ عند خوف العجز عن العدل ، والاكتفاء بواحدة فى هذه الحالة ، أو بما ملكت اليمين ..

هذه الرخصة ـ مع هذا التحفظ ـ يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها . فى زمان جعل الناس يتعالمون فيه على ربهم الذى خلقهم ، ويدعون لأنفسهم بصرا بحياة الإنسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه ! ويقولون فى هذا الأمر وذاك بالهوى والشهوة ، وبالجهالة والعمى . كأن ملابسات وضرورات جدّت اليوم ، يدركونها هم ويقدرونها ولم تكن فى حساب الله ـ سبحانه ـ ولا فى تقديره ، يوم شرّع للناس هذه الشرائع !!!

وهى دعوى فيها من الجهالة والعمى ، بقدر مافيها من التبجح وسوء الأدب ، بقدر مافيها من الكفر والضلالة ! ولكنها تقال ، ولا تجد من يرد الجهال العمى المتبجحين المتوقحين الكفار الضلال عنها ! وهم يتبجحون على الله وشريعته ، ويتطاولون على الله وجلاله،ويتوقحون على الله ومنهجه ، آمنين سالمين غانمين ، مأجورين من الجهات التى يهمها أن تكيد لهذا الدين !

وهذه المسألة ـ مسألة إباحة تعدد الزوجات بذلك التحفظ الذى قرره الإسلام ـ يحسن أن تؤخذ بيسر ووضوح وحسم ؛ وأن تعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التى تحيط بها ..

روى البخارى ـ بإسناده ـ أن غيلان ابن سلمة الثقفى أسلم ـ وتحته عشر نسوة ـ فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اختر منهن أربعا » ..

Marfat.com

وروى أبو داود ـ بإسناده ـ أن غميرة الأسدى قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة ، فذكرت ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « اختر منهن أربعا » .

وقال الشافعى فى مسنده : أخبرنى من سمع ابن أبى الزياد يقول : أخبرنى عبد المجيد عن ابن سهل ابن عبد الرحمان ، عن عوف ابن الحارث ، عن نوفل ابن معاوية الديلمى ، قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اختر أربعا أيتهن شئت وفارق الأخرى » ..

فقد جاء الإسلام إذن ، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل ـ بدون حد ولا قيد ـ فجاء ليقول للرجال : إن هناك حدا لا يتجاوزه المسلم ـ هو أربع ـ وإن هناك قيدا ـ هو إمكان العدل ـ وإلا فواحدة .. أو ماملكت أيمانكم ..

جاء الإسلام لا ليطلق ، ولكن ليحدد . ولا ليترك الأمر لهوى الرجل ، ولكن ليقيد التعدد بالعدل . وإلا امتنعت الرخصة المعطاة !

ولكن لماذا أباح هذه الرخصة ؟

إن الإسلام نظام للإنسان . نظام واقعى إيجابى . يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة فى شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال .

إنه نظام واقعى إيجابى ، يلتقط الإنسان من واقعه الذى هو فيه ، ومن موقفه الذى هو عليه ، ليرتفع به فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . فى غير إنكار لفطرته أو تنكر ، وفى غير إغفال لواقعه أو إهمال ؛ وفى غير عنف فى دفعه أو اعتساف !

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء ؛ ولا على التظرف المائع؛ولا على « المثالية » الفارغة؛ ولا على الأمنيات الحالمة ، التى تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته ، ثم تتبخر فى الهواء !

وهو نظام يرعى خلق الإنسان ، ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادى ، من

Marfat.com

شأنه انحلال الخلق ، وتلويث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التى تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخى دائما أن ينشىء واقعا يساعد على صيانة الخلق ، ونظافة المجتمع ، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع .

فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية فى النظام الإسلامى ، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات .. فماذا نرى ؟

نرى .. أولا .. أن هناك حالات واقعية فى مجتمعات كثيرة ـ تاريخية وحاضرة ـ تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصالحين للزواج . . والحد الأعلى لهذا الاختلال الذى يعترى بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخيا أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد . وهو يدور دائما فى حدودها .

فكيف نعالج هذا الواقع ، الذى يقع ويتكرر وقوعه ، بنسب مختلفة . هذا الواقع الذى لا يجدى فيه الإنكار ؟

نعالجه بهز الكتفين ؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه ؟ حسب الظروف والمصادفات ؟ !

إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس البشرى !

ولابد إذن من نظام ، ولابد إذن من إجراء ..

وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ ـ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج . . ثم تبقى واحدة أو أكثر ـ حسب درجة الاختلال الواقعة ـ بدون زواج ، تقضى حياتها ـ أو حياتهن ـ لا تعرف الرجال !

٢ ـ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجا شرعيا نظيفا . ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتى ليس لهن مقابل فى المجتمع من الرجال . فيعرفن الرجل خدينا أو خليلا فى الحرام والظلام !

٣ ـ أن يتزوج الرجال الصالحون ـ كلهم أو بعضهم ـ أكثر من واحدة . وأن تعرف

Marfat.com

للمرأة الأخرى الرجل ، زوجة شريفـة ، فى وضح النور لا خدينـة ولا خلـة فى الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس إلى المرأة التى لا تعرف فى حياتها الرجال . ولا يدفع هـذه الحقيقة مايتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب . فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان . وألف عمل ، وألف كسب لا تغنى المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية .. سواء فى ذلك مطالب الجسد والغريزة ، ومطالب الروح والعقل ، من السكن والأنس بالعشير .. والرجل يجد العمل ويجد الكسب ؛ ولكن هذا لا يكفيه ، فيروح يسعى للحصول على العشيرة ، والمرأة كالرجل ـ فى هذا ـ فهما من نفس واحدة !

والاحتمال الثانى ضد اتجاه الإسلام النظيف ؛ وضد قاعدة المجتمع الإسلامى العفيف ؛ وضد كرامة المرأة الإنسانية . والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع ، هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ، ويتطاولون على شريعته . لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول . بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير !

والاحتمال الثالث هو الذى يختاره الإسلام . يختاره رخصة مقيدة . لمواجهة الواقع الذى لا ينفع فيه هز الكتفين ؛ ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء . يختاره متمشيا مع واقعيته الإيجابية ، فى مواجهة الإنسان كما هو ـ بفطرته وظروف حياته ـ ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر ، ومع منهجه فى التقاط الإنسان من السفح ، والرقى به فى الدرج الصاعد إلى القمة السامقة . ولكن فى يسر ولين وواقعية !

ثم نرى .. ثانيا .. فى المجتمعات الإنسانية . قديما وحديثا . وبالأمس واليوم وإلى آخر الزمان . واقعا فى حياة الناس ، لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله .

نرى أن فترة الإخصاب فى الرجل تمتد إلى سن السبعين أو مافوقها . بينما هى تقف فى المرأة عند سن الخمسين أو حواليها . فهناك فى المتوسط عشرون سنة من سنى الإخصاب فى حياة الرجل لا مقابل لها فى حياة المرأة . وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما ،

Marfat.com

Marfat.com

امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال ، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار . فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة فى الرجال . ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطرى أن يسن التشريع ـ الموضوع لكافة البيئات فى جميع الأزمان والأحوال ـ هذه الرخصة ـ لا على سبيل الإلزام الفردى ، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذى يلبى هذا الواقع الفطرى ، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء .. وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائما فى التشريع الإلهى . لا يتوافر عادة فى التشريعات البشرية ، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له ، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة ، ولا تنظر من جميع الزوايا ، ولا تراعى جميع الاحتمالات .

ومن الحالات الواقعية ـ المرتبطة بالحقيقة السالفة ـ مانراه أحيانا من رغبة الزوج فى أداء الوظيفة الفطرية ، مع رغبة الزوجة عنها ـ لعائق من السن أو من المرض ـ مع رغبة الزوجين كليهما فى استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال ـ فكيف نواجه مثل هذه الحالات ؟

نواجهها بهز الكتفين ؛ وترك كل من الزوجين يخبط رأسه فى الجدار ؟ ! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف ؟

إن هز الكتفين ـ كما قلنا ـ لا يحل مشكلة . والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية ، ومشكلاتها الحقيقية ..

وعندئذ نجد أنفسنا ـ مرة أخرى ـ أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ ـ أن نكبت الرجل ونصده عن مزاولة نشاطه الفطرى بقوة التشريع وقوة السلطان ! ونقول له : عيب يارجل ! إن هـذا لا يليق ، ولا يتفق مع حق المرأة التى عندك ولا مع كرامتها !

٢ ـ أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء !

٣ ـ أن نبيح لهـذا الرجل التعدد ـ وفق ضرورات الحال ـ وتتوقى طلاق الزوجة الأولى ..

Marfat.com

الجزء الرابع

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وفوق الطاقة ، وضد احتمال الرجل العصبي والنفسى وثمرته القرينة – إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان – هى كراهية الحياة الزوجية التى تكلفه هذا العنت ، ومعاناة جحيم هذه الحياة .. وهذا مايكرهه الإسلام ، الذى يجعل من البيت سكنا ، ومن الزوجة أنسا ولباسا .

والاحتمال الثانى ضد اتجاه الإسلام الخلقى ، وضد منهجه فى ترقية الحياة البشرية ، ورفعها وتطهيرها وتزكيتها ، كى تصبح لائقة بالإنسان الذى كرمه الله على الحيوان !

والاحتمال الثالث هو وحده الذى يلبى ضرورات الفطرة الواقعية ، ويلبى منهج الإسلام الخلقى ، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية ، ويحقق رغبة الزوجين فى الإبقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما ، وييسر على الإنسان الخطو الصاعد فى رفق ويسر وواقعية .

وشىء كهذا يقع فى حالة عقم الزوجة ، مع رغبة الزوج الفطرية فى النسل . حيث يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما .

١ – أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلبى رغبة الإنسان الفطرية فى النسل .

٢ – أو أن يتزوج بأخرى ، ويبقى على عشرته مع الزوجة الأولى .

وقد يهذر قوم من المتحذلقين – ومن المتحذلقات – بإيثار الطريق الأول . ولكن تسعا وتسعين زوجة – على الأقل – من كل مئة سيتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بهذا الطريق ! الطريق الذى يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور – فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغبا فى الزواج – وكثيرا ماتجد الزوجة العاقر أنسا واستراحا فى الأطفال الصغار ، تجىء بهم الزوجة الأخرى من زوجها ، فيملأون عليهم الدار حركة وبهجة أياً كان ابتئاسها لحرمانها الخاص .

وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية ، التى لا تصغى للحذلقة ، ولا تستجيب للهذر ، ولا تستروح للهزل السخيف والتميع المنحل فى مواضع الجد الصارم .. وجدنا مظاهر الحكمة العلوية ، فى سن هذه الرخصة ، مقيدة بذلك القيد :

« فانكحوا ماطاب لكم من النساء – مثنى وثلاث ورباع – فإن خفتم ألاتعدلوا فواحدة »

فالرخصة تلبي واقع الفطرة ، وواقع الحياة ؛ وتحمى المجتمع من الجنوح ـ تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة ـ إلى الانحلال أو الملال .. والقيد يحمى الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال ، ويحمى الزوجة من الجور والظلم ؛ ويحمى كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل . ويضمن العدل الذى تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة .

إن أحدا يدرك روح الإسلام واتجاهه ، لا يقول : إن التعدد مطلوب لذاته ، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية ؛ وبلا دافع إلا التلذذ الحيوانى ، وإلا التنقل بين الزوجات ، كما يتنقل الخليل بين الخليلات . إنما هو ضرورة تواجه ضرورة ، وحل يواجه مشكلة . وهو ليس متروكا للهوى ، بلا قيد ولا حد فى النظام الإسلامى ، الذى يواجه كل واقعيات الحياة .

فإذا انحرف جيل من الأجيال فى استخدام هذه الرخصة . إذا راح رجال يتخذون من هذه الرخصة فرصة لإحالة الحياة الزوجية مسرحا للذة الحيوانية. إذا أمسوا يتنقلون بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات . إذا أنشأوا « الحريم » فى هذه الصورة المريبة . . فليس ذلك شأن الإسلام ؛ وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام . . إن هؤلاء إنما انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الإسلام ، ولم يدركوا روحه النظيف الكريم . والسبب أنهم يعيشون فى مجتمع لا يحكمه الإسلام ؛ ولا تسيطر فيه شريعته . مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة ، تدين للإسلام وشريعته ؛ وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام وقوانينه ، وآدابه وتقاليده .

إن المجتمع المعادى للإسلام المتفلت من شريعته وقانونه ، هو المسؤول الأول عن هذه الفوضى . هو المسؤول الأول عن « الحريم » فى صورته الهابطة المريبة . هو المسؤول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح لذة بهيمية . فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام ، وشريعة الإسلام ، ومنهج الإسلام ؛ فيردهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال . . من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام لا فى هذه الجزئية ولكن فى منهج الحياة كلها . فالإسلام نظام متكامل لا يعمل إلا وهو كامل شامل ..

والعدل المطلوب هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة . أما العدل فى مشاعر

Marfat.com

القـلوب وأحاسيس النفوس ، فلا يطالب به أحد من بنى الإنسان ، لأنه خارج عن إرادة الإنسان . . وهو العدل الذى قال الله عنه فى الآية الأخرى فى هذه السورة : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة » . . هذه الآية التى يحاول بعض الناس أن يتخذوا منها دليلا على تحريم التعدد . والأمر ليس كذلك . وشريعة الله ليست هازلة ، حتى تشرع الأمر فى آية ، وتحرمه فى آية ، بهـذه الصورة التى تعطى باليمين وتسلب بالشمال ! فالعدل المطلوب فى الآية الأولى ؛ والذى يتعين عدم التعدد إذا خيف ألا يتحقق ؛ هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، وسائر الأوضاع الظاهرة، بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شىء منهـا ؛ وبحيث لا تؤثر واحدة دون الأخرى بشىء منها . . على نحو ما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أرفع إنسان عرفتـه البشرية ، يقوم به . فى الوقت الذى لم يكن أحد يجهل من حوله ولا من نسائه ، أنه يحب عائشة ـ رضى الله عنها ـ ويؤثرها بعاطفـة قلبية خاصة ، لا تشاركها فيها غيرها . . فالقلوب ليست ملـكا لأصحابها . إنما هى بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء . . وقد كان ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يعرف دينه ويعرف قلبه . فـكان يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »[1] . .

ونعود فنـكرر قبل أن نتجاوز هذه النقطة ، أن الإسلام لم ينشىء التعدد إنمـا حدده . ولم يأمر بالتعدد إنما رخص فيه وقيده . وأنه رخص فيه لمواجهة واقعيات الحياة البشرية ، وضرورات الفطرة الإنسانية . هذه الضرورات وتلك الواقعيات التى ذكرنا بعض ماتـكشف لنا حتى الآن منها . وقد يـكون وراءها غيرها تظهره أطوار الحياة فى أجيال أخرى ، وفى ظروف أخرى كذلك . كما يقع فى كل تشريع أو توجيه جاء به هذا المنهج الربانى ، وقصر البشر فى فترة من فترات التاريخ ، عن استيعاب كل ما وراءه من حكمة ومصلحة . فالحكمة والمصلحة مفترضتان وواقعتان فى كل تشريع إلهى ، سواء أدركهما البشر أم لم يدركوهما ، فى فترة من فترات التاريخ الإنسانى القصير ، عن طريق الإدراك البشرى المحدود !

ثم ننتقل إلى الإجراء الثانى الذى تنص عليه الآية عند الخوف من عدم تحقق العدل :

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى .

Marfat.com

Marfat.com

« فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ماملكت أيمانكم » ..

أى إنه إن خيف عدم العدل فى التزوج بأكثر من واحدة تعين الاقتصار على واحدة !ولم يجز تجاوزها . أو « ماملكت أيمانكم » من الإماء زواجا أو تسريا ، فالنص لم يحدد .

ولقد سبق أن وقفنا فى الجزء الثانى من هـذه الظلال وقفة قصيرة أمام مسألة الرق إجمالا[1] . فلعله يحسن هنا أن نلم بمسألة الاستمتاع بالإماء خاصة .

إن الزواج من مملوكة فيه رد لاعتبارها وكرامتها الإنسانية . فهو مؤهل من مؤهلات التحرير لها ولنسلها من سيدها ـ حتى ولو لم يعتقها لحظة الزواج ـ فهى منذ اليوم الذى تلد فيه تسمى « أم ولد » ويمتنع على سيدها بيعها ؛ وتصبح حرة بعد وفاته . أما ولدها فهو حر منذ مولده .

وكذلك عند التسرى بها . فإنها إذا ولدت أصبحت « أم ولد » وامتنع بيعها ، وصارت حرة بعد وفاة سيدها . وصار ولدها منه كذلك حرا إذا اعترف بنسبه ، وهذا ما كان يحدث عادة .

فالزواج والتسرى كلاهما طريق من طرق التحرير التى شرعها الإسلام وهى كثيرة .. على أنه قد يحيك فى النفس شىء من مسألة التسرى هذه . فيحسن أن نتذكر أن قضية الرق كلها قضية ضرورة ـ كما بينا هناك ـ وأن الضرورة التى اقتضت إباحة الاسترقاق فى الحرب الشرعية التى يعلنها الإمام المسلم المنفذ لشريعة الله ، هى ذاتها التى اقتضت إباحة التسرى بالإماء ؛ لأن مصير المسلمات الحرائر العفيفات حين يؤسرن كان شرا من هذا المصير !

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات ، لهن مطالب فطرية لا بد أن يحسب حسابها فى حياتهن ، ولا يمكن إغفالها فى نظام واقعى يراعى فطرة الإنسان وواقعه.. فإما أن تتم تلبية هـذه المطالب عن طريق الزواج ، وإما أن تتم عن طريق تسرى السيد ، مادام نظام الاسترقاق قائما ، كى لا ينشرن فى المجتمع حالة من الانحلال الخلقى ، والفوضى الجنسية ، لا ضابط لها ، حين يلبين حاجتهن الفطرية عن طريق البغاء أو المخادنة ، كما كانت الحال فى الجاهلية .

---

(١) صفحة ١٧٠ـ١٧١ من الطبعة الثانية المنقحة .

أما ما وقع فى بعض العصور من الاستكثار من الإماء - عن طريق الشراء والخطف والنخاسة وتجميعهن فى القصور ، واتخاذهن وسيلة للالتذاذ الجنسى البهيمى ، وتمضية الليالى الحمراء بين قطعان الإماء ، وعربدة السكر والرقص والغناء . إلى آخر مانقلته إلينا الأخبار الصادقة والمبالغ فيها على السواء .. أما هذا كله فليس هو الإسلام . وليس من فعل الإسلام ، ولا إيحاء الإسلام . ولا يجوز أن يحسب على النظام الإسلامى ، ولا أن يضاف إلى واقعه التاريخى ..

إن الواقع التاريخى « الإسلامى » هو الذى ينشأ وفق أصول الإسلام وتصوراته وشرعته وموازينه . هذا وحده هو الواقع التاريخى « الإسلامى » .. أما مايقع فى المجتمع الذى ينتسب إلى الإسلام ، خارجا على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه .

إن للإسلام وجوده المستقل خارج واقع المسلمين فى أى جيل . فالمسلمون لم ينشئوا الإسلام ، إنما الإسلام هو الذى أنشأ المسلمين . الإسلام هو الأصل ، والمسلمون فرع عنه ، ونتاج من نتاجه . ومن ثم فإن مايصنعه الناس أو مايفهمونه ليس هو الذى يحدد أصل النظام الإسلامى أو مفهوم الإسلام الأساسى . إلا أن يكون مطابقا للأصل الاسلامى الثابت المستقل عن واقع الناس ومفهومهم ، والذى يقاس إليه واقع الناس فى كل جيل ومفومهم ، ليعلم كم هو مطابق أو منحرف عن الإسلام .

إن الأمر ليس كذلك فى النظم الأرضية التى تنشأ ابتداء من تصورات البشر ، ومن المذاهب التى يضعونها لأنفسهم - وذلك حين يرتدون إلى الجاهلية ويكفرون بالله مهما ادعوا أنهم يؤمنون به ، فمظهر الإيمان الأول بالله هو استمداد الأنظمة من منهجه وشريعته ، ولا إيمان بغير هذه القاعدة الكبيرة - ذلك أن المفهومات المتغيرة للناس حينئذ ، والأوضاع المتطورة فى أنظمتهم ، هى التى تحدد مفهوم المذاهب التى وضعوها لأنفسهم ، وطبقوها على أنفسهم .

فأما فى النظام الإسلامى الذى لم يصنعه الناس لأنفسهم ، إنما صنعه للناس رب الناس وخالقهم ورازقهم ومالكهم . . فأما فى هذا النظام فالناس إما أن يتبعوه ويقيموا أوضاعهم

Marfat.com

Marfat.com

وقصه ؛ فواقعهم إذن هو الواقع التاريخى « الإسلامى » وإما أن ينحرفوا عنه أو يجانبوه كلية ، فليس هذا واقعا تاريخيا للإسلام . إنما هو انحراف عن الإسلام !

ولا بد من الانتباه إلى هذا الاعتبار عند النظر فى التاريخ الإسلامى . فعلى هذا الاعتبار تقوم النظرية التاريخية الإسلامية ، وهى تختلف تماما مع سائر النظريات التاريخية الأخرى ، التى تعتبر واقع الجماعة الفعلى ، هو التفسير العملى للنظرية أو المذهب ، وتبحث عن « تطور » النظرية أو المذهب فى هذا الواقع الفعلى للجماعة التى تعتنقه ، وفى المفهومات المتغيرة لهذه النظرية فى فكر الجماعة ! وتطبيق هذه النظرة على الإسلام ينافى طبيعته المتفردة ، ويؤدى إلى أخطار كثيرة ، فى تحديد المفهوم الإسلامى الحقيقى .

وأخيرا تفصح الآية عن حكمة هذه الإجراءات كلها .. إنها اتقاء الجور وتحقيق العدل :

« ذلك أدنى ألا تعولوا » ..

ذلك . . البعد عن نكاح اليتيمات - إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى - ونكاح غيرهن من النساء - مثنى وثلاث ورباع - ونكاح الواحدة فقط - إن خفتم ألا تعدلوا - أو ماملكت أيمانكم .. «ذلك أدنى ألا تعولوا » . . أى ذلك أقرب ألا تظلموا وألا تجوروا .

وهكذا يتبين أن البحث عن العدل والقسط ، هو رائد هذا المنهج ، وهدف كل جزئية من جزئياته . . والعدل أجدر أن يراعى فى المحضن الذى يضم الأسرة . وهى اللبنة الأولى للبناء الاجتماعى كله ، ونقطة الانطلاق إلى الحياة الاجتماعية العامة ، وفيه تدرج الأجيال وهى لدنة رخصة قابلة للتكيف ، فإن لم يقم على العدل والود والسلام ، فلا عدل ولا ود فى المجتمع كله ولا سلام[1] .

* * *

ثم يستطرد السياق فى تقرير حقوق النساء - وقد أفرد لهن صدر هذه السورة وسماها باسمهن - قبل أن يستكمل الكلام عن رعاية اليتامى التى بدأ فيها :

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « سلام البيت » فى كتاب « السلام العالمى والإسلام » ..

Marfat.com

الجزء الرابع

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئا مريئا » . .

وهذه الآية تنشىء للمرأة حقا صريحا ، وحقا شخصيا ، فى صداقها . وتنهى عما كان واقعا فى المجتمع الجاهلى من هضم هذا الحق فى صور شتى . واحدة منها كانت فى قبض الولى لهذا الصداق وأخذه لنفسه ؛ وكأنما هى صفقة بيع هو صاحبها ! وواحدة منها كانت فى زواج الشغار . وهو أن يزوج الولى المرأة التى فى ولايته ، فى مقابل أن يزوجه من يأخذها امرأة هى فى ولاية هذا الآخر . واحدة بواحدة . صفقة بين الوليين لا حظ فيها للمرأتين . كما تبدل بهيمة ببهيمة ! فحرم الإسلام هذا الزواج كلية؛ وجعل الزواج التقاء نفسين عن رغبة واختيار ، والصداق حقا للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولى ! وحتم تسمية هذا الصداق وتحديده ، لتقبضه المرأة فريضة لها ، وواجبا لا تخلف فيه . وأوجب أن يؤديه الزوج « نحلة » ـ أى هبة خالصه لصاحبتها ـ وأن يؤديه عن طيب نفس ، وارتياح خاطر . كما يؤدى الهبة والمنحة . فإذا طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شىء من صداقها ـ كله أو بعضه ـ فهى صاحبة الشأن فى هذا ؛ تفعله عن طيب نفس ، وراحة خاطر ؛ والزوج فى حل من أخذ ماطابت نفس الزوجة عنه ، وأكله حلالا طيبا هنيئا مريئا. فالعلاقات بين الزوجين ينبغى أن تقوم على الرضى الكامل ، والاختيار المطلق ، والسماحة النابعة من القلب ، والود الذى لا يبقى معه حرج من هنا أو من هناك .

وبهذا الإجراء استبعد الإسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية فى شأن المرأة وصداقها، وحقها فى نفسها وفى مالها ، وكرامتها ومنزلتها . وفى الوقت ذاته لم يجفف مابين المرأة ورجلها من صلات ، ولم يقمها على مجرد الصرامة فى القانون ؛ بل ترك للسماحة والتراضى والمودة أن تأخذ مجراها فى هذه الحياة المشتركة ، وأن تبلل بنداوتها جو هذه الحياة .

* * *

فإذا انتهى من هذا الاستطراد ـ الذى دعا إليه الحديث عن الزواج من اليتيمات ومن غيرهن من النساء ـ عاد إلى أموال اليتامى ؛ يفصل فى أحكام ردها إليهم ، بعد أن قرر فى الآية الثانية من السورة مبدأ الرد على وجه الإجمال .

Marfat.com

إن هذا المال ، ولو أنه مال اليتامى ، إلا أنه ـ قبل هذا ـ مال الجماعة ، أعطاها الله إياه لتقوم به ؛ وهى متكافلة فى الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه . فالجماعة هى المالكة ابتداء المال العام،واليتامى أو مورثوهم إنما يملكون هذا المال لاستثماره ـ بإذن من الجماعة ـ ويظلون ينتفعون به وينفعون الجماعة معهم ، ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره ؛ راشدين فى تصريفه وتدبيره ـ والملكية الفردية بحقوقها وقيودها قائمة فى هذا الإطار [1] ـ أما السفهاء من اليتامى ذوى المال ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره ، فلا يسلم لهم ، ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه ـ وإن بقيت لهم ملكيتهم الفردية فيه لا تنزع منهم ـ إنما يعود التصرف فى مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة . مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقا للتكافل العائلى ، الذى هو قاعدة التكافل العام بين الأسرة الكبرى ! وللسفيه حق الرزق والكسوة فى ماله مع حسن معاملته :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » . .

ويتبين السفه والرشد ـ بعد البلوغ ـ وأمر السفه والرشد لا يخفى عادة ، ولا يحتاج إلى تحديد مفهومه بالنصوص . فالبيئة تعرف الراشد من السفيه وتأنس رشد هذا وسفه ذاك ، وتصرفات كل منهما لا تخفى على الجماعة ؛ فالاختبار يكون لمعرفة البلوغ ، الذى يعبر عنه النص بكلمة : « النكاح » وهو الوظيفة التى يؤهل لها البلوغ :

« وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا : ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » . .

ويبدو من خلال النص الدقة فى الإجراءات التى يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد . كذلك يبدو التشديد فى وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم ، بمجرد تبين الرشد ـ بعد

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « سياسة المال » فى كتاب : « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » .

البلوغ ـ وتسليمها لهم كاملة سالمة ، والمحافظة عليها فى أثناء القيام عليها ، وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها ! مع الاستعفاف عن أكل شىء منها مقابل القيام عليها ـ إذا كان الولى غنيا ـ والأكل منها فى أضيق الحدود ـ إذا كان الولى محتاجا ـ ومع وجوب الإشهاد فى محضر التسليم . . وختام الآية : التذكير بشهادة الله وحسابه: « وكفى بالله حسيبا » ..

كل هذا التشديد ، وكل هذا البيان المفصل ، وكل هذا التذكير والتحذير . . يشى بما كان سائدا فى البيئة من الجور على أموال اليتامى الضعاف فى المجتمع، وبما كان يحتاج إلى تغيير هذا العرف السائد من تشديد وتوكيد ، ومن بيان وتفصيل ، لا يدع مجالا للتلاعب عن أى طريق . .

وهكذا كان المنهج الربانى ينسخ معالم الجاهلية فى النفوس والمجتمعات، ويثبت معالم الإسلام؛ ويمحو سمات الجاهلية فى وجه المجتمع ، ويثبت ملامح الإسلام . وهكذا كان يصوغ المجتمع الجديد ومشاعره وتقاليده ، وشرائعه وقوانينه ، فى ظلال تقوى الله ورقابته ، ويجعلها الضمان الأخير لتنفيذ التشريع . ولا ضمان لأى تشريع فى الأرض بغير هذه التقوى وبدون هذه الرقابة : « وكفى بالله حسيبا » ..

* * *

ولقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصبية ـ فى الغالب ـ إلا التافه القليل . لأن هؤلاء وهؤلاء لا يركبون فرسا ، ولا يردون عاديا ! فإذا شريعة الله تجعل الميراث ـ فى أصله ـ حقا لذوى القربى جميعا ـ حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد ـ وذلك تمشيا مع نظرية الإسلام فى التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وفى التكافل الإنسانى العام . وحسب قاعدة : الغنم بالغرم .. فالقريب مكلف إعالة قريبه إذا احتاج ، والتضامن معه فى دفع الديات عند القتل والتعويضات عند الجرح ، فعدل إذن أن يرثه ـ إن ترك مالا ـ بحسب درجة قرابته وتكليفه به . والإسلام نظام متكامل متناسق . ويبدو تكامله وتناسقه واضحا فى توزيع الحقوق والواجبات ..

Marfat.com

Marfat.com

هذه هى القاعدة فى الإرث بصفة عامة . . وقد نسمع هنا وهناك لغطا حول مبدأ الإرث ، لا يثيره إلا التطاول على الله ـ سبحانه ـ مع الجهل بطبيعة الإنسان ، وملابسات حياته الواقعية !

إن إدراك الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى الإسلامى ، يضع حدا لهذا اللغط على الإطلاق . .

إن قاعدة هذا النظام هى التكافل . . ولكى يقوم هذا التكافل على أسس وطيدة راعى الإسلام أن يقوم على أساس الميول الفطرية الثابتة فى النفس البشرية . هذه الميول التى لم يخلقها الله عبثا فى الفطرة ، إنما خلقها لتؤدى دورا أساسيا فى حياة الإنسان .

ولما كانت روابط الأسرة ـ القريبة والبعيدة ـ روابط فطرية حقيقية ؛ لم يصطنعها جيل من الأجيال ؛ ولم تصطنعها جميع الأجيال بطبيعة الحال ! والجدال فى جدية هذه الروابط وعمقها وأثرها فى رفع الحياة وصيانتها وترقيتها كذلك لا يزيد على أن يكون مراء لا يستحق الاحترام . . لما كان الأمر كذلك جعل الإسلام التكافل فى محيط الأسرة هو حجر الأساس فى بناء التكافل الاجتماعى العام . وجعل الإرث مظهرا من مظاهر ذلك التكافل فى محيط الأسرة. فوق ماله من وظائف أخرى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى العام .

فإذا عجزت هذه الخطوة أو قصرت عن استيعاب جميع الحالات المحتاجة إلى التكافل جاءت الخطوة التالية فى محيط الجماعة المحلية المتعارفة ، لتكملها وتقويها . فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة المسلمة لتتولى كل من قصرت فى إعالتهم وكفالتهم الكاملة ، جهود الأسرة ، وجهود الجماعة المحلية المحدودة . . وبذلك لا يلقى العبء كله على عاتق الجهاز العام للدولة . . أولا لأن التكافل فى محيط الأسرة أو فى محيط الجماعة الصغيرة يخلق مشاعر لطيفة رحيمة ، تنمو حولها فضائل التعاون والتجاوب نموا طبيعيا غير مصطنع ـ فضلا على أن هذه المشاعر كسب إنسانى لا يرفضه إلا لئيم نكد خبيث ـ أما التكافل فى محيط الأسرة بصفة خاصة فينشىء آثارا طبيعية تلائم الفطرة . . فشعور الفرد بأن جهده الشخصى سيعود أثره على ذوى قرابته ـ وبخاصة ذريته ـ يحفزه إلى مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعة عن طريق غير مباشر. لأن الإسلام

الجزء الرابع

لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة (١) . فكل ما يملك الفرد هو فى النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج ..

وهذه القاعدة الأخيرة تقضى على كل الاعتراضات السطحية على توريث من لم يتعب ولم يبذل جهدا ـ كما يقال ! ـ فهذا الوارث هو امتداد المورث من جهة ، ثم هو كافل هذا المورث لو كان هذا محتاجا وذاك ذا مال . ثم فى النهاية هو وما يملك للجماعة عندما تحتاج . تمشيا مع قاعدة التكافل العام (٢) .

ثم إن العلاقة بين المورث والوارث ـ وبخاصة الذرية ـ ليست مقصورة على المال . فإذا نحن قطعنا وراثة المال ، فما نحن بمستطيعين أن نقطع الوشائج الأخرى ، والوراثات الأخرى بينهما .

إن الوالدين والأجداد والأقرباء عامة ، لا يورثون أبناءهم وأحفادهم وأقاربهم المال وحده . إنما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيرة والشريرة ، والاستعدادات الوراثية للمرض والصحة ، والانحراف والاستقامة ، والحسن والقبح ، والذكاء والغباء . . . الخ . وهذه الصفات تلاحق الوارثين وتؤثر فى حياتهم ، ولا تتركهم من عقابيلها أبدا . فمن العدل إذن أن يورثوهم المال . وهم لا يعفونهم من المرض والانحراف والغباء ، ولا تملك الدولة ـ بكل وسائلها ـ أن تعفيهم من هذه الوراثات .

من أجل هذه الواقعيات الفطرية والعملية فى الحياة البشرية ـ ومن أجل غيرها وهو كثير من المصالح الاجتماعية الأخرى ـ شرع الله قاعدة الإرث (٣) :

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ـ مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا » . .

هذا هو المبدأ العام ، الذى أعطى الإسلام به « النساء » منذ أربعة عشر قرنا ، حق

---

(١) ، (٢) ، (٣) يراجع بتوسع فصل : الفرد والمجتمع فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب . ويراجع فصل التكافل الاجتماعى فى كتاب العدالة الاجتماعية . وفى كتاب دراسات إسلامية للمؤلف . وفصل سياسة المال فى كتاب العدالة .

Marfat.com

الإرث كالرجال ـ من ناحية المبدأ ـ كما حفظ به حقوق الصغار الذين كانت الجاهلية تظلمهم وتأكل حقوقهم. لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والإنتاج. أما الإسلام فجاء بمنهجه الربانى ، ينظر إلى « الإنسان » ـ أولا ـ حسب قيمته الإنسانية . وهى القيمة الأساسية التى لا تفارقه فى حال من الأحوال ! ثم ينظر إليه ـ بعد ذلك ـ حسب تكاليفه الواقعية فى محيط الأسرة وفى محيط الجماعة .

* * *

ولما كان نظام التوريث ـ كما سيجىء ـ يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضا ، فيوجد ذوو قرابة ، ولكنهم لا يرثون ، لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم ، فإن السياق يقرر المحجوبين حقا لا يحدده ـ إذا هم حضروا القسمة ـ تطييبا لخاطرهم ، كى لا يروا المال يفرق وهم محرومون ، واحتفاظا بالروابط العائلية ، والمودات القلبية. كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق تمشيا مع قاعدة التكافل العام :

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفا » ..

وقد وردت فى هذه الآية روايات شتى عن السلف . ما بين قولهم إنها منسوخة ، نسختها آيات الميراث المحددة للأنصبة ، وقولهم : إنها محكمة . وما بين قولهم : إن مدلولها واجب مفروض ، وقولهم : إنه مستحب ما طابت به أنفس الورثة . . ونحن لا نرى فيها دليلا للنسخ، ونرى أنها محكمة وواجبة . فى مثل هذه الحالات التى ذكرنا . معتمدين على إطلاق النص من جهة ، وعلى الاتجاه الإسلامى العام فى التكافل من جهة أخرى . . وهى شىء آخر غير أنصبة الورثة المحددة فى الآيات التالية على كل حال .

* * *

وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى . . يعود إليه فى هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين : أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب . والثانية تمس مكان الرهبة من النار ، والخوف من السعير ، فى مشهد حسى مفزع :

Marfat.com

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم . فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » ..

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب . قلوب الآباء المرهفة الحساسية تجاه ذريتهم الصغار . بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح ، لا راحم لهم ولا عاصم . كى يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء . فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غدا موكولة إلى من بعدهم من الأحياء ، كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء .. مع توصيتهم بتقوى الله فيمن ولاهم الله عليهم من الصغار ، لعل الله أن يهيئ لصغارهم من يتولى أمرهم بالتقوى والتحرج والحنان . وتوصيتهم كذلك بأن يقولوا فى شأن اليتامى قولا سديدا ، وهم يربونهم ويرعونهم كما يرعون أموالهم ومتاعهم ..

أما اللمسة الثانية ، فهى صورة مفزعة : صورة النار فى البطون . . وصورة السعير فى نهاية المطاف . . إن هذا المال . . نار . . وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم لإلى النار . فهى النار تشوى البطون وتشوى الجلود . هى النار من باطن وظاهر . هى النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيون ، وهى تشوى البطون والجلود !

ولقد فعلت هذه النصوص القرآنية ، بإيحاءاتها العنيفة العميقة فعلها فى نفوس المسلمين . خلصتها من رواسب الجاهلية . هزتها هزة عنيفة ألقت عنها هذه الرواسب . وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس ـ أى مساس ـ بأموال اليتامى . . كانوا يرون فيها النار التى حدثهم الله عنها فى هذه النصوص القوية العميقة الإيحاء. فعادوا يجفلون أن يمسوها ويبالغون فى هذا الإجفال !

من طريق عطاء ابن السائب ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما » . . . الآية . . انطلق من كان عنده يتيم ، فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشىء ، فيحبس له ،

Marfat.com

حتى يأكله أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله : « ويسألونك عن اليتامى . قل : إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم . والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم . . . « الآية » فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم » . .

وكذلك رفع المنهج القرآنى هذه الضمائر ، إلى ذلك الأفق الوضىء ؛ وطهرها من غبش الجاهلية ذلك التطهير العجيب . .

* * *

والآن نجىء إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بوصية الله للوالدين فى أولادهم ؛ فتدل هذه الوصية على أنه ـ سبحانه ـ أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ؛ كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه ؛ فهو الذى يحكم بين الوالدين وأولادهم ، وبين الأقرباء وأقاربهم . وليس لهم إلا أن يتلقوا منه سبحانه ، وأن ينفذوا وصيته وحكمه . . وأن هذا هو معنى « الدين » الذى تعنى السورة كلها ببيانه وتحديده كما أسلفنا . . كذلك يبدأ بتقرير المبدأ العام للتوارث : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » . . ثم يأخذ فى التفريع ، وتوزيع الأنصبة ، فى ظل تلك الحقيقة الكلية ، وفى ظل هذا المبدأ العام . . ويستغرق هذا التفصيل آيتين : أولاهما خاصة بالورثة من الأصول والفروع ، والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة . ثم تجىء بقية أحكام الوراثة فى آخر آية فى السورة استكمالا لبعض حالات الكلالة (وسنعرضها فى موضعها) :

« يوصيكم الله فى أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وإن كانت واحدة فلها النصف . ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ـ إن كان له ولد ـ فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة فلأمه السدس ـ من بعد وصية يوصى بها أو دين ـ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا . فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما .. ولكم نصف ما ترك أزواجكم ـ إن لم يكن لهن ولد ـ فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ـ من بعد وصية يوصين بها أو دين ـ ولهن الربع

Marfat.com

مما تركتم ـ إن لم يكن لكم ولد ـ فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ـ من بعد وصية توصون بها أو دين ـ وإن كان رجل يورث كلالة، أو امرأة ، وله أخ أو أخت، فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ـ من بعد وصية يوصى بها أو دين ـ غير مضار ، وصية من الله ، والله عليم حليم » ..

هاتان الآيتان ، مضافا إليهما الآية الثالثة التى فى نهاية السورة ، ونصها : « يستفتونك . قل : الله يفتيكم فى الكلالة : إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت ، فلها نصف ما ترك . وهو يرثها ـ إن لم يكن لها ولد ـ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين . يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شىء عليم » ..

هذه الآيات الثلاث تتضمن أصول علم الفرائض ـ أى علم الميراث ـ أما التفريعات فقد جاءت السنة ببعضها نصا ، واجتهد الفقهاء فى بقيتها تطبيقا على هذه الأصول . وليس هنا مجال الدخول فى هذه التفريعات والتطبيقات ـ فمكانها كتب الفقه ـ فنكتفى ـ فى ظلال القرآن ـ بتفسير هذه النصوص ، والتعقيب على ما تتضمنه من أصول المنهج الإسلامى ..

« يوصيكم الله فى أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين .. » ..

وهذا الافتتاح يشير ـ كما ذكرنا ـ إلى الأصل الذى ترجع إليه هذه الفرائض ، وإلى الجهة التى صدرت منها ، كما يشير إلى أن الله أرحم بالناس من الوالدين بالأولاد ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ماهو خير مما يريده الوالدون بالأولاد ..

وكلا المعنيين مرتبطان ومتكاملان ..

إن الله هو الذى يوصى ، وهو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم الميراث بين الناس ـ كما أنه هو الذى يوصى ويفرض فى كل شىء ، وكما أنه هو الذى يقسم الأرزاق جملة ـ ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين ، وعن الله يتلقى الناس فى أخص شؤون حياتهم ـ وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم ـ وهذا هو الدين . فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا فى شؤون حياتهم كلها من الله وحده ؛ وليس هناك إسلام ، إذا هم تلقوا فى أى أمر من هذه

Marfat.com

الأمور ـ جل أو حقر ـ من مصدر آخر . إنما يكون الشرك أو الكفر ؛ وتكون الجاهلية التى جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس .

وإن مايوصى به الله ، ويفرضه ، ويحكم به فى حياة الناس ـ ومنه مايتعلق بأخص شؤونهم ، وهو قسمة أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم ـ لهو أبر بالناس وأنفع لهم ، مما يقسمونه هم لأنفسهم ، ويختارونه لذرياتهم . . فليس للناس أن يقولوا : إنما نختار لأنفسنا . وإنما نحن أعرف بمصالحنا .. فهذا ـ فوق أنه باطل ـ هو فى الوقت ذاته توقح ، وتبجح ، وتعالم على الله ، وادعاء لا يزعمه إلا متوقح جهول !

قال العوفى عن ابن عباس : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » .. وذلك أنه لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها مافرض ، للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين ، كرهها الناس ـ أو بعضهم ـ وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير . وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة ! اسكتوا عن هذا الحديث ، لعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينساه ، أو نقول له فيغير ! فقالوا : يارسول الله ، تعطى الجارية نصف ماترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم . ويعطى الصبى الميراث ، وليس يغنى شيئا ـ وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية ، ولا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر » .. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ..

فهذا كان منطق الجاهلية العربية ، الذى كان يحيك فى بعض الصدور ؛ وهى تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكيمة .. ومنطق الجاهلية الحاضرة الذى يحيك فى بعض الصدور اليوم ـ وهى تواجه فريضة الله وقسمته ـ لعله يختلف كثيرا أو قليلا عن منطق الجاهلية العربية . فيقول : كيف نعطى المال لمن لم يكد فيه ويتعب من الذرارى ؟ وهذا المنطق كذلك .. كلاهما لا يدرك الحكمة ، ولا يلتزم الأدب ؛ وكلاهما يجمع من ثم بين الجهالة وسوء الأدب !

« للذكر مثل حظ الأنثيين » ..

وحين لا يكون للميت وارث إلا ذريته من ذكور وإناث ، فإنهم يأخذون جميع التركة ، على أساس أن للبنت نصيبا واحدا ، وللذكر نصيبين اثنين .

Marfat.com

وليس الأمر فى هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس . إنما الأمر أمر توازن وعدل ، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى فى التكوين العائلى ، وفى النظام الاجتماعى الإسلامى : فالرجل يتزوج امرأة ، ويكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه فى كل حالة ، وهى معه ، وهى مطلقة منه ... أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط ، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء . وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء فى أى حال .. فالرجل مكلف ـ على الأقل ـ ضعف أعباء المرأة فى التكوين العائلى ، وفى النظام الاجتماعى الإسلامى . ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم فى هذا التوزيع الحكيم . ويبدو كل كلام فى هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى ، وزعزعة للنظام الاجتماعى والأسرى لا تستقيم معها حياة .

ويبدأ التقسيم بتوريث الفروع عن الأصول :

« فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف » .

فإذا لم يكن له ذرية ذكور ، وله بنتان أو أكثر فلهن الثلثان . فإن كان له بنت واحدة فلها النصف .. ثم ترجع بقية التركة إلى أقرب عاصب له : الأب أو الجد . أو الأخ الشقيق . أو الأخ لأب . أو العم . أو أبناء الأصول ...

والنص يقول : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك » .. وهذا يثبت الثلثين للبنات ـ إذا كن فوق اثنتين ـ أما إثبات الثلثين للبنتين فقط فقد جاء من السنة ومن القياس على الأختين فى الآية التى فى آخر السورة .

فأما السنة فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجه من طرق عن عبد الله ابن محمد ابن عقيل عن جابر . قال : « جاءت امرأة سعد ابن الربيع ، إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يارسول الله ، هاتان ابنتا سعد ابن الربيع ، قتل أبوهما معك فى يوم أحد شهيدا ؛ وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ؛ ولا ينكحان إلا ولهما مال . قال : فقال : « يقضى الله فى ذلك » فنزلت آية الميراث . فأرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عمهما ، فقال: « أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، ومابقى فهو لك » ..

فهذه قسمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للبنتين بالثلثين . فدل هذا على

Marfat.com

أن البنتين فأكثر ، لهما الثلثان فى هـذه الحالة

وهناك أصل آخر لهذه القسمة ؛ وهو أنه لما ورد فى الآية الأخرى عن الأختين : « فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك » .. كان إعطاء البنتين الثلثين من باب الأولى ، قياسا على الأختين . وقد سويت البنت الواحدة بالأخت الواحدة كذلك فى هذه الحالة .

وبعد الانتهاء من بيان نصيب الذرية يجىء بيان نصيب الأبوين ـ عند وجودهما ـ فى الحالات المختلفة . مع وجود الذرية ومع عدم وجودها :

« ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ـ إن كان له ولد ـ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة فلأمه السدس » ..

والأبوان لهما فى الإرث أحوال :

الحال الأول : أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس والبقية للولد الذكر أو للولد الذكر مع أخته الأنثى أو أخواته : للذكر مثل حظ الأنثيين . فإذا لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس . وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له فى هذه الحالة بين الفرض والتعصيب . أما إذا كان للميت بنتان فأكثر فتأخذان الثلثين ، ويأخذ كل واحد من الأبوين السدس .

والحال الثانى : ألا يكون للميت ولد ولا إخوة ولا زوج ولا زوجة ، وينفرد الأبوان بالميراث . فيفرض للأم الثلث ، ويأخذ الأب الباقى بالتعصيب ، فيكون قد أخذ مثل حظ الأم مرتين . فلو كان مع الأبوين زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف ، أو الزوجة الربع. وأخذت الأم الثلث (إما ثلث التركة كلها أو ثلث الباقى بعد فريضة الزوج أو الزوجة على خلاف بين الأقوال الفقهية) وأخذ الأب مايتبقى بعد الأم بالتعصيب على ألا يقل نصيبه عن نصيب الأم .

والحال الثالث : هو اجتماع الأبوين مع الإخوة ـ سواء كانوا من الأبوين أو من الأب ، أو من الأم ـ فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ، لأنه مقدم عليهم وهو أقرب عاصب بعد الولد الذكر ؛ ولكنهم ـ مع هذا ـ يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس . فيفرض لها معهم السدس فقط . ويأخذ الأب مابقى من التركة . إن لم يكن هناك زوج أو زوجة . أما الأخ الواحد

Marfat.com

Marfat.com

فلا يحجب الأم عن الثلث . فيفرض لها الثلث معه ، كما لو لم يكن هناك ولد ولا إخوة .

ولكن هذه الأنصبة كلها إنما تجىء بعد استيفاء الوصية أو الدين :

« من بعد وصية يوصى بها أو دين » ..

قال ابن كثير فى التفسير : « أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية » .. وتقديم الدين مفهوم واضح . لأنه يتعلق بحق الآخرين . فلابد من استيفائه من مال المورث الذى استدان ، مادام قد ترك مالا ، توفية بحق الدائن ، وتبرئة لذمة المدين . وقد شدد الإسلام فى إبراء الذمة من الدين ؛ كى تقوم الحياة على أساس من تحرج الضمير ، ومن الثقة فى المعاملة ، ومن الطمأنينة فى جو الجماعة ، فجعل الدين فى عنق المدين لا تبرأ منه ذمته ، حتى بعد وفاته :

عن أبى قتادة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رجل : يارسول الله . أرأيت إن قتلت فى سبيل الله ، أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم . إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه . فقال : « نعم . إلا الدين . فإن جبريل أخبرنى بذلك » .. (أخرجه مسلم ومالك والترمذى والنسائى).

وعن أبى قتادة كذلك : أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجل ليصلى عليه . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « صلوا على صاحبكم فإن عليه دينا » فقلت : هو على يارسول الله . قال : « بالوفاء ؟ » قلت : بالوفاء . فصلى عليه .

وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيها بعض الورثة بعضا . وقد يكون المحجوبون معوزين ؛ أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة ؛ وإزالة أسباب الحسد والحقد والنزاع قبل أن تنبت . ولا وصية لوارث . ولا وصية فى غير الثلث . وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية .

وفى نهاية الآية تجىء هذه اللمسات المتنوعة المقاصد :

Marfat.com

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا . فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما » ..

واللمسة الأولى لفتة قرآنية لتطيب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء ، لأن الضعف الفطرى تجاه الأبناء أكبر . وفيهم من يغالب هـذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء . وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطرى والشعور الأدبى .. كذلك قد تفرض البيئة بمنطقها العرفى اتجاهات معينة كتلك التى واجه بها بعضهم تشريع الإرث يوم نزل ، وقد أشرنا إلى بعضها من قبل .. فأراد الله سبحانه أن يسكب فى القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله ، ولما يفرضه الله ؛ بإشعارها أن العلم كله لله ؛ وأنهم لا يدرون أى الأقرباء أقرب لهم نفعا ، ولا أى القسم أقرب لهم مصلحة :

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » ..

واللمسة الثانية لتقرير أصل القضية . فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة . إنما هى مسألة الدين ومسألة الشريعة :

« فريضة من الله » ..

فالله هو الذى خلق الآباء والأبناء . والله هو الذى أعطى الأرزاق والأموال . والله هو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم ، وهو الذى يشرع . وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم ، ولا أن يحكموا هواهم ، كما أنهم لا يعرفون مصلحتهم !

« إن الله كان عليما حكيما » ..

وهى اللمسة الثالثة فى هذا التعقيب . تجىء لتشعر القلوب بأن قضاء الله للناس ـ مع أنه هو الأصل الذى لا يحل لهم غيره ـ فهو كذلك المصلحة المبنية على العلم والحكمة . فالله يحكم لأنه عليم ـ وهم لا يعلمون ـ والله يفرض لأنه حكيم ـ وهم يتبعون الهوى .

وهكذا تتوالى هذه التعقيبات قبل الانتهاء من أحكام الميراث ، لرد الأمر إلى حوره الأصيل. محوره الاعتقادى . الذى يحدد معنى « الدين » فهو الاحتكام إلى الله . وتلقى الفرائض منه .

Marfat.com

والرضى بحكمه : « فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما » . .

ثم يمضى يبين بقية الفرائض :

« ولكم نصف ماترك أزواجكم ـ إن لم يكن لهن ولد ـ فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ـ من بعد وصية يوصين بها أو دين . ولهن الربع مما تركتم ـ إن لم يكن لكم ولد ـ فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ـ من بعد وصية توصون بها أو دين ـ » ..

والنصوص واضحة ودقيقة فللزوج نصف تركة الزوجة إذا ماتت وليس لها ولد ـ ذكرا أو أنثى ـ فأما إذا كان لها ولد ـ ذكرا أو أنثى ، واحدا أو أكثر ـ فللزوج ربع التركة . وأولاد البنين للزوجة يحجبون الزوج من النصف إلى الربع كأولادها . وأولادها من زوج آخر يحجبون الزوج كذلك من النصف إلى الربع .. وتقسم التركة بعد الوفاء بالدين ثم الوصية . كما سبق .

والزوجة ترث ربع تركة الزوج ـ إن مات عنها بلا ولد ـ فإن كان له ولد ـ ذكرا أو أنثى . واحدا أو متعددا . منها أو من غيرها . وكذلك أبناء ابن الصلب ـ فإن هذا يحجبها من الربع إلى الثمن . . والوفاء بالدين ثم الوصية مقدم فى التركة على الورثة . .

والزوجتان والثلاث والأربع كالزوجة الواحدة ، كلهن شريكات فى الربع أو الثمن .

والحكم الأخير فى الآية الثانية حكم من يورث كلالة :

« وإن كان رجل يورث كلالة ـ أو امرأة ـ وله أخ أوأخت فلكل واحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار » ..

والمقصود بالكلالة من يرث الميت من حواشيه ـ لا من أصوله ولا من فروعه ـ عن صلة ضعيفة به ليست مثل صلة الأصول والفروع . وقد سئل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيى . فإن يكن صوابا فمن الله . وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلما ولى عمر قال : إنى لأستحيي أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه . (رواه ابن جرير وغيره عن الشعبى) ..

قال ابن كثير فى التفسير : « وهكذا قال على وابن مسعود . وصح عن غير واحد عن ابن

عباس ، وزيد ابن ثابت . وبه يقول الشعبي والنخعى والحسن وقتادة وجابر ابن زيد والحكم . وبه يقول أهل المدينة ، وأهل الكوفة ، والبصرة .وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، وجمهور السلف والخلف . بل جميعهم . وقد حكى الإجماع عليه غير واحد » ..

« وإن كان رجل يورث كلالة ـ أو امرأة ـ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » ..

وله أخ أو أخت ـ أى من الأم ـ فلوكانا من الأبوين أو من الأب وحده لورثا وفق ما ورد فى الآية الأخيرة من السورة للذكر مثل حظ الأنثيين : لا السدس لكل منهما سواء كان ذكرا أم أنثى . فهذا الحكم خاص بالإخوة من الأم . إذ أنهم يرثون بالفرض ـ السدس لكل من الذكر أو الأنثى ـ لا بالتعصيب ، وهو أخذ التركة كلها أو ما يفضل منها بعد الفرائض :

« فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » ..

مهما بلغ عددهم ونوعهم . والقول المعمول به هو أنهم يرثون فى الثلث على التساوى . وإن كان هناك قول بأنهم ـ حينئذ ـ يرثون فى الثلث : للذكر مثل حظ الأنثيين . ولكن الأول أظهر لأنه يتفق مع المبدأ الذى قررته الآية نفسها فى تسوية الذكر بالأنثى : «فلكل واحد منهما السدس » ..

والإخوة لأم يخالفون ـ من ثم ـ بقية الورثة من وجوه :

أحدها : أن ذكورهم وإناثهم فى الميراث سواء .

والثانى : أنهم لا يرثون إلا أن يكون ميتهم يورث كلالة . فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن .

والثالث : أنهم لايزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم .

« من بعد وصية يوصى بها أو دين ـ غير مضار » ..

تحذيرا من أن تكون الوصية للإضرار بالورثة . لتقام على العدل والمصلحة . مع تقديم الدين على الوصية . وتقديمهما معاً على الورثة كما أسلفنا ..

Marfat.com

Marfat.com

ثم يجىء التعقيب فى الآية الثانية ـ كما جاء فى الآية الأولى ـ :

« وصية من الله . والله عليم حليم » ..

وهكذا يتكرر مدلول هذا التعقيب لتوكيده وتقريره .. فهذه الفرائض « وصية من الله » صادرة منه ؛ ومردها إليه . لا تنبع من هوى ، ولا تتبع الهوى . صادرة عن علم .. فهى واجبة الطاعة لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذى له حق التشريع والتوزيع . وهى واجبة القبول لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذى عنده العلم الأكيد .

* * *

توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية فى هذه العقيدة. قاعدة التلقى من الله وحده ، وإلا فهو الكفر والعصيان والخروج من هذا الدين .

وهذا ماتقرره الآيتان التاليتان فى السورة تعقيبا نهائيا على تلك الوصايا والفرائض . حيث يسميها الله بالحدود :

« تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » ..

تلك الفرائض ، وتلك التشريعات ، التى شرعها الله لتقسيم التركات ، وفق علمه وحكمته ، وتنظيم العلاقات العائلية فى الأسرة ، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع . . « تلك حدود الله » . . حدود الله التى أقامها لتكون هى الفيصل فى تلك العلاقات ، ولتكون هى الحكم فى التوزيع والتقسيم .

ويترتب على طاعة الله ورسوله فيها الجنة والخلود والفوز العظيم . كما يترتب على تعديها وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين ..

لماذا ؟ لماذا تترتب كل هذه النتائج الضخمة على طاعة أو معصية فى تشريع جزئى كتشريع الميراث ؛ وفى جزئية من هذا التشريع ، وحد من حدوده ؟

إن الآثار تبدو أضخم من الفعل .. لمن لا يعرف حقيقة هذا الأمر وأصله العميق ..

إن هذا الأمر تتولى بيانه نصوص كثيرة فى السورة ستجىء . وقد أشرنا إليها فى مقدمة التعريف بهذه السورة ـ وهى النصوص التى تبين معنى الدين ، وشرط الإيمان ، وحد الإسلام . ولكن لا بأس أن نستعجل بيان هذا الأمر ـ على وجه الإجمال ـ بمناسبة هاتين الآيتين الخطيرتين ، فى هذا التعقيب على آيتى المواريث :

إن الأمر فى هذا الدين ـ الإسلام ـ بل فى دين الله كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ .. إن الأمر فى دين الله كله هو : لمن الألوهية فى هذه الأرض ؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس ؟

وعلى الإجابة عن هذا السؤال فى صيغتيه هاتين ، يترتب كل شىء فى أمر هذا الدين . وكل شىء فى أمر الناس أجمعين !

لمن الألوهية ؟ ولمن الربوبية ؟

لله وحده ـ بلا شريك من خلقه ـ فهو الإيمان إذن ، وهو الإسلام ، وهو الدين .

لشركاء من خلقه معه ، أو لشركاء من خلقه دونه ، فهو الشرك إذن أو الكفر المبين .

فأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده ، فهى الدينونة من العباد لله وحده . وهى العبودية من الناس لله وحده . وهى الطاعة من البشر لله وحده ، وهى الاتباع لمنهج الله وحده بلا شريك .. فالله وحده هو الذى يختار للناس منهج حياتهم . والله وحده هو الذى يسن للناس شرائعهم . والله وحده هو الذى يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم . . وليس لغيره ـ أفرادا أو جماعات ـ شىء من هذا الحق إلا بالارتكان إلى شريعة الله . لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية . ومظهرها البارز المحدد لخصائصها المميزة .

وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله ـ شركة مع الله أو أصالة من دونه ! ـ فهى الدينونة من العباد لغير الله . وهى العبودية من الناس لغير الله . وهى الطاعة من البشر لغير الله . وذلك بالاتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين ، التى يضعها ناس من البشر ، لا يستندون فى وضعها إلى كتاب الله وسلطانه ؛ إنما يستندون إلى أسناد

Marfat.com

أخرى ، يستمدون منهـا السلطان . . ومن ثم فلا دين ، ولا إيمان ، ولا إسلام . إنمـا هو الشرك والـكفر والفسوق والعصيان ..

هذا هو الأمر فى جملته وفى حقيقته .. ومن ثم يستوى أن يكون الخروج على حدود الله فى أمر واحد ، أو فى الشريعة كلها .. لأن الأمر الواحد هو الدين ـ على ذلك المعنى ـ والشريعة كلها هى الدين . . فالعبرة بالقاعدة التى تستند إليها أوضاع الناس . . أهى إخلاص الألوهية والربوبيـة لله ـ بكل خصائصها ـ أو إشراك أحد من خلقه معه . أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض . مهما ادعوا لأنفسهم من الدخول فى الدين ! ومهما رددت ألسنتهم ـ دون واقعهم ـ أنهم مسلمون !

هـذه هى الحقيقة الـكبيرة ، التى يشير إلـيـا هذا التعقيب ، الذى يربط بين توزيع أنصبة من التركة على الورثة ، وبين طاعة الله ورسوله ، أو معصية الله ورسوله . وبين جنة تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ؛ ونار خالدة وعذاب مهين !

وهـذه هى الحقيقة الـكبيرة ، التى تتـكىء علىهـا نصوص كثيرة ، فى هذه الـورة ، وتعرضها عرضا صريحا حاسما ، لا يقبل المماحكة ، ولا يقبل التأويل .

وهذه هى الحقيقة التى ينبغى أن يتبينها الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام فى هذه الأرض ليروا أين هم من هذا الإسلام ، وأين حياتهم من هذا الدين !

* * *

ثم لا بد كذلك من إضافة كلمة مجملة عن نظام الإرث فى الإسلام ؛ بعد ماذكرناه عن هذا النظام عنـدما تعرضنا للآية التى تقرر المبدأ العام : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنسـاء نصيب مما اكتسبن » .. وما ذكرناه كذلك عن مبدإ : « للذكر مثل حظ الأنثيين » ..

إن هذا النظام فى التوريث هو النظام العادل المتناسق مع الفطرة ابتداء ، ومع واقعيات الحياة العائلية والإنسانية فى كل حال . يبدو هذا واضحا حين نوازنه بأى نظام آخر ، عرفته البشرية فى جاهليتها القديمة ، أو جاهليتها الحديثة ، فى أية بقعة من بقاع الأرض على الإطلاق .

Marfat.com

Marfat.com

إنه نظام يراعى معنى التكافل العائلى كاملا ، ويوزع الأنصبة على قدر واجب كل فرد فى الأسرة فى هذا التكافل فعصبة الميت هم أولى من يرثه ـ بعد أصحاب الفروض كالوالد والوالدة ـ لأنهم هم كذلك أقرب من يتكفل به ، ومن يؤدى عنه فى الديات والمغارم . فهو نظام متناسق ، ومتكامل .

وهو نظام يراعى أصل تكوين الأسرة البشرية من نفس واحدة . فلا يحرم امرأة ولا صغيرا لمجرد أنه امرأة أو صغير . لأنه مع رعايته للمصالح العملية ـ كما بينا فى الفقرة الأولى ـ يرعى كذلك مبدأ الوحدة فى النفس الواحدة . فلا يميز جنسا على جنس إلا بقدر أعبائه فى التكافل العائلى والاجتماعى .

وهو نظام يراعى طبيعة الفطرة الحية بصفة عامة، وفطرة الإنسان بصفة خاصة . فيقدم الذرية فى الإرث على الأصول وعلى بقية القرابة . لأن الجيل الناشىء هو أداة الامتداد وحفظ النوع . فهو أولى بالرعاية ـ من وجهة نظر الفطرة الحية ـ ومع هذا فلم يحرم الأصول ، ولم يحرم بقية القرابات . بل جعل لكل نصيبه . مع مراعاة منطق الفطرة الأصيل .

وهو نظام يتمشى مع طبيعة الفطرة كذلك فى تلبية رغبة الكائن الحى ـ وبخاصة الإنسان ـ فى أن لا تنقطع صلته بنسله ، وأن يمتد فى هذا النسل . ومن ثم هذا النظام الذى يلبى هذه الرغبة ، ويطمئن الإنسان الذى بذل جهده فى ادخار شىء من ثمرة عمله ، إلى أن نسله لن يحرم من ثمرة هذا العمل ، وأن جهده سيرثه أهله من بعده . مما يدعوه إلى مضاعفة الجهد ، ومما يضمن للأمة النفع والفائدة ـ فى مجموعها ـ من هذا الجهد المضاعف . مع عدم الإخلال بمبدأ التكافل الاجتماعى العام الصريح القوى فى هذا النظام .

وأخيرا فهو نظام يضمن تفتيت الثروة المتجمعة ، على رأس كل جيل ، وإعادة توزيعها من جديد . فلا يدع مجالا لتضخم الثروة وتكدسها فى أيد قليلة ثابتة ـ كما يقع فى الأنظمة التى تجعل الميراث لأكبر ولد ذكر ، أو تحصره فى طبقات قليلة ـ وهو من هذه الناحية أداة متجددة الفاعلية فى إعادة التنظيم الاقتصادى فى الجماعة ، ورده إلى الاعتدال ، دون تدخل مباشر من السلطات .. هذا التدخل الذى لا تستريح إليه النفس البشرية بطبيعة ما ركب فيها

الجزء الرابع

من الحرص والشح . فأما هذا التفتيت المستمر والتوزيع المتجدد ، فيتم والنفس به راضية ، لأنه يماشى فطرتها وحرصها وشحها ! وهذا هو الفارق الأصيل بين تشريع الله لهذه النفس وتشريع الناس (١) !!!

« وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ، فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ - إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ - وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا . أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ؟ * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ - إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ - إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « سياسة المال » فى كتاب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

Marfat.com

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ ، وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ ، وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِى أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ ٱللَّاتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ـ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ـ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ـ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً » ﴿٢٣﴾

مضى الشوط الأول من السورة ، يعالج تنظيم حياة المجتمع المسلم واستنقاذه من رواسب الجاهلية بإقامة الضمانات لليتامى وأموالهم وأنفسهم فى محيط الأسرة ، وفى محيط الجماعة ، يعالج نظام التوارث فى المحيط العائلى ، ويرد تلك الضمانات وهذا النظام إلى مصدرهما الأساسى: وهو ألوهية الله للبشر ، وربوبيته للناس ، وإرادته من خلقهم جميعا من نفس واحدة ، وإقامة المجتمع الإنسانى على قاعدة الأسرة ، وعلى أساس التكافل . وردهم فى كل شؤون حياتهم إلى حدود الله وعلمه وحكمته ، ومجازاتهم على أساس طاعته فى هذا كله أومعصيته .

فأما هذا الشوط الثانى فيمضى فى تنظيم حياة المجتمع المسلم ، واستنقاذه من رواسب الجاهلية ، بتطهير هذا المجتمع من الفاحشة ، وعزل العناصر الملوثة التى تقارفها ، من الرجال والنساء ، مع فتح باب التوبة لمن يشاء من هذه العناصر أن يتوب ويتطهر ، ويرجع إلى المجتمع نظيفا عفيفا .. ثم باستنقاذ المرأة مما كانت ترزح تحته فى الجاهلية من خسف وهوان ، ومن عسف وظلم ، حتى تقوم الأسرة على أساس سليم ركين ، ومن ثم يقوم المجتمع ـ وقاعدته الأسرة ـ على أرض صلبة وفى جو نظيف عفيف . . وأخيرا ينظم جانبا من حياة الأسرة ، ببيان المحرمات فى الشريعة الإسلامية وبيان ماوراءهن من الحلال .

وبهذا البيان ينتهى هذا الشوط ، وينتهى هذ الجزء كذلك .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الرابع

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ، فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ، حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما . فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما . إن الله كان توابا رحيما » ..

إن الإسلام يمضى هنا على طريقه ، فى تطهير المجتمع وتنظيفه ؛ وقد اختار ـ فى أول الأمر ـ عزل الفاحشات من النسوة ، وإبعادهن عن المجتمع ، متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة . وإيذاء الرجال ، الذين يأتون الفاحشة الشاذة ، ويعملون عمل قوم لوط . ولم يحدد نوع الإيذاء ومداه . ثم اختار ـ فيما بعد ـ عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجال أيضاً عقوبة واحدة هى حد الزنا كما ورد فى آية سورة النور ، وهى الجلد ؛ وكما جاءت بها السنة أيضا ، وهى الرجم . والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث ، والمحافظة عليه نظيفا عفيفا شريفا .

وفى كل حالة وفى كل عقوبة يوفر التشريع الإسلامى الضمانات ، التى يتعذر معها الظلم والخطأ والأخذ بالظن والشبهة ؛ فى عقوبات خطيرة ، تؤثر فى حياة الناس تأثيرا خطيرا .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » ..

وفى النص دقة واحتياط بالغان . فهو يحدد النساء اللواتى ينطبق عليهن الحد : « من نسائكم » ـ أى المسلمات ـ ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون على وقوع الفعل : « من رجالكم » ـ أى المسلمين ـ فحسب هذا النص يتعين من توقع عليهن العقوبة إذا ثبت الفعل . ويتعين من تطلب إليهم الشهادة على وقوعه .

إن الإسلام لا يستشهد على المسلمات ـ حين يقعن فى الخطيئة ـ رجالا غير مسلمين . بل لابد من أربعة رجال مسلمين . منكم . من هذا المجتمع المسلم . يعيشون فيه ، ويخضعون لشريعته ، ويتبعون قيادته ، ويهمهم أمره ، ويعرفون ما فيه ومن فيه . ولا تجوز فى هذا الأمر شهادة غير المسلم ، لأنه غير مأمون على عرض المسلمة ، وغير موثوق بأمانته وتقواه ، ولا مصلحة له ولا غيرة كذلك على نظافة هذا المجتمع وعفته ، ولا على إجراء العدالة فيه .

وقد بقيت هذه الضمانات فى الشهادة حين تغير الحكم ، وأصبح هو الجلد أو الرجم ..

« فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت » ..

لا يختلطن بالمجتمع ، ولا يلوثنه ، ولا يتزوجن ، ولا يزاولن نشاطا ..

« حتى يتوفاهن الموت » ..

فينتهى أجلهن ، وهن على هذه الحال من الإمساك فى البيوت .

« أو يجعل الله لهن سبيلا » ..

فيغير ما بهن ، أو يغير عقوبتهن ، أو يتصرف فى أمرهن بما يشاء . . مما يشعر أن هذا ليس الحكم النهائى الدائم ، وإنما هو حكم فترة معينة ، وملابسات فى المجتمع خاصة . وأنه يتوقع صدور حكم آخر ثابت دائم . وهذا هو الذى وقع بعد ذلك ، فتغير الحكم كما ورد فى سورة النور ، وفى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن لم تتغير الضمانات المشددة فى تحقيق الجريمة .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة ابن الصامت . قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه الوحى أثر عليه ، وكرب لذلك ، وتغير وجهه . فأنزل الله عليه عز وجل ذات يوم ، فلما سرى عنه قال : « خذوا عنى .. قد جعل الله لهن سبيلا .. الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مئة ورجم بالحجارة . والبكر جلد مئة ثم نفى سنة » .. وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة ، عن الحسن ، عن حطان ، عن عبادة ابن الصامت . عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولفظه : « خذوا عنى . خذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام . والثيب بالثيب جلد مئة ورجم بالحجارة » .. وقد ورد عن السنة العملية فى حادث ماعز والغامدية كما ورد فى صحيح مسلم : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجمهما ولم يجلدهما . وكذلك فى حادث اليهودى واليهودية اللذين حكم فى قضيتهما ، فقضى برجمهما ولم يجلدهما .: فدلت سنته العملية على أن هذا هو الحكم الأخير :

« واللذان يأتيانها منكم فآذوهما. فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما».

Marfat.com

والأوضح أن المقصود بقوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم ... » هما الرجلان يأتيان الفاحشة الشاذة . وهو قول مجاهد ـ رضى الله عنه ـ وقال ابن عباس وسعيدابن جبير وغيرهما: « فآذوهما » : هو الشتم والتعيير والضرب بالنعال !

« فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما » ..

فالتوبة والإصلاح ـ كما سيأتى ـ تعديل أساسى فى الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك . ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن إيذاء هذين المنحرفين الشاذين. وهذا هو الإعراض عنهما فى هذا الموضع : أى الكف عن الإيذاء .

والإيماءة اللطيفة العميقة :

« إن الله كان توابا رحيما » ..

وهو الذى شرع العقوبة ، وهو الذى يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح . ليس للناس من الأمر شىء فى الأولى ، وليس لهم من الأمر شىء فى الأخيرة . إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه . وهو تواب رحيم . يقبل التوبة ويرحم التائبين .

واللمسة الثانية فى هذه الإيماءة ، هى توجيه قلوب العباد للاقتباس من خلق الله والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق . وإذا كان الله توابا رحيما ، فينبغى لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء ؛ أمام الذنب الذى سلف ، وأعقبه التوبة والإصلاح . إنه ليس تسامحا فى الجريمة ، وليس رحمة بالفاحشين . فهنا لا تسامح ولا رحمة . ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين ، وقبولهم فى المجتمع ، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه ، وتطهروا منه ، وأصلحوا حالهم بعده ، فينبغى ـ حينئذ ـ مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة ، ونسيان جريمتهم حتى لا تثير فى نفوسهم التأذى كلما واجهوا المجتمع بها ؛ مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس ، واللجاج فى الخطيئة ، وخسارة أنفسهم فى الدنيا والآخرة . والإفساد فى الأرض ، وتلويث المجتمع ، والنقمة عليه فى ذات الأوان .

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك ـ فيما بعد ـ فروى أهل السنن حديثا مرفوعا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

Marfat.com

وتبدو فى هـذه الأحكام عناية المنهج الإسلامى بتطهير المجتمع المسلم من الفاحشة ؛ ولقد جاءت هذه العناية مبكرة : فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة فى المدينة ، وسلطة تقوم على شريعة الله ، وتتولاها بالتنفيذ. فقد ورد النهى عن الزنا فى سورة الإسراء المكية : «ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » كما ورد فى سورة المؤمنون : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ... والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » .. وكرر هذا القول فى سورة المعارج .

ولكن الإسلام لم تكن له فى مكة دولة ، ولم تكن له فيها سلطة ؛ فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التى نهى عنها فى مكة ؛ إلا حين استقامت له الدولة والسلطة فى المدينة،ولم يعتبر النواهى والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة ، وصيانة المجتمع من التلوث . لأن الإسلام دين واقعى ، يدرك أن النواهى والتوجيهات وحدها لا تكفى ، ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة . وأن الدين هو المنهج أو النظام الذى تقوم عليه حياة الناس العملية ، وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش فى الضمير ، بلا سلطة وبلا تشريع ، وبلا منهج محدد ، ودستور معلوم !

ومنذ أن استقرت العقيدة الإسلامية فى بعض القلوب فى مكة ، أخذت هذه العقيدة تكافح الجاهلية فى هذه القلوب ، وتطهرها وتزكيها . فلما أن أصبحت للإسلام دولة فى المدينة ، وسلطة تقوم على شريعة معلومة ، وتحقق فى الأرض منهج الله فى صورة محددة ، أخذ يزاول سلطته فى صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب -إلى جانب التوجيه والموعظة- فالإسلام كما قلنا ليس مجرد اعتقاد وجدانى فى الضمير ، إنما هو - إلى جانب ذلك - سلطان ينفذ فى واقع الحياة ذلك الاعتقاد الوجدانى ، ولا يقوم أبدا على ساق واحدة .

وكذلك كان كل دين جاء من عند الله . على عكس ما رسخ خطأ فى بعض الأذهان من أن هناك أديانا سماوية جاءت بغير شريعة ، وبغير نظام ، وبغير سلطان . . كلا ! فالدين منهج للحياة . منهج واقعى عملى . يدين الناس فيه لله وحده ، ويتلقون فيه من الله وحده . يتلقون التصور الاعتقادى والقيم الأخلاقية ، كما يتلقون الشرائع التى تنظم حياتهم العملية . وتقوم على

Marfat.com

هذه الشرائع سلطة تنفذها بقوة السلطان فى حياة الناس ، وتؤدب الخارجين عليها وتعاقبهم ، وتحمى المجتمع من رجس الجاهلية . لتكون الدينونة لله وحده ، ويكون الدين كله لله . أى لا تكون هناك آلهة غيره ـ فى صورة من الصور ـ آلهة تشرع للناس ، وتضع لهم القيم والموازين ، والشرائع والأنظمة . فالإله هو الذى يصنع هذا كله . وأيما مخلوق ادعى لنفسه الحق فى شىء من هذا فقد ادعى لنفسه الألوهية على الناس .. وما من دين من عند الله يسمح لبشر أن يكون إلها ، وأن يدعى لنفسه هذه الدعوى ، ويباشرها .. ومن ثم فإنه مامن دين من عند الله يجىء اعتقادا وجدانيا صرفا ، بلا شريعة عملية ، وبلا سلطان ينفذ به هذه الشريعة !

وهكذا أخذ الإسلام فى المدينة يزاول وجوده الحقيقى ؛ بتطهير المجتمع عن طريق التشريع والتنفيذ ، والعقوبة والتأديب . على نحو مارأينا فى هذه الأحكام التى تضمنتها هذه السورة ، والتى عدلت فيما بعد ، ثم استقرت على ذلك التعديل . كما أرادها الله .

ولا عجب فى هذه العناية الظاهرة بتطهير المجتمع من هذه الفاحشة ؛ والتشدد الظاهر فى مكافحتها بكل وسيلة . فالسمة الأولى للجاهلية ـ فى كل زمان ـ كما نرى فى جاهليتنا الحاضرة التى تعم وجه الأرض ـ هى الفوضى الجنسية ، والانطلاق البهيمى ، بلا ضابط من خلق أو قانون . واعتبار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرا من مظاهر « الحرية الشخصية » لا يقف فى وجهها إلا متعنت ! ولا يخرج عليها إلا متزمت !

ولقد يتسامح الجاهليون فى حرياتهم « الإنسانية » كلها ، ولا يتسامحون فى حريتهم « البهيمية » هذه ! وقد يتنازلون عن حرياتهم تلك كلها ، ولكنهم يهبون فى وجه من يريد أن ينظم لهم حريتهم البهيمية ويطهرها !

وفى المجتمعات الجاهلية تتعاون جميع الأجهزة على تحطيم الحواجز الأخلاقية ، وعلى إفساد الضوابط الفطرية فى النفس الإنسانية، وعلى تزيين الشهوات البهيمية ووضع العناوين البريئة لها، وعلى إهاجة السعار الجنسى بشتى الوسائل ، ودفعه إلى الإفضاء العملى بلا ضابط، وعلى توهين ضوابط الأسرة ورقابتها ، وضوابط المجتمع ورقابته ، وعلى ترذيل المشاعر الفطرية السليمة

Marfat.com

انى تشمئز من الشهوات العارية ، وعلى تمجيد هـذه الشهوات وتمجيد العرى العاطفى والجسدى والتعبيرى !

كل هذا من سمات الجاهلية الهابطة التى جاء الإسلام ليطهر المشاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها . وهى هى بعينها سمة كل جاهلية .. والذى يراجع أشعار امرىء القيس فى جاهلية العرب يجد لها نظائر فى أشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية .. كما يجد لها نظائر فى الآداب والفنون المعاصرة فى جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضا ! كما أن الذى يراجع تقاليد المجتمع ، وتبذل المرأة ، ومجون العشاق ، وفوضى الاختلاط فى جميع الجاهليات قديمها وحديثها يجد بينها كلها شبها ورابطة ، ويجدها تنبع من تصورات واحدة ، وتتخذ لها شعارات متقاربة !

ومع أن هذا الانطلاق البهيمى ينتهى دائما بتدمير الحضارة وتدمير الأمة التى يشيع فيها ـ كما وقع فى الحضارة الإغريقية ، والحضارة الرومانية ، والحضارة الفارسية قديما ـ وكما يقع اليوم فى الحضارة الأوربية وفى الحضارة الأمريكية كذلك ، وقد أخذت تتهاوى على الرغم من جميع مظاهر التقدم الساحق فى الحضارة الصناعية . الأمر الذى يفزع العقلاء هناك . وإن كانوا يشعرون ـ كما يبدو من أقوالهم ـ بأنهم أعجز من الوقوف فى وجه التيار المدمر (١) !

مع أن هـذه هى العاقبة ، فإن الجاهليين ـ فى كل زمان وفى كل مكان ـ يندفعون إلى الهاوية ، ويقبلون أن يفقدوا حرياتهم « الإنسانية » كلها أحيانا ، ولا يقبلون أن يقف حاجز واحد فى طريق حريتهم « البهيمية » . ويرضون أن يستعبدوا استعباد العبيد ، ولا يفقدوا حق الانطلاق الحيوانى !

وهو ليس انطلاقا ، وليس حرية . إنما هى العبودية للميل الحيوانى والانتكاس إلى عالم البهيمة ! بل هم أضل ! فالحيوان محكوم ـ فى هذا ـ بقانون الفطرة ، التى تجعل للوظيفة الجنسية

---

(١) يراجع كتاب « الحجاب » للسيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

Marfat.com

مواسم لا تتعداها فى الحيوان ، وتجعلها مقيدة دائما بحكمة الإخصاب والإنسال. فلا تقبل الأنثى الذكر إلا فى موسم الإخصاب ، ولا يهاجم الذكر الأنثى إلا وهى على استعداد ! أما الإنسان فقد تركه الله لعقله ؛ وضبط عقله بعقيدته . فمتى انطلق من العقيدة ، ضعف عقله أمام الضغط ، ولم يصبح قادرا على كبح جماح النزوة المنطلقة فى كيانه . ومن ثم يستحيل ضبط هذا الاندفاع وتطهير وجه المجتمع من هذا الرجس ، إلا بعقيدة تمسك بالزمام ، وسلطان يستمد من هذه العقيدة ، وسلطة تأخذ الخارجين المتبجحين بالتأديب والعقوبة . وترد الكائن البشرى بل ترفعه من درك البهيمة إلى مقام « الإنسان » الكريم على الله .

والجاهلية التى تعيش فيها البشرية ، تعيش بلا عقيدة ، كما تعيش بلا سلطة تقوم على هذه العقيدة ، ومن ثم يصرخ العقلاء فى الجاهليات الغربية ولا يستجيب لهم أحد ؛ لأن أحدا لا يستجيب لكلمات طائرة فى الهواء ليس وراءها سلطة تنفيذية وعقوبات تأديبية . وتصرخ الكنيسة ويصرخ رجال الدين ولا يستجيب لهم أحد ؛ لأن أحدا لا يستجيب لعقيدة ضائعة ليس وراءها سلطة تحميها ،وتنفذ توجيهاتها وشرائعها ! وتندفع البشرية إلى الهاوية بغير ضابط من الفطرة التى أودعها الله الحيوان ! وبغير ضابط من العقيدة والشريعة التى أعطاها الله الإنسان !

وتدمير هذه الحضارة هو العاقبة المؤكدة ، التى توحى بها كل تجارب البشرية السابقة . مهما بدا من متانة هذه الحضارة ، وضخامة الأسس التى تقوم عليها . « فالإنسان » ـ بلاشك ـ هو أضخم هذه الأسس . ومتى دمر الإنسان ، فلن تقوم الحضارة على المصانع وحدها ، ولا على الإنتاج !

وحين ندرك عمق هذه الحقيقة ، ندرك جانبا من عظمة الإسلام ، فى تشديد عقوباته على الفاحشة لحماية « الإنسان» من التدمير ؛ كى تقوم الحياة الإنسانية على أساسها الإنسانى الأصيل. كما ندرك جانبا من جريمة الأجهزة التى تدمر أسس الحياة الإنسانية بتمجيد الفاحشة وتزيينها ، وإطلاق الشهوات البهيمية من عقالها ، وتسمية ذلك أحيانا « بالفن » وأحيانا « بالحرية » وأحيانا «بالتقدمية» .. وكل وسيلة من وسائل تدمير « الإنسان» ينبغى تسميتها باسمها.. جريمة..

Marfat.com

كما ينبغى الوقوف بالنصح والعقوبة فى وجه هذه الجريمة ا.. وهذا مايصنعه الإسلام . والإسلام وحده ، بمنهجه الكامل المتكامل القويم[1] .

* * *

على أن الإسلام لا يغلق الأبواب فى وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه . ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم - متى أخلصوا فيها - حقا عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » .

ولقد سبق فى هذا الجزء حديث عن التوبة . فى ظلال قوله تعالى فى سورة آل عمران : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . . . » وهو بجملته يصح نقله هنا ! ولكن التعبير فى هذه السورة يستهدف غرضا آخر .. يستهدف بيان طبيعة التوبة وحقيقتها :

إن التوبة التى يقبلها الله ، والتى تفضل فكتب على نفسه قبولها هى التى تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزها الندم من الأعماق ، ورجها رجا شديدا حتى استفاقت فثابت وأنابت ، وهى فى فسحة من العمر ، وبجوحة من الأمل ، واستجدت رغبة حقيقية فى التطهر ، ونية حقيقية فى سلوك طريق جديد ..

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم : وكان الله عليما حكيما » ..

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب . . وهناك مايشبه الإجماع على أن

---

(١) يراجع فصل : « سلام البيت » فى كتاب : « السلام العالمى والإسلام » .

الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى ـ طال أمدها أم قصر ـ مادامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم . . والذين يتوبون من قريب : هم الذين يتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت ، ويدخلوا فى سكراته ، ويحسوا أنهم على عتباته . فهذه التوبة حينئذ هى توبة الندم ، والانخلاع من الخطيئة ، والنية على العمل الصالح والتكفير . وهى إذن نشأة جديدة للنفس ، ويقظة جديدة للضمير .. « فأولئك يتوب الله عليهم » .. « وكان الله عليما حكيما » .. يتصرف عن علم وعن حكمة . ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ، ولا يطردهم أبدا وراء الأسوار ، وهم راغبون رغبة حقيقية فى الحمى الآمن والكنف الرحيم .

إن الله ـ سبحانه ـ لا يطارد عباده الضعاف ، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا . وهو ـ سبحانه ـ غنى عنهم ، وما تنفعه توبتهم ، ولكن تنفعهم هم أنفسهم ، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذى يعيشون فيه . ومن ثم يفسح لهم فى العودة إلى الصف تائبين متطهرين .

« وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن » .

فهذه التوبة هى توبة المضطر ، لجت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة . توبة الذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ، لأنها لا تنشىء صلاحا فى القلب ولا صلاحا فى الحياة ، ولا تدل على تبدل فى الطبع ولا تغير فى الاتجاه .

والتوبة إنما تقبل لأنها الباب المفتوح الذى يلجه الشاردون إلى الحمى الآمن ، فيستردون أنفسهم من تيه الضلال ، وتستردهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان ، ليعملوا عملا صالحا ـ إن قدر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب ـ أو ليعلنوا ـ على الأقل ـ انتصار الهداية على الغواية . إن كان الأجل المحدود ينتظرهم ، من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد . .

« ولا الذين يموتون وهم كفار » : .

وهؤلاء قد قطعوا كل مابينهم وبين التوبة من وشيجة ، وضيعوا كل مابينهم وبين المغفرة من فرصة . .

« أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » .

Marfat.com

أعتدناه : أى أعددناه وهيأناه .. فهو حاضر فى الانتظار لا يحتاج إلى إعداد أو إحضار !

وهكذا يشتد المنهج الربانى فى العقوبة ، ولكنه فى الوقت ذاته يفتح الباب على مصراعيه للتوبة . فيتم التوازن فى هذا المنهج الربانى الفريد ، وينشىء آثاره فى الحياة كما لا يملك منهج آخر أن يفعل فى القديم والجديد ..

* * *

والموضوع الثانى فى هذا الدرس هو موضوع المرأة ..

ولقد كانت الجاهلية العربية ـ كما كانت سائر الجاهليات من حولهم ـ تعامل المرأة معاملة سيئة .. لا تعرف لها حقوقها الإنسانية ، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولا شنيعا ، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان . وذلك فى الوقت الذى تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنة للنفوس ، وإغراء للغرائز ، ومادة للتشهى والغزل العارى المكشوف .. فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله ، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وإلى دورها الجدى فى نظام الجماعة البشرية . المكان الذى يتفق مع المبدأ العام الذى قرره فى مفتتح هذه السورة : « الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .. ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الحياة الزوجية من المستوى الحيوانى الهابط إلى المستوى الإنسانى الرفيع ، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل ؛ وليوثق الروابط والوشائج ، فلاتنقطع عند الصدمة الأولى ، وعند الانفعال الأول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ـ وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ـ إلا ماقد سلف ـ إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ..

كان بعضهم فى الجاهلية العربية ـ قبل أن ينتشل الإسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم

Marfat.com

Marfat.com

إلى مستواه الكريم ـ إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته ، يرثونها كما يرثون البهائم والتروكات ! إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها ـ كما يبيعون البهائم والتروكات ! ـ وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها فى البيت . دون تزويج ، حتى تفتدى نفسها بشىء . .

وكان بعضهم إذا توفى عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه ، فمنعها من الناس ، وحازها كما يحوز السلب والغنيمة ! فإن كانت جميلة تزوجها ؛ وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، أو تفتدى نفسها منه بمال ! فأما إذافاتته فانطلقت إلى بيت أهلهاقبل أن يدركها فيلقى عليها ثوبه ، فقد نجت وتحررت وحمت نفسها منه !

وكان بعضهم يطلق المرأة ، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد ؛ حتى تفتدى نفسها منه ، بما كان أعطاها .. كله أو بعضه !

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها !

وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها ، ويأخذ مالها !

وهكذا . وهكذا . مما لايتفق مع النظرة الكريمة التى ينظر بها الإسلام لشق النفس الواحدة ؛ ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء .. ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار ، أو علاقة بهائم !

ومن هذا الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالى الكريم، اللائق بكرامة بنى آدم ، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين . فمن فكرة الإسلام عن الإنسان ، ومن نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية ، كان ذلك الارتفاع ، الذى لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر الكريم (١)

حرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الذى تسامه المرأة ،

---

(١) كتاب « فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان » يظهر قريبا .

Marfat.com

ويتخذ أداة للإضرار بها ـ إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف ـ وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافا . بكرا أم ثيبا .مطلقة أو متوفى عنها زوجها . وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال ـ حتى فى حالة كراهية الزوج لزوجته مالم تصبح العشرة متعذرة ـ ونسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله . كى لا يطاوع المرء انفعاله الأول ، فيبت وشيجة الزوجية العزيزة . فما يدريه أن هنالك خيرا فيما يكره ، هو لا يدريه . خيرا مخبوءا كامنا ، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ..

وهذه اللمسة الأخيرة فى الآية ، تعلق النفس بالله ، وتهدئ من فورة الغضب ، وتنشأ من حدة الكره ، حتى يعاود الإنسان نفسه فى هدوء ؛ وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة فى مهب الرياح . فهى مربوطة العرى بالعروة الوثقى . العروة الدائمة . العروة التى تربط بين قلب المؤمن وربه ، وهى أوثق العرى وأبقاها .

والإسلام الذى ينظر إلى البيت بوصفه سكنا وأمنا وسلاما، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسا ، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق ، كى تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب .. هو الإسلام ذاته الذى يقول للأزواج : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .. كى يستأنى بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر ، وكى يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة ، وكى يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة ، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك . .

وما أعظم قول عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لرجل أراد أن يطلق زوجه « لأنه لا يحبها » .. « ويحك ! ألم تبن البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذمم ؟ » ..

وما أتفه الكلام الرخيص الذى ينعق به المتحذلقون باسم « الحب » وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة ، ويبيحون باسمه ـ لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية ـ بل خيانة الزوجة لزوجها ! أليست لاتحبه ؟ ! وخيانة الزوج لزوجته ! أليس أنه لايحبها ؟!

وما يهجس فى هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة ، ونزوة الميل الحيوانى المسعور . ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن فى الحياة من المروءة والنبل والتجمل والاحتمال ، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذى يتشدقون به فى تصور هابط هزيل.. ومن المؤكد طبعا أنه لا يخطر لهم خاطر . . الله . . فهم بعيدون عنه فى جاهليتهم المزوقة ! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . .

إن العقيدة الإيمانية هى وحدها التى ترفع النفوس ، وترفع الاهتمامات ، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة ، وطمع التاجر ، وتفاهة الفارغ !

فإذا تبين بعد الصبر والتجمل والمحاولة والرجاء : أن الحياة غير مستطاعة ، وأنه لابد من الانفصال، واستبدال زوج مكان زوج، فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق ، وماورثت من مال ، لا يجوز استرداد شىء منه ، ولو كان قنطارا من ذهب . فأخذ شىء منه إثم واضح ، ومنكر لاشبهة فيه :

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا. أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ »

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة ، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف ، فى تعبير موح عجيب :

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ » . .

ويدع الفعل : « أفضى » بلا مفعول محدد . يدع اللفظ مطلقا ، يشع كل معانيه ، ويلقى كل ظلاله ، ويسكب كل إيحاءاته . ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته . بل يشمل العواطف والمشاعر ، والوجدانات والتصورات ، والأسرار والهموم ، والتجاوب فى كل صورة

Marfat.com

من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار ، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التى ضمتهما فترة من الزمان . . وفى كل اختلاجة حب إفضاء . وفى كل نظرة ود إفضاء . وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم أو أمل إفضاء . وفى كل تفكر فى حاضر أو مستقبل إفضاء . وفى كل شوق إلى خلف إفضاء . وفى كل التقاء فى وليد إفضاء . .

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى العجيب : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » . . فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادى الصغير ، ويخجل الرجل أن يطلب بعض مادفع ، وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى ، وذكريات العشرة فى لحظة الفراق الأسيف !

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملا آخر ، من لون آخر :

« وأخذن منكم ميثاقا غليظا » ..

هو ميثاق النكاح ، باسم الله ، وعلى سنة الله .. وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن ؛ وهو يخاطب الذين آمنوا ، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ .

وفى نهاية هذه الفقرة يحرم تحريما باتا ـ مع التفظيع والتبشيع ـ أن ينكح الأبناء مانكح آباؤهم من النساء . وقد كان ذلك فى الجاهلية حلالا . وكان سببا من أسباب عضل النساء أحيانا ، حتى يكبر الصبى فيتزوج امرأة أبيه ، أو إن كان كبيرا تزوجها بالوراثة كما يورث الشىء! فجاء الإسلام يحرم هذا الأمر أشد التحريم :

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ـ إلا ماقد سلف ـ إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات ـ وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل حكمة التشريع ، ولا يتوقف خضوعنا له ، وتسليمنا به ، ورضاؤنا إياه على إدراكنا أو عدم إدراكنا لهذه الحكمة ، فحسبنا أن الله قد شرعه ، لنستيقن أن وراءه حكمة ، وأن فيه المصلحة .

نقول : يبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات : الأول أن امرأة الأب فى مكان

Marfat.com

Marfat.com

الأم . والثانى : ألا يخلف الابن أباه ؛ فيصبح فى خياله ندا له . وكثيرا مايكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا ، فيكره أباه ويمقته ! والثالث : ألاتكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب . الأمر الذى كان سائدا فى الجاهلية . وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء . وهما من نفس واحدة ، ومهانة أحدهما مهانة للآخر بلا مراء .

لهذه الاعتبارات الظاهرة ـ ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا ـ جعل هذا العمل شنيعا غاية الشناعة . . جعله فاحشة . وجعله مقتا : أى بغضا وكراهية . وجعله سبيلا سيئا .. إلا ما كان قد سلف منه فى الجاهلية ، قبل أن يرد فى الإسلام تحريمه . فهو معفو عنه . متروك أمره لله سبحانه ..

* * *

والفقرة الثالثة فى هـذا الدرس ، تتناول سائر أنواع المحرمات من النساء . وهى خطوة فى تنظيم الأسرة ، وفى تنظيم المجتمع على السواء :

« حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ـ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ـ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين ـ إلا ماقد سلف ـ إن الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم ـ كتاب الله عليكم ـ وأحل لكم ماوراء ذلكم ... » ..

والمحارم ـ أى اللواتى يحرم الزواج منهن ـ معروفة فى جميع الأمم ، البدائية والمترقية على السواء . وقد تعددت أسباب التحريم ، وطبقات المحارم عند شتى الأمم ، واتسعت دائرتها فى الشعوب البدائية ، ثم ضاقت فى الشعوب المترقية .

والمحرمات فى الإسلام هى هذه الطبقات المبينة فى هذه الآية والآية التى قبلها ، والآية التى بعدها .. وبعضها محرمة تحريما مؤبدا ، وبعضها محرمة تحريما مؤقتا .. وبعضها بسبب النسب ، وبعضها بسبب الرضاعة ، وبعضها بسبب المصاهرة .

وقد ألغى الإسلام كل أنواع القيود الأخرى ، التى عرفتها المجتمعات البشرية الأخرى . كالقيود التى ترجع إلى اختلاف الأجناس البشرية وألوانها وقومياتها . والقيود التى ترجع إلى اختلاف الطبقات ومقاماتها الاجتماعية فى الجنس الواحد والوطن الواحد [1] ..

والمحرمات بالقرابة فى شريعة الإسلام أربع طبقات :

أولاها : أصوله مهما علوا . فيحرم عليه التزوج من أمه وجداته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون : « حرمت عليكم أمهاتكم » ..

وثانيتها : فروعه مهما نزلوا . فيحرم عليه التزوج ببناته وبنات أولاده ذكورهم وإناثهم مهما نزلوا : « وبناتكم » ..

وثالثتها : فروع أبويه مهما نزلوا . فيحرم عليه التزوج بأخته وببنات إخوته وأخواته وببنات أولاد إخوته وأخواته : « وأخواتكم ... وبنات الأخ ، وبنات الأخت » ..

ورابعتها : الفروع المباشرة لأجداده . فيحرم عليه التزوج بعمته وخالته ، وعمة أبيه وعمة جده لأبيه أو أمه ، وعمة أمه وعمة جدته لأبيه أو أمه .. « وعماتكم وخالاتكم » .. أما الفروع غير المباشرة للأجداد فيحل الزواج بهم. ولذلك يباح التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات وأولاد الأخوال والخالات .

والمحرمات بالمصاهرة خمس :

١ ـ أصول الزوجة مهما علون . فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته ، وجداتها من جهة أبيها أو من جهة أمها مهما علون . ويسرى هذا التحريم بمجرد العقد على الزوجة : سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل : « وأمهات نسائكم » ..

٢ ـ فروع الزوجة مهما نزلن . فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته، وبنات أولادها، ذكورا كانوا أم إناثا مهما نزلوا . ولا يسرى هذا التحريم إلا بعد الدخول بالزوجة : « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن . فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم » ..

---

(١) راجع كتاب : « الأسرة والمجتمع » للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٦ ـ ص ٥٦ .

Marfat.com

٣ ـ زوجات الأب والأجداد من الجهتين ـ مهما علوا ـ فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه ، وزوجة أحد أجداده لأبيه أو أمه مهما علوا .. « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف » .. أى ماسلف فى الجاهلية من هذا النكاح وقد كانت تجيزه ..

٤ ـ زوجات الأبناء ، وأبناء الأولاد مهما نزلوا . فيحرم على الرجل الزواج بامرأة ابنه من صلبه ، وامرأة ابن ابنه ، أو ابن بنته مهما نزل : «وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم» .. وذلك إبطالا لعادة الجاهلية فى تحريم زوجة الابن المتبنى . وتحديده بابن الصلب . ودعوة أبناء التبنى إلى آبائهم ـ كما جاء فى سورة الأحزاب .

٥ ـ أخت الزوجة .. وهذه تحرم تحريما مؤقتا ، مادامت الزوجة حية وفى عصمة الرجل. والمحرم هو الجمع بين الأختين فى وقت واحد : « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف ».. أى ماسلف من هذا النكاح فى الجاهلية وقد كانت تجيزه ..

ويحرم من الرضاعة مايحرم من النسب والصهر . وهذه تشمل تسع محارم :

١ ـ الأم من الرضاع وأصولها مهما علون : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » .

٢ ـ البنت من الرضاع وبناتها مهما نزلن (وبنت الرجل من الرضاع هى من أرضعتها زوجته وهى فى عصمته) .

٣ ـ الأخت من الرضاع ، وبناتها مهما نزلن « وأخواتكم من الرضاعة » .

٤ ـ العمة والخالة من الرضاع (والخالة من الرضاع هى أخت المرضع. والعمة من الرضاع هى أخت زوجها) .

٥ ـ أم الزوجة من الرضاع (وهى التى أرضعت الزوجة فى طفولتها) وأصول هذه الأم مهما علون . ويسرى هذا التحريم بمجرد العقد على المرأة ـ كما فى النسب .

٦ ـ بنت الزوجة من الرضاع (وهى من كانت الزوجة قد أرضعتها قبل أن تتزوج بالرجل) وبنات أولادها مهما نزلوا . ولا يسرى هذا التحريم إلا بعد الدخول بالزوجة .

٧ ـ زوجة الأب أو الجد من الرضاع مهما علا (والأب من الرضاع هو من رضع الطفل من زوجته . فلا يحرم على هذا الطفل الزواج بمن أرضعته فحسب ، وهى أمه من

Marfat.com

الرضاع . بل يحرم عليه كذلك الزواج بضرتها التى تعتبر زوجة أبيه من الرضاع) .

٨ ـ زوجة الابن من الرضاع مهما نزل .

٩ ـ الجمع بين المرأة وأختها من الرضاع ، أو عمتها أو خالتها من الرضاع ، أو أية امرأة أخرى ذات رحم محرم منها من ناحية الرضاع [1] ..

والنوع الأول والثالث من هذه المحرمات ورد تحريمهما نصا فى الآية . أما سائر هـذه المحرمات فهى تطبيـق للحديث النبوى : « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » . . (أخرجه الشيخان) ..

* * *

هذه هى المحرمات فى الشريعة الإسلامية ، ولم يذكر النص علة للتحريم ـ لاعامة ولاخاصة ـ فكل ما يذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير ..

فقد تكون هناك علة عامة . وقد تكون هناك علل خاصة بكل نوع من أنواع المحارم . وقد تكون هناك علل مشتركة بين بعض المحارم .

وعلى سبيل المثال يقال :

إن الزواج بين الأقارب يضوى الذرية ، ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن استعدادات الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية . على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة ، تضاف استعداداتها الممتازة ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها .

أو يقال : إن بعض الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . وكذلك نظائرهن من الرضاعة . وأمهات النساء ، وبنات الزوجات ـ الربائب والحجور ـ يراد أن تكون العلاقة بهن علاقة رعاية وعطف ، واحترام وتوقير ، فلا تتعرض لما قد يجد فى الحياة الزوجية من خلافات تؤدى إلى الطلاق والانفصال ـ مع رواسب هذا الانفصال ـ فتخدش المشاعر التى يراد لها الدوام .

---

(١) التبست هـذه التفصيلات مما جاء فى كتاب الدكتور على عبـد الواحد وافى : « الأسرة والمجتمع » . .

Marfat.com

Marfat.com

أو يقال : إن بعض هذه الطبقات كالربائب فى الحجور ، والأخت مع الأخت، وأم الزوجة، وزوجة الأب . . لا يراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التى تحس أن ابنتها قد تزاحمها فى زوجها ، والبنت والأخت كذلك ، لا تستبقى عاطفتها البريئة تجاه بنتها التى تشاركها حياتها ، أو أختها التى تتصل بها ، أو أمها ، وهى أمها ! وكذلك الأب الذى يشعر أن ابنه قد يخلفه على زوجته . والابن الذى يشعر أن أباه الراحل أو المطلق غريم له ، لأنه سبقه على زوجته! ومثله يقال فى حلائل الأبناء الذين من الأصلاب، بالنسبة لما بين الابن والأب من علاقة لا يجوز أن تشاب !

أو يقال : إن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة ، ومدها إلى ما وراء رابطة القرابة . ومن ثم فلا ضرورة لها بين الأقارب الأقربين ، الذين تضمهم آصرة القرابة القريبة. ومن ثم حرم الزواج من هؤلاء لانتفاء الحكمة فيه ، ولم يبح من القريبات إلا من بعدت صلته ، حتى ليكاد أن يفلت من رباط القرابة [1] .

وأياً ما كانت العلة ، فنحن نسلم بأن اختيار الله لابد وراءه حكمة ، ولابد فيه مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا ، فإن هذا لا يؤثر فى الأمر شيئاً ، ولا ينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ ، مع الرضى والقبول . فالإيمان لا يتحقق فى قلب ، مالم يحتكم إلى شريعة الله ، ثم لا يجد فى صدره حرجا منها ويسلم بها تسليما .

* * *

ثم تبقى كلمة أخيرة عامة عن هذه المحارم ، ونص التشريع القرآنى المبين لها :

إن هذه المحرمات كانت محرمة فى عرف الجاهلية ـ فيما عدا حالتين اثنتين : مانكح الآباء من النساء ، والجمع بين الأختين . فقد كانتا جائزتين ـ على كراهة من المجتمع الجاهلى ..

ولكن الإسلام ـ وهو يحرم هذه المحارم كلها ـ لم يستند إلى عرف الجاهلية فى تحريمها . إنما حرمها ابتداء ، مستندا إلى سلطانه الخاص . وجاء النص : « حرمت عليكم أمهاتكم ... إلخ » ..

---

(١) كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » .

Marfat.com

والأمر فى هذا ليس أمر شكليات ؛ إنما هو أمر هذا الدين كله . وإدراك العقـدة فى هذا الأمر هو إدراك لهذا الدين كله ، وللأصل الذى يقوم عليه : أصل الألوهية وإخلاصها لله وحده . .

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنهما أخص خصائص الألوهية . فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله ـ وحده ـ هو الذى يحـل للناس ما يحل ، ويحرم على الناس ما يحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع فى هذا وذاك ، وليس لأحد أن يدعى هذا الحق . لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية !

ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلا بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء . فإذا جاء الإسلام إلى ما أحلت الجاهلية أو حرمت ، فهو يحـكم ابتداء ببطلانه كلية بطلانا أصليا ، ويعتبره كله غـير قائم . بما أنه صادر من جهة لا تملك إصداره ـ لأنها ليست إلها ـ ثم يأخـذ هو فى إنشاء أحكامه إنشاء . فإذا أحل شيئا كانت الجاهلية تحله ، أو حرم شيئا كانت الجاهلية تحرمه ، فهو ينشىء هذه الأحكام ابتداء . ولا يعتبر هذا منه اعتمادا لأحكام الجاهلية التى أبطلها كلها ، لأنها هى باطلة ، لم تصدر من الجهة التى تملك وحدها إصدار هذه الأحكام .. وهى الله ..

هذه النظرية الإسلامية فى الحل والحرمة تشمل كل شىء فى الحياة الإنسانية ، ولا يخرج عن نطاقها شىء فى هذه الحياة . . إنه ليس لأحد غير الله أن يحـل أو يحرم ، فى نـكاح ، ولا فى طعام ، ولا فى شراب ، ولا فى لباس ، ولا فى حركة ، ولا فى عمل ، ولا فى عقد ، ولا فى تعامل ، ولا فى ارتباط ، ولا فى عرف ، ولا فى وضع . . إلا أن يستمد سلطانه من الله ، حسب شريعة الله .

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئاً فى حياة البشر ـ كبر أم صغر ـ تصـدر أحكامها باطلة بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح المستأنف . وليس مجىء هذه الأحكام فى الشريعـة الإسلامية تصحيحا واعتمادا لما كان منها فى الجاهلية . إنما هو إنشاء مبتدأ لهذه الأحكام ، مستند إلى المصدر الذى يملك إنشاء الأحكام .

وهكذا أنشأ الإسلام أحكامه فى الحل والحرمة ، وهكذا أقام الإسلام أوضاعه وأنظمته . وهكذا نظم الإسلام شعائره وتقاليده . مستندا فى إنشائها إلى سلطانه الخاص .

لقد عنى القرآن بتقرير هذه النظرية ، وكرر الجدل مع الجاهليين فى كل ما حرموه وما حللوه . . عنى بتقرير المبدأ . فكان يسأل فى استنكار : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .. « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .. « قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير . . . إلخ » ..

وكان يردهم بهذه الاستنكارات إلى ذلك المبدأ الأساسى . وهو أن الذى يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده . وليس ذلك لأحد من البشر . . لا فرد ولا طبقة ولا أمة ، ولا الناس أجمعين .. إلا بسلطان من الله . وفق شريعة الله .. والتحليل والتحريم ـ أى الحظر والإباحة ـ هو الشريعة ، وهو الدين . فالذى يحلل ويحرم هو صاحب الدين الذى يدين الناس . فإن كان الذى يحرم ويحلل هو الله ، فالناس إذن يدينون لله ، وهم إذن فى دين الله . وإن كان الذى يحرم أو يحلل أحدا غير الله ، فالناس إذن يدينون لهذا الأحد ؛ وهم إذن فى دينه لا فى دين الله .

والمسألة على هذا الوضع هى مسألة الألوهية وخصائصها . وهى مسألة الدين ومفهومه . وهى مسألة الإيمان وحدوده .. فلينظر المسلمون فى أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر ؟ أين هم من الدين ؟ وأين هم من الإسلام . . إن كانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للإسلام !!!

انتهى الجزء الرابع يتلوه الجزء الخامس مبدوءا بقوله تعالى : والمحصنات من النساء

Marfat.com

Marfat.com

فی ظلال القرآن

بقلم

سید قطب

الجزء الخامس

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

نمضى مع سورة النساء فى هذا الجزء ، الذى يتضمن معظم أهداف السورة وموضوعاتها ، التى أجملنا الإشارة إليها فى مطالعها فى الجزء الرابع (١) .

ونجد فى هذا الجزء من الأهداف الأساسية للسورة والموضوعات الرئيسية عناصر كثيرة :

نجد فى الدرس الأول بقية من تنظيم شؤون الأسرة ؛ وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة ؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة فى جو الحياة الزوجية ؛ وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة ، والاستهتار بالحرمات ، ووهن الروابط العائلية .

كذلك نجد بقية من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية . تتناول العلاقات المالية والتجارية ، كما تتناول بعض أحكام الميراث ، وحقوق الملكية للجنسين فى المجتمع ..

وهذه التنظيمات وتلك تستهدف ـ كما قلنا فى مطالع السورة ـ نقل المجتمع المسلم من النظام الجاهلى إلى النظام الإسلامى للحياة ؛ ومحو الملامح الجاهلية المترسبة ، وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة ، والارتفاع بالجماعة المسلمة ـ التى التقطها المنهج الربانى من سفح الجاهلية ـ والمضى بها صعدا فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة .

ثم نجد فى الدرس الثانى عودة إلى تقرير أصول التصور الإسلامى ؛ تبين حد الإيمان وشرط الإسلام .. ليقوم هذا التقرير المستأنف قاعدة لبعض تنظيمات أخرى للتكافل الاجتماعى فى الجماعة . التكافل الذى يبدأ من أضيق الحدود فى الأسرة ، ثم يمتد ليشمل المحتاجين والضعاف فى الجماعة كلها . ومع الأمر بالبذل والتكافل نجد تقبيح البخل بالمال ، والاختيال بالثراء ، وكتمان النعمة ، والرياء فى الإنفاق .

---

(١) من ص ٢٠١ إلى ص ٢٢٩ من الجزء الرابع من هذه الطبعة المنقحة .

Marfat.com

Marfat.com

كما نجد فى هذا الدرس جانبا من التربية النفسية بالعبادة التى بدأ بها ، والتطهر لأدائها ، واعتبار الخمر دنسا لا يتفق مع حال العبادة .. وذلك كخطوة فى طريق تحريمها .. وفق المنهج التربوى الحكيم .

وفى الدرس الثالث نجد من موضوعات السورة الأساسية موقفا مع أهل الكتاب يتضمن كشفا لأهدافهم الخبيثة ونياتهم الماكرة بالجماعة المسلمة ، وبيانا لطبيعة كيدهم ومكرهم ، وتعجيبا من أمرهم ، واعتبارهم عدوا للمسلمين . وتهديدهم بسوء المصير والعذاب الأليم .

أما الدرس الرابع فيستهدف بيان معنى الدين ، وشرط الإيمان ، وحد الإسلام . بيانا حاسما جازما . يكشف عن طبيعة النظام الإسلامى ، ومنهج المسلمين فى الطاعة والاتباع والتلقى من الله وحده ، والتحاكم إلى منهج الله وحده ، واتباع حكم رسوله وطاعته .. كما يكشف عن تكاليف المسلمين فى الأرض فى أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، وإقامة منهج الله فى حياة الناس ـ باعتبار هذا كله شرطا لتحقق الإيمان ـ مع التعجيب من أمر الذين يدعون الإيمان ، ثم لا يحققون شرطه الأول من التحاكم إلى الله ورسوله ، مع الرضى والتسليم المطلق .. والتوكيد بعد التوكيد على أنه لا إيمان ـ مهما ادعاه المدعون ـ إلا بتحقق هذا الشرط الواضح الصريح .

ومن ثم نجد فى الدرس الخامس توجيه الجماعة المسلمة لحماية هذا المنهج الواضح بالقتال دونه ، والتنديد بالمعوقين والمنافقين الذين يبطئون عن الجهاد . واستجاشة الضمائر المؤمنة ، ببيان أهداف القتال ، لاستنقاذ الضعاف من المؤمنين من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وتمحيصهم بالحياة فى ظل ذلك المنهج الرفيع الكريم ، وبيان حقيقة الأجل والقدر ، لتطهير القلوب من الخوف والفزع .. وينتهى الدرس بأمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمضى إلى الجهاد ، ولو لم يجد إلا نفسه ! فلا مناص من المضى فيه للتمكين لهذا الدين ، وللمنهج الإلهى القويم .

وبمناسبة القتال نجد فى الدرس السادس بيانا للكثير من قواعد المعاملات الدولية ، بين المعسكر الإسلامى وشتى المعسكرات المناوئة له ، والمهادنة ، والمعاهدة ، فليس الأمر أمر قوة وبطش وغلب ، ولكنه أمر مواجهة للواقع مع إقامة الحدود المنظمة للعلاقات الإنسانية ، فى المعسكرات المختلفة الاتجاه ..

الجزء الخامس

وفى الدرس السابع نجد الحديث عن الجهاد بالأموال والأنفس،فى صدد التنديد بالقاعدين عن الهجرة فى دار الكفر ، حيث يفتنون عن دينهم ، بينما دار الإسلام قائمة ، ورايه الدين فيها عزيزة كريمة . . وينتهى هذا الدرس أيضا بالتحضيض للمؤمنين على القتال ، ومتابعة أعدائهم ، وعدم الوهن فى طلبهم . وبيان حقيقة موقف المؤمنين وموقف أعدائهم ، واختلاف وجهتهم ومصائرهم وجزائهم .

وفى الدرس الثامن نستشرف تلك القمة السامقة فى العدل الإسلامى ، فى قصة اليهودى الذى اتهم ظلما ، وقامت الشهادات الملفقة ضده ، فنزل القرآن من الملأ الأعلى يبرىء هـذا اليهودى .. مع كل ما كانت تكيده يهود للإسلام والمسلمين . ولكن العدل الإسلامى الإلهى هو العدل الذى لا يتأثر بالمودة أو الشنآن . وهو القمة السامقة التى لم تبلغ إليها البشرية قط إلا فى ظلال هذا المنهج الرفيع الفريد (١)

والدرس التاسع جولة مع الشرك والمشركين ؛ وخرافات الشرك وآثاره فى إنشاء الشعائر الضالة ، والتصورات السخيفة ! مع تصحيح الأوهام والأمانى الزائفة عن عدل الله . وتقرير الجزاء على أساس العمل لا الأمانى والأوهام . وتوكيد أن الإسلام هو وحده الدين ، وهو ملة إبراهيم .

ويعود الدرس العاشر إلى النساء ؛ وحقوقهن ـ وبخاصة اليتامى منهن ـ وحقوق المستضعفين من الولدان ـ وهو الموضوع الذى بدأت به السورة ـ وإلى الإجراءات التى يعالج بها موقف النشوز والإعراض من جانب الزوج . مع بيان حدود العدل المطلوب فى معاشرة الزوجات ، والذى لا تستقيم العشرة بدونه ، ويكون خيرا منها الفرقة ، عندما يتعذر الإصلاح ..

والتعقيب على هذه الأحكام المتعلقة بالأسرة ، والعدل فى المعاشرة يربط هذه الأحكام والتوجيهات بالله ، وملكيته للسماوات والأرض ؛ وقدرته على الذهاب بالناس واستبدال غيرهم بهم ـ فيدل على ضخامة الأمر ، وعلاقته بحقيقة الألوهية الهائلة .. ومن ثم يستجيش تقوى الله فى الضمائر ؛ ويستطرد إلى دعوة الذين آمنوا إلى العدل المطلق فى معاملاتهم كلها ، وفى أحكامهم

(١) يرجع إلى قصة ذلك اليهودى فى التمهيد للسورة فى الجزء الرابع ص ٢٢٨

Marfat.com

Marfat.com

جميعهـا .. على طريقة القرآن فى الاستطراد من القطـاع الضيق الخاص ، إلى المحيط الشامل العام .

ثم يجىء الدرس الأخير فى هذا الجزء . وهو يكاد يكون مقصورا على التنديد بالنفاق والمنافقين ؛ ودعوة المؤمنين إلى الإيمان الجاد الواضح المستقيم ؛ وتحذيرهم من الولاء لغير الجماعة المسلمة وقيادتها الخاصة ، ومن التهاون والتراخى فى دينهم مجاملة أو مراعاة للعلاقات الاجتماعية أوالمصلحية مع المنافقين وأعداء هذا الدين . فهذه سمة من سمات النفاق ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار . والمنافقون هم الذين يتولون الـكافرين .

ويختم الدرس ، ويختم الجزء معه بتقرير حقيقة مؤثرة عن صفة الله سبحانه ، وعلاقته بعباده ، والحـكمة فى عقابه للمنحرفين والضالين . وهو ـ سبحانه ـ لا حاجة به إلى عقاب مخاليقه لو آمنوا وشـكروا : « مايفعل الله بعذابكم إن شـكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » ..

وهو تعبير عجيب يوحى للقلب برحمة الله ، واستغنائه ـ سبحانه ـ عن تعذيب الناس ، لو استقاموا على منهجه ، وشـكروا فضله فى هذا المنهج ومنته .. ولـكنهم هم الذين يشترون العذاب لأنفسهم بالـكفر والجحود ، وما ينشئه الـكفر والجحود من فساد فى الأرض ، وفساد فى النفس ، وفساد فى الحياة .

* * *

وهكذا يضم الجزء جناحيه على هذا الحشد من الأهداف والموضوعات ، وعلى هذا المدى من الأشواط والأبعاد .. فنـكتفى فى التقديم له بهـذه الإشارات الخاطفة ، ريثما نستعرض النصوص فيما يلى بتوفيق الله ...

... « وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ـ إِلَّا مَا مَلَـكَتْ أَيْمَانُـكُمْ ـ كِتَابَ ٱللهِ عَلَيْـكُمْ ـ وَأُحِلَّ لَـكُم ـ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِـكُمْ ـ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِـكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . فَمَا

Marfat.com

اُسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ؛ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ - فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ؛ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ، وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ . ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً * يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ - إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ - وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً * وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ؛ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ؛ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا .

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ؛ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

فَعِظُوهُنَّ ، وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ، وَٱضْرِبُوهُنَّ ؛ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ ٱللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » ﴿٣٥﴾ .

هذا الدرس تكملة لما جاء فى هذه السورة عن تنظيم الأسرة ، على قواعد الفطرة ، ولا يعود السياق بعد ذلك إلا فى موضعين لبيان بعض الأحكام التكميلية فى هذا الموضوع الأساسى الهام ، الذى يترتب على تنظيمه جريان الحياة الإنسانية فى مجراها الفطرى الهادىء الصالح ، كما يترتب على انحرافها عنه فساد فى الأرض كبير .

وهذا الدرس يتضمن تكملة لبيان المحرمات من النساء . ثم يحدد الطريقة التى يحب الله أن يجتمع عليها الرجال والنساء فى مؤسسة الأسرة النظيفة . ويكشف عما فى هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف ، إلى جانب نظافتها وطهارتها . ويقرر القواعد التنظيمية التى تقوم عليها تلك المؤسسة الأساسية ، والحقوق والواجبات للقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها .

وإلى جانب هذا التنظيم فى الاسرة يتطرق إلى شىء من التنظيم لبعض علاقات المجتمع المسلم فى الأموال ؛ فيبين حقوق الرجال والنساء ، فى المال المكتسب ، وللال الموروث . وما يتبع كذلك فى تصفية ما كان من عقود التوارث بالولاء بين غير الأقارب .

ومما يلاحظ ـ بوجه عام ـ أن السياق يربط ربطا دقيقا بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان : وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله . وهى مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية ـ كما كررنا ذلك فى مطلع السورة ـ هو الحاكمية ، والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التى تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم .

Marfat.com

Marfat.com

والسياق ما ينى يكرر هـذا الارتباط الدقيق ؛ وينبه إلى هـذه الخاصية من خصائص الألوهية . ويكرر كذلك الإشارة إلى صدور هـذه التنظيمات عن العليم الحـكيم . . وهى إشارة ذات مغزى . . فالأمر فى هـذا المنهج الإلهى كله هو قبـل كل شىء أمر العلم الشامل الـكامل ، والحـكمة المدركة البصيرة . . هذه الخصائص الإلهية التى يفقدها الإنسان ، فلا يصلح بعدها أبدا لوضع المنهج الأساسى لحياة الإنسان ! ومن هنا شقوة الإنسان فى الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحـكيم ، وراح يخبط فى التيه بلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيرا مما يختاره الله !!!

والأمر الآخر الذى يؤكده سياق الدرس ويكرره : هو أن منهج الله هـذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة ، من المناهج التى يريدها البشر ويهوونها ، وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذى تـكلفه الحيـدة عنه عنتا ومشقة ، فوق ما تـكلفه من هبوط وارتـكاس[1] .

وسنرى ـ عند استعراض النصوص بالتفصيل ـ مصداق هذه الحقيقة فى واقع البشر التاريخى وهى حقيقة واضحة فى هذا الواقع ، لولا أن الهوى يطمس القلوب ، ويعمى العيون ، عندما ترين الجاهلية على القلوب والعيون !

* * *

« والمحصنات من النساء ـ إلا ما ملـكت أيمانـكم ـ كتاب الله عليـكم ـ وأحل لـكم ـ ما وراء ذلـكم ـ أن تبتغوا بأموالـكم محصنين غير مسافحين . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليـكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضـة . إن الله كان عليما حـكيما . ومن لم يستطع منـكم طولا أن ينـكح المحصنات المؤمنات فمما ملـكت أيمانـكم من فتياتـكم المؤمنات ـ والله أعلم بإيمانـكم بعضـكم من بعض ـ فانـكحوهن بإذن أهلهن ، و آتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ـ ذلك لمن خشى العنت منـكم ـ وأن

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الربانية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وفصل « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » .

* * *

لقد سبق فى نهاية الجزء الرابع بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية . وذلك فى قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ـ إلا ما قد سلف ـ إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ـ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ـ وحلائل أبنائكم ـ الذين من أصلابكم ـ وأن تجمعوا بين الأختين ـ إلا ما قد سلف ـ إن الله كان غفورا رحيما » .

أما هذه التكملة :

« والمحصنات من النساء . . . »

فتتعلق بالمحرمات لأنهن فى عصمة رجال آخرين . محصنات بالزواج منهم : فهن محرمات على غير أزواجهن ، لا يحل نكاحهن . . . وذلك تحقيقا للقاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى ، من قيامه على قاعدة الأسرة ، وجعلها وحدة المجتمع ، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ، ومن كل اختلاط فى الأنساب ، ينشأ من « شيوعية » الاتصال الجنسى ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة ، وتلوث المجتمع بها .

والأسرة القائمة على الزواج العلنى ، الذى تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان ـ وهو الحفظ والصيانة ـ هى أكمل نظام يتفق مع فطرة « الإنسان » وحاجاته الحقيقية ، الناشئة من كونه إنسانا ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية ـ وإن كانت تتضمن هذه الغاية فى ثناياها ـ ويحقق أهداف المجتمع الإنسانى ، كما يضمن لهذا

Marfat.com

المجتمع السلم المطمئنة : سلم الضمير . وسلم البيت . وسلم المجتمع فى نهاية المطاف (١) .

والملاحظ بصفة ظاهرة ، أن الطفل الإنسانى يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التى يحتاج إليها طفل أى حيوان آخر . كما أن التربية التى يحتاج اليها ليصبح قادرا على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية الترقية - التى يتميز بها الإنسان - تمتد إلى فترة طويلة أخرى .

وإذا كانت غاية الميل الجنسى فى الحيوان تنتهى عند تحقيق الاتصال الجنسى والتناسل والإكثار ، فإنها فى الإنسان لا تنتهى عند تحقيق هذا الهدف ، إنما هى تمتد إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى - بين الرجل والمرأة - ليتم إعداد الطفل الإنسانى لحماية نفسه وحفظ حياته ، وجلب طعامه وضرورياته ، كما يتم - وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية - تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة فى حياة المجتمع الإنسانى ، والمشاركة فى حمل تبعته من اطراد الترقى الإنسانى عن طريق الأجيال المتتابعة .

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هى المقوم الأول فى حياة الجنسين فى عالم الإنسان ؛ إنما هى مجرد وسيلة ركبتها الفطرة فيهما ليتم الالتقاء بينهما ويطول بعد الاتصال الجنسى للقيام بواجب المشاركة فى اطراد نمو النوع . ولم يعد « الهوى » الشخصى هو الحكم فى بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى . إنما الحكم هو « الواجب » . . . واجب النسل الضعيف الذى يجىء ثمرة للالتقاء بينهما ، وواجب المجتمع الإنسانى الذى يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذى يصبح معه قادرا على النهوض بالتبعة الإنسانية ، وتحقيق غاية الوجود الإنسانى .

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة ، هو النظام الوحيد الصحيح . كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذى تستمر معه هذه العلاقة . والذى يجعل « الواجب » لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى ، هو الحكم فى قيامها ، ثم فى

---

(١) تراجع بتوسع فصول : « سلام الضمير » و « سلام البيت » و « سلام المجتمع » من كتاب « السلام العالمى والإسلام » .

Marfat.com

استمرارها ، ثم فى معالجة كل مشكلة تقع فى أثنائها ، ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى .

وأى تهوين من شأن روابط الأسرة ، وأى توهين للأساس الذى تقوم عليه ـ وهو « الواجب » لإحلال « الهوى » المتقلب ، و « النزوة » العارضة ، و « الشهوة » الجامحة محله ، هى محاولة آثمة ، لا لأنها تشيع الفوضى والفاحشة والانحلال فى المجتمع الإنسانى فحسب ، بل كذلك لأنها تحطم هذا المجتمع ؛ وتهدم الأساس الذى يقوم عليه .

ومن هنا ندرك مدى الجريمة التى تزاولها الأقلام والأجهزة الدنسة ، المسخرة لتوهين روابط الأسرة ، والتصغير من شأن الرباط الزوجى ، وتشويهه وتحقيره ، للإعلاء من شأن الارتباطات القائمة على مجرد الهوى المتقلب ، والعاطفة الهائجة ، والنزوة الجامحة . وتمجيد هذه الارتباطات ، بقدر الحط من الرباط الزوجى !

كما ندرك مدى الحكمة والعمق فى قول عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لرجل أراد أن يطلق زوجته ، معللا ذلك بأنه لم يعد يحبها : « ويحك ! ألم تبن البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية ؟ وأين التذمم ؟ » . .مستمدا قولته هذه من توجيه الله سبحانه وتربية القرآن الكريم لتلك الصفوة المختارة من عباده : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .. وذلك للإمساك بالبيوت ـ ما أمكن ـ ومقاومة نزوات القلوب ، وعلاجها حتى تفىء ، وعدم بت هذه الصلة إلا حين تفلس المجادلات كلها ، رعاية للجيل الناشىء فى هذه البيوت ؛ وصيانة لها من هزات العاطفة المتقلبة ، والنزوة الجامحة ، والهوى الذاهب مع الريح !

وفى ظل هذه النظرة السامية العميقة ، تتبدى التفاهة والسطحية فيما ينعق به اليوم أولئك المأفون ، وهم يمجدون كل ارتباط إلا الارتباط الذى يحكم الواجب ، والذى يرعى أمانة الجنس البشرى كله ، وهى تنشئة أجيال تنهض بمقتضيات الحياة الإنسانية للترقية ، وتحكيم مصلحة هذه الأجيال ، لا مصلحة العواطف الوقتية الزائلة !

إن أقلاما دنسة رخيصة وأجهزة خبيثة لئيمة توحى لكل زوجة ينحرف قلبها قليلا عن

Marfat.com

Marfat.com

زوجها أن تسارع إلى خدين ؛ ويسمون ارتباطها بخدينها هذا « رباطا مقدسا »! بينما يسمون ارتباطها بذلك الزوج « عقد بيع للجسد » !

والله سبحانه يقول : فى بيان المحرمات من النساء : « والمحصنات من النساء » . . فيجعلهن « محرمات » .

هذا قول الله . وذلك قول اللائعين المسخرين لتحطيم هذا المجتمع ونشر الفاحشة فيه . . . « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

إن جهودا منظمة موجهة تبذل لإنشاء موازين وقيم وتصورات للمجتمع غير تلك التى يريدها الله . ولإقامة أسس للحياة والارتباطات غير تلك التى أقامها الله. ولتوجيه الناس والحياة وجهة غير التى قررها الله . . والموجهون لهذه الجهود يحسبون أنهم ينتهون إلى تحطيم قواعد المجتمع الإسلامى ، وتدمير حياة المسلمين فى الأوطان الإسلامية ، حتى لا تبقى أمامهم حواجز تصد أطماعهم القديمة فى هذه الأوطان ، بعد أن تنهار عقائدها ، وتنهار أخلاقها ، وتنهار مجتمعاتها . . ولكن الكارثة أبعد من هذا مدى . . إنها تحطيم قواعد المجتمع الإنسانى كله ـ لا المجتمع الإسلامى وحده ـ تحطيم قواعد الفطرة التى تقوم عليها حياة الإنسان . وحرمان المجتمع البشرى من العناصر التى تحمل أمانته الكبرى. أمانة الحياة الإنسانية المترقية. وذلك بحرمانه من الأطفال المؤهلين ـ فى جو الأسرة الهادىء ، المطمئن ، الآمن من عواصف الشهوات الجامحة ، والنزوات المتقلبة والهوى الذاهب مع الريح ـ للنهوض بأمانة الجنس البشرى كله . وهى شىء آخر غير مجرد التناسل الحيوانى ! وغير مجرد الالتقاء الشهوانى على أساس « العواطف » وحدها ، وتنحية « الواجب » المطمئن الثابت الهادىء !

وهكذا تحق اللعنة على الجنس البشرى كله ، إذ يحطم نفسه بنفسه ؛ ويدمر الجيل الحاضر منه مستقبل الأجيال القادمة . لتحقيق لذاته هو ، وشهواته هو ، وعلى الأجيال القادمة اللعنة . وتحق كلمة الله على الخارجين على كلمته وفطرته وتوجيهه . ويذوق الجنس البشرى كله وبال أمره . إلا أن يرحمه الله بالعصبة المؤمنة التى تقر كلمة الله ومنهجه فى الأرض ، وتأخذ بيد الناس إليها ؛ وتعصمهم من الشر الماحق الذى يهيئونه لأنفسهم بأيديهم . وهم يحسبون أنهم فقط إنما يحطمون

الأوطان الإسلامية ، لتنهار حواجزها بتلك الجهود للوجهة الخبيثة ! التى تتولاها أقلام وأجهزة من داخل هذه الأوطان ذاتها .

* * *

« والمحصنات من النساء ـ إلا ما ملكت أيمانكم .. » .

وهذا الاستثناء يتعلق بالسبايا اللواتى كن يؤخذن أسيرات فى حروب الجهاد الإسلامى وهن متزوجات فى دار الكفر والحرب . حيث تنقطع علاقاتهن بأزواجهن الكفار، بانقطاع الدار . ويصبحن غير محصنات . فلا أزواج لهن فى دار الإسلام . ومن ثم يكفى استبراء أرحامهن بحيضة واحدة ؛ يظهر منها خلو أرحامهن من الحمل . ويصبح بعدها نكاحهن حلالا ـ إن دخلن فى الإسلام ـ أو أن يباشرهن من غير عقد نكاح من يقمن فى سهمه، باعتبارهن ملك يمين . سواء أسلمن أم لم يسلمن .

ولقد سبق لنا فى الجزء الثانى من هذه الظلال ، بيان موقف الإسلام من مسألة الرق بجملتها [1] .. كذلك ورد بيان آخر عند تفسير قوله تعالى : « فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ؛ فإما منا بعد وإما فداء ؛ حتى تضع الحرب أوزارها » .. فى سورة « محمد » فى الجزء السادس والعشرين [2] فيرجع إليهما فى مواضعهما .

ونكتفى هنا بالقول : بأن للمسكر الإسلامى كان يعامل أعداءه فى مسألة استرقاق الأسرى فى الحرب كما يعاملونه من حيث مبدأ الرق ، ويفضلهم فى نوع معاملته للرقيق وفى اعتبار إنسانيته فضلا كبيراً . ولم يكن له بد من ذلك . حيث كان استرقاق الأسرى نظاما عالميا لا يملك الإسلام إبطاله من جانب واحد . وإلا كان الأسرى من المسلمين يصبحون رقيقا ؛ بينما الأسرى من الكفار يصبحون أحراراً . فترجح كفة للمسكرات الكافرة على المسكر الإسلامى ، وتطمع هذه المسكرات فى مهاجمته وهى آمنة مطمئنة من عواقب الهجوم ، بل، وهى رابحة غانمة !

---

(١) ص ١٧٠ ـ ص ١٧٢ من الطبعة الثانية المنقحة .

(٢) ص ٤٨ ـ ص ٥٤ من الطبعة الأولى

Marfat.com

Marfat.com

ومن ثم لم يكن بد من أن تكون هناك سبايا كوافر فى المجتمع المسلم . فكيف يصنع بهن ؟ إن الفطرة لا تكتفى بأن يأكلن ويشربن . فهناك حاجة فطرية أخرى لابد لهن من إشباعها وإلا التمسنها فى الفاحشة التى تفسد المجتمع كله وتدنسه ! ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات . لتحريم الارتباط الزوجى بين مسلم ومشركة [1] . فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات ـ بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن ، وانقطاع صلتهن بأزواجهن فى دار الكفر والحرب .

* * *

وقبل أن يمضى السياق القرآنى فى تقرير ما يحل بعد تلك المحرمات ، يربط بين أصل التحريم والتحليل ومصدر التحريم والتحليل . المصدر الذى ليس لغيره أن يحرم أو يحلل ؛ أو يشرع للناس شيئا فى أمور حياتهم جميعا :

« كتاب الله عليكم » ..

هذا عهد الله عليكم وميثاقه وكتابه . . فليست المسألة هوى يتبع ، أو عرفا يطاع ، أو موروثات بيئة تتحكم .. إنما هو كتاب الله وعهده وميثاقه . . فهذا هو المصدر الذى تتلقون منه الحل والحرمة ؛ وترعون ما يفرضه عليكم وما يكتبه ، وتطالبون بما كتب عليكم وماعهد إليكم كذلك .

ومما يلاحظ أن معظم المحرمات التى حرمها القرآن فى الآيات السابقة ، كانت محرمة فى الجاهلية ولم يكن يباح منها فى عرف الجاهلية إلا مانكح الآباء ، والجمع بين الأختين ـ على كره من العرف الجاهلى ذاته لنكاح زوجات الآباء . وقد كان يسمى عندهم « مقيتا » نسبة إلى المقت ! ولكن لما جاء القرآن يقرر حرمة هذه المحرمات ، لم يرجع فى تحريمها إلى عرف الجاهلية هذا ، إنما قال الله سبحانه : « كتاب الله عليكم » ..

هذه لمسة تقتضى الوقوف أمامها لبيان حقيقة الأصل الاعتقادى فى الإسلام ، وحقيقة الأصل الفقهى . فهذا البيان يفيدنا فى أمور كثيرة فى حياتنا الواقعية :

---

(١) لا يتحتم النكاح لإحلال السبية إذا دخلت فى الإسلام . ولكنه فقط يصير جائزا .

إن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذى يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله وإذنه . باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير . فكل مالم يقم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح المستأنف . فالجاهلية بكل ما فيها ـ والجاهلية هى كل وضع لا يستمد وجوده من ذلك الأصل الوحيد الصحيح ـ باطلة بطلانا أصليا . باطلة بكل تصوراتها وقيمها وموازينها وعرفها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها . والإسلام حين يسيطر على الحياة ويصرفها ، يأخذ الحياة جملة ، ويأخذ الأمر جملة ؛ فيسقط ابتداء كل أوضاع الجاهلية وكل قيمها ، وكل عرفها ، وكل شرائعها ؛ لأنها باطلة بطلاناً أصليا غير قابل للتصحيح المستأنف.. فإذا أقر عرفا كان سائدا فى الجاهلية ، فهو لا يقره بأصله الجاهلى ؛ مستندا إلى هذا الأصل . إنما هو يقرره ابتداء بسلطانه المستمد من أمر الله وإذنه . أما ذلك الذى كان فى الجاهلية فقد سقط ولم يعد له وجود من الناحية الشرعية .

كذلك حين يحيل الفقه الإسلامى على « العرف » فى بعض المسائل فهو يمنح العرف ابتداءً سلطانا من عنده هو ـ بأمر الله ـ فتصبح للعرف ـ فى هذه المسائل ـ قوة الشريعة ، استمدادا من سلطان الشارع ـ وهو الله ـ لا استمدادا من الناس ومن البيئة التى تواضعت على هذا العرف من قبل . فليس تواضع البيئة على هذا العرف هو الذى يمنحه السلطان . . كلا . . إنما الذى يمنحه السلطان هو اعتبار الشارع إياه مصدرا فى بعض المسائل . وإلا بقى على بطلانه الأصلى ، لأنه لم يستمد من أمر الله . وهو وحده مصدر السلطان . وهو يقول عما كانت الجاهلية تشرعه مما لم يأذن به الله : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » فيشير إلى أن الله وحده هو الذى يشرع . فهل لهم آلهة شرعت لهم ما لم يأذن به الله ؟

هذا الأصل الكبير ، الذى تشير إليه هذه اللمسة : « كتاب الله عليكم » تقرره وتؤكده النصوص القرآنية فى كل مناسبات التشريع ، فما من مرة ذكر القرآن تشريعا إلا أشار إلى المصدر الذى يجعل لهذا التشريع سلطانا . أما حين يشير إلى شرائع الجاهلية وعرفها وتصوراتها فهو يردفها غالبا بقوله : « ما أنزل الله بها من سلطان » لتحريرها من السلطان ابتداء ، وبيان علة بطلانها ، وهى كونها لم تصدر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح .

وهذا الأصل الذى نقرره هنا هو شئ آخر غير الأصل المعروف فى التشريع الإسلامى .

Marfat.com

من أن الأصل فى الأشياء الحل ، ما لم يرد بتحريمها نص . فكون الأصل فى الأشياء الحل ، إنما هو كذلك بأمر الله وإذنه . فهو راجع إلى الأصل الذى قررناه ذاته . إنما نحن نتحدث عما تشرعه الجاهلية لنفسها دون رجوع إلى ما شرعه الله . وهذا الأصل فيه البطلان جملة وكلية ، حتى يقرر شرع الله ما يرى تقريره منه من جديد ، فيكتسب منذ أن يرد فى شرع الله المشروعية والسلطان .

* * *

فإذا انتهى السياق من بيان المحرمات ، وربطها بأمر الله وعهده ، أخذ فى بيان المجال الذى يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم فى التزاوج ، والطريقة التى يحب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت ، وإقامة مؤسسات الأسرة ، والمتاع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد تليق بهذا الأمر العظيم :

« وأحل لكم ـ ماوراء ذلكم ـ أن تبتغوا بأموالكم .. محصنين غير مسافحين .. فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن ـ فريضة ـ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما » ..

ففيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح حلال ، وللراغبين فيه أن يبتغوا النساء ، بأموالهم ـ أى لأداء صداقهن ـ لا لشراء أعراضهن بالأموال من غير نكاح ! ومن ثم قال :

« محصنين غير مسافحين » . .

وجعلها قيدا وشرطا للابتغاء بالأموال ، قبل أن يتم الجملة ، وقبل أن يمضى فى الحديث . ولم يكتف بتقرير هذا القيد فى صورته الإيجابية المثبتة : « محصنين » بل أردفها بنفى الصورة الأخرى : « غير مسافحين » زيادة فى التوكيد والإيضاح ، فى معرض التشريع والتقنين .. ثم لكى يرسم صورة لطبيعة العلاقة الأولى التى يحبها ويريدها .. علاقة النكاح .. وصورة لطبيعة العلاقة الأخرى التى يكرهها وينفيها .. علاقة المخادنة أو البغاء .. وقد كانت هذه وتلك معروفة فى مجتمع الجاهلية ، ومعترفا بها كذلك من المجتمع !

Marfat.com

جاء فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ :

« إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذاطهرت من طمثها ـ أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون انعشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان . تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » (١) .

فالنوعان الثالث والرابع هما السفاح الذى ينص على نفيه ـ سواء منه المخادنة والبغاء ـ والأول هو الإحصان الذى ينص على طلبه .. أما الثانى فما ندرى كيف نسميه !!!

والقرآن يصور طبيعة النوع الذى يريده الله . . فهو إحصان . . هو حفظ وصيانة . . هو حماية ووقاية . . هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة . فى هذه القراءة « محصِنين » بصيغة اسم الفاعل ، وفى قراءة أخرى : « محصَنين » بصيغة اسم المفعول . وكلا المعنيين يتحقق فى هذه الصورة النظيفة القويمة العفيفة . وهو إحصان للبيت والأسرة والأطفال . إحصان لهذه المؤسسة التى تقوم على هذا الأساس ثابتة راسخة وطيدة .

والآخر : سفاح . . مفاعلة من السفح ، وهو إراقة الماء فى المنحدر الواطىء ! مسافحة يشترك فيها الرجل والمرأة ، فيريقان ماء الحياة ، الذى جعله الله لا متداد النوع ، ورقيه ، عن طريق اشتراك الرجل والمرأة فى إنجاب الذرية وتربيتها وحضانتها وصيانتها . فإذا هما يريقانه للذة

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح .

Marfat.com

العابرة ، والنزوة العارضة . يريقانه فى السفح الواطىء ! فلا يحصنهما من الدنس ، ولا يحصن الذرية من التلف ، ولا يحصن البيت من البوار !

وهكذا يرسم التعبير القرآنى صورتين كاملتين لنوعين من الحياة ؛ فى كلتين اثنتين . ويبلغ غايته من تحسين الصورة التى يرتضيها ، وتبشيع الصورة التى لا يرتضيها ، بينما هو يقرر حقيقة كل من الصورتين فى واقع الحياة . وذلك من بدائع التعبير فى القرآن(١) .

فإذا انتهى من هذا القيد للابتغاء بالأموال ، عاد ليقرر كيف يُبتغى بالأموال :

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » .

فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها . فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل ـ وهن ما وراء ذلكم من المحرمات ـ فالطريق هو ابتغاؤها للإحصان ـ أى عن طريق النكاح (الزواج) لا عن أى طريق آخر ـ وعليه أن يؤدى لها صداقها حتما مفروضا ، لا نافلة ، ولا تطوعا منه ، ولا إحسانا ، فهو حق لها عليه مفروض . وليس له أن يرثها وراثة بلا مقابل ـ كما كان يقع فى بعض الأحوال فى الجاهلية ـ وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع فى زواج الشغار فى الجاهلية . وهو أن يتزوج الرجل امرأة فى مقابل أن يدفع لوليها امرأة من عنده ! كأنهما بهيمتان ! أو شيئان !

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفريضته ، يدع الباب مفتوحا لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر :

« ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » .

فلا حرج عليهما فى أن تتنازل الزوجة عن مهرها ـ كله أو بعضه ـ بعد بيانه وتحديده . وبعد أن أصبح حقا لها خالصاً تتصرف فيه كما تتصرف فى سائر أموالها بحرية ـ ولا جناح عليهما فى أن يزيدها الزوج على المهر ، أو يزيدها فيه . فهذا شأنه الخاص . وهذا شأنهما معا يتراضيان عليه فى حرية وسماحة .

---

(١) يراجع كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فصل : « التناسق » وفصل « طريقة القرآن » . .

Marfat.com

ثم يجىء التعقيب . يربط هذه الأحكام بمصدرها ؛ ويكشف عما وراءها من العلم الكاشف ، والحكمة البصيرة :

« إن الله كان عليما حكيما » . .

فهو الذى شرع هذه الأحكام . وهو الذى شرعها عن علم وعن حكمة .. فيعرف ضمير المسلم من أين يتلقى الأحكام فى كل شأن من شئون حياته ـ وأخصها هذا الذى بينه وبين زوجه ـ ويطمئن إلى ما يتلقاه من هذه الأحكام ، الصادرة عن العلم وعن الحكمة « إن الله كان عليما حكيما » . . .

* * *

فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له فى الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشى المشقة ؛ أو خشى الفتنة :

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات من النساء ، فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ـ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ـ فانكحوهن بإذن أهلهن ؛ وآتوهن أجورهن بالمعروف ـ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ـ فإذا أحصن . فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشى العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم » .

إن هذا الدين يتعامل مع « الإنسان » فى حدود فطرته ، وفى حدود طاقته . وفى حدود واقعه ، وفى حدود حاجاته الحقيقية . . وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية ، بل يلبيها كلها وهو فى طريقه إلى المرتقى الصاعد . . إنه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذى لا فكاك منه . فواقع الجاهلية هابط ، وقد جاء الإسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع ! إنما هو يعتبر واقع « الإنسان » فى فطرته وحقيقته . . واقتدار الإنسان على الترقى واقع من هذا الواقع .. فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه فى وحل الجاهلية . . أية جاهلية . . فمن الواقع كذلك مقدرته

Marfat.com

Marfat.com

ـ بما ركب فى فطرته ـ على الصعود والتسامى عن ذلك الوحل أيضاً ! والله ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم « واقع الإنسان » كله ، لأنه يعلم « حقيقة الإنسان » كلها . هو الذى خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه . . « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

وقد كان فى المجتمع المسلم الأول رقيق يتخلف من الحروب ؛ ريثما يتم تدبير أمره . . إما بإطلاق سراحه امتنانا عليه بلا مقابل . وإما فداء مقابل إطلاق سراح أسارى المسلمين ، أو مقابل مال ـ حسب الملابسات والظروف المنوعة فيما بين المسلمين وأعدائهم المحاربين ـ وقد عالج الإسلام هذا الواقع بإباحة مباشرة ملك اليمين ـ كما جاء فى الآية السابقة ـ لمن هن ملك يمينه . لمواجهة واقع فطرتهن كما أسلفنا . مباشرتهن إما بزواج منهن ـ إن كن مؤمنات ـ أو بغير زواج ، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن فى دار الحرب ، بحيضة واحدة . . ولكنه لم يبح لغير سادتهن مباشرتهن إلا أن يكون ذلك عن طريق الزواج . لم يبح لهن أن يبعن أعراضهن فى المجتمع لقاء أجر ؛ ولا أن يسرحهن سادتهن فى المجتمع يزاولن هذه الفاحشة لحسابهم كذلك !

وفى هذه الآية ينظم طريقة نكاحهن والظروف المبيحة لهذا النكاح :

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . .

إن الإسلام يؤثر الزواج من حرة فى حالة الطول ـ أى القدرة على نكاح الحرة ـ ذلك أن الحرة تحصنها الحرية ؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها ، وكيف تصون حرمة زوجها . فهن « محصنات » هنا ـ لا بمعنى متزوجات ، فقد سبق تحريم نكاح المتزوجات ـ ولكن بمعنى حرائر ، محصنات بالحرية ؛ وما تسبغه على الضمير من كرامة ، وما توفره للحياة من ضمانات . فالحرة ذات أسرة وبيت وحماية لها من يكفيها ، وهى تخشى العار ، وفى نفسها أنفة وفى ضميرها عزة ، فهى تأبى السفاح والانحدار . ولا شىء من هذا كله لغير الحرة . ومن ثم فهى ليست محصنة ، وحتى إذا تزوجت ، فإن رواسب من عهد الرق تبقى فى نفسها ، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التى للحرة . فضلا على أنه ليس لها شرف عائلى تخشى تلويثه . . مضافا إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر .

Marfat.com

فتطلق بهم هجنة الرق فى صورة من الصور . . وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة فى المجتمع الذى تشرع له هذه الآية . .

لهذه الاعتبارات كلها آثر الإسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر ، إذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر . وجعل الزواج من غير الحرة رخصة فى حالة عدم الطول . مع المشقة فى الانتظار .

ولكن إذا وجدت المشقة ، وخاف الرجال العنت . عنت المشقة أو عنت الفتنة . فإن الدين لايقف أمامهم يذودهم عن اليسر والراحة والطمأنينة . فهو يحل ـ إذن ـ الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتى فى ملك الآخرين .

ويعين الصورة الوحيدة التى يرضاها للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر ، وهى ذاتها الصورة التى رضيها من قبل فى زواج الحرائر :

فأولا يجب أن يكن مؤمنات :

« فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . .

وثانيا : يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن . فهذا حقهن الخالص .

« فآتوهن أجورهن » .

وثالثا : يجب أن تكون هذه الأجور فى صورة صداق : وأن يكون الاستمتاع بهن فى صورة نكاح . لا مخادنة ولا سفاح : والمخادنة أن تكون لواحد . والسفاح أن تكون لكل من أراد .

« محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

وقد كان المجتمع إذ ذاك يعرف هذه الأنواع من الاتصال الجنسى بين الحرائر كما سلف من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما كان يعرف كذلك بين غير الحرائر أنواعا من البغاء : وقد كان سادة من أشراف القوم يرسلون رقيقاتهم يكسبن بأجسامهن فى هذا السبيل القذر ، لحساب سادتهن . وكان لعبد الله ابن أبى ابن سلول ـ رأس المنافقين فى المدينة وهو من سادة قومه ـ أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل ! وكانت هذه بقايا أوحال الجاهلية ، التى جاء الإسلام ليرفع العرب منها ، ويطهرهم ويزكيهم ، كما يرفع منها سائر البشرية كذلك !

Marfat.com

وكذلك جعل الإسلام طريقا واحدة للمعاشرة بين الرجال الأحراو وهؤلاء « الفتيات » ، هى طريق النكاح ، الذى تتخصص فيه امرأة لرجل لتكوين بيت وأسرة ، لا الذى تنطلق فيه الشهوات انطلاق البهائم . وجعل الأموال فى أيدى الرجال لتؤدى صداقا مفروضا ، لا لتكون أجرا فى مخادنة أو سفاح : . وكذلك طهر الإسلام هذه العلاقات حتى فى دنيا الرقيق من وحل الجاهلية ، الذى تتلبط فيه البشرية كلما ارتكست فى الجاهلية ! والذى تتلبط فيه اليوم فى كل مكان ، لأن رايات الجاهلية هى التى ترتفع فى كل مكان ، لاراية الإسلام !

ولكن ـ قبل أن نتجاوز هذا الوضع من الآية ـ ينبغى أن نقف أمام تعبير القرآن عن حقيقة العلاقات الإنسانية التى تقوم بين الأحرار والرقيق فى المجتمع الإسلامى ، وعن نظرة هذا الدين إلى هذا الأمر عندما واجهه المجتمع الإسلامى . إنه لا يسمى الرقيقات : رقيقات . ولا جوارى . ولا إماء . إنما يسميهن « فتيات » .

« فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . .

وهو لايفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنسانى ـ كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة فى الأرض كلها يومذاك ـ إنما يذكر بالأصل الواحد ، ويجعل الآصرة الإنسانية والآصرة الإيمانية هما محور الارتباط :

« والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض » . .

وهو لا يسمى من هن ملك لهم سادة . إنما يسميهم « أهلا » :

« فانكحوهن بإذن أهلن » .

وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها . فمهرها إنما هو حق لها . لذلك يخرج من قاعدة أن كسبها كله له . فهذا ليس كسبا ، إنما هو حق ارتباطها برجل :

« فآتوهن أجورهن » . .

وهو يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراض بثمن من المال ، إنما هو النكاح والإحصان :

« محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » . .

وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لإنسانية هؤلاء الفتيات ، حتى وهن فى هذا الوضع ، الذى اقتضته ملابسات وقتية ، لا تطعن فى أصل الكرامة الإنسانية .

Marfat.com

وحين يقاس هذا التكريم إلى ما كان سائدا فى جاهلية الأرض كلها يومذاك من النظرة إلى الرقيق ، وحرمانه حق الانتساب إلى « إنسانية » السادة ! وسائر الحقوق التى تترتب على هذه « الإنسانية » . . يبدو مدى النقلة التى نقل الإسلام إليها كرامة « الإنسان » وهو يرعاها فى جميع الأحوال ، بغض النظر عن الملابسات الطارئة التى تحد من أوضاع بعض الأناسى ، كوضع الاسترقاق .

ويبدو مدى النقلة البعيدة حين يقاس صنيع الإسلام هذا ، وتنظيمه لأوضاع هذه الحالة الطارئة بما تصنعه الجيوش الفاتحة فى هذه الجاهلية الحديثة بنساء وفتيات البلاد المفتوحة . وكلنا يعرف حكاية « الترفيه » أو قصة الوحل الذى تلغ فيه جيوش الجاهلية الفاتحة فى كل مكان ! وتخلفه وراءها للمجتمع حين ترحل يعانى منه السنوات الطوال !

ثم يقرر الإسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد إحصانها بالزواج، واضعا فى حسابه واقعها وظروفها التى تجعلها أقرب إلى السقوط فى الفاحشة ، وأضعف فى مقاومة الإغراء من الحرة ، مقدرا أن الرق يقلل من الحصانة النفسية ، لأنه ينقص من الشعور بالكرامة ، والشعور بشرف العائلة ـ وكلاهما شعور يثير الإباء فى نفس الحرة ـ كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، واختلافها بين الحرة والأمة، وأثرها فى جعل هذه أكثر تسامحا فى عرضها ، وأقل مقاومة لإغراء المال وإغراء النسب ممن يراودها عن نفسها ! يقدر الإسلام هذا كله فيجعل حد الأمة ـ بعد إحصانها ـ نصف حد الحرة المحصنة بالحرية قبل زواجها.

« فإذا أحصن . فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »

ومفهوم أن النصف يكون من العقوبة التى تحتمل القسمة . وهى عقوبة الجلد . ولا يكون فى عقوبة الرجم . إذ لا يمكن قسمتها ! فإذا زنت الجارية المؤمنة المتزوجة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة البكر . أما عقوبة الجارية البكر فمختلف عليها بين الفقهاء . هل تكون هذا الحد نفسه ـ وهو نصف ما على الحرة البكر ـ ويتولاه الإمام ؟ أم تكون تأديبا يتولاه سيدها ودون النصف من الحد ؟ وهو خلاف يطلب فى كتب الفقه .

أما نحن ـ فى ظلال القرآن ـ فنقف أمام مراعاة هذا الدين لواقع الناس وظروفهم ، فى الوقت الذى يأخذ بأيديهم فى المرتقى الصاعد النظيف .

الجزء الخامس

إن هذا الدين يأخذ فى اعتباره ـ كما قلنا ـ واقع الناس ، دون أن يدعهم يتلبطون فى الوحل باسم هذا الواقع !

وقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات . تجعل الواحدة ـ ولو كانت متزوجة ـ أضعف من مقاومة الإغراء والوقوع فى الخطيئة . فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة . ولكن كذلك لم يجعل لهذا الواقع كل السلطات ، فيعفيها نهائيا من العقوبة .

قوام وسط . يلحظ كل المؤثرات وكل الملابسات .

كذلك لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سببا فى مضاعفة العقوبة ، كما كانت قوانين الجاهلية السائدة فى الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية : أو مع الوضعاء والأشراف تخفف عن الأشراف ، وتقسو على الضعاف .

كان المعمول به فى القانون الرومانى الشهير أن تشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة . فكان يقول: « ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته ـ إن كان من بيئة كريمة ـ مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض »(١)

وكان المعمول به فى القانون الهندى الذى وضعه « منو » وهو القانون المعروف باسم «منو شاستر» أن البرهمى إن استحق القتل ، فلا يجوز للحاكم إلا أن يحلق رأسه . أما غيره فيقتل ! وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمى يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ... الخ (٢)

وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد(٣)

وجاء الإسلام ليضع الحق فى نصابه ؛ وليأخذ الجانى بالعقوبة ، مراعيا جميع اعتبارات « الواقع » . وليجعل حد الأمة ـ بعد الإحصان ـ نصف حد الحرة قبل الإحصان . فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ، ويجعل إرادتها ماغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف . فهذا خلاف الواقع . ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة ـ وواقعها يختلف عن واقع الحرة . ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الأشراف !!!

---

(١) مدونة جوستنيان ترجمة عبد العزيز فهمى
(٢) كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى
(٣) رواه الخمسة

Marfat.com

Marfat.com

وما تزال الجاهلية الحديثة فى أمريكا وفى جنوب أفريقية وفى غيرها تزاول هذه التفرقة العنصرية : وتغفر للأشراف « البيض » ما لا تغفره للضعاف « الملونين» والجاهليةهى الجاهلية حيث كانت . والإسلام هو الإسلام .. حيث كان ..

ثم تنتهى الآية ببيان أن الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فمن استطاع الصبر ـ فى غير مشقة ولا فتنة ـ فهو خير . لما أسلفناه من الملابسات التى تحيط بالزواج من الإماء :

« ذلك لمن خشى العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم » . .

إن الله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم فى الفتنة . وإذا كان دينه الذى اختاره لهم ، يريد منهم الاستعلاء والارتفاع والتسامى ، فهو يريد منهم هذا كله فى حدود فطرتهم الإنسانية،وفى حدود طاقتهم الكامنة ، وفى حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك . . ومن ثم فهو منهج ميسر ، يلحظ الفطرة ، ويعرف الحاجة ، ويقدر الضرورة . كل ماهنالك أنه لا يهتف للهابطين بالهبوط ، ولا يقف أمامهم ـ وهم غارقون فى الوحل ـ يبارك هبوطهم، ويمجد سقوطهم . أو يعفيهم من الجهد فى محاولة التسامى، أو من التبعة فى قلة مقاومة الإغراء !

وهو هنا يهيب بالصبر حتى تتهيأ القدرة على نكاح الحرائر ؛ فهن أولى أن تصان نفوسهن بالزواج ، وأن تقوم عليهن البيوت ، وأن ينجبن كرام الأبناء ، وأن يحسن الإشراف على الجيل الناشىء ، وأن يحفظن فراش الأزواج .. فأما إذا خشى العنت : عنت المشقة عند الصبر ، وعنت الفتنة التى لا تقاوم ، فهناك الرخصة ، والمحاولة لرفع مستوى الإماء ، بذلك التكريم الذى يضفيه عليهن . فهن « فتياتكم » وهم « أهلهن » . والجميع بعضهم من بعض يربطهم الإيمان . والله أعلم بالإيمان . ولهن مهورهن فريضة . وهو نكاح لا مخادنة ولا سفاح .. وهن مسؤولات إن وقعن فى الخطيئة .. ولكن مع الرفق والتخفيف ومراعاة الظروف :

« والله غفور رحيم » ..

يعقب بها على الاضطرار لنكاح غير الحرائر . ويعقب بها على تخفيف عقوبة الإماء . .

Marfat.com

وهى فى موضعها المناسب عقب هذه وتلك . فمغفرة الله ورحمته وراء كل خطيئة ، ووراء كل اضطرار .

* * *

ثم يجىء التعقيب الشامل على تلك الأحكام ؛ وعلى تلك التنظيمات التى شرعها الله للأسرة فى المنهج الإسلامى ، ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية ؛ وليرفع بها مستواه النفسى والخلقى والاجتماعى إلى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التى رفعه إليها . يجىء التعقيب ليكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة مايريده الله لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات ؛ وعن حقيقة مايريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله :

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » ..

إن الله ـ سبحانه ـ يتلطف مع عباده ؛ فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على مافى المنهج الذى يريده لحياتهم من خير ويسر . إنه يكرمهم ـ سبحانه ـ وهو يرفعهم إلى هذا الأفق . الأفق الذى يحدثهم فيه ، ليبين لهم حكمة مايشرعه لهم ؛ وليقول لهم : إنه يريد أن يبين لهم ..

« يريد الله ليبين لكم » ..

يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة . وأن تتدبروها ، وأن تقبلوا عليها مفتوحى الأعين والعقول والقلوب ؛ فهى ليست معميات ولا ألغازا ؛ وهى ليست تحكما لا علة له ولا غاية ؛ وأنتم أهل لإدراك حكمتها : وأهل لبيان هذه الحكمة لكم .. وهو تكريم للإنسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية : فيدركون مدى هذا التلطف الكريم .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ..

فهذا المنهج هو منهج الله الذى سنه للمؤمنين جميعا . وهو منهج ثابت فى أصوله ، موحد

Marfat.com

فى مبادئه ، مطرد فى غاياته وأهدافه .. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد . ومنهج الأمة الواحدة التى يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون .

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله فى كل زمان ومكان ؛ ويكشف عن وحدة منهج الله فى كل زمان ومكان ؛ ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيمانى الموصول ، فى الطريق اللاحب الطويل . وهى لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه .. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهى ، على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الأوطان والألوان ؛ وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين فى كل جيل ، ومن كل قبيل .

« ويتوب عليكم » . . .

فهو ـ سبحانه ـ يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم . . . ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه . . .

« والله عليم حكيم » . . .

فمن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات . ومن العلم والحكمة تجىء هذه التوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة فى طبيعة المنهج وفى تطبيقاته على السواء . . .

* * *

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » ..

وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله ـ وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات ـ فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .

فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشرع لهم سنته ؟ إنه يريد أن يتوب عليهم .

Marfat.com

يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامى فى المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة .

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، ولم يشرعها لعباده ؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم .

وفى هذا الميدان الخاص الذى تواجهه الآيات السابقة : ميدان تنظيم الأسرة ؛ وتطهير المجتمع ؛ وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التى يحب الله أن يلتقى عليها الرجال والنساء : وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها فى القلوب والعيون . . فى هذا الميدان الخاص ما الذى يريده الله وما الذى يريده الذين يتبعون الشهوات ؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة فى السورة . وفيها إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال .

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : دينى ، أو أخلاقى ، أو اجتماعى . . يريدون أن ينطلق السعار الجنسى المحموم بلا حاجز ولا كابح من أى لون كان . السعار المحموم الذى لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية ، وهى — فى هذا الوضع — ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة !

وهذا هو الميل العظيم الذى يحذر الله المؤمنين إياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات . وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية فى هذا المجال الأخلاقى ، الذى تفوقوا فيه وتفردوا بفضل المنهج الإلهى القويم النظيف . وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقى من الحواجز فى المجتمع دون الانطلاق البهيمى ، الذى لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة فى الأرض إن شاء الله .

* * *

Marfat.com

واللمسة الأخيرة فى التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفى الحرج والمشقة والضرر والضرار .

« يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » . .

فأما فى هذا المجال الذى تستهدفه الآيات السابقة ، وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات ، فإرادة التخفيف واضحة ؛ تتمثل فى الاعتراف بدوافع الفطرة ، وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها فى المجال الطيب المأمون الثمر ، وفى الجو الطاهر النظيف الرفيع ؛ دون أن يكلف الله عباده عنتا فى كبتها حتى المشقة والفتنة ؛ ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون فى الاستجابة لها بغير حد ولا قيد .

وأما فى المجال العام الذى يمثله المنهج الإلهى لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ؛ بمراعاة فطرة الإنسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ؛ وإطلاق كل طاقاته البانية . ووضع السياج الذى يقيها التبدد وسوء الاستعمال !

وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة فى علاقات الجنسين ـ شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير . . . فإطلاق الشهوات من كل قيد ؛ وتحرى اللذة ـ واللذة وحدها ـ فى كل تصرف ؛ وإقصاء « الواجب » الذى لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هى الحكم الأول والأخير ؛ وقصر الغاية من التقاء الجنسين فى عالم الإنسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء فى عالم البهائم ؛ والتجرد فى علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقى ، ومن كل التزام اجتماعى . . إن هذه كلها تبدو يسرا وراحة وانطلاقا . ولكنها فى حقيقتها مشقة وجهد وثقلة . وعقابيلها فى حياة المجتمع ـ بل فى حياة كل فرد ـ عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة . .

والنظر إلى الواقع فى حياة المجتمعات التى « تحررت ! » من قيود الدين والأخلاق والحياء فى هذه العلاقة ، يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب . لو كانت هنالك قلوب !

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة . حطم الحضارة

الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة فى انهيارات فرنسا التى سبقت فى هذه الفوضى ؛ وبدأت هذه الآثار تظهر فى أمريكا والسويد وانجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة .

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى فى فرنسا مبكرة ، مما جعلها تركع على أقدامها فى كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم ، وهى فى طريقها إلى الانهيار التام ، كما تدل جميع الشواهد. وهذه بعض الأمارات التى أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى :

« إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم: اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم ؛ وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب فى المتطوعة للجند الفرنسى ، على فترة كل بضع سنين . لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر فى الأمة على مسير الأيام . . وهذا مقياس أمين ، يدلنا كدلالة مقياس الحرارة ـ فى الصحة والتدقيق ـ على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية (١) . ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال: الأمراض السرية الفتاكة. يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل ، وتبعث بهم إلى المستشفيات ، فى السنتين الأوليين من سنى الحرب العالمية الأولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهرى، خمسة وسبعين ألفا . وابتلى بهذا المرض وحده ٢٤٢ جنديا فى آن واحد فى ثكنة متوسطة . وتصور ـ بالله ـ حال هذه الأمة البائسة فى الوقت الذى كانت فيه ـ بجانب ـ فى المضيق الحرج بين الحياة والموت، فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين ، لسلامتها وبقائها . وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر ؛ وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل فى سبيل الدفاع . وكان ـ بجانب آخر ـ أبناؤها الشباب

(١) مثل ذلك يقع الآن فى أمريكا حيث لا يصلح للجندية ستة ممن كل سبعة ممن هم فى سن التجنيد . وسنة الله لا تتخلف .

Marfat.com

الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع ، من جراء انغماسهم فى اللذات ؛ وما كفى أمتهم ذلك خسرانا ، بل ضيعوا جانبا من ثروة الأمة ووسائلها فى علاجهم ، فى تلك الأوضاع الحرجة .

« يقول طبيب فرنسى نطاسى يدعى الدكتور ليريه : إنه يموت فى فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهرى ، وما يتبعه من الأمراض الكثيرة فى كل سنة . وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق» . وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التى فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى » (١)

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير : ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسى ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد ، لا تدع مجالا لتكوين الأسرة ، ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسى العابر . ومن ثم يقل الزواج ، ويقل التناسل ، وتتدحرج فرنسا منحدرة إلى الهاوية .

« سبعة أو ثمانية فى الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون فى فرنسا اليوم ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التى لا تتزوج من أهاليها . ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج ، قل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض . حتى إنه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذى قد ولدته أمه قبل النكاح ! ويتخذوه ولدا شرعيا ! فقد كتب « بول بيودو » : من العادة الجارية فى طبقة العاملين فى فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا قبل أن يعقد بينهما النكاح ، أن الرجل سيتخذ ولدها الذى ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له . وجاءت امرأة فى محكمة الحقوق بمدينة سين (Siene) فصرحت : إننى كنت قد آذنت بعلى عن النكاح بأنى لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالى به قبل النكاح . وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة ، فما كان فى نيتى عند ذاك ، ولا هو فى نيتى الآن . ولذلك اعتزلت زوجى فى أصيل اليوم الذى تم فيه زواجنا ، ولم ألتق به إلى هذا اليوم ، لأنى كنت لا أنوى قط أن أعاشره معاشرة زوجية .

(١) كتاب الحجاب للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ص ١١٣-١١٤ .

Marfat.com

« قال عميد كلية شهيرة فى باريس لبول بيورد : إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغى فى بيتهم أيضا . ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون فى أودية الفجور أحرارا طلقاء . ثم يأتى عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذة المخادنة الحرة خارج البيت ! » (١)

وهكذا تدهورت فرنسا . وهكذا هزمت فى كل حرب خاضتها ، وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم . حتى تحق سنة الله التى لا تتخلف ؛ وإن بدت بطيئة الدوران فى بعض الأحيان ! بالقياس إلى تعجل الإنسان !

أما فى الدول التى لا تزال تبدو فتية ، أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد ، فهذه نماذج مما يجرى فيها :

يقول محفى ممن زاروا السويد حديثا .. بعد أن يتحدث عن « حرية الحب فى السويد ، وعن الرخاء المادى ، والضمانات الاجتماعية فى مجتمعها الاشتراكى النموذجى :

« إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوى الاقتصادى الممتاز ؛ وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكى الناجح ؛ وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أى عقل أن يتصوره من أنواع العقبات فى الحياة .. إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذى نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه فى مصر .. فهل نرضى نتائجه الأخرى ؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالى ؟ هل نقبل « حرية الحب » وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة ؟

« دعونا نتحدث بالأرقام ...

« مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة ، وتكوين أسرة ، فإن الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض ! . . مع وجود الدولة التى تكفل للفتاة إعانة زواج ؛ ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج فى الجامعة ، فإن الأسرة السويدية فى الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق !

« يقابل هذا انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين . وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد

(١) المصدر السابق ١١٥ ـ ١١٧

Marfat.com

غير الشرعيين . مع ملاحظة أن عشرين فى المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا.

« لقد بدأ عهد التصنيع . وبدأ معه المجتمع الاشتراكى فى السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الأمهات ـ غير المتزوجات ـ فى ذلك العام ٧ فى المئة ، وارتفعت هذه النسبة فى عام ١٩٢٠ إلى ١٦ فى المئة . والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها . ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة !

« وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن « الحب الحر » فى السويد ، فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج فى سن الثامنة عشرة . والفتاة فى سن الخامسة عشرة. وأن ٩٥ فى المئة من الشبان فى سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية !

« وإذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب ، فإننا نقول : إن ٧ فى المئة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات ، و٣٠ فى المئة منها مع حبيبات ! و٥٨ فى المئة منها مع صديقات عابرات !

« وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين . وجدنا أن ٣ فى المئة من هذه العلاقات مع أزواج . و ٢٧ فى المئة منها مع خطيب ! و ٦٤ فى المئة منها مع صديق عابر !

« وتقول الأبحاث العلمية : إن ٨٠ فى المئة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و٢٠ فى المئة بقين بلا زواج !

« وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر ، وإلى الخطبة الطويلة الأجل . مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت .

« والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة .. إن أهل السويد يدافعون عن « حرية الحب » بقولهم : إن المجتمع السويدى ينظر نظرة احتقار إلى الخيانة بعد الزواج ، كأى مجتمع متمدن آخر ! وهذا صحيح لا ننكره ! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل . ثم الزيادة المروعة فى نسبة الطلاق .

« إن نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم . إن طلاقا واحدا يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقا للإحصاءات التى أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد . والنسبة بدأت

Marfat.com

صغيرة ، وهى مستمرة فى الزيادة .. فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان ـ ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢ ، ثم ارتفع إلى ١١٤ فى عام ١٩٥٤ .

« وسبب ذلك أن ٣٠ فى المئة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة . والزواج بحكم « الضرورة » لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادى . ويشجع على الطلاق أن القانون السوفيتى لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جدا ، وإذا طلب أحدهما الطلاق . فإن أى سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق!

« وإذا كانت حرية الحب مكفولة فى السويد .. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. إنها حرية عدم الإيمان بالله ! لقد انتشرت فى السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضا . المدرسون فى المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها فى عقول النشء والشباب .

« والجيل الجديد ينحرف . . وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد فى السويد وباقى دول اسكندنافيا . إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف ، وإلى الإدمان على المخدرات والخمور . . وقد قدر عدد أطفال العائلات التى لها أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفا . أى ما يوازى ١٠ فى المئة من مجموع أطفال العائلات كلها . وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف .. إن من يقبض عليهم البوليس السويدى فى حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و ١٧ يوازى ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما . وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة .

« إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ فى السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ! ويقول أطباء السويد : إن ٥٠ فى المئة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التمادى فى التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعى تفكك الأسرة . ويقربهم إلى هوة انقراض النسل .. »

والحال فى أمريكا لا تقل عن هذه الحال : ونذر السوء تتوالى : والأمة الأمريكية فى عنفوانها لا تتلفت للنذر . ولكن عوامل التدمير تعمل فى كيانها ، على الرغم من هذا الرواء الظاهرى؛ وتعمل بسرعة ، مما يشى بسرعة الدمار الداخلى على الرغم من كل الظواهر الخارجية !!!

Marfat.com

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم ، لا لأنهم فى حاجة إلى المال . ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا ، ناشئاً من آثار الفوضى الجنسية السائدة فى المجتمع .

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكى يده على عصابة ضخمة ذات فروع فى مدن شتى . مؤلفة من المحامين والأطباء ـ أى من قمة الطبقة المثقفة ـ مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة فى حالة تلبس بالزنا ، وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق ! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبسا ، وهى التى أوقعته فى حبائلها !

كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين ! وذلك فى مجتمع لا يدرى فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته فى الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ! ولا تدرى الزوجة إن كان زوجها الذى خرج فى الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش البيوت فيه فى مثل هذا القلق الذى لا يدع عصبا يستريح !!!

وأخيرا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقى الذى يعيشون فيه .

وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليـــوم . وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض، أولها : الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى رقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروسا عملية فى بابه . والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء ، الذى يظهر فى ملابسهن ، بل فى عريهن ، وفى إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . . هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نجد

Marfat.com

Marfat.com

من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان . ومن تبعهم من سائر الأمم ، الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء»(١)

والذى حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة ، بل استسلمت لها تماما وهى تمضى فى الطريق الذى سار فيه الرومان !

ويكتب صحفى آخر عن موجة انحراف الشباب فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، ليهون من انحلال شبابنا ! يقول :

« انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا . وأعلن حاكم ولاية نيويورك ، أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذى يقوم به فى الولاية .

« وعهد الحاكم إلى إنشاء المزارع و « الإصلاحيات » التهذيبية والأندية الرياضية ... الخ

« ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات ـــ التى انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين ! ـــ لا يدخل فى برنامجه ، وأنه يترك أمره للسلطات الصحية !

« وأما فى انجلترا فقد كثرت فى العامين الأخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات فى طرق الريف . وفى معظم الحالات كان المعتدى أو المجرم غلاما مراهقا . وفى بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة ، وتركها جثة هامدة ، حتى لا تفشى سره ، أو تتعرف عليه ، إذا عرضه عليها رجال البوليس .

« ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز فى طريقه إلى القرية ، عندما أبصر على جانب الطريق ـــ وتحت شجرة ـــ غلاما يضاجع فتاة ..

« واقترب الشيخ منهما ، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه ، وقال له : إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه فى الطريق العام !

---

(١) نقلا عن كتاب الحجاب للمودودى ص ١٢٩ ، ١٣٠

Marfat.com

« ونهض الفتى ، وركل الشيخ بكل قوته فى بطنه ... ووقع الشيخ .

« وهنا ركله الفتى فى رأسه بحذائه . . . واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس !

« وكان الغلام فى الخامسة عشرة ، والفتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ! »

وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التى تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ فى المئة من الشعب الأمريكى مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مشتقات الحيويات كالبنسلين والاستربتومايسين !)

وكتب القاضى لندسى بمدينة « دنفر » أنه من كل حالتى زواج تعرض قضية طلاق !

وكتب الطبيب العالم العالمى ألكسيس كارل فى كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » :

« بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية . الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية . . . ففى بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى . وكالجنون ، فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ فى الازدياد . وهى أكثر العناصر نشاطا فى جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم الأسر .. إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية ، التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ! » ..

* * *

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة ، فى جاهليتها الحديثة ، من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ، ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة . المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف ؛ وصيانته من نزواته ، وحمايته من شهواته ، وهدايته إلى الطريق الآمن، والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة :

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » .

* * *

Marfat.com

والفقرة الثانية فى هذا الدرس ، تتناول جانب من العلاقات المالية فى المجتمع المسلم ، لتنظيم طرق التعامل فى هذا الجانب ؛ لضمان طهارة التعامل بين الأفراد عامة ؛ ثم لتقرير حق النساء كالرجال فى الملك والكسب ـ كل حسب نصيبه ـ وأخيرا لتنظيم التعامل فى عقود الولاء التى كانت سارية فى الجاهلية وفى القسم الأول من صدر الإسلام ، لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ؛ ومنع عقود الولاء الجديدة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا . وكان ذلك على الله يسيرا . إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم : وندخلكم مدخلا كريما . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شىء عليما . ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ؛ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شىء شهيداً » . .

إنها حلقة فى سلسلة التربية ، وحلقة فى سلسلة التشريع . . والتربية والتشريع فى المنهج الإسلامى متلازمان ؛ أو متداخلان ؛ أو متكاملان . . فالتشريع منظور فيه إلى التربية ؛ كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية ؛ والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر ؛ كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع ، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع ، وتحقق المصلحة فيه . والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما ـــ معا ـــ إلى ربط القلب بالله ، وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه . . وهذه هى خاصية المنهج الربانى للحياة البشرية . . هذا التكامل الذى يصلح الحياة الواقعية ، ويصلح الضمير البشرى فى ذات الأوان . .

وهنا فى هذه الفقرة نجد النهى للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل ـ وبيان الوجه الحلال للربح فى تداول الأموال ـ وهو التجارة ـ ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ، ومس النار ! .. وفى الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير ، والعون على الضعف والعفو

عن التقصير .. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض ، والتوجه إلى الله ـ صاحب العطاء ـ وسؤال من بيده الفضل والعطاء . وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شيء عليما . . كما أن بيان التصرف فى عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوبا بأن الله كان على كل شيء شهيدا . . وهى لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان ، وتكوينه النفسى ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » .

النداء للذين آمنوا ، والنهى لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

مما يوحى بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة الجاهلية فى المجتمع الإسلامى ؛ واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء : « يا أيها الذين آمنوا » .. واستحياء مقتضيات الإيمان . مقتضيات هذه الصفة التى يناديهم الله بها ، لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل .

وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله ، أو نهى عنها ، ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها ، وجميع أنواع البيوع المحرمة ـ والربا فى مقدمتها ـ ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله ؛ فإن كان قد نزل قبله ، فقد كان تمهيدا للنهى عنه . فالربا أشد الوسائل أكلا للأموال بالباطل. وإن كان قد نزل بعده ، فهو يشمله فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل .

واستثنى العمليات التجارية التى تتم عن تراض بين البائع والشارى :

Marfat.com

Marfat.com

« إلا أن تـكون تجارة عن تراض منـكم » ..

وهو استثناء منقطع .. تأويله : ولـكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخلة فى النص السابق . . ولـكن مجيئها هكذا فى السياق القرآنى ، يوحى بنوع من الملابسة بينها وبين صور التعامل الأخرى ، التى توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل . . وندرك هذه الملابسة إذا استصحبنا ما ورد فى آيات النهى عن الربا ـ فى سورة البقرة ـ من قول المرابين فى وجه تحريم الربا : « إنما البيع مثل الربا » . . ورد الله عليهم فى الآية نفسها : « وأحل الله البيع وحرم الربا » . . فقد كان المرابون يغالطون ، وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادى الملعون . فيقولون : إن البيع ـ وهو التجارة ـ تنشأ عنها زيادة فى الأموال وربح . فهو ـ من ثم ـ مثل الربا . فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا !

والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولا ، وبين الخدمات التى تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير ؛ والبلاء الذى يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير .

فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك ؛ تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ؛ ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معاً . وهى خدمة للطرفين ، وانتفاع عن طريق هذه الخدمة . انتفاع يعتمد كذلك على المهارة والجهد ؛ ويتعرض فى الوقت ذاته للربح والخسارة . .

والربا على الضد من هذا كله . يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التى تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التى يفرضها على الصناعة . وهو فى الوقت ذاته ـ كما تجلى ذلك فى النظام الرأسمالى عندما بلغ أوجه ـ يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الجماهير المستهلكة ؛ وإنما الهدف الأول فيها زيادة الربح للوفاء بفوائد القروض الصناعية . ولو ابتهلكت الجماهير مواد الترف ولم تجد الضروريات ! ولو كان الاستثمار فى أحط المشروعات المثيرة للغرائز ، المحطمة للكيان الإنسانى . . وفوق كل شىء .. هذا الربح الدائم لرأس المال ؛ وعدم مشاركته فى نوبات الخسارة ـ كالتجارة ـ وقلة اعتماده على الجهد البشرى ، الذى يبذل حقيقة فى التجارة .. إلى آخر قائمة الاتهام السوداء

التى تحيط بمنق النظام الربوى ؛ وتقتضى الحكم عليه بالإعدام ؛ كما حكم عليه الإسلام[1] !

فهذه الملابسة بين الربا والتجارة ، هى التى لعلها جعلت هذا الاستدراك ـ « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » يجىء عقب النهى عن أكل الأموال بالباطل . وإن كان استثناء منقطعا كما يقول النحويون !

« ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما » . .

تعقيب يجىء بعد النهى عن أكل الأموال بالباطل ؛ فيوحى بالآثار المدمرة التى ينشئها أكل الأموال بالباطل فى حياة الجماعة ؛ إنها عملية قتل . . يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها ، حين ينهاهم عنها !

وإنها لكذلك . فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل فى جماعة : بالربا . والغش . والقمار . والاحتكار . والتدليس . والاختلاس . والاحتيال . والرشوة . والسرقة . وبيع ما ليس يباع : كالعرض . والذمة . والضمير . والخلق . والدين ! ـ مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء ـ ما تروج هذه الوسائل فى جماعة ، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها ، وتتردى فى هاوية الدمار !

والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة ، المردية للنفوس ؛ وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم ؛ ومن تدارك ضعفهم الإنسانى ، الذى يرديهم حين يتخلون عن توجيه الله ، إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات !

ويلى ذلك التهديد بعذاب الآخرة ، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل ، معتدين ظالمين تهديدهم بعذاب الآخرة ؛ بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها . الآكل فيهم والمأكول ؛ فالجماعة كلها متضامنة فى التبعة : ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة ، التى تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله فى الدنيا والآخرة :

« ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما ، فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » .

---

(١) يراجع ما كتبناه فى الظلال فى الجزء الثالث من ص ٧٠ — ص ٨٦ من الطبعة المنقحة ويراجع بتوسع ما كتبه الأستاذ أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان فى كتابه « الربا » .

Marfat.com

Marfat.com

وهـكذا يأخذ المنهج الإسلامى على النفس أقطارها ـ فى الدنيا والآخرة ـ وهو يشرع لها ويوجهها ؛ ويقيم من النفس حارساً حذراً يقظاً على تلبية التوجيه ، وتنفيذ التشريع ؛ ويقيم من الجماعة بعضها على بعض رقيباً لأنها كلها مسؤولة ؛ وكلها نصيبها المقتلة والدمار فى الدنيا، وكلها تحاسب فى الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها .. « وكان ذلك على الله يسيراً» فما يمنع منه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتخلف، متى وجدت أسبابه ، عن الوقوع !

وفى مقابل اجتناب « الكبائر » ـ ومنها أكل الأموال بينهم بالباطل ـ يعدهم الله برحمته ، وغفرانه ، وتجاوزه عما عدا الكبائر : مراعاة لضعفهم الذى يعلمه ـ سبحانه ـ وتيسيرا عليهم ، وتطمينا لقلوبهم ؛ وعونا لهم على التحاجز عن النار ؛ باجتناب الفواحش الكبار :

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ، نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريما » .

ألاما أسمح هذا الدين ! وما أيسر منهجه ! على كل مافيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر والنظافة ، والطاعة . وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود ، والأوامر والنواهى ، التى يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة ؛ وإنشاء مجتمع نظيف سليم .

إن هذا الهتاف ، وهذه التكاليف ، لا تغفل ـ فى الوقت ذاته ـ ضعف الإنسان وقصوره ؛ ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ؛ ولا تتجاهل فطرته وحدودها ودوافعها ؛ ولا تجهل كذلك دروب نفسه ومنحنياتها الكثيرة .

ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة . وبين الأشواق والضرورات . وبين الدوافع والكوابح . وبين الأوامر والزواجر . وبين الترغيب والترهيب . وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق فى العفو والمغفرة ..

إنه حسبُ هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاهها لله ؛ وأن تخلص حقا فى هذا الاتجاه، وأن تبذل غاية الجهد فى طاعته ورضاه .. فأما بعد ذلك .. فهناك رحمة الله .. هناك رحمة الله ترحم الضعف ، وتعطف على القصور ؛ وتقبل التوبة ، وتصفح عن التقصير ؛ وتكفر الذنب وتفتح الباب للعائدين ، فى إيناس وفى تكريم ..

وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه . أما مقارفة هذه الكبائر ـ وهى واضحة

Marfat.com

ضخمة بارزة ؛ لا ترتكبها النفس وهى جاهلة لها أوغير واعية ! فهى دليل على أن هذه النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة ؛ ولم تستنفد الطاقة فى المقاومة .. وحتى هذه فالتوبة منها فى كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التى كتبها على نفسه .. وقد قال فيها : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .. وعدهم من« المتقين »

إنما الذى نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله ، متى اجتنبت الكبائر ؛ وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين .

أما ما هى الكبائر . . فقد وردت أحاديث تعدد أنواعا منها ـ ولا تستقصيها ـ وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص ؛ مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة ؛ فتذكر من الكبائر ـ فى كل حديث ـ ما يناسب الملابسة الحاضرة، والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم « الكبائر » من الذنوب . وإن كانت تختلف عددا ونوعا بين بيئة وبيئة ، وبين جيل وجيل !

ونذكر هنا قصة عن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية . تبين ـ مع ذلك كله ـ كيف قوّم الإسلام حسه المرهف ، وكيف جعل الميزان الحساس يعتدل فى يده ويستقيم ؛ وهو يعالج أمور المجتمع وأمور النفوس :

قال ابن جرير حدثنى يعقوب ابن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن ابن عون ؛ عن الحسن أن ناسا سألوا عبد الله ابن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله ـ عز وجل ـ أمر أن يعمل بها ، لا يعمل بها ؛ فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك . فقدم وقدموا معه . فلقى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا . قال : أيإذن قدمت ؟ قال : فلا أدرى كيف رد عليه . فقال : أمير المؤمنين إن ناساً لقونى بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله ، أمر أن يعمل بها ، فلا يعمل بها فأحبوا أن يلقوك فى ذلك . قال : فاجمعهم لى . قال فجمعتهم له . قال أبو عون : أظنه قال : فى بهو . . فأخذ أدناهم رجلا ؛ فقال أنشدك الله ، وبحق الإسلام عليك ، أقرأت القرآن كله ! قال : نعم . قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال : اللهم لا ـ ولو قال : نعم ، لخصمه ! قال : فهل أحصيته

فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ هل أحصيته فى أثرك[1] . . ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال : ثكلت عمر أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات . قال : وتلا : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » . . . الآية . ثم قال : هل علم أهل المدينة ؟ أو قال : هل علم أحد ما قدمتم ؟ قالوا : لا . قال : لو علموا لو عظت بكم[2] ! »

فهكذا كان عمر ـ المتحرج الشديد الحساسية ـ يسوس القلوب والمجتمع ؛ وقد قوّم القرآن حسه ؛ وأعطاه الميزان الدقيق .. « قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ! » ولن نكون غير ما علم ربه أن نكون ! إنما المعول عليه هو القصد والتصويب والمحاولة والرغبة فى الوفاء بالالتزامات، وبذل الجهد فى هذا الوفاء .. إنه التوازن والجد واليسر والاعتدال .

* * *

وفى سياق الحديث عن الأموال ، وتداولها فى الجماعة ، تجىء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات . وفيما كان من عقود الولاء وعلاقاتها بنظام التوريث العام . الذى سبق تفصيله فى أوائل السورة :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . . للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن .. واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شىء عليما . ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون . والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شىء شهيدا .. »

والنص عام فى النهى عن تمنى ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض . من أى أنواع التفضيل ، فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع .. وفى كل ما تتفاوت فيه الأنصبة فى هذه الحياة .. والتوجه بالطلب إلى الله ، وسؤاله من فضله مباشرة ؛ بدلا من إضاعة النفس حسرات فى التطلع إلى التفاوت ؛ وبدلا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد؛ ومن حنق كذلك ونقمة ، أو من شعور بالضياع والحرمان ، والتهاوى والتهافت أمام هذا

---

(١) يعنى هل أحصيته منفذاً عملياً فى نفسك وفى بصرك وفى لفظك ... الخ ؟

(٢) رواه ابن كثير فى التفسير وقال عنه : إسناده صحيح ، ومتنه حسن . وإن كان من رواية الحسن عن عمر ـ وفيها انقطاع ـ إلا أن مثل هذا اشتهر به فتكفى شهرته .

Marfat.com

الشعور .. وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ؛ وسوء ظن بعدالة التوزيع .. حيث تكون القاصمة ، التى تذهب بطمأنينة النفس ، وتورث القلق والنكد ؛ وتستهلك الطاقة فى وجدانات خبيثة ؛ وفى اتجاهات كذلك خبيثة . بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله ، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، الذى لا ينقص ما عنده بما أعطى ، ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب ! وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ؛ ومبعث الإيجابية فى تلمس الأسباب ، بدل بذل الجهد فى التحرق والغيظ أو التهاوى والانحلال !

النص عام فى هذا التوجيه العام . ولكن موضعه هنا من السياق ، وبعض الروايات عن سبب النزول ، قد تخصص من هذا المعنى الشامل تفاوتا معينا ، وتفضيلا معينا ، هو الذى نزل هذا النص يعالجه .. هو التفاضل فى أنصبة الرجال وأنصبة النساء .. كما هو واضح من سياق الآية فى عمومها بعد ذلك .. وهذا الجانب ـ على أهميته الكبرى فى تنظيم العلاقة بين شطرى النفس البشرية وإقامتها على الرضا وعلى التكامل ؛ وإشاعة هذا الرضا ـ من ثم ـ فى البيوت وفى المجتمع المسلم كله ؛ إلى جانب إيضاح الوظائف للنوعة فيه بين الجنسين والمهام .. هذا الجانب على أهميته هذه لا ينفى عموم النص مع خصوص السبب .. ولهذا روت التفاسير المأثورة ، هذا المعنى وذاك:

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله ، تغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث .. فأنزل الله : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » .

ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والحاكم فى مستدركه . من حديث الثورى ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد . قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله . لا نقاتل فنستشهد، ولا نقطع الميراث .. فنزلت الآية .. ثم أنزل الله : « أنى لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى » ... الآية .

وقال السدى فى الآية : إن رجالا قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا فى السهام سهمان ! وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم :

Marfat.com

Marfat.com

سلونى من فضلى . قال ليس بعرض الدنيا .. وروى مثل ذلك عن قتـادة .. كذلك وردت روايات أخرى بإطلاق معنى الآية :

قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ، قال : «ولا يتمنى الرجل فيقول : ليت لى مال فلان وأهله . فنهى الله عن ذلك . ولـكن يسأل من فضله .. وقال الحسن ومحمد ابن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا ..

ونجد فى الأقوال الأولى ظلالا من رواسب الجاهلية فى تصور ما بين الرجال والنساء من روابط ؛ كما نجد روائح للتنافس بين الرجال والنساء ، لعلها قد أثارتها تلك الحريات والحقوق الجديدة التى علمها الإسلام للمرأة ، تمشيا مع نظريته الـكلية فى تكريم الإنسان بجنسيه ، وفى إنصاف كل جنس فيه وكل طبقة وكل أحد .. إنصافه حتى من نفسه التى بين جنبيه ..

ولـكن الإسلام إنما كان يستهدف من هذا كله تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره . لا لحساب الرجال ، ولا لحساب النساء ! ولـكن لحساب « الإنسان » ولحساب « المجتمع المسلم » ولحساب الخلق والصلاح والخير فى إطلاقه وعمومه . وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب .

إن المنهج الإسلامى يتبع الفطرة فى تقسيم الوظائف ؛ وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء . والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلا والمرأة امرأة ؛ وأودعت كلا منهما خصائصه المميزة ، لتنوط بكل منهما وظائف معينة .. لا لحسابه الخاص . ولا لحساب جنس منهما بذاته . ولـكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التى تقوم ، وتنتظم ، وتستوفى خصائصها ، وتحقق غايتها ـ من الخلافة فى الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة ـ عن طريق هذا التنوع بين الجنسين ، والتنوع فى الخصائص والتنوع فى الوظائف .. وعن طريق تنوع الخصائص ، وتنوع الوظائف ، ينشأ تنوع التكاليف ، وتنوع الأنصبة ، وتنوع المراكز .. لحساب تلك الشركة الـكبرى والمؤسسة العظمى .. المسماة بالحياة . . .

وحين يدرس المنهج الإسلامى كله ابتداء ، ثم يدرس الجانب الخاص منه بالارتباطات بين شطرى النفس الواحدة ، لا يبقى مجال لمثل ذلك الجدل القديم الذى ترويه هذه الروايات ، ولا كذلك للجدل الحديث ، الذى يملأ حياة الفارغين والفارغات فى هذه الأيام . ويطغى أحيانا على الجادين والجادات بحكم الضجيج العام !

إنه عبث تصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الجنسين ، تسجل فيه المواقف والانتصارات . . ولا يرتفع على هذا العبث محاولة بعض الكتاب الجادين تنقص « المرأة » وثلبها ، وإلصاق كل شائنة بها . . سواء كان ذلك باسم الإسلام أو باسم البحث والتحليل . . فالمسألة ليست معركة على الإطلاق ! إنما هى تنويع وتوزيع . وتكامل . وعدل بعد ذلك كامل فى منهج الله .

يجوز أن تكون هناك معركة فى المجتمعات الجاهلية ؛ التى تنشىء أنظمتها من تلقاء نفسها ؛ وفق هواها ومصالحها الظاهرة القريبة . أو مصالح طبقات غالبة فيها ، أو بيوت ، أو أفراد . . ومن ثم تنتقص من حقوق المرأة لأسباب من الجهالة بالإنسان كله ، وبوظيفة الجنسين فى الحياة ، أو لأسباب من المصالح الاقتصادية فى حرمان المرأة العاملة من مثل أجر الرجل العامل فى نفس مهنتها . أو فى توزيع الميراث ، أو حقوق التصرف فى المال ـ كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية الحديثة !

فأما فى المنهج الإسلامى فلا . . لا ظل للمعركة . ولا معنى للتنافس على أعراض الدنيا . ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ؛ ومحاولة النيل من أحدهما ، وثلبه ، وتتبع نقائصه ! .. ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع فى التكوين والخصائص ، لا مقابل له من التنوع فى التكليف والوظائف ، ولا آثار له فى التنوع فى الاختصاصات والمراكز . . فكل ذلك عبث من ناحية وسوء فهم للمنهج الإسلامى ولحقيقة وظيفة الجنسين من ناحية !

وننظر فى أمر الجهاد والاستشهاد ونصيب المرأة منه ومن ثوابه .. وهو ما كان يشغل بال الصالحات من النساء فى الجيل الصالح ، الذى يتجه بكليته إلى الآخرة ؛ وهو يقوم بشئون هذه الدنيا .. وفى أمر الإرث ونصيب الذكر والأنثى منه . وقد كان يشغل بعض الرجال والنساء قديما . وما يزال هو وأمثاله يشغل رجالا ونساء فى هذه الأيام . .

إن الله لم يكتب على المرأة الجهاد ولم يحرمه عليها ؛ ولم يمنعها منه ـ حين تكون هناك حاجة إليها ، لا يسدها الرجال ـ وقد شهدت المغازى الإسلامية آحادا من النساء ـ مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزواد ـ وكان ذلك على قلة ونذرة بحسب الحاجة والضرورة ؛ ولم يكن هو القاعدة .. وعلى أية حال ، فإن الله لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجال .

Marfat.com

الجزء الخامس

إن الجهاد لم يكتب على المرأة ، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون . وهى مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها ، العضوى والنفسى ؛ ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء . وهى ـ فى هذا الحقل ـ أقدر وأنفع .. هى أقدر لأن كل خلية فى تكوينها معدة من الناحية العضوية والناحية النفسية لهذا العمل ؛ وليست المسألة فى هذا مسألة التكوين العضوى الظاهر ؛ بل هى ـ وعلى وجه التحديد ـ كل خلية منذ تلقيح البويضة ، وتقرير أن تكون أنثى أو ذكرا من لدن الخالق ـ سبحانه[1] ـ ثم يلى ذلك تلك الظواهر العضوية ، والظواهر النفسية الكبرى . . وهى أنفع ـ بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل ـ فالحرب حين تحصد الرجال وتستبقى الإناث ؛ تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ . والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال ـ أوحتى حين تحصد النساء وتستبقى الرجال ! فرجل واحد ـ فى النظام الإسلامى ـ وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصه وإمكانياته ـ يمكن أن يجعل نساء أربعا ينتجن ، ويملأن الفراغ الذى تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان . ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد ، لتعويض ما وقع فى المجتمع من اختلال. وليس ذلك إلا بابا واحدا من أبواب الحكمة الإلهية فى إعفاء المرأة من فريضة الجهاد . . . ووراءه أبواب شتى فى أخلاق المجتمع وطبيعة تكوينه ، واستبقاء الخصائص الأساسية لكلا الجنسين ، لا يتسع لها المجال هنا ، لأنها تحتاج إلى بحث خاص[2] . . وأما الأجر والثواب ، فقد طمأن الله الرجال والنساء عليه ، فحسب كل إنسان أن يحسن فيما وكل إليه ليبلغ مرتبة الإحسان عند الله على الإطلاق ..

والأمر فى الميراث كذلك . . ففى الوهلة الأولى يبدو أن هناك إيثارا للرجل فى قاعدة : «فللذكر مثل حظ الأنثيين » .. ولكن هذه النظرة السطحية لا تفتأ أن تتكشف عن وحدة متكاملة فى أوضاع الرجل والمرأة وتكاليفهما . . فالغنم بالغرم ، فقاعدة ثابتة متكاملة فى المنهج الإسلامى ..فالرجل يؤدى للمرأة صداقها ابتداء ولا تؤدى هى له صداقا . والرجل ينفق عليها وعلى أولادها منه ، وهى معفاة من هذا التكليف ، ولو كان لها مال خاص ـ وأقل ما يصيب

---

(١) يراجع فصل : « المرأة وعلاقات الجنسين » فى كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة »
(٢) يراجع بتوسع فصل : « نظام عائلى » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » .

Marfat.com

Marfat.com

الرجل من هذا التكليف أن يحبس فيه إذا ماطل ! ! ـ والرجل عليه فى الديات والأرش (التعويض عن الجراحات) متكافلا مع الأسرة ، والمرأة منها معفاة . والرجل عليه فى النفقة على المعسرين والعاجزين والعواجز عن الكسب فى الأسرة ـ الأقرب فالأقرب ـ والمرأة معفاة من فريضة التكافل العائلى العام .. حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانته عند افتراقهما فى المعيشة ، أو عند الطلاق ، يتحملها الرجل ، ويؤديها لها كنفقتها هى سواء بسواء .. فهو نظام متكامل توزيع التبعات فيه هو الذى يحدد توزيع الميراث . ونصيب الرجل من التبعات أثقل من نصيبه فى الميراث . ومنظور فى هذا إلى طبيعته وقدرته على الكسب ؛ وإلى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة ، لتقوم على حراسة الرصيد البشرى الثمين ؛ الذى لا يقوّم بمال ، ولا يعدله إنتاج أية سلعة أو أية خدمة أخرى للصالح العام !

وهكذا نجد معالم التوازن الشامل ، والتقدير الدقيق فى المنهج الإسلامى الحكيم ، الذى شرعه الحكيم العليم . .

ونسجل هنا ما منحه الإسلام للمرأة فى هذا النص من حق الملكية الفردية :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » . .

وهو الحق الذى كانت الجاهلية العربية ـ كغيرها من الجاهليات القديمة ـ تحيف عليه ؛ ولا تعترف به للمرأة ـ إلا فى حالات نادرة ـ ولا تفتأ تحتال للاعتداء عليه . إذ كانت المرأة ذاتها مما يستولى عليه بالوراثة ، كالمتاع !

وهو الحق الذى ظلت الجاهليات الحديثة ـ التى تزعم أنها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنحه لها منهج آخر ـ تتحيفه ؛ فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور . وبعضها يجعل إذن الولى ضروريا لتوقيع أى تعاقد للمرأة بشأن المال ؛ ويجعل إذن الزوج ضروريا لكل تصرف مالى من الزوجة فى مالها الخاص ! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة ؛ وما نشأ عنها من فساد فى نظام المرأة كله ، وفى نظام الأسرة ، وفى الجو الأخلاقى العام .

فأما الإسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء ؛ وبدون طلب منها ، وبدون ثورة ، وبدون جمعيات نسوية ؛ وبدون عضوية برلمان !! منحها هذا الحق تمشيا مع نظرته العامة إلى تكريم

الإنسان جملة ؛ وإلى تـكريم شق النفس الواحدة ؛ وإلى إقامة نظامه الاجتماعى كله على أساس الأسرة ؛ وإلى حياطة جو الأسرة بالود والمحبة والضمانات لكل فرد فيها على السواء .

ومن هنا كانت المساواة فى حق التملك وحق الـكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام .

وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافى فى كتاب « حقوق الإنسان » لفتة دقيقة إلى وضع المرأة فى الإسلام ووضعها فى الدول الغربية جاء فيه :

« وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون ، وفى جميع الحقوق المدنية سواء فى ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج فى الإسلام يختلف عن الزواج فى معظم أمم الغرب المسيحى ، فى أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها فى التعاقد ، ولا حقها فى التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ؛ وبأهليتها فى تحمل الالتزامات ، وإجراء مختلف العقود ، من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ، وما إلى ذلك ؛ ومحتفظة بحقها فى التملك تملـكا مستقلا عن غيرها . فللمرأة المتزوجة فى الإسلام شخصيتها المدنية الـكاملة ، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ـ قل ذلك أو كثر ـ قال تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منـكم ميثاقا غليظا ؟ » .. وقال : « ولا يحل لـكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » .. وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملـكها الأصيل إلا أن يكون هذا أو ذاك برضاها ، وعن طيب نفس منها . وفى هذا يقول الله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لـكم عن شىء منه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئا » ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف فى شىء من أموالها ، إلا إذا أذنت له بذلك ، أو وكلته فى إجراء عقد بالنيابة عنها . وفى هذه الحالة يجوز أن تلغى وكالته ، وتوكل غيره إذا شاءت .

« وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها ـ بعد ـ أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة فى فرنسا كانت إلى عهد قريب ـ بل لا تزال إلى الوقت

Marfat.com

Marfat.com

الحاضر ـ أشبه شيء بحالة الرق المدنى . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المئتين من القانون المدنى الفرنسى . إذ تقرر أن : « المرأة المتزوجة ـ حتى ولو كان زواجها قائمـا على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ـ لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن، ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد ، أو موافقته عليه موافقة كتابية ! » .. وأورد نصها الفرنسى . . .

« ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات ، فيما بعد ، فإن كثيرا من آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحـاضر .. وتوكيدا لهذا الرق المفروض على المرأة الغربية تقرر قوانين الأمم الغربية ، ويقضى عرفها ، أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ؛ فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ؛ بل تحمل اسم زوجها وأسرته ؛ فتدعى « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجهـا وأسرته ، بدلا من أن تتبعـــه باسم أبيه وأسرتها .. وفقدان اسم المرأة ، وحملها لاسم زوجهـا ، كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة ، واندماجها فى شخصية الزوج .

« ومن الغريب أن الـكثير من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات ـ حتى فى هذا النظام الجائر ـ ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ؛ فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ؛ أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعـه باسم أبيها وأسرتها ، كما هو النظـام الإسلامى ، وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العميـاء ! وأغرب من هذا كله أن اللاتى يحاكين هذه المحاكاة ، هن المطالبات بحقوق النساء ، ومساواتهن بالرجال ؛ ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرطن فى أهم حق منحه الإسلام لهن ؛ ورفع به شأنهن ، وسواهن فيه بالرجال » (ص ٥٩ ، ٦١)

* * *

والآن نجىء إلى النص الأخـير فى هذه الفقرة ؛ وهو ينظم التصرف فى عقود الولاء الى سبقت أحكام الميراث . هذه الأحكام التى حصرت الميراث فى القرابة . بينما عقـود الولاء كانت تجعلها كذلك فى غير القرابة على ما سيأتى بيانه :

« ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ؛ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم. إن الله كان على كل شىء شهيدا » ..

بعد أن ذكر أن للرجال نصيبا مما اكتسبوا ، وللنساء نصيبا مما اكتسبن .. وبين ـ فيما سلف ـ أنصبة الذكور والإناث فى الميراث .. ذكر أن الله جعل لكل موالى من قرابته يرثونه . يرثونه مما آل إليه من الوالدين والأقربين .. فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلا بعد جيل. يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ؛ ثم يرثهم من يلونهم من الأقربين .. وهى صورة تمثل دورة المال فى النظام الإسلامى ؛ وأنها لاتقف عند جيل؛ولا تتركز فى بيت ولا فرد . . إنما هو التوارث المستمر ، والتداول المستمر ، وحركة التوزيع الدائبة ؛ وما يتبعها من تعديل فى المالكين ، وتعديل فى المقادير ، بين الحين والحين ..

ثم عطف على العقود ، التى أقرتها الشريعة الإسلامية ؛ والتى تجعل الإرث يذهب أحيانا إلى غير الأقرباء .. وهى عقود الموالاة .. وقد عرف المجتمع الإسلامى أنواعا من هذه العقود :

الأول عقد ولاء العتق، وهو النظام الذى يصبح بمقتضاه الرقيق ـ بعد عتقه ـ بمنزلة العضو فى أسرة مولاه (مولى العتق) فيدفع عنه المولى الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية ـ كما يفعل ذلك حيال أقربائه من النسب ـ ويرثه إذا مات ولم يترك عصبة ..

والثانى عقد الموالاة. وهو النظام الذى يبيح لغير العربى ـ إذا لم يكن له وارث من أقاربه ـ أن يرتبط بعقد مع عربى هو (مولى الموالاة) . فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة مولاه . يدفع عنه المولى الدية ـ إذا ارتكب جناية توجب الدية ـ ويرثه إذا مات .

والنوع الثالث ، هو الذى عقده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول العهد بالمدينة ، بين المهاجرين والأنصار . فكان المهاجر يرث الأنصارى ، مع أهله ـ كواحد منهم ـ أو دون أهله إن كانوا مشركين فصلت بينهم وبينه العقيدة ..

والنوع الرابع .. كان فى الجاهلية ، يعاقد الرجل الرجل ، ويقول : «وترثنى وأرثك» .. وقد جعل الإسلام يصفى هذه العقود ؛ وبخاصة النوعين الثالث والرابع . بتقرير أن الميراث سببه القرابة . والقرابة وحدها . ولكنه لم يبطل العقود التى سبق عقدها . فأمضاها على ألا يجدد سواها . وقال الله سبحانه :

Marfat.com

« والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم »

وشدد فى هذا وأشهد الله على العقد وعلى التصرف فيه :

« إن الله كان على كل شىء شهيدا » . .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« لا حلف فى الإسلام . وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » (رواه أحمد ومسلم) .

وقد سار الإسلام فى تصفية هذه العقود سيرته فى كل ما يتعلق بالأنظمة المالية ، فى علاجها ـ بدون أثر رجعى ـ فهكذا صنع فى الربا حين أبطله . أبطله منذ نزول النص ، وترك لهم ما سلف منه ؛ ولم يأمر برد الفوائد الربوية . وإن كان لم يصحح العقود السابقة على النص ، ما لم يكن قد تم قبض تلك الفوائد . فأما هنا فقد احترم تلك العقود ؛ على ألا ينشأ منها جديد. لما يتعلق بها ـ فوق الجانب المالى ـ من ارتباطات أخذت طابع العضوية العائلية بتشابكاتها الكثيرة المعقدة . فترك هذه العقود القائمة تنفذ ؛ وشدد فى الوفاء بها ؛ وقطع الطريق على الجديد منها ؛ قبل أن تترتب عليه أية آثار تحتاج إلى علاج !

وفى هذا التصرف يبدو التيسير ، كما يبدو العمق والإحاطة والحكمة والشمول ، فى علاج الأمور فى المجتمع . حيث كان الإسلام يصوغ ملامح المجتمع المسلم يوما بعد يوم ؛ ويمحو ويلغى ملامح الجاهلية فى كل توجيه وكل تشريع(١) .

* * *

والموضوع الأخير فى هذا الدرس ، هو تنظيم مؤسسة الأسرة ؛ وضبط الأمور فيها ؛ وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الإجراءات التى تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات ؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير ، جهد المستطاع :

« الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ،

---

(١) فى رواية عن ابن عباس فى تفسير هذا النص ، أنه منع الوراثة إلا للقرابة ، واستبقى للذين عقدت أيمانهم النصرة والرفادة والنصيحة .

Marfat.com

Marfat.com

فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيراً » . .

ولا بد ـ قبل الدخول فى تفسير هذه النصوص القرآنية ، وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية ـ من بيان مجمل لنظرة الإسلام إلى مؤسسة الأسرة ، ومنهجه فى بنائها والمحافظة عليها ، وأهدافه منها . . بيان مجمل بقدر الإمكان ، إذ أن التفصيل فيه يحتاج إلى بحث مطول خاص(١) :

إن الذى خلق هذا الإنسان جعل من فطرته « الزوجية » شأنه شأن كل شىء خلقه فى هذا الوجود : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . .

ثم شاء أن يجعل الزوجين فى الإنسان شطرين للنفس الواحدة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » . .

وأراد بالتقاء شطرى النفس الواحدة ـ بعد ذلك ـ فيما أراد ، أن يكون هذا اللقاء سكنا للنفس ، وهدوءا للعصب ، وطمأنينة للروح ، وراحة للجسد . . ثم سترا وإحصانا وصيانة . . ثم مزرعة للنسل وامتداد الحياة، مع توقيها المستمر ، فى رعاية المحضن الساكن الهادىء المطمئن المستور المصون :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةورحمة» ..

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . .

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله » . .

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » . .

« والذين آمنوا ، واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم(٢) من عملهم من شىء » . .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « نظام عائلى » ، فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » ، وكتاب الحجاب وكتاب تفسير سورة النور للأستاذ أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .
(٢) نقصناهم .

Marfat.com

ومن تساوى شطرى النفس الواحدة فى موقفهما من الله ، ومن تكريمه للإنسان ، كان ذلك التكريم للمرأة ، وتلك المساواة فى حقوق الأجر والثواب عند الله ، وفى حقوق التملك والإرث ، وفى استقلال الشخصية المدنية . . التى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة من هذا الدرس .

ومن أهمية التقاء شطرى النفس الواحدة ، لإنشاء مؤسسة الأسرة . ومن ضخامة تبعة هذه المؤسسة أولا : فى توفير السكن والطمأنينة والستر والإحصان للنفس بشطريها ، وثانيا: فى إمداد المجتمع الإنسانى بعوامل الامتداد والترقى ... كانت تلك التنظيمات الدقيقة المحكمة التى تتناول كل جزئية من شئون هذه المؤسسة . . وقد احتوت هذه السورة جانبا من هذه التنظيمات هو الذى استعرضناه فى الصفحات السابقة من أول هذا الجزء ؛ تكملة لما استعرضناه منها فى الجزء الرابع .. واحتوت سورة البقرة جانبا آخر ، هو الذى استعرضناه فى الجزء الثانى . واحتوت سور أخرى من القرآن ، وعلى الأخص سورة النور فى الجزء الثامن عشر وسورة الأحزاب فى الجزءين الحادى والعشرين والثانى والعشرين وسورة الطلاق وسورة التحريم فى الجزء الثامن والعشرين .. ومواضع أخرى متفرقة فى السور ، جوانب أخرى تؤلف دستورا كاملا شاملا دقيقا لنظام هذه المؤسسة الإنسانية ؛ وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها ، على مدى الأهمية التى يعقدها المنهج الإسلامى للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة !

ونرجو أن يكون قارئ هذه الصفحة على ذكر مما سبق فى صفحات هذا الجزء نفسه ؛ عن طفولة الطفل الإنسانى ، وطولها ، وحاجته فى خلالها إلى بيئة تحميه أولا حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش ؛ وأهم من هذا أن تؤهله ، بالتربية ، إلى وظيفته الاجتماعية ، والنهوض بنصيبه فى ترقية المجتمع الإنسانى ، وتركه خيرا مما تسلمه ، حين جاء إليه ! فهذا الكلام ذو أهمية خاصة فى بيان قيمة مؤسسة الأسرة ؛ ونظرة المنهج الإسلامى إلى وظائفها ، والغاية منها ؛ واهتمامه بصيانتها ، وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد . .

وفى ظل هذه الإشارات المجملة إلى طبيعة نظرة الإسلام للأسرة وأهميتها ؛ ومدى حرصه على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء فى جوها .. إلى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة ؛ ومنحها استقلال الشخصية واحترامها ؛ والحقوق التى أنشأها لها إنشاء ـ لا محاباة

لذاتها ولـكن لتحقيق أهدافه الـكبرى من تكريم الإنسان كله ورفع الحياة الإنسانية ـ نستطيع أن نتحدث عن النص الأخير فى هذا الدرس ، الذى قدمنا للحديث عنه بهذا الإيضاح :

إن هذا النص ـ فى سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها ، بردهم جميعا إلى حكم الله لا حكم الهوى والانفعالات والشخصيات ـ يحدد أن القوامة فى هذه المؤسسة للرجل ؛ ويذكر من أسباب هذه القوامة : تفضيل الله الرجل بمقومات القوامة ، وما تتطلبه من خصائص ودربة ،و.. تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة . وبناء على إعطاء القوامة للرجل ، يحدد كذلك اختصاصات هذه القوامة فى صيانة المؤسسة من التفسخ ؛ وحمايتها من النزوات العارضة ؛ وطريقة علاج هذه النزوات ـ حين تعرض ـ فى حدود مرسومة ـ وأخيرا يبين الإجراءات ـ الخارجية ـ التى تتخذ عندما تفشل الاجراءات الداخليـة ، ويلوح شبح الخطر على المؤسسة ، التى لا تضم شطرى النفس الواحـدة فحسب ، ولـكن تضم الفراخ الخضر ، الناشئة فى المحضن ، المعرضة للبوار والدمار . فلننظر فيما وراء كل إجراء من هذه الإجراءات من ضرورة ، ومن حكمة ، بقدر ما نستطيع :

« الرجال قوامون على النساء . بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقو من أموالهم » ..

إن الأسرة ـ كما قلنا ـ هى المؤسسة الأولى فى الحياة الإنسانية . الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التى تؤثر فى كل مراحل الطريق . والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنسانى ، وهو أكرم عناصر هذا الـكون ، فى التصور الإسلامى .

وإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأنا، والأرخص سعرا : كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية ... وما إليها ... لا يوكل أمرها ـ عادة ـ إلا لأكفأ المرشحين لها ؛ ممن تخصصوا فى هذا الفرع علميا ، ودربوا عليـه عمليا ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعيـة للإدارة والقوامة . . .

إذا كان هذا هو الشأن فى المؤسسات الأقل شأنا والأرخص سعرا .. فأولى أن تتبع هذه القاعدة فى مؤسسة الأسرة ، التى تنشِىء تنشّى ء أثمن عناصر الـكون .. العنصر الإنسانى ..

والمنهج الربانى يراعى هذا . ويراعى به الفطرة ، والاستعدادات الموهوبة لشطرى النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات، كما يراعى به العدالة فى توزيع الأعباء

Marfat.com

على شطرى النفس الواحدة . والعدالة فى اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة ..

والمسلم به ابتداء أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يظلم أحدا من خلقه ، وهو يهيئه ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة !

وقد خلق الله الناس ذكرا وأنثى .. زوجين على أساس القاعدة الكلية فى بناء هذا الكون:. وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل.. وهى وظائف ضخمة أولا وخطيرة ثانيا . وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدى بدون إعداد عضوى ونفسى وعقلى عميق غائر فى كيان الأنثى ! فكان عدلا كذلك أن ينوط بالشطر الثانى ـ الرجل ـ توفير الحاجات الضرورية . وتوفير الحماية كذلك للأنثى ؛ كى تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ؛ ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل .. ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها فى آن واحد ! وكان عدلا كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص فى تكوينه العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينه على أداء وظائفه هذه . وأن تمنح المرأة فى تكوينها العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينها على أداء وظيفتها تلك

وكان هذا فعلا .. ولا يظلم ربك أحدا ..

ومن ثم زودت المرأة ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطف ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ـ بغير وعى ولا سابق تفكير ـ لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها ـ حتى فى الفرد الواحد ـ لم تترك لأرجحة الوعى والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية ! لتسهل تلبيتها فورا وفيما يشبه أن يكون قسرا . ولكنه قسر داخلى غير مفروض من الخارج ؛ ولذيذ ومستحب فى معظم الأحيان كذلك، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى ـ مهما يكن فيها من المشقة والتضحية ! صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وهذه الخصائص ليست سطحية . بل هى غائرة فى التكوين العضوى والعصبى والعقلى والنفسى للمرأة .. بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة فى تكوين كل خلية. لأنها عميقة

Marfat.com

فى تكوين الخلية الأولى ، التى يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية !

وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ؛ واستخدام الوعى والتفكير قبل الحركة والاستجابة . لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذى كان يمارسه فى أول عهده بالحياة إلى القتال الذى يمارسه دائما لحماية الزوج والأطفال. إلى تدبير المعاش .. إلى سائر تكاليفه فى الحياة .. لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروى قبل الإقدام ؛ وإعمال الفكر ، والبطء فى الاستجابة بوجه عام ! .. وكلها عميقة فى تكوينه عمق خصائص المرأة فى تكوينها ..

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل فى مجالها .. كما أن تكليفه بالإنفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل فى هذه القوامة ؛ والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها ..

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآنى ، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء فى المجتمع الإسلامى .

قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد . ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات . ولها أسبابها من العدالة فى التوزيع من ناحية ؛ وتكليف كل شطر ـ فى هذا التوزيع ـ بالجانب الميسر له ، والذى هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته فى مكانها .. فى الاستعداد للقوامة والدربة عليها .. والنهوض بها بأسبابها .. لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسسات الأقل شأنا والأرخص سعرا ـ ولأن أحد شطرى النفس البشرية مهيأ لها ، معان عليها ، مكلف تكاليفها . وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها .. ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى .. وإذا هو هيء لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العلمى والعملى ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى .. وظيفة الأمومة .. لأن لها هى الأخرى مقتضياتها واستعداداتها . وفى مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة . فوق الاستعدادات الغائرة فى التكوين العضوى والعصبى؛ وآثارها فى السلوك والاستجابة !

Marfat.com

Marfat.com

إنها مسائل خطيرة . . أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر . . وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء . . وحين تركت لهم ولأهوائهم فى الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديدا خطيرا فى وجودها ذاته ؛ وفى بقاء الخصائص الإنسانية ، التى تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز .

ولعل من الدلائل التى تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ؛ ووجود قوانينها المتحكمة فى بنى الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها . .

لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن تدهور وانهيار ؛ ومن تهديد بالدمار والبوار ، فى كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة . فاهتزت سلطة القوامة فى الأسرة . أو اختلطت معالمها . أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة !

ولعل من هـذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامة على أصلها الفطرى فى الأسرة . وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ؛ عندما تعيش مع رجل ، لا يزاول مهام القوامة ؛ وتنقصه صفاتها اللازمة ؛ فيكل إليها هى القوامة ! وهى حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات فى الظلام !

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال ـ الذين ينشأون فى مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب . إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر . وإما لأنه مفقود : لوفاته ـ أو لعدم وجود أب شرعى ! ـ قلما ينشأون أسوياء . وقل ألا ينحرفوا إلى شذوذ ما ، فى تكوينهم العصبى والنفسى ، وفى سلوكهم العملى والخلقى . .

فهذه كلها بعض الدلائل ، التى تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة فى بنى الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها !

ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من هذا ـ فى سياق الظلال ـ عن قوامة الرجال ومقوماتها ومبرراتها ، وضرورتها وفطريتها كذلك . . ولكن ينبغى أن نقول : إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة فى البيت ولا فى المجتمع الإنسانى ؛ ولا إلغاء وضعها « المدنى » ـ كما بينا ذلك من قبل ـ وإنما هى وظيفة ـ داخل كيان الأسرة ـ لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها . ووجود القيم فى مؤسسة ما ، لا يلغى وجود ولا شخصية ولا حقوق

الشركاء فيها ، والعاملين فى وظائفها . فقد حدد الإسلام فى مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف فى نفسه وماله ، وآداب فى سلوكه مع زوجه وعياله[1]

* * *

وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه فى القوامة ، يجىء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيمانى فى محيط الأسرة :

« فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله » : .

فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون.. قانتة . . مطيعة . والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! ومن ثم قال : قانتات . ولم يقل طائعات . لأن مدلول اللفظ الأول نفسى ، وظلاله رخية ندية .. وهذا هو الذى يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطرى النفس الواحدة . فى المحضن الذى يرعى الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته !

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها فى غيبته ـ وبالأولى فى حضوره ـ فلا تبيح من نفسها فى نظرة أو نبرة ـ بله العرض والحرمة ـ مالا يباح إلا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة .

وما لايباح ، لاتقرره هى ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله سبحانه :

« بما حفظ الله » . .

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجه من نفسها ـ فى غيبته أو فى حضوره ـ

---

(١) ولزيادة الإيضاح فى جميع المسائل التى تناولتها هذه الفقرة من الموضوع يراجع : فصل « مجتمع عائلى » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » وفصل : « المرأة وعلاقات الجنسين » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » ، وكتاب « الحجاب » وكتاب « تفسير سورة النور » للأستاذ المودودى . وكتاب « الأسرة والمجتمع » ، وكتاب « حقوق الإنسان » للدكتور على عبد الواحد وافى . وكتاب « الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب ...

Marfat.com

مالا يغضب هو له . أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله . .

إن هنالك حكما واحدا فى حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها « بما حفظ الله » . . والتعبير القرآنى لايقول هذا بصيغة الأمر . بل بما هو أعمق وأشد توكيدا من الأمر . إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله ، هو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهن !

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات ، أمام ضغط المجتمع المنحرف . وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب : « بما حفظ الله » مع القنوت الطائع الراضى الودود . .

فأما غير الصالحات .. فهن الناشزات . (من الوقوف على النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهى صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية . فالناشز تبرز وتستعلى بالعصيان والتمرد ..

والمنهج الإسلامى لاينتظر حتى يقع النشوز بالفعل ، وتعلن راية العصيان ؛ وتسقط مهابة القوامة ؛ وتنقسم المؤسسة إلى معسكرين . . فالعلاج حين ينتهى الأمر إلى هـــذا الوضع قلما يجدى . ولا بد من المبادرة فى علاج مبادىء النشوز قبل استفحاله . لأن مآله إلى فساد فى هذه المنظمة الخطيرة ، لا يستقر معه سكن ولا طمأنينة ، ولا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين فى المحضن الخطير . ومآله بعد ذلك إلى تصدع وانهيار ودمار للمؤسسة كلها ؛ وتشرد للناشئين فيها ؛ أو تربيتهم بين عوامل هدامة مفضية إلى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية . . . وإلى الشذوذ . .

فالأمر إذن خطير . ولا بد من المبادرة باتخاذ الإجراءات المتدرجة فى علاج علامات النشوز منذ أن تلوح من بعيد . . وفى سبيل صيانة المؤسسة من الفساد ، أو من الدمار ، أيسح للمسئول الأول عنها أن يزاول بعض أنواع التأديب المصلحة فى حالات كثيرة . . لا للانتقام ، ولا للإهانة ، ولا للتعذيب . . ولـكن للإصلاح ورأب الصدع فى هـذه المرحلة المبـكرة من النشوز :

« واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن . واهجروهن فى المضاجع . واضربوهن . فإن أطعنـكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا » . .

واستحضار ما سبق لنا بيانه من تـكريم الله للإنسان بشطريه . ومن حقوق للمرأة نابعة

Marfat.com

من صفتها الإنسانية . ومن احتفاظ المرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكامل حقوقها . . بالإضافة إلى أن قوامة الرجل عليها لاتفقدها حقها فى اختيار شريك حياتها ؛ والتصرف فى أمر نفسها والتصرف فى أمر مالها ... إلى آخر هذه المقومات البارزة فى المنهج الإسلامى . .

استحضار هذا الذى سبق كله ؛ واستحضار ما قيل عن أهمية مؤسسة الأسرة كذلك . . يجعلنا نفهم بوضوح ـ حين لاتنحرف القلوب بالهوى والرءوس بالكبر ! ـ لماذا شرعت هذه الإجراءات التأديبية أولا . والصورة التى يجب أن تؤدى بها ثانيا . .

إنها شرعت كإجراء وقائى ـ عند خوف النشوز ـ للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع ، لالزيادة إفساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم !

إنها . . أبدا . . ليست معركة بين الرجل والمرأة . يراد لها بهذه الإجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهم بالنشوز ؛ وردها إلى السلسلة كالكلب المسجور !

إن هذا قطعا .. ليس هو الإسلام . إنما هو تقاليد بيئية فى بعض الأزمان . نشأت مع هوان « الإنسان » كله . لا هوان شطر منه بعينه . . فأما حين يكون هو الإسلام ، فالأمر مختلف جدا فى الشكل والصورة . وفى الهدف والغاية . .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن » . .

هذا هو الإجراء الأول . . الموعظة . . وهذا هو أول واجبات القيم ورب الأسرة . عمل تهذيبى . مطلوب منه فى كل حالة : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة » .. ولكنه فى هذه الحالة بالذات ، يتجه اتجاهاً معيناً لهدف معين . هوعلاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن .

ولكن العظة قد لا تنفع . لأن هناك هوى غالبا ، أو انفعالا جامحا ، أو استعلاء بجمال . أو بمال . أو بمركز عائلى .. أو بأى قيمة من القيم .تنسى الزوجة أنها شريكة فى مؤسسة ، وليست ندا فى صراع أو مجال افتخار ! .. هنا يجىء الإجراء الثانى .. حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ، ترفع بها ذاتها عن ذاته، أوعن مكان الشريك فى مؤسسة عليها قوامة .

Marfat.com

Marfat.com

« واهجروهن فى المضاجع » ..

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية ، التى يبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها . فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجـــاه هذا الإغراء ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التى تعتز بها . وكانت ـ فى الغالب ـ أميل إلى التراجع والملاينة ، أمام هذا الصمود من رجلها ، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه ، فى أحرج مواضعها ! .. على أن هناك أدبا معينا فى هذا الإجراء .. إجراء الهجر فى المضاجع . . وهو ألا يكون هجرا ظاهرا فى غير مكان خلوة الزوجين .. لا يكون هجرا أمام الأطفال ، يورث نفوسهم شرا وفسادا .. ولا هجرا أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها ، فتزداد نشوزا . فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ؛ ولا إفساد الأطفال ! . . وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الإجراء ..

ولـكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك .. فهل تترك المؤسسة تتحطم ؟ إن هناك إجراء ـ ولو أنه أعنف ـ ولـكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز :

« واضربوهن » ..

واستصحاب المعانى السابقة كلها ؛ واستصحاب الهدف من هـذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيبا للانتقام والتشفى . ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير . ويمنع أن يكون أيضـا للقسر والإرغام على معيشـــة لا ترضاها .. ويحدد أن يكون ضرب تأديب ، مصحوب بعاطفة المؤدب المربى ؛ كما يزاوله الأب مع أبنائه وكما يزاوله المربى مع تلميذه ..

ومعروف ـ بالضرورة ـ أن هـذه الإجراءات كلها لا موضع لهـا فى حالة الوفاق بين الشريكين فى المؤسسة الخطيرة . وإنما هى لمواجهة خطر الفساد والتصدع . فهى لا تكون إلا وهناك انحراف ما هو الذى تعالجه هذه الإجراءات ..

وحين لا تجدى الموعظة ، ولا يجدى الهجر فى المضاجع .. لابد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر ، ومن مستوى آخر ، لا تجدى فيه الوسائل الأخرى .. وقد تجدى فيه هذه الوسيلة !

وشواهد الواقع ، والملاحظات النفسية ، على بعض أنواع الانحراف ، تقول : إن هذه الوسـيلة تكون أنسب الوسائل لإشبـاع انحراف نفسى معين ، وإصلاح سـلوك صاحبه .. وإرضائه .. فى الوقت ذاته !

على أنه من غير آن يكون هناك هذا الانحراف المرضى ، الذى يعينه علم النفس التحليلى بالاسم؛ إذ نحن لانأخذ تقريرات علم النفس مسلمات « علمية » ، فهو لم يصبح بعد «علما» بالمعنى العلمى ، كما يقول الدكتور « ألكسيس كاريل » ، فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذى تحب نفسها أن تجعله قيما وترضى به زوجا ، إلا حين يقهرها عضليا ! وليست هذه طبيعة كل امرأة . ولكن هذا الصنف من النساء موجود . وهو الذى قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة .. ليستقيم . ويبق على المؤسسة الخطيرة .. فى سلم وطمأنينة !

وعلى أية حال ، فالذى يقرر هذه الإجراءات ، هو الذى خلق . وهو أعلم بمن خلق . وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهانرة ؛ وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به ، مفض إلى الخروج من مجال الإيمان كله . .

وهو ـ سبحانه ـ يقررها ، فى جو وفى ملابسات تحدد صفتها ، وتحدد النية المصاحبة لها ، وتحدد الغاية من ورائها . بحيث لايحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس فى عهود الجاهلية ؛ حين يتحول الرجل جلادا ـ باسم الدين ! ـ وتتحول المرأة رقيقا ـ باسم الدين ! ـ أو حين يتحول الرجل امرأة ؛ وتتحول المرأة رجلا ؛ أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة ـ باسم التطور فى فهم الدين ـ فهذه كلها أوضاع لايصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته فى نفوس المؤمنين !

وقد أبيحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز ـ قبل استفحالها ـ وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها ، فور تقريرها وإباحتها . وتولى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنته العملية فى بيته مع أهله ، وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك ، وتصحيح المفهومات فى أقوال كثيرة :

ورد فى السنن والمسند : عن معاوية ابن حيدة القشيرى ، أنه قال : يارسول الله ماحق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا ا كتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت » . .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تضربوا إماء الله » .. فجاء عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ذئرت

Marfat.com

النساء على أزواجهن ! فرخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ضربهن . فأطاف بآل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساء كثير يشتكين أزواجهن ! فقال رسول الله ـ صلى الله وسلم ـ « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن . . ليس أولئك بخياركم » ! !

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يضرب أحدكم امرأته كالعير يجلدها أول النهار . ثم يضاجعها آخره »[1] .

وقال : « خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلى »[2] . .

ومثل هذه النصوص والتوجيهات ؛ واللابسات التى أحاطت بها ؛ ترسم صورة لصراع الرواسب الجاهلية مع توجيهات المنهج الإسلامى ، فى المجتمع المسلم ، فى هذا المجال . وهى تشبه صورة الصراع بين هذه الرواسب وهذه التوجيهات فى شتى مجالات الحياة الأخرى . قبل أن تستقر الأوضاع الإسلامية الجديدة ، وتعمق جذورها الشعورية فى أعماق الضمير المسلم فى المجتمع الإسلامى . .

وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حد تقف عنده ـ متى تحققت الغاية ـ عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات . فلا تتجاوز إلى ما وراءها :

« فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . .

فعند تحقق الغاية تقف الوسيلة . مما يدل على أن الغاية ـ غاية الطاعة ـ هى المقصودة . وهى طاعة الاستجابة لاطاعة الإرغام . فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة ، قاعدة الجماعة .

ويشير النص إلى أن المضى فى هذه الإجراءات بعد تحقق الطاعة بغى وتحكم وتجاوز .

« فلا تبغوا عليهن سبيلا » . .

ثم يعقب على هذا النهى بالتذكير بالعلى الكبير . . كى تطامن القلوب ، وتعنو الرؤوس ، وتتبخر مشاعر البغى والاستعلاء ، إن طافت ببعض النفوس : على طريقة القرآن فى الترغيب والترهيب .

---

(١) عن أبى هريرة . ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

(٢) رواه الترمذى والطبرانى

Marfat.com

« إن الله كان عليا كبيرا » . .

* * *

ذلك حين لايستعلن النشوز ، وإنما تتقى بوادره . فأما إذا كان قد استعلن ، فلا تتخذ تلك الإجراءات التى سلفت . إذ لاقيمة لها إذن ولا ثمرة . وإنما هى إذن صراع وحرب بين خصمين ليحطم أحدهما رأس الآخر ! وهذا ليس المقصود ، ولا المطلوب . . وكذلك إذا رئى أن استخدام هذه الإجراءات قد لا يجدى ؛ بل سيزيد الشقة بعدا ، والنشوز استعلانا ؛ ويمزق بقية الخيوط التى لا تزال مربوطة . أو إذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل إلى غير نتيجة .. فى هذه الحالات كلها يشير المنهج الإسلامى الحكيم بإجراء أخير ؛ لإنقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار . قبل أن ينفض يديه منها ويدعها تنهار :

« وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا » : .

وهكذا لايدعو المنهج الإسلامى إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية ؛ ولا إلى المسارعة بفصم عقدة النكاح ، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار ـ الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة ـ فمؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام ؛ بقدر خطورتها فى بناء المجتمع ، وفى إمداده باللبنات الجديدة ، اللازمة لنموه ورقيه وامتداده .

إنه يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة ـ عند خوف الشقاق ـ فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلا .. يبعث حكم من أهلها ترتضيه ، وحكم من أهله يرتضيه . يجتمعان فى هدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية ، وللابسات العيشية ، التى كدرت صفو العلاقات بين الزوجين . طليقين من هذه المؤثرات التى تفسد جو الحياة ، وتعقد الأمور ، وتبدو ـ لقربها من نفسى الزوجين ـ كبيرة تغطى على كل العوامل الطيبة الأخرى فى حياتهما . حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين . مشفقين على الأطفال الصغار . بريئين من الرغبة فى غلبة أحدهما على الآخر ـ كما قد يكون الحال مع الزوجين فى هذه الظروف ـ راغبين فى خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار . . . وفى الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار

Marfat.com

الزوجين ، لأنهما من أهلهما : لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار . إذ لامصلحة لهما فى التشهير بها ، بل مصلحتهما فى دفنها ومداراتها !

يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح . فإن كان فى نفسى الزوجين رغبة حقيقية فى الإصلاح ، وكان الغضب فقط هو الذى يحجب هذه الرغبة ، فإنه بمساعدة الرغبة القوية فى نفس الحكمين، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق :

« إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » . .

فهما يريدان الإصلاح ، والله يستجيب لهما ويوفق . .

وهذه هى الصلة بين قلوب الناس وسعيهم ، ومشيئة الله وقدره .. إن قدر الله هو الذى يحقق ما يقع فى حياة الناس . ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا ؛ وبقدر الله ـ بعد ذلك ـ يكون ما يكون .

ويكون عن علم بالسرائر وعن خبرة بالصوالح :

« إن الله كان عليما خبيرا » .

وهكذا نرى ـ فى هذا الدرس ـ مدى الجدية والخطورة فى نظرة الإسلام إلى المرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة ، وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية . . ونرى مدى اهتمام المنهج الإسلامى بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الإنسانية . ونطلع على نماذج من الجهد الذى بذله هذا المنهج العظيم ، وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة ـ التى التقطها من سفح الجاهلية ـ فى المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة على هدى الله . الذى لاهدى سواه ..

«وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ؛ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ، وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ، وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ، وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

Marfat.com

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ ؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ! * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللهُ ؟ وَكَانَ ٱللهُ بِهِمْ عَلِيماً * إِنَّ ٱللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ؛ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ، وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللهَ حَدِيثاً .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَأَنتُمْ سُكَارَى ، حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً - إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ - حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ ، أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَائِطِ ، أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً - فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً » ﴿٤٣﴾

هناك أكثر من مناسبة واحدة ، تربط بين مطلع هذا الدرس ؛ وبين محور السورة كلها، وموضوعاتها الأساسية من ناحية ؛ وبينه وبين موضوعات الدرس السابق فى هـذا الجزء من ناحية أخرى .

فهذا الدرس بدء جولة فى تنظيم حياة المجتمع المسلم ؛ وتخليصه من رواسب الجاهلية ؛ وتثبيت اللامح الإسلامية الجديدة ؛ والتحذير من أهل الكتاب - وهم اليهود بالمدينة - وماجبلوا عليه من شر ونكر ؛ وما ينفثونه فى المجتمع المسلم ، وما يبذلونه من جهود لتعويق نموه وتكامله - وبخاصة من الناحية الأخلاقية ، وناحية التكافل والتعاون ، اللتين هما موضع القوة النامية فى هذا المجتمع الجديد .

Marfat.com

ولأن الدرس الجديد جولة جديدة ، فقد بدأ بالقاعدة الأولية التى يقوم عليها المجتمع المسلم ـ قاعدة التوحيد الخالص ـ التى تنبثق منها حياته ؛ وينبثق منها منهج هـذه الحياة ، فى كل جانب ، وفى كل اتجاه .

وقد سبق هذا الدرس أشواط منوعة فى التنظيم العائلى، والتنظيم الاجتماعى . وكان الحديث فى الدرس السابق عن الأسرة وتنظيمها ووسائل صيانتها ، والروابط التى تشدها وتوثق بناءها .. فجاء هذا الدرس يتناول علاقات إنسانية ـ فى المجتمع المسلم ـ أوسع مدى من علاقات الأسرة ؛ ومتصلة بها كذلك . متصلة بها بالحديث عن الوالدين . ومتصلة بها فى توسعها بعد علاقة الوالدين ، لتشمل علاقات أخرى ؛ ينبع الشعور بها من المشاعر الودود الطيبة التى تنشأ فى جو الأسرة المتحابة ؛ حتى تفيض على جوانب الإنسانية الأخرى ؛ ويتعلمها الإنسان ـ أول مايتعلمها ـ فى جو الأسرة الحانى ومحضنها الرفيق . ومن هناك يتوسع فى علاقاته بأسرة الإنسانية كلها ؛ بعد مابذرت بذورها فى حسه أسرته الخاصة القريبة .

ولأن فى الدرس الجديد توجيهات إلى رعاية الأسرة القريبة ـ العائلة ـ والأسرة الكبيرة ـ الإنسانية ـ وإقامة قيم وموازين فى هذا الحقل ، للباذلين وللباخلين .. فقد ابتدأ الدرس بالقاعدة الأساسية التى تنبثق منها كل القيم والموازين ـ كما ينبثق منها منهج الحياة كله فى المجتمع المسلم ـ وهى قاعدة التوحيد .. وربط كل حركة وكل نشاط ، وكل خالجة وكل انفعال بمعنى العبادة لله . التى هى غاية كل نشاط إنسانى ، فى ضمير المسلم وفى حياته ..

وبسبب من الحديث عن عبادة الله وحده ـ فى محيطها الشامل ـ جاءت الفقرة الثانية فى الدرس ؛ تبين بعض أحكام الصلاة والطهارة ؛ وتتخذ خطوة فى طريق تحريم الخمر ـ ولم تكن قد حرمت بعد ـ باعتبار هذه الخطوة جزءا من برنامج التربية الإسلامية العامة الدائبة الخطى فى المجتمع الوليد . وباعتبار علاقتها بالعبادة والصلاة والتوحيد ..

حلقات متماسكة بعضها مع بعض . ومع الدرس السابق . ومع محور السورة كذلك .

* * *

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى

Marfat.com

وللساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم .. إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ! وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ، وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ..

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن إشراك شىء به .. تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر ، وهذا النهى ، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة فى أواخر الدرس الماضى . فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة فى هذا الدين . فليس هو مجرد عقيدة تستكن فى الضمير ؛ ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ؛ ولا مجرد تنظيم دنيوى منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية .. إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ، ويربط بين جوانبه ، ويشدها جميعا إلى الأصل الأصيل . وهو توحيد الله . والتلقى منه وحده — فى هذا النشاط كله — دون سواه . توحيده إلها معبودا . وتوحيده مصدرا للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنسانى أيضا . لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك — فى الإسلام — وفى دين الله الصحيح على الإطلاق .

ويلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة ، والأسرة الإنسانية ؛ وتقبيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل ، وكتمان فضل الله — من أى نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين — والتحذير من اتباع الشيطان ؛ والتلويح بعذاب الآخرة ، وما فيه من خزى وافتضاح .. لربط هذا كله بالتوحيد ؛ وتحديد للمصدر الذى يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئا . وهو مصدر كذلك واحد لا يتعدد

Marfat.com

Marfat.com

ولا يشاركه أحد فى التوجيه والتشريع ؛ كما لا يشاركه أحـد فى الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا . وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ... » .

إن التشريعات والتوجيهات ـ فى منهج الله ـ إنما تنبثق كلها من أصل واحد ، وترتكز على ركيزة واحدة . إنهـا تنبثق من العقيدة فى الله ، وترتكز على التوحيد المطلق سمـة هذه العقيدة . . ومن ثم يتصل بعضها ببعض ؛ ويتناسق بعضها مع بعض ؛ ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية ؛ وتصبح دراسة أى منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الـكبير الذى تلتقى عنده ؛ ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام ؛ كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامى فى الحياة .

من العقيدة فى الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الـكونية والحيوية والإنسانية . تلك التصورات التى تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية . والتى تؤثر فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، فى كل مجالى النشاط الإنسانى فى الأرض ؛ والتى تـكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع ؛ والتى تجعل المعاملات عبادات ـ بما فيها من اتباع لمنهج الله ومراقبة الله ـ والعبادات قاعدة المعاملات ـ بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ـ والتى تحيل الحياة فى النهاية وحدة متماسكة ؛ تنبثق من المنهج الربانى ، وتتلقى منه وحده دون سواه ، وتجعل مردها فى الدنيا والآخرة إلى الله .

هذه السمة الأساسية فى العقيدة الإسلامية ، وفى المنهج الإسلامى ، وفى دين الله الصحيح كله ، تبرز هنا فى تصدير آية الإحسان إلى الوالدين والأقربين ، وغيرهم من طوائف الناس . بعبادة الله وتوحيده ـ كما أسلفنا ـ ثم فى الجمع بين قرابة الوالدين ، وقرابة هذه الطوائف من الناس ، متصلة هذه وتلك بعبادة الله وتوحيده ـ كذلك ـ وذلك بعد أن جعل هـذه العبادة وهذا التوحيد واسطة ما بين دستور الأسرة القريبة فى نهاية الدرس الماضى ، ودستور

Marfat.com

الجزء الخامس

العلاقات الإنسانية الواسعة فى هـذا الدرس ـ على النحو الذى بينا من قبل ـ ليصلها جميعا بتلك الآصرة التى تضم الأواصر جميعا ؛ وليوحد المصـدر الذى يشرع ويوجه فى شأن هذه الأواصر جميعا . .

« واعبدوا الله . . ولا تشركوا به شيئا » . .

الأمر الأول بعبادة الله . . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد ـ معه ـ سواه . نهيا باتا شاملا ، لـكل أنواع المعبودات التى عرفتها البشرية : « ولا تشركوا به شيئا » . . شيئا كائنا ماكان ، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان . . فـكلها مما يدخل فى مدلول كلمة شىء ، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال . .

ثم ينطلق إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين ـ على التخصيص ـ ولذوى القربى ـ على التعميم ـ ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين ـ وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية ؛ فقد كان الله أرحم بالذرارى من آبائهم وأمهاتهم فى كل حال . والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين . بالجيـل المدبر المولى . إذ الأولاد ـ فى الغالب ـ يتجهون بكينونتهم كلها ، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذى يخلفهم ؛ لا الجيل الذى خلفهم ! وبينما هم مدفوعون فى تيار الحياة إلى الأمام ، غافلون عن التلفت إلى الوراء ، تجيئهم هـــذه التوجيهات من الرحمن الرحيم ، الذى لا يترك والدا ولا مولودا ، والذى لا ينسى ذرية ولا والدين ؛ والذى يعـلم عباده الرحمـة بعضهم ببعض ، ولو كانوا ذرية أو والدين !

كذلك يلحظ فى هذه الآية ـ وفى كثير غيرها ـ أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوى القربى ـ قرابة خاصة أو عامة ـ ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها ، إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الإنسانية الـكبيرة . وهذا المنهج يتفق ـ أولا ـ مع الفطرة ويسايرها . فعاطفة الرحمة ، ووجدان المشاركة ، يبدآن أولا فى البيت . فى الأسرة الصغيرة . وقلما ينبثقان فى نفس لم تذق طعم هذه العاطفة ولم تجد مس هذا الوجدان فى المحضن الأول . والنفس كذلك أميل إلى البدء بالأقربين ـ فطرة وطبعا ـ ولا بأس من ذلك ولا ضير ؛ ما دامت توجه دائما

إلى التوسع فى الدائرة من هذه النقطة ومن هذا المحور . . ثم يتفق المنهج ـ ثانيا ـ مع طريقة التنظيم الاجتماعى الإسلامية : من جعل التكافل يبدأ فى محيط الأسرة ؛ ثم ينساح فى محيط الجماعة . كى لا يركز عمليات التكافل فى يد الأجهزة الحكومية الضخمة ـ إلا عندما تعجز الأجهزة الصغيرة المباشرة ـ فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل : فى وقته المناسب وفى سهولة ويسر . وفى تراحم وود يجعل جو الحياة لائقا بينى الإنسان !

وهنا يبدأ بالإحسان إلى الوالدين . ويتوسع منهما إلى ذوى القربى . ومنهم إلى اليتامى والمساكين ـ ولو أنهم قد يكونون أبعد مكانا من الجار. ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية ـ ثم الجار ذو القرابة . فالجار الأجنبى ـ مقدمين على الصاحب المرافق ـ لأن الجار قربه دائم ، أما الصاحب فلقاؤه على فترات ـ ثم الصاحب المرافق ـ وقد ورد فى تفسيره أنه الجليس فى الحضر ، الرفيق فى السفر ـ ثم ابن السبيل . العابر المنقطع عن أهله وماله . ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات « ملك اليمين » ولكنهم يتصلون بآصرة الإنسانية الكبرى بين بنى آدم أجمعين .

ويعقب على الأمر بالإحسان ، بتقبيح الاختيال والفخر ، والبخل والتبخيل ، وكتمان نعمة الله وفضله ، والرياء فى الإنفاق ؛ والكشف عن سبب هذا كله ، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتباع الشيطان وصحبته :

« إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ! » . .

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية فى المنهج الإسلامى . وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة . فإفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبادة والتلقى ، يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ؛ فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله .. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ،

Marfat.com

وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ؛ أو الإنفاق رياء وتظاهرا طلبا للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وهكذا تتحدد « الأخلاق » .. أخلاق الإيمان . وأخلاق الكفر .. فالباعث على العمل الطيب ، والخلق الطيب ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتطلع إلى رضاء الله .. وجزاء الآخرة. فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس ، ولا يتلقاه ابتداء من عرف الناس ! فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغى وجهه ، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة فى رضاه . وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء . . اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس . وهذه لا ضابط لها فى جيل واحد فى رقعة واحدة ، فضلا عن أن يكون لها ضابط ثابت فى كل زمان وفى كل مكان ! وكانت هذه هى بواعثهم للعمل . وكان هناك التأرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التى لا تثبت على حال ! وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء ، والبخل والتبخيل ، ومراءاة الناس لا التجرد والإخلاص !

والتعبير القرآنى يقول : إن الله « لا يحب » هؤلاء .. والله ـ سبحانه ـ لا ينفعل انفعال الكره والحب . إنما المقصود ما يصاحب هذا الانفعال فى مألوف البشر من الطرد والأذى وسوء الجزاء : « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » . . والإهانة هى الجزاء المقابل للفخر والخيلاء . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلاله ـ إلى جوار المعنى المقصود ـ وهى ظلال مقصودة ؛ تثير فى النفوس الكره لهذه الصفات ، ولهذه التصرفات ؛ كما تثير الاحتقار والاشمئزاز . وبخاصة حين يضم إليها أن الشيطان هو قرينهم : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » !

وقد ورد أن هذه النصوص نزلت فى جماعة من يهود المدينة .. وهى صفات تنطبق على اليهود ، كما تنطبق على المنافقين .. وكلاهما كان موجودا فى المجتمع المسلم فى ذلك الحين .. وقد تكون الإشارة إلى كتمانهم ما آتاهم الله من فضله ، تعنى كذلك كتمانهم للحقائق التى يعرفونها فى كتبهم عن هذا الدين ، وعن رسوله الأمين .. ولكن النص عام ، والسياق بصدد الإحسان بالمال وبالمعاملة . فأولى أن نترك مفهومه عاما . لأنه الأقرب إلى طبيعة السياق .

وحين ينتهى من عرض سوءات نفوسهم ؛ وسوءات سلوكهم ؛ ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر ، وصحبة الشيطان واتباعه ؛ ومن الجزاء المعد المهيأ لأصحاب هذه

Marfat.com

السوءات ، وهو العذاب المهين .. عندئذ يسأل فى استنكار :

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله ، واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما » . .

أجل ! ماذا عليهم ؟ ما الذى يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإنفاق من رزق الله . والله عليم بهم بما أنفقوا وبما استقر فى قلوبهم من بواعث . والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم . ولا خوف من الظلم فى جزائهم .. بل هناك الفضل والزيادة ، بمضاعفة الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلا حساب ؟

إن طريق الإيمان أضمن وأكسب ـ على كل حال وعلى كل احتمال ـ وحتى بحساب الربح المادى والخسارة المادية ، فإن الإيمان ـ فى هذه الصورة ـ يبدو هو الأضمن وهو الأربح ! فماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ إنهم لا ينفقون من شىء خلقوه لأنفسهم خلقا ؛ إنما هو رزق الله لهم . ومع ذلك يضاعف لهم الحسنة ، ويزيدهم من فضله، وهم من رزقه ينفقون ويعطون ! فياله من كرم ! وياله من فيض ! ويا لها من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران !

ثم يختم الأوامر والنواهى ، والتحضيض والترغيب ، بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يجسم موقفهم فيه بريشة ترسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة .. على طريقة القرآن فى مشاهد القيامة :

« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ..

إنه يمهد لمشهد القيامة ، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة .. وإذن فهو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه قيد شعرة .. وأنه يضاعف الحسنات ويؤتى فضلا عنها أجرا من لدنه عظيما .. فهى الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ؛ والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل ، بالإيمان والعمل ..

فأما هؤلاء . هؤلاء الذين لم يقدموا إيمانا ، ولم يقدموا عملا ... هؤلاء الذين لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل .. فكيف يكون حالهم يومذاك ؟ كيف يكون الحال ، إذا جئنا من كل

Marfat.com

أمة بشهيد ـ هو نبيها الذى يشهد عليها ـ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟

وعندئذ يرتسم المشهد شاخصا .. ساحة العرض الواسعة . وكل أمة حاضرة . وعلى كل أمة شهيد بأعمالها .. وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون المبخلون ، الكاتمون لفضل الله ، المراءون الذين لم يبتغوا وجه الله .. هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير ! واقفين فى الساحة وقد انتدب الرسول صلى الله عليه وسلم للشهادة ! هؤلاء هم بكل ما أضمروا وأظهروا . بكل ما كفروا وما أنكروا . بكل ما اختالوا وما افتخروا . بكل ما بخلوا وبخلوا . بكل ما راءوا وتظاهروا .. هؤلاء هم فى حضرة الخالق الذى كفروا به، الرازق الذى كتموا فضله وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم . فى اليوم الآخر الذى لم يؤمنوا به . فى مواجهة الرسول الذى عصوه .. فكيف ؟ ؟ ؟

إنها المهانة والخزى ، والخجل والندامة .. مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار .

والسياق القرآنى لا يصف هذا كله من الظاهر . إنما يرسم « صورة نفسية » تتضح بهذا كله ؛ وترتسم حواليها تلك الظلال كلها . ظلال الخزى والمهانة ، والخجل والندامة :

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » !

ومن خلال اللمسات المعبرة فى الصورة الحية ، نحس بكل تلك المعانى ، وبكل تلك الانفعالات ، وهى تتحرك فى هذه النفوس .. نحس بها عميقة حية مؤثرة . كما لا نحس من خلال أى تعبير آخر .. وصفى أو تحليلى . . وتلك طريقة القرآن فى مشاهد القيامة ، وفى غيرها من مواضع التعبير بالتصوير[1] .

* * *

وقد بدأ الدرس بالأمر بعبادة الله والنهى عن إشراك شىء به . . والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة . وفى الآية التالية بيان لبعض أحكامها ، وأحكام الطهارة الممهدة لها :

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » وكتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » .

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ حتى تعلموا ما تقولون ـ ولا جنبا ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفوا غفورا » ..

إنها حلقة فى سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة ـ التى التقطها المنهج الإسلامى من سفح الجاهلية ـ وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلى الأصيلة الشاملة ؛ وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع . كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية فى القديم والحديث أيضاً . . الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الرومانى فى أوج جاهليته ؛ وللمجتمع الفارسى أيضاً . وكذلك هى اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربى والمجتمع الأمريكى فى أوج جاهليته ! والشأن أيضاً كذلك فى جاهلية المجتمع الإفريقى المتخلفة من الجاهلية الأولى !

فى السويد ـ وهى أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة ـ كانت كل عائلة فى النصف الأول من القرن الماضى تعد الخمر الخاصة بها . وكان متوسط ما يستهلكه الفرد ، حوالى عشرين لترا . وأحست الحكومة خطورة هذه الحال ، وما ينشره من إدمان ؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور ، وتحديد الاستهلاك الفردى ، ومنع شرب الخمور فى المحال العامة . . ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة ! فأبيح شرب الخمر فى المطاعم بشرط تناول الطعام . ثم أبيحت الخمر فى عدد محدود من المحال العامة ، حتى منتصف الليل فقط ! وبعد ذلك يباح شرب « النبيذ والبيرة » فحسب ! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف .. !

أما فى أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا فى سنة ١٩١٩ سمى قانون « الجفاف » ! من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع « الرى » بالخمر ! وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما ، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه فى سنة ١٩٣٣ . وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر . ويقدرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات . وأن مانشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة . وماتحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة أربعة عشر عاما لايقل عن ٢٥٠ مليون جنيه . وقد

Marfat.com

Marfat.com

أعدم فيها ٣٠٠ نفس ؛ وسجن كذلك ٥٣٢٫٣٣٥ نفسا . وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه . وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه . . وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون(١) .

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة فى المجتمع الجاهلى . . بيضع آيات من القرآن .

وهذا هو الفرق فى علاج النفس البشرية ، وفى علاج المجتمع الإنسانى .. بين منهج الله ، ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء !

ولكى ندرك تغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الجاهلى ، يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلى ؛ حيث نجد « الخمر » عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية ؛ كما أنه عنصر أساسى من عناصر الحياة كلها .

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر ، أن أصبحت كلمة التجارة ، مرادفة لبيع الخمر . . يقول لبيد :

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويقول عمرو ابن قميئة :

إذ أسحب الريط والروط إلى أدنى تجارى وأنفض اللمما

ووصف مجالس الشراب ، والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلى ، وتطبعه طابعا ظاهرا .

يقول امرؤ القيس :

وأصبحت ودعت الصبا غير أننى أراقب خلاّت من العيش أربعا
فمنهن قولى للندامى : ترفقوا يداجون نشاجا من الخمر مترعا
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا يبادرن سربا آمنا أن يفزّعا

. . . الخ

ويقول طرفة ابن العبد :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدى

---

(١) عن كتاب تنقيحات للسيد أبى الأعلى المودودى . نقلا عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد الندوى .

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كُمَيْتٍ متى ما تعْل بالماء تزبد
وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبذلى وإنفاقى طريفى وتالدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

ويقول الأعشى :

فقد أشرب الراح قد تعلمين يوم المقام ويوم الظعن
وأشرب بالريف حقيقا ل قد طال بالريف ماقد دجن

ويقول المنخل اليشكرى :

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإننى رب الخورنق والسدير (١)
وإذا صحوت فإننى رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير فى الشعر الجاهلى ...

ورواية الحوادث التى صاحبت مراحل تحريم الخمر فى المجتمع المسلم ، والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث .. وفيهم عمر ، وعلى ، وحمزة ، وعبد الرحمن ابن عوف .. وأمثال هذا الطراز من الرجال .. تشى بمدى تغلغل هذه الظاهرة فى الجاهلية العربية . وتكفى عن الوصف المطول المفصل :

يقول عمر رضى الله عنه فى قصة إسلامه .. فى رواية .. « كنت صاحب خمر فى الجاهلية. فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب ... »

وظل عمر يشرب الخمر فى الإسلام . حتى إذا نزلت آية : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . . قال : « اللهم بيّن لنا بيانا شافيا فى الخمر » .. واستمر .. حتى إذا نزلت هذه الآية : « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » .. قال : اللهم بيّن لنا بيانا شافيا فى الخمر ! حتى إذا نزلت آية التحريم الصريحة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

---

(١) قصران للنعمان ابن المنذر كانت تتحدث بهما العرب فى الجاهلية .

Marfat.com

الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . . قال : انتهينا انتهينا ! وانتهى ..

وفى سبب نزول هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ترد روايتان يشترك فى أحدانهما على وعبدَ الرحمن بن عوف من المهاجرين . وسعد بن معاذ من الأنصار .

روى ابن أبى حاتم : حدثنا يونس ابن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ بإسناده ـ عن مصعب ابن سعد يحدث عن سعد قال : « نزلت فى أربع آيات . صنع رجل من الأنصار طعاما فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار . فأكلنا وشربنا ، حتى سكرنا ، ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحى بعير (عظم الفك) فغرز بها أنف سعد . فكان سعد مغروز الأنف . وذلك قبل تحريم الخمر . فنزلت « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » . . . والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة .

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا محمد ابن عمار . حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله الدشتكى أبو جعفر . عن عطاء ابن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على ابن أبى طالب قال : « صنع لنا عبد الرحمن ابن عوف طعاما ، فدعانا ، وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا فلانا قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون . ما أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ماتعبدون ! فأنزل الله : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات ؛ لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر فى المجتمع الجاهلى . فهى كانت والميسر ، الظاهرتين البارزتين ؛ المتداخلتين ، فى تقاليد هذا المجتمع ..

فماذا صنع المنهج الربانى لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة ؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة ، التى لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبدا ؟ ماذا صنع ليقف فى وجه عادة أصيلة قديمة ، تتعلق بها تقاليد اجتماعية ؛ كما تتعلق بها مصالح اقتصادية ؟

لقد عالج المنهج الربانى هذا كله ببضع آيات من القرآن ؛ وعلى مراحل ، وفى رفق وتؤدة . وكسب المعركة . دون حرب . ودون تضحيات . ودون إراقة دماء ... والذى أريق فقط هو

Marfat.com

Marfat.com

دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت فى أفواه الشاربين ـ حين سمعوا آية التحريم ـ فمجوها من أفواههم . ولم يبلعوها . كما سيجىء !

فى مكة ـ حيث لم يكن للإسلام دولة ولاسلطان .. إلا سلطان القرآن ـ وردت فى القرآن الملكى تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر . تدرك من ثنايا العبارة . وهى مجرد إشارة :

جاء فى سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا » .. فوضع « السكر » وهو الشراب المسكر الذى كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب ، فى مقابل الرزق الحسن ! ملمحا بهذا التقابل إلى أن السكر شىء . والرزق « الحسن » شىء آخر .. وكانت مجرد لمسة من بعيد ؛ للضمير المسلم الوليد !

ولكن عادة الشراب ، أو تقليد الشراب ـ بمعنى أدق ـ فقد كان أعمق من عادة فردية . كان تقليدا اجتماعيا ، له جذور اقتصادية .. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة ..

وفى المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان .. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان . إنما كان أولا سلطان القرآن ..

وبدأ المنهج عمله فى رفق وفى يسر ، وفى خبرة بالنفس البشرية ، والأوضاع الاجتماعية .. بدأ بآية البقرة ردا على أسئلة تدل على خفر اليقظة فى الضمير المسلم ضد الخمر والميسر : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس .. وإثمهما أكبر من نفعهما .. »

وكانت هى الطرقة الأولى ، ذات الصوت المسموع .. فى الحس الإسلامى ، وفى الضمير الإسلامى ، وفى المنطق الفقهى الإسلامى .. فمدار الحل والحرمة .. أو الكراهية .. على رجحان الإثم أو رجحان الخير ، فى أمر من الأمور .. وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما .. فهذا مفرق الطريق ..

ولكن الأمر كان أعمق من هذا .. وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : « اللهم بين لنا بيانا شافيا فى الخمر » .. عمر !!! وهذا وحده يكفى لبيان عمق هذا التقليد فى نفس العربى !

ثم حدثت أحداث ـ كالتى رويناها ـ ونزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون » ..

Marfat.com

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل ..

لقد كانت هذه هى المرحلة الوسيطة ، بين التنفير من الخمر ، لأن إثمها أكبر من نفعها ، وبين التحريم البات ، لأنها رجس من عمل الشيطان وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة : هى « قطع عادة الشراب » أو « كسر الإدمان » .. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة . وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار . وبينها فترات لاتكفى للشراب ـ الذى يرضى المدمنين ـ ثم الإفاقة من السكر الغليظ ! حتى يعلموا ما يقولون ! فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق .. صباحا ومساء .. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة .. وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب .. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة ..

ومع ذلك . . فقد قال عمر رضى الله عنه ـ وهو عمر !!! ـ « اللهم بين لنا بيانا شافيا فى الخمر » ..

ثم مضى الزمن . ووقعت الأحداث . وجاء للموعد المناسب ـ وفق ترتيب المنهج ـ للضربة الحاسمة . فنزلت الآيتان فى المائدة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » ..

وانتهى المسلمون كافة . وأريقت زقاق الخمر ، وكسرت دنانها فى كل مكان .. بمجرد سماع الأمر .. ومج الذين كان فى أفواههم جرعات من الخمر مافى أفواههم ـ حين سمعوا ولم يبلعوها وهى فى أفواههم . وهم شاربون ..

لقد انتصر القرآن . وأفلح المنهج . وفرض سلطانه ـ دون أن يستخدم السلطان !!!

ولكن كيف كان هذا ؟ كيف تمت هذه المعجزة ، التى لا نظير لها فى تاريخ البشر ؛ ولا مثيل لها فى تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية فى أى مكان ، ولا فى أى زمان ؟

لقد تمت المعجزة ، لأن المنهج الربانى ، أخذ النفس الإنسانية ، بطريقته الخاصة .. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله ـ سبحانه ـ فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة

من زمان .. أخذها جملة لا تفاريق .. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة ..

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء .. فى الهواء ..

ملأ فراغها باهتمامات . منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها ، من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظى ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة ، وضيقها الخانق ، إلى رياض الإسلام البديعة ، وظلاله الندية ، ونوره الوضىء ، وحريته الكريمة ، وسمته التى تشمل الدنيا والآخرة !

وملأ فراغها ـ وهذا هو الأهم ـ بالإيمان . بهذا الإحساس الندى الرضى الجميل البهيج . فلم تعد فى حاجة إلى نشوة الخمر ، تحلق بها فى خيالات كاذبة وسمادير ! وهى ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضىء .. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب ، فتمج طعم الخمر ونشوتها ؛ وترفض خمارها وصداعها ؛ وتستقذر لوثتها وخمودها فى النهاية !

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية ؛ وفتحها بمفتاحها ، الذى لا تفتح بغيره ؛ وتمشى فى حناياها وأوصالها ؛ وفى مسالكها ودروبها .. ينشر النور ، والحياة ، والنظافة ، والطهر ، واليقظة ، والهمة ، والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخلافة فى الأرض، على أصولها ، التى قررها العليم الخبير ، وعلى عهد الله وشرطه ، وعلى هدى ونور . .

إن الخمر ـ كالميسر . كبقية الملاهى . الجنون بما يسمونه « الألعاب الرياضية » والإسراف فى الاهتمام بمشاهدها . . كالجنون بالسرعة . . كالجنون بالسينما .. كالجنون « بالمودات » « والتقاليع » .. كالجنون بمصارعة الثيران.. كالجنون ببقية التفاهات التى تغشى حياة القطعان البشرية فى الجاهلية الحديثة اليوم ، جاهلية الحضارة الصناعية !

إن هذه كلها ليست إلا تعبيرا عن الخواء الروحى .. من الإيمان أولا .. ومن الاهتمامات الكبيرة التى تستنفد الطاقة ثانيا .. وليست إلا إعلانا عن إفلاس هذه الحضارة فى إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية .. ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ ، كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التى ذكرنا .. وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى « الجنون » المعروف ، وإلى المرض النفسى والعصبى .. وإلى الشذوذ ..

Marfat.com

إنها لم تكن كلمات . . هى التى حققت تلك المعجزة الفريدة . . إنما كان منهج . منهج هذه الكلمات متنه وأصله . منهج من صنع رب الناس . لا من صنع الناس ! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج ، لا تؤدى إلى كثير !

إنه ليست المسألة أن يقال كلام ! فالكلام كثير . وقد يكتب فلان من الفلاسفة . أو فلان من الشعراء . أو فلان من المفكرين . أو فلان من السلاطين ! قد يكتب كلاما منمقا جميلا يبدو أنه يؤلف منهجا ، أو مذهبا ، أو فلسفة .. الخ .. ولكن ضمائر الناس تتلقاه ، بلاسلطان . لأنه « ما أنزل الله به من سلطان » ! فمصدر الكلمة هو الذى يمنحها السلطان . . وذلك فوق ما فى طبيعة المنهج البشرى ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور !

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج ، غير منهج العليم الخبير ؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التى شرعها الحكيم البصير ؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير ؟

متى ؟ متى ينتهون عن هذا الغرور ؟ ؟ ؟

* * *

ونعود من هذا الاستطراد إلى الآية الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ حتى تعلموا ما تقولون ـ ولا جنبا ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى تغتسلوا ... »

كما منعت الآية ـ الذين آمنوا ـ أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ـ حتى يعلموا ما يقولون ـ كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى يغتسلوا ..

وتختلف الأقوال فى المقصود من « عابرى سبيل » كما تختلف فى معنى قرب الصلاة المنهى عنه ..

فقول : إن المقصود هو عدم قرب المساجد ، أو المكث فيها ، لمن كان جنبا ، حتى يغتسل . إلا أن يكون عابرا بالمسجد مجرد عبور . وقد كان جماعة من الصحابة أبواب بيوتهم تفتح فى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو طريقهم من وإلى هذه البيوت . فرخص لهم فى المرور ـ وهم جنب ـ لا بالمكث فى المسجد ـ ولا الصلاة بطبيعة الحال ـ إلا بعد الاغتسال .

Marfat.com

وقول : إن المقصود هو الصلاة ذاتها . والنهى عن أدائها للجنب ـ إلا بعد الاغتسال ـ ما لم يكن مسافرا . فيحل له عندئذ أن يقصد المسجد وأن يصلى ـ بلا اغتسال ـ ولكن بالتيمم . الذى يسد مسد الغسل ـ عندئذ ـ كما يسد مسد الوضوء .

والقول الأول يبدو أظهر وأوجه . لأن الحالة الثانية ـ حالة السفر ـ ذكرت فى الآية نفسها بعد ذلك . فتفسير عابرى سبيل ـ بالمسافرين ، ينشىء تكرارا للحكم فى الآية الواحدة ، لا ضرورة له :

« وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ـ فلم تجدوا ماء ـ فتيمموا صعيدا طيبا . فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفوا غفورا » ..

فهذا النص يشمل حالة المسافر ـ عندما يصيبه حدث أكبر فيكون جنبا فى حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر ، فيكون فى حاجة إلى الوضوء ، لأداء الصلاة .

والنص يسويه فى هذه الحالة بمن كان مريضا ، فألم به حدث أكبر أو أصغر . أو بمن جاء من الغائط (والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه ، فكنى عن الفعل بالمجىء من مكان الفعل) فأصابه حدث أصغر يقتضى الوضوء . أو بمن لامس النساء . .

وفى « لامستم النساء » . . أقوال كذلك :

قول : إنه كناية عن الجماع . . فهو يستوجب الغسل .

وقول : إنه يعنى حقيقة اللمس . . لمس أى جزء من جسم الرجل لجسم المرأة . . وهو يستوجب الوضوء فى بعض المذاهب ، ولا يستوجبه فى بعضها . بتفصيلات تطلب فى كتب الفروع نذكر منها إجمالا :

« ا » اللمس يوجب الوضوء إطلاقا .

« ب » اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللامس ممن تثور الشهوة فى نفسه باللمس . وإذا كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس .

« ج » اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللامس نفسه ـ حسب تقديره فى كل حالة ـ أن اللمسة أثارت فى نفسه حركة .

Marfat.com

Marfat.com

« د » اللمس لا يوجب الوضوء إطلاقا ، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة . .

ولـكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم . . على طريقة الاختلافات الفقهية فى الفروع .

والذى نرجحه فى معنى « أو لامستم النساء » أنه كناية عن الفعل الذى يستوجب الغسل وبذلك نستغنى هنا عن كل الخلافات فى مسألة الوضوء . .

وفى جميع هذه الحالات المذكورة ، سواء كانت الحالة تستوجب الغسل أوتستوجب الوضوء للصلاة . . حين لا يوجد الماء ـ وكذلك حين يوجد ولـكن استعماله يكون ضارا أو غير مقدور عليه ـ يغنى عن الغسل والوضوء : التيمم . وقد جاء اسمه من نص الآية .

« فتيمموا صعيدا طيبا » . .

أى فاقصدوا صعيدا طيبا . . طاهرا . . والصعيد كل ما كان من جنس الأرض من تراب . أو حجر . أو حائط . ولو كان التراب مما على ظهر الدابة . أو فى الفراش من ذرات التراب المتطاير . متى كان هناك تراب يتطاير عند ضرب اليدين به .

وطريقة التيمم : إما خبطة واحدة بالـكفين على الصعيد الطاهر . ثم نفضهما . ثم مسح الوجه . ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما . . وإما خبطتان : خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعان . . ولا داعى هنا لذكر الخلافات الفقهية الدقيقة فيما وراء هذا . . فهذا الدين يسر ، وفى شرعية التيمم يتجلى معنى التيسير واضحا :

« إن الله كان عفوا غفورا » . .

وهو التعقيب الموحى بالتيسير . وبالعطف على الضعف ، وبالمسامحة فى القصور . والمغفرة فى التقصير . .

* * *

وقبل أن ننهى الحديث عن هذه الآية وعن هذا الدرس . . نقف أمام بضع لمسات فى هذه الآية القصيرة :

نقف أمام « حكمة التيمم » . نحاول استيضاح ما ييسره لنا الله من حكمتها . .

إن بعض الباحثين فى حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية ، يندفعون أحيانا فى تعليل

Marfat.com

هذه الأحكام ؛ بصورة توحى بأنهم استقصوا هذه الحكمة ؛ فلم يعد وراء ما استقصوه شىء ! وهذا منهج غير سليم فى مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية . . ما لم يكن قد نص على حكمتها نصا . . وأولى : أن نقول دائما : إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم . وأنه قد تكون دائما هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا فى استجلائها ! و بذلك نضع عقلنا البشرى ـ فى مكانه ـ أمام النصوص والأحكام الإلهية . بدون إفراط ولا تفريط . .

أقول هذا ، لأن بعضنا ـ ومنهم المخلصون ـ يحبون أن يقدموا النصوص والأحكام الإسلامية للناس ، ومعها حكمة محددة ، مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم أو مما كشف عنه « العلم الحديث » ! وهذا حسن ـ ولكن فى حدود ـ هى الحدود التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة .

وكثيرا ما ذكر عن حكمة الوضوء ـ قبل الصلاة ـ أنها النظافة . .

وقد يكون هذا المعنى مقصودا فى الوضوء . ولكن الجزم بأنه هو .. وهو دون غيره . . هو المنهج غير السليم . وغير المأمون أيضا :

فقد جاء وقت قال بعض المحاكين : لا حاجة بنا إلى هذه الطريقة البدائية . فالنظافة الآن موفورة . والناس يجعلونها فى برنامج حياتهم اليومى . فإذا كانت هذه هى «حكمة الوضوء» فلا داعى للوضوء إذن للصلاة ! بل . . لا داعى للصلاة أيضا ! !

وكثيرا ما ذكر عن « حكمة الصلاة » . . . تارة أنها حركات رياضية تشغل الجسم كله وتارة بأنها تعويد على النظام : أولا فى مواقيتها . وثانيا فى حركاتها . وثالثا فى نظام الصفوف والإمامة ... الخ . وتارة أنها الاتصال بالله فى الدعاء والقراءة . . وهذا وذاك وذلك قد يكون مقصودا . . ولكن الجزم بأن هذا أو ذاك أو ذلك هو « حكمة الصلاة » يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون .

وقد جاء حين من الدهر قال بعضهم فيه : إنه لا حاجة بنا إلى حركات الصلاة الرياضية . فالتدريبات الرياضية المنوعة كفيلة بهذا بعد أن أصبحت الرياضة فنا من الفنون !

وقال بعضهم : ولا حاجة بنا إلى الصلاة لتعود النظام . فعندنا الجندية ـ مجال النظام الأكبر وفيها غناء !

وقال بعضهم : لا حاجة لتحتيم شكل هذه الصلاة . فالاتصال بالله يمكن أن يتم فى خلوة ونجوة بعيدا عن حركات الجوارح ، التى قد تعطل الاستشراف الروحى !

وهكذا . . إذا رحنا « نحدد » حكمة كل عبادة . وحكمة كل حكم . ونعلله تعليلا وفق « العقل البشرى » أو وفق « العلم الحديث » ثم نجزم بأن هذاهو المقصود .. فإننا نبعد كثيرا عن المنهج السليم فى مواجهة نصوص الله وأحكامه . كما نبعد كذلك عن الحد المأمون . ونفتح الباب دائما للمماحكات . فوق ما تحتمله تعليلاتنا من خطأ جسيم . وبخاصة حين نربطها بالعلم . والعلم قلب لا يثبت على حال . وهو كل يوم فى تصحيح وتعديل !

وهنا فى موضوعنا الحاضر ـ موضوع التيمم ـ يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل ، ليست هى « مجرد » النظافة . وإلا فإن البديل من أحدهما أومن كليهما ، لايحقق هذه «الحكمة» ! فلا بد إذن من حكمة « أخرى » للوضوء أو الغسل . تكون متحققة كذلك فى «التيمم» ..

ولا نريد نحن أن نقع فى الغلطة نفسها فنجزم ! ولكننا نقول فقط : إنها ـ ربما ـ كانت هى الاستعداد النفسى للقاء الله ، بعمل ما ، يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية ، وبين اللقاء العظيم الكريم . . ومن ثم يقوم التيمم ـ فى هذا الجانب ـ مكان الغسل أو مكان الوضوء .

ويبقى وراء هذا علم الله الكامل الشامل اللطيف ؛ بدخائل النفوس ، ومنحنياتها ودروبها ، التى لا يعلمها إلا اللطيف الخبير . . ويبقى أن نتعلم نحن شيئا من الأدب مع الجليل العظيم العلى الكبير . .

ونقف مرة أخرى أمام حرص المنهج الربانى على الصلاة ؛ وعلى إقامتها فى وجه جميع الأعذار والمعوقات . وتذليل هذه المعوقات . والتيسير البادى فى إحلال التيمم محل الوضوء ، ومحل الغسل ، أو محلهما معاً ، عند تعذر وجود الماء ؛ أو عند التضرر بالماء (أو عند الحاجة إلى الماء القليل للشرب وضروريات الحياة) وكذلك عند السفر (حتى مع وجود الماء فى أقوال) . .

إن هذا كله يدل ـ بالإضافة إلى ما سيأتى فى السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف ـ فى ميدان القتال ـ على حرص شديد من المنهج الربانى ، على الصلاة . . بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب (ويبدو ذلك كذلك فى المرض حيث تؤدى الصلاة من قعود ،

Marfat.com

أو من اضطجاع ، أو من نوم . وتؤدى بحركات من جفنى العين عندما يشق تحريك الجسم والأطراف !)

إنها هذه الصلة بين العبد والرب . الصلة التى لا يحب الله للعبد أن ينقطع عنها . لأنه ـ سبحانه ـ يعلم ضرورتها لهذا العبد . فالله سبحانه غنى عن العالمين . ولا يناله من عبادة العباد شىء . إلا صلاحهم هم . وإلا ما يجدون فى الصلاة والاتصال بالله ، من العون على تكاليفهم ، والاسترواح لقلوبهم ، والاطمئنان لأرواحهم . والإشراق فى كيانهم ؛ والشعور بأنهم فى كنف الله ، وقربه ، ورعايته ، بالطريقة التى تصلح لفطرتهم . . والله أعلم بفطرتهم هذه ، وبما يصلح لها وما يصلحها . . وهو أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير .

ونقف كذلك أمام بعض التعبيرات الرائقة فى هذا النص القصير :

ذلك حين يعبر عن قضاء الحاجة فى الغائط بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » . . فلا يقول : إذا عملتم كذا وكذا . . بل يكتفى بالعودة من هذا المكان ، كناية عما تم فيه ! ومع هذا لا يسند الفعل إلى المخاطبين . فلا يقول : أو جئتم من الغائط . بل يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط » زيادة فى أدب الخطاب ، ولطف الكناية . ليكون هذا الأدب نموذجا للبشر حين يتخاطبون !

وحين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله : « أو لامستم النساء » والتعبير بالملامسة أرق وأحشم وأرق ـ والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيرا عنه ـ وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس ، فى الحديث عن مثل هذه الشؤون . عندما لا يكون هناك مقتض للتعبير المكشوف .

وحين يعبر عن الصعيد الطاهر ، بأنه الصعيد الطيب . ليشير إلى أن الطاهر طيب . وأن النجس خبيث .. وهو إيحاء لطيف المدخل إلى النفوس . .

وسبحان خالق النفوس . العليم بهذه النفوس !

Marfat.com

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ ، يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا * مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ، يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَٱسْمَعْ ـ غَيْرَ مُسْمَعٍ ـ وَرَاعِنَا ـ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ ـ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؛ وَٱسْمَعْ ، وَٱنظُرْنَا ، لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولًا * إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ؟ بَلِ ٱللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ ؛ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ ، وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ؟ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيماً * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ ، وَمِنْهُم مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ، لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ . إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

Marfat.com

Marfat.com

الصَّالِحَاتِ ، سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا » ﴿٥٧﴾

ابتداء من هذا الدرس فى السورة ، تبدأ المعركة التى يخوضها القرآن بالجماعة المسلمة ، فى مواجهة الجاهلية المحيطة بها ـ واليهود من أهل الكتاب خاصة ـ تلك المعركة التى شهدنا مواقعها ومجالاتها فى سورتى البقرة وآل عمران من قبل . . وهى هى .. والمعسكرات المعادية هى هى كذلك ! المعسكرات التى تحدثنا عنها فى تقديم سورة البقرة[1] ، وفى تقديم سورة آل عمران[2] ، وفى تقديم هذه السورة كذلك[3] .

ابتداء من هذا الدرس تبدأ المعركة الخارجية . معركة الجماعة المسلمة مع المعسكرات المعادية من حولها .. ولكن هذا فى الحقيقة ليس بدء المعركة . فكل ما سبق فى السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية ؛ ومحو الملامح الجاهلية ـ فى المجتمع المسلم الذى التقطه المنهج الربانى من سفح الجاهلية ـ وتخطيط وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة فى هذا المجتمع .. كل ذلك لم يكن بعيدا عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة فى المدينة خاصة ؛ وفى الجزيرة عامة . . إنما كان التمهيد الحقيقى لها ، والاستعداد الحقيقى لمواجهتها . . كانت تلك معركة البناء . بناء هذا المجتمع الجديد ، على أسس المنهج الإسلامى الجديد ؛ كى يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ، ويتفوق عليها .

وكما رأينا فى سورتى البقرة وآل عمران العناية تتجه أولا إلى بناء هذا المجتمع من داخله . بناء عقيدته وتصوراته ، وأخلاقه ومشاعره ، وتشريعاته وأوضاعه ، إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شىء عن طبيعة أعدائها ، ووسائلهم ، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم ، وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة ، وعيون مفتوحة ، وإرادات محشودة ، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء .. كذلك نجد الأمر هنا فى هذه السورة ، سواء بسواء .

---

(١) الجزء الأول من الطبعة الثانية المنقحة ص ٢٣ ـ ٣٤
(٢) الجزء الثالث من الطبعة نفسها ص ١١٧ ـ ١٢٧
(٣) الجزء الرابع : ص ٢٠١ ـ ٢٢٩

Marfat.com

لقد كان القرآن فيها جميعا ، يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ، فى كل جبهة . . كان يخوضها فى الضمائر والمشاعر ، حيث ينشىء فيها عقيدة جديدة ، ومعرفة بربها جديدة ، وتصورا للوجود جديدا ، ويقيم فيها موازين جديدة ، وينشىء فيها قيما جديدة ؛ ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية ؛ ويمحو ملامح الجاهلية فى النفس والمجتمع ؛ وينشىء ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة . . ثم يقودها فى المعركة مع أعدائها المتربصين بها فى الداخل والخارج . . اليهود والمنافقين والمشركين . . وهى على أتم استعداد للقائهم ، والتفوق عليهم ؛ بمتانة بنائها الداخلى الجديد : الاعتقادى والأخلاقى والاجتماعى والتنظيمى سواء . .

ولقد كان التفوق الحقيقى للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله ـ بما فيها مجتمع اليهود القائم فى قلب المدينة ـ هو تفوقه فى البناء الروحى والخلقى والاجتماعى والتنظيمى ـ بفضل المنهج القرآنى الربانى ـ قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا على العموم !

بل هو لم يكن قط تفوقا عسكريا واقتصاديا ـ ماديا ـ فقد كان أعداء المعسكر الإسلامى دائما أكثر عددا ، وأقوى عدة ، وأغنى مالا ، وأوفر مقدرات مادية على العموم ! سواء فى داخل الجزيرة العربية ، أو فى خارجها فى زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك . . ولكن التفوق الحقيقى كان فى ذلك البناء الروحى والخلقى والاجتماعى ـ ومن ثم السياسى والقيادى ـ الذى أسسه الإسلام بمنهجه الربانى المتفرد .

وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية فى بنائها الروحى والخلقى والاجتماعى ـ ومن ثم السياسى والقيادى ـ اجتاح الإسلام الجاهلية . . اجتاحها أولا فى الجزيرة العربية . واجتاحها ثانيا فى الإمبراطوريتين العظيمتين المتدثين حوله : إمبراطوريتى كسرى وقيصر . . ثم بعد ذلك فى جوانب الأرض الأخرى . سواء كان معه جيش وسيف ، أم كان معه مصحف وأذان !

ولولا هذا التفوق الساحق ما وقعت تلك الخارقة التى لم يعرف لها التاريخ نظيرا . حتى فى الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة . كزحف التتار فى التاريخ القديم . وزحف الجيوش الهتلرية فى التاريخ الحديث . . ذلك أنه لم يكن اكتساحا عسكريا فحسب . ولكنه كان اكتساحا عقيديا . ثقافيا . حضاريا كذلك ! يتجلى فيه التفوق الساحق الذى يطوى

ـ من غير إكراه ـ عقائد الشعوب ولغاتها ، وتقاليدها وعاداتها . . الأمر الذى لا نظير له على الإطلاق فى أى اكتساح عسكرى آخر ، قديما أو حديثا !

لقد كان تفوقا « إنسانيا » كاملا . تفوقا فى كل خصائص « الإنسانية » ومقوماتها . كان ميلادا آخر للإنسان . ميلاد إنسان جديد غير الذى تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد . ومن ثم صبغ البلاد التى غمرها هذا المد بصبغته ؛ وترك عليها طابعه الخاص ؛ وطغى هذا المد على رواسب الحضارات التى عاشت عشرات القرون من قبل فى بعض البلاد . كالحضارة الفرعونية فى مصر . وحضارة البابليين والأشوريين فى العراق ، وحضارة الفينيقيين والسريان فى الشام . لأنه كان أعمق جذورا فى الفطرة البشرية ؛ وأوسع مجالا فى النفس الإنسانية ، وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات فى حياة بنى الإنسان ، من كل تلك الحضارات .

وغلبة اللغة الإسلامية واستقرارها فى هذه البلاد ، ظاهرة عجيبة ، لم تستوف ما تستحقه من البحث والدراسة والتأمل ، وهى فى نظرى أعجب من غلبة العقيدة واستقرارها . إذ أن اللغة من العمق فى الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية ، بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة ! وليس الأمر فى هذا هو أمر « اللغة العربية » . فاللغة العربية كانت قائمة ؛ ولكنها لم تصنع هذه المعجزة فى أى مكان على ظهر الأرض ـ قبل الإسلام ـ ومن ثم سميتها « اللغة الإسلامية » فالقوة الجديدة التى تولدت فى اللغة العربية ، وأظهرت هذه المعجزة على يديها ، كانت هى « الإسلام » قطعا !

وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة فى البلاد المفتوحة (المفتوحة للحرية والنور والطلاقة) اتجهت إلى التعبير عن ذاتها ـ لا بلغاتها الأصلية ـ ولكن باللغة الجديدة . لغة هذا الدين . اللغة الإسلامية . وأنتجت بهذه اللغة فى كل حقل من حقول الثقافة نتاجا تبدو فيه الأصالة ؛ ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير فى لغة غريبة ـ غير اللغة الأم ـ لقد أصبحت اللغة الإسلامية هى اللغة الأم فعلا لهذه العبقريات . . ذلك أن الرصيد الذى حملته هذه اللغة كان من الضخامة أولا ؛ ومن ملاصقة الفطرة ثانيا ؛ بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها ، من ثقافاتها القديمة . ومن لغاتها القديمة أيضا !

لقد كان هذا الرصيد هو رصيد العقيدة والتصور ؛ ورصيد البناء الروحى والعقلى والخلقى

Marfat.com

والاجتماعى الذى أنشأه المنهج الإسلامى فى فترة وجيزة . وكان من الضخامة والعمق واللصوق بالفطرة ، بحيث أمد اللغة ـ لغة الإسلام ـ بسلطان لا يقاوم . كما أمد الجيوش ـ جيوش الإسلام ـ بسلطان لا يقاوم كذلك !

وبغير هذا التفسير يصعب أن نعلل تلك الظاهرة التاريخية الفريدة .

وعلى أية حال فهذا موضوع يطول شرحه . فحسبنا منه هذه اللمحة فى سياق الظلال . .

* * *

منذ هذا الدرس فى هذه السورة تبدأ المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة . . فى هذا الدرس تعجيب من حال اليهود وتصرفاتهم فى مواجهة الدين الجديد والجماعة التى تمثله .. وفى الدرس الذى يليه بيان لوظيفة الجماعة المسلمة ، وطبيعة منهجها ، وحد الإسلام ، وشرط الإيمان ، الذى يتميز به منهجها وحياتها ونظامها . وفى الدرس الذى يليه دعوة لهذه الجماعة المذود عن منهجها ووضعها ووجودها ؛ وكشف للمنافقين المندسين فيها ؛ وبيان لطبيعة الموت والحياة وقدر الله الذى يجرى بهما ؛ وهو جزء من تربية هذه الجماعة ، وإعدادها لوظيفتها وللمعركة مع أعدائها .. وفى الدرس الذى يليه مزيد من الحديث عن المنافقين ؛ وتحذير للجماعة المسلمة من الانقسام فى شأنهم ، أو الدفاع عن تصرفاتهم . ثم تفصيل للإجراءات التى تواجه بها الجماعة المسلمة شتى المعسكرات من حولها ـ أى لقواعد قانون المعاملات الدولية ـ وفى الدرس الذى يليه نجد نموذجا لرفعة الإسلام فى معاملته ليهودى فرد فى المجتمع الإسلامى ! .. والدرس الذى يليه جولة مع الشرك والمشركين ، وتوهين للأسس التى يقوم عليها المجتمع المشرك فى الجزيرة . . ويتوسط هذه المعركة لمحة من التنظيم الداخلى ، ترتبط بأوائل السورة فى شأن الأسرة . . ثم يجىء الدرس الأخير ـ فى هذا الجزء ـ خاصا بالنفاق والمنافقين ؛ يهبط بهم إلى الدرك الأسفل من النار !

وهذه الإشارات الخاطفة تبين لنا طبيعة مجالات المعركة وجوانبها المتعددة ـ فى الداخل والخارج .. وطبيعة التوافق والتكامل ، بين المعركة الداخلية والمعركة الخارجية فى حياة المجتمع الإسلامى الأول . . وهى هى بذاتها معركة الأمة المسلمة اليوم وغدا فى أساسها وحقيقتها .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يشترون الضلالة ، ويريدون أن تضلوا السبيل ؟ والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ، واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا . ليا بألسنتهم ، وطعنا فى الدين . ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا » . .

إنه التعجيب الأول ـ من سلسلة التعجيبات الكثيرة ـ من موقف أهل الكتاب ـ من اليهود ـ يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب . . يشترون الضلالة . ويريدون أن تضلوا السبيل » . .

لقد كان من شأن أن يؤتوا نصيبا من الكتاب . . الهداية . . فقد آتاهم الله التوراة ، على يدى موسى عليه السلام ، لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى . . ولكنهم يدعون هذا النصيب . يدعون الهداية . ويشترون الضلالة ! والتعبير بالشراء يعنى القصد والنية فى المبادلة ! فى أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة . فكأنما هى صفقة عن علم وعن قصد وعمد . لا عن جهل أو خطأ أو سهو ! وهو أمر عجيب مستنكر ، يستحق التعجيب منه والاستنكار .

ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المستنكر . بل هم يريدون أن يضلوا المهتدين . يريدون أن يضلوا المسلمين . . بشتى الوسائل وشتى الطرق . التى سبق ذكرها فى سورتى البقرة وآل عمران ؛ والتى سيجىء طرف منها فى هذه السورة كذلك . . فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم الذى يشترونه ؛ بل يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم ؛ حتى لا يكون هناك هدى ولا مهتدون !

وفى هذه اللمسة : الأولى ، والثانية ، تنبيه للمسلمين وتحذير ؛ من ألاعيب اليهود وتدبيرهم . . وياله من تدبير ! وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى . وقد كان المسلمون يعتزون بهذا الهدى ؛ ويعادون من يحاول ردهم عنه إلى جاهليتهم التى عرفوها

Marfat.com

وعرفوا الإسلام . فكرهوها وأحبوا الإسلام ! وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها فى قليل أو كثير . . وكان القرآن يخاطبهم هكذا ، عن علم من الله ، بما فى صدورهم من هذا الأمر الكبير

ومن ثم يعقب على إبراز هذه المحاولة من اليهود ، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين . وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره ، إزاء تلك المحاولة :

« والله أعلم بأعدائكم . وكفى بالله وليا . وكفى بالله نصيرا » . .

وهكذا يصرح العداء ويستعلن ، بين الجماعة المسلمة واليهود فى المدينة .. وتتحدد الخطوط ..

وقد كان التعجيب من أهل الكتاب عامة ـ وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة ـ ولكن السياق لا يكتفى بهذا المفهوم . بل يمضى فيعين اليهود . ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الفترة التى يبدو أنها كانت فى أوائل سنوات الهجرة ، قبل أن تخضد شوكتهم فى المدينة :

« من الذين هادوا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويقولون : سمعنا وعصينا . واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا . ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين . » . .

لقد بلغ من التوائهم ، وسوء أدبهم مع الله عز وجل : أن يحرفوا الكلام عن المقصود به . والأرجح أن ذلك يعنى تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها . وذلك كى ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة ؛ ومن احكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ؛ وتدل وحدتها فى الكتابين على المصدر الواحد ؛ وتبعا لهذا على صحة رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم . وتحريف الكلم عن المقصود به ، ليوافق الأهواء ، ظاهرة ملحوظة فى كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ؛ ويتخذونه حرفة وصناعة ، يوافقون بها أهواء ذوى السلطان فى كل زمان ؛ وأهواء الجماهير التى تريد التفلت من الدين . . واليهود ابرع من يصنع ذلك . وإن كان فى زماننا هذا من محترفى دين المسلمين من ينافسون ـ فى هذه الخصلة ـ اليهود !

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقولوا له : سمعنا يا محمد ما تقول . ولكننا عصينا ! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع ! ـ مما يدل على أن هذه

الآيات نزلت فى وقت مبكر ، حيث كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضا . إذ يقولون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا » . .

فى ظاهر اللفظ أنهم يقولون : اسمع ـ غير مأمور بالسمع (وهى صيغة تأدب)ـ وراعنا : أى : انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا . بما أنهم أهل كتاب ، فلا ينبغى أن يدعوا إلى الإسلام كالمشركين !

أما فى اللىّ الذى يلوونه ، فهم يقصدون : اسمع ـ لا سمعت ، ولا كنت سامعا ! ـ (أخزاهم الله) . وراعنا يميلونها إلى وصف « الرعونة » !

وهكذا .. تبجح وسوء أدب ، والتواء ومداهنة ، وتحريف للكلام عن مواضعه وعن معانيه ..

إنها يهود !!!

وبعد أن يحكى القرآن هذا عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب ؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيبا منه . ويطمعهم ـ بعد ذلك كله ـ فى الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله . لو ثابوا إلى الطريق القويم . وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم . وأنها هكذا كانت وهكذا تكون :

« ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا » . .

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة . ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التى لا التواء فيها :

« سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا »

لكان هذا خيرا لهم ، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم . ولكن واقع الأمر أنهم ـ بسبب كفرهم ـ مطرودون من هداية الله . فلا يؤمن منهم إلا القليل .

وصدق قول الله .. فلم يدخل فى الإسلام ـ فى تاريخه الطويل ـ إلا القليل من اليهود .

Marfat.com

Marfat.com

ممن قسم الله لهم الخير ، وأراد لهم الهدى ؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى . أما كتلة اليهود ، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرنا ، حربا على الإسلام والمسلمين . منذ أن جاورهم الإسلام فى المدينة إلى اللحظة الحاضرة . وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواصب الذى لا ينقطع ؛ العنيد الذى لا يكف ، المتنوع الأشكال والألوان والفنون ، منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للإسلام فى تاريخه كله ـ بما فى ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله ـ إلا كان من ورائه اليهود . أو كان لليهود فيه نصيب !

* * *

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود ـ دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ؛ وتهديدا لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم . ودمغا لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص ، الذى عليه دينهم ، والله لا يغفر أن يشرك به . . وفى الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا ، مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت . . وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » ..

إنه نداء لهم بالصفة التى كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين ؛ وبالسبب الذى كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا ، مصدقا لما معكم » . .

فهم أوتوا الكتاب ، فليس غريبا عليهم هذا الهدى . والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم . فليس غريبا عليهم كذلك . وهو مصدق لما معهم . .

ولو كان الإيمان بالبينة . أو بالأسباب الظاهرة . لآمنت يهود أول من آمن . ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامع . وكانت لها أحقاد وعناد . وكانت هى بطبعها منحرفة صلبة الرقبة . . كما تعبر عنهم التوراة بأنهم : « شعب صلب الرقبة ! » . ومن ثم لم تؤمن . ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسى :

« من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها . أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت . وكان أمر الله مفعولا » . .

وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها ؛ وردها على أدبارها ، دفعها لأن تمشى القهقرى .. وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادى ؛ الذى يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم ؛ ويكون كذلك اللعن الذى أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت ، وهو محرم عليهم فى شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير .. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة فى نفوسهم ، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم ، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب . والكفر بعد الإيمان ، والهدى بعد الضلال ، طمس للوجوه والبصائر ، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد .

وسواء كان هذا هو المقصود أو ذاك .. فهو التهديد الرعيب العنيف ؛ الذى يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة ؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة !

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد : كعب الأحبار فأسلم :

أخرج ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا ابن نفيل . حدثنا عمرو ابن واقد ، عن يونس ابن جليس ، عن أبى إدريس عائذ الله الخولانى ، قال : كان أبو مسلم الخليلى معلم كعب . وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فبعثه إليه ينظر : أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة . فإذا تالى يقرأ القرآن يقول : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ... » فبادرت الماء فاغتسلت ، وإنى لأمس وجهى مخافة أن أطمس ! ثم أسلمت[1]

والتعقيب على هذا التهديد :

« وكان أمر الله مفعولا » . . .

فيه توكيد للتهديد ، يناسب كذلك طبيعة اليهود !

---

(١) المشهور أن كعبا أسلم فى أيام عمر ابن الخطاب . وهناك رواية أخرى أخرجها ابن جرير عن إسلامه فى أيام عمر اعلها الأوثق .. وهى تبنى إسلامه كذلك على سماعه لهذه الآية .

Marfat.com

ثم يجىء تعقيب يتضمن تهديدا آخر فى الآخرة . تهديدا بعدم المغفرة لجريمة الشرك . مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » . .

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك ؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد . ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذى يعده عليهم شركا . . وقد ورد فى مواضع أخرى تفصيل لهذا : فقد روى القرآن عنهم قولهم : « عزير ابن الله » كقول النصارى « المسيح ابن الله » . وهو شرك لا شك فيه ! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » . . وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان . إنما كانوا ـ فقط ـ يقرون لهم بحق التشريع . حق التحليل والتحريم . الحق الخاص بالله ، والذى هو من خصائص الألوهية . ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين . . ولهذا الاعتبار قيمة خاصة فى التصور الإسلامى الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان ـ كما سيجىء فى سياق السورة بالتفصيل .

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم فى الجزيرة حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد . والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك ـ لمن يشاء ـ ولكنه لا يتسامح فى إثم الشرك العظيم . ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركا به ؛ لم يرجع فى الدنيا عن شركه .

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد . فلا يبقى لهم معه أمل فى مغفرة . إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعو الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا ـ وأمامها دلائل التوحيد فى صفحة الكون وفى هداية الرسل ـ ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية . إنما تفعله وقد فسدت فساد لا رجعة فيه ! وتلفت فطرتها التى برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم الوقح الجاهر . . أما ماوراء ذلك من الذنوب ـ والكبائر ـ فإن الله يغفره ـ لمن يشاء ـ فهو داخل فى حدود المغفرة

Marfat.com

بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة ـ مادام العبد يشعر بالله ؛ ويرجو مغفرته ؛ ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له ؛ وأن عفوه لايقصرعن ذنبه .. وهذامنتهى الأمد فى تصوير الرحمة التى لاتنفد ولاتحد ؛ والمغفرة التى لايوصد لهاباب ؛ ولايقف عليها بوّاب !

أخرج البخارى ومسلم ـ كلاهما ـ عن قتيبة ، عن جرير ابن عبد الحميد ، عن عبد العزيز ابن رفيع ، عن زيد ابن وهب ، عن أبى ذر ، قال : خرجت ليلة من الليالى ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمشى وحده ، وليس معه إنسان . قال : فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد . قال : فجعلت أمشى فى ظل القمر . فالتفت فرآنى . فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أبو ذر ـ جعلنى الله فداك ـ قال : « يا أبا ذر تعال ! » قال : فمشيت معه ساعة . فقال لى : « إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيرا ، فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرا » . قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لى : « اجلس هاهنا » . فأجلسنى فى قاع حوله حجارة . فقال لى : « اجلس هاهنا حتى أرجع إليك » : قال : فانطلق فى الحرة حتى لا أراه . فلبث عنى ، حتى إذا طال اللبث . . ثم إنى سمعته وهو مقبل يقول : « وإن زنى وإن سرق » قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبى الله ـ جعلنى الله فداك ـ من تكلمه فى جانب الحرة ؟ فإنى سمعت أحدا يرجع إليك . قال : « ذلك جبريل ، عرض لى جانب الحرة ، فقال : « بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » . قلت أياجبريل . وإن سرق وإن زنى ؟ » . قال : « نعم » . «قلت : وإن سرق وإن زنى؟ »قال : نعم. وإن شرب الخمر » . .

وأخرج ابن أبى حاتم ـ بإسناده ـ عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما من نفس تموت ، لا تشرك بالله شيئا ، إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها ، وإن شاء غفر لها . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . .

وأخرج ابن أبى حاتم ـ بإسناده ـ عن ابن عمر قال . « كنا ـ أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا نشك فى قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات ، وشاهد الزور . حتى نزلت : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فأمسك أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الشهادة !

Marfat.com

وروى الطبرانى ـ بإسناده ـ عن عكرمة، عن ابن عباس ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى . ما لم يشرك بى شيئا » .

وفى هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة .. فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته ـ سبحانه ـ ومن وراء هذا الشعور الخير . والرجاء . والخوف . والحياء .. فإذا وقع الذنب ، فمن ورائه هذه السمات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة .

* * *

ثم يمضى القرآن ـ وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود فى المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ؛ ويثنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ كما سيجىء ـ كاذبين على الله فى تزكيتهم لأنفسهم ، وفى زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء !:

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ؟ بل الله يزكى من يشاء ، ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب ! وكفى به إثما مبينا » ..

ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هى دعواهم من قديم . وقد اختارهم الله فعلا لحمل الأمانة وأداء الرسالة ، وفضلهم على العالمين فى ذلك الأوان ؛ وأهلك لهم فرعون وملأه ، وأورثهم الأرض المقدسة .. ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله ؛ وعتوا فى الأرض عتوا كبيرا ، واجترحوا السيئات التى تضج منها الأرض، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم ، واتبعوهم ؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذى ادعوه عمليا ـ بهذا التحريم والتحليل ـ وقد بدل هؤلاء الأحبار فى شريعة الله ، ليرضوا ذوى السلطان والشرفاء ؛ وليلقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم . وبذلك اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله. وأكلوا الربا .. ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذى أنزله عليهم .. وعلى الرغم من ذلك كله ـ وغيره كثير ـ فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه . وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة . وأنه لا يهتدى ولا يقبل عند الله إلا من كان هودا ! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله

Marfat.com

ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب ؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح ، والاستقامة على منهج الله .. فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه . ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه ! وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم ، ويحسبون أنهم من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الله لابد ناصرهم ، ومخرج لهم اليهود من أرضهم .. بينما هم ينسلخون انسلاخا كاملا من دين الله الذى هو منهجه للحياة ؛ فينبذونه من حياتهم ؛ ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لا فى أقضيتهم ولا فى اقتصادهم ، ولا فى اجتماعهم ، ولا فى آدابهم ، ولا فى تقاليدهم . وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين ! وأنهم ولدوا فى أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم ! ويقيمون فيها دين الله ، ويحكمون منهجه فى الحياة !

والله يعجب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم . وأمر « المسلمين » المعاصرين أعجب ، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب !!

إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله . إنما الله هو الذى يزكى من يشاء . فهو أعلم بالقلوب والأعمال . ولن يظلم الناس شيئا ، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ـ سبحانه ـ واتجهوا إلى العمل . لا إلى الادعاء . فلئن عملوا ـ وهم ساكتون متواضعون فى حياء من الله ، وبدون تزكية ولا ادعاء ـ فلن يغبنوا عند الله ؛ ولن ينسى لهم عمل ؛ ولن يبخس لهم حق .

والله ـ سبحانه ـ يشهد على اليهود أنهم ـ إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راض عنهم ـ يفترون عليه الكذب . ويشنع بفعلتهم هذه ، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها :

« انظر . كيف يفترون على الله الكذب . وكفى به إثماً مبينا ! » .

وما أرى أننا ـ الذين ندعى الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش فى أرض كان يسكنها المسلمون ! بينما نحن لا نجعل الإسلام فى شىء من منهجنا فى الحياة . . ما أحسبنا ونحن ندعى الإسلام ، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ؛ ونؤدى ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن ندعى أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طردا . . ما أحسبنا إلا فى مثل هذا للوضع ، الذى يعجب الله ـ سبحانه ـ منه

Marfat.com

رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله ، وارتكاب هذا الإثم المبين ! والعياذ بالله !

إن دين الله منهج حياة . وطاعة الله هى تحكيم هـذا المنهج فى الحياة . والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته . . فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه . . ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه فى تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هى القاعدة . والحال هى الحال . وليس لأحـــد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة ! ! !

* * *

ويمضى السياق فى التعجيب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم . . بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التى لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان : « الجبت والطاغوت » وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم ـ بعد التعجيب من أمرهم ، وذكر هذه المخازى عنهم ـ حملة عنيفة ؛ ويرذلهم ترذيلا شديدا ؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ؛ والأسباب الحقيقية التى تجعلهم يقفون هـذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم ـ الذى يفخرون بالانتساب إليه ـ وينهى هذه الحملة بتهديدهم بجهنم . « وكفى بجهنم سعيرا » .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ! أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ؛ وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ؛ وكفى بجهنم سعيرا » . .

لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب ؛ وأن يكفروا بالشرك الذى يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى ؛ وأن يحكموا كتاب الله فى حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت ـ وهو كل شرع لم يأذن به الله ، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند ـ ولكن اليهود ـ الذين كانوا يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله ـ كانوا فى الوقت ذاته يتبعون

Marfat.com

Marfat.com

الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . وكانوا يؤمنون بالطاغوت ؛ وهو هذا الحكم الذى يقوم على غير شريعة الله . . وهو طاغوت لما فيه من طغيان ـ بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية ـ وهى الحاكمية ـ وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله ، تلزمه العدل والحق . فهو طغيان ، وهو طاغوت ؛ وللمؤمنون به والتابعون له ، مشركون أو كافرون . . يعجب الله من أمرهم ، وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب !

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت ، موقفهم فى صف المشركين الكفار ، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً :

« ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

قال ابن إسحاق . حدثنى محمد ابن أبى محمد ، عن عكرمة ـ أو عن سعيد ابن جبير ـ عن ابن عباس . قال : « كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حيي ابن أخطب ، وسلام ابن الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع ابن الحقيق ، وأبو عامر ، ووحوح ابن عامر ، وهودة ابن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بنى وائل ، وكان سائرهم من بنى النضير . . فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم . فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله ـ عز وجل ـ : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » . . . إلى قوله عز وجل : « وآتيناهم ملكا عظيما » . . وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنه لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم . وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ؛ حتى حفر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه حول المدينة الخندق ، وكفى الله شرهم « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا » .

وكان عجيبا أن يقول اليهود : إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه ، وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود .. إنه موقفهم دائما من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل ..

Marfat.com

إنهم ذوو أطماع لا تنتهى ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذوو أحقاد لا تزول ! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عونا لهم فى شىء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم . إنما يجدون العون والنصرة ـ دائما ـ عند الباطل وأهله . ومن ثم يشهدون الباطل ضد الحق ؛ ولأهل الباطل ضد أهل الحق !

هذه حال دائمة ، سببها كذلك قائم . . وكان طبيعيا منهم ومنطقيا أن يقولوا عن الذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا !

وهم يقولونها اليوم وغدا . إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التى فى أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ؛ ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها ـ بالضبط كما كانوا يعينون مشركى قريش ويستنصرون بهم فى الوقت ذاته ـ لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها .

ولكنهم أحيانا ـ لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة وللابسات العصر الحديث ـ قد لا يثنون ثناء مكشوفا على الباطل وأهله . بل يكتفون بتشويه الحق وأهله . ليمينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف ـ فى هذا الزمان ـ أصبح متهما ، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين ، الذين يعملون لحسابهم ، فى سحق الحركات الإسلامية فى كل مكان . .

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا ، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم ، الذين يسحقون لهم الحق وأهله . ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام . ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم ، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة !

ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله . . لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شبح من بعيد لأى بعث إسلامى ، أضخم من أن يداروه . . ولو للخداع والتمويه !

إنها جبلة واحدة ، وخطة واحدة ، وغاية واحدة . . هى التى من أجلها يجبههم الله باللعنة والطرد ، وفقدان النصير . والذى يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين :

« أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . .

Marfat.com

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود . فنسأل : وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيرا ؟

ولكن الناصر الحقيقى ليس هو الناس . ليس هو الدول . ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ . إنما الناصر الحق هو الله . القاهر فوق عباده : ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ !

والله ناصر من ينصره ... « ولينصرن الله من ينصره » والله معين من يؤمن به حق الإيمان ، ويتبع منهجه حق الاتباع ؛ ويتحاكم إلى منهجه فى رضى وفى تسليم . .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به ، متبعة لمنهجه ، محتكمة إلى شريعته . وكان يهوّن من شأن عدوها ـ اليهود ـ وناصريهم . وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم ـ اليهود ـ لا نصير لهم . وقد حقق الله لهم وعده . وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقا . والذى لا يتحقق إلا على أيدى العصبة المؤمنة حين تقوم .

فلا يهولنا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود . فهم فى كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين . . فليست هذه هى النصرة . . ولكن كذلك لا يخدعننا هذا . فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين ! يوم يكونون مسلمين !

وليحاول المسلمون أن يجربوا ـ مرة واحدة ـ أن يكونوا مسلمين . ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير . أو أن ينفعهم هذا النصير !

* * *

وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم ؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان . . يأخذ فى استنكار موقفهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين ؛ وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة . . منة الدين والنصر والتمكين . . وحسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله . وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا ! ويكشف فى الوقت ذاته عن كنزازة طبيعتهم ؛ واستكثار أى عطاء يناله غيرهم ؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم ، فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة ؛ ولم يمنعهم من الحسد والكنود :

أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيرا ! أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » . .

يا عجبا ! إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشىء من عنده .. فهل هم شركاؤه ـ سبحانه ! ـ هل لهم نصيب فى ملكه ، الذى يمنح منه ويفيض ؟ لو كان لهم نصيب لضنوا ـ بكزازتهم وشحهم ـ أن يعطوا الناس نقيرا .. والنقير النقرة تكون فى ظهر النواة ـ وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس ، لو كان لها فى الملك نصيب ! والحمد لله أن ليس لها فى الملك نصيب . . وإلا لهلك الناس جميعا وهم لا يعطون حتى النقير !!!

أم لعله الحسد . . حسد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين ، على ما آتاهم الله من فضله . . من هذا الدين الذى أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا ؛ وجعل لهم وجودا إنسانيا متميزا ؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين ؛ كما وهبهم النظافة والطهر ، مع العز والتمكين ؟

وإنه فعلا للحسد من يهود . مع تفويت أطماعها فى السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين . . يوم أن لم يكن لهم دين

ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين فى الأرض ؟ وهم غارقون فى فضل الله من عهد إبراهيم . . الذى آتاه الله وآله الكتاب والحكمة ـ وهى النبوة ـ وآتاهم الملك كذلك والسيادة . وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة ، ولم يصونوا العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين . ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون !

« فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه » .

إنه لمن ألأم الحسد : أن يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا هو الشر الأصيل العميق ! شر يهود ! المتميز الفريد !

ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير :

« وكفى بجهنم سعيرا » . .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع من ذكر الإيمان والصدود عن الإيمان فى آل إبراهيم ، يعقب بالقاعدة الشاملة للجزاء . جزاء للكذبين ، وجزاء للمؤمنين .. هؤلاء وهؤلاء أجمعين .. فى كل دين وفى كل حين ؛ ويعرض هذا الجزاء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا » . .

. . . « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . .

إنه مشهد لا يكاد ينتهى . مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . وللهول جاذبية آسرة قاهرة ! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد . . « كلما » . . ويرسمه كذلك عنيفا مفزعا بشطر جملة . . « كلما نضجت جلودهم » . . ويرسمه عجيبا خارقا للمألوف بتكملة الجملة . . « بدلناهم جلودا غيرها » . . ويجمل الهول الرهيب المفزع العنيف كله فى جملة شرطية واحدة لا تزيد !

ذلك جزاء الكفر - وقد تهيأت أسباب الإيمان - وهو مقصود . وهو جزاء وفاق :

« ليذوقوا العذاب » . .

ذلك ، أن الله قادر على الجزاء . حكيم فى توقيعه :

« إن الله كان عزيزا حكيما » . .

وفى مقابل هذا السعير المتأجج . وفى مقابل الجلود الناضجة المشوية للعذبة . . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد . فى مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف . . نجد « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فى جنات ندية :

« تجرى من تحتها الأنهار » :

ونجد فى المشهد ثباتا وخلودا مطمئنا أكيدا :

« خالدين فيها أبدا »

Marfat.com

ونجد فى الجنات والخلد الدائم أزواجا مطهرة :

« وأزواج مطهرة » . .

ونجد روح الظلال الندية ؛ يرف على مشهد النعيم :

« وندخلهم ظلا ظليلا » . .

تقابل كامل فى الجزاء . وفى المشاهد . وفى الصور . وفى الإيقاع . . على طريقة القرآن فى « مشاهد القيامة » ذات الإيحاء القوى النافذ العميق[1] .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ ، وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ، وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ - إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ - ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ - وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - ؟ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؛ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ؛ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ

---

(١) يراجع كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن »

فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ، لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ - إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ - وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا .

« وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا » ⑦⓪

هذا الدرس يتناول موضوعا خطيرا .. الموضوع الأساسى فى حياة الأمة المسلمة . إنه يتناول بيان شرط الإيمان وحدّه ؛ متمثلا فى النظام الأساسى لهذه الأمة . . ومن الموضوع فى ذاته ، ومن طريقة ارتباطه وامتزاجه بالنظام الأساسى للأمة ، يستمد خطورته وخطره . .

إن القرآن - وهو ينشىء هذه الأمة وينشئها - وهو يخرجها إلى الوجود إخراجا . كما قال الله تعالى : التعبير القرآنى الدقيق : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . .

إن القرآن وهو ينشىء هذه الأمة من حيث لم تكن ؛ وينشئها لتصبح أمة فريدة فى تاريخ البشر : «خير أمة أخرجت للناس » . . ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضى فى الحديث: حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معا .. فقد كانت - على التحقيق - إنشاء وتنشئة ، كانت ميلادا جديدا للأمة ؛ بل ميلادا جديدا « للإنسان » فى صورة جديدة ! ولم تكن مرحلة فى طريق النشأة ؛ ولا خطوة فى سبيل التطور ، ولا حتى وثبة من وثبات النهضة ! إنما كانت - على وجه التحديد - « نشأة » ! و « ميلادا » للأمة العربية وللإنسان كله !

وحين ننظر إلى الشعر الجاهلى - والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية - وهو ديوان

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

العرب ، الذى تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحيا: والوجود ، والكون والإنسان والخلق والسلوك ؛ كما تضمن معالم حياتهم ، ومكنون مشاعرهم ، ومجموع تصوراتهم ؛ ولباب ثقافتهم وحضارتهم ؛ وكينونتهم كلها بالاختصار ..

حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التى يتضمنها هذا الديوان ، فى ظل القرآن ؛ وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة ، وللكون والإنسان . ومن قيم فى الحياة الإنسانية ؛ ومن نظام للمجتمع ؛ ومن تصور لغاية الوجود الإنسانى . ومن تنظيم واقعى يقوم على أساس هذا التصور ..

ثم ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده .. فى ظل تلك التصورات الجاهلية التى تتمثل فى ديوانها . ثم فى ظل هذه التصورات القرآنية التى تمثل المنهج الربانى ..

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية .. فى ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية : يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد .. أنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة ! كانت «إخراجا» من صنع الله ؛ كتعبير القرآن الدقيق .. وكانت أعجب نشأة ؛ وأغرب إخراج .. فهى المرة الأولى والأخيرة ـ فيما نعلم ـ التى تنبثق فيها أمة من بين دفتى كتاب ! و « تخرج » فيها حياة من خلال الكلمات !

ولكن لا عجب .. فهذه الكلمات .. كلمات الله ..

ومن أراد المجادلة والمماحلة ، فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن « يخرجها » الله بكلماته ؛ وقبل أن ينشئها الله بقرآنه ؟

إننا نعرف أنها كانت فى الجزيرة العربية ! ولكن أين كانت فى الوجود « الإنسانى » ؟ أين كانت فى سجل الحضارة البشرية ؟ أين كانت فى التاريخ العالمى ؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية ؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة ، فيعرف باسمها ويحمل طابعها ؟

لقد « نشأت » هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ؛ و نُشئت تنشئتها بهذا النهج القويم ؛ وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب الله الذى فى يدها ، وبمنهجه الذى طبع حياتها .. لا بشىء آخر .. وأمامنا التاريخ ! وقد صدقها الله وعده وهو يقول للعرب : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم .. أفلا تعقلون » ؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة فى الأرض ؛ وكان لها دورها فى التاريخ ؛ وكان لها « وجود إنسانى » ابتداء ، وحضارة عالمية ثانيا . . ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة الله هذه على الأمة العربية ؛ ويجحدوا فضل الله فى أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة فى العرب وبلسانهم . ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة ـ يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذى ألبسهم الله إياه ؛ وأن يمزقوا هذه الراية التى قادتهم إلى الذكر والمجد . . بل إلى الوجود يوم أخرج الله منهم الأمة المسلمة !

نقول .. إن القرآن حين كان «ينشىء» هذه الأمة و « ينشئها » .. ويخطط ويثبت ملامح الإسلام الجديدة ، فى الجماعة المسلمة ـ التى التقطها من سفح الجاهلية ـ ويطمس ويمحو ملامح الجاهلية فى حياتها ونفوسها ورواسبها . . وينظم مجتمعها ـ أو يقيمه ابتداء ـ على أساس الميلاد الجديد . .

وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة ؛ فى مواجهة الجاهلية الراسبةفى نفوسها وأوضاعها من مخلفات البيئة التى التقطها المنهج الربانى منها ؛ وفى مواجهة الجاهلية الرابضة فيها ومن حولها ـ ممثلة فى يهود المدينة ومنافقيها ومشركى مكة وما حولها ـ وللمعركتان موصولتان فى الزمان والمكان !

حين كانالقرآن يصنع ذلك كله .. كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح ، ببيان شرط الإيمان وحدّ الإسلام ؛ ويربط بهذا التصور ـ فى هذه النقطة بالذات ـ نظامهاالأساسى ، الذى يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ؛ ويفردها بخصائص الأمة التى أخرجت للناس ، لتبين للناس، وتقودهم إلى الله .. نظامها الربانى ..

وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسى ، قائما ومنبثقا من التصور الإسلامى لشرط الإيمان وحدّ الإسلام !

إنه يتولى تحديد الجهة التى تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها ؛ والطريقة التى تتلقى بها ؛ والمنهج الذى تفهم به ما تتلقى ، وترد إليه ما يجد من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها ؛ والسلطة التى تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها .. ويقول : إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام . .

Marfat.com

وعندئذ يلتقى «النظام الأساسى» لهذه الأمة ؛ بالعقيدة التى تؤمن بها .. فى وحدة لا تتجزأ ؛ ولا تفترق عناصرها . .

وهذا هو الموضوع الخطير الذى يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقا كاملا . . وهذه هى القضية التى تبدو ، بعد مطالعة هذا الدرس ، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل « مسلم » فيها !

إنه يقول للأمة المسلمة : إن الرسل أرسلت لتطاع ـ بإذن الله ـ لا لمجرد الإبلاغ والإقناع :

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » . .

ويقول لها : إن الناس لا يؤمنون ـ ابتداء ـ إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ؛ ممثلا ـ فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى أحكام الرسول . وباقيا بعده فى مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ؛ ولا يكفى أن يتحاكموا إليه ـ ليحسبوا مؤمنين ـ بل لابد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين :

« فلا وربك .. لا يؤمنون .. حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . . فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام .

ويقول لها : إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ أى إلى غير شريعة الله ـ لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله . فهو زعم كاذب . يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » .

ويقول لها : إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله :

« وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

ويقول لها : إن منهجها الإيمانى ونظامها الأساسى ، أن تطيع الله ـ عز وجل ـ فى هذا القرآن ـ وأن تطيع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سنته ـ وأولى الأمر من المؤمنين الداخلين فى شرط الإيمان وحد الإسلام معكم :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول . وأولى الأمر منكم » . .

Marfat.com

Marfat.com

ويقول لها : إن المرجع ، فيما تختلف فيه وجهات النظر فى المسائل الطارئة المتجددة ، والأقضية التى لم ترد فيها أحكام نصية . . . إن المرجع هو الله ورسوله . . أى شريعة الله وسنة رسوله :

« فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول » . .

وبهذا يبقى المنهج الربانى مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك ، أبد الدهر ، فى حياة الأمة المسلمة . . وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسى ، الذى لا تكون مؤمنة إلا به ، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه . . إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك ، ورد المسائل التى تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله .. شرط الإيمان وحد الإسلام .. شرطا واضحا ونصا صريحا :

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . .

ولا ننسى ما سبق بيانه عند قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . . من أن اليهود وصموا بالشرك بالله ، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون الله ـ لا لأنهم عبدوهم ـ ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ؛ ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع ـ ابتداء من عند أنفسهم ـ فجعلوا بذلك مشركين .. الشرك الذى يغفر الله كل ما عداه . حتى الكبائر . . « وإن زنى وإن سرق . وإن شرب الخمر » . . فرد الأمر كله إلى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية . ومن ثم إفراده بالحاكمية . فهى أخص خصائص الألوهية . وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا . ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره .. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذى لا يغفره الله أبدا .. إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام . « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . »

هذا هو الموضوع الخطير الذى يتناوله هذا الدرس . بالإضافة إلى بيان وظيفة الأمة المسلمة فى الأرض من إقرار مبادىء العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . إن الله نعما يعظكم به . . إن الله كان سميعا بصيرا » . .

وقد ألمنا به إجمالا . فنأخذ فى مواجهة النصوص تفصيلا . .

* * *

Marfat.com

الجزء الخامس

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ؛ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » . .

هذه هى تكاليف الجماعة المسلمة ؛ وهذا هو خلقها : أداء الأمانات إلى أهلها . والحكم بين « الناس » بالعدل . على منهج الله وتعليمه .

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى . . الأمانة التى ناط الله بها فطرة الإنسان ؛ والتى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها « الإنسان » . . أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة . فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به ، والاهتداء إليه ، ومعرفته ، وعبادته ، وطاعته . وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه . والإنسان وحده هو الذى وكل إلى فطرته ، وإلى عقله ، وإلى معرفته ، وإلى إرادته ، وإلى اتجاهه ، وإلى جهده الذى يبذله للوصول إلى الله ، بعون من الله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . . وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدى من الأمانات[1] .

ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التى يأمر الله أن تؤدى :

ومن هذه الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين . . الشهادة له فى النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية فى شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان فى هذه النفس . فيقولوا : ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه ؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال ! فتكون هذه شهادة لهذا الدين فى النفس يتأثر بها الآخرون . . والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته ـ بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية فى نفس الداعية ـ فما يكفى أن يؤدى المؤمن الشهادة للإيمان فى ذات نفسه ، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك . وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان . وهى إحدى الأمانات . . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره فى الأرض ؛ منهجا للجماعة المؤمنة ؛ ومنهجا للبشرية جميعا . . المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار هذا المنهج فى حياة

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فصل : « حقيقة الإنسان »

Marfat.com

البشر هو كبرى الأمانات ؛ بعد الإيمان الذاتى . ولايعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولاجماعة .. ومن ثم فـ « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » على هذا الأساس . . أداء لإحدى الأمانات . .

ومن هذه الأمانات ـ الداخلة فى ثنايا ما سبق ـ أمانة التعامل مع الناس ؛ ورد أماناتهم إليهم : أمانة المعاملات والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعى وللرعية . وأمانة القيام على الأطفال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها ... وسائر ما يجلوه المنهج الربانى من الواجبات والتكاليف فى كل مجالى الحياة على وجه الإجمال .. فهذه من الأمانات التى يأمر الله أن تؤدى ؛ ويجملها النص هذا الإجمال . .

فأما الحكم بالعدل بين « الناس » فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا « بين الناس » جميعا . لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب . ولا عدلا مع أهل الكتاب ، دون سائر الناس .. وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه « إنسانا » . فهذه الصفة ـ صفة الناس ـ هى التى يترتب عليها حق العدل فى المنهج الربانى . وهذه الصفة يلتقى عليها البشر جميعا : مؤمنين وكفارا . أصدقاء وأعداء . سودا وبيضا . عربا وعجما .. والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل ـ متى حكمت فى أمرهم ـ هذا العدل الذى لم تعرفه البشرية قط ـ فى هذه الصورة ـ إلا على يد الإسلام ، وإلا فى حكم المسلمين ، وإلا فى عهد القيادة الإسلامية للبشرية .. والذى افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة ؛ فلم تذق له طعما قط ، فى مثل هذه الصورة الكريمة التى تتاح للناس جميعا . لأنهم « ناس » ! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذى يشترك فيه « الناس » !

وذلك هو أساس الحكم فى الإسلام ؛ كما أن الأمانة ـ بكل مدلولاتها ـ هى أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى[1] .

والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ؛ والحكم بين الناس بالعدل ؛ هو التذكير بأنه من وعظ الله ـ سبحانه ـ وتوجيهه . ونعم ما يعظ الله به ويوجه :

« إن الله نعما يعظكم به » . .

ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه . فالأصل فى تركيب الجملة : إنه

---

(١) يراجع بتوسع : كتاب : « نحو مجتمع إسلامى » فصل « مجتمع أخلاقى » وفصل « مجتمع عادل »

نعم ما يعظكم الله به . . ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة ، فيجعله « اسم إن » ويجعل نعم ما « نعما » ومتعلقاتها ، فى مكان « خبر إن » بعد حذف الخبر . . ذلك ليوحى بشدة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وهذا الذى يعظهم به . .

ثم إنها لم تكن « عظة » إنما كانت « أمرا » .. ولكن التعبير يسميه عظة . لأن العظة أبلغ إلى القلب ، واسرع إلى الوجدان ، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء !

ثم يجىء التعقيب الأخير فى الآية ؛ يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه :

« إن الله كان سميعا بصيرا » . .

والتناسق بين المأمور به من التكاليف ؛ وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ؛ وبين كون الله سبحانه « سميعا بصيرا » مناسبة واضحة ولطيفة معا . . فالله يسمع ويبصر ، قضايا العدل وقضايا الأمانة . والعدل كذلك فى حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة الملابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر . وأخيرا فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور .

* * *

وبعد فالأمانة والعدل.. ما مقياسهما ؟ ما منهج تصورهما وتحديدهما وتنفيذهما ؟ فى كل مجال فى الحياة ، وفى كل نشاط للحياة ؟

أنترك مدلول الأمانة والعدل ؛ ووسائل تطبيقهما وتحقيقهما إلى عرف الناس واصطلاحهم ؟ وإلى ما تحكم به عقولهم ـ أو أهواؤهم ؟

إن للعقل البشرى وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية فى الإنسان . . هذا حق .. ولكن هذا العقل البشرى هو عقل الأفراد والجماعات فى بيئة من البيئات ، متأثرا بشتى المؤثرات . . ليس هناك ما يسمى « العقل البشرى » كمدلول مطلق ! إنما هناك عقلى وعقلك ، وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، فى مكان ما وفى زمان ما . . وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ؛ تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك . .

ولا بد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة ؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب فى أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أوالتقصير والقصور فى هذه الأحكام

Marfat.com

والتصورات . وقيمة العقل البشرى هنا هوأنه الأداة المهيأة للإنسان ، ليعرف بها وزن أحكامه فى هذا الميزان .. الميزان الثابت ، الذى لا يميل مع الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات ..

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين . . فقد يكون الخلل فى هذه الموازين ذاتها . فتختل جميع القيم . . ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم .

والله يضع هذا الميزان للبشر ، للأمانة والعدل ، ولسائر القيم ، وسائر الأحكام ، وسائر أوجه النشاط ، فى كل حقل من حقول الحياة :

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ؛ وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر .. منكم .. فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلا » ..

وفى هذا النص القصير يبين الله ـ سبحانه ـ شرط الإيمان وحد الإسلام . فى الوقت الذى يبين فيه قاعدة النظام الأساسى فى الجماعة المسلمة ؛ وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان . . وكلها تبدأ وتنتهى عند اللقى من الله وحده ؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا ، من جزئيات الحياة التى تعرض فى حياة الناس على مدى الأجيال ؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام .. ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذى ترجع إليه العقول والآراء والأفهام !

إن « الحاكمية » لله وحده فى حياة البشر ـ ماجل منها ومادق ، وما كبر منها وما صغر ـ والله قد سن شريعة أودعها قرآنه . وأرسل بها رسولا يبينها للناس . ولا ينطق عن الهوى . فسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ثم شريعة من شريعة الله .

والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ـ ابتداء ـ وأن يطيعوا الرسول ـ بما له من هذه الصفة . صفة الرسالة من الله ـ فطاعته إذن من طاعة الله ، الذى أرسله بهذه الشريعة ، وببيانها للناس فى سنته . . وسنته وقضاؤه ـ على هذا ـ جزء من الشريعة واجب النفاذ . . والإيمان يتعلق ـ وجودا وعدما ـ بهذه الطاعة وهذا التنفيذ ـ بنص القرآن :

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

فأما أولو الأمر ؛ فالنص يعين من هم .

Marfat.com

« وأولى الأمر . . منكم . . »

أى من المؤمنين .. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين فى الآية .. من طاعة الله وطاعة الرسول ؛ وإفراد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء ؛ والتلقى منه وحده ـ فيما نص عليه ـ والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نص ؛ لتطبيق المبادىء العامة فى النصوص عليه .

والنص يجعل طاعة الله أصلا ؛ وطاعة رسوله أصلا كذلك ـ بما أنه مرسل منه ـ ويجعل طاعة أولى الأمر .. منكم .. تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله . فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ، كما كررها عند ذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله ـ بعد أن قرر أنهم « منكم » بقيد الإيمان وشرطه . .

وطاعة أولى الأمر . . منكم . . بعد هذه التقريرات كلها ، فى حدود المعروف المشروع من الله ، والذى لم يرد نص بحرمته ؛ ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادىء شريعته ، عند الاختلاف فيه .. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

فى الصحيحين من حديث الأعمش : « إنما الطاعة فى المعروف » .

وفيهما من حديث يحيى القطان : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وأخرج مسلم من حديث أم الحصين : « ولو استعمل عليكم عبد . يقودكم بكتاب الله . اسمعوا له وأطيعوا » ..

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة الله وسنة رسوله . أمينا على إيمانه هو ودينه . أمينا على نفسه وعقله . أمينا على مصيره فى الدنيا والآخرة .. ولا يجعله بهيمة فى القطيع ؛ تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع ! فالمنهج واضح ، وحدود الطاعة واضحة . والشريعة التى تطاع والسنة التى تتبع واحدة لا تتعدد ، ولا تتفرق ، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون !

ذلك فيما ورد فيه نص صريح . فأما الذى لم يرد فيه نص . وأما الذى يعرض من المشكلات والأقضية ، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات ـ ولا يكون فيه نص قاطع ،

Marfat.com

Marfat.com

أو لا يكون فيه نص على الإطلاق . . مما تختلف فى تقديره العقول والآراء والأفهام ـ فإنه لم يترك كذلك تيها . ولم يترك بلا ميزان . ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع . . ووضع هذا النص القصير ، منهج الاجتهاد كله ، وحدده بحدوده ؛ وأقام « الأصل » الذى يحكم منهج الاجتهاد أيضا .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » . .

ردوه إلى النصوص التى تنطبق عليه ضمنا . فإن لم توجد النصوص التى تنطبق على هذا النحو ، فردوه إلى المبادىء الكلية العامة فى منهج الله وشريعته . . وهذه ليست عائمة ، ولا فوضى ، ولا هى من المجهلات التى تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول . وهناك ـ فى هذا الدين ـ مبادىء أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطى كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين[1] .

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . .

تلك الطاعة لله والطاعة للرسول ، ولأولى الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول .. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول .. هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر . كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر .. فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود .. ولا يوجد الإيمان ، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد .

وبعد أن يضع النص المسألة فى هذا الوضع الشرطى ، يقدمها مرة أخرى فى صورة «العظة» والترغيب والتحبيب ؛ على نحو ما صنع فى الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب :

« ذلك خير وأحسن تأويلا » . .

ذلك خير لكم وأحسن مآلا . خير فى الدنيا وخير فى الآخرة . وأحسن مآلا فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة كذلك . . فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدى إلى رضاء الله وثواب الآخرة ـ وهو أمر هائل ، عظيم ـ ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة فى هذه الحياة القريبة .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الثبات » فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

Marfat.com

الجزء الخامس

إن هذا المنهج معناه : أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج وضعه له الله .. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير . . منهج برىء من جهل الإنسان ، وهوى الإنسان ، وضعف الإنسان . وشهوة الإنسان .. منهج لا محاباة فيه لفرد ، ولا لطبقة ، ولا لشعب ، ولا لجنس ، ولا لجيل من البشر على جيل .. لأن الله رب الجميع ، ولا تحابيه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ شهوة المحاباة لفرد ، أو طبقة ، أو شعب ، أو جنس ، أو جيل .

ومنهج من مزاياه ، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذى يعلم حقيقة فطرته ، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ؛ كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ؛ ووسائل خطابها وإصلاحها ، فلا يخبط ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ فى تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق . ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية ، حين يخبطون هم فى التيه بلا دليل ! وحسبهم أن يجربوا فى ميدان الإبداع المادى ما يشاءون . فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشرى . وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ؛ ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول .

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون ، الذى يعيش فيه الإنسان . فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون ؛ فلا يروح يعارك هذه النواميس . بل يروح يتعرف إليها ، ويصادقها ، وينتفع بها .. والمنهج يهديه فى هذا كله ويحميه .

ومنهج من مزاياه أنه ـ فى الوقت الذى يهدى فيه الإنسان ويحميه ـ يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل فى المنهج .. مكان الاجتهاد فى فهم النصوص الواردة . ثم الاجتهاد فى رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادىء العامة للدين . . ذلك إلى المجال الأصيل ، الذى يحكمه العقل البشرى ، ويعلن فيه سيادته الكاملة : ميدان البحث العلمى فى الكون ؛ والإبداع المادى فيه[1] . .

« ذلك خير وأحسن تأويلا »

. . وصدق الله العظيم .

* * *

(١) يراجع كتاب : « هذا الدين » فصل « منهج متفرد » .

وحين ينتهى السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية ، فى شرط الإيمان وحد الإسلام ؛ وفى النظام الأساسى للأمة المسلمة ، وفى منهج تشريعها وأصوله . . يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ؛ ثم يزعمون ـ بعد ذلك ـ أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام . إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله . . « إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » . .

يلتفت إليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر . وليحذرهم ـ وأمثالهم ـ من إرادة الشيطان بهم الضلال . ويصف حالهم حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول فيصدون . ويعتبر هذا الصدود نفاقا . كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجا من الإيمان ـ بل وعدم دخول فيه ابتداء ـ كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة فى اتباع هذه الخطة المستنكرة ، حين تجر عليهم الوبال والنكال . . ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النصح لهم وموعظتهم . . ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله ـ سبحانه ـ من إرسال الرسل . . وهو أن يطاعوا . . ثم بنص صريح جازم فى شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى . .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك ، يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم . فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم ـ إذ ظلموا أنفسهم ـ جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما . . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ؛ ويسلموا تسليما » . .

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التى تصفها النصوص ، يوحى بأن هذا كان فى أوائل العهد بالهجرة . يوم كان للنفاق صولة ؛ وكان لليهود ـ الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين ـ قوة . .

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ـ إلى الطاغوت ـ قد يكونون جماعة من المنافقين ـ كما صرح بوصفهم فى الآية الثانية من هذه المجموعة ـ وقد يكونون جماعة

Marfat.com

Marfat.com

من اليهود الذين كانوا يُدعَون ـ حين تجدّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة ـ إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها . . التوراة أحيانا ، وإلى حكم الرسول أحيانا ـ كما وقع فى بعض الأقضية ـ فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلى الذى كان سائدا . . ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم : « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . . واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول . إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله (كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسل كلهم)

وهذا لم يكن يقع إلا فى السنوات الأولى للهجرة . قبل أن تخضد شوكة اليهود فى بنى قريظة وفى خيبر . وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود فى المدينة !

على أية حال نحن نجد فى هذه المجموعة من الآيات ، تحديدا كاملا دقيقا حاسما لشرط الإيمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » « وقد أمروا أن يكفروا به » كما نجد قسما من الله سبحانه ـ بذاته العلية ـ أنهم لا يدخلون فى الإيمان ؛ ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أقضيتهم . ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه . طاعة الرضى ، وتنفيذ الارتياح القلبى ؛ الذى هو التسليم ، لا عجزا واضطرارا . ولكن طمأنينة وارتضاء . .

* * *

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » . .

ألم تر إلى هذا العجب العاجب . . قوم . . يزعمون . . الإيمان . ثم يهدمون هذا الزعم فى آن ؟ ! قوم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شىء آخر ، وإلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر . . يريدون أن يتحاكموا إلى . . الطاغوت . . الذى لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ولا ضابط له ولا ميزان ، مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . . ومن ثم فهو . . طاغوت . . طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية . وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا ! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن . . إنما هم يعلمون يقينا

ويعرفون تماما ، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه : « وقد أمروا أن يكفروا به » . . فليس فى الأمر جهالة ولا ظن . بل هو العمد والقصد . ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم . زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ! إنما هو الشيطان الذى يريد بهم الضلال الذى لا يرجى منه مآب . .

« ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » . .

فهذه هى العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت . وهذا هو الدافع الذى يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ! هذا هو الدافع يكشفه لهم . لعلهم يتنبهون فيرجعوا . ويكشفه للجماعة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك .

ويمضى السياق فى وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله . . ذلك الذى يزعمون أنهم آمنوا به :

«وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »

يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطرى . . وإلا ما كان نفاقا . .

إن المقتضى الفطرى البديهى للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه . ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ؛ كانت التلبية الكاملة هى البديهة الفطرية . فأما حين يصد ويأبى ، فهو يخالف البديهة الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبئ عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان !

وإلى هذه البديهة الفطرية يحاكم الله ـ سبحانه ـ أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله . ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله . بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا !

ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفاق فى سلوكهم ؛ حين يقعون فى ورطة أو كارثة بسبب

Marfat.com

عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت . ومعاذيرهم عند ذلك . وهى معاذير النفاق :

فكيف إذا أصابتهم مصيبة ـ بما قدمت أيديهم ـ ثم جاءوك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » . .

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم فى وسط الجماعة المسلمة ـ يومذاك ـ حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء فى الوسط المسلم . فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ؛ ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله ؛ أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها . . إنما يقبل مثل هذا فى مجتمع لا إسلام له ولا إيمان . وكل ماله من الإيمان زعم كزعم هؤلاء ؛ وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء !

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم ؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ؛ ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت ؛ فى قضية من قضاياهم .

أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم . لعلهم يتفكرون ويهتدون . .

وأيآ ما كان سبب المصيبة ؛ فالنص القرآنى ، يسأل مستنكرا : فكيف يكون الحال حينئذ ! كيف يعودون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » . . .

إنها حال مخزية . . حين يعودون شاعرين بما فعلوا . . غير قادرين على مواجهة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحقيقة دوافعهم . وفى الوقت ذاته يحلفون كاذبين : أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت ـ وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية ـ إلا رغبة فى الإحسان والتوفيق ! وهى دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته : أنهم يريدون اتقاء الإشكالات وللتاعب وللصاعب ، التى تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله ! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة . . إنها حجة الذين يزعمون الإيمان ـ وهم غير مؤمنين ـ وحجة المنافقين للتوين . . هى هى دائما وفى كل حين !

Marfat.com

Marfat.com

والله ـ سبحانه ـ يكشف عنهم هذا الرداء المستعار . ويخبر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يعلم حقيقة ما تنطوى عليه جوانحهم . ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء :

« أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » ..

أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ؛ ويحتجون بهذه الحجج ، ويعتذرون بهذه المعاذير . والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور .. ولكن السياسة التى كانت متبعة ـ فى ذلك الوقت ـ مع المنافقين كانت هى الإغضاء عنهم ، وأخذهم بالرفق ، واطراد الموعظة والتعليم . .

والتعبير العجيب :

« وقل لهم . . فى أنفسهم . . قولا بليغا »

تعبير مصور . . كأنما القول يودع مباشرة فى الأنفس ، ويستقر مباشرة فى القلوب .

وهو يرغبهم فى العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله . . بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ؛ ومن الصدود عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول .. فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ؛ واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية : وهى أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه ـ لا ليخالف عن أمرهم . ولا ليكونوا مجرد وعاظ ! ومجرد مرشدين !

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » . .

وهذه حقيقة لها وزنها .. إن الرسول ليس مجرد « واعظ » يلقى كلمته ويمضى . لتذهب فى الهواء ـ بلا سلطان ـ كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل ؛ أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول « الدين » .

إن الدين منهج حياة . منهج حياة واقعية . بتشكيلاتها وتنظيماتها ، وأوضاعها ، وقيمها ، وأخلاقها وآدابها . وعباداتها وشعائرها كذلك .

وهذا كله يقضى أن يكون للرسالة سلطان . سلطان يحقق المنهج ، وتخضع له النفوس

خضوع طاعة وتنفيذ .. والله أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه وفى حدود شرعه ـ فى تحقيق منهج الدين . منهج الله الذى أراده لتصريف هذه الحياة . وما من رسول إلا أرسله الله ، ليطاع ، بإذن الله . فتكون طاعته طاعة لله .. ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجدانى ، والشعائر التعبدية .. فبهذا وهم فى فهم الدين ؛ لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل . وهى إقامة منهج معين للحياة ، فى واقع الحياة . . وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا . لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضى . يستهتر بها المستهترون ، ويبتذلها المبتذلون !!!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان .. كان دعوة وبلاغا . ونظاما وحكما . وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام . لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول . وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول . وليست هنالك صورة أخرى يقال لها : الإسلام . أو يقال لها : الدين . إلا أن تكون طاعة للرسول ، محققة فى وضع وفى تنظيم . ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف ؛ ويبقى أصلها الثابت . وحقيقتها التى لا توجد بغيرها .. استسلام لمنهج الله ، وتحقيق لمنهج رسول الله . وتحاكم إلى شريعة الله . وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله ، وإفراد لله ـ سبحانه ـ بالألوهية (شهادة أن لا إله إلا الله) ومن ثم إفراده بالحاكمية التى تجعل التشريع ابتداء حقا لله ، لا يشاركه فيه سواه . وعدم احتكام إلى الطاغوت . فى كثير ولا قليل . والرجوع إلى الله والرسول ، فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة ، والأحوال الطارئة ؛ حين تختلف فيه العقول . .

وأمام الذين « ظلموا أنفسهم » بميلهم عن هذا المنهج ، الفرصة التى دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ـ ورغبهم فيها . .

« ولو أنهم ـ إذ ظلموا أنفسهم ـ جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » . .

والله تواب فى كل وقت على من يتوب . والله رحيم فى كل وقت على من يثوب . وهو ـ سبحانه ـ يصف نفسه بصفته . ويعد العائدين إليه ، المستغفرين من الذنب ، قبول التوبة وإفاضة الرحمة .. والذين يتناولهم هذا النص ابتداء ، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد انقضت فرصتها . وبقى باب الله مفتوحا لا يغلق . ووعده قائما لا ينقض . فمن أراد فليقدم . ومن عزم فليتقدم . .

Marfat.com

وأخيرا يجىء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم . إذ يقسم الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية ، أنه لا يؤمن مؤمن ، حتى يحكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمره كله . ثم يمضى راضيا بحكمه ، مسلما بقضائه . ليس فى صدره حرج منه ، ولا فى نفسه تلجلج فى قبوله :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » . .

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل فى تحديد شرط الإيمان وحدّ الإسلام ؛ ولا تأويل لمؤول .

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام . . وهى أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفة من الناس !

وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئا ؛ ولا يفقه من التعبير القرآنى قليلا ولا كثيرا . فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام ؛ جاءت فى صورة قسم مؤكد ؛ مطلقة من كل قيد . . وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو تحكيم شخصه . إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه . وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك قول أشد المرتدين ارتدادا على عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وهو الذى قاتلهم عليه قتال المرتدين . بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير . وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله ، فى حكم الزكاة ؛ وعدم قبول حكم رسول الله فيها ، بعد الوفاة !

وإذا كان يكفى لإثبات « الإسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله . . فإنه لا يكفى فى « الإيمان » هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسى ، والقبول القلبى ، وإسلام القلب والجنان ، فى اطمئنان !

هذا هو الإسلام . . وهذا هو الإيمان . . فلتنظر نفس أين هى من الإسلام ؛ وأين هى من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان !

* * *

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

وبعد أن يقرر أن لا إيمان قبل تحكيم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل الرضى والتسليم بقضائه ، يعود ليقول : إن هذا المنهج الذى يدعون إليه ؛ وهذه الشريعة التى يقال لهم : تحاكموا إليها ـ لا لسواها ـ وهذا القضاء الذى يتحتم عليهم قبوله والرضاء به ... إنه منهج ميسر ، وشريعة سمحة ، وقضاء رحيم . . إنه لا يكلفهم شيئا فوق طاقتهم ؛ ولا يكلفهم عنتا يشق عليهم ؛ ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم .. فالله يعلم ضعف الإنسان ؛ ويرحم هذا الضعف . والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة ، ما أداها إلا قليل منهم . . وهو لا يريد لهم العنت ، ولا يريد لهم أن يقعوا فى المعصية . . ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق ، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية . ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التى كتبها الله عليهم ؛ واستمعوا للموعظة التى يعظهم الله بها ؛ لنالوا خيرا عظيما فى الدنيا والآخرة ؛ ولأعانهم الله بالهدى ، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة ، فى حدود الطاقة :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه ـ إلا قليل منهم ـ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ؛ وإذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ؛ ولهديناهم صراطا مستقيما » ..

إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذى فطرة سوية . إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة ، التى لا توجد عادة إلا فى القلة من البشر . وهذا الدين لم يجىء لهذه القلة القليلة . إنه جاء للناس جميعا . والناس معادن ، وألوان ، وطبقات . من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف . وهذا الدين ييسر لهم جميعا أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه ، وأن يكفوا عن المعاصى التى نهى عنها .

وقتل النفس ، والخروج من الديار .. مثلان للتكاليف الشاقة ، التى لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم . وهى لم تكتب لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس ؛ وأن ينكل عنها عامة الناس . بل المراد أن يؤديها الجميع ، وأن يقدر عليها الجميع ، وأن يشمل موكب الإيمان كل النفوس السوية العادية ؛ وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس ، وطبقات الهمم ، وطبقات الاستعدادات ؛ وأن ينميها جميعا ويرقيها ، فى أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض !

قال ابن جريج : حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر ، عن إسماعيل ، عن أبى إسحاق السبيى

قال : لما نزلت : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » . . . الآية : قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا . . فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إن من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » .

وروى ابن أبى حاتم ـ بإسناده ـ عن مصعب ابن ثابت . عن عمه عامر ابن عبد الله ابن الزبير . قال : لما نزلت « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم » قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم »

وفى رواية له ـ بإسناده ـ عن شريح ابن عبيد : قال : لما تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ... » الآية ، أشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده إلى عبد الله ابن رواحة ، فقال : « لو أن الله كتب هذا ، لكان هذا من أولئك القليل » :

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرف رجاله معرفة وثيقة عميقة دقيقة ؛ ويعرف من خصائص كل منهم مالا يعرفه كل منهم عن نفسه ! وفى السيرة من هذا الكثير من الشواهد على خبرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل واحد من رجاله ؛ وخبرته كذلك بالرجال والقبائل التى كانت تحاربه . . خبرة القائد البصير بكل ما حوله ومن حوله . . فى دقة عجيبة لم تدرس بعد الدراسة الواجبة .

وليس هذا موضوعنا . ولكن موضوعنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعرف أن فى أمته من ينهض بالتكاليف الشاقة لو كتبت عليهم . ولكنه كان يعرف كذلك أن الدين لم يجىء لهذه الفلة الممتازة فى البشرية كلها . وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم طبيعة هذا « الإنسان » الذى خلقه ، وحدود طاقته ؛ فلم يكتب على الناس فى الدين الذى جاء للبشر أجمعين ، إلا ما هو ميسر للجميع ؛ حين تصح العزيمة ، وتعتدل الفطرة ، وينوى العبد الطاعة ، ولا يستهتر ولا يستهين .

وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة ؛ فى مواجهة الدعوات الهدامة ؛ التى تدعو الإنسان ، إلى الانحلال والحيوانية ، والتلبط فى الوحل كالدود ! بحجة أن هذا هو « واقع » الإنسان ،

Marfat.com

Marfat.com

وطبيعته وفطرته وحدود طاقته ! وأن الدين دعوة « مثالية » لم تجىء لتحقق فى واقع الأرض ؛ وإذا نهض بتكاليفها فرد ، فإن مئة لا يطيقون !

هذه دعوى كاذبة أولا ؛ وخادعة ثانيا ؛ وجاهلة ثالثا .. لأنها لا تفهم «الإنسان» ولا تعلم منه ما يعلمه خالقه ، الذى فرض عليه تكاليف الدين ؛ وهو يعلم ـ سبحانه ـ أنها داخلة فى مقدور الإنسان العادى . لأن الدين لم يجىء للقلائل المتازين !

وإن هى إلا العزيمة ـ عزيمة الفرد العادى ـ وإخلاص النية . والبدء فى الطريق . وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين :

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما » . .

فمجرد البدء ، يتبعه العون من الله . ويتبعه التثبيت على المضى فى الطريق . ويتبعه الأجر العظيم . وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم . . وصدق الله العظيم . . فما يخدع الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده ؛ ولا يعدهم وعدا لا يفى لهم به ؛ ولا يحدثهم إلا حديث الصدق .. « ومن أصدق من الله حديثا » ؟

فى الوقت ذاته ليس اليسر ـ فى هذا المنهج ـ هو الترخص . ليس هو تجميع الرخص كلها فى هذا الدين وجعلها منهج الحياة . فهذا الدين عزائم ورخص . والعزائم هى الأصل والرخص للابسات الطارئة . . وبعض المخلصين حسنى النية ، الذين يريدون دعوة الناس إلى هذا الدين ، يعمدون إلى « الرخص » فيجمعونها ويقدمونها للناس ، على أنها هى هذا الدين . ويقولون لهم : انظروا كم هو ميسر هذا الدين ! وبعض الذين يتملقون شهوات السلطان أو شهوات الجماهير ، يبحثون عن « منافذ » لهذه الشهوات من خلال الأحكام والنصوص ؛ ويجعلون هذه المنافذ هى الدين !

وهذا الدين ليس هذا وليس ذاك . إنما هو بجملته . برخصه وعزائمه . ميسر للناس بقدر عليه الفرد العادى ، حين يعزم . ويبلغ فيه تمام كماله الذاتى ـ فى حدود بشريته ـ كما يبلغ تمام كماله الذاتى فى الحديقة الواحدة : العنب والخوخ والكمثرى والتوت والتين والقثاء . . ولا تكون كلها ذات طعم واحد . . ولا يقال عن أحدها : إنه غير ناضج ـ حين يبلغ نضجه الذاتى ـ إذا كان طعمه أقل مرتبة من النوع الآخر

Marfat.com

فى حديقة هذا الدين ينبت البقل والقثاء ؛ وينبت الزيتون والرمان ، وينبت التفاح والبرقوق ، وينبت العنب والتين ... وينضج كله ؛ مختلفة طعومه ورتبه . . ولكنه كله ينضج . ويبلغ كماله المقدر له . .

إنها زرعة الله .. فى حقل الله . . برعاية الله . . وتيسير الله[1] . .

* * *

وفى نهاية هذه الجولة ، ونهاية هذا الدرس ، يعود السياق إلى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ؛ والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب . . متاع الصحبة فى الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا ! ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما » . .

إنها اللمسة التى تستجيش مشاعر كل قلب ، فيه ذرة من خير ؛ وفيه بذرة من صلاح وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم فى صحبة كريمة ، فى جوار الله الكريم . . وهذه الصحبة لهذا الرهط الملوى . . إنما هى من فضل الله . فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها . . إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم .

ويحسن هنا أن نعيش لحظات مع صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يتشوفون إلى صحبته فى الآخرة ؛ وفيهم من يبلغ به الوجد ألا يمسك نفسه عند تصور فراقه . . وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين ظهرانيهم . فتنزل هذه الآية : فتندى هذا الوجد ؛ وتبل هذه اللهفة . . الوجد النبيل . واللهفة الشفيفة :

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب السقمى ، عن جعفر ابن أبى المغيرة ، عن سعيد ابن جبير . قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو محزون . فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يافلان . مالى أراك محزونا ؟ » فقال :

---

(١) يراجع فصل : « منهج ميسر » فى كتاب : « هذا الدين » وفصل : « نظام إنسانى » وفصل « نظام أخلاق » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » .

يا نبي الله . شيء فكرت فيه . فقال : « ما هو ؟ » قال : نحن نغدو عليك ونروح . ننظر إلى وجهك ، ونجالسك . وغدا ترفع مع النبيين ، فلا نصل إليك .. فلم يردعليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا . فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » .. الآية ، فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبشره .

وقد رواه أبو بكر ابن مردويه مرفوعا ـ بإسناده ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله . إنك أحب إلىّ من نفسى ، وأحب إلى من أهلى ، وأحب إلىّ من ولدى . وإنى لأكون فى البيت . فأذكرك ، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك . وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة خشيت ألا أراك . فلم يرد عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلت : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . .

وفى صحيح مسلم من حديث عقل ابن زياد ، عن الأوزاعى ، عن يحيى ابن كثير ، عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن ، عن ربيعة ابن كعب الأسلمى ، أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتيته بوضوئه وحاجته . فقال لى : « سل » . فقلت يا رسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة . فقال : « أو غير ذلك » . قلت : هو ذاك . قال : « فأعنىّ على نفسك بكثرة السجود » .

وفى صحيح البخارى من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال : « المرء مع من أحب » .. قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . .

لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وُرواحهم . . أمر الصحبة فى الآخرة . . وقد ذاقوا طعم الصحبة فى الدنيا ! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم . . وفى الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور . . .

Marfat.com

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانفِرُوا ثُبَاتٍ ، أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ، قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ ـ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ـ : يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ .. وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ، ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ، وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ؟ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ . فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ، إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ! قُلْ : مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ـ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ـ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ! قُلْ : كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ . فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ ! * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ؛ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ : طَاعَةٌ . فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي

Marfat.com

تقول ! ـ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ـ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ ، إِلَّا قَلِيلًا .

« فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ؛ وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا ، وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا * مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، أَوْ رُدُّوهَا . إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا » ﴿٨٦﴾

نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات الواردة فى هذا الدرس ، نزلت فى وقت مبكر .. ربما كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق ،. فصورة الصف المسلم التى تبدو من خلال هذه الآيات توحى بهذا . توحى بوجود جماعات منوعة فى داخل الصف ، لم تنضج بعد؛ أو لم تؤمن إنما هى تنافق ! وتوحى بأن الصف كان فى حاجة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه ، ومن الاستنهاض والتشجيع ، لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة ؛ والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة. سواء فى التصورات الاعتقادية؛ أو فى خوض المعركة مع المعسكرات المعادية.

وهذا الذى نقرره لا يطعن فى الحقيقة الأخرى . حقيقة أنه كان فى هذا الصف من النماذج المسلمة من استوى على القمة السامقة ؛ وصعد المرتقى إلى هذه القمة .. ووصل .. ولكننا إنما نتحدث عن « الصف المسلم » ككل . وكبناء مختلط ولكنه غير متجانس ؛ وهو فى هذه الحالة يحتاج إلى الجهد الجاهد لتسويته وتنسيقه ؛ مما هو ظاهر فى هذه التوجيهات القرآنية الكثيرة .

والتدقيق فى والملامح التى تبدو من خلال هذه التوجيهات ، يجعلنا نعيش مع الجماعة المسلمة ،

Marfat.com

فى صورتها البشرية التى كثيرا ما ننساها ! ونرى فيها مواضع الضعف ومواضع القوة . ونرى كيف كان القرآن يخوض المعركة مع الضعف البشرى ومع رواسب الجاهليـة ومع المعسكرات المعادية فى وقت واحد . ونرى منهج القرآن فى التربية ـ وهو يعمل فى النفوس الحيـة فى عالم الواقع ـ ونرى طرفا من الجهـد الموصول الذى بذله هذا المنهج ، حتى انتهى بهذه المجموعة ـ المختلفة الدرجات ، المختلفـة السمات ، الملتقطة ابتـــداء من صفح الجاهلية ـ إلى ذلك التناسق والتكامل والارتفاع ، الذى نشهده فى أواخر أيام الرسول ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ بقدر ما تسمح به الفطرة البشرية كذلك !

وهذا يفيدنا .. يفيدنا كثيرا ..

يفيدنا فى إدراك طبيعـة النفس البشرية ، وما تحمله من استعدادات الضعف واستعدادات القوة، متمثلة فى خير الجمـاعات .. الجمـــاعة التى رباها رسول الله ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ بالمنهج القرآنى . .

ويفيدنا فى إدراك طبيعة المنهج القرآنى فى التربية ؛ وكيف كان يأخذ هذه النفوس؛ وكيف كان يتلطف لها ؛ وكيف كان ينسق الصف ، الذى يحتوى على نماذج شتى من مستويات شتى . حيث نراه وهو يعمل فى عالم الواقع .. على الطبيعة .. !

ويفيدنا فى أن نقيس حالنا وحال المجموعات البشرية ؛ على واقع النفس البشرية ، ممثلة فى تلك الجماعة المختارة . . كى لا نيأس من أنفسنا حين نطلع على مواضع الضعف ، فنترك العلاج والمحاولة ! وكى لا تبقى الجماعة الأولى ـ على كل نضلها ـ مجرد حلم طائر فى خيالنا ، لا مطمع لنا فى محاولة السير على خطاها . من السفح الهابط ، فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة !

وكل هذه ذخيرة ، حين نخرج بها ـ من الحيـاة فى ظلال القرآن ـ نكون قد جنينا خيرا كثيرا إن شاء الله . .

إن من خلال هذه المجموعة من آيات هذا الدرس يبدو لنا أنه كان فى الصف المسلم يومذاك:

« ا » من يبطىء نفسه عن الجهاد فى سبيل الله ، ومن يبطىء غيره . ثم يحسبها غنيمة إذا لم يخرج فسلم ، على حين أصابت المسلمين مصيبة ! كما يعدها خسارة إذا لم يخرج فغنم المسلمون ، لأنه لم يكن له سهم فى الغنيمة ! وبذلك يشترى الدنيا بالآخرة !

«ب» وكان فيه من المهاجرين أنفسهم ـ وممن كانت تأخذهم الحماسة للقتال ودفع العدوان وهم فى مكة ، مكفوفون عن القتال ـ من يأخذهم الجزع حينما كتب عليهم القتال فى المدينة ؛ ويتمنى لو أن الله أمهلهم إلى أجل ، ولم يكتب عليهم القتال الآن !

« ج » ومن كان يرجع الحسنة ـ حين تصيبه ـ إلى الله ؛ ويرجع السيئة ـ حين تصيبه ـ إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا لشدة إيمانه بالله طبعا ؛ ولكن لتجريح القيادة والتطير بها !

« د » ومن كان يقول : طاعة ، فى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا خرج بيت هو ومن لف لفه غير الذى يقول !

« هـ » ومن كان يتناول الشائعات ، فيذيع بها فى الصف ؛ محدثا بها ما يحدثه من البلبلة ، قبل أن يتثبت منها ، من القيادة التى يتبعها !

« و » ومن كان يشك فى أن مصدر هذه الأوامر والتوجيهات كلها هو الله سبحانه . ويظن أن بعضها من عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا مما أوحى له به !

« ز » ومن كان يدافع عن بعض المنافقين ـ كما سيأتى فى مطلع الدرس التالى ـ حتى لتنقسم الجماعة المسلمة فى أمرهم فئتين . . مما يوحى بعدم التناسق فى التصور الإيمانى وفى التنظيم القيادى (من ناحية عدم فهم المجموع لوظيفة القيادة وعلاقتهم بها فى مثل هذه الشؤون) . .

وقد يكون هؤلاء جميعا مجموعة واحدة من المنافقين ؛ أو مجموعتين : المنافقين . وضعاف الإيمان ، الذين لم تنضج شخصيتهم الإيمانية ـ ولو كان بعضهم من المهاجرين . . ولكن وجود تلك المجموعة أو هاتين المجموعتين فى الصف المسلم ـ وهو يواجه العداوات المحيطة به فى المدينة من اليهود ، وفى مكة من المشركين ، وفى الجزيرة العربية كلها من المتربصين .. من شأنه أن يحدث خلخلة فى الصف ؛ تحتاج إلى تربية طويلة ، وإلى جهاد طويل !

ونحن نرى فى هذا الدرس نماذج من هذا الجهاد ، ومن هذه التربية . وعلاجا لكل خبيثة فى النفس أو فى الصف . فى دقة ، وفى عمق ، وفى صبر كذلك ، يتمثل فى صبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائد هذا الصف ، الذى يتولى تربيته بالمنهج القرآنى :

« ا » نرى الأمر بالحذر ، فلا يخرج المجاهدون للمؤمنون فرادى ، للسرايا أو للمهام الجهادية .

Marfat.com

بل يخرجون « ثُباتٍ » أى سرايا أو فصائل . . أو يخرجون جميعا فى جيش متكامل . لأن الأرض حولهم ملغمة ! والعداوات حولهم شتى ، والكمين قد يكون كامنا بينهم من المنافقين ، أو ممن يؤويهم المنافقون واليهود من عيون الأعداء المتربصين !

« ب » ونرى تصويرا منفرا للمبطئين يبدو فيه سقوط الهمة ؛ وحب المنفعة القريبة ؛ وانتلون من حال إلى حال ، حسب اختلاف الأحوال ! وكذلك نرى التعجيب من حال أولئك الذين كانوا شديدى التحمس فى مكة للقتال ، فلما كتب عليهم فى المدينة عراهم الجزع .

« جـ » ونرى وعد الله لمن يقاتلون فى سبيل الله ، بالأجر العظيم ، وإحدى الحسنيين : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . .

« د » ونرى تصوير القرآن لشرف القصد ، وارتفاع الهدف ، ونبل الغاية ، فى القتال الذى يدفعهم إليه . . « فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » . .

« هـ » كما نرى تصوير القرآن لأحقية الغاية التى يجاهد لها الذين آمنوا وقوة السند ؛ إلى جانب بطلان غاية الذين كفروا وضعف سندهم فيها : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . .

« و » ونرى معالجة المنهج القرآنى للتصورات الفاسدة ، التى تنشأ عنها المشاعر الفاسدة والسلوك الضعيف . وذلك بتصحيح هذه التصورات الاعتقادية . . مرة فى بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة : « قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا » . . ومرة فى تقرير حتمية الموت ونفاذ القدر فيه ؛ مهما يتخذ المرء من الاحتياط ، ومهما ينكل عن الجهاد : « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » . . ومرة فى تقرير حقيقة قدر الله وعمل الإنسان : « وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . .

Marfat.com

Marfat.com

« ز » ونرى القرآن يؤكد حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن طاعته من طاعته. ويقرر أن هذا القرآن كله من عنده ؛ ويدعوهم إلى تدبر الوحدة الكاملة فيه ، الدالة على وحدة مصدره : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . . « أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

« ح » ثم نراه ـ بعد أن يصف حال المرجفين بالأنباء ـ يوجههم إلى الطريق الأسلم ، المتفق مع قاعدة التنظيم القيادى للجماعة : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . .

« ط » ويحذرهم من عاقبة هذا الطريق ، وهو يذكرهم فضل الله عليهم فى هدايتهم : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » . .

ونستطيع أن ندرك مدى الخلخلة التى كانت تنشئها هذه الظواهر فى الجماعة المسلمة ؛ والتى كانت تحتاج إلى مثل هذا الجهد الموصول ، المنوع الأساليب .. حين نسمع الله ـ سبحانه ـ يأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يجاهد ـ ولو كان وحيدا ـ وأن يحرض المؤمنين على القتال . فيكون مسئولا عن نفسه فحسب : والله يتولى المعركة : « فقاتل فى سبيل الله ـ لا تكلف إلا نفسك ـ وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » . . وفى هذا الأسلوب ما فيه من استجاشة القلوب ، واستثارة الهمم ؛ بقدر ما فيه من استجاشة الأمل فى النصر ، والثقة بيأس الله وقوته . .

لقد كان القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة فى ميادين كثيرة . وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية ، والضعف البشرى ـ حتى ولو لم يكن صادرا عن نفاق أو انحراف ـ وكان يسوسها بمنهجه الربانى لتصل إلى مرتبة القوة ، ثم إلى مرتبة التناسق فى الصف المسلم . وهذه غاية أبعد وأطول أمدا . فالجماعة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوة ، لا يغنيها هذا ، إذا وجدت اللبنات المخلخلة فى الصف بكثرة . . ولا بد من التناسق مع اختلاف المستويات .. وهى تواجه المعارك الكبيرة .

والآن نأخذ فى مواجهة النصوص مواجهة تفصيلية :

* * *

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . فانفروا ثبات ، أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ ، إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتنى كنت معهم ، فأفوز فوزا عظيما » . .

إنها الوصية للذين آمنوا . الوصية من القيادة العليا ، التى ترسم لهم المنهج ، وتبين لهم الطريق . وإن الإنسان ليعجب ، وهو يراجع القرآن الكريم ؛ فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين ـ بصفة عامة طبعا ـ الخطة العامة للمعركة وهى ما يعرف باسم « استراتيجية المعركة» . ففى الآية الأخرى يقول للذين آمنوا : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة » . فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية . وفى هذه الآية يقول للذين آمنوا : « خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » وهى تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى «التاكتيك» .وفى سورة الأنفال جوانب كذلك فى الآيات : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ... الآيات »

وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ؛ ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب ـ كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة . ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية .. ومن ثم يطلب ـ بحق ـ الوصاية التامة على الحياة البشرية ؛ ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم ، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرفه وتوجيهه . وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر : منهجا للحياة الشخصية، وللشعائر والعبادات ، والأخلاق والآداب ، مستمدا من كتاب الله . ومنهجا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية ، مستمدا من كتاب أحد آخر ؛ أو من تفكير بشرى على الإطلاق ! إن مهمة التفكير البشرى أن تستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكاما تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة ، وأقضيتها المتطورة ـ بالطريقة التى رسمها الله فى الدرس السابق من هذه السورة ـ ولا شىء وراء ذلك . وإلا فلا إيمان أصلا ولا إسلام . لا إيمان ابتداء ولا إسلام ، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد فى الإيمان ، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام .

Marfat.com

Marfat.com

وفى أولها : شهادة أن لا إله إلا الله ، التى ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله .

وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانبا من الخطة التنفيذية للمعركة ؛ المناسبة لموقفهم حينذاك . ولوجودهم بين العداوات الكثيرة فى الخارج ، والمنافقين وحلفائهم اليهود فى الداخل .

وهو يحذرهم ابتداء :

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » . .

خذوا حذركم من عدوكم جميعا . وبخاصة المندسين فى الصفوف من المبطئين ، الذين سيرد ذكرهم فى الآية :

« فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعا » . .

ثُبات . جمع ثُبة : أى مجموعة .. والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى . ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ، أو الجيش كله .. حسب طبيعة المعركة . . ذلك أن الآحاد قد يتصيدهم الأعداء ، المبثوثون فى كل مكان . وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبثين فى قلب المعسكر الإسلامى . . وهم كانوا كذلك ، ممثلين فى المنافقين ، وفى اليهود ، فى قلب المدينة .

« وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » . .

انفروا جماعات نظامية . أو انفروا جميعا . ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم ـ كما هو واقع ـ وخذوا حذركم . لا من العدو الخارجى وحده ؛ ولكن كذلك من المعوقين المبطئين المخذلين ؛ سواء كانوا يبطئون أنفسهم ـ أى يقعدون متثاقلين ـ أو يبطئون غيرهم معهم ؛ وهو الذى يقع عادة من المخذّلين المثبطين !

ولفظة « ليبطئن » مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر فى حروفها وجرسها ، حتى يأتى على آخرها ، وهو يشدها شدا ؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل فى جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفنى فى القرآن ، الذى يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة[1] .

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

وكذلك يشى تركيب الجملة كلها : « وإن منكم لمن ليبطئن » ، بأن هؤلاء المبطئين ـ وهم معدودون من المسلمين ـ « منكم » يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرون عليها إصرارا ، ويجتهدون فيها اجتهادا . . وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات فى الجملة ! مما يوحى بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة ، وشدة أثرها فى الصف المسلم ؛ وشدة ما يلقاه منها !

ومن ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم ، وعلى دخيلة نفوسهم ؛ ويرسم حقيقتهم المنفرة ، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة :

فها هم أولاء ، بكل بواعثهم ، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم .. ها هم أولاء مكشوفين للأعين ، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر ، يكشف النوايا والسرائر ؛ ويكشف البواعث والدوافع .

ها هم أولاء ـ كما كانوا على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما يكونون فى كل زمان وكل مكان . ها هم أولاء . ضعافا منافقين ، ملتوين ؛ صغار الاهتمامات أيضا . لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصى المباشر ، ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة . فهم يعيشون الدنيا كلها على محور واحد . وهم هم هذا المحور الذى لا ينسونه لحظة !

إنهم يبطئون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال ! وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذى يليق بالمنافقين الضعاف الصغار :

يتخلفون عن المعركة .. فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء الذى يصيب المجاهدين ـ فى بعض الأحايين ـ فرح المتخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة :

« فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا » . .

إنهم لا يخجلون ـ وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة ـ أن ينسبوها لله . الله الذى خالفوا عن أمره فقعدوا ! والنجاة فى هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبدا . فنعمة الله لا تنال بالمخالفة . ولو كان ظاهرها نجاة !

إنها نعمة ! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله . عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله . ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه فى الحياة . نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق

Marfat.com

أعلى من مواطىء الأقدام فى هذه الأرض . . كالنمال . . نعمة عند من لا يحسون أن البلاء ـ فى سبيل الله وفى الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله ـ هو فضل واختيار من الله ، يختص به من يشاء من عباده ؛ ليرفعهم فى الحياة الدنيا على ضعفهم البشرى ، ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة ، يملكونها ولا تملكهم . وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه فى الآخرة . . فى منازل الشهداء . .

إن الناس كلهم يموتون ! ولكن الشهداء ـ فى سبيل الله ـ هم وحدهم الذين «يستشهدون» .. وهذا فضل من الله عظيم .

فأما إذا كانت الأخرى . . فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله . . وناالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة . . ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء فى معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة !

« ولئن أصابكم فضل من الله ، ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب ، هى التى يقولون عنها : « فوزا عظيما » والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة ؛ بل مطلوب منه أن يرجوه من الله . والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية . . ولكن التصور الكلى للمؤمن غير هذا التصور ، الذى يرسمه التعبير القرآنى لهذه الفئة رسما مستنكرا منفرا . .

إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج ـ غير متثاقل ـ خرج يسأل الله إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . . وكلاهما فضل من الله ؛ وكلاهما فوز عظيم . فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة !

وهذا هو الأفق الذى أراد الله أن يرفع المسلمين إليه ؛ وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق « منهم » وهو يكشف لهم عن المندسين فى الصف من المعوقين ، ليأخذوا منهم حذرهم ؛ كما يأخذون حذرهم من أعدائهم !

Marfat.com

Marfat.com

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة فى ذلك الزمان ، يرتسم نموذج إنسانى متكرر فى بنى الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، فى هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن !

ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبدا . وهى أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء . فلا ييئس من نفسه . ولكن يأخذ حذره ويمضى . ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد ، أن يكمل النقص ، ويعالج الضعف ، وينسق الخطى والمشاعر والحركات !

* * *

ثم يمضى السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين ! وأن يوقظ فى حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى . . الآخرة . . وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة . ويعدهم على ذلك فضل الله فى الحالتين ، وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . .

فليقاتل — فى سبيل الله — فالإسلام لا يعرف قتالا إلا فى هذا السبيل . لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة . ولا يعرف القتال للمجد الشخصى أو القومى !

إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ؛ ولا للاستيلاء على السكان . . لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات ، والأسواق للمنتجات ؛ أو ليؤوس الأموال يستثمرها فى المستعمرات وشبه المستعمرات !

إنه لا يقاتل لمجد شخص . ولا لمجد بيت . ولا لمجد طبقة . ولا لمجد دولة ، ولا لمجد أمة ، ولا لمجد جنس . إنما يقاتل فى سبيل الله . لإعلاء كلمة الله فى الأرض . ولتمكين منهجه من تصريف الحياة . ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق « بين الناس » مع ترك كل فرد حرا فى اختيار العقيدة التى يقتنع بها . . فى ظل هذا المنهج الربانى الإنسانى العالمى العام . .

وحين يخرج المسلم ليقاتل فى سبيل الله ، بقصد إعلاء كلمة الله ، وتمكين منهجه فى الحياة . ثم يقتل . . يكون شهيدا . وينال مقام الشهداء عند الله . . وحين يخرج لأى هدف آخر — غير هذا الهدف — لا يسمى « شهيدا » ولا ينتظر أجره عند الله ، بل عند صاحب الهدف الآخر الذى خرج له . . والذين يصفونه حينئذ بأنه « شهيد » يفترون على الله الكذب ؛ ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكى به الله الناس . افتراء على الله !

فليقاتل فى سبيل الله ـ بهذا التحديد . . من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة. ولهم ـ حينئذ ـ فضل من الله عظيم ؛ فى كلتا الحالتين : سواء من يُقتل فى سبيل الله ؛ ومن يَغلب فى سبيل الله أيضا :

« ومن يقاتل ـ فى سبيل الله ـ فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . .

بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآنى إلى رفع هذه النفوس ؛ وإلى تعليقها بالرجاء فى فضل الله العظيم ، فى كلتا الحالتين . وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك ! فالحياة أو الغنيمة لا تساوى شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله . كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هى اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشرى من ألفاظ الضد فهى غالبا بمعنى يبيع) فهى خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا فى معارك الأرض . وأين الدنيا من الآخرة ؟ وأين غنيمة المال من فضل الله ؟ وهو يحتوى المال ـ فيما يحتويه ـ ويحتوى سواه ؟ !

* * *

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين . يلتفت من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين ؛ إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها . يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس ، وحساسية القلوب ؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين كانوا يقاسون فى مكة ما يقاسون على أيدى المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان .. يلتفت هذه الالتفاتة ليوحى إليهم بسمو المقصد ، وشرف الغاية ، ونبل الهدف ، فى هذا القتال ، الذى يدعوهم أن ينفروا إليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين . وذلك فى أسلوب تحضيضى ؛ يستنكر البطء والقعود :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ » . .

وكيف تقعدون عن القتال فى سبيل الله ؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء

Marfat.com

والولدان ؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم فى مشهد مثير لحمية المسلم ، وكرامة المؤمن ، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق ؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة ؛ لأنهم يعانون المحنة فى عقيدتهم ، والفتنة فى دينهم . والمحنة فى العقيدة أشد من المحنة فى المال والأرض والنفس والعرض ، لأنها محنة فى أخص خصائص الوجود الإنسانى ، الذى تتبعه كرامة النفس والعرض ، وحق المال والأرض !

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف ، مشهد مؤثر مثير . لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا - وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة - وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد . وهو وحده يكفى . لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات .. وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس .

ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامى للبلد والأرض والوطن : إن « هذه القرية الظالم أهلها » التى يعدها الإسلام - فى موضعها ذاك - دار حرب ، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها ، هى « مكة » وطن المهاجرين ، الذين يُدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها . ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه !

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها فى نظر الإسلام - حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه ؛ وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم ، وعذبوا فى عقيدتهم .. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم « دار حرب » .. دار حرب ، هم لا يدافعون عنها. وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوتهم المسلمين منها .. إن راية المسلم التى يحامى عنها هى عقيدته . ووطنه الذى يجاهد من أجله هو البلد الذى تقام شريعة الله فيه ؛ وأرضه التى يدفع عنها هى « دار الإسلام » التى تتخذ المنهج الإسلامى منهجا للحياة .. وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامى ، تنضح به الجاهليات ، ولا يعرفه الإسلام .

* * *

ثم لمسة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريق ، وتحديد القيم والغايات والأهداف ، التى يعمل لها كل فريق :

Marfat.com

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . .

وفى لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق . وفى لحظة ترتسم الأهداف ، وتتضح الخطوط . وينقسم الناس إلى فريقين اثنين ؛ تحت رايتين متميزتين :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله » . .

« والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » . .

الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل « بين الناس » باسم الله . لا تحت أى عنوان آخر . اعترافا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم :

والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى ـ غير منهج الله ـ وإقرار شرائع شتى ـ غير شريعة الله ـ وإقامة قيم شتى ـ غير التى أذن بها الله ـ ونصب موازين شتى غير ميزان الله !

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم ، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم ، وشتى موازينهم ... فكلهم أولياء الشيطان .

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان :

« فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد . مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شىء . . إنما هى لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوما أعمل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق . لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية ـ وكل مناهج البشر جاهلية ـ على شريعة منهج الله ؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية ـ وكل شرائع البشر جاهلية ـ على الله ؛ ولتغليب ظلم البشر ـ وكل حكم للبشر من دون الله ظلم ـ على عدل الله ، الذى هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس . .

Marfat.com

Marfat.com

كذلك يخوضون المعركة ، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها . وأنهم يواجهون قوما ، الشيطان وليهم . فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفا . .

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقى حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم .

من هذا التصور الحقيقى للأمر فى كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التى حفظها تاريخ الجهاد فى سبيل الله فى حياة الجماعة المسلمة الأولى ؛ والتى تناثرت على مدى التاريخ فى أجيال كثيرة . وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال ؛ فهى كثيرة مشهورة .. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامى العجيب ، فى أقصر فترة عرفت فى التاريخ ؛ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذى حققه المنهج الربانى للجماعة المسلمة ، على المعسكرات المعادية . . ذلك التفوق الذى أشرنا إليه من قبل فى هذا الجزء(١) . وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشاملة التى خاضها القرآن فى نفوس المؤمنين ، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين فى العدد والعدة والمال ؛ ولكنهم فى هذا الجانب كانوا متخلفين ؛ فأمسوا مهزومين !

وها نحن أولاء نرى مدى الجهد الذى بذله المنهج فى إنشاء هذا التصور وتثبيته . فلم يكن الأمر هينا . ولم يكن مجرد كلمة تقال . ولكنه كان جهدا موصولا ، لمعالجة شح النفس ، وحرصها على الحياة ـ بأى ثمن ـ وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة . . . وفى الدرس بقية من هذا العلاج ، وذلك الجهد الموصول .

* * *

إن السياق يمضى ـ بعد هذا ـ إلى التعجيب من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين ـ قيل إن بعضهم من المهاجرين ، الذين كانت تشتد بهم الحماسة ـ وهم فى مكة يلقون الأذى والاضطهاد ـ ليؤذن لهم فى قتال المشركين . حيث لم يكن مأذونا لهم ـ بعد ـ فى قتال ، للحكمة التى يعلمها الله ؛ والتى قد نصيب طرفا من معرفتها فيما سنذكره بعد . . فلما كتب عليهم القتال ،

---

(١) ص ٩٣

Marfat.com

الجزء الخامس

بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، وعلم الله أن فى هذا الإذن خيرا لهم وللبشرية . . إذا هم ـ كما يصورهم القرآن ـ « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ! وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » ممن إذا أصابتهم الحسنة قالوا : هذه من عند الله . وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هذه من عندك . وممن يقولون : طاعة حتى إذا خرجوا من عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيت طائفة منهم غير الذى تقول . وممن إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . . .

يمضى السياق ليعجب من شأن هؤلاء ، فى الأسلوب القرآنى ؛ الذى يصور حالة النفس ، كما لو كانت مشهدا يرى ويحس ! ويصحح لهم ـ ولغيرهم ـ سوء التصور والإدراك لحقائق الموت والحياة ، والأجل والقدر ، والخير والشر ، والنفع والضرر ، والكسب والخسارة ، والموازين والقيم ؛ ويبين لهم حقائقها فى أسلوب يصور الحقائق فى صورتها الموحية المؤثرة :

« ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم فى بروج مشيدة .

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا .

« ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول ـ والله يكتب ما يبيتون ـ فأعرض عنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » . .

Marfat.com

هؤلاء الذين تتحدث عنهم هذه المجموعات الأربعة من الآيات ؛ قد يكونون هم أنفسهم الذين تحدثت عنهم مجموعة سابقة فى هذا الدرس : « وإن منكم لمن ليبطئن » ... الآيات ... ويكون الحديث كله عن تلك الطائفة من المنافقين ؛ التى تصدر منها هذه الأعمال وهذه الأقوال كلها .

وقد كدنا نرجح هذا الرأى ؛ لأن ملامح النفاق واضحة ، فيما تصفه هذه المجموعات كلها . وصدور هذه الأعمال وهذه الأقوال عن طوائف المنافقين فى الصف المسلم ، أمر أقرب إلى طبيعتهم ، وإلى سوابقهم كذلك . وطبيعة السياق القرآنى شديدة الالتحام بين الآيات جميعا ..

ولكن المجموعة الأولى من هذه المجموعات التى تتحدث عن الذين : (قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال . . . الآيات) هى التى جعلتنا نتردد فى اعتبار الآيات كلها حديثا عن المنافقين ـ وإن بدت فيها صفات المنافقين وبدت فيها لحمة السياق واستطراده ـ وجعلتنا نميل إلى اعتبار هذه المجموعة واردة فى طائفة من المهاجرين ـ ضعاف الإيمان غير منافقين ـ والضعف قريب الملامح من النفاق ا ـ وأن كل مجموعة أخرى من هذه المجموعات الأربعة ربما كانت تصف طائفة بعينها من طوائف المنافقين ، المندسين فى الصف المسلم . وربما كانت كلها وصفا للمنافقين عامة ؛ وهى تعدد ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال .

والسبب فى وقوفنا هذا الموقف أمام آيات المجموعة الأولى ؛ وظننا أنها تصف طائفة من المهاجرين الضعاف الإيمان ؛ أو الذين لم ينضج بعد تصورهم الإيمانى ، ولم تتضح معالم الاعتقاد فى قلوبهم وعقولهم . .

السبب هو أن المهاجرين هم الذين كان بعضهم تأخذه الحماسة والاندفاع ، لدفع أذى المشركين ـ وهم فى مكة ـ فى وقت لم يكن مأذونا لهم فى القتال ـ فقيل لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . .

وحتى لو أخذنا فى الاعتبار ما عرضه أصحاب بيعة العقبة الثانية الاثنان والسبعون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ميلهم على أهل منى ـ أى قتلهم ـ لو أمرهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورده عليهم : « إننا لم نؤمر بقتال » . . فإن هذا لا يجعلنا ندمج هذه المجموعة

من السابقين من الأنصار ـ أصحاب بيعة العقبة ـ فى المنافقين ، الذين تتحدث عنهم بقية الآيات . ولا فى الضعاف الذين تصفهم المجموعة الأولى . فإنه لم يعرف عن هؤلاء الصفوة نفاق ولا ضعف ؛ رضى الله عنهم جميعا .

فأقرب الاحتمالات هو أن تكون هذه المجموعة واردة فى بعض من المهاجرين ، الذين ضعفت نفوسهم ـ وقد أمنوا فى المدينة وذهب عنهم الأذى ـ عن تكاليف القتال . . وألا تكون بقية الأوصاف واردة فيهم ، بل فى المنافقين . لأنه يصعب علينا ـ مهما عرفنا من ظواهر الضعف البشرى ـ أن نسم أى مهاجر من هؤلاء السابقين بسمة رد السيئة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون الحسنة ! أو قول الطاعة وتبييت غيرها . . وإن كنا لا نستبعد أن توجد فيهم صفة الإذاعة بالأمر من الأمن أو الخوف . لأن هذه قد تدل على عدم الدربة على النظام ، ولا تدل على النفاق . .

والحق .. أننا نجد أنفسنا ـ أمام هذه الآيات كلها ـ فى موقف لا نملك الجزم فيه بشىء . والروايات الواردة عنها ليس فيها جزم كذلك بشىء . . حتى فى آيات المجموعة الأولى . التى ورد أنها فى طائفة من المهاجرين ؛ كما ورد أنها فى طائفة من المنافقين !

ومن ثم نأخذ بالأحوط ؛ فى تبرئة المهاجرين من سمات التبطئة والانخلاع مما يصيب المؤمنين من الخير والشر : التى وردت فى الآيات السابقة . ومن سمة إسناد السيئة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون الحسنة ، ورد هذه وحدها إلى الله ! ومن سمة تبييت غير الطاعة . . وإن كانت تجزئة سياق الآيات على هذا النحو ليست سهلة على من يتابع السياق القرآنى ، ويدرك ـ بطول الصحبة ـ طريقة التعبير القرآنية !!! والله المعين .

* * *

« ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة . . . »

يعجب الله ـ سبحانه ـ من أمر هؤلاء الناس ؛ الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم فى مكة ، يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين . حين لم يكن

Marfat.com

Marfat.com

مأذونا لهم فى القتال للحكمة التى يريدها الله . فلما أن جاء الوقت المناسب الذى قدره الله ؛ وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال ـ فى سبيل الله ـ إذا فريق منهم شديد الجزع ، شديد الفزع ، حتى ليخشى الناس الذين أمروا بقتالهم ـ وهم ناس من البشر ـ كخشية الله ؛ القهار الجبار ، الذى لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد .. « أو أشد خشية » !! وإذا هم يقولون ـ فى حسرة وخوف وجزع ـ « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ » .. وهو سؤال غريب من مؤمن . وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين ؛ ولوظيفة هذا الدين أيضا . . ويتبعون ذلك التساؤل ، بأمنية حسيرة مسكينة ! « لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » وأمهلتنا بعض الوقت ، قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف !

إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهورا ، قد يكونون هم أشد الناس جزعا وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة . . بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الاحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل . دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار . . حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا . فكانوا أول الصف جزعا ونكولا وانهيارا .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ؛ ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف . فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته . . والمتهورون المندفعون المستحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافا ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفى المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالا ، وأى الفريقين أبعد نظرا كذلك !

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذى تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذى يلذعه الأذى فى مكة فلا يطيقه ؛ ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة . فيندفع يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بدفع الأذى ، أو حفظ الكرامة . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتبع فى هذا أمر ربه بالتريث والانتظار ، والتربية والإعداد ، وارتقاب الأمر فى الوقت المقدر المناسب فلما أن أمن هذا الفريق فى المدينة ؛ ولم يعد هناك

أذى ولا إذلال ، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ؛ لم يعد يرى للقتال مبررا ؛ أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة !

« فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » .

وقد يكون هذا الفريق مؤمنا فعلا . بدليل اتجاههم إلى الله فى ضراعة وأسى ! وهذه الصورة ينبغى أن تكون فى حسابنا . فالإيمان الذى لم ينضج بعد ؛ والتصور الذى لم تتضح معالمه ؛ ولم يتبين صاحبه وظيفة هـذا الدين فى الأرض ـ وأنهـا أكبر من حماية الأشخاص ، وحماية الأقوام، وحماية الأوطان ، إذ أنها فى صميمها إقرار منهج الله فى الأرض ، وإقامة نظامه العادل فى ربوع العالم ؛ وإنشاء قوة عليا فى هذه الأرض ذات سلطان ، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ؛ ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة فى أى مكان على سطح الأرض ؛ ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته ـ بأى لون من ألوان الفتنة ـ ومنها أن يطارد فى رزقه أو فى نشاطه حيث هو ـ وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه . . وإذن فلم يكن الأمن فى المدينة ـ حتى على فرض وجوده كاملا غير مهدد ـ لينهى مهمة المسلمين هناك ؛ وينهى عن الجهاد !

الإيمان الذى لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر ؛ والاستماع فقط إلى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، والكلمة الأخيرة ـ سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له ـ والتصور الذى لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين فى الأرض ؛ ومهمته هو ـ المؤمن ـ بوصفه قدرا من قدر الله ، ينفذ به الله ما يشاؤه فى هذه الحياة . . لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف ، الذى يصوره السياق القرآنى هذا التصوير ؛ ويعجب منه هذا التعجيب ! وينفر منه هذا التنفير .

فأما لماذا لم يأذن الله للمسلمين ـ فى مكة ـ بالانتصار من الظلم ؛ والرد على العدوان ؛ ودفع الأذى بالقوة .. وكثيرون منهم كان يملك هذا ؛ فلم يكن ضعيفا ولا مستضعفا ؛ ولم يكن عاجزا عن رد الصاع صاعين . . مهما يكن المسلمون فى ذلك الوقت قلة . .

أما حكمة هذا ، والأمر بالكف عن القتال ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والصبر

Marfat.com

Marfat.com

والاحتمال . . حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق ، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته ، فيفتن عن دينه . وبعضهم لا يحتمل الاستمرار فى العذاب فيموت تحت وطأته . .

أما حكمة هذا فلسنا فى حل من الجزم بها . لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة ؛ ونفرض على أوامره أسبابا وعللا ، قد لا تكون هى الأسباب والعلل الحقيقية . أو قد تكون ، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها ، ويعلم ـ سبحانه ـ أن فيها الخير والمصلحة . . وهذا هو شأن المؤمن أمام أى تكليف ، أو أى حكم فى شريعة الله ـ لم يبين الله سببه محددا جازما حاسما ـ فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف ؛ أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف ، مما يدركه عقله ويحسن فيه . . فينبغى أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال . ولا يجزم ـ مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله ـ بأن مارآه هو حكمة ؛ هو الحكمة التى أرادها الله . . نصا . . وليس وراءها شىء ، وليس من دونها شىء ! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله . ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف فى الطبيعة والحقيقة .

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد فى مكة وفرضيته فى المدينة . . نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب . . على أنه مجرد احتمال . . وندع ما وراءه لله . لا نقرض على أمره أسبابا وعللا ، لا يعلمها إلا هو . . ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها نص صريح !

إنها أسباب .. اجتهادية .. تخطىء وتصيب . وتنقص وتزيد . ولا نبغى بها إلا مجرد تدبر أحكام الله . وفق ما تظهره لنا الأحداث فى مجرى الزمان :

« ا » ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ؛ فى بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربى على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به ، محورا لحياة فى نظره ، ودافع الحركة فى حياته . . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ؛ فلا يندفع لأول مؤثر ـ كما هى طبيعته ـ ولا يهتاج لأول مهيج . ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته . .

Marfat.com

وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ؛ ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفا لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى ، لإنشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ؛ المترقى المتحضر ، غير الهمجى أو القبلى .

« ب » وربما كان ذلك أيضا ، لأن الدعوة السلمية أشد أثرا وأنفذ ، فى مثل بيئة قريش ؛ ذات العنجهية والشرف ؛ والتى قد يدفعها القتال معها ـ فى مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة ، كثارات العرب المعروفة ، التى أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ـ أعواما طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها ـ وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبدا . ويتحول الإسلام من دعوة ، إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبدا !

« ج » وربما كان ذلك أيضا ، اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ويفتنونه و « يؤدبونه » ! ومعنى الإذن بالقتال ـ فى مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت . . ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى الموسم ، فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدا يفرق بين الوالد وولده ؛ فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى .. فى كل بيت وكل محلة ؟

« د » وربما كان ذلك أيضا ، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ؛ هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته .. ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ؟ !

« هـ » وربما كان ذلك ، أيضا ، لأن النخوة العربية ، فى بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم ، الذى يحتمل الأذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم .. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ فى هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى فى ذلك عارا على العرب !

وعرض عليه جواره وحمايته ... وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما فى بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التى مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ؛ وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى !

« و » وربما كان ذلك أيضا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم فى مكة . حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة . أو بلغت أخبارها متناثرة ؛ حيث كانت القبائل تقف على الحياد ، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . . ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك ، وتنمحى الجماعة المسلمة . ولم يقم فى الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعى . . وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة .

« ز » فى الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة ، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى . لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائما ـ وقتها ـ ومحققا .. هذا الأمر الأساسى هو « وجود الدعوة » . . وجودها فى شخص الداعية ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهى مهددة بالقطع ! والنظام القبلى السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع فى حرب مع بنى هاشم ، إذا هى امتدت يدها إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان شخص الداعية من ثم محميا حماية كافية .. وكان الداعية يبلغ دعوته ـ إذن ـ فى حماية سيوف بنى هاشم ومقتضيات النظام القبلى ؛ ولا يكتمها ، ولا يخفيها ، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، فى ندوات قريش فى الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ؛ وفى اجتماعات عامة .. ولا يجرؤ أحد على سد فمه ! ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ؛ يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف . وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم فى جهنم لم يسكت . وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا . أى أن يجاملهم فيجاملوه ؛ بأن يتبع بعض

Marfat.com

Marfat.com

تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن ... وعلى الجملة كان للدعوة « وجودها » الكامل ، فى شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محروسا بسيوف بنى هاشم ـ وفى إبلاغه لدعوة ربه كاملة فى كل مكان وفى كل صورة . . ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة ، والتغاضى عن كل هذه الاعتبارات البيئية التى هى فى مجموعها ، مساندة للدعوة ومساعدة فى مثل هذه البيئة . .

هذه الاعتبارات كلها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمة الله ـ معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم . وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . . لتتم تربيتهم وإعدادهم ، ولينتفع بكل إمكانيات الخطة فى هذه البيئة ؛ وليقف المسلمون فى انتظار أمر القيادة ، فى الوقت المناسب . وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ . لتكون خالصة لله . وفى سبيل الله .. والدعوة لها « وجودها » وهى قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة . . .

وأيا ما كانت حكمة الله من وراء هذه الخطة ، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التى يؤذن لهم فيها بالقتال :

« فلما كتب عليهم القتال ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » .

وكان وجود هذه الطائفة فى الصف المسلم ينشىء فيه حالة من الخلخلة وينشىء فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع ، وبين الرجال المؤمنين ، ذوى القلوب الثابتة المطمئنة ؛ المستقبلة لتكاليف الجهاد ـ على كل ما فيها من مشقة ـ بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا . ولكن فى موضعها المناسب . فالحماسة فى تنفيذ الأمر حين يصدر هى الحماسة الحقيقية . أما الحماسة قبل الأمر ، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور ؛ يتبخر عند مواجهة الخطر !

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الربانى :

« قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » . .

إنهم يخشون الموت ، ويريدون الحياة . ويتمنون فى حسرة مسكينة ! لو كان الله قد أمهلهم بعض الوقت ؛ ومد لهم ـ شيئا ـ فى المتاع بالحياة !

Marfat.com

والقرآن يعالج هذه المشاعر فى منابتها ؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل . .

« قل متاع الدنيا قليل » . .

متاع الدنيا كله . والدنيا كلها . فما بال أيام ، أو أسابيع ، أو شهور ، أو سنين ؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير . إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها فى جملته قليلا ؟ ! ما الذى يملكون تحقيقه من المتاع فى أيام ، أو أسابيع ، أو شهور ، أو سنين . ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل ؟ !

« والآخرة خير لمن اتقى » . .

فالدنيا ـ أولا ـ ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة . . إنها مرحلة . . ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع ـ فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير ـ فهى « خير » . . « خير لمن اتقى » . . وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف فى موضعها . التقوى لله . فهو الذى يتقى ، وهو الذى يخشى . وليس الناس . . الناس الذين سبق أن قال : إنهم يخشونهم كخشية الله ـ أو أشد خشية ! ـ والذى يتقى الله لا يتقى الناس . والذى يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحدا . فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد ؟

« ولا تظلمون فتيلا » . .

فلا غبن ولا ضير ولا بخس ؛ إذا فاتهم شىء من متاع الدنيا . فهناك الآخرة . وهناك الجزاء الأوفى ؛ الذى لا يبقى معه ظلم ولا بخس فى الحساب الختامى للدنيا والآخرة جميعا !

ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه ـ مع هذا كله ـ إلى أيام تطول به فى هذه الأرض ! حتى وهو يؤمن بالآخرة ، وهو ينتظر جزاءها الخير .. وبخاصة حين يكون فى المرحلة الإيمانية التى كانت فيها هذه الطائفة !

هنا تجىء اللمسة الأخرى . اللمسة التى تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة ، والأجل والقدر ؛ وعلاقة هذا كله بتكليف القتال ، الذى جزعوا له هذا الجزع ، وخشوا الناس فيه هذه الخشية !

« أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » . .

فالموت حتم فى موعده المقدر . ولا علاقة له بالحرب والسلم . ولا علاقة له بحصانة المكان الذى يحتمى به الفرد أو قلة حصانته . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ؛ ولا هذا التكليف والتعرض للناس فى الجهاد يعجله عن موعده . .

هذا أمر وذاك أمر ؛ ولا علاقة بينهما . . إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل . بين الموعد الذى قدره الله وحلول ذلك الموعد . . وليست هنالك علاقة أخرى . . ولا معنى إذن لتمنى تأجيل القتال . ولا معنى إذن لخشية الناس فى قتال أو فى غير قتال !

وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآنى كل ما يهجس فى الخاطر عن هذا الأمر ؛ وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر . .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل فى طوقه من استعداد وأهبة ووقاية . . فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر . وفى مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط فى صلاة الخوف . وفى سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة . . ولكن هذا كله شىء ، وتعليق الموت والأجل به شىء آخر . . إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله . . وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب ـ رغم كل استعداد واحتياط ـ أمر آخر يجب أن يطاع ؛ وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله . .

توازن واعتدال . وإلمام بجميع الأطراف . وتناسق بين جميع الأطراف . .

هذا هو الإسلام . وهذا هو منهج التربية الإسلامى ، للأفراد والجماعات . .

* * *

وبهذا ربما ينتهى الحديث عن تلك الطائفة من المهاجرين . ويبدأ الحديث عن طائفة أخرى من الطوائف المنبثة فى المجتمع الإسلامى ، والتى يتألف منها الصف المسلم ومن سواها . . هذا وإن كان السياق لا انقطاع فيه ، ولا فصل ، ولا وقفة تنبىء بأن الحديث الآتى عن طائفة أخرى ، وأن الحديث عن هذه الطائفة قد انتهى . . ولكننا نمضى مع الاعتبارات التى أسلفناها :

«وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك !

Marfat.com

قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادن يفقهون حديثا ؟ ! ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » . .

إن الذين يقولون هذا القول ، وينسبون مايصيبهم من الخير إلى الله ، وما يصيبهم من الضر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتمل فيهم وجوه :

الوجه الأول : أنهم يتطيرون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيظنونه ـ حاشاه ـ شؤما عليهم . يأتيهم السوء من قبله . فإن أجدبت السنة ، ولم تنسل الماشية ، أو إذا أصيبوا فى موقعة ؛ تطيروا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما حين يصيبهم الخير فينسبون هذا إلى الله !

الوجه الثانى : أنهم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخلصا من التكاليف التى يأمرهم بها . وقد يكون تكليف القتال منها ـ أو أخصها ـ فبدلا من أن يقولوا : إنهم ضعاف يخشون مواجهة القتال ، يتخذون ذلك الطريق للتوى الآخر ! ويقولون : إن الخير يأتيهم من الله ، وإن السوء لا يجيئهم إلا من قبل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أوامره . وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر !

والوجه الثالث : هو سوء التصور فعلا لحقيقة ما يجرى لهم وللناس فى هذه الحياة ، وعلاقته بمشيئة الله . وطبيعة أوامر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه وتعالى . .

وهذا الوجه الثالث ـ إذا صح ـ ربما يكون قابلا لأن يوسم به ذلك الفريق من المهاجرين الذين كان سوء تصورهم لحقيقة الموت والأجل ، يجعلهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . ويقولون : « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » . . غير أننا ما نزال نميل إلى اعتبار المتحدث عنهم هنا طائفة أخرى . . تجتمع فيها تلك الأوجه كلها أو بعضها . وهذا الوجه الثالث منها . .

إن القضية التى تتناولها هذه الآيت ، هى جانب من قضية كبيرة . . القضية المعروفة فى تاريخ الجدل والفلسفة فى العالم كله باسم « قضية القضاء والقدر » أو «الجبروالاختيار» . .

Marfat.com

وقد وردت فى أثناء حكاية ذلك الفريق من الناس ؛ ثم فى الرد عليهم ، وتصحيح تصورهم . والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض . . فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم :

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ » . .

إن الله هو الفاعل الأول ، والفاعل الواحد ، لكل ما يقع فى الكون ، وما يقع للناس ، وما يقع من الناس . فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعل ـ أى فعل ـ لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر .

فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة ، وإيقاعها بهم ، للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم ـ نسبة غير حقيقية ؛ تدل على عدم فقههم لشىء ما فى هذا الموضوع .

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ؛ بالوسائل التى أرشد الله إلى أنها تحقق الخير . ولكن تحقق الخير فعلا يتم بإرادة الله وقدره . لأنه ليست هناك قدرة ـ غير قدرة الله ـ تنشىء الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع فى هذا الكون من وقائع . وإذن يكون تحقق الخير ـ بوسائله التى اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده ـ عملا من أعمال القدرة الإلهية .

وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء . أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء . ولكن وقوع السوء فعلا ، ووجوده أصلا ، لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله . لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث فى هذا الكون غير قوة الله .

وفى الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله . . وهذا ما تقرره الآية الأولى . .

أما الآية الثانية :

« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ... »

فإنها تقرر حقيقة أخرى . ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى . . إنها فى واد آخر . . والنظرة فيها من زاوية أخرى :

إن الله ـ سبحانه ـ قد سن منهجا ، وشرع طريقا ، ودل على الخير ، وحذر من الشر . .

Marfat.com

Marfat.com

فحين يتبع الإنسان هذا المنهج ، ويسير فى هذا الطريق ، ويحاول الخير ، ويحذر الشر .. فإن الله يعينه على الهدى كما قال: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .. ويظفر الإنسان بالحسنة.. ولا يهم أن تكون من الظواهر التى يحسبها الناس من الخارج كسبا .. إنما هى الحسنة فعلا فى ميزان الله تعالى .. وتكون من عند الله . لأن الله هو الذى سن المنهج وشرع الطريق ودل على الخير وحذر من الشر .. وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذى سنه ، ولا يسلك طريقه الذى شرعه ، ولا يحاول الخير الذى دله عليه ، ولا يحذر الشر الذى حذره منه .. حينئذ تصيبه السيئة . السيئة الحقيقية . سواء فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا .. ويكون هذا من عند نفسه . لأنه هو الذى لم يتبع منهج الله وطريقه ..

وهذا معنى غير المعنى الأول ، ومجال غير المجال الأول . . كما هو واضح فيما نحسب ..

ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئا . وهى أن تحقق الحسنة ، وتحقق السيئة ووقوعهما لا يتم إلا بقدرة الله وقدره . لأنه المنشىء لكل ما ينشأ . المحدث لكل ما يحدث . الخالق لكل ما يكون .. أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم فى هذا الذى يحدث ، وهذا الذى يكون[1] .

ثم يبين لهم حدود وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعمله وموقف الناس منه، وموقفه من الناس . ويرد الأمر كله إلى الله فى النهاية :

« وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » ..

---

(١) أما القضية التى تمثل هذه النصوص جانبا منها ، أو التى تذكر بها ، وهى قضية الجبر والاختيار ، وإلى أى حد تعمل إرادة الإنسان فيما يحدث منه أو يحدث له ؟ وكيف تكون له إرادة يقوم عليها الحساب والجزاء ؛ بينما إرادة الله هى المنشئة لكل ما يحدث ، ومنه إرادة الإنسان نفسه واتجاهه وعمله... إلى آخر هذه القضية . . فالنصوص القرآنية تقول : إن كل ما يحدث يحدث بإرادة الله وقدره . وتقول فى الوقت ذاته : إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسب على إرادته وعمله .. والقرآن كله كلام الله . ولن يعارض بعضه بعضا . فلابد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك . ولابد إذن أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان وعمله يكفى لحسابه عليه وجزائه ، دون أن يتعارض هذا مع مجال الإرادة الربانية والقدر الإلهى . كيف ؟ هذا ما لا سبيل لبيانه ، لأن العقل البشرى غير كفء لإدراك كيفيات عمل الله !

إن وظيفة الرسول هى أداء الرسالة . لا إحداث الخير ولا إحداث السوء . فهذا من أمر الله ـ كما سلف ـ والله شهيد على أنه أرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأداء هذه الوظيفة « وكفى بالله شهيدا » ..

وأمرُ الناس مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من أطاعه فقد أطاع الله . فلا تفرقة بين الله ورسوله . ولا بين قول الله وقول رسوله .. ومن تولى معرضا مكذبا فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه. ولم يرسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليجبره على الهدى، ويكرهه على الدين، وليس موكلا بحفظه من العصيان والضلال . فهذا ليس داخلا فى وظيفة الرسول ؛ ولا داخلا فى قدرة الرسول .

بهذا البيان يصحح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم.. فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره . وما يصيبهم من حسنة أو سيئة ـ بأى معنى من معانى الحسنة أو السيئة ، سواء حسب ما يرونه هم فى الظاهر ، أو ما هو فى حقيقة الأمر والواقع ـ فهو من عند الله . لأنه لا ينشىء شيئا ولا يحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله .. وما يصيبهم من حسنة حقيقية ـ فى ميزان الله ـ فهو من عند الله ، لأنه بسبب منهجه وهدايته . وما يصيبهم من سيئة حقيقية ـ فى ميزان الله ـ فهو من عند أنفسهم ، لأنه بسبب تنكبهم عن منهج الله والإعراض عن هدايته ..

والرسول وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول. لا ينشىء ولا يحدث ولا يخلق. ولا يشارك الله تعالى فى خاصية الألوهية هذه : وهى الخلق والإنشاء والإحداث . وهو يبلغ ما جاء به من عند الله ، فطاعته فيما يأمر به إذن هى طاعة لله . وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة الرسول . والرسول ليس مكلفا أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين ، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولى . بعد البلاغ والبيان ..

حقائق ـ هكذا ـ واضحة مريحة ، بينة صريحة ؛ تبنى التصور ، وتريح الشعور ؛ وتمضى شوطا مع تعليم الله لهذه الجماعة وإعدادها لدورها الكبير الخطير ..

* * *

بعد ذلك يحكى السياق عن حال طائفة أخرى ـ فى الصف المسلم ـ أم لعلها هى طائفة

Marfat.com

الفقين يذكر عنها فعلا جديدا ، وفصلا جديدا ! ومع الحكاية التنفير من الفعلة ؛ ومع التنفير التعليم والتوجيه والتنظيم . . كل ذلك فى آيات قليلة ، وعبارات معدودة :

« ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول ـ والله يكتب ما يبيتون ـ فأعرض عنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . .

إن هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف .. قالوا : « طاعة » . . قالوها هكذا جامعة شاملة . طاعة مطلقة . لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تبيت طائفة منهم غير الذى تقول ؛ وتروح فى ما بينها تتآمر على عدم التنفيذ ؛ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف .

أم لعل النص يصور حال الجماعة المسلمة كلها ؛ ويستثنى منها هذه الطائفة ذات الشأن الخاص ، والتصرف الخاص . . ويكون المعنى أن المسلمين يقولون : طاعة . بجملتهم . ولكن طائفة منهم ـ وهى هذه الطائفة المنافقة ـ إذا خرجت بيت أفرادها غير ما قالوا . . وهى صورة ترسم تلك الخلخلة بعينها فى الصف المسلم . فإن هؤلاء مندسون فيه على كل حال . وتصرفهم على هذا النحو يؤذى الصف ويخلخله ؛ والجماعة المسلمة تخوض المعركة فى كل ميادينها وبكل قوتها !

والله ـ سبحانه ـ يطمئن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمخلصين فى الصف . يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التى تبيت وتمكر . وشعور المسلمين بأن عين الله على المبيتين الماكرين يثبت قلوبهم ، ويسكب فيها الطمأنينة إلى أن هذه الطائفة لن تضرهم شيئا بتآمرها وتبييتها . ثم هى تهديد ووعيد للمتآمرين المبيتين ؛ فلن يذهبوا مفلحين ، ولن يذهبوا ناجين :

« والله يكتب ما يبيتون » . .

وكانت الخطة التى وجه الله إليها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى معاملة المنافقين ، هى أخذهم بظاهرهم ـ لا بحقيقة نواياهم ـ والإعراض والتغاضى عما يبدر منهم . . وهى خطة فتلتهم فى النهاية ، وأضعفتهم ، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفا وخجلا . . وهنا طرف من هذه الخطة :

« فأعرض عنهم » .

ومع هذا التوجيه بالإغضاء عنهم ، التطمين بكلاءة الله وحفظه مما يبيتون :

Marfat.com

Marfat.com

« وتوكل على الله . . وكفى بالله وكيلا » . .

نعم .. وكفى بالله وكيلا . لا يضار من كان وكيله ؛ ولا يناله تآمر ولا تبييت ولا مكيدة ..

وكأنما كان الذى يدفع هذه الطائفة إلى أن تقول فى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع القائلين : « طاعة » فإذا خرجت بيتت غير الذى تقول . . كأنما كان هذا بسبب شكهم فى مصدر ما يأمرهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظنهم أن هذا القرآن من عنده ! وحين يوجد مثل هذا الشك لحظة يتوارى سلطان الأمر والتكليف جملة . فهذا السلطان مستمد كله من الاعتقاد الجازم الكامل ، بأن هذا كلام الله ، وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينطق عن الهوى . . ومن ثم كان هذا التوكيد الشديد الجازم المكرر على هذه الحقيقة . .

وهنا يعرض عليهم القرآن خطة ، هى غاية ما يبلغه المنهج الربانى من تكريم الإنسان والعقل الإنسانى ، واحترام هذا الكائن البشرى وإدراكه ، الذى وهبه له الخالق المنان يعرض عليهم الاحتكام فى أمر القرآن إلى إدراكهم هم وتدبر عقولهم .. ويعين لهم منهج النظر الصحيح ؛ كما يعين لهم الظاهرة التى لا تخطىء إذا اتبعها ذلك المنهج . وهى ظاهرة واضحة كل الوضوح فى القرآن من جهة ؛ ويمكن للعقل البشرى إدراكها من جهة أخرى .. ودلالتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى :

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . .

وفى هذا العرض ، وهذا التوجيه ، منتهى الإكرام للإنسان وإدراكه وشخصيته ـ كما قلنا ـ كما أن فيه منتهى النصفة فى الاحتكام إلى هذا الإدراك فى ظاهرة لا يعييه إدراكها . وهى فى الوقت ذاته ذات دلالة ـ كما أسلفنا ـ لا تمارى !

والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدا .. ومستوياتها ومجالاتها ، مما تختلف العقول والأجيال فى إدراك مداها . ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها ـ بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ـ ما يملك إدراكه ، فى محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .

ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية . ومستطيع ـ عند التدبر وفق منهج

مستقيم ـ أن يدرك من هذه الظاهرة ـ ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ـ ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه . .

وتلك الطائفة فى ذلك الجيل كانت تخاطب بشىء تدركه ، وتملك التحقق منه بإدراكها فى حدودها الخاصة ،

تتجلى هذه الظاهرة . ظاهرة عدم الاختلاف . . أو ظاهرة التناسق . . ابتداء فى التعبير القرآنى من ناحية الأداء وطرائقه الفنية . . ففى كلام البشر تبدو القمم والسفوح ؛ التوفيق والتعثر . القوة والضعف. التحليق والهبوط . الرفرفة والثقلة . الإشراق والانطفاء . . إلى آخر الظواهر التى تتجلى معها سمات البشر . وأخصها سمة « التغير » والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال . يبدو ذلك فى كلام البشر ، واضحا عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد ، أو الفنان الواحد ، أو السياسى الواحد ، أو القائد العسكرى الواحد . . أو أىّ كان فى صناعته ؛ التى يبدو فيها الوسم البشرى واضحا . . وهو : التغير ، والاختلاف . .

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو : الثبات ، والتناسق ، هو الظاهرة الملحوظة فى القرآن ـ ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظى والأداء الأسلوبى ـ فهناك مستوى واحد فى هذا الكتاب المعجز ـ تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التى يتناولها ـ ولكن يتحد مستواه وأفقه ، والكمال فى الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى . . كما هو الحال فى كل ما يصنع الإنسان . . إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ؛ ويدل على الصانع . يدل على الموجود الذى لا يتغير من حال إلى حال ، ولا تتوالى عليه الأحوال ![1]

وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف . . والتناسق المطلق الشامل الكامل . . بعد ذلك فى ذات المنهج الذى تحمله العبارات . ويؤديه الأداء . . منهج التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية ـ ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة[2] ـ ومنهج التنظيم للنشاط الإنسانى

---

(١) يراجع كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .
(٢) يراجع كتاب : « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب .

Marfat.com

للأفراد وللمجتمع الذى يضم الأفراد ـ وشتى الجوانب والملابسات التى تطرأ فى حياة المجتمعات البشرية على توالى الأجيال ـ ومنهج التقويم للإدراك البشرى ذاته وتناول شتى قواه وطاقاته وإعمالها معاً فى عملية الإدراك ! ـ ومنهج التنسيق بين الكائن الإنسانى بجملته ـ فى جميع مجتمعاته وأجياله ومستوياته ـ وبين هذا الكون الذى يعيش فيه ؛ ثم بين دنياه وآخرته ؛ وما يشتجر فى العلاقة بينهما من ملابسات لا تحصى فى عالم كل فرد ؛ وفى عالم « الإنسان » وهو يعيش فى هذا الكون بشكل عام . .

وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح فى جانب التعبير اللفظى والأداء الفنى ، فإنه أوضح من ذلك فى جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشرى ، إلا وهو يحمل الطابع البشرى . . جزئية النظر والرؤية . . والتأثر الوقتى بالمشكلات الوقتية . . وعدم رؤية المتناقضات فى النظرية أو المذهب أو الخطة ؛ التى تؤدى إلى الاصطدام بين مكوناتها ـ إن عاجلا وإن آجلا ـ كما تؤدى إلى إيذاء بعض الخصائص فى الشخصية البشرية الواحدة التى لم يحسب حساب بعضها ؛ أو فى مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها . . إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف ، الناشئة من طبيعة الإدراك البشرى المحدود ، ومن الجهل البشرى بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة ـ فى أية لحظة حاضرة ! ـ وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآنى الشامل المتكامل ،الثابت الأصول ؛ ثبات النواميس الكونية ؛ الذى يسمح بالحركة الدائمة ـ مع ثباته ـ كما تسمح بها النواميس الكونية !

وتدبر هذه الظاهرة ، فى آفاقها هذه ، قد لا يتسنى لكل إدراك ، ولا يتسنى لكل جيل . بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر فى إدراكها ؛ وكل جيل سيأخذ بنصيبه فى إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية ، فى جانب من جوانب المعرفة أو التجربة . . إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشرى الكثير فى إدراك هذه الظاهرة ـ كاختلافه الكثير فى كل شىء آخر ! ـ بقية يلتقى عليها كل إدراك ، ويلتقى عليها كل جيل . . وهى أن هذه الصنعة شىء وصنعة البشر شىء آخر . وأنه لا اختلاف فى هذه الصنعة ولا تفاوت ، وإنما وحدة

Marfat.com

وتناسق . . ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون فى إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التناسق ! (١) .

وإلى هذا القدر الذى لا يخطئه متدبر ـ حين يتدبر ـ يكل الله تلك الطائفة ، كما يكل كل أحد ، وكل جماعة ، وكل جيل . وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن ؛ وبناء اعتقادهم فى أنه من عند الله . ولا يمكن أن يكون من عند غير الله .

ويحسن أن نقف هنا وقفة قصيرة ، لتحديد مجال الإدراك البشرى فى هذا الأمر وفى أمر الدين كله . فلا يكون هذا التكريم الذى كرمه الله للإنسان بهذا التحكيم ، سبيلا إلى الغرور ، وتجاوز الحد المأمون ؛ والانطلاق من السياج الحافظ من المضى فى التيه بلا دليل !

إن مثل هذه التوجيهات فى القرآن الكريم يساء إدراكها ، وإدراك مداها . فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين ـ قديما وحديثا ـ إلى إعطاء الإدراك البشرى سلطة الحكم النهائية فى أمر الدين كله . ويجعلون منه ندا لشرع الله . بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله !

الأمر ليس كذلك .. الأمر أن هذه الأداة العظيمة ـ أداة الإدراك البشرى ـ هى بلاشك موضع التكريم من الله ـ ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى : حقيقة أن هذا الدين من عند الله . لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها ؛ وهى كافية بذاتها للدلالة ـ دلالة هذا الإدراك البشرى ذاته ـ على أن هذا الدين من عند الله . . ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلماً بها ، أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم ـ بعد ذلك ـ تلقائيا بكل ما ورد فى هذا الدين ـ لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها . فالحكمة متحققة حتما مادام من عند الله . ولا يهم عندئذ أن يرى « المصلحة » متحققة فيه فى اللحظة الحاضرة . فالمصلحة متحققة حتما مادام من عند الله .. والعقل البشرى ليس ندا لشريعة الله ـ فضلا على أن يكون الحاكم عليها ـ لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا فى المدى المحدود ؛ ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلى جميع المصالح ـ لا فى اللحظة الواحدة ولا فى التاريخ كله ـ بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة ؛

---

(١) يراجع كتاب : « التصور الإسلامى : خصائصه ومقوماته » . وكتاب : « نحو مجتمع إسلامى » وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب : « هذا الدين » فكل منها يتناول جانبا من جوانب هذه الحقيقة الكبيرة .

Marfat.com

فلا ينبغى أن يكون الحكم فيها ، أو فى حكم ثابت قطعى من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشرى .. وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشرى أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه ؛ لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه ! فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قبل الله تعالى .. إنما يكون هذا فيما لا نص فيه ، مما يجدّ من الأقضية ؛ وهذا سبق بيان المنهج فيه ، وهو رده إلى الله والرسول . . وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيق . إلى جانب الاجتهاد فى فهم النص ، والوقوف عنده ، لا تحكيم العقل البشرى فى أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها !!! إن مجال العقل البشرى الأكبر فى معرفة نواميس الكون والإبداع فى عالم المادة . . . وهو ملك عريض !!!

يجب أن نحترم الإدراك البشرى بالقدر الذى أراده الله له من التكريم فى مجاله الذى يحسنه ـ ثم لا نتجاوز به هذا المجال . كى لا نمضى فى التيه بلا دليل . إلا دليلا يهجم على ما لا يعرف من مجاهل الطريق . . وهو عندئذ أخطر من المضى بلا دليل[1] !!!

* * *

ويمضى السياق يصور حال طائفة أخرى . أو يصف فعلة أخرى لطائفة فى المجتمع المسلم : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » ..

والصورة التى يرسمها هذا النص ، هى صورة جماعة فى المعسكر الإسلامى ، لم تألف نفوسهم النظام ؛ ولم يدركوا قيمة الإشاعة فى خلخلة المعسكر ؛ وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ؛ ولم يدركوا جدية الموقف ؛ وأن كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ؛ وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ! أو ـ ربما ـ لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيق الكامل لهذا المعسكر ؛ وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجرى بها هنا وهناك ، وإذاعتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان . سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف .. فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة ! ـ فإن إشاعة أمر الأمن مثلا فى معسكر متأهب مستيقظ

---

(١) يراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فصل «الربانية » وفصل « الثبات » وفصل « التوازن » .

Marfat.com

Marfat.com

متوقع لحركة من العدو . . إشاعة أمر الأمن فى مثل هذا المعسكر تحدث نوعا من التراخى ـ مهما تكن الأوامر باليقظة ـ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ! وفى ذلك التراخى قد تكون القاضية ! . . كذلك إشاعة أمر الخوف فى معسكر مطمئن لقوته ، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكا ، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف . . وقد تكون كذلك القاضية !

وعلى أية حال فهى سمة المعسكر الذى لم يكتمل نظامه ؛ أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته . أو هما معاً . . ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين فى المجتمع المسلم حينذاك ؛ باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات فى الإيمان ، ومختلفة المستويات فى الإدراك ، ومختلفة المستويات فى الولاء ... وهذه الخلخلة هى التى كان يعالجها القرآن بمنهجه الربانى .

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح :

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

أى لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كان معهم ، أو إلى أمرائهم المؤمنين ، لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة ؛ واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة ، والملابسات المتراكمة .

فمهمة الجندى الطيب فى الجيش المسلم ، الذى يقوده أمير مؤمن ـ بشرط الإيمان ذاك وحده ـ حين يبلغ إلى أذنيه خبر ، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره . لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ؛ أو بين من لا شأن لهم به . لأن قيادته المؤمنة هى التى تملك استنباط الحقيقة ، كما تملك تقدير المصلحة فى إذاعة الخبر ـ حتى بعد ثبوته ـ أو عدم إذاعته . .

وهكذا كان القرآن يربى . . فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة ؛ ويعلم نظام الجندية فى آية واحدة . . بل بعض آية . . فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندى وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف ، فيحمله ويجرى متنقلا ، مذيعا له ، من غير تثبت ، ومن غير تمحيص ، ومن غير رجعة إلى القيادة . . ووسطها يعلم ذلك التعليم . . وآخرها يربط القلوب بالله فى هذا ،

Marfat.com

ويذكرها بفضله ، ويحركها إلى الشكر على هذا الفضل ، ويحذرها من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد ؛ الكفيل بإفساد القلوب لولا فضل الله ورحمته :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » . .

آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلها ؛ وتتناول القضية من أطرافها ؛ وتتعمق السريرة والضمير ؛ وهى تضع التوجيه والتعليم !!! ذلك أنه من عند الله .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . .

* * *

وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ؛ التى تؤثر فى موقفه فى الجهاد وفى الحياة ـ ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب ـ عندئذ ينتهى إلى قمة التحضيض على القتال الذى جاء ذكره فى ثنايا الدرس . قمة التكليف الشخصى ، الذى لا يقعد الفرد عنه تبطئة ولا تخذيل ، ولا خلل فى الصف ، ولا وعورة فى الطريق . حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقاتل ـ ولو كان وحيدا ـ فإنه لا يحمل فى الجهاد إلا تبعة شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال .. وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر : فالله هو الذى يتولى المعركة . والله أشد بأسا وأشد تنكيلا :

« فقاتل فى سبيل الله ـ لا تكلف إلا نفسك ـ وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » . .

ومن خلال هذه الآية ـ بالإضافة إلى ما قبلها ـ تبرز لنا ملامح كثيرة فى الجماعة المسلمة يومذاك . كما تبرز لنا ملامح كثيرة فى النفس البشرية فى كل حين :

« ا » يبرز لنا مدى الخلخلة فى الصف المسلم ؛ وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ؛ حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة ، هى تكليف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقاتل فى سبيل الله ـ ولو كان وحده ـ ليس عليه إلا نفسه ؛ مع تحريض المؤمنين . غير متوقف مضيه فى الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ! ولو أن عدم استجابتهم ـ جملة ـ أمر

Marfat.com

لا يكون . ولكن وضع المسألة هذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ؛ واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة . فوق ما يحمله النص ـ طبعا ـ من حقيقة أساسية ثابتة فى التصور الإسلامى . وهى أن كل فرد لا يكلف إلا نفسه . .

« ب » كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب فى التعرض لقتال المشركين يومذاك . . حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين : أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ؛ فيكون المسلمون ستارا لقدرته فى كف بأسهم عن المسلمين . . مع إبراز قوة الله ـ سبحانه ـ وأنه أشد بأسا وأشد تنكيلا . . وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ؛ والمخاوف المبثوثة فى الصف المسلم . . وربما كان هذا بين أحد والخندق . فهذه أحرج الأوقات التى مرت بها الجماعة المسلمة فى المدينة ؛ بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفز المشركين ! وعدم اكتمال التصور الإسلامى ووضوحه وتناسقه بين المسلمين !

« ج » كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهى تدفع إلى التكاليف التى تشق عليها ، إلى شدة الارتباط بالله ؛ وشدة الطمأنينة إليه ؛ وشدة الاستعانة به ؛ وشدة الثقة بقدرته وقوته . . فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدى حين يبلغ الخطر قمته . وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الربانى ؛ والله هو الذى خلق هذه النفوس . وهو الذى يعلم كيف تربى وكيف تُقوّى وكيف تستجاش وكيف تستجيب . .

* * *

وبمناسبة تحريض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين على القتال الذى ورد الأمر به فى آخر الدرس ، وذكر المبطئين المثبطين فى أوله ، يقرر قاعدة عامة فى الشفاعة ـ وهى تشمل التوجيه والنصح والتعاون :

« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شىء مقيتا » . .

فالذى يشجع ويحرض ويعاون على القتال فى سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها . والذى يبطىء ويثبط تكون له تبعة فيها وفى آثارها . . وكلمة « كفل » توحى بأنه متكفل بجرائرها .

والمبدأ عام فى كل شفاعة خير ، أو شفاعة سوء . وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابسة الخاصة ، على طريقة المنهج القرآنى ، فى إعطاء القاعدة الكلية من خلال الحادثة الجزئية ، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام كذلك . وربط الأمر كله بالله ، الذى يرزق بكل شىء . أو الذى يمنح القدرة على كل شىء . وهو ما يفسر كلمة « مقيت » فى قوله تعالى فى التعقيب :

« وكان الله على كل شىء مقيتا » .

ثم استطرد السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها أو بمثلها . والتحية فى المجتمع علاقة من العلاقات التى تدور بها عجلة الحياة فى يسر ، إذا اتبع الأدب الواجب فيها .. والمناسبة قريبة بينها ـ فى جو المجتمع ـ وبين الشفاعة التى سبق التوجيه فيها :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ، أو ردوها ، إن الله كان على كل شىء حسيبا » ..

وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة ، التى تميز المجتمع المسلم ؛ وتجعل كل سمة فيه ـ حتى السمات اليومية العادية ـ متفردة متميزة ؛ لا تندغم ولا تضيع فى سمات المجتمعات الأخرى ومعالمها . .

جعل الإسلام تحيته : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . . والرد عليها بأحسن منها بالزيادة على كل منها ـ ما عدا الثالثة فلم تبق زيادة لمستزيد ـ فالرد على الأولى (وعليكم السلام ورحمة الله) والرد على الثانية (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) . والرد على الثالثة (وعليكم . .) إذ أنها استوفت كل الزيادات ، فترد بمثلها . . . وهكذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم . .

ونقف أمام اللمسات الكامنة فى آية التحية هذه :

إنها ـ أولا ـ تلك السمة المتفردة ، التى يحرص المنهج الإسلامى على أن يطبع بها المجتمع المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة ، وتقاليده الخاصة ـ كما أن له شرائعه الخاصة ونظامه الخاص ـ وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الخاصية بالتفصيل عند الكلام عن تحويل القبلة ، وتميز الجماعة المسلمة بقبلتها ، كتميزها بعقيدتها . وذلك فى سورة البقرة من قبل فى الظلال[1] .

وهى ـ ثانيا ـ المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة . .

---

(١) ص ١١ ـ ١٠ من الجزء الثانى : الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

وإفشاء السلام ، والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها. وقد سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى العمل خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف[1] » . . هذا فى إفشاء السلام بين الجماعة المسلمة ابتداء . وهو سنة . أما الرد عليها فهو فريضة بهذه الآية . . والعناية بهذا الأمر تبدو قيمتها عند الملاحظة الواقعية لآثار هذا التقليد فى إصفاء القلوب ، وتعارف غير المتعارفين ؛ وتوثيق الصلة بين المتصلين . . وهى ظاهرة يدركها كل من يلاحظ آثار مثل هذا التقليد فى المجتمعات ، ويتدبر نتائجها العجيبة !

وهى ـ ثالثا ـ نسمة رخية فى وسط آيات القتال قبلها وبعدها .. لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية .. السلام .. فالإسلام دين السلام . وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام فى الأرض ، بمعناه الواسع الشامل . السلام الناشئ من استقامة الفطرة على منهج الله[2] .

اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ؟ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ؛ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ـ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ـ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ، وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى

---

(١) أخرجه البخارى . (٢) يراجع بتوسع كتاب : السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا . فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ، وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، وَيَكُفوا أَيْدِيَهُمْ ، فَخُذُوهُمْ ، وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ . وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ـ إِلَّا خَطَأً ـ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ـ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ـ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ـ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ . وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ، فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ . تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ . وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ؛ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ : لَسْتَ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ! فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ؛ كَذَٰلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ ؛ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ، فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » ﴿٩٤﴾

يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامى الأساسية . . التوحيد وإفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ؛ ثم يبنى على هذه القاعدة أحكاما شتى فى معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ؛ بعد التنديد بانقسام الصف المسلم إلى فئتين ورأيين ، فى معاملة المنافقين ـ ويبدو أنها جماعة خاصة من المنافقين من غير سكان المدينة ـ فتقوم هذه الأحكام ـ وهذا التنديد أيضا ـ على قاعدتها الأصيلة ، التى يقوم عليها بناء النظام الإسلامى كله . . والتى يتكرر ذكرها كلما اتجه المنهج الربانى إلى تشريع أو توجيه . .

هذه الأحكام فى معاملة المعسكرات المختلفة ، هى طرف من القواعد التى أنشأها الإسلام

Marfat.com

ـ لأول مرة فى تاريخ البشرية ـ لتنظيم المعاملات الدولية ؛ واتخاذ قواعد أخرى لهذه المعاملات ، غير تحكيم السيف ، ومنطق القوة ، وشريعة الغاب .

إن أوربا بقانونها الدولى ـ وكل ما تفرع عنه من المنظمات الدولية ـ لم تبدأ فى هذا الاتجاه إلا فى القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى). ولم يزل هذا القانون ـ فى جملته ـ حبرا على ورق ؛ ولم تزل هذه المنظمات ـ فى جملتها ـ أدوات تختفى وراءها الأطماع الدولية ؛ ومنابر للحرب الباردة ! وليست أداة لإحقاق حق ؛ ولا لتحقيق عدل ! وقد دعت إليها منازعات بين دول متكافئة القوى . ولكن كلما اختل هذا التكافؤ لم يعد للقوانين الدولية قيمة ، ولا للمنظمات الدولية عمل ذو قيمة !

أما الإسلام ـ المنهج الربانى للبشر ـ فقد وضع أسس المعاملات الدولية فى القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) . ووضعها من عند نفسه ؛ دون أن تضطره إلى ذلك ملابسات القوى المتكافئة . فهو كان يضعها ليستخدمها هو ، وليقيم المجتمع المسلم علاقاته مع المعسكرات الأخرى على أساسها . ليرفع للبشرية راية العدالة ، وليقيم لها معالم الطريق . ولو كانت المعسكرات الأخرى ـ الجاهلية ـ لا تعامل المجتمع المسلم بتلك المبادىء من جانبها . . فلقد كان الإسلام ينشىء هذه المبادىء إنشاء وللمرة الأولى . .

وهذه القواعد للمعاملات الدولية متفرقة فى مواضعها ومناسباتها من سور القرآن ، وهى تؤلف فى مجموعها قانونا كاملا للتعامل الدولى . يضم حكما لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى : محاربة . ومهادنة . ومحالفة . ومحايدة . ومرتبطة مع محارب ، أو مهادن ، أو محالف ، أو محايد . . . الخ . .

وليس بنا هنا أن نستعرض هذه المبادىء والأحكام (فهى جديرة ببحث مستقل يتولاه متخصص فى القانون الدولى) . ولكننا نستعرض ما جاء فى هذه المجموعة من الآيات فى هذا الدرس . . وهى تتعلق بالتعامل مع الطوائف التالية :

« ا » المنافقين غير المقيمين فى المدينة .

«ب» الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق . . .

«حـ» المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو حرب قومهم كذلك . وهم على دينهم.

Marfat.com

« د » المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة .

« هـ » حالات القتل الخطأ بين المسلمين والقتل العمد على اختلاف المواطن والأقوام . .

وسنجد أحكاما صريحة واضحة فى جميع هذه الحالات ؛ التى تكوّن جانبا من مبادىء التعامل فى المحيط الدولى . شأنها شأن بقية الأحكام ، التى تتناول شتى العلاقات الأخرى .

* * *

ونبدأ من حيث بدأ السياق القرآنى بالقاعدة الأولية التى يقوم عليها بناء الإسلام كله . وبناء النظام الإسلامى فى شتى جوانبه :

« الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ومن أصدق من الله حديثا؟ »

إنه من توحيد الله ـ سبحانه ـ وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الربانى ـ سواء فى تربية النفوس أم فى إقامة المجتمع ، ووضع شرائعه وتنظيمه ؛ وسواء كانت هذه الشرائع متعلقة بالنظام الداخلى للمجتمع المسلم ، أم بالنظام الدولى ، الذى يتعامل هذا المجتمع على أساسه مع المجتمعات الأخرى . ومن ثم نجد هذا الافتتاح لمجموعة الآيات المتضمنة لطائفة من قواعد التعامل الخارجية والداخلية أيضا .

كذلك من الاعتقاد فى الآخرة ، وجمع الله الواحد لعباده ، ليحاسبهم هناك على ما أتاح لهم فى الدنيا من فرص العمل والابتلاء ، تبدأ خطوات هذا المنهج فى تربية النفوس ، وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ؛ وتجاه كل حركة من حركاتها فى الحياة . . فهو الابتلاء فى الصغيرة والكبيرة فى الدنيا ؛ والحساب على الصغيرة والكبيرة فى الآخرة . . وهذا هو الضمان الأوثق لنفاذ الشرائع والأنظمة ؛ لأنه كامن هناك فى أعماق النفس ، حارس عليها ، سهران حيث يغفو الرقباء ويغفل السلطان !

هذا حديث الله ـ سبحانه ـ وهذا وعده :

« ومن أصدق من الله حديثا ؟ » . .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وبعد هذه اللمسة للقلوب ، وهى اللمسة الدالة على طريقة هذا المنهج فى التربية ، كما هى دالة على أساس التصور الاعتقادى العملى فى حياة الجماعة المسلمة . .

بعد هذه اللمسة يبدأ فى استنكار حالة من التميع فى مواجهة النفاق والمنافقين ؛ وقلة الحسم فى موضع الحسم فى معاملة الجماعة المسلمة لهم ؛ وانقسام هذه الجماعة فئتين فى أمر طائفة من المنافقين ـ من خارج المدينة كما سنبين ـ حيث يشى هذا الاستنكار بما كان فى المجتمع المسلم يومئذ من عدم التناسق ؛ كما يشى بتشدد الإسلام فى ضرورة تحديد الأمور وحسمها ، وكراهة التميع فى التعامل مع المنافقين والنظرة إليهم ؛ والارتكان إلى ظاهرهم . . ما لم يكن ذلك عن خطة مقررة هادفة :

« فما لكم فى المنافقين فئتين ؟ والله أركسهم بما كسبوا ؛ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » . .

وقد وردت فى شأن هؤلاء المنافقين روايات ، أهمها روايتان :

قال الإمام أحمد: حدثنا بهز ، حدثنا شعبة ، قال عدى ابن ثابت : أخبرنى عبد الله ابن يزيد ، عن زيد ابن ثابت ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم ، فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا . هم المؤمنون ! فأنزل الله : « فما لكم فى المنافقين فئتين ؟ » فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنها طيبة . وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد » . . (أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة) .

وقال العوفى عن ابن عباس : نزلت فى قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام ؛ وكانوا يظاهرون المشركين . فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم . فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس . . وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة ، قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله : ـ أو كما قالوا ـ أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ؟ من أجل أنهم لم يهاجروا ،

ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين ، والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شىء ، فنزلت: «فما لكم فى المنافقين فئتين ؟» .. (رواه ابن أبى حاتم ، وقد روى عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا) .

ومع أن الرواية الأولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الرواية الثانية ، بالاستناد إلى الواقع التاريخى ؛ فالثابت أن منافقى المدينة لم يرد أمر بقتالهم ؛ ولم يقاتلهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو يقتلهم . إنما كانت هناك خطة أخرى مقررة فى التعامل معهم . هى خطة الإغضاء عنهم ، وترك المجتمع نفسه ينبذهم ، وتقطيع الأسناد من حولهم بطرد اليهود ـ وهم الذين يغرونهم ويعلون لهم ـ من المدينة أولا . ثم من الجزيرة العربية كلها أخيرا .. أما هنا فنحن نجد أمرا جازما بأخذهم أسرى ، وقتلهم حيث وجدوا : مما يقطع بأنهم مجموعة أخرى غير مجموعة المنافقين فى المدينة . . وقد يقال : إن الأمر بأخذهم أسرى وقتلهم مشروط بقوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » .. فهو تهديد ليقلعوا عما هم فيه .. وقد يكونون أقلعوا فلم ينفذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الأمر فيهم . . ولكن كلمة « يهاجروا » تقطع ـ فى هذه الفترة ـ بأنهم ليسوا من أهل المدينة . وأن المقصود هو أن يهاجروا إلى المدينة ؛ فقد كان هذا قبل الفتح . ومعنى الهجرة ـ قبل الفتح ـ كان محددا بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؛ والانضمام للجماعة المسلمة ؛ والخضوع لنظامها . وإلا فهو الكفر أو النفاق .. وسيجىء فى سياق السورة ـ فى الدرس التالى ـ تنديد شديد بموقف الذين بقوا ـ بغير عذر من الضعف ـ من المسلمين فى مكة ؛ دار الكفر والحرب بالنسبة لهم ـ ولو كانوا من أهلها ومواطنين فيها ! ـ وكل هذا يؤيد ترجيح الرواية الثانية . وأن هؤلاء المنافقين كانوا جماعة من مكة ـ أو ممن حولها ـ يقولون كلمة الإسلام بأفواههم ، ويظاهرون عدو المسلمين بأعمالهم .

ونعود إلى النص القرآنى :

« فما لكم فى المنافقين فئتين ؛ والله أركسهم بما كسبوا ؟ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا

Marfat.com

Marfat.com

منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » . .

إننا نجد فى النصوص استنكارا لانقسام المؤمنين فئتين فى أمر المنافقين ؛ وتعجبا من اتخاذهم هذا الموقف ؛ وشدة وحسما فى التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته ، وفى التعامل مع أولئك المنافقين كذلك .

وكل ذلك يشى بخطر التميع فى الصف المسلم حينذاك ـ وفى كل موقف مماثل ـ التميع فى النظرة إلى النفاق والمنافقين ؛ لأن فيها تميعا كذلك فى الشعور بحقيقة هذا الدين . ذلك أن قول جماعة من المؤمنين : « سبحان الله ! ـ أو كما قالوا ـ أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم وأموالهم ؟ » . . وتصورهم للأمر على هذا النحو ، من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون ! مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين : « إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس » .. وشهادة الفئة الأخرى من المؤمنين وقولهم : « يظاهرون عدوكم » .. تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تميع كبير لحقيقة الإيمان ، فى ظروف تستدعى الوضوح الكامل ، والحسم القاطع . فإن كلمة تقال باللسان ؛ مع عمل واقعى فى مساعدة عدو المسلمين الظاهرين ، لا تكون إلا نفاقا . ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء . لأنه تميع للتصور ذاته .. وهذا هو الخطر الذى يواجهه النص القرآنى بالعجب والاستنكار والتشديد البين .

ولم يكن الحال كذلك فى الإغضاء عن منافقى المدينة . فقد كان التصور واضحا . . هؤلاء منافقون .. ولكن هناك خطة مقررة للتعامل معهم . هى أخذهم بظاهرهم والإغضاء إلى حين .

وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن المنافقين . لأنهم قالوا كلاما كالذى يقوله المسلمون . وأدوا بألسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين !

من أجل هذا التميع فى فهم فئة من المسلمين ، ومن أجل ذلك الاختلاف فى شأن المنافقين فى الصف المسلم ، كان هذا الاستنكار الشديد فى مطلع الآية . . ثم تبعه الإيضاح الإلهى لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين :

« والله أركسهم بما كسبوا » . .

ما لكم فئتين فى شأن المنافقين . والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ؟ وهى شهادة من الله حاسمة فى أمرهم . بأنهم واقعون فى السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء :

ثم استنكار آخر :

« أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ » . .

ولعله كان فى قول الفريق . . المتسامح !! . . ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا ، ويتركوا اللجلجة ! فاستنكر الله هذا فى شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله فى شر أعمالهم وسوء مكاسبهم .

« ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . .

فإنما يضل الله الضالين . . أى يمد لهم فى الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة . وعندئذ تغلق فى وجوههم سبل الهداية ؛ بما بعدوا عنها ، وسلكوا غير طريقها ؛ ونبذوا العون والهدى ، وتنكروا لمعالم الطريق !

ثم يخطو السياق خطوة أخرى فى كشف موقف المنافقين . . إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ؛ ولم يستحقوا أن يوقعهم الله فى الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب . . إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . .

إنهم قد كفروا . . على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ، ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل فى مظاهرة أعداء المسلمين . . وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد . فالذى يكفر لا يستريح لوجود الإيمان فى الأرض ووجود المؤمنين . ولا بد له من عمل وسعى ، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر . ليكونوا كلهم سواء .

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين . . وهو يحمل البيان الذى يرفع التميع فى تصور الإيمان ؛ ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين . وإلا فلا عبرة بكلمات اللسان ، وحولها هذه القرائن التى تشهد بالكذب والنفاق :

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم ، وهو يقول لهم :

Marfat.com

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ..

فقد كانوا حديثى عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر . وبالنقلة الضخمة التى يجدونها فى أنفسهم ، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم فى الجاهلية .. ثم فى الإسلام . وكان الفرق واضحا بارزا فى مشاعرهم وفى واقعهم ، تكفى الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط ـ سفح الجاهلية ـ الذى التقطهم منه الإسلام ؛ فسار بهم صعدا فى المرتقى الصاعد ، نحو القمة السامقة .

ومن ثم يتكىء المنهج القرآنى على هذه الحقيقة ؛ فيوجه إليهم الأمر فى لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذى يتهددهم من قبل هؤلاء :

« فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » . .

ونحس من النهى عن اتخاذ أولياء منهم . . أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا فى نفوس المسلمين فى المدينة ـ وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا ـ وكان المنهج القرآنى يعالج هذه الرواسب ؛ ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها . كما يقرر قواعد تصورها فى الوقت ذاته .

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة ، أو روابط الدم والقرابة . أو روابط الحياة فى أرض واحدة أو مدينة واحدة ، أو روابط المصالح الاقتصادية فى التجارة وغير التجارة . . إنما تقوم الأمة على العقيدة ؛ وعلى النظام الاجتماعى المنبثق من هذه العقيدة .

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين فى دار الإسلام ، وبين غيرهم ممن هم فى دار الحرب . . ودار الحرب هى يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول . . لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم ـ أى إلى الأمة المسلمة ـ حيث تكون هجرتهم لله وفى سبيل الله . من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أى هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذى يعيش بالمنهج الإسلامى لا لأى غرض آخر .. بهذه النصاعة . وبهذا الحسم . وبهذا التحديد الذى لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى ، أو مصالح أخرى ، أو أهداف أخرى . .

Marfat.com

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . . فى دار الحرب . . وهاجروا إلى دار الإسلام ، ليعيشوا بالنظام الإسلامى ، المنبثق من العقيدة الإسلامية ، القائم على الشريعة الإسلامية . . إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء فى المجتمع المسلم ، مواطنون فى الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال :

« فإن تولوا فخذوهم (أى أسرى) واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » .

وهذا الحكم ـ كما قلنا ـ هو الذى يرجح عندنا ، أنهم لم يكونوا هم منافقى المدينة إذ قد اتبعت مع منافقى المدينة سياسة أخرى .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ؛ فلا يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته . ولهم ـ حتى وهم يعيشون فى ظل نظامه ودولته ـ أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام . فى غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن فى الدين . فقد ورد فى القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالا للشك فى أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون فى ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء السائعة فى زماننا هذا ! وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته . وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ؛ وأنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامى بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ؛ وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارا نهارا فى العقيدة . . ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال . لا يتسامح مع من يقولون : إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله . ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية ، كالحاكمية والتشريع للناس ؛ فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون ، لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . . لا لأنهم عبدوهم . ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال ، وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم !

ولا يتسامح هذا التسامح فى وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون . لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . ثم بقوا فى دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين !

Marfat.com

Marfat.com

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا . إنما هو تميع . والإسلام عقيدة التسامح . ولكنه ليس عقيدة « التميع » . إنه تصور جاد . ونظام جاد . والجد لا ينافى التسامح . ولكنه ينافى التميع .

وفى هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآنى للجماعة المسلمة الأولى ، بيان ، وبلاغ . .

* * *

ثم استثنى من هذا الحكم ـ حكم الأسر والقتل ـ لهذا الصنف من المنافقين ، الذين يعينون أعداء المسلمين ـ من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد ـ عهد مهادنة أو عهد ذمة ـ فى هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذى يلتجئون إليه ، ويتصلون به :

« إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق » . .

ويبدو فى هذا الحكم اختيار الإسلام للسلم ، حينما وجد مجالا للسلم لا يتعارض مع منهجه الأساسى . من حرية الإبلاغ وحرية الاختيار ؛ وعدم الوقوف فى وجه الدعوة ، بالقوة مع كفالة الأمن للمسلمين ؛ وعدم تعريضهم للفتنة ، أو تعريض الدعوة الإسلامية ذاتها للتجميد والخطر .

ومن ثم يجعل كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين ـ عهد ذمة أو عهد هدنة ـ شأنه شأن القوم المعاهدين . يعامل معاملتهم ، ويسالم مسالمتهم . وهى روح سلمية واضحة المعا فى مثل هذه الأحكام .

كذلك يستثنى من الأسر والقتل جماعة أخرى . هى الأفراد أو القبائل أو المجموعات التى تريد أن تقف على الحياد ، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال . إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم . كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين . فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء :

« أو جاءوكم ، حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » . .

وواضح كذلك فى هذا الحكم الرغبة السلمية فى اجتناب القتال ؛ حيثما كف الآخرون عن التعرض للمسلمين ودعوتهم ؛ واختاروا الحياد بينهم وبين المحاربين لهم . وهؤلاء الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمين أو يحاربوا قومهم .. كانوا موجودين فى الجزيرة ؛ وفى قريش

Marfat.com

نفسها ؛ ولم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه . فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه[1] .. كما أنه كان المرجو من أمرهم أن ينحازوا إلى الإسلام ، حينما تزول الملابسات التى تحرجهم من الدخول فيه ؛ كما وقع بالفعل .

ويحبب الله المسلمين فى انتهاج هذه الخطة مع المحايدين المتحرجين . فيكشف لهم عن الفرض الثانى الممكن فى الموقف ! فلقد كان من الممكن ـ بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متحرجين ـ أن يسلطهم الله على المسلمين فيقاتلوهم مع أعدائهم المحاربين ! فأما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو ، فالسلم أولى ، وتركهم وشأنهم هو السبيل :

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » . .

وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره ؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين . ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذى يعرض فلا يرفضوه ، ويجتنبوا الشر الذى يأخذ طريقه بعيدا عنهم ، فلا يناوشوه .. طالما أن ليس فى هذا كله تفريط فى شىء من دينهم ، ولا تمييع لشىء من عقيدتهم ؛ ولا رضى بالدنية فى طلب السلم الرخيصة !

لقد نهاهم عن السلم الرخيصة . لأنه ليس الكف عن القتال بأى ثمن هو غاية الإسلام . . إنما غاية الإسلام : السلم التى لا تتحيف حقا من حقوق الدعوة ، ولا من حقوق المسلمين . . لا حقوق أشخاصهم وذواتهم ؛ ولكن حقوق هذا المنهج الذى يحملونه ويسمون به مسلمين .

وإن من حق هذا المنهج أن تزال العقبات كلها من طريق إبلاغ دعوته وبيانه للناس فى كل زاوية من زوايا الأرض . وأن يكون لكل من شاء ـ ممن بلغتهم الدعوة ـ أن يدخل فيه فلا يضار ولا يؤذى فى كل زاوية من زوايا الأرض . وأن تكون هناك القوة التى يخشاها

---

(١) عدلت هذه الأحكام فى آيات التوبة ، حين تقرر ـ بعد التجارب العملية ـ أنه لا يمكن أن يتعايش دينان فى الجزيرة .

كل من يفكر فى الوقوف فى وجه الدعوة ـ فى صورة من الصور ـ أو مضارة من يؤمن بها ـ أى لون من ألوان المضارة ـ وبعد ذلك فالسلم قاعدة ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

* * *

ولكن هناك طائفة أخرى ، لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح . لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى . وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق . فالإسلام إزاءها إذن طليق . يأخذها بما أخذ به طائفة المنافقين الأولى :

« ستجدون آخرين ، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم. كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم؛ فخذوهم ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » . .

حكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة ، كانوا يأتون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسلمون رياء ؛ ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا ، وها هنا . فأمر بقتلهم ـ إن لم يعتزلوا ويصلحوا ـ ولهذا قال تعالى : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم (المهادنة والصلح) ويكفوا أيديهم (أى عن القتال) فخذوهم (أسراء) واقتلوهم حيث ثقفتموهم (أى حيث وجدتموهم) وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا »

وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته ، إلى جانب سماحته وتفاضيه . . هذه فى موضعها ، وتلك فى موضعها . وطبيعة الموقف ، وحقيقة الواقعة ، هى التى تحدد هذه وتلك . .

ورؤية هاتين الصفحتين ـ على هذا النحو ـ كفيلة بأن تنشىء التوازن فى شعور المسلم ؛ كما تنشىء التوازن فى النظام الإسلامى ـ السمة الأساسية الأصيلة ـ فأما حين يجىء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفا وحماسة وشدة واندفاعا فليس هذا هو الإسلام ! وأما حين يجىء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد فى الإسلام ، كأن الإسلام فى قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير ! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلما وإغضاء وعفوا ؛ ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامى وعن جماعة المسلمين ـ وليس دفاعا عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية فى الأرض بلا عقبة . وليس تأمينا لأى فرد فى كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

الإسلام عقيدة . وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم فى ظله ، من اختار عقيدته ومن لم يختزها سواء . . فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام .

وفى هذه الطائفة من أحكام المعاملات الدولية بلاغ وبيان . .

* * *

ذلك فى علاقات المسلمين مع المعسكرات الأخرى . فأما فى علاقات المسلمين بعضهم ببعض ، مهما اختلفت الديار ـ وفى ذلك الوقت كما فى كل وقت كان هناك مسلمون فى شتى الديار ـ فلا قتل ولا قتال . . لا قتل إلا فى حد أو قصاص . . فإنه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة . ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبدا . وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة . اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ . . وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . فأما القتل العمد فلا كفارة له . لأنه وراء الحسبان ! ووراء حدود الإسلام ! .

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ . ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ إلا أن يصدقوا ـ فإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن ـ فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين . توبة من الله . وكان الله عليما حكيما .

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » . .

وهذه الأحكام تتناول أربع حالات : ثلاث منها من حالات القتل الخطأ ـ وهو الأمر المحتمل وقوعه بين المسلمين فى دار واحدة ـ دار الإسلام ـ أو فى ديار مختلفة بين شتى الأقوام ـ والحالة الرابعة حالة القتل العمد . وهى التى يستبعد السياق القرآنى وقوعها ابتداء . فليس من شأنها أن تقع . إذ ليس فى هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوى دم مسلم يريقه مسلم عمدا . وليس فى ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمدا . وهذه العلاقة التى أنشأها الإسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والحلاوة والإعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبدا . .

ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ :

Marfat.com

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » ..

فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامى .. وهو الاحتمال الحقيق فى الواقع .. فإن وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة . كبيرة جدا . ونعمة عظيمة . عظيمة جدا . ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد .. إن هذا العنصر .. المسلم .. عنصر عزيز فى هذه الأرض .. وأشد الناس شعورا بإعزاز هذا العنصر هو المسلم مثله .. فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله .. وهذا أمر يعرفه أصحابه . يعرفونه فى نفوسهم ومشاعرهم . وقد علمهم الله إياه بهذه العقيدة . وبهذه الوشيجة . وبهذه القرابة التى تجمعهم فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ترتقى فتجمعهم فى الله سبحانه الذى ألف بين قلوبهم . ذلك التأليف الربانى العجيب .

فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث ، التى يبين السياق أحكامها هنا :

الحالة الأولى : أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون فى دار الإسلام . ويجب فى هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية تسلم إلى أهله . . فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة . وكذلك هو تحرير الرقاب فى حس الإسلام . وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس ، وشراء لخواطر المفجوعين ، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول . . ومع هذا يلوح الإسلام لأهل القتيل بالعفو ـ إذا اطمأنت نفوسهم إليه ـ لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح فى المجتمع المسلم .

« ومن يقتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله ـ إلا أن يصدقوا » ..

والحالة الثانية : أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام فى دار الحرب . . وفى هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التى قتلت ، وفقدها الإسلام . ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين ، يستعينون بها على قتال المسلمين ! ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم ، فهم محاربون ، وهم عدو للمسلمين .

والحالة الثالثة : أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون ـ عهد هدنة أو عهد ذمة ـ ولم ينص على كون المقتول مؤمنا فى هذه الحالة . مما جعل بعض المفسرين والفقهاء يرى النص

على إطلاقه . ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ المعاهدين ـ ولو لم يكن مؤمنا . لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين .

ولكن الذى يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن . « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » . . ثم بيان للحالات المتنوعة التى يكون فيها القتيل مؤمنا . وإذا كان قد نص فى الحالة الثانية فقال : « وإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن » فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو . ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة فى هذه الحالة الثالثة . مما يوحى بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضا عنه . وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقا دون شرط الإيمان . .

وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودى بعض القتلى من المعاهدين : ولكن لم يرد عتق رقاب مؤمنة بعددهم . مما يدل على أن الواجب فى هذه الحالة هو الدية . وأن هذا ثبت بعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بهذه الآية . وأن الحالات التى تتناولها هذه الآية كلها هى حالات وقوع القتل على مؤمن . سواء كان من قوم مؤمنين فى دار الإسلام ، أو من قوم محاربين عدو للمسلمين فى دار الحرب ، أو من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق . . ميثاق هدنة أو ذمة . . وهذا هو الأظهر فى السياق .

* * *

ذلك القتل الخطأ . فأما القتل العمد ، فهو الكبيرة التى لاترتكب مع إيمان ؛ والتى لاتكفر عنها دية ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله :

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه . وأعد له عذابا عظيما » . .

إنها جريمة قتل لا لنفس غضب ـ بغير حق ـ ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة ، التى أنشأها الله بين المسلم والمسلم . إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها .

ومن ثم قرنت بالشرك فى مواضع كثيرة ؛ واتجه بعضهم ـ ومنهم ابن عباس ـ إلى أنه لاتوبة منها . . ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر

Marfat.com

ما دون ذلك لمن يشاء » . . فرجا للقاتل التائب المغفرة . . وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل .

والذين تربوا فى مدرسة الإسلام الأولى ، كانوا يرون قاتلى آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، ـ قبل إسلامهم ـ يمشون على الأرض ـ وقد دخلوا فى الإسلام ـ فيهيج فى نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة . ولكنهم لا يفكرون فى قتلهم . لا يفكرون مرة واحدة ؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر فى أشد الحالات وجدا ولذعا ومرارة . بل إنهم لم يفكروا فى إنقاصهم حقا واحدا من حقوقهم التى يخولها لهم الإسلام .

واحتراسا من وقوع القتل ولو كان خطأ ؛ وتطهيرا لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شىء إلا لله ، وفى سبيل الله .. يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام فى كلمة اللسان (إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان)

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ؛ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا . تبتغون عرض الحياة الدنيا . فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا » . .

وقد وردت روايات كثيرة فى سبب نزول الآية : خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلا معه غنم له . فقال السلام عليكم . يعنى أنه مسلم . فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها ، فقتله .

ومن ثم نزلت الآية ، تحرج على مثل هذا التصرف ؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع فى الغنيمة ؛ أو تسرع فى الحكم . . وكلاهما يكرهه الإسلام .

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين فى حساب ؛ إذا خرجوا يجاهدون فى سبيل الله . إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه .. وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين . وقد يكون دم مسلم عزيز ، لا يجوز أن يراق .

والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ؛ وما كان فيها من طمع فى الغنيمة . . ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ؛ فلم يعودوا يبتغون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا فى جاهليتهم . ويمن عليهم أن شرع لهم حدودا وجعل لهم نظاما ؛ فلا تكون الهيجة الأولى هى الحكم الآخر . كما كانوا فى جاهليتهم كذلك . .

Marfat.com

وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم - على قومهم - من الضعف والخوف ، فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين ، وأن ذلك الرجل القتيل كان يخفى إسلامه على قومه ، فلما لقى المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين :

« كذلك كنتم من قبل . فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وهكذا يلمس المنهج القرآنى القلوب لتحيا وتتحرج وتتذكر نعمة الله . . وعلى هذه الحساسية والتقوى ، يقيم الشرائع والأحكام ؛ بعد بيانها وإيضاحها .

وهكذا يتناول هذا الدرس تلك الجوانب من قواعد المعاملات الدولية بمثل هذا الوضوح ، ومثل هذه النظافة . منذ أربعة عشر قرنا . .

« لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ - غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ - وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ . فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً . وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَى . وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ! قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ ! فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ، وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ . وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً .

« وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ؛ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿١٠٠﴾

Marfat.com

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ - إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ : فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ ، فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ؛ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا ، فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ؛ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ، أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ؛ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ . إِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً ، وَعَلَى جُنُوبِكُمْ . فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ . إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً

« وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ . إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً » ﴿١٠١﴾

هذا الدرس وثيق الصلة ، شديد اللحمة بالدرس السابق والدرس الذى قبله كذلك . فهو تكملة موضوعية لموضوع الدرسين السابقين . ولولا الرغبة فى إقرار مبادىء للمعاملات الدولية - كما يقررها الإسلام - لاعتبرناهما معا مع هذا الدرس درسا واحدا متصلا . إنما هى حلقات فى خط واحد .

إن موضوعه الأساسى هو الهجرة إلى دار الإسلام ؛ والحث على انضمام المسلمين المتخلفين فى دار الكفر والحرب ، إلى الصف المسلم المجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال . واطراح الراحة النسبية والمصلحة كذلك فى البقاء بمكة ، إلى جوار الأهل والمال !

Marfat.com

Marfat.com

ولعل هذا هو المقصود بقوله تعالى فى مطلع هذا الدرس : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ـ وكلا وعد الله الحسنى ـ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . . . » . . فما كان فى المدينة قاعدون ـ إلا المنافقين المعوقين الذين تحدث عنهم بلهجة غير هذه اللهجة فى الدرس الماضى !

وقد تلا هذه الفقرة فقرة أخرى فيها تحذير وتهديد لمن يظلون قاعدين هنالك فى دار الكفر ـ وهم قادرون على الهجرة منها بدينهم وعقيدتهم ـ حتى تتوفاهم الملائكة «ظالمى أنفسهم» . . «فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » . .

ثم تلتها فقرة أخرى عن ضمان الله سبحانه لمن يهاجر فى سبيله ، منذ اللحظة التى يخرج فيها من بيته ، قاصدا الهجرة إلى الله خالصة . عالج فيها كل المخاوف التى تهجس فى النفس البشرية وهى تقدم على هذه المخاطرة ، المحفوفة بالخطر ، الكثيرة التكاليف فى الوقت ذاته . .

فالحديث مطرد عن الجهاد والهجرة إلى دار المجاهدين ، وأحكام التعامل بين المسلمين فى دار الهجرة وبقية الطوائف خارج هذه الدار ـ بما فى ذلك المسلمون الذين لم يهاجروا ـ والحديث موصول .

كذلك يلم هذا الدرس بكيفية الصلاة عند الخوف ـ فى ميدان القتال أو فى أثناء طريق الهجرة ـ وتدل هذه العناية بالصلاة فى هذه الآونة الحرجة ، على طبيعة نظرة الإسلام إلى الصلاة ـ كما أسلفنا ـ كما يهيىء لإيجاد حالة تعبئة نفسية كاملة ؛ فى مواجهة الخطر الحقيقى المحدق بالجماعة المسلمة ؛ من أعدائها الذين يتربصون بها لحظة غفلة أو غرة !

وينتهى الدرس بلمسة قوية عميقة التأثير ؛ فى التشجيع على الجهاد فى سبيل الله ؛ فى وجه الآلام والمتاعب التى تصيب المجاهدين . وذلك فى تصوير ناصع لحال المؤمنين المجاهدين ، وحال أعدائهم المحاربين ؛ على مفرق الطريق :

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون . . »

وبهذا التصوير يفترق طريقان؛ ويبرز منهجان ؛ ويصغر كل ألم ، وتهون كل مشقة . ولا يبقى

Marfat.com

مجال للشعور بالضنى وبالكلال .. فالآخرون كذلك يألمون . ولكنهم يرجون من الله مالا يرجون!

ويرسم هذا الدرس ـ بجملة الموضوعات التى يعالجها ، وبطرائق العلاج التى يسلكها ـ ما كان يعتمل فى جسم الجماعة المسلمة ، وهى تواجه مشاق التكوين الواقعية ؛ ومشكلات التكوين المعملة. وما كان يشتجر فى النفوس من عوامل الضعف البشرى ؛ ومن رواسب الماضى الجاهلى، ومن طبيعة الفطرة البشرية وهى تواجه التكاليف بمشاقها وآلامها ؛ مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع إلى الوفاء كذلك ؛ يستثيرها المنهج الحكيم ، ويستجيشها فى الفطرة لتنهض بهذا الأمر العظيم .

ونرى ذلك كله مرتسما من خلال الوصف للواقع ؛ ومن خلال التشجيع والاستجاشة ؛ ومن خلال المعالجة للمخاوف الفطرية والآلام الواقعية ؛ ومن خلال التسليح فى المعركة بالصلاة ! وبالصلاة خاصة ـ إلى جانب التسلح بالعدة واليقظة ـ وبالثقة فى ضمانة الله للمهاجرين ، وثوابه للمجاهدين ، وعونه للخارجين فى سبيله ، وما أعده للكافرين من عذاب مهين .

ونرى طريقة المنهج القرآنى الربانى فى التعامل مع النفس البشرية فى قوتها وضعفها ؛ وفى التعامل مع الجماعة الإنسانية فى أثناء تكوينها وإنضاجها . ونرى شتى الخيوط التى يشدها منها فى الوقت الواحد وفى الآية الواحدة . . ونرى ـ على الأخص ـ كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق على عدوها ، فى الوقت الذى يملأ نفوسها بالحذر واليقظة والتهيؤ الدائم للخطر، وفى الوقت الذى يدلها كذلك على مواطن الضعف فيها ، ومواضع التقصير ، ويحذرها إياها أشد التحذير .

إنه منهج عجيب فى تكامله وفى تقابله مع النفس البشرية ؛ وفى عدد الأوتار التى يلمسها فى اللمسة الواحدة ، وعدد الخيوط التى يشدها فى هذه النفس ، فتصوت كلها وتستجيب !

لقد كان التفوق فى منهج التربية ، والتفوق فى التنظيم الاجتماعى الذى قام عليه ؛ هو الأمر البارز الظاهر فيما بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله من فروق . . ولقد كان هذا التفوق البارز هو كذلك أوضح الأسباب ـ التى يراها البشر ـ لتمكن هذا المجتمع الناشىء الشاب ـ بكل ما كان فى حياته من ملابسات ومن ضعف أحياناً وتقصير ـ من طى تلك

المجتمعات الأخرى ، والغلبة عليها . لا غلبة معركة بالسلاح فحسب ؛ ولكن غلبة حضارة فتية على حضارات شاخت . غلبة منهج على مناهج ، ونموذج من الحياة على نماذج ؛ ومولد عصر جديد على مولد إنسان جديد . .

ونكتفى بهذا القدر حتى نواجه النصوص بالتفصيل :

* * *

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما » . .

إن هذا النص القرآنى كان يواجه حالة خاصة فى المجتمع المسلم وما حوله ؛ وكان يعالج حالة خاصة فى هذا المجتمع من التراخى ـ من بعض عناصره ـ فى النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس . سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظا بأموالهم ، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئاً من ماله ؛ أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ، إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون ، وكثيراً ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم ـ أو يزيدون فى إيذائهم بتعيير أدق ـ إذا عرفوا منهم نية الهجرة . . سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة ـ وهو ما نرجحه ـ أو كان المقصود بعض المسلمين فى دار الإسلام ، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس ـ من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم فى درس سابق ـ أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس فى دار الحرب ودار الإسلام سواء .

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ؛ ولكن التعبير القرآنى يقرر قاعدة عامة يطلقها من قيود الزمان ، وملابسات البيئة ؛ ويجعلها هى القاعدة التى ينظر الله بها إلى المؤمنين فى كل زمان وفى كل مكان ـ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولى الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، أو يقعدهم

Marfat.com

العذر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم . . قاعدة عامة على الإطلاق :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » . .

ولا يتركها هكذا مبهمة ، بل يوضحها ويقررها ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين :

« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » . .

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقامهم فى الجنة .

فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . .

وقال الأعمش عن عمرو ابن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رمى بسهم فله أجره درجة » . . فقال رجل : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ فقال : « أما إنها ليست بعتبة أمك . ما بين الدرجتين مئة عام» .

وهذه المسافات التى يمثل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها ؛ بعد الذى عرفناه من بعض أبعاد الكون . حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب فى مئات السنين الضوئية ! وقد كان الذين يسمعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصدقونه بما يقول . ولكنا ـ كما قلت ـ ربما كنا أقدر ـ فوق الإيمان ـ على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب !

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق فى المستوى بين القاعدين من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى :

« وكلاً وعد الله الحسنى » . .

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال ؛ مع تفاضل أهله فى الدرجات وفق تفاضلهم فى النهوض بتكاليف الإيمان ؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس . . وهذا الاستدراك هو الذى

Marfat.com

نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين . إنما هم طائفة أخرى صالحة فى الصف المسلم ومخلصة ؛ ولـكنها قصرت فى هذا الجانب ؛ والقرآن يستحثها لتلافى التقصير ؛ والخير مرجو فيها ، والأمل قائم فى أن تستجيب .

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى ؛ مؤكداً لها ، متوسعاً فى عرضها ؛ ممعناً فى الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما » .

وهذا التوكيد .. وهذه الوعود .. وهذا التمجيد للمجاهدين . . والتفضيل على القاعدين .. والتلويح بكل ماتهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم.. ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير . .

هذا كله يشى بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : هى أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة فى الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها . وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية ، ولطبيعة الجماعات البشرية ، وأنها مهما بلغت فى مجموعها من التفوق فى الإيمان والتربية فهى دائما فى حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير فى مواجهة التـكاليف ، وبخاصة تـكاليف الجهاد بالأموال والأنفس ، مع خلوص النفس لله ، وفى سبيل الله . وظهور هذه الخصائص البشرية ـ من الضعف والحرص والشح والتقصير ـ لايدعو لليأس من النفس أو الجماعة ، ولا إلى نقض اليد منها ، وازدرائها ؛ طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة فى التعامل مع الله موفورة فيها . . ولـكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير ؛ والهتاف لها بالانبطاح فى السفح ، باعتبار أن هذا كله جزء من « واقعها » ! بل لابد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . بكل ألوان الهتاف والحداء . . كما نرى هنا فى للنهج الربانى الحـكيم .

والحقيقة الثانية : هى قيمة الجهاد بالأموال والأنفس فى ميزان الله واعتبارات هذا الدين

Marfat.com

وأصالة هذا العنصر فى طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام . لما يعلمه الله ـ سبحانه ـ من طبيعة الطريق ؛ وطبيعة البشر ؛ وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام فى كل حين .

إن « الجهاد » ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة . إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة ! وليست المسألة ـ كما توهم بعض المخلصين ـ أن الإسلام نشأ فى عصر الإمبراطوريات ؛ فاندس فى تصورات أهله ـ اقتباسا مما حولهم ـ أنه لابد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن !

هذه المقررات تشهد ـ على الأقل ـ بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون ،

لو كان الجهاد ملابسة طارئة فى حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله ؛ فى مثل هذا الأسلوب ! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى مثل هذا الأسلوب . .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ماقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق »[1] .

وإن كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ رد فى حالات فردية بعض المجاهدين ، لظروف عائلية لهم خاصة ، كالذى جاء فى الصحيح أن رجلا قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجاهد . قال : « لك أبوان ؟ » قال : نعم . قال ، « ففيهما جاهد » . . لئن كان ذلك فإنما هى حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة ؛ وفرد واحد لاينقص المجاهدين الكثيرين . ولعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عادته فى معرفة كل ظروف جنوده فردا فردا ، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ، ماجعله يوجهه هذا التوجيه . .

فلا يقولن أحد ـ بسبب ذلك ـ إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف . وقد تغيرت هذه الظروف !

---

(١) أخرجه صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

Marfat.com

وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشى به فى الطريق يقطع به الرؤوس ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره فى كل حين !

إن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه النفوس ! ويعلم أن لابد لأصحاب السلطان أن يقاوموه . لأنه طريق غير طريقهم ، ومنهج غير منهجهم . ليس بالأمس فقط . ولكن اليوم وغدا . وفى كل أرض ، وفى كل جيل !

وإن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفاً . ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة ! ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل . ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ؛ ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة !

هذه جبلة ! وليست ملابسة وقتية . . .

هذه فطرة ! وليست حالة طارئة . . .

ومن ثم لابد من الجهاد .. لابد منه فى كل صورة .. ولا بد أن يبدأ فى عالم الضمير . ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود . ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة .. وإلا كان الأمر انتحارا . أو كان هزلا لايليق بالمؤمنين !

ولا بد من بذل الأموال والأنفس . كما طلب الله من المؤمنين . وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . فأما أن يقدر لهم الغلب ؛ أو يقدر لهم الاستشهاد ؛ فذلك شأنه ـ سبحانه ـ وذلك قدره المحجوب بحكمته .. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم .. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل .. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون . .

هناك نقط ارتكاز أصيلة فى هذه العقيدة ، وفى منهجها الواقعى ، وفى خط سيرها المرسوم ، وفى طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية ، التى لاعلاقة لها بتغير الظروف .

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع فى حس المؤمنين ـ تحت أى ظرف من الظروف .

Marfat.com

ومن هذه النقط .. الجهاد .. الذى يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث .. الجهاد فى سبيل الله وحده . وتحت رايته وحدها . . وهذا هو الجهاد الذى يسمى من يقتلون فيه « شهداء » ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم . .

* * *

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ؛ أولئك الذين يظلون قاعدين فى دار الكفر لا يهاجرون ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق ـ وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية ـ أن يهاجروا . . حتى يحين أجلهم ؛ وتأتى الملائكة لتتوفاهم . يتحدث عنهم فيصورهم صورة زرية منكرة ؛ تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته ، وبمصيره عند ربه ؛ من هذا الموقف الذى يرسمه لهم :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . . قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لايستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوًّا غفورا » . .

لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة فى الجزيرة العربية ـ فى مكة وغيرها ـ بعد هجرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيام الدولة المسلمة . فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا حبستهم أموالهم ومصالحهم ـ حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجرا يحمل معه شيئا من ماله ـ أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة ـ حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له فى الطريق . . وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقى ، من الشيوخ والنساء والولدان الذين لايستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلا للهجرة ...

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ؛ بعد عجزهم عن إدراك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة . وبعد قيام الدولة المسلمة . وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش فى بدر ، وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم . فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألواناً من العذاب والنكال ، ويفتنونهم عن دينهم فى غيظ شديد .

Marfat.com

Marfat.com

وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا ؛ واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم . . وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها ـ متى استطاعوا ـ فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام، فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء للتقية ، وفى الوسع الهجرة والجهر بالإسلام ، والحياة فى دار الإسلام .. أمر غير مقبول .

وهكذا نزلت هذه النصوص ؛ تسمى هؤلاء القاعدين محافظة على أموالهم ومصالحهم ، أو إشفاقاً من مشاق الهجرة ومتاعب الطريق . . حتى يحين أجلهم . . تسميهم : « ظالمى أنفسهم » .. بما أنهم حرموها الحياة فى دار الإسلام ، تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة . وألزموها الحياة فى دار الكفر تلك الحياة الذليلة الخانسة الضعيفة المضطهدة ، وتوعدهم « جهنم وساءت مصيرا » .. مما يدل على أنها تعنى الذين فتنوا عن دينهم بالفعل هناك !

ولكن التعبير القرآنى ـ على أسلوب القرآن ـ يعبر فى صورة ، ويصور فى مشهد حى نابض بالحركة والحوار :

« إن الذين توفاهم الملائكة .. ظالمى أنفسهم .. قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ ! » . .

إن القرآن يعالج نفوسا بشرية ؛ ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها ؛ وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة . . لذلك يرسم هذا المشهد .. إنه يصور حقيقة . ولكنه يستخدم هذه الحقيقة فى موضعها أحسن استخدام ، فى علاج النفس البشرية ..

ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية ، وتتحفز لتصور مافيه . وإظهار الملائكة فى المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية .

وهم ـ القاعدون ـ ظالمو أنفسهم . وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم . . ظالمى أنفسهم . وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها . إذ يكفى أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه ؛ وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه، فهذه هى اللحظة الأخيرة .

ولكن الملائكة لا يتوفونهم ـ ظالمى أنفسهم ـ فى صمت . بل يقلبون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ! ويسألونهم : فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم ؟ وماذا كان شغلهم وهمهم فى الدنيا :

« قالوا : فيم كنتم ؟ » ..

فإن ما كانوا فيه ضياع فى ضياع ؛ كأن لم يكن لهم شغل إلا هذا الضياع !

ويجيب هؤلاء المحتضرون ، فى لحظة الاحتضار ، على هذا الاستنكار ، جوابا كله مذلة ، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة .

« قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض » . .

كنا مستضعفين . يستضعفنا الأقوياء . كنا أذلاء فى الأرض لا نملك من أمرنا شيئا .

وعلى كل ما فى هذا الرد من مهانة تدعو إلى الزراية ؛ وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها فى لحظة الاحتضار ، بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة . . فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمى أنفسهم . بل يجبهونهم بالحقيقة الواقعة ؛ ويؤنبونهم على عدم المحاولة ، والفرصة قائمة :

« قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ! » . .

إنه لم يكن العجز الحقيقى هو الذى يحملهم ـ إذن ـ على قبول الذل والهوان والاستضعاف ، والفتنة عن الإيمان . . إنما كان هناك شىء آخر . . حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم فى دار الكفر ، وهناك دار الإسلام . ويمسكهم فى الضيق وهناك أرض الله الواسعة . والهجرة إليها مستطاعة ؛ مع احتمال الآلام والتضحيات .

وهنا ينهى المشهد المؤثر ، بذكر النهاية المخيفة :

« فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا » . .

ثم يستثنى من لا حيلة لهم فى البقاء فى دار الكفر؛ والتعرض للفتنة فى الدين ، والحرمان من الحياة فى دار الإسلام من الشيوخ الضعاف ، والنساء والأطفال ؛ فيعلقهم بالرجاء فى عفو الله ومغفرته ورحمته . بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » . .

ويمضى هذا الحكم إلى آخر الزمان ؛ متجاوزا تلك الحالة الخاصة التى كان يواجهها النص فى تاريخ معين ، وفى بيئة معينة . . يمضى حكما عاما ؛ يلحق كل مسلم تناله الفتنة فى دينه فى أية

Marfat.com

Marfat.com

أرض ؛ وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ؛ أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها . حتى كان هناك ـ فى الأرض فى أى مكان ـ دار للإسلام ؛ يأمن فيها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدى فيها عباداته ؛ ويحيا حياة إسلامية فى ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة . .

* * *

أما السياق القرآنى فيمضى فى معالجة النفوس البشرية ؛ التى تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها ؛ وتشفق من التعرض لها . وقد عالجها فى الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معاً . فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة ـ سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات فى طريقه ـ فى حالة الهجرة فى سبيل الله ؛ وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجراً فى سبيله . ووعده بالسعة والتنفس فى الأرض والمنطلق ، فلا تضيق به الشعاب والفجاج :

« ومن يهاجر ـ فى سبيل الله ـ يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ـ ثم يدركه الموت ـ فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيماً » . .

إن المنهج الربانى القرآنى يعالج فى هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهى تواجه مخاطر الهجرة ؛ فى مثل تلك الظروف التى كانت قائمة ، والتى قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف فى كل حين .

وهو يعالج هذه النفس فى وضوح وفصاحة ؛ فلا يكتم عنها شيئا من المخاوف ؛ ولا يدارى عنها شيئاً من الأخطار ـ بما فى ذلك خطر الموت ـ ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى . .

فهو أولا يحدد الهجرة بأنها «فى سبيل الله » . . وهذه هى الهجرة المعتبرة فى الإسلام . فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأى عرض من أعراض الحياة . ومن يهاجر هذه الهجرة ـ فى سبيل الله ـ يجد فى الأرض

Marfat.com

فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة . للنجاة وللرزق والحياة :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة » . .

وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها ؛ يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق ، مرهونة بأرض ، ومقيدة بظروف ، ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلا .

وهذ التصور الـكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ؛ هو الذى يجعـل النفوس تقبل الذل والضيم ، وتسكت على الفتنة فى الدين ؛ ثم تتعرض لذلك المصير البائس . مصير الذين تتوفاهم الملائـكة ظالمى أنفسهم . والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر فى سبيل الله . . إنه سيجد فى أرض الله منطلقا وسيجد فيها سعة . وسيجد الله فى كل مكان يذهب إليه ، يحييه ويرزقه وينجيه . .

ولـكن الأجل قد يوافى فى أثناء الرحلة والهجرة فى سبيل الله . . والموت ـ كما تقدم فى سياق السورة ـ لا علاقة له بالأسباب الظاهرة ؛ إنما هو حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم . وسواء أقام أم هاجر ، فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر .

غير أن النفس البشرية لهـا تصوراتها ولهـا تأثراتها بالملابسات الظاهرة . . . والمنهج يراعى هذا ويعالجه . فيعطى ضمانة الله بوقوع الأجر على الله منذ الخطوة الأولى من البيت فى الهجرة إلى الله ورسوله :

« ومن يخرج من بيتـه مهاجرا إلى الله ورسوله ـ ثم يدركه الموت ـ فقد وقع أجره على الله » . .

أجره كله . أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة فى دار الإسلام . . فماذا بعد ضمان الله من ضمان ؟

ومع ضمانة الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمـة فى الحساب . وهـــذا فوق الصفقة الأولى .

« وكان الله غفورا رحيما » .

إنها صفقة رابحة دون شك . يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى ـ خطوة

Marfat.com

الخروج من البيت مهاجرا إلى الله وسوله ـ والموت هو الموت . فى موعده الذى لا يتأخر والذى لا علاقة له بهجرة أو إقامة . ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت فى موعده . ولخسر الصفقة الرابحة . فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة . بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالماً لنفسه !

وشتان بين صفقة وصفقة ! وشتان بين مصير ومصير !

* * *

ويخلص لنا من هذه الآيات التى استعرضناها من هذا الدرس ـ إلى هذا الموضع ـ عدة اعتبارات ، نجملها قبل أن نعبر إلى بقية الدرس وبقية ما فيه من موضوعات .

يخلص لنا منها مدى كراهية الإسلام للقعود عن الجهاد فى سبيل الله ؛ والقعود عن الانضمام للصف المسلم المجاهد . . اللهم إلا من عذرهم الله من أولى الضرر ، ومن العاجزين عن الهجرة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . .

ويخلص لنا منها مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى النظام الإسلامى ، وفى المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الربانى . . وقد عدته الشيعة ركنا من أركان الإسلام ـ ولهم من قوة النصوص ومن قوة الواقع ما يفسر اتجاههم هذا . لولا ما ورد فى حديث : « بنى الإسلام على خمس . . . » ولكن قوة التكليف بالجهاد ؛ وأصالة هذا العنصر فى خطر الحياة الإسلامية ؛ وبروز ضرورته فى كل وقت وفى كل أرض ـ الضرورة التى تستند إلى مقتضيات فطرية لا ملابسات زمنية ـ كلها تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته .

ويخلص لنا كذلك أن النفس البشرية هى النفس البشرية ؛ وأنها قد تحجم أمام الصعاب ، أو تخف أمام المخاطر ، وتكسل أمام العقبات ، فى خير الأزمنة وخير المجتمعات . وأن منهج العلاج فى هذه الحالة ، ليس هو اليأس من هذه النفوس . ولكن استجاشتها ، وتشجيعها ، وتحذيرها ، وطمأنتها فى آن واحد . وفق هذا المنهج القرآنى الربانى الحكيم .

وأخيرا يخلص لنا كيف كان هـذا القرآن يواجه واقع الحياة ، ويقود المجتمع المسلم ؛ ويخوض المعركة ـ فى كل ميادينها ـ وأول هذه الميادين هو ميدان النفس البشرية ؛ وطبائعها الفطرية ، ورواسبها كذلك من الجاهلية . وكيف ينبغى أن نقرأ القرآن ، ونتعامل معه ونحن نواجه واقع الحياة والنفس بالدعوة إلى الله .

* * *

بعد ذلك يستطرد إلى رخصة ، ييسرها الله للمهاجرين ، أو الضاربين فى الأرض للجهاد أو للتجارة . فى حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى . فيفتنوهم عن دينهم . وهى رخصة القصر من الصلاة ـ وهو غير القصر المرخص به للمسافر إطلاقا سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف ـ فهذا قصر خاص .

« وإذا ضربتم فى الأرض ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ـ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ـ إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » . .

إن الضارب فى الأرض فى حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة بربه ، تعينه على ما هو فيه ، وتكمل عدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه ، وما هو مرصود له فى الطريق . . والصلاة أقرب الصلات إلى الله . وهى العدة التى يدعى المسلمون للاستعانة بها فى الشدائد والملمات . فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم : « واستعينوا بالصبر والصلاة » . .

ومن ثم يجىء ذكرها هنا فى إبانها المناسب ، وفى وقت الحاجة إليها والاضطرار . فما أحوج الخائف فى الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله . وما أحوج الواحد من أرضه إلى أن يلتجىء إلى حمى الله . . غير أن الصلاة الكاملة ـ وما فيها من قيام وركوع وسجود ـ قد تعوق الضارب فى الأرض عن الإفلات من كمين قريب . أو قد تلفت إليه أنظار عدوه فيرهقوه . أو قد تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد فيأخذوه . . ومن ثم هذه الرخصة للضارب فى الأرض أن يقصر من الصلاة عند مخافة الفتنة .

Marfat.com

Marfat.com

والمعنى الذى نختاره فى القصر هنا هو المعنى الذى اختاره الإمام الجصاص [1] . وهو أنه ليس القصر فى عدد الركعات بجعلها اثنتين فى الصلاة الرباعية . فهـذا مرخص به المسافر إطلاقا ، بلا تخصيص حالة الخوف من الفتنة . بل هذا هو المختار فى الصلاة للمسافر ـ كفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل سفر ـ بحيث لا يجوز إكمال الصـــلاة فى السفر فى أرجح الأقوال .

وإذن فهذه الرخصة الجديدة ـ فى حالة خوف الفتنة ـ تعنى معنى جديدا غير مجرد القصر المرخص به لـكل مسافر . إنما هو قصر فى صفة الصلاة ذاتها . كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد . حيث يصلى الضارب فى الأرض قائما وسائرا وراكبا ، ويومىء للركوع والسجود .

وكذلك لا يترك صلته بالله فى حالة الخوف من الفتنة ، ولا يدع سلاحه الأول فى المعركة ، ويأخذ حذره من عدوه :

« إن الـكافرين كانوا لـكم عدوا مبينا » .

* * *

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب فى الأرض ، الخائف من فتنة الذين كفروا ، يجىء حكم صلاة الخوف فى أرض المعركة ؛ وتحتشد جنبات هـذا الحـكم الفقهى بلمسات نفسية وتربوية شتى :

« وإذا كنت فيهم ، فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ؛ فإذا سجدوا فليـكونوا من ورائـكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ؛ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتـكم وأمتعتـكم ، فيميلون عليـكم ميلة واحدة . ولا جناح عليـكم ـ إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ـ أن تضعوا أسلحتـكم . وخذوا حذركم ، إن الله أعد للـكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا

---

(١) أحكام القرآن للجصاص . الجزء الثانى طبعة المطبعة البهية ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ..

إن المتأمل فى أسرار هذا القرآن ؛ وفى أسرار المنهج الربانى للتربية ، المتمثل فيه ، يطلع على عجب من اللفتات النفسية ، النافذة إلى أعماق الروح البشرية . ومنها هذه اللفتة فى ساحة المعركة إلى الصلاة ..

إن السياق القرآنى لا يجىء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم « الفقهى » فى صفة صلاة الخوف . ولكنه يحشد هذا النص فى حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة .

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة فى ساحة المعركة ! ولكن هذا طبيعى بل بديهى فى الاعتبار الإيمانى . إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة . بل إنها السلاح ! فلابد من تنظيم استخدام هذا السلاح ، بما يتناسب مع طبيعة المعركة ، وجو المعركة !

ولقد كان أولئك الرجال ـ الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الربانى ـ يلقون عدوهم بهذا السلاح الذى يتفوقون فيه قبل أى سلاح . لقد كانوا متفوقين فى إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ؛ ويشعرون أنه معهم فى المعركة . متفوقين كذلك فى إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعا . متفوقين أيضا فى تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنسانى ، تفوقهم فى تنظيمهم الاجتماعى الناشىء من تفوق منهجهم الربانى .. وكانت الصلاة رمزا لهذا كله ، وتذكيرا بهذا كله . ومن ثم كانت سلاحا فى المعركة . بل كانت هى السلاح !

والأمر الثانى الذى يلفت النظر فى هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو . وهذا الحذر الذى يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذى يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ، ليميل عليهم ميلة واحدة ! ومع هذا التحذير والتخويف ، التطمين والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوما كتب الله عليهم الهوان : « إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » .. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

الحذر وسكب فيض الثقة ؛ هو طابع هذا المنهج فى تربية النفس المؤمنة والصف المسلم ، فى مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !

أما كيفية صلاة الخوف ؛ فتختلف فيها آراء الفقهاء ، أخذا من هـذا النص ، ولكننا نكتفى بالصفة العامة ، دون دخول فى تفصيل الكيفيات المتنوعة .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » ..

والمعنى : إذا كنت فيهم فأممتهم فى الصلاة ، فلتقم طائفة منهم تصلى معك الركعة الأولى . على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم . فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التى كانت فى الحراسة ولم تصل فلتصل معك ركعة كذلك . (وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين) .

عندئذ تجىء الطائفة الأولى فتقضى الركعة الثانية التى فاتتها مع الإمام. وتسلم ـ بينما تحرسها الطائفة الثانية ـ ثم تجىء الثانية فتقضى الركعة الأولى التى فاتتها وتسلم ـ بينما تحرسها الطائفة الأولى ..

وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك مع خلفائه وأمرائه ، وأمراء المسلمين (منهم) فى كل معركة .

« وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة » ..

وهى رغبة فى نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة . والسنون تتوالى ، والقرون تمر ، فتؤكد هذه الحقيقة ، التى وضعها الله فى قلوب المجموعة المؤمنة الأولى . وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة . كما يضع لها الخطة الحركية أحيانا . على هذا النحو الذى رأينا فى صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر ، وهذه التعبئة النفسية ، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر ، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين فى المشقة . فهم يأخذون منه بقدر الطاقة :

Marfat.com

« ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ، أن تضعوا أسلحتكم » لحمل السلاح فى هذه الحالة يشق ، ولا يفيد . ويكفى أخذ الحذر ؛ وتوقع عون الله ونصره :

« وخذوا حذركم . إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » ..

ولعل هذا الاحتياط ، وهذه اليقظة ، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذى أعده الله للكافرين . فيكون المؤمنون هم ستار قدرته ؛ وأداة مشيئته .. وهى الطمأنينة مع ذلك الحذر ؛ والثقة فى النصر على قوم أعد الله لهم عذابا مهينا ...

« فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ..

وهكذا يوجههم إلى الاتصال بالله فى كل حال ، وفى كل وضع ، إلى جانب الصلاة .. فهذه هى العدة الكبرى ، وهذا هو السلاح الذى لا يبلى ..

فأما حين الاطمئنان « فأقيموا الصلاة » .. أقيموها كاملة تامة بلا قصر ـ قصر الخوف الذى تحدثنا عنه ـ فهى فريضة ذات وقت محدد لأدائها . ومتى زالت أسباب الرخصة فى صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة .

ومن قوله تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا» .. يأخذ الظاهرية رأيهم فى عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزى ولا تصح . لأن الصلاة لا تصح إلا فى ميقاتها المعين . فمتى فات الميقات ، فلا سبيل لإقامة الصلاة .. والجمهور على صحة قضاء الفوائت . وعلى تحسين التبكير فى الأداء ، والكراهية فى التأخير . . ولا ندخل بعد هذا فى تفصيلات الفروع ..

* * *

ويختم هذا الدرس بالتشجيع على المضى فى الجهاد ؛ مع الألم والضنى والكلال . ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية ، تمس أعماق هذه القلوب ، وتلقى الضوء القوى على المصائر والغايات والاتجاهات :

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله مالا يرجون . وكان الله عليما حكيما » ..

إنهن كلمات معدودات . يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة ، بين جبهتى الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح فى المعركة . . ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه . . إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء . . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء . . إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم .. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون عنده شيئاً فى الحياة ولا بعد الحياة ..

فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام . وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإن هذا لهو فضل العقيدة فى الله فى كل كفاح . فهناك اللحظات التى تعلو فيها المشقة على الطاقة ، ويربو الألم على الاحتمال . ويحتاج القلب البشرى إلى مدد فائض وإلى زاد . هنالك يأتى المدد من هذا المعين ، ويأتى الزاد من ذلك الكنف الرحيم .

ولقد كان هذا التوجيه فى معركة مكشوفة متكافئة . معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين. لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل .

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها فى معركة مكشوفة متكافئة . . ولكن القاعدة لا تتغير . فالباطل لا يكود، بعافية أبدا ، حتى ولو كان غالبا ! إنه يلاقى الآلام من داخله . من تناقضه الداخلى ؛ ومن صراع بعضه مع بعض . ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء .

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن

Marfat.com

عدوها كذلك يألم . والألم أنواع . القرح ألوان . . « وترجون من الله مالا يرجون » . .
وهذا هو العزاء العميق . وهذا هو مفرق الطريق . .

« وكان الله عليما حكيما » . .

يعلم كيف تعتلج المشاعر فى القلوب . ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح . .

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ ؛ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللهَ ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ ، وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ ٱلْقَوْلِ ـ وَكَانَ ٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، فَمَن يُجَادِلُ ٱللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ؟ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ؟

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللهَ ، يَجِدِ ٱللهَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ، فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً .

« وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ؛ وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » ﴿١١٣﴾

هذه الآيات تحكى قصة لا تعرف لها الأرض نظيرا ، ولا تعرف لها البشرية شبيها .. وتشهد ـ وحدها ـ بأن هـذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله ؛ لأن البشر ـ مهما

Marfat.com

Marfat.com

ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم ـ لا يمكن أن يرتفعوا ـ بأنفسهم ـ إلى هذا المستوى الذى تشير إليه هذه الآيات ؛ إلا بوحى من الله . . هذا المستوى الذى يرسم خطا على الأفق لم تصعد إليه البشرية ـ إلا فى ظل هـذا المنهج ـ ولا تملك الصعود إليه أبدا إلا فى ظل هذا المنهج كذلك !

إنه فى الوقت الذى كان اليهود فى المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التى تحويها جعبتهم اللئيمة ، على الإسلام والمسلمين ؛ والتى حكمت هذه السورة وسورة البقرة وسورة آل عمران جانبا منها ومن فعلها فى الصف المسلم . .

فى الوقت الذى كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ؛ ويؤلبون المشركين ؛ ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ؛ ويطلقون الإشاعات ؛ ويضللون العقول ؛ ويطعنون فى القيادة النبوية ، ويشككون فى الوحى والرسالة ؛ ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، فى الوقت الذى يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج . . والإسـلام ناشىء فى المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها فى النفوس ؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه . .

فى هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة . . كانت هذه الآيات كلها تتنزل ، على رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلا يهوديا ، اتهم ظلما بسرقة ؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار فى المدينة . والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وجنده ، فى مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة . . . !

أى مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامى ! ثم أى كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة ؛ التى لا يبلغها البشر وحدهم . بل لا يعرفها البشر وحدهم . إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هـذا الأفق العلوى الكريم الوضىء ؟ !

والقصة التى رويت من عدة مصادر فى سبب نزول هذه الآيات أن نفرا من الأنصار ـ قتادة

Marfat.com

ابن النعمان وعمه رفاعة ـ غزوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض غزواته . فسرقت درع لأحدهم (رفاعة) . فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم : بنو أبيرق . فأتى صاحب الدرع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن طعمة ابن أبيرق سرق درعى . (وفى رواية : إنه بشير ابن أبيرق . . وفى هذه الرواية : أن بشيرا هذا كان منافقاً يقول الشعر فى ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب !) فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها فى بيت رجل يهودى (اسمه زيد ابن السمين) . وقال لنفر من عشيرته : إنى غيبت الدرع ، وألقيتها فى بيت فلان . وستوجد عنده . فانطلقوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا نبى الله : إن صاحبنا برىء ، وإن الذى سرق الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علما . فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . . ولما عرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الدرع وجدت فى بيت اليهودى ، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس . وكان أهله قد قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ظهور الدرع فى بيت اليهودى ـ إن قتادة ابن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتادة : فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلمته . فقال : « عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ » قال : فرجعت ، ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك . فأتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الله المستعان . . فلم نلبث أن نزلت : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » ـ أى بنى أبيرق ـ وخصيما : أى محاميا ومدافعا ومجادلا عنهم ـ « واستغفر الله » ـ أى مما قلت لقتادة ـ « إن الله كان غفورا رحيما » . . « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » ـ إلى قوله تعالى : « رحيما » ـ أى لو استغفروا الله لغفر لهم ـ « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » ـ إلى قوله : « إثما مبينا » . . « ولولا فضل الله عليك ورحمته » . إلى قوله : « فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .. فلما نزل القرآن أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسلاح فرده إلى رفاعة . . قال قتادة : لما أتيت عمى بالسلاح ـ وكان شيخا قد عمى ـ

الجزء الخامس

أو عشى ـ فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولا ، فلما أتيته بالسلاح قال : ياابن أخى هى فى سبيل الله . فعرفت أن إسلامه كان صحيحا ! فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فأنزل الله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة برىء ، يتآمرت عليه عصبة لتوقعه فى الاتهام ـ وإن كانت تبرئة برىء أمراً هائلا ثقيل الوزن فى ميزان الله ـ إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هى إقامة الميزان الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات والأحوال .

وكانت المسألة هى تطهير هذا المجتمع الجديد ؛ وعلاج عناصر الضعف البشرى فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية ـ فى كل صورها حتى فى صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس ـ وإقامة هذا المجتمع الجديد ، الفريد فى تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التى لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتى لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات !

ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث ، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار . بل فضحه بين الناس ـ على هذا النحو العنيف المكشوف ..

كان هناك أكثر من سبب ، لو كانت الاعتبارات الأرضية هى التى تتحكم وتحكم ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هى التى يرجع إليها هذا المنهج !

كان هناك سبب واضح عريض . . أن هذا المتهم « يهودى » . . من « يهود » . . يهود التى لا تدع سهما مسموما تملكه إلا أطلقته فى حرب الإسلام وأهله . يهود التى يذوق منها المسلمون الأمرين فى هذه الحقبة (ويشاء الله أن يكون ذلك فى كل حقبة !) يهود التى لاتعرف حقا ولا عدلا ولا نصفة ، ولا تقيم اعتبارا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق فى التعامل مع المسلمين على الإطلاق !

Marfat.com

وكان هنالك سبب آخر ؛ وهو أن الأمر فى الأنصار . الأنصار الذين آووا ونصروا . والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم مايوجد من الضغائن . بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودى ، يبعد شبح الشقاق !

وكان هنالك سبب ثالث . هو عدم إعطاء اليهود سهما جديدا يوجهونه إلى الأنصار. وهو أن بعضهم يسرق بعضا ، ثم يتهمون اليهود ! وهم لا يدعون هـذه الفرصة تفلت للتشهير بها والتغرير !

ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله . كان أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة . الصغيرة فى حساب الإسلام . كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتكاليفها فى خلافة الأرض وفى قيادة البشرية . وهى لا تقوم بالخلافة فى الأرض ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ماتعرف البشرية ؛ وحتى يثبت هـذا المنهج فى حياتها الواقعية . وحتى يمحص كيانها تمحيصا شديدا ؛ وتنفض عنه كل خبيثة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية . وحتى يقام فيها ميزان العدل ـ لتحكم به بين الناس ـ مجردا من جميع الاعتبارات الأرضية ، والمصالح القريبة الظاهرة ، واللابسات التى يراها الناس شيئا كبيرا لا يقدرون على تجاهله !

واختار الله ـ سبحانه ـ هـذا الحادث بذاته ، فى ميقاته . . مع يهودى . . من يهود التى يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك فى المدينة ؛ والتى تؤلب عليهم المشركين ، وتؤيد بينهم المنافقين ، وترصد كل مافى جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين ! وفى فترة حرجة من حياة المسلمين فى المدينة ، والعداوات تحيط بهم من كل جانب . ووراء كل هذه العداوات يهود !

اختار الله هذا الحادث فى هذا الظرف ، ليقول فيه ـ سبحانه ـ للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول ، وليعلمها به مايريد لها أن تتعلم !

ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة ! ولا للكياسة ! ولا للسياسة ! ولا للمهارة فى إخفاء مايحرج ، وتغطية مايسوء !

ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها !

Marfat.com

الجزء الخامس

هنا كان الأمر جدا خالصا ، لا يحتمل الدهان ولا التمويه ! وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الربانى وأصوله . وأمر هذه الأمة التى تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره . وأمر العدل بين الناس . العدل فى هذا المستوى الذى لا يرتفع إليه الناس ـ بل لا يعرفه الناس ـ إلا بوحى من الله ، وعون من الله .

وينظر الإنسان من هـذه القمة السامقة على السفوح الهابطة ـ فى جميع الأمم على مدار الزمان ـ فيراها هنالك .. هنالك فى السفوح .. ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخورا متردية ، هنا وهناك ، من الدهاء ، والمراء ، والسياسة ، والكياسة ، والبراعة ، والمهارة ، ومصلحة الدولة ، ومصلحة الوطن ، ومصلحة الجماعة . . . إلى آخر الأسماء والعنوانات .. فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها .. الدود ..!!!

وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة ـ وحدها ـ صاعدة من السفح إلى القمة . تتناثر على مدار التاريخ ، وهى تتطلع إلى القمة ، التى وجهها إليها المنهج الفريد .

أما العفن الذى يسمونه « العدالة » فى أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة ، فلا يستحق أن نرفع عنه الغطاء ، فى مثل هذا الجو النظيف الكريم ..

* * *

والآن نواجه نصوص الدرس بالتفصيل :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله . وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ـ وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ » .

إننا نحس فى التعبير صرامة ، يفوح منها الغضب للحق ، والغيرة على العدل ؛ وتشيع فى جو الآيات وتفيض منها :

Marfat.com

Marfat.com

وأول مايبدو هذا فى تذكير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله . وإتباع هذا التذكير بالنهى عن أن يكون خصيما للخائنين ، يدافع عنهم ويجادل . وتوجيهه لاستغفار الله ـ سبحانه ـ عن هذه المجادلة .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . ولا تكن للخائنين خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » . .

ثم تكرار هذا النهى ؛ ووصف هؤلاء الخائنين ، الذين جادل عنهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم يختانون أنفسهم . وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما :

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم . إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » .

وهم خانوا غيرهم فى الظاهر . ولكنهم فى الحقيقة خانوا أنفسهم . فقد خانوا الجماعة ومنهجها ، ومبادئها التى تميزها وتفردها . وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها ، وهم منها . . ثم هم يختانون أنفسهم فى صورة أخرى . صورة تعريض أنفسهم للإثم الذى يجازون عليه شر الجزاء . حيث يكرههم الله ، ويعاقبهم بما أثموا . وهى خيانة للنفس من غير شك . . وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم ، هى تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة .

« إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » ...

وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة . . وهى تلقى إلى جانبها إيحاء آخر . فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ، ولا أن يحامى عنهم أحد . وقد كرههم الله للإثم والخيانة !

ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ـ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » . . .

وهى صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية . زرية بما فيها من ضعف والتواء ، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ؛ ويستخفون بها عن الناس . والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا . بينما الذى يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ؛ مطلع

Marfat.com

عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون . وهم يزورون من القول ما لا يرضاه ! فأى موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟

« وكان الله بكل شىء محيطا » ...

إجمالا وإطلاقا . . فأين يذهبون بما يبيتون . والله معهم إذ يبيتون . والله بكل شىء محيط وهم تحت عينه وفى قبضته ؟

وتستمر الحملة التى يفوح منها الغضب ؛ على كل من جادل عن الخائنين :

« ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا . فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ » . .

واللهم لا مجادل عنهم يوم القيامة ولا وكيل . فما جدوى الجدال عنهم فى الدنيا وهى لا تدفع عنهم ذلك اليوم الثقيل ؟

* * *

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الأثمة ، والعتاب الشديد للمنافقين عنهم والمجادلين . يجىء تقرير القواعد العامة لهذه المعاملة وآثارها . وللحساب عليها والجزاء . ولقاعدة الجزاء عامة . القاعدة العادلة التى يعامل بها الله العباد . ويطلب إليهم أن يحاولوا محاكاتها فى تعاملهم فيما بينهم ، وأن يتخلقوا بخلق الله ـ خلق العدل ـ فيها :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيما . . ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » . .

إنها آيات ثلاث تقرر المبادىء الكلية التى يعامل بها الله عباده ؛ والتى يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ؛ وتطمع كل مذنب تائب فى العفو والقبول :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » . . إنه

ـ سبحانه ـ موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب . . والذى يعمل السوء يظلم غيره . ويظلم نفسه . وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التى لا تتعدى شخصه . . وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين فى كل حين ؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين . هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب ! حيثما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفورا رحيما . .

والآية الثانية تقرر فردية التبعة . وهى القاعدة التى يقوم عليها التصور الإسلامى فى الجزاء ، والتى تثير فى كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة . الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره .

« ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيما » . .

ليست هناك خطيئة موروثة فى الإسلام ، كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة . كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التى تؤديها النفس عن نفسها . . وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب . مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب . . توازن عجيب ، فى هذا التصور الفريد . هو إحدى خصائص التصور الإسلامى وأحد مقوماته[1] ، التى تطمئن الفطرة ، وتحقق العدل الإلهى المطلق ؛ المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان .

والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرىء . . وهى الحالة المنطبقة على حالة العصابة التى يدور عليها الكلام :

« ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » . .

البهتان فى رميه البرىء . والإثم فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء . . وقد احتملهما معه . وكأنما هما حمل يحمل . على طريقة التجسيم التى تبرز المعنى وتؤكده فى التعبير القرآنى المصور [2] .

---

(١) يراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .
(٢) يراجع كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

Marfat.com

وبهذه القواعد الثلاثة يرسم القرآن ميزان العدالة الذى يحاسب كل فرد على ما اجترح . ولا يدع المجرم يمضى ناجياً إذا ألقى جرمه على سواه .. وفى الوقت ذاته يفتح باب التوبة والمغفرة على مصراعيه ؛ ويضرب موعداً مع الله ـ سبحانه ـ فى كل لحظة للتائبين المستغفرين ، الذين يطرقون الأبواب فى كل حين . بل يلجونها بلا استئذان فيجدون الرحمة والغفران !

* * *

وأخيراً يمن الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عصمه من الانسياق وراء المتآمرين المبيتين ؛ فأطلعه على مؤامراتهم التى يستخفون بها من الناس ولا يستخفون بها من الله ـ وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ـ ثم يمتن عليه المنة الكبرى فى إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم . . وهى المنة على البشرية كلها ، ممثلة ابتداء فى شخص أكرمها على الله وأقربها لله :

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شىء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما » .

إن هذه المحاولة ليست إلا واحدة من محاولات كثيرة ، شتى الألوان والأنواع ؛ مما بذله أعداء هذا الرسول الكريم ليضلوه عن الحق والعدل والصواب . ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يتولاه بفضله ورحمته فى كل مرة . وكان الكائدون المتآمرون هم الذين يضلون ويقعون فى الضلالة . . وسيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حافلة بتلك المحاولات ؛ ونجاته وهدايته ؛ وضلال المتآمرين وخيبتهم .

والله ـ سبحانه ـ يمتن عليه بفضله ورحمته هذه ؛ ويطمئنه فى الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئاً . بفضل من الله ورحمة .

وبمناسبة المنة فى حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة ؛ وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم برىء وتبرئة جارم ، وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة . . تجىء المنة الكبرى . . منة الرسالة :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما »

وهى منة الله على « الإنسان » فى هذه الأرض . المنة التى ولد الإنسان معها ميلادا جديداً . ونشأ بها « الإنسان » كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى . .

المنة التى التقطت البشرية من سفح الجاهلية ، لترقى بها فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة . عن طريق المنهج الربانى الفريد العجيب . .

المنة التى لا يعرف قدرها إلا الذى عرف الإسلام وعرف الجاهلية ـ جاهلية الغابر والحاضر ـ وذاق الإسلام وذاق الجاهلية . .

وإذا كانت منة يذكر الله بها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلأنه هو أول من عرفها وذاقها . وأكبر من عرفها وذاقها . وأعرف من عرفها وذاقها . .

« وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما » .

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ ، إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ، وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللَّهُ ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ، وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ . وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ

Marfat.com

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلًا ؟

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ؟ وَاتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً » ﴿١٢٦﴾

يتصل هذا الدرس بالدرس السابق ، بأكثر من صلة . فهو أولا نزلت بعض آياته تعليقاً وتعقيبا على الأحداث التى تلت حادث اليهودى. من ارتداد «بشير ابن أبيرق» ومشاقته للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعودته إلى الجاهلية ؛ التى تحدث هذا الدرس عنها ، وعن تصوراتها وحماقاتها وعلاقاتها بالشيطان ، ودور الشيطان فيها ! ويقرر أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء . وهو ثانيا يتحدث عن النجوى والتآمر ؛ وأنه لا خير فى كثير مما يتناجون به ، من أمثال ما بيتوا فى ذلك الحادث وتناجوا . ويحدد أنواع النجوى التى يحبها الله؛ وهى التناجى فى فعل الخير والمعروف والإصلاح بين الناس . ويقرر جزاء هذه النجوى وتلك عند الله . . وأخيرا يقرر القواعد العادلة التى يجازى بها الله على الأعمال ؛ وأنها ليست تابعة لرغبات أحد من الناس وتمنياتهم . لا أمانى المسلمين ولا أمانى أهل الكتاب . إنما هى ترجع إلى عدل الله المطلق ؛ وإلى الحق الذى لو اتبع أهواءهم لفسدت السماوات والأرض . .

فالدرس كله ، موضوعا واتجاها ، موصول الأسباب بالدرس السابق من هذه الناحية . .

Marfat.com

ثم هو حلقة من حلقات المنهج التربوى الحكيم ، فى إعداد هذه الجماعة لتكون الأمة التى تقود البشرية ؛ يتفوقها التربوى والتنظيمى ؛ وليعالج فيها مواضع الضعف البشرى ورواسب المجتمع الجاهلى ؛ وليخوض بها المعركة فى ميادينها كلها .. وهو الهدف الذى تتوخاه السورة بشتى موضوعاتها ، ويتولاه المنهج القرآنى كله . .

* * *

« لا خير فى كثير من نجواهم . إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما» . .

لقد تكرر فى القرآن النهى عن النجوى ؛ وهى أن تجتمع طائفة بعيدا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة ، لتبيت أمرا .. وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامى كذلك أن يأتى كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه ، فيعرضه على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسارة إن كان أمرا شخصيا لا يريد أن يشيع عنه شىء فى الناس . أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة ، التى ليست من خصوصيات هذا الشخص .

والحكمة فى هذه الخطة ، هو ألا تتكون «جيوب» فى الجماعة المسلمة ؛ وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها ، أو بأفكارها واتجاهاتها . وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرا بليل ، وتواجه به الجماعة أمرا مقررا من قبل ؛ أو تخفيه عن الجماعة وتستخفى به عن أعينها ـ وإن كانت لا تختفى به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول .

وهذا الموضع أحد المواضع التى ورد فيها هذا النهى عن التناجى والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها . .

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة ، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة . وكان المجتمع المسلم كله مجتمعا مفتوحا ؛ تعرض مشكلاته ـ التى ليست بأسرار للقيادة فى المعارك وغيرها ؛ والتى ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن ـ عرضا عاما . وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعا نظيفا طلق الهواء . لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره ، إلا الذين يتآمرون عليه ، أو على مبدأ من مبادئه ـ من المنافقين غالبا ـ وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين فى معظم المواضع .

Marfat.com

وهذه حقيقة تنفعنا . فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة ، وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات !

والنص القرآنى هنا يستثنى نوعا من النجوى .. هو فى الحقيقة ليس منها، وإن كان له شكلها:

« إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس » ..

وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير ، فيقول له : هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته فى خفية عن الأعين . أو هلم إلى معروف معين نفعله أو نحض عليه . أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعا . . وقد تكون العصبة من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور ، وتتفق فيما بينها سرا على النهوض بهذا الأمر . فهذا ليس نجوى ولا تآمرا . ومن ثم سماه « أمرا » وإن كان له شكل النجوى ، فى مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر فى معروف يعلمه أو خطر له . .

على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله :

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . .

فلا يكون لهوى فى الصدقة على فلان ، أو الإصلاح بين فلان وعلان . ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه ـ والله رجل طيب ـ! يحض على الصدقة والمعروف ، ويسعى فى الإصلاح بين الناس! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله ، بهذا الخير . فهذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به . والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب الله عليه ، ويكتبه له فى سجل السيئات !

* * *

« ومن يشاقق الرسول ـ من بعد ما تبين له الهدى ـ ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وقد ذكر فى سبب نزول هذه المجموعة من الآيات ، أن بشير ابن أبيرق قد ارتد والتحق

Marfat.com

بالمشركين .. «من بعد ما تبين له الهدى» .. فقد كان فى صفوف المسلمين ، ثم اتبع غير سبيل المؤمنين . . ولـكن النص عام ، ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومشاقته كفر وشرك وردة ، ينطبق عليها ما ينطبق على ذلك الحادث القديم.

والمشاقة ـ لغـــة ـ أن يأخذ المرء شقا مقابلا للشق الذى يأخذه الآخر . والذى يشاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يأخذ له شقا وجانبا وصفا غير الصف والجانب والشق الذى يأخذه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعنى هذا أن يتخذ له منهجا للحياة كلها غير منهجه ، وأن يختار له طريقا غير طريقه. فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء يحمل من عند الله منهجا كاملا للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية ، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعى لجوانب الحياة البشرية كلها . . وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج ، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شق وطرح شق! والذى يشاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو كل من ينكر منهجه جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فيأخذ بشق منه ويطرح شقا !

وقد اقتضت رحمة الله بالناس ، ألا يحق عليهم القول ، ولا يصلوا جهنم وساءت مصيرا ، إلا بعد أن يرسل إليهم رسولا . وبعد أن يبين لهم . وبعد أن يتبينوا الهدى . ثم يختاروا الضلالة. وهى رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف . فإذا تبين له الهدى . أى إذا علم أن هذا المنهج من عند الله . ثم شاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه ، ولم يتبعه ويطمه ، ولم يرض بمنهج الله الذى تبين له، فعندئذ يكتب الله عليه الضلال، ويوليه الوجهة التى تولاها ، ويلحقه بالـكفار والمشركين الذين توجه إليهم . ويحق عليه العذاب المذكور فى الآية بنصه :

«ومن يشاقق الرسول ـ من بعد ما تبين له الهدى ـ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى، ونصله جهنم . وساءت مصيرا ! » ..

ويعلل النص هذا المصير البائس السيء ، بأن مغفرة الله ـ سبحانه ـ تتناول كل شىء .. إلا أن يشرك به .. فهذه لا مغفرة لمن مات عليها :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » ..

Marfat.com

Marfat.com

والشرك بالله ـ كما أسلفنا فى هذا الجزء عند تفسير مثل هذه الآية من قبل ـ يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذا صريحا ـ على طريقة الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة ـ كما يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية ؛ والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص . كإشراك اليهود والنصارى الذى حكاه القرآن من أنهم «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» ولم يكونوا عبدوهم مع الله . ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله . فحرموا عليهم وأحلوا لهم . فاتبعوهم فى هذا . ومنحوهم خاصية من خصائص الألوهية ! فحق عليهم وصف الشرك . وقيل عنهم إنهم خالفوا ما أمروا به من التوحيد « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » . . فيقيموا له وحده الشعائر ، ويتلقوا منه وحده الشرائع والأوامر .

ولا غفران لذنب الشرك ـ متى مات صاحبه عليه ـ بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه . . عندما يشاء الله . . والسبب فى تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة ، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماما ؛ وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبدا :

« ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » . .

ولو بقى خيط واحد صالح من خيوط الفطرة لشده إلى الشعور بوحدانية ربه ؛ ولو قبله الموت بساعة . . فأما وقد غرغر ـ وهو على الشرك ـ فقد انتهى أمره وحق عليه القول :

« ونصله جهنم . وساءت مصيرا ! » .

* * *

ثم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية فى شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ـ هن الملائكة ـ وحول عبادتهم للشيطان ـ وقدعبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام ـ كما يصف بعض شعائرهم فى تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة! وفى تغييرهم خلق الله. والشرك بالله . وهو مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها :

« إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ؛ ولآمرنهم

Marfat.com

فليغيرن خلق الله . . ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا »

لقد كان العرب ـ فى جاهليتهم ـ يزعمون أن الملائكة بنات الله . ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث : « اللات . والعزى . ومناة » وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام ـ بوصفها تماثيل لبنات الله ـ يتقربون بها إلى الله زلفى .. كان هذا على الأقل فى مبدأ الأمر . . ثم ينسون أصل الأسطورة ، ويعبدون الأصنام ذاتها ، بل يعبدون جنس الحجر ، كما بينا ذلك فى الجزء الرابع .

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصا . . قال الكلبى : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن . .

على أن النص هنا أوسع مدلولا ، فهم فى شركهم كله إنما يدعون الشيطان ، ويستمدون منه : هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم ؛ الذى لعنه الله ، بسبب معصيته وعدائه للبشر . والذى بلغ من حقده بعد طرده ولعنته ، أن يأخذ من الله ـ سبحانه ـ إذنا بأن يغوى من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله :

« إن يدعون من دونه إلا إناثا . وإن يدعون إلا شيطانا مريدا . لعنه الله . وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا . ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » .

إنهم يدعون الشيطان ـ عدوهم القديم ـ ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال . ذلك الشيطان الذى لعنه الله . والذى صرح بنيته فى إضلال فريق من أبناء آدم ، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة فى طريق الغواية ، من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة ، ونجاة من الجزاء فى نهاية المطاف ! كما صرح بنيته فى أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة ، وشعائر سخيفة ، من نسج الأساطير . كتمزيق آذان بعض الأنعام ، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراما ، أو أكلها حراما ـ دون أن يحرمها الله ـ ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها فى الحيوان أو الإنسان ، كخصاء الرقيق ، ووشم الجلود ... وما إليها من التغيير والتشويه الذى حرمه الإسلام .

وشعور الإنسان بأن الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذى يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير فى نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذى ينصبه العدو . وقد جعل الإسلام للمعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان . ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذى ينشئه فى الأرض ؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه ، فى مواجهة الشيطان وحزبه: وهى معركة دائمة لا تضع أوزارها . لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التى أعلنها منذ لعنه وطرده . والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها . وهو يعلم أنه إما أن يكون وليا لله ، وإما أن يكون وليا للشيطان ؛ وليس هنالك وسط .. والشيطان يتمثل فى نفسه وما يبثه فى النفس من شهوات ونزوات ؛ ويتمثل فى أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة . والمسلم يكافحه فى ذات نفسه ، كما يكافحه فى أتباعه .. معركة واحدة متصلة طوال الحياة .

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم . ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك :

ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا » ..

ويصور السياق القرآنى فعل الشيطان مع أوليائه ، فى مثل حالة الاستهواء .

« يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

إنها حالة استهواء معينة هى التى تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك . ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة فى طريقها ، ولكان الإيمان هو هادى الفطرة وحاديها .

وإنها حالة إستهواء معينة هى التى يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله ، فيراه حسنا ! ويعده الكسب والسعادة فى طريق المعصية ، فيمدو معه فى الطريق ! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضى فى طريقه إلى المهلكة !

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » . .

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو ، والعدو القديم يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هى التى تظل سادرة لا تستيقظ ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أى طريق تساق ، وإلى أية هوة تُستهوى !

Marfat.com

وبينما هذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها فى النفوس ، وتصور حقيقة المعركة ، وحقيقة الموقف ، يجىء التعقيب ببيان العاقبة فى نهاية المطاف : عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة .. وعاقبة من يفلتون من حبالته ، لأنهم آمنوا بالله حقا. والمؤمنون بالله حقا فى نجوة من هذا الشيطان لأنه ـ لعنة الله عليه ـ وهو يستأذن فى إغواء الضالين ، لم يؤذن له فى المساس بعباد الله المخلصين . فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ؛ كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين :

« ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ » ..

فهى جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان . . وهى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله . . وعد الله :

« ومن أصدق من الله قيلا » ؟

والصدق المطلق فى قول الله هنا ؛ يقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ، ومن يثق بتغرير الشيطان !

* * *

ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء . . إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى . قانون تستوى أمامه الأمم ـ فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ـ وليس أحد تخرق له القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون .. إن صاحب السوء مجزى بالسوء ؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة . ولا محاباة فى هذا ولا مماراة :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا .. ومن يعمل من الصالحات ـ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ـ فأولئك

Marfat.com

يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا .ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ـ وهو محسن ـ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا »

ولقد كان اليهود والنصارى يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . . وكانوا يقولون : « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » . . وكان اليهود ولا يزالون يقولون : إنهم شعب الله المختار !

ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس . وأن الله متجاوز عما يقع منهم .. بما أنهم المسلمون ..

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل ، والعمل وحده . ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد . هو إسلام الوجه لله ـ مع الإحسان ـ واتباع ملة إبراهيم وهى الإسلام . إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا . .

فأحسن الدين هو هذا الإسلام ـ ملة إبراهيم ـ وأحسن العمل هو « الإحسان » . . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وقد كتب الإحسان فى كل شىء حتى فى إراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهى تذبح !

وفى النص تلك التسوية بين شقى النفس الواحدة ، فى موقفهما من العمل والجزاء ؛ كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل ، وهو الإيمان بالله :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ـ وهو مؤمن ـ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . .

وهو نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة شقى النفس الواحدة ـ من ذكر أو أنثى . كما هو نص صريح فى اشتراط الإيمان لقبول العمل . وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان . ولا يصاحبه الإيمان . وذلك طبيعى ومنطقى . لأن الإيمان بالله هو الذى يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ؛ كما يجعله حركة طبيعية مطردة ، لا استجابة لهوى شخصى ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة ..

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسير جزء «عم» عند قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » .. إذ رأى النص لعمومه

Marfat.com

هذا يشمل المسلم وغير المسلم . بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفى هذا تماما . وكذلك ما رآه الأستاذ الشيخ المراغى ـ رحمه الله . وقد أشرنا إلى هذه القصة فى الطبعة الأولى من جزء عم (الجزء الثلاثين من الظلال) .

ولقد شق على المسلمين قول الله لهم :

« ومن يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » ..

فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية؛ ويعرفون أنها لابد أن تعمل سوءا . مهما صلحت، ومهما عملت من حسنات .

كانوا يعرفون النفس البشرية ـ كما هى فى حقيقتها ـ وكانوا من ثم يعرفون أنفسهم . . لم يخدعوا أنفسهم عن حقيقتها ؛ ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتها ؛ ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحيانا ، ولم ينكروا أو يغطوا هـذا الضعف الذى يجدونه . ومن ثم ارتجفت نفوسهم ، وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به . ارتجفت نفوسهم كالذى يواجه العاقبة فعلا ويلامسها ، وهذه كانت ميزتهم . أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد!

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله ابن نمير ، حدثنا إسماعيل ، عن أبى بكر بن أبى زهير ، قال : « أخبرت أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ قال: يارسول الله ، كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به » . . فكل سوء عملناه جزينا به . . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . : « غفر الله لك يا أبا بكر . ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ » قال بلى ! قال : « فهو مما تجزون به » .. ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثورى عن إسماعيل .

وروى أبو بكر ابن مردويه ـ بإسناده ـ إلى ابن عمر ، يحدث عن أبى بكر الصديق . قال: كنت عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية : « من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ، ألا أقرئك آية نزلت على ؟ « قال : قلت يارسول الله فأقرأنيها .. فلا أعلم أنى قد وجدت

Marfat.com

Marfat.com

انفصاما فى ظهرى ، حتى تمطيت لهـا ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مالك ياأبا بكر ؟ » فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! وأينا لم يعمل السوء ، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك فى الدنيا ، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب . وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» . (وكذا رواه الترمذى) .

وروى ابن أبى حاتم ـ بإسناده ـ عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله إنى لأعلم أشد آية فى القرآن . فقال : « ما هى يا عائشة ؟ » قلت : « من يعمل سوءاً يجز به » . فقال . « ما يصيب العبد المؤمن ، حتى النكبة ينكبها » . (ورواه ابن جرير) .

وروى مسلم والترمذى والنسائى من حديث سفيان ابن عيينة ـ بإسناده ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنـه ـ قال : لمـا نزلت : « من يعمل سوءاً يجز به » شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سددوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » . .

على أية حال لقد كانت هذه حلقة فى إنشاء التصور الإيمانى الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى فى استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملى من ناحية أخرى . ولقد هزت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جـــداً . ويعرفون صدق وعد الله حقاً . ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد فى الدنيا .

وفى الختام يجىء التعقيب على قضية العمل والجزاء ، وقضية الشرك قبلها والإيمان ، برد كل ما فى السماوات والأرض لله ، وإحاطة الله بكل شىء فى الحياة وما بعد الحياة :

« ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكان الله بكل شىء محيطا » .

وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه فى القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة ـ والسلطان والقهر ، فالتوحيد الإسلامى ليس مجرد توحيد ذات الله . وإنما هو توحيد إيجابى . توحيد الفاعلية والتأثير فى الكون ، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً [1] .

---

(١) يراجع فصل الإيجابية فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول .

ومتى شعرت النفس أن لله ما فى السموات وما فى الأرض . وأنه بكل شىء محيط ، لا يند شىء عن علمه ولا عن سلطانه .. كان هذا باعثها القوى إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والعبادة ؛ وإلى محاولة إرضائه باتباع منهجه وطاعة أمره . . وكل شىء ملكه . وكل شىء فى قبضته . وهو بكل شىء محيط .

وبعض الفلسفات تقرر وحدانية الله . ولكن بعضها ينفى عنه الإرادة . وبعضها ينفى عنه العلم . وبعضها ينفى عنه السلطان . وبعضها ينفى عنه الملك ... إلى آخر هذا الركام الذى يسمى « فلسفات ! » .. ومن ثم يصبح هذا التصور سلبياً لا فاعلية له فى حياة الناس ، ولا أثر له فى سلوكهم وأخلاقهم ؛ ولا قيمة له فى مشاعرهم وواقعهم . . كلام ! مجرد كلام !

إن الله فى الإسلام ، له ما فى السموات وما فى الأرض . فهو مالك كل شىء .. وهو بكل شىء محيط . فهو مهيمن على كل شىء . . وفى ظل هذا التصور يصلح الضمير . ويصلح السلوك . وتصلح الحياة ..

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ . قُلِ : ٱللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ فِي يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ، ٱللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ، وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾

« وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ـ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ـ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ ـ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ، فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ ـ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ـ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ ، فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ . وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ

Marfat.com

Marfat.com

غَفُورًا رَّحِيماً * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِه ، وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعاً حَكِيماً .

« وَلِلهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ : أَنِ ٱتَّقُوا ٱللهَ . وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَيَأْتِ بِآخَرِينَ . وَكَانَ ٱللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِنْدَ ٱللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً بَصِيرًا » ﴿١٣١﴾

هذا الدرس تكملة لما بدأت به السورة من علاج رواسب المجتمع الجاهلى، فيما يختص بالمرأة والأسرة ؛ وفيما يختص بمعاملة الضعاف فى المجتمع كاليتامى والأطفال . وتنقية المجتمع المسلم من هذه الرواسب ؛ وإقامة البيت فيه على أساس من كرامة شطرى النفس الواحدة ؛ ورعاية مصالحهما معا، وتقوية روابط الأسرة وإصلاح ما يشجر فى جوها من خلاف، قبل أن يستفحل، فيؤدى إلى تقطيع هذه الروابط ، وتحطيم البيوت على من فيها ، وبخاصة على الذرية الضعيفة الناشئة فى المحاضن . . وإقامة المجتمع كذلك على أساس من رعاية الضعاف فيه ؛ كى لا يكون الأمر للأغلب ؛ وتكون شريعة الغاب هى التى تتحكم !

وهذا الدرس يعالج بعض هذه الشؤون ، ويربطها بنظام الكون كله . مما يشعر معه المخاطب بهذه الآيات ، أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف فى المجتمع ، هو أمر خطير كبير . . وهو فى حقيقته أمر خطير كبير . . وقد تحدثنا فى ثنايا هذا الجزء ، وفى مقدمات السورة فى الجزء الرابع ، بما فيه الكفاية عن نظرة الإسلام إلى الأسرة ؛ وعن الجهد المبذول فى هذا المنهج لتخليص المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، ومن رفع مستواه النفسى والاجتماعى والخلقى ، بما يكفل تفوقه على المجتمعات كلها من حوله ، وعلى كل مجتمع آخر لا يدين بهذا الدين ، ولا يتربى بهذا المنهج ، ولا يخضع لنظامه الفريد .

Marfat.com

والآن نواجه نصوص هذا الدرس بالتفصيل :

* * *

ويستفتونك فى النساء . قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن، والمستضعفين من الولدان ؛ وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » ..

لقد أثارت الآيات التى نزلت فى أوائل السورة عن النساء أسئلة واستفتاءات فى بعض شأنهن .. وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم فى بعض الأحكام ، ظاهرة لها دلالتها فى المجتمع المسلم الناشئ ؛ وفى رغبة المسلمين فى معرفة أحكام دينهم فى شؤون حياتهم . فقد كانت الهزة التى أحدثتها النقلة من الجاهليـة إلى الإسلام فى نفوسهم هزة عميقة ، بحيث أصبحوا يشكون ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه فى الجاهلية ، مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه ، أو عدله . ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى كل ما يعرض لهم فى حياتهم اليومية من الشؤون . وهذه اليقظة وهذه الرغبة فى مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام ، هى العنصر البارز فى هذه الفترة ـ على الرغم من بقاء بعض رواسب الجاهلية فى حياتهم ـ فالمهم هو رغبتهم الحقيقية القوية فى مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام ؛ والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح . لا لمجرد الاستفتاء ولا لمجرد العلم والمعرفة والثقافة ! كمعظم ما يوجه إلى المفتين فى هذه الأيام من استفتاءات !.

لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم ، لأنها هى التى تكوّن نظام حياتهم الجديدة. وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة ، لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم . وكان بهم انخلاع من الجاهلية ، وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام . مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغير الكامل الذى أنشأه الإسلام فى حياتهم . أو بتعبير أدق بقيمة هذا الميلاد الجديد الذى ولدوه على يدى الإسلام .

وهنا نجد جزاء تطلعهم لله ، وجزاء حرارتهم ، وصدق عزيمتهم على الاتباع .. نجد جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية .. بأنه سبحانه ـ بذاته العلية ـ يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه :

« ويستفتونك فى النساء . قل الله يفتيكم فيهن ... » ..

فهم كانوا يستفتون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله ـ سبحانه ـ يتفضل فيقول للنبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ قل : إن الله يفتيكم فيهن وفى بقية الشؤون التى جاء ذكرها فى الآية . وهى لفتة لها قيمتها التى لا تقدر ، فى عطف الله سبحانه ، وتكريمه للجماعة المسلمة ؛ وهو يخاطبها بذاته ؛ ويرعاها بعينه ؛ ويفتيها فيما تستفتى ، وفيما تحتاج إليه حياتها الجديدة .

وقد تناولت الفتوى هنا تصوير الواقع المترسب فى المجتمع المسلم من الجاهلية التى التقطه المنهج الربانى منها. كما تناولت التوجيه المطلوب ، لرفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرها من الرواسب :

« قل الله يفتيكم فيهن؛ وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن، وترغبون أن تنكحوهن . والمستضعفين من الولدان . وأن تقوموا لليتامى بالقسط .. ».

قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية : كان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً . وإن كانت جميلة وهويها تزوجها ، وأكل مالها . وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرم الله ذلك ونهى عنه .. وقال فى قوله : « والمستضعفين من الولدان » كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله : « ولا تؤتونهن ما كتب لهن » .. فنهى الله عن ذلك ؛ وبين لكل ذى سهم سهمه فقال : للذكر مثل حظ الأنثيين ، صغيراً أو كبيراً ..

وقال سعيد ابن جبير فى قوله : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » .. كما إذا كانت ذات جمال وقال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك وإذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأ نكحها واستأثر بها .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ويستفتونك فى النساء . قل . الله يفتيكم فيهن . ـ إلى قوله : « وترغبون أن تنكحوهن » قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة ، هو وليها ووارثها ، فأشركته فى ماله ، حتى فى العذق ، فيرغب أن ينكحها [1] ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته ، فيعضلها فنزلت الآية (أخرجه البخارى ومسلم) .

وقال ابن أبى حاتم : قرأت مع محمد ابن عبد الله ابن عبد الحكم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يونس عن ابن شهاب ، أخبرنى عروة ابن الزبير قالت عائشة : « ثم إن الناس استفتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الآية فيهن . فأنزل الله : « ويستفتونك فى النساء

(١) أى يرغب عن نكاحها ولا يريد أن يتزوجها لدمامتها .

Marfat.com

قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب » ... الآية ... قالت . والذى ذكر الله أنه يتلى فى الكتاب : الآية الأولى التى قال الله : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ... » . وبهذا الإسناد عن عائشة قالت : « وقول الله عز وجل : « وترغبون أن تنكحوهن » .. رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء ـ إلا بالقسط ـ من أجل رغبتهم عنهن »

وظاهر من هذه النصوص ، ومن النص القرآنى . ما كان عليه الحال فى الجاهلية ؛ فيما يختص بالفتيات اليتيمات : فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن : الطمع فى مالها ، والغبن فى مهرها ـ إن هو تزوجها ـ فيأكل مهرها ويأكل مالها . والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها لأنها دميمة . ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها !

كذلك كان الحال فى الولدان الصغار والنساء، إذ كانوا يحرمونهم من الميراث لأنهم لا يملكون القوة التى يدفعون بها عن ميراثهم ؛ أو أنهم غير محاربين ، فلا حق لهم فى الميراث ، تحت تأثير الشعور القبلى ، الذى يجعل للمحاربين فى القبيلة كل شىء . ولا شىء للضعاف !

وهذه التقاليد الشائهة البدائية ، هى التى أخذ الإسلام يبدلها ، وينشىء مكانها تقاليد إنسانية راقية لا تعد ـ كما قلنا ـ مجرد وثبة ، أو نهضة ، فى المجتمع العربى . إنما هى فى حقيقتها نشأة أخرى ، وميلاد جديد ، وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية !

والمهم الذى يجب أن نسجله : هو أن هذه النشأة الجديدة ، لم تكن تطورا مسبوقا بأية خطوات تمهيدية له ؛ أو أنه انبثق من واقع مادى تغير فجأة فى حياة هذا الشعب !

فالنقلة من إقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحارب إلى إقامتها على أساس الحق الإنسانى ، وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية ، لا بصفتهم محاربين! هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل إلى أوضاع مستقرة لا قيمة فيها للمحاربين . ومن ثم قضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين ، لأنه لم يعد فى حاجة إلى تميزهم !

كلا ! فقد كان للمحاربين فى العهد الجديد قيمتهم كلها ؛ وكانت الحاجة إليهم ماسة! ولكن

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

كان هناك . . الإسلام . . كان هناك هذا الميلاد الجديد للإنسان . الميلاد الذى انبثق من خلال كتاب ؛ ومن خلال منهج ؛ فأقام مجتمعا جديدا وليدا . على نفس الأرض. وفى ذات الظروف. وبدون حدوث انقلاب لا فى الإنتاج وأدواته ! ولا فى المادة وخواصها ! وإنما مجرد انقلاب فى التصور هو الذى انبثق منه الميلاد الجديد .

وحقيقة أن المنهج القرآنى قد كافح . وكافح طويلا . لطمس ومحو معالم الجاهلية فى النفوس والأوضاع ، وتخطيط وتثبيت المعالم الإسلامية فى النفوس والأوضاع . . وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم ؛ وظلت تعاود الظهور فى بعض الحالات الفردية ؛ أو تحاول أن تعبر عن نفسها فى صور شتى . .

ولكن المهم هنا : هو أن المنهج المتنزل من السماء ، والتصور الذى أنشأه هذا المنهج كذلك، هو الذى كان يكافح « الواقع المادى » ويعدله ويبدله .. ولم يكن قط أن الواقع المادى أو «النقيض»[1] الكامن فيه ؛ أو تبدل وسائل الإنتاج . . أو شىء من هذا «الهوس الماركسى»! هو الذى اقتضى تغيير التصورات ومناهج الحياة ، وأوضاعها ، لتلائم هذا التبدل الذى تفرضه وسائل الإنتاج !

كان هناك فقط شىء جديد واحد فى حياة هذا الشعب .. شىء هبط عليه من الملأ الأعلى.. فاستجابت له نفوس ، لأنه يخاطب فيها رصيد الفطرة، الذى أودعه الله فيها . . ومن ثم وقع هذا التغيير . بل تم هذا الميلاد الجديد للإنسان . الميلاد الذى تغيرت فيه ملامح الحياة كلها . . فى كل جانب من جوانبها .. عن الملامح المعهودة فى الجاهلية ! ! !

ومهما يكن هناك من صراع قد وقع بين الملامح الجديدة والملامح القديمة . ومهما يكن هناك من آلام للمخاض وتضحيات .. فقد تم هذا كله . لأن هناك رسالة علوية ؛ وتصورا اعتقاديا ؛ هو الذى كان له الأثر الأول والأثر الأخير فى هذا الميلاد الجديد . الذى لم تقتصر موجته على المجتمع الإسلامى ؛ ولكن تعدته كذلك إلى المجتمع الإنسانى كله [2]

---

(١) تعبير المادية الجدلية ، الذى تفسر به التغيرات التاريخية !

(٢) يراجع كتاب : « هذا الدين » . كذلك يراجع « فى ظلال القرآن » تفسير سورة « عبس » الجزء الثلاثون .

Marfat.com

ومن ثم ينتهى هذا النص القرآنى الذى يفتى فيه الله المؤمنين ، فيما يستفتون فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر النساء، ويقص عليهم حقوق اليتيمات، وحقوق الولدان الضعاف .. ينتهى بربط هذه الحقوق وهذه التوجيهات كلها ، بالمصدر الذى جاء من عنده هذا المنهج :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » ..

فهو غير مجهول ، وهو غير ضائع .. وهومسجل عند الله . ولن يضيع خير سجل عند الله .

وهذا هو المرجع الأخير الذى يعود إليه المؤمن بعمله ؛ والجهة الوحيدة التى يتعامل معها فى نيته وجهده . وقوة هذا المرجع ، وسلطانه ، هى التى تجعل لهذه التوجيهات ولهذا المنهج قوته وسلطانه فى النفوس ، وفى الأوضاع وفى الحياة .

إنه ليس المهم أن تقال توجيهات ؛ وأن تبتدع مناهج ؛ وأن تقام أنظمة . . إنما المهم هو السلطان الذى ترتكن إليه تلك التوجيهات والمناهج والأنظمة . السلطان الذى تستمد منه قوتها ونفاذها وفاعليتها فى نفوس البشر .. وشتان بين توجيهات ومناهج ونظم يتلقاها البشر من الله ذى الجلال والسلطان ، وتوجيهات ومناهج ونظم يتلقونها من العبيد أمثالهم من البشر ! ذلك على فرض تساوى هذه وتلك فى كل صفة أخرى وفى كل سمة ؛ وبلوغهما معا أوجا واحدا ـ وهو فرض ظاهر الاستحالة . ألا إنه ليكفى أن أشعر ممن صدرت هذه الكلمة ، لأعطيها فى نفسى ما تستحقه من مكان .. ولتفعل فى نفسى ما تفعله كلمة الله العلى الأعلى . أو كلمة الإنسان ابن الإنسان !

* * *

ثم نمضى خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعى ـ فى محيط الأسرة ـ فى هذا المجتمع الذى كان الإسلام ينشئه ، بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية فى عالم المادة أو دنيا الإنتاج :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة .

Marfat.com

وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعا حكيما »

لقد نظم المنهج ـ من قبل ـ حالة النشوز من ناحية الزوجة ؛ والإجراءات التى تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة (وذلك فى أوائل هذا الجزء) فالآن ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج ، فتهدد أمن المرأة وكرامتها ، وأمن الأسرة كلها كذلك. إن القلوب تتقلب ، وإن المشاعر تتغير . والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها ، ويتعرض لكل ما يعرض لها ؛ فى نطاق مبادئه واتجاهاته ؛ وتصميم المجتمع الذى يرسمه وينشئه وفق هذا التصميم .

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ؛ وأن تؤدى هذه الجفوة إلى الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ أو إلى الإعراض ، الذى يتركها كالمعلقة . لا هى زوجة ولا هى مطلقة ، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها، أن تتنازل له عن شىء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية . كأن تترك له جزءا أو كلا من نفقتها الواجبة عليه . أو أن تترك له قسمتها وليلتها ، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها، وكانت هى قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها .. هذا كله إذا رأت هى ـ بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها ـ أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها :

«وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا» .. هو هذا الصلح الذى أشرنا إليه ..

ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق :

« والصلح خير » ..

فينسم على القلوب التى دبت فيها الجفوة والجفاف ، نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة فى إبقاء الصلة الزوجية ، والرابطة العائلية .

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله . فهو يحاول ـ بكل وسائله المؤثرة ـ أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها .. ولكنه فى الوقت ذاته لا يتجاهل

Marfat.com

حدود هذه الطبيعة والفطرة ؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس فى طاقتها ؛ ولا يقول للنساء اضربوا رؤوسكم فى الحائط فأنا أريد منكم كذا والسلام! سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه!

إنه لا يهتف للنفس البشرية لتبقى على ضعفها وقصورها ؛ ولا ينشد لها أناشيد التمجيد وهى تتلبط فى الوحل، وتتمرغ فى الطين ـ بحجة أن هذا واقع هذه النفس ! ولكنه كذلك لا يعلقها من رقبتها فى حبل بالملأ الأعلى ، ويدعها تتأرجح فى الهواء ؛ لأن قدميها غير مستقرين على الأرض . بحجة الرفعة والتسامى !

إنه الوسط . . إنه الفطرة . . إنه المثالية الواقعية . أو الواقعية المثالية . . إنه يتعامل مع الإنسان ، بما هو إنسان . والإنسان مخلوق عجيب . هو وحده الذى يضع قدميه على الأرض ؛ وينطلق بروحه إلى السماء . فى لحظة واحدة لا تفارق فيها روحه جسده ؛ ولا ينفصل إلى جسد على الأرض وروح فى السماء !

وهو هنا ـ فى هذا الحكم ـ يتعامل مع هذا الإنسان . وينص على خصيصة من خصائصه فى هذا المجال :

« وأحضرت الأنفس الشح » .

أى أن الشح حاضر دائما فى الأنفس . وهو دائما قائم فيها . الشح بأنواعه . الشح بالمال . والشح بالمشاعر . وقد تترسب فى حياة الزوجين ـ أو تعرض ـ أسباب تستثير هذا الشح فى نفس الزوج تجاه زوجته . فيكون تنازلها له عن شىء من مؤخر صداقها أو من نفقتها ـ إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقى معه عقدة النكاح ! وقد يكون تنازلها عن ليلتها ـ إن كانت له زوجة أخرى أثيرة لديه ـ والأولى لم تعد فيها حيوية أو جاذبية إرضاء لهذا الشح بالمشاعر، تستبقى معه عقدة النكاح ! والأمر على كل حال متروك فى هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها .. لا يلزمها المنهج الربانى بشىء ؛ ولكنه فقط يجيز لها التصرف ، ويمنحها حرية النظر والتدبر فى أمرها وفق ما تراه .

وفى الوقت الذى يتعامل المنهج الإسلامى مع طبيعة الشح هذه ، لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية . بل هو يهتف لها هتافا آخر ، ويعزف لها نغمة أخرى :

Marfat.com

« وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر فى النهاية . ولن يضيع منهما شىء على صاحبه ، فإن الله خبير بما تعمله كل نفس ؛ خبير ببواعثه وكوامنه .. والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل ، هتاف مؤثر ، ونداء مستجاب . . بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب .

ومرة أخرى نجدنا أمام المنهج الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية ، بالواقعية المثالية ، أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هو كامن فى تركيبها من ازدواج عجيب فريد :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .

إن الله الذى فطر النفس البشرية ، يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها . ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاما . خطاما لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها !

من هذه الميول أن يميل القلب البشرى إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات . وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله .. فماذا ؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ؛ ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعا بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم .. ولكن هنالك ما هو داخل فى إرادتهم . هناك العدل فى المعاملة . العدل فى القسمة . العدل فى النفقة . العدل فى الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة فى الوجه ، والكلمة الطيبة باللسان . . وهذا ما هم مطالبون به . هذا هو الخطام الذى يقود ذلك الميل . لينظمه لا ليقتله !

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

فهذا هو المنهى عنه. الميل فى المعاملة الظاهرة، والميل الذى يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون

زوجة ولا تكون مطلقة .. ومعه الهتاف المؤثر العميق فى النفوس للؤمنة ؛ والتجاوز عما ليس فى طاقة الإنسان .

« وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما »

ولأن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبضة من الطين والنفخة من روح الله . وبجملة ما فيها من استعدادات وطاقات . وبواقعيتها المثالية ، أو مثاليتها الواقعية ، التى تضع قدميها على الأرض ، وترف بروحها إلى السماء ، دون تناقض ودون انفصام . .

لأن الإسلام كذلك .. كان نبى الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نموا متوازنا متكاملا فى حدود فطرة الإنسان .

وكان هذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ، ويعدل فى هذه القسمة، لا ينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض . وأن هذا خارج عما يملك . فكان يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب (أخرجه أبو داود) ..

فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى فى نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة ، فالتفرق إذن خير . لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ؛ أو بالواجب والتجمل . فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة ، فإنه لا يحكم عليها أن تقيم فى سجن من الكراهية والنفرة ؛ أو فى رباط ظاهرى وانفصام حقيقى !

« وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعا حكيما » ..

فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ، ومما عنده هو ؛ وهو ـ سبحانه ـ يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء فى حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال .

إن دراسة هذا المنهج ، وهو يعالج مشاعر النفوس ، وكوامن الطباع ، وأوضاع الحياة فى واقعيتها الكلية .. تكشف عن عجب لا ينقضى ، من تنكر الناس لهذا المنهج .. هذا المنهج الميسر ،

Marfat.com

Marfat.com

الموضوع للبشر ، الذى يقود خطاهم من السفح الهابط ، فى المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة؛ وفق فطرتهم واستعداداتهم ؛ ولا يفرض عليهم أمرا من الارتفاع والتسامى ، إلا وله وتر فى فطرتهم يوقع عليه ؛ وله استعداد فى طبيعتهم يستجيشه ؛ وله جذر فى تكوينهم يستنبته .. ثم هو يبلغ بهم ـ بعد هذا كله ـ إلى مالا يبلغه بهم منهج آخر .. فى واقعية مثالية . أو مثالية واقعية.. هى صورة طبق الأصل من تكوين هذا الكائن الفريد(١)

* * *

ولأن هذه الاحكام الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية ، قطاع من المنهج الربانى لتنظيم الحياة كلها ؛ ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكونى ، الذى أراده الله للكون كله ، فهو يتوافق مع فطرة الله للكون ، وفطرة الله للإنسان ، الذى يعيش فى هذا الكون .. لأن هذه هى الحقيقة العميقة فى هذا المنهج الشامل الكبير ، يجىء فى سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة ، ما يربطها بالنظام الكونى كله ؛ وسلطان الله فى الكون كله ، وملكية الله للكون كله . ووحدة الوصية التى وصى الله بها الناس فى كتبه كلها ؛ وثواب الدنيا وثواب الآخرة . . وهى القواعد التى يقوم عليها المنهج كله . قواعد الحق والعدل والتقوى :

« ولله ما فى السماوات وما فى الأرض. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم: أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميدا ، ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم ـ أيها الناس ـ ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعا بصيرا » ..

ويكثر فى القرآن التعقيب على الأحكام ، وعلى الأوامر والنواهى بأن لله ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ أو بأن لله ملك السماوات والأرض. فالأمران متلازمان فى الحقيقة. فالمالك هو صاحب السلطان فى ملكه ؛ وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك . والله وحده هو المالك، ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذى يشرع به للناس . فالأمران متلازمان .

---

(١) يراجع كتاب : « هذا الدين » وفصل « الواقعية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى » .

كذلك يبرز هنا من وصية الله ـ سبحانه ـ لكل من أنزل عليهم كتابا .. الوصية بالتقوى، وذلك بعد تعيين من له ملكية السماوات والأرض ، ومن له حق الوصية فى ملكه :

«ولله ما فى السماوات وما فى الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » . .

فصاحب السلطان الحقيقى هو الذى يُخشى ويُخاف. وتقوى الله هى الكفيلة بصلاح القلوب، وحرصها على منهجه فى كل جزئياته .

كذلك يبين لمن يكفرون ضآلة شأنهم فى ملك الله ؛ وهوان أمرهم عليه سبحانه ؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجىء بغيرهم :

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض . وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم ـ أيها الناس ـ ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا » ..

فهو ـ سبحانه ـ إذ يوصيهم بتقواه ، لا يعنيه فى شىء ولا يضره فى شى ألا يسمعوا الوصية، وأن يكفروا . فإن كفرهم لن ينقص من ملكه شيئا .. «فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض» وهو قادر على أن يذهب بهم ويستبدل قوما غيرهم ، إنما هو يوصيهم بالتقوى لصلاحهم هم ، ولصلاح حالهم .

وبقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله ؛ وتكريمه على كل ما فى الأرض ، وكل من فى الكون .. بقدر ما يقرر هوانه على الله حين يكفر به ، ويعتو ويتجبر ، ويدعى خصائص الألوهية بغير حق . . فهذه كفاء تلك فى التصور الإسلامى ، وفى حقيقة الأمر والواقع كذلك ..

ويختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة فى الدنيا وحدها ، إلى أن فضل الله أوسع . . فعنده ثواب الدنيا والآخرة .. وفى استطاعة الذين يقصرون همهم على الدنيا ، أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ؛ وأن يأملوا فى خير الدنيا وخير الآخرة .

« ومن كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعا بصيرا» . .

وإنه ليكون من الحمق ، كما يكون من سقوط الهمة ، أن يملك الإنسان التطلع إلى الدنيا

Marfat.com

والآخرة معا ؛ وإلى ثواب الدنيا وثواب الآخرة جميعا ـ وهذا ما يكفله المنهج الإسلامى المتكامل الواقعى المثالى ـ ثم يكتفى بطلب الدنيا ، ويضع فيها همه ؛ ويعيش كالحيوان والدواب والهوام ؛ بينما هو يملك أن يعيش كالإنسان ـ! قدم تدب على الأرض وروح ترف فى السماء . وكيان يتحرك وفق قوانين هذه الأرض ؛ ويملك فى الوقت ذاته أن يعيش مع الملأ الأعلى !

وأخيرا فإن هذه التعقيبات المتنوعة ـ كما تدل على الصلة الوثيقة بين الأحكام الجزئية فى شريعة الله والمنهج الكلى للحياة ـ تدل فى الوقت ذاته على خطورة شأن الأسرة فى حساب الإسلام . حتى ليربطها بهذه الشؤون الكبرى ؛ ويعقب عليها بوصية التقوى الشاملة للأديان جميعا ؛ وإلا فالله قادر على أن يذهب بالناس ويأتى بغيرهم يتبعون وصيته ؛ ويقيمون شريعته .. وهو تعقيب خطير . يدل على أن أمر الأسرة كذلك خطير فى حساب الله . وفى منهجه للحياة ..

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ ـ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ـ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ . وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا ، لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

« بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ؟ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ

Marfat.com

Marfat.com

حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ . إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ . فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوا : أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا * إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ - وَهُوَ خَادِعُهُمْ - وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ . لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ؟ * إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ، وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ، فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ؟ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » (١٤٧)

هذا الدرس حلقة من سلسلة التربية المنهجية ، التى تولتها يد الرعاية الإلهية ، لإخراج الأمة التى قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .. وهى حلقة من المنهج الثابت المطرد الخطو، المرسوم الأهداف لمعالجة النفس البشرية بالدواء الذى صنعه صانع هذه النفس- سبحانه- الخبير بدروبها ومنحنياتها ، البصير بطبيعتها وحقيقتها ، العليم بضروراتها وأشواقها ، وبمقدراتها وطاقاتها . .

وهذه الحلقة كما ترسم قواعد المنهج واتجاهاته الثابتة ، الموضوعة للناس جميا ، فى أجيالهم كلها ، لترفعهم من سفوح الجاهلية - حسب مكانهم فى الدرج - وتعرج بهم فى المرتقى الصاعد ،

إلى القمة السامقة .. هى كذلك ـ فى الوقت ذاته ـ ترتسم فيها حال الجماعة المسلمة الأولى ، المخاطبة بهذا القرآن ؛ وتبرز من بين السطور صورة لهذه الجماعة إذ ذاك ـ كما هى ـ بكل ما فيها من بشرية . وبكل ما فى بشريتها من ضعف و قوة ؛ ومن رواسب جاهلية ومشاعر فطرية .. وتبرز كذلك طريقة المنهج فى علاجها وتقويتها وتثبيتها على الحق الذى تمثله ؛ بكل ما فى وقفتها مع الحق من جهد وتضحية .

ويبدأ الدرس بنداء الجماعة المؤمنة إلى النهوض بتكاليف دورها ، فى إقامة العدل بين الناس على النحو الفريد الذى لم يقم إلا على يد هذه الجماعة ـ العدل الذى تتعامل فيه الجماعة مع الله مباشرة ؛ متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة ـ بما فى ذلك ما يسمى مصلحة الجماعة أو الأمة أو الدولة ! ـ متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته .. العدل الذى رأينا نموذجا منه فى الدرس العملى الذى ألقاه الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الجماعة المسلمة فى حادث اليهودى الذى سلف ذكره .

يبدأ الدرس بنداء الذين آمنوا ليقيموا هذا العدل .. بصورته هذه .. ومنزّل هذا القرآن يعلم حقيقة المجاهدة الشاقة ، التى تتكلفها إقامة العدل على هذا النحو . وفى النفس البشرية ضعفها المعروف ، وعواطفها تجاه ذاتها وتجاه الأقارب ؛ وتجاه الضعاف من المتقاضين وتجاه الأقوياء أيضاً . تجاه الوالدين والأقربين ، وتجاه الفقير والغنى ؛ تجاه المودة وتجاه الشنآن .. ويعلم أن التجرد من هذا كله يحتاج إلى جهاد شاق . جهاد للصعود إلى هذه القمة على سفوح ملساء ! لا تتعلق فيها النفس بشىء إلا بحبل الله .

ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل . بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته فى تكوين العقيدة الإيمانية ؛ وقيمته فى تكوين التصور الإسلامى ، المتفوق على جميع التصورات الأخرى ، التى عرفتها البشرية ـ قبل الإسلام وبعده ـ وهو ذاته التفوق الذى انبعث منه كل تفوق آخر أخلاقى أو اجتماعى أو تنظيمى، فى حياة الجماعة المسلمة الأولى . والذى يحمل عنصر التفوق دائما لكل جماعة تؤمن به حقا وتعمل بمقتضياته كاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . حيث تحق كلمة الله ـ فى هذا الدرس نفسه ـ « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

Marfat.com

وبعد هذين النداءين يأخذ السياق فى حملة منوعة الأساليب على المنافقين ـ من بقى منهم على حالة النفاق ، ومن أعلن كفره بعد إعلان إسلامه ـ حملة يصور فيها طبيعة المنافقين ، ويرسم لهم فيها صورا زرية ، من واقع ما يقومون به فى الصف المسلم ؛ ومن واقع مواقفهم المتلونة حسب الظروف . وهم يلقون المسلمين ـ إذا انتصروا ـ بالملق والنفاق . ويلقون الذين كفروا ـ إذا انتصروا كذلك ـ بدعواهم أنهم سبب انتصارهم ! وهم يقومون للصلاة كسالى يراءون الناس . وهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وترد فى ثنايا هذه الحملة توجيهات للمؤمنين وتحذيرات . تدل على مدى ما كان لأفاعيل المنافقين فى الصف المسلم ـ حينذاك ـ من آثار ، وعلى مدى ضخامة الجبهة المنافقة وتغلغلها فى حياة الجماعة المسلمة ؛ مما استدعى هذه الحملة ، مع مراعاة «الواقع» يومئذ ، وأخذ المسلمين خطوة خطوة فى الابتعاد عن المنافقين واجتنابهم . من ذلك أمرهم باجتناب مجالس المنافقين التى يتداولون فيها الكفر بآيات الله والاستهزاء بها . ولم يأمرهم ـ حينذاك ـ بمقاطعة المنافقين البتة . مما يدل على أن جبهة النفاق كانت ضخمة ومتغلغلة بصورة يصعب فيها على المسلمين مقاطعتهم !

كذلك ترد فى ثناياها تحذيرات للمسلمين من سمات النفاق ومقدماته ؛ كى لا يقعوا فيها . وأخصها موالاة الكافرين ، وابتغاء العزة عندهم ، والقوة بهم ! وتأمينهم بأن العزة لله جميعاً ، وبأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا ، وذلك مع رسم الصور البشعة للمنافقين فى الدنيا وفى الآخرة . وتقرير أن مكانهم فى الدرك الأسفل من النار .

وهذه التوجيهات والتحذيرات ـ بهذا الأسلوب ـ تشى بطريقة المنهج فى علاج النفوس والأوضاع ؛ وتغيير الواقع فى حدود الطاقة والملابسات القائمة كذلك ، حتى ينتهى إلى تغييره نهائيا ؛ وإقامة « واقع » آخر جديد . كما تشى بحالة الجماعة المسلمة حينذاك وموقفها من جبهة الكفر وجبهة النفاق المتعاونتين فى حرب الجماعة المسلمة والدين الجديد .

ومن خلال هذه وتلك تتبين طبيعة المعركة التى كان القرآن يخوض بها الجماعة المسلمة ، وطبيعة الأساليب المنهجية فى قيادته للمعركة وللنفوس .. وهى المعركة الدائمة المتصلة بين الإسلام والجاهلية فى كل زمان وكل مكان . وبين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين تتغير أشخاصهم ووسائلهم ولكن لا تتغير طبيعتهم ومبادئهم .

Marfat.com

ومن خلال هذا كله تبرز حقيقة هذا الكتاب .. القرآن .. ودوره فى قيادة الأمة المسلمة. ليس بالأمس فقط ـ فما جاء ليقود جيلا دون جيل . إنما جاء ليقود هذه الأمة ، وليكون مرشدها وهاديها ، فى جميع الأجيال والدهور ..

وفى نهاية الدرس تجىء تلك اللفتة العجيبة إلى استغناء الله ـ سبحانه ـ عن تعذيب العباد.. فهو لا يطلب منهم إلا أن يؤمنوا ويشكروا . وهو سبحانه غنى عن إيمانهم وشكرهم . ولكن ذلك إنما هو لصلاح حالهم ، وارتقاء مستواهم ؛ حتى يتأهلوا لحياة الآخرة ، ومستوى النعيم فى الجنة . فإذا هم ارتكسوا وانتكسوا فإنما يؤهلون أنفسهم لمستوى العذاب فى الجحيم . حيث يسقط المنافقون إلى أحط الدركات « فى الدرك الأسفل من النار » ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ـ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ؛ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

إنه نداء للذين آمنوا . نداء لهم بصفتهم الجديدة . وهى صفتهم الفريدة . صفتهم التى بها أنشئوا نشأة أخرى ؛ وولدوا ميلادا آخر . ولدت أرواحهم ، وولدت تصوراتهم ، وولدت مبادئهم وأهدافهم ؛ وولدت معهم المهمة الجديدة التى تناط بهم، والأمانة العظيمة التى وكلت إليهم . أمانة القوامة على البشرية ، والحكم بين الناس بالعدل .. ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه : « يا أيها الذين آمنوا ... » فبسبب من اتصافهم بهذه الصفة ، كان التكليف بهذه الأمانة الكبرى . وبسبب من اتصافهم بهذه الصفة كان التهيؤ والاستعداد للنهوض بهذه الأمانة الكبرى ..

وهى لمسة من لمسات المنهج التربوى الحكيم ؛ تسبق التكليف الشاق الثقيل :

« كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ـ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » ..

إنها أمانة القيام بالقسط .. بالقسط على إطلاقه . فى كل حال وفى كل مجال . القسط الذى يمنع البغى والظلم ـ فى الأرض ـ والذى يكفل العدل ـ بين الناس ـ والذى يعطى كل ذى حق حقه

Marfat.com

من المسلمين وغير المسلمين . . ففى هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين ـ كما رأينا فى قصة اليهودى ـ ويتساوى الأقارب والأباعد . ويتساوى الأصدقاء والأعداء . ويتساوى الأغنياء والفقراء . .

« كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله » . .

حسبة لله . وتعاملا مباشرا معه . لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم . ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة . ولا تعاملا مع الملابسات المحيطة بأى عنصر من عناصر القضية . ولكن شهادة لله ، وتعاملا مع الله . وتجردا من كل ميل ، ومن كل هوى ، ومن كل مصلحة ، ومن كل اعتبار .

« ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » . .

وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس فى وجه ذاتها ، وفى وجه عواطفها ، تجاه ذاتها أولا ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا . . وهى محاولة شاقة . . أشق كثيرا من نطقها باللسان ، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل . . إن مزاولتها عمليا شىء آخر غير إدراكها عقليا . ولا يعرف هذا الذى نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعيا : . ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة . لأنها لا بد أن توجد . لا بد أن توجد فى الأرض هذه القاعدة . ولا بد أن يقيمها ناس من البشر .

ثم هو يجند النفس كذلك فى وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية ، حين يكون المشهود له أو عليه فقيرا ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه . أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية . وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا ؛ تقتضى الأوضاع الاجتماعية مجاملته . أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده ! وهى مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس فى عالم الواقع . . والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندها تجاه حب الذات ، وحب الوالدين والأقربين .

« إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » . .

وهى محاولة شاقة . . ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة . . وأن الإسلام حين دفع نفوس

Marfat.com

Marfat.com

المؤمنين ـ فى عالم الواقع ـ إلى هذه الذروة ، التى تشهد بها تجارب الواقع التى وعاها التاريخ ـ كان ينشىء معجزة حقيقيـــة فى عالم البشرية . معجزة لا تقع إلا فى ظل هذا النهج الإلهى العظيم القويم .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » ..

والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها .. حب الذات هوى . وحب الأهل والأقربين هوى. والعطف على الفقير ـ فى موطن الشهادة والحكم ـ هوى. ومجاملة الغنى هوى. ومضارته هوى. والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن ـ فى موضع الشهادة والحكم ـ هوى . وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين ـ فى موطن الشهادة والحكم ـ هوى .. وأهواء شتى الصنوف والألوان . . كلها مما ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها .

وأخيراً يجىء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة ، والإعراض عن هذا التوجيه فيها . .

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

ويكفى أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل ، ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير ، يرتجف له كيانه .. فقد كان الله يخاطب بهذا القرآن المؤمنين !

حدث أن عبد الله ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لما بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة ، حسب عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح خيبر .. أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم ! فقال لهم : « والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى . ولأنتم والله أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير. وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم ، على أن لا أعدل فيكم » . . فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض !

لقد كان ـ رضى الله عنه ـ قد تخرج فى مدرسة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنهج الربانى المتفرد . وكان إنسانا من البشر خاض هذه التجربة الشاقة ونجح ؛ وحقق ـ كما حقق

الكثيرون غيره فى ظل ذلك المنهج ـ تلك المعجزة التى لا تقع إلا فى ظل ذلك المنهج !

ولقد مضت القرون تلو القرون بعد تلك الفترة العجيبة ؛ وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون ؛ وحفلت الحياة بالتنظيمات والتشكيلات القضائية ؛ وضبط الإجراءات والشكليات التنظيمية . وامتلأت الرؤوس بالكلام عن العدالة ؛ وامتلأت الأفواه بالحديث عن إجراءاتها الطويلة . ووجدت نظريات وهيئات وتشكيلات منوعة لضبط هذا كله ..

ولكن التذوق الحقيقى لمعنى العدالة ؛ والتحقق الواقعى لهذا المعنى فى ضمائر الناس وفى حياتهم ؛ والوصول إلى هذه الذروة السامقة الوضيئة . . لم يقع إلا فى ذلك المنهج . . فى تلك الفترة العجيبة فى ذروة القمة .. وبعدها على مدار التاريخ فى الأرض التى قام فيها الإسلام . وفى القلوب التى عمرت بهذه العقيدة . وفى الجماعات والأفراد التى تخرجت على هذا المنهج الفريد

وهذه حقيقة ينبغى أن يتنبه إليها الذين يؤخذون بالتشكيلات القضائية التى جدت ؛ وبالإجراءات القضائية التى استحدثت ؛ وبالأنظمة والأوضاع القضائية التى نمت وتعقدت . فيحسبون أن هذا كله أقمن بتحقيق العدالة وأضمن مما كان فى تلك الإجراءات البسيطة فى تلك الفترة الفريدة ! فى تلك القرون البعيدة ! وأن الأمور اليوم أضبط وأحكم مما كانت على صورتها البسيطة !

هذا وهم تنشئه الأشكال والأحجام فى تصورات من لا يدركون حقائق الأشياء والأوضاع.. إن المنهج الربانى وحده هو الذى يبلغ بالناس ما بلغ على بساطة الأشكال وبساطة الأوضاع . . وهو وحده الذى يمكن أن يبلغ بالناس هذا المستوى على ما استحدث من الأشكال والأوضاع !

وليس معنى هذا أن نافى التنظيمات القضائية الجديدة . ولكن معناه أن نعرف أن القيمة ليست للتنظيمات . ولكن للروح التى وراءها . أيا كان شكلها وحجمها وزمانها ومكانها . . والفضل للأفضل بغض النظر عن الزمان والمكان !!!

* * *

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل.. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. فقد ضل ضلالا بعيدا » ..

Marfat.com

Marfat.com

إنه النداء الثانى للذين آمنوا . بصفتهم هذه التى تفردهم من الجاهلية حولهم . وتحدد وظيفتهم وتكاليفهم . وتصلهم بالمصدر الذى يستمدون منه القوة والعون على هذه التكاليف !

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل » ..

فهو بيان لعناصر الإيمان التى يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا . بيان لتصور الإسلامى الاعتقادى :

فهو إيمان بالله ورسوله . يصل قلوب المؤمنين بربهم الذى خلقهم ، وأرسل إليهم من يهديهم إليه ، وهو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإيمان برسالة الرسول وتصديقه فى كل ما ينقله لهم عن ربهم الذى أرسله .

وهو إيمان بالكتاب الذى نزل على رسوله . يربطهم بالمنهج الذى اختاره الله لحياتهم وبينه لهم فى هذا الكتاب ؛ والأخذ بكل ما فيه ، بما أن مصدره واحد ، وطريقه واحد ؛ وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقى والقبول والطاعة والتنفيذ .

وهو إيمان بالكتاب الذى أنزل من قبل . بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله ؛ وأساسها كذلك واحد هو إسلام الوجه لله ؛ وإفراد الله سبحانه بالألوهية ـ بكل خصائصها ـ والإقرار بأن منهج الله وحده هو الذى تجب طاعته وتنفيذه فى الحياة . . وهذه الوحدة هى المقتضى الطبيعى البديهى لكون هذه الكتب ـ قبل تحريفها ـ صادرة كلها عن الله . ومنهج الله واحد ، وإرادته بالبشر واحدة ، وسبيله واحد ، تتفرق السبل من حولها وهى مستقيمة إليه واصلة .

والإيمان بالكتاب كله ـ بوصف أن الكتب كلها كتاب واحد فى الحقيقة ـ هو السمة التى تنفرد بها هذه الأمة المسلمة . لأن تصورها لربها الواحد، ومنهجه الواحد، وطريقه الواحد، هو التصور الذى يستقيم مع حقيقة الألوهية . ويستقيم مع وحدة البشرية . ويستقيم مع وحدة الحق الذى لا يتعدد .. والذى ليس وراءه إلا الضلال « فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ »

Marfat.com

وبعد الأمر بالإيمان ، يجىء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان ، مع التفصيل فيها فى موضع البيان قبل العقاب :

« ومن يكفر بالله ، وملائكته، وكتبه ، ورسله، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا» ..

وقد ذكر فى الأمر الأول الإيمان بالله وكتبه ورسله. ولم يذكر الملائكة. وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر ، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر. ولكنه يبرزها هنا، لأنه موطن الوعيد والتهديد، الذى يبين فيه كل عنصر على التحديد.

والتعبير بالضلال البعيد غالبا يحمل معنى الإبعاد فى الضلال ، الذى لا يرجى معه هدى؛ ولا يرتقب بعده مآب !

والذى يكفر بالله الذى تؤمن به الفطرة فى أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعى فيها ، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استمدادا من كفره بالحقيقة الأولى . . الذى يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، الحد الذى لا يرجى معه هدى؛ ولا يرتقب بعده مآب !

* * *

وبعد هذين النداءين للذين آمنوا يأخذ السياق فى الحملة على النفاق والمنافقين . ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة حينذاك ، تمثل موقف بعضهم ، وهو أقرب المواقف إلى الحديث عن الكفر والكفار :

« إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا . لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا » ..

إن الكفر الذى يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه . فالذى لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج فى الظلام . . فأما الكفر بعد الإيمان . مرة ومرة . . فهو الكبيرة التى لا مغفرة لها ولا معذرة .. إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق . واتصل الشارد بالركب . واتصلت النبتة بالنبع . وذاقت الروح تلك الحلاوة التى لا تنسى . . حلاوة الإيمان . . فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة ، إنما يفترون على الفطرة ، عن معرفة . ويلجون فى الغواية عن عمد . ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد ..

فعدل ألا يغفر الله لهم ؛ وعدل ألا يهديهم سبيلا ؛ لأنهم هم الذين أضاعوا السبيل بعد ما عرفوه وسلكوه . وهم الذين اختاروا السيئة والعمى ، بعد ما هدوا إلى المثابة والنور ..

* * *

وإذا لم تتجرد النفس لله ، لم تتحرر أبدا من ضغط القيم والأوضاع ، والضرورات والمصالح ، والحرص والشح . ولم ترتفع أبدا على المصالح والمغانم ، والمطامع والمطامح . ولم تستشعر أبدا تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التى يحسها القلب الملوء بالله ، أمام القيم والأوضاع ، وأمام الأشخاص والأحداث ، وأمام القوى الأرضية والسلطان وأصحاب السلطان . .

ومن هنا تبذر بذرة النفاق .. وما النفاق فى حقيقته إلا الضعف عن الإصرار على الحق فى مواجهة الباطل . وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع ، وتعليقهما بغير الله ؛ وثمرة التقيد بملابسات الأرض ومواضعات الناس ، فى عزلة عن منهج الله للحياة .

فهناك مناسبة فى السياق بين الحديث عن الإيمان بالله ، والتجرد فى القيام بالشهادة له ، وبين الحديث عن النفاق ـ إلى جانب المناسبة العامة ، التى يكونها موضوع السورة الأصيل ، وهو تربية الجماعة المسلمة بمنهج الإسلام ؛ ومعالجة الرواسب الباقية من الجاهلية ؛ وتعبئة النفوس كذلك ضد الضعف البشرى الفطرى .. ثم خوض المعركة ـ بهذه الجماعة ـ مع المشركين من حواليها ، ومع المنافقين فيها . والسياق متصل فى هذا الهدف العام ـ من مبدأ السورة إلى منتهاها .

وهكذا يستغرق الحديث عن النفاق والمنافقين بقية هذا الدرس ، وهو ختام هذا الجزء . . بعد تلك الصورة التى رسمتها الآية السابقة لطائفة من المنافقين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا ..

ومن هنا تبدأ الحملة التى سبقت الإشارة إليها على النفاق والمنافقين بشتى أساليبها الجديرة بالدراسة والتأمل ، لمعرفة طبيعة المنهج وهو يزاول العمل على الطبيعة ؛ وفى واقع الحياة والقلوب!

« بشر المنافقين بان لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا . وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذا مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله قالوا:

Marfat.com

ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله ـ وهو خادعهم ـ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ..

* * *

تبدأ الحملة بهذا التهكم الواضح فى استعمال كلمة « بشر » مكان كلمة أنذر . وفى جعل العذاب الأليم الذى ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ؛ وسوء ظنهم بالله ؛ وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة .

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا » ..

والكافرون المذكورون هنا هم ـ على الأرجح ـ اليهود ؛ الذين كان المنافقون يأوون إليهم ؛ ويتخذون عندهم ، ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد .

والله ـ جل جلاله ـ يسأل فى استنكار : لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان ؟ لم يضعون أنفسهم هذا الموضع ، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله ـ عز وجل ـ بالعزة ؛ فلا يجدها إلا من يتولاه ؛ ويطلبها عنده ؛ ويرتكن إلى حماه .

وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين ، وصفتهم الأولى ، وهى ولاية الكافرين دون المؤمنين ، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ؛ وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التى يطلبها عندهم أولئك المنافقون . وتقرر أن العزة لله وحده ؛ فهى تطلب عنده وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين !

ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة ، فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه . وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها .. العبودية لله . فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ؛ وأشخاص شتى ؛ واعتبارات شتى ، ومخاوف شتى . ولم يعصمها شىء من العبودية لكل أحد ولكل شىء ولكل اعتبار ..

Marfat.com

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال .. ولمن شاء أن يختار ..

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله . وما أحوج ناسا ممن يدعون الإسلام ؛ ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستمينون بأعدى أعداء الله فى الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن .. إن كانت بهم رغبة فى أن يكونوا مسلمين .. وإلا فإن الله غنى عن العالمين !

ومما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين : الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر ؛ واعتبار أن بينهم وبين الجيل المسلم نسبا وقرابة ! كما يعتز ناس بالفراعنة والأشوريين والفينيقيين والبابليين وعرب الجاهلية اعتزازا جاهليا ، وحمية جاهلية ..

روى الإمام أحمد : حدثنا حسين ابن محمد ،حدثنا أبو بكر ابن عباس . عن حميد الكندى عن عبادة بن نسى ، عن أبى ريحانة : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزا وفخرا ، فهو عاشرهم فى النار » ..

ذلك أن آصرة التجمع فى الإسلام هى العقيدة . وأن الأمة فى الإسلام هى المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ . فى كل أرض ، وفى كل جيل . وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم ، ولا المتجمعين فى حيز من الأرض فى جيل من الأجيال !

* * *

وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى .. يسمى ذلك تسامحا ، أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيمانا بحرية الرأى !!! وهى هى الهزيمة الداخلية تدب فى أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه فى أول الطريق ، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبسا بالضعف والهوان !

إن الحمية لله ، ولدين الله، ولآيات الله ، هى آية الإيمان. وما تفترهذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ؛ وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهى عند دفعة التيار . وإن الحمية لتكبت فى أول الأمر عمدا . ثم تهمد . ثم تخمد . ثم تموت !

فمن سمع الاستهزاء بدينه فى مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما

Marfat.com

Marfat.com

التغاضى والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة. وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق!

وقد كان بعض المسلمين فى المدينة يجلسون فى مجالس كبار المنافقين ـ ذوى النفوذ ـ وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ . وجاء المنهج القرآنى ينبه فى النفوس تلك الحقيقة .. حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجرى فيها ، هو أولى مراحل الهزيمة . وأراد أن يجنبهم إياها .. ولكن اللابسات فى ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمرا بمقاطعة مجالس القوم إطلاقا . فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها .. وإلا فهو النفاق .. وهو المصير المفزع ، مصير المنافقين والكافرين :

« وقد نزل عليكم فى الكتاب : أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذاً مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ...

والذى تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله فى الكتاب ، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام ـ وهى مكية ـ « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » ..

والتهديد الذى يرتجف له كيان المؤمن :

« إنكم إذاً مثلهم » ..

والوعيد الذى لا تبقى بعده بقية من تردد :

« إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ..

ولكن قصر النهى على المجالس التى يكفر فيها بآيات الله ويستهزأ بها ، وعدم شموله لكل علاقات المسلمين بهؤلاء المنافقين . يشى ـ كما أسلفنا ـ بطبيعة الفترة التى كانت تجتازها الجماعة المسلمة ـ إذ ذاك ـ والتى يمكن أن تتكرر فى أجيال أخرى وبيئات أخرى ـ كما تشى بطبيعة المنهج فى أخذ الأمر رويدا رويدا ؛ ومراعاة الرواسب والمشاعر واللابسات والوقائع .. فى عالم الواقع .. مع الخطو المطرد الثابت نحو تبديل هذا الواقع !

* * *

ثم يأخذ فى بيان سمات المنافقين ، فيرسم لهم صورة زرية منفرة ؛ وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ؛ ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين :

« الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله ،قالوا : ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

وهى صورة منفرة . تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، ومايتربصون بها من الدوائر . وهم ـ مع ذلك ـ يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة فيقولون : حينئذ :

« ألم نكن معكم ؟ » ..

ويعنون أنهم كانوا معهم فى الموقعة ـ فقد كانوا يخرجون أحيانا يخذلون ويخلخلون الصفوف:ـ أو يعنون أنهم كانوا معهم بقلوبهم ! وأنهم ناصروهم وحموا ظهورهم !

« وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ » ..

يعنون أنهم آزروهم وناصروهم وحموا ظهورهم ؛ وخذّلوا عنهم وخلخلوا الصفوف !!

وهكذا يتلوون كالديدان والثعابين . فى قلوبهم السم . وعلى ألسنتهم الدهان ! ولكنهم بعد ضعاف ؛ صورتهم زرية شائهه تعافها نفوس المؤمنين . . وهذه إحدى لمسات المنهج لنفوس المؤمنين .

ولما كانت الخطة التى اتبعها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوجيه ربه فى مسألة المنافقين، هى الإغضاء والإعراض ، وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم ؛ فى الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين ! فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله فى الآخرة ؛ حيث يكشف الستار عنهم ، وينالهم جزاء ما يكيدون للمسلمين :

« فالله يحكم بينكم يوم القيامة » ..

حيث لا مجال للكيد والتآمر والتبييت ؛ ولا مجال لإخفاء مكنونات الصدور .

ويطمئن الذين آمنوا بوعد من الله قاطع ؛ أن هذا الكيد الخفى الماكر ، وهذا التآمر مع الكافرين ، لن يغير ميزان الأمور ؛ ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين :

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

وفى تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بهذا النص يوم القيامة . حيث يحكم الله

Marfat.com

بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل .

كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر فى الدنيا بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال . وإن غلب المسلمون فى بعض المعارك وفى بعض الأحايين .

وإطلاق النص فى الدنيا والآخرة أقرب ، لأنه ليس فيه تحديد .

والأمر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلى بيان أو توكيد .. أما بالنسبة للدنيا ، فإن الظواهر أحيانا قد توحى بغير هذا . ولكنها ظواهر خادعة تحتاج إلى تمعن وتدقيق :

إنه وعد من الله قاطع . وحكم من الله جامع : أنه متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ؛ وتمثلت فى واقع حياتهم منهجا للحياة ، ونظاما للحكم ، وتجردا لله فى كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله فى الصغيرة والكبيرة .. فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . .

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامى كله واقعة واحدة تخالفها !

وأنا أقرر فى ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ،أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم فى تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان . إما فى الشعور وإما فى العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة فى كل حين بنية الجهاد فى سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يوجدون !

فنى « أحد » مثلا كانت الثغرة فى ترك طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى الطمع فى الغنيمة . وفى « حنين » كانت الثغرة فى الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا .. نعرفه أو لا نعرفه .. أما وعد الله فهو حق فى كل حين .

نعم . إن المحنة قد تكون للابتلاء . . ولكن الابتلاء إنما يجىء لحكمة ، هى استكمال حقيقة الإيمان ، ومقتضياته من الأعمال - كما وقع فى أحد وقصه الله على المسلمين[1] - فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه ، جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين .

على أننى إنما أعنى بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك .. إنما أعنى بالهزيمة

---

(١) تراجع غزوة أحد فى سورة آل عمران فى الجزء الرابع من الظلال ص ٤٦ - ص ١٦٨ من الطبعة المنقحة

Marfat.com

هزيمة الروح ، وكلال العزيمة . فالهزيمة فى معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها فى النفوس همودا وكلالا وقنوطا . فأما إذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، وبصرت بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق .. فهى المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد. ولو طال الطريق !

كذلك حين يقرر النص القرآنى : أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هى التى تنتصر ؛ والفكرة المؤمنة هى التى تسود . وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان فى قلوبها تصورا وشعورا ؛ وفى حياتها واقعا وعملا . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعنوانات . إنما هو للحقيقة التى وراءها ..

وليس بيننا وبين النصر فى أى زمان وفى أى مكان ، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان . ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة فى حياتنا وواقعنا كذلك .. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء ؛ وألا نطلب العزة إلا من الله .

ووعد الله هذا الأكيد ، يتفق تماما مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر فى هذا الكون ..

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى ، التى لا تضعف ولا تفنى .. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها .. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية ، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون جميعا .

غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية . ذات أثر فى النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهى حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها .. ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن « حقيقة » الكفر تغلبه ، إذا هى صدقت مع طبيعتها وعملت فى مجالها .. لأن حقيقة أى شىء أقوى من « مظهر » أى شىء . ولو كانت هى حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان !

إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هى إنشاء الحق . وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل . مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون .. « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ..

Marfat.com

Marfat.com

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

* * *

ثم يمضى السياق بعد هذا الوعد القاطع المطمئن للمؤمنين ، المخذّل للمنافقين الذين يتولون الكافرين يبتغون عندهم العزة . . يمضى فيرسم صورة زرية أخرى للمنافقين ، مصحوبة بالتهوين من شأنهم ، وبوعيد الله لهم :

« إن المنافقين يخادعون الله ـ وهو خادعهم ـ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ..

وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة . فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله . فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه ـ لا يخدع ـ وهو يعلم السر وأخفى وهى تدرك أن الذى يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير . ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين !

ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله « وهو خادعهم » .. أى مستدرجهم وتاركهم فى غيهم ؛ لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ؛ ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم . . تاركهم يمضون فى طريق الهاوية حتى يسقطوا .. وذلك هو خداع الله ـ سبحانه ـ لهم .. فالقوارع والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله ، حين تصيب العباد ، فتردهم سريعا عن الخطأ ؛ أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .. وكثيرا ما تكون العافية والنعمة استدراجا من الله للمذنبين الغاوين ؛ لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير ؛ حتى ينتهوا إلى شر مصير .

ثم يستمر السياق يرسم لهم صورا زرية شائنة ؛ لاتثير فى قلوب المؤمنين إلا الاشمئزاز والاحتقار :

« وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس . ولا يذكرون الله إلا قليلا » فهم لا يقومون إلى الصلاة بحرارة الشوق إلى لقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والاتصال به ،

Marfat.com

والاستمداد منه .. إنما هم يقومون يراءون الناس . ومن ثم يقومون كسالى ، كالذى يؤدى عملا ثقيلا ؛ أو يسخر سخرة شاقة ! وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلا . فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس ! وهم لا يتوجهون إلى الله إنما هم يراءون الناس .

وهى صورة كريهة ـ ولا شك ـ فى حس المؤمنين . تثير فى نفوسهم الاحتقار والاشمئزاز ، ومن شأن هذا الشعور أن يباعد بينهم وبين المنافقين ؛ وأن يوهن العلائق الشخصية والمصلحية .. وهى مراحل فى المنهج التربوى الحكيم ؛ للبت بين المؤمنين والمنافقين !

ويستمر السياق فى رسم الصور الزرية المنفرة :

« مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ..

وموقف الذبذبة ، والأرجحة ، والاهتزاز ، وعدم الاستقرار والثبات فى أحد الصفين : الصف المؤمن أو الصف الكافر .. موقف لا يثير إلا الاحتقار والاشمئزاز كذلك فى نفوس المؤمنين . كما أنه يوحى بضعف المنافقين الذاتى . هذا الضعف الذى يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك . . ولا على المصارحة برأى وعقيدة وموقف .. مع هؤلاء أو هؤلاء ..

ويعقب على هذه الصور الزرية ، وهذه المواقف المهزوزة ، بأنهم قد حقت عليهم كلمة الله ؛ واستحقوا ألا يعينهم فى الهداية ؛ ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلا . ولا أن يجد لهم طريقا مستقيما :

« ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ..

* * *

وإلى هنا يكون السياق قد بلغ من إثارة الاشمئزاز والاحتقار والاستضعاف للمنافقين فى نفوس المؤمنين مبلغا عظيما . . فيلتفت بالخطاب للمؤمنين محذرا إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين .. وطريق المنافقين ـ كما سبق ـ هو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين. ويحذرهم بطش الله ونقمته ، كما يصور لهم مصير المنافقين فى الآخرة . وهو مصير مفزع رعيب ؛ مهين كذلك ذليل :

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما » ..

إنها العودة إلى نداء الذين آمنوا ، بالصفة التى تفرقهم وتميزهم ممن حولهم . والتى بها يتميز منهجهم وسلوكهم وواقعهم . والتى بها يستجيبون للنداء كذلك ويطيعون التوجيهات .

نداء لهم بهذه الصفة أن يحذروا سلوك طريق المنافقين ، ويحذروا أن يتولوا الكفار من دون المؤمنين .. وهو نداء لابد كانت هناك حاجة إليه فى المجتمع المسلم يومذاك . حيث كانت الصلات ما تزال قائمة فى المجتمع بين بعض المسلمين واليهود فى المدينة ؛ وبين بعض المسلمين وقرابتهم فى قريش ـ ولو من الناحية النفسية ـ ونقول « بعض المسلمين » لأن هناك البعض الآخر ؛ الذى فصم كل علاقاته بالمجتمع الجاهلى ـ حتى مع الآباء والأبناء ـ وجعل العقيدة وحدها هى آصرة التجمع ووشيجة الرحم ؛ كما علمهم الله :

وذلك البعض هو الذى كانت الحاجة قائمة لتنبيهه إلى أن هذا هو طريق النفاق والمنافقين ـ بعد تصوير النفاق والمنافقين تلك الصور الزرية المنفرة البغيضة ـ وتحذيره من التعرض لغضب الله وبطشه ونقمته :

« أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ »

ولا يفرَق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقه وارتجافه من التعرض لبطش الله ونقمته .. ومن ثم جاء التعبير فى صورة الاستفهام .. ومجرد التلويح بالاستفهام يكفى فى خطاب قلوب المؤمنين !

وطرقة أخرى عالية على هذه القلوب . غير موجهة إليها مباشرة . ولكن عن طريق التلويح .. طرقة تقرر المصير الرعيب المفزع المهين للمنافقين :

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا »

فى الدرك الأسفل .. إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التى تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون

Marfat.com

ولا يرتفعون . ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ! الثقلة التى تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين . والوقوف فى الحياة ذلك الموقف المهين : « مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ..

فهم كانوا فى الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين « فى الدرك الأسفل من النار » .. بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار فى الدنيا ، فأنى ينصرهم الكفار ؟

ثم يفتح لهم ـ بعد هذا المشهد المفزع ـ باب النجاة .. باب التوبة لمن أراد النجاة :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما » ..

وفى مواضع أخرى كان يكتفى بأن يقول : « إلا الذين تابوا وأصلحوا » .. فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله . ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله . لأنه يواجه نفوسا تذبذبت ، ونافقت ، وتولت غير الله . فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح ، على التجرد لله، والاعتصام به وحده ؛ وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة .. ليكون فى الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك. وفى الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد ..

بذلك تخف تلك الثقلة التى تهبط بالمنافقين فى الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض ، وتهبط بهم فى الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار .

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين، المعتزين بعزة الله وحده. المستعلين بالإيمان. المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان .. وجزاء المؤمنين ـ ومن معهم ـ معروف :

« وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما » ..

وبهذه اللمسات المنوعة ، يكشف حقيقة المنافقين فى المجتمع المسلم ، ويقلل من شأنهم ؛ وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ، ويحذرهم مصيره . ويفتح باب التوبة للمنافقين ؛ ليحاول من فيه منهم خير ، أن يخلص نفسه ، وينضم إلى الصف المسلم فى صدق وفى حرارة وفى إخلاص . .

* * *

Marfat.com

وأخيرا تجىء تلك اللمسة المجيبة ، الموحية المؤثرة العميقة . . أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع ، والأجر العظيم .. لتشعر قلوب البشر أن الله فى غنى عن عذاب العباد. فما به ـ سبحانه ـ من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب . وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق . وما به ـ سبحانه ـ من رغبة ذاتية فى عذاب الناس . . كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات ... وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله .. مع تجبيبهم فى الإيمان والشكر لله . وهو الذى يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس :

« ما يفعل الله بعذابكم ـ إن شكرتم وآمنتم ؟ ـ وكان الله شاكرا عليما » ..

نعم ! ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان .. إنها ليست شهوة التعذيب ، ولا رغبة التنكيل ؛ ولا التذاذ الآلام ، ولا إظهار البطش والسلطان .. تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا .. فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ؛ فهنالك الغفران والرضوان . وهناك شكر الله ـ سبحانه ـ لعبده . وعلمه ـ سبحانه ـ بعبده ..

وشكر الله ـ سبحانه ـ للعبد ، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة . . إنه معلوم أن الشكر من الله ـ سبحانه ـ معناه الرضى ، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب .. ولكن التعبير بأن الله ـ سبحانه ـ شاكر .. تعبير عميق الإيحاء !

وإذا كان الخالق المنشىء ، المنعم المتفضل ، الغنى عن العالمين .. يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم . . وهو غنى عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم . . إذا كان الخالق المنشىء ، المنعم المتفضل ، الغنى عن العالمين يشكر .: فماذا ينبغى للعباد المخلوقين المحدثين ؛ المغمورين بنعمة الله . . تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم ؟ !

ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التى ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب .

ألا إنها الإشارة المنيرة إلى معالم الطريق .. الطريق إلى الله الواهب المنعم ، الشاكر العليم ..

* * *

وبعد . . فهذا جزء واحد، من ثلاثين جزءا ، من هذا القرآن .. يضم جناحيه على مثل هذا

الحشد العجيب من عمليات البناء والترميم ؛ والتنظيف والتقويم . وينشىء فى عالم النفس ، وفى واقع المجتمع ، وفى نظام الحياة ، ذلك البنـــاء الضخم المنسق العريض . ويعلن مولد الإنسان الجديد ؛ الذى لا تعرف له البشرية من قبل ولا من بعد مثيلا ولا شبيها ، فى مثاليته وواقعيته . وفى نظافته وتطهره ، مع مزاولة نشاطه الإنسانى فى شتى الميادين .. هذا الإنسان الذى التقطه المنهج الربانى من صفح الجاهلية ، ودرج به فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . فى يسر . وفى رفق وفى لين . .

انتهى الجزء الخامس . ويليه الجزء السادس مبدوءا
بقوله تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول »

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء السادس

الطبعة الخامسة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

مزيدة ومنقحة

دار
احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة النساء وأول سورة المائدة

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء السادس مؤلف من شطرين : الشطر الأول تتمة سورة النساء ؛ التى بدأت فى أواخر الجزء الرابع ، واستغرقت الجزء الخامس كله ؛ وبقيتها فى هذا الجزء . . والشطر الثانى – وهو معظم هذا الجزء – من سورة المائدة .

وسنقصر الحديث – فى هذا الموضع – عن الشطر الأول من هذا الجزء ؛ ونؤجل الحديث عن شطره الثانى إلى موضعه ؛ لنستعرض « شخصية » سورة المائدة وجوها وموضوعاتها على المنهج الذى اتبعناه فى هذا الكتاب .. بعون من الله .

* * *

مضى بقية سورة النساء على منهج السورة الذى أوضحناه فى التقديم لها فى الجزء الرابع[1] ، والذى يحسن أن نشير إليه ملخصا هنا فى أخصر صورة :

إن هذه السورة تعالج بناء التصور الإسلامى الصحيح ، فى ضمير الجماعة المسلمة التى التقطها الإسلام من سفح الجاهلية ، ليرقى بها صعدا فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة ؛ وتخليص هذا الضمير من رواسب الجاهلية ، التى تغبش الصورة ! أو – كما قلنا هناك – محو الملامح الجاهلية وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة . .

ثم تعالج – على ضوء التصور الجديد – ضمير الأمة المسلمة ، وخلقها ، وتقاليدها الاجتماعية ، وتخلصه من رواسب الجاهلية فى الخلق والتقاليد ؛ كما خلصته من رواسب الجاهلية فى التصور والاعتقاد . وتنظم حياتها الاجتماعية ، وروابطها العائلية ، على أساس المنهج الربانى القويم .

وهى – فى أثناء هذا وذلك – تواجه العقائد المنحرفة ، وتواجه أصحاب هذه العقائد ، سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وتصحح هذه العقائد وتقرر وجه الحق فى الانحرافات التى تفسدها .

---

(١) ص ٢٠١ – ص ٢٢٩ من الجزء الرابع من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

ثم تخوض بالجماعة المسلمة معركة حامية مع أهل الكتاب بصفة عامة ، واليهود من أهل الكتاب بصفة خاصة . فهم الذين وقفوا للدعوة الجديدة منذ أن وصل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ، ومنذ أن تبين اليهود خطر هذه الدعوة الجديدة على كيانهم ووضعهم الممتاز فى يثرب ، ودعاويهم فى التفرد بالقرب من الله ، وأنهم شعب الله المختار ، ومن ثم حربهم للدعوة الجديدة بكل سلاح ! والسورة تكشف طبيعتهم ووسائلهم ، وتاريخهم مع أنبيائهم أنفسهم ، مما يصور موقفهم من دعوة الحق أيا كان ممثلها ، ولو كان هو نبيهم وقائدهم ومنقذهم !

كذلك تبين السورة للأمة المسلمة ـ بعد هذا كله ـ جسامة التبعة الملقاة على عاتقها ، وضخامة الدور المقدر لها ، وحكمة إعدادها وتطهيرها وتصفية رواسب الجاهلية فى ضميرها وفى حياتها ، وضرورة أخذها هذا الأمر بما يستحق من يقظة وقوة ، وأداء للتكاليف التى يتطلبها هذا الدور الضخم ، بما فى ذلك من جهاد فى عالم النفس وجهاد فى عالم الواقع ، وتضحيات ثقال..

وقد سارت السورة فى طريقها هذا ، فى كل حلقاتها الماضية ، وبقيتها فى هذا الجزء ، بقية من هذا المنهج ، على نفس الطريق ..

* * *

يبدأ هذا الجزء بطرف من تطهير النفس وتطهير المجتمع ، وإشاعة الثقة فى جو الجماعة المسلمة ، واستبعاد قالة السوء فيها ـ مع الانتصاف من الظلم ـ والحض على العفو والسماحة ، وتقرير أن الله لا يحب الجهر بالسوء ـ إلا من مظلوم ينتصف لظلمه ـ ومع هذا فإنه سبحانه يحب العفو عن السوء ، وهو « عفو » « قدير » .

ثم بيان لطبيعة التصور الإسلامى ، الذى يجعل دين الله واحدا ، ويجعل رسل الله موكبا يحمل هذا الدين الواحد ؛ ويجعل التفرقة بين الرسل ، والتفرقة بين ما جاءوا به كفرا صراحا.. هذا البيان يجىء بصدد التنديد باليهود ـ من أهل الكتاب ـ الذين ينكرون النبوة والأنبياء ـ بعد أنبيائهم ـ تعصبا وحقدا .

ومن هنا تبدأ جولة مع اليهود تكشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم : موسى ـ عليه السلام ـ مما يكشف عن طبيعة السوء فيهم ، وموقفهم تجاه الحق ودعوته أيا كان الداعى إلى هذا الحق ؛ ولو كان هو نبيهم الأكبر موسى . وكذلك موقفهم من عيسى عليه السلام

Marfat.com

Marfat.com

وأمه وإطلاق قالة السوء فيها ـ مما يكرهه الله ولا يحبه ـ فيبدو عندئذ موقفهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوما ومكشوفا ! وبمناسبة دعاوى اليهود على المسيح عليه السلام ، وتبجحهم بقتله ! يقرر القرآن حقيقة الأمر ، وطبيعة هذا الزعم . ويذكر كيف عاقب الله اليهود على ظلمهم وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل . . بحرمانهم من بعض الطيبات التى أحلت لهم فى الدنيا ، وبالعذاب الأليم الذى ينتظرهم فى الآخرة . مستثنيا الراسخين فى العلم والمؤمنين الذين عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه ..

ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتقرير أنها أمر طبيعى مألوف لا يثير عجبا ولا غرابة ولا استنكارا . إذ هو جاء على سنة الله فى إرسال الرسل للبشر ؛ من لدن نوح عليه السلام ؛ ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود .. وغيرهم ممن يقر اليهود برسالة بعضهم وينكرون رسالة بعضهم تعنتا وحقدا . وهو الأمر الطبيعى أن يرسل الله لعباده رسلا مبشرين ومنذرين .. « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. فهو أمر ضرورى ، فوق أنه طبيعى . .

وفى مقابل إنكار اليهود يقرر شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة . وكفى بالله شهيدا. ويتوعد الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله .. الذين كفروا وظلموا .. يتوعدهم ألا يغفر الله لهم وألا يهديهم سبيلا إلا سبيل جهنم خالدين فيها أبدا .. ويعقب على هذا بنداء للناس كافة ، وإعلانهم أن هذا الرسول قد جاءهم بالحق من ربهم ، ودعوتهم إلى الايمان ، وإلا فإن الله ما فى السماوات والأرض . وقد شهد بصحة هذه الرسالة ودعاهم إلى الايمان بها ، فهم إذن وما يختارون لأنفسهم بإزاء دعوة ممن له ما فى السماوات والأرض .

وهكذا تنتهى هذه الجولة مع اليهود من أهل الكتاب . وقد كشفت عن طبيعتهم ووسائلهم وعادة السوء فيهم من قديم ، وردت كيدهم بهذا الكشف ، وقررت كلمة الحق فى رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقامت الحجة على الناس بشهادة الله سبحانه .. فوق ما قررته من جسامة تبعة الرسل ، وأصحاب دعوة الحق ، فهى إقامة الحجة على الناس من جانب ، ومن الجانب الآخر أن أمر الناس كلهم معلق بأعناق الرسل والمؤمنين برسالتهم ، لينجو الناس

Marfat.com

من عقاب الله ؛ أو يستحقوه عن بينة .. وهى تبعة خطيرة جسيمة .

* * *

فإذا انتهت هذه الجولة مع اليهود ؛ وأنصف الله عيسى ابن مريم وأمه منهم ؛ وكذب دعاوى السوء اليهودية عن عيسى وعن مريم .. بدأت الجولة الثانية مع النصارى ـ أتباع عيسى عليه السلام ـ لتصحيح غلوهم فى أمر المسيح ـ عبد الله ونبيه ـ وكفهم عن هـذا الغلو ، وتقرير الحق فى شأنه : فهو عبد الله لا يستنكف أن يكون عبدا لله . وكذلك الملائكة ـ تصحيحا لمزاعمهم عن روح القدس ـ ونفى التثليث ونفى الأبوة عن الله سبحانه وتعالى ..

وفى ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامى الصحيح ، ويتمحض الأمر كله فى أن يكون: ألوهية وعبودية . . ألوهية الله وحده ؛ وعبودية كل من عداه . . وهى القاعدة الكبرى فى العقيدة الإسلامية ، والسمة البارزة ، والمقوم الأساسى ..

ومن ثم يجىء التبشير للمؤمنين ، والإنذار للكافرين المستنكفين عن العبودية لله ؛ ويجىء إعلان عام للناس كالذى ختمت به الجولة الأولى مع اليهود ، بأنه قد جاء للناس برهان من ربهم ونور مبين ، فلا حجة ولا شبهة ولا معذرة للمتخلفين .

* * *

وتختم السورة بآية تحتوى بقية فى أحكام المواريث فى حالة الكلالة . وقد سبق فى السورة حكم بعض الحالات . وهذه بقيتها .. وهى بقية من التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الجديد الذى جاء الإسلام ليقيم على أساسه حياة الجماعة المسلمة ؛ ويحولها ـ كما قلنا فى أول السورة ـ إلى أمة ، لها طابع الأمة المتميزة ونظامها وخصائصها المستقلة . لتؤدى دورها الضخم فى الحياة البشرية ؛ وفى المجتمع الإنسانى . دور القيادة والوصاية والتقويم .

وهكذا يبدو ـ من استعراض السورة كلها ، ثم استعراض هذا القطاع منها ـ أن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، يسير مع التهذيب الخلقى ، مع تصحيح العقيدة والتصور ، مع خوض المعركة مع الأعداء المتربصين بالجماعة المسلمة ، مع بيان ضخامة التبعة والدور الذى على هذه الجماعة أن تقوم به .. وأن القرآن ـ كتاب هذه الدعوة ودستور هذه الأمة ـ ينهض بهذا كله .. فى صورة شاملة كاملة متوازنة دقيقة . صورة تجعل من الحتم على كل من يريد إعادة بناء

هذه الأمة وإحياءها وبعثها ، لتنهض من جديد بتبعاتها ودورها ، أن يتخذ من هذا القرآن منهجا لدعوته ، ومنهجا لحركته ، ومنهجا لكل خطوة فى طريق الإحياء والبعث وإعادة البناء .. والقرآن حاضر لأداء دوره الذى أداه أول مرة . وهو خطاب الله الباقى للنفس البشرية فى كل أطوارها . لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .. كما يقول عنه أعرف الناس به ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى جاهد به الكفار والمنافقين وأهل الكتاب المنحرفين ؛ وأقام به هذه الأمة المتفردة فى تاريخ الناس أجمعين . .

« لا يُحِبُّ ٱللهُ ٱلجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ـ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ـ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً عَلِيماً * إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ ، أَوْ تَعفُوا عَنْ سُوءٍ ، فإِنَّ ٱللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا * أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا رَّحِيماً .

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَالُوا : أَرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا عَنْ ذٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ، وَقُلْنَا لَهُمُ : ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُلْنَا لَهُمْ : لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ٱللهِ ، وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ـ بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ـ * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴿١٥٦﴾

Marfat.com

وَقَوْلِهِمْ : إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ـ رَسُولَ ٱللهِ ـ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَا ـ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ـ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ ؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَـٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ ، وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ ، وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ، وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَـٰكِنِ ٱللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ . أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ . وَٱلْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرًا .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ، وَإِن تَكْفُرُوا ، فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ﴿١٧٠﴾

Marfat.com

لقد كان هذا القرآن ينشىء أمة جديدة . ينشئها من المجموعات المسلمة التى التقطها الإسلام من سفوح الجاهلية التى كانت تهيم فيها ؛ ليأخذ بيدها فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة ؛ وليسلمها ـ بعد أن تكمل نشأتها ـ قيادة البشرية ؛ ويحدد لها دورها الضخم فى هذه القيادة ..

ومن بين عوامل البناء تطهير ضمائر هذه الجماعة ؛ وتطهير جو المجتمع الذى تعيش فيه ؛ ورفع المستوى الخلقى والنفسى الذى تستوى عليه .

وحينما بلغت تلك الجماعة هذا المستوى ؛ تفوقت فى أخلاقها الفردية والاجتماعية ؛ بقدر تفوقها فى تصورها الاعتقادى ؛ على سائر أهل الأرض .. وعندئذ صنع الله بها فى الأرض ما قدر أن يصنعه ؛ وأقامها حارسة لدينه ومنهجه ؛ وقائدة للبشرية الضالة إلى النور والهدى ؛ وأمينة على قيادة البشرية وإرشادها . .

وحينما تفوقت فى هذه الخصائص تفوقت على كل أهل الأرض ؛ فكانت قيادتها للبشرية أمراً طبيعياً وفطرياً ؛ وقائماً على أسسه الصحيحة . . ومن هذا الوضع الممتاز تفوقت كذلك فى العلم والحضارة والاقتصاد والسياسة . وكان هذا التفوق الأخير ثمرة للتفوق الأول فى المستوى الاعتقادى والأخلاقى . وهذه هى سنة الله فى الأفراد والجماعات .

وطرف من هذا التطهير للنفس والمجتمع يتمثل فى هاتين الآيتين :

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ـ إلا من ظلم ـ وكان الله سميعاً عليما . إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً » ..

إن المجتمع شديد الحساسية ، وفى حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية . ورب كلمة عابرة لا يحسب قائلها حسابا لما وراءها ؛ ورب شائعة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس .. ولكن هذه وتلك تترك فى نفسية المجتمع وفى أخلاقه وفى تقاليده وفى جوه آثاراً مدمرة ؛ وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

والجهر بالسوء من القول ـ فى أية صورة من صوره ـ سهل على اللسان ما لم يكن هناك تحرج فى الضمير وتقوى لله . وشيوع هذا السوء كثيراً ما يترك آثارا عميقة فى ضمير المجتمع .. كثيراً ما يدمر الثقة المتبادلة فى هذا المجتمع فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالباً . وكثيراً

Marfat.com

ما يزين لمن فى نفوسهم استعداد كامن للسوء ، ولـكنهم يتحرجون منه ، أن يفعلوه لأن السوء قد أصبح ديدن المجتمع الشائع فيه ، فلا تحرج إذن ولا تقية ، وهم ليسوا بأول من يفعل ! وكثيراً ما يذهب بشاعة السوء بطول الألفة . فالإنسان يستقبح السوء أول مرة بشدة ؛ حتى إذا تـكرر وقوعه أو تكرر ذكره ، خفت حدة استقباحه والاشمئزاز منه ؛ وسهل على النفوس أن تسمع — بل أن ترى — ولا تثور للتغيير على المنكر .

ذلك كله فوق ما يقع من الظلم على من يتهمون بالسوء ويشاع عنهم — وقد يكونون منه أبرياء — ولـكن قالة السوء حين تنتشر ؛ وحين يصبح الجهر بها هيناً مألوفاً ، فإن البرىء قد يتقول عليه مع المسىء ؛ ويختلط البر بالفاجر بلا تحرج من فرية أو اتهام ؛ ويسقط الحياء النفسى والاجتماعى الذى يمنع الألسنة من النطق بالقبيح ؛ والذى يعصم الـكثيرين من الإقـدام على السوء .

إن الجهر بالسوء يبدأ فى أول الأمر اتهامات فردية — سباً وقذفا — وينتهى انحلالا اجتماعيا ؛ وفوضى أخلاقية ؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات ؛ وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ؛ وقد شاعت الاتهامات ؛ ولاكتها الألسنة بلا تحرج .

لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء . وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم ؛ فى حدود ما وقع عليه منه من الظلم !

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول — إلا من ظلم — » . .

فى هذه الحـالة يكون الوصف بالسوء — ويشمل ما تعبر عنه المصطلحات القانونية بالسب والقذف — انتصارا من ظلم ، ودفعا لعدوان ، وردا لسوء بذاته قد وقع بالفعل على إنسان بذاته ؛ وتشهيرا بالظلم والظالم فى المجتمع ؛ لينتصف المجتمع للمظلوم ؛ وليضرب على يد الظالم ؛ وليخشى الظالم عاقبة فعله ، فيتردد فى تكراره . . والجهر بالسوء عندئذ يكون محدد المصدر — من الشخص الذى وقع عليه الظلم — محدد السبب — فهو الظلم المعين الذى يصفه المظلوم — موجها إلى شخص بذاته هو الذى وقع منه الظلم . . عندئذ يكون الخير الذى يتحقق بهذا الجهر مبررا له ؛ ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير . .

إن الإسلام يحمى سمعة الناس — ما لم يظلموا — فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ؛ وأذن

Marfat.com

Marfat.com

للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه ؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء .

وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذى لا يطيق معه الظلم ؛ وحرصه على الأخلاق الذى لا يطيق معه خدشا للحياء النفسى والاجتماعى . .

ويعقب السياق القرآنى على ذلك البيان هذا التعقيب الموحى :

« وكان الله سميعا عليما » . .

ليربط الأمر فى النهاية بالله ، بعد ما ربطه فى البداية بحب الله وكرهه : « لا يحب الله الجهر بالسوء .. » . وليشعر القلب البشرى أن مرد تقدير النية والباعث ، وتقدير القول والاتهام ، لله ، السميع لما يقال ، العليم بما وراءه مما تنطوى عليه الصدور .

ثم لا يقف السياق القرآنى عند الحد السلبى فى النهى عن الجهر بالسوء ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابى عامة ؛ ويوجه إلى العفو عن السوء ؛ ويلوح بصفة الله سبحانه فى العفو وهو قادر على الأخذ ، ليتخلق المؤمنون بأخلاق الله سبحانه فيما يملكون وما يستطيعون :

« إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفوا قديرا » . .

وهكذا يرتفع المنهج التربوى بالنفس المؤمنة والجماعة المسلمة درجة أخرى . . فى أول درجة يحدثهم عن كراهة الله ـ سبحانه ـ للجهر بالسوء . ويرخص لمن وقع عليه الظلم أن ينتصف أو يطلب النصف ، بالجهر بالسوء فيمن ظلمه ، ومما وقع عليه من الظلم .. وفى الدرجة الثانية يرتفع بهم جميعا إلى فعل الخير ؛ ويرتفع بالنفس التى ظلمت ـ وهى تملك أن تنتصف من الظلم بالجهر ـ أن تعفو وتصفح ـ عن مقدرة فلا عفو بغير مقدرة ـ فترتفع على الرغبة فى الانتصاف إلى الرغبة فى السماحة ؛ وهى أرفع وأصفى . .

عندئذ يشيع الخير فى المجتمع المسلم إذا أبدوه . ويؤدى دوره فى تربية النفوس وتزكيتها إذا أخفوه ـ فالخير طيب فى السر طيب فى العلن ـ وعندئذ يشيع العفو بين الناس ، فلا يكون للجهر بالسوء مجال . على أن يكون عفو القادر الذى يصدر عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز ؛ وعلى أن يكون تخلقا بأخلاق الله ، الذى يقدر ويعفو :

« فإن الله كان عفوا قديرا »

Marfat.com

بعد ذلك يأخذ السياق فى جولة مع « الذين أوتوا الكتاب » بصفة عامة ! ثم ينتقل منها إلى اليهود فى شوط ، وإلى النصارى فى الشوط الآخر . . واليهود يجهرون بالسوء ـ إفكا وبهتانا ـ على مريم وعلى عيسى ـ ويأتى ذكر هذا الجهر فى ثنايا الجولة ؛ فترتبط هذه الجولة بذلك البيان الذى تتضمنه الآيتان السابقتان فى السياق .

والجولة كلها طرف من المعركة التى خاضها القرآن مع أعداء الجماعة المسلمة فى المدينة. والتى سلفت منها فى هذه السورة وفى سورتى البقرة وآل عمران أطراف أخرى . .

فنأخذ فى استعراضها هنا كما وردت فى السياق القرآنى :

* * *

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ؛ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ؛ ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ؛ وكان الله غفوراً رحيما » .

لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم ؛ وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلا عن تألهه ـ وينكرون رسالة محمد كذلك .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ؛ ويقرر التصور الإسلامى الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله ؛ بدون تفريق بين الله ورسله ؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً . وبهذا الشمول كان الإسلام هو « الدين » الذى لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذى يتفق مع وحدانية الله ؛ ومقتضيات هذه الوحدانية .

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضى توحيد دينه الذى أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس .. وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله فى الحقيقة ؛ وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية . فدين الله للبشر ومنهجه للناس ، هو هو لا يتغير فى أساسه كما أنه لا يتغير فى مصدره .

لذلك عبر السياق هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله (بأن يؤمنوا بالله ويكفروا

Marfat.com

بالرسل) وعمن يريدون التفرقة بين الرسل (بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم) عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم « الذين يكفرون بالله ورسله » ، وعد تفرقتهم بين الله ورسله ، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض ، كفراً بالله وبرسله .

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ .. الإيمان بالله إيمان بوحدانيته ـ سبحانه ـ ووحدانيته تقتضى وحدة الدين الذى ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها ـ كوحدة ـ على أساسه . ويقتضى وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ـ لا من عند أنفسهم ولا فى معزل عن إرادته ووحيه ـ ووحدة الموقف تجاههم جميعاً . . ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة . إلا بالكفر المطلق ؛ وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ! وكان جزاؤهم عند الله أن أعد لهم العذاب المهين .. أجمعين ..

« أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » ..

أما « المسلمون » فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادى على الإيمان بالله ورسله جميعا ؛ بلا تفرقة . فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ؛ وكل الديانات السماوية عندهم حق ـ مالم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله ، وإن بقى فيها جانب لم يحرف ، إذ أن الدين وحدة ـ وهم يتصورون الأمر ـ كما هو فى حقيقته ـ : إلها واحدا ، ارتضى للناس دينا واحدا ؛ ووضع لحياتهم منهجا واحداً ،وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد . وموكب الإيمان ـ فى حسهم ـ موصول ، يقوده نوح، إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ـ ونسبهم إلى هذا الموكب الموصول عريق؛ وهم حملة هذه الأمانة الكبرى ، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك .. لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام .. وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق . وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال.

وهذا هو « الإسلام » الذى لا يقبل الله غيره من أحد . وهؤلاء هم « المسلمون » الذين يستحقون الأجر من الله على ما عملوا ، ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصروا فيه :

« أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما » ..

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد فى توحيد العقيدة فى الله ورسله ، لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن لإلهه ـ سبحانه ـ كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظم ، غير

Marfat.com

متروك للتعدد والتصادم . ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس فى هذا الوجود أينما امتد بصره . ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعا فى موكب واحد ، يقف أمام صفوف الكفر ، وفى حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان .. ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صف أصحاب الاعتقادات المحرفة ـ ولو كان لها أصل سماوى ـ إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التى لم يدخلها انحراف ..

ومن ثم كان « الإسلام »هو « الدين ». وكان « المسلمون » « خير أمة أخرجت للناس» المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، العاملون بهذه العقيدة . لا كل من ولد فى بيت مسلم ، ولا كل من لاك لسانه كلمة الإسلام !

وفى ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض ، منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرقين للوحدة التى جمعها الله ، منكرين للوحدانية التى يقوم عليها الإيمان بالله .

* * *

وبعد تركيز تلك القاعدة الأساسية فى التصور الإسلامى عن حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر، فيما يتعلق بالرسل والرسالات .. يأخذ فى استعراض بعض مواقف اليهود فى هذا المجال ، وفى مجال الجهر بالسوء الذى بدئ به هذا الدرس ، منددا بموقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وتعنتهم فى طلب الآيات والأمارات منه ، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ثم مع رسول الله من بعده عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه مريم ، فإذا هم جبلة واحدة فى أجيالهم المتتابعة .. والسياق يوحد بين الجيل الذى يواجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجيل الذى واجه عيسى عليه السلام... والجيل الذى واجه موسى كذلك من قبل ، ليؤكد هذا المعنى ، ويكشف عن هذه الجبلة :

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء.. فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ؛ فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم

ادخلوا الباب سجدا ؛ وقلنا لهم : لا تعدوا فى السبت ؛ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف ـ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ـ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ! وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ؛ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم ، إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ـ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا ـ وقد نهوا عنه ـ وأكلهم أموال الناس بالباطل ؛ وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » ..

لقد وقف اليهود فى الجزيرة من الإسلام ونبى الإسلام ذلك الموقف العدائى المتعنت المكشوف ، وكادوا له ذلك الكيد المبيت المستمر العنيد ، الذى وصفه القرآن تفصيلا ، واستعرضنا ألوانا منه فى سورتى البقرة وآل عمران ، وفى هذه السورة كذلك من قبل ـ فى الجزء الخامس ـ وهذا الذى تقصه الآيات هنا لون آخر . .

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بكتاب من السماء .. كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسما يلمسونه بأيديهم :

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء » :

ويتولى الله ـ سبحانه ـ الإجابة عن نبيه . ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ـ فى مواجهة اليهود ـ صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى ـ عليه السلام ـ الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ؛ ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد !

إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم ؛ وليست طابع هذا الجيل وحده منهم ، إنما هى جبلتهم من قديم .

إنهم هم هم من عهد موسى ـ نبيهم وقائدهم ومنقذهم ـ إنهم هم هم غلظ حس فلا يدركون إلا المحسوسات .. وهم هم تعنتا وإعناتا فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط . . وهم هم كفراً

Marfat.com

وغدراً فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم ـ لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك ـ وهم هم قحة وافتراء ؛ فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول ؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر .. وهم هم طمعاً فى عرض الدنيا ؛ وأكلا لأموال الناس بالباطل ؛ وإعراضاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب . .

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم ؛ وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها ، على ما كان يقتضيه للوقف لمواجهة خبث الكيد اليهودى للإسلام ونبى الإسلام فى ذلك الأوان . . وهو هو خبث الكيد الذى ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن ..

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء » ...

فلا عليك من هذا التعنت ؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه :

« فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة » .

ولم تبلغ الآيات البينات التى أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن تلمس حسهم وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام ؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله ـ سبحانه ـ عياناً ! وهو مطلب طابعه التبجح الذى لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان ؛ أو فيه استعداد للإيمان .

« فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » ..

ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم ؛ وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربه ؛ كما ورد فى السورة الأخرى « فلما أخذتهم الرجفة ، قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة . إنا هدنا إليك ...» .

« ثم اتخذوا العجل ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ » .

عجل الذهب ، الذى صاغه لهم السامرى ، مما كانوا قد أخذوه ـ حيلة ـ من نساء المصريين وهم خارجون من مصر ـ فإذاهم يعكفون عليه ؛ ويتخذونه إلهاً ، وهو عنه فى مناجاة ربه ، فى الموعد الذى حدده له ، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور .

Marfat.com

« فعفونا عن ذلك » ..

ولـكن اليهود هم اليهود . لا يفلح معهم إلا القهر والخوف :

وآتينا موسى سلطاناً مبيناً . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم . وقلنا لهم: ادخلوا الباب سجداً. وقلنا لهم : لا تعدوا فى السبت . وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » . .

والسلطان الذى آتاه الله موسى هو ـ فى الغالب ـ الشريعة التى تضمنتها الألواح ، فشريعة الله سلطان من الله ؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان ؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب . لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين، التى يسنها البشر لأنفسهم ، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد . فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع ؛ ولها فى النفس مهابة وخشية . .

ولـكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما فى الألواح . . وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الغليظة . إذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم ؛ تهددهم بالوقوع عليهم ؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد ؛ وما كتب عليهم من التكاليف فى الألواح . . عندئذ فقط استسلموا ؛ وأخذوا العهد ؛ وأعطوا الميثاق . . ميثاقاً غليظاً . . مؤكداً وثيقاً . . يذكره ـ بهذه الصفة ـ ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، وغلظ القلب الذى فى صدورهم ، ثم يعطى ـ إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الـكريم فى التعبير بالتصوير ، وبالتخييل الحسى والتجسيم(١) .

وكان فى هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سجداً . وأن يعظموا السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيدا .

ولـكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم ؛ وغياب القهر لهم ، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ، لأنها مغلفة دون كل قول ! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التى يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين ـ فى مواجهة اليهود ـ فى سياق هذه الآيات . .

(١) يراجع كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

Marfat.com

« فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف . . . »

وعند قولهم : « قلوبنا غلف » . . وهى القولة التى كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إما تيئيساً له من إيمانهم واستجابتهم ، وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم ، وتبجحا بالتكذيب وعدم الإصغاء ، وإما هذا وذلك معاً . . عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم :

« بل طبع الله عليها ـ بكفرهم ـ فلا يؤمنون إلا قليلا ـ »

فهى ليست مغلفة بطبعها . إنما هم كفرهم جر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم ، فإذا هى صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منهم الإيمان ، إلا قليلا ، ممن لم يستحق بفعله ، أن يطبع الله على قلبه . أى أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه ، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه . وهم قلة قليلة من اليهود . كعبد الله ابن سلام ، وثعلبة ابن سعية ، وأسد ابن سعية ، وأسد ابن عبيد الله . .

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب ، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التى استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم فى الدنيا ، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم ، لتكون فى انتظارهم فى الآخرة !

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله . . . »

ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم . فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق ـ وما يقتل نبى بحق أبداً فهى حال لتقرير الواقع ـ وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيما . وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذى لا يقوله إلا اليهود ! فرموها بالزنا مع يوسف النجار ـ لعنة الله عليهم ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون : قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله !

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليها ، وتقرير الحق فيها :

Marfat.com

« وما قتلوه وما صلبوه ، ولـكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ؛ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما » ..

إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يخبط فيها اليهود ـ كما يخبط فيها النصارى بالظنون ـ فاليهود يقولون : إنهم قتلوه ويسخرون من قوله : إنه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية ! والنصارى يقولون : إنه صلب ودفن ، ولـكنه قام بعد ثلاثة أيام . و « التاريخ » يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له فى حساب !

وما من أحـد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين .. فلقد تتابعت الأحداث سراعا ؛ وتضاربت الروايات وتداخلت فى تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين .. إلا ما يقصه رب العالمين ..

والأناجيل الأربعة التى تروى قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته .. كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح ؛ كانت كلها اضطهادا لديانته ولتلاميـذه يتعذر معه تحقيق الأحداث فى جو السرية والخوف والتشريد .. وقد كتبت معها أناجيل كثيرة . ولـكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثانى للميلاد ؛ واعتبرت رسمية ، واعترف بهـا ؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات !

ومن بين الأناجيل التى كتبت فى فترة كتابة الأناجيل الـكثيرة : إنجيل برنابا . وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة ، فى قصة القتل والصلب ، فيقول :

« ولما دنت الجنود مع يهوذا ، من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جم غفير . فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياما . فلما رأى الخطر على عبده ، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل ، . سفراءه . . أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائـكة الاطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه فى السماء الثالثة ، فى صحبة الملائكة التى تسبح إلى الأبد . . ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أُصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياما . فأنى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيهاً بيسوع . حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان

المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت ياسيدى معلمنا . أنسيتنا الآن ؟ ... إلخ »[1] .

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة ـ التى حدثت فى ظلام الليل قبل الفجر ـ ولا يجد المختلفون فيها سندا يرجح رواية على رواية .

« وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه . مالهم به من علم إلا اتباع الظن » ..

أما القرآن فيقرر قراره الفصل :

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

« وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما » ..

ولا يدلى القرآن بتفصيل فى هذا الرفع أكان بالجسد والروح فى حالة الحياة ؟ أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين . وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه .

لا يدلى القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة ؛ إلا ما ورد فى السورة الأخرى من قوله تعالى « ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى » .. وهذه كتلك لا تعطى تفصيلا عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفى وموعده .. ونحن ـ على طريقتنا فى ظلال القرآن ـ لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال ؛ ولا أن نضرب فى أقاويل وأساطير ؛ ليس لدينا من دليل عليها ، وليس لنا إليها سبيل . .

ونعود من هذا الاستطراد ، مع عودة السياق القرآنى إلى بقية هذا الاستدراك :

« وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ؛ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » .

وقد اختلف السلف فى مدلول هذه الآية ، باختلافهم فى عائد الضمير فى « موته » فقال جماعة : وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته ـ أى عيسى ـ وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة .. وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته . . أى موت الكتابى ـ وذلك على القول بأن الميت ـ وهو فى سكرات الموت ـ يتبين له الحق ، حيث لا ينفعه أن يعلم !

ونحن أميل إلى هذا القول الثانى ؛ الذى ترشح له قراءة أبىّ بمن « إلا ليؤمنن به قبل موتهم » . . فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير ؛ وأنه أهل الكتاب .. وعلى هذا الوجه

---

(١) نقلا عن كتاب : « محاضرات فى النصرانية » . للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

Marfat.com

يكون المعنى : أن اليهود الذين كفروا بعيسى ـ عليه السلام ـ وما زالوا على كفرهم به ، وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه ؛ ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولكن حين لا ينفعه إيمان .. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً .

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب . ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود ؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم فى الدنيا والآخرة :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه . وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما » . .

فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم هـذه المنكرات الجديدة : الظلم . والصد الكثير عن سبيل الله . فهم ممعنون فيه ودائبون عليه . وأخذهم الربا ـ لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه ـ فقد نهوا عنه فأصروا عليه اوأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وبغيره من الوسائل .

بسبب من هذه المنكرات ، ومما أسلفه السياق منها .. حرمت عليهم طيبات كانت حلالا لهم وأعد الله للكافرين منهم عذابا أليما .

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم ؛ وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم ؛ ودمغهم بالتمنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم ؛ ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء فى حق الأنبياء والصالحين . بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود فى الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغى أن تعرفه الأمة المسلمة فى كل حين ـ عن طبيعة اليهود وجبلتهم ، ووسائلهم وطرائقهم ؛ ومدى وقوفهم للحق فى ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم . فهم أعداء للحق وأهله ، وللهـدى وحملته . فى كل أجيالهم وفى كل أزمانهم . مع أصدقائهم ومع أعدائهم .. لأن جبلتهم عدوة للحق فى ذاته ؛ جاسية قلوبهم ، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم . .

Marfat.com

Marfat.com

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ، ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى فى المدينة . فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته فى أمرهم نصح لها ؛ وإذا استرشدت به أرشدها . وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها فى شأن يهود ، فدانت لها رقابهم . . ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هى لليهود ، كما رأيناها تتجمع فتلبها منهم الشرذمة الصغيرة ، وهى غافلة عن كتابها .. القرآن.. شاردة عن هديه ، ملقية به وراءها ظهرياً ! متبعة قول فلان وفلان !! وستبقى كذلك غارقة فى كيد يهود وقهر يهود ، حتى تثوب إلى القرآن ..

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود ، حتى ينصف القليل المؤمن منهم ؛ ويقرر حسن جزائهم ، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ فى العلم وهو الإيمان :

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك . والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما » . .

فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله . كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد ..

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقا إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور ، لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يومذاك ؛ كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين . فالعلم السطحى كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة .. ونحن نشهد هذا فى كل زمان . فالذين يتعمقون فى العلم ، ويأخذون منه بنصيب حقيقى ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ؛ أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا ، وذا إرادة واحدة ، وضعت ذلك الناموس الواحد .. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم ، وتتصل أرواحهم بالهدى .. أما الذين يتناوشون المعلومات

ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحى ـ علامات الاستفهام . وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق .. وكلاهما هو الذى لا يجد فى نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان ، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التى جاءت من عند ديان واحد ، على أيدى موكب واحد متصل من الرسل ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد ورد فى التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعنى ـ أول من تعنى ـ أولئك النفر من اليهود ، الذين استجابوا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكرنا أسماءهم من قبل ، ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدى منهم لهذا الدين ، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير..[1]

ويضم السياق القرآنى هؤلاء وهؤلاء إلى موكب المؤمنين ، الذين تعينهم صفاتهم :

« والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ،والمؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وهى صفات المسلمين التى تميزهم : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالله واليوم الآخر.. وجزاء الجميع ما يقرره الله لهم .

« أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » ..

ونلاحظ أن « المقيمين الصلاة » تأخذ إعرابا غير سائر ما عطفت عليه . وقد يكون ذلك لإبراز قيمة إقامة الصلاة فى هذا الموضع على معنى ـ وأخص المقيمين الصلاة ـ ولها نظائر فى الأساليب العربية وفى القرآن الكريم ، لإبراز معنى خاص فى السياق له مناسبة خاصة . وهى هكذا فى سائر المصاحف وإن كانت قد وردت مرفوعة : « والمقيمون الصلاة » فى مصحف عبد الله ابن مسعود .

* * *

ويستطرد السياق فى مواجهة أهل الكتاب ـ واليهود منهم فى هذا الموضع خاصة ـ وموقفهم من رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزعمهم أن الله لم يرسله ، وتفريقهم بين الرسل ، وتمنتهم

---

(١) ونستطيع أن نذكر منهم ـ ولا نزكى على الله أحداً ـ فى الزمن الحديث « محمد أسد » النمساوى ، وكان اسمه ليوبولد فايس . وقد اهتدى وأسلم ، وسمى نفسه محمد أسد . وهو صاحب كتاب : الإسلام على مفترق الطرق .

Marfat.com

وهم يطلبون أمارة على رسالته : كتابا ينزله عليهم من السماء .. فيقرر أن الوحى للرسول ليس بدعا ، وليس غريبا ، فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعا ، من عهد نوح إلى عهد محمد . وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ؛ اقتضت هذا رحمة الله بعباده ، وأخذه الحجة عليهم ، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب .. وكلهم جاءوا بوحى واحد ، لهدف واحد ؛ فالتفرقة بينهم تعنت لا يستند إلى دليل . . وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد - وكفى به شاهدا - والملائكة يشهدون .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما .. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزا حكيما » . .

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشرى الموصول ، ورسالة واحدة يهدى واحد للإنذار والتبشير .. موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر : نوح . وإبراهيم . وإسماعيل . وإسحاق . ويعقوب . والأسباط . وعيسى . وأيوب . ويونس . وهارون وسليمان . وداود . وموسى ... وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى القرآن ، وممن لم يقصصهم عليه .. موكب من شتى الأقوام والأجناس ، وشتى البقاع والأرضين. فى شتى الآونة والأزمان . لا يفرقهم نسب ولا جنس ، ولا أرض ولا وطن . ولا زمن ولا بيئة . كلهم آت من ذلك المصدر الكريم . وكلهم يحمل ذلك النور الهادى . وكلهم يؤدى الإنذار والتبشير . وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور .. سواء منهم من جاء لعشيرة . ومن جاء لقوم . ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر .. ثم من جاء للناس أجمعين : محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين .

كلهم تلقى الوحى من الله . فما جاء بشىء من عنده . وإذا كان الله قد كلم موسى تكليما فهو لون من الوحى لا يعرف أحد كيف كان يتم . لأن القرآن - وهو المصدر الوحيد الصحيح الذى لا يرقى الشك إلى صحته - لم يفصل لنا فى ذلك شيئا . فلا نعلم إلا أنه كان كلاما . ولكن ما طبيعته ؟ كيف تم ؟ بأية حاسة أو قوة كان موسى يتلقاه ؟ ... كل ذلك غيب من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن . وليس وراء القرآن - فى هذا الباب - إلا أساطير لا تستند إلى برهان .

Marfat.com

أولئك الرسل ـ من قص الله على رسوله منهم ومن لم يقصص ـ اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان ؛ وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب .. كل ذلك :

« لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ..

ولله الحجة البالغة فى الأنفس والآفاق ؛ وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق . ولكنه ـ سبحانه ـ رحمة منه بعباده ، وتقديرا لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التى أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل « مبشرين ومنذرين » يذكرونهم ويبصرونهم ؛ ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التى تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق .

« وكان الله عزيزا حكيما » ..

عزيزا : قادرا على أخذ العباد بما كسبوا . حكيما : يدبر الأمر كله بالحكمة ويضع كل أمر فى نصابه .. والقدرة والحكمة لهما عملهما فيما قدره الله فى هذا الأمر وارتضاه ..

* * *

ونقف من هذه اللفتة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثا على سبيل الاختصار الذى لا يخرج بنا من الظلال .

نقف منها : أولا : أمام قيمة العقل البشرى ووظيفته ودوره فى أخطر قضايا « الإنسان » قضية الإيمان بالله ؛ التى تقوم عليها حياته فى الأرض من جدورها ؛ بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها ؛ كما يقوم عليها مآله فى الآخرة وهى أكبر وأبقى .

لو كان الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها ، يعلم أن العقل البشرى ، الذى وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان فى بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته ، فى دنياه وآخرته ، لو كله إلى هذا العقل وحده ؛ يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذى تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحق والصواب ؛

Marfat.com

ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ؛ ولما جعل حجته على عباده هى رسالة الرسل إليهم ؛ وتبليغهم عن ربهم ؛ ولما جعل حجة الناس عنده ـ سبحانه ـ هى عدم مجىء الرسل إليهم : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. ولكن لما علم الله ـ سبحانه ـ أن العقل الذى آتاه للانسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى ـ بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط ـ وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ؛ وينجى صاحبه من سوء المآل فى الدنيا والآخرة .. لما علم الله ـ سبحانه ـ هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للناس بالرسل ، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . . وهذه تكاد تكون إحدى البديهيات التى تبرز من هذا النص القرآنى .. فإن لم تكن بديهية فهى إحدى المقتضيات الحتمية . .

إذن . . ما هى وظيفة هذا العقل البشرى ؛ وما هو دوره فى قضية الإيمان والهدى ؛ وفى قضية منهج الحياة ونظامها ؟

إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول . ومهمة الرسول أن يبلغ ، ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام . وينبه العقل الإنسانى إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ؛ وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التى ينهض عليها منهج الحياة العملية ، المؤدى إلى خير الدنيا والآخرة .

وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض ـ بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ؛ وبعد أن يفهم المقصود بها : أى المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص ـ ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها ـ بعد إدراك مدلولها ، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له ـ ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان .. فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها . .

إن هذه الرسالة تخاطب العقل . . بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر

Marfat.com

Marfat.com

الصحيح .. لابمعنى أنه هو الذى يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها . ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفا له أو غريبا عليه . .

إن دور العقل ـ فى هذا الصدد ـ هو أن يفهم ما الذى يعنيه النص . وما مدلوله الذى يعطيه حسب معانى العبارة فى اللغة والاصطلاح . وعند هذا الحد ينتهى دوره . . إن المدلول الصحيح للنص لايقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل . فهذا النص من عند الله ، والعقل ليس إلها يحكم بالصحة أو البطلان ، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله .

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير . . سواء ممن يريدون تأليه العقل البشرى فيجعلونه هو الحكم فى صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة . . أو ممن يريدون إلغاء العقل ، ونفى دوره فى الإيمان والهدى . . والطريق الوسط الصحيح هو الذى بيناه هنا . . من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها ؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر فى هذه المقررات ، وفى شؤون الحياة كلها . فإذا أدرك مقرراتها ـ أى إذا فهم ماذا يعنى النص ـ لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ . . فهى لاتكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها . وهى كذلك لاتبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات ، وفق مفهوم نصوصها .. مناقشتها ليقبلها أو يرفضها . ليحكم بصحتها أو خطئها .. وقد علم أنها جاءته من عند الله . الذى لايقص إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير .

والمنهج الصحيح فى التلقى عن الله ، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة ـ بعد أن يدرك المقصود بها ـ بمقررات له سابقة عليها ؛ كونها لنفسه من مقولاته « المنطقية » ! أو من ملاحظاته المحدودة ؛ أو من تجاربه الناقصة . . إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ، ويكون منها مقرراته هو ! فهى أصح من مقرراته الذاتية ؛ ومنهجها أقوم من منهجه الذاتى ـ قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة ـ ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين ـ متى صح عنده أنها من الله ـ إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص !

. . إن العقل ليس إلها ، ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله . .

إن له أن يعارض مفهوما عقليا بشريا للنص بمفهوم عقلى بشرى آخر له . . هذا مجاله ،

Marfat.com

ولا حرج عليه فى هذا ولا حجر ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام المتعددة . وحرية النظر ـ على أصوله الصحيحة وبالضوابط التى يقررها الدين نفسه ـ مكفولة للعقول البشرية فى هذا المجال الواسع . وليس هنالك من هيئة ، ولا سلطة ، ولا شخص ، يملك الحجر على العقول ، فى إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه ـ متى كان قابلا لأوجه الرأى المتعددة ، ومتى كان النظر فى حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح ، المأخوذ من مقررات الدين ـ وهذا كذلك معنى أن هذه الرسالة تخاطب العقل . .

إن الإسلام دين العقل . . نعم . . بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ؛ ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان . ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ؛ ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة ؛ وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة . ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التى تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه . . فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو عدم التسليم بها فهو كافر .. وليس هو حكما فى صحتها أو بطلانها . وليس هو مأذونا فى قبولها أو رفضها ، كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلها ، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ، ويختار منها ما يشاء ، ويترك منها ما يشاء . . فهذا هو الذى يقول الله عنه : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ » ويرتب عليه صفة الكفر ، ويرتب عليه كذلك العقاب ..

فإذا قرر الله ـ سبحانه ـ حقيقة فى أمر الكون ، أو أمر الإنسان ، أو أمر الخلائق الأخرى . أو إذا قرر أمرا فى الفرائض ، أو فى النواهى .. فهذا الذى قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه . متى أدرك المدلول المراد منه . .

إذا قال الله سبحانه « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » .. « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى » .. « والله خلق كل دابة من ماء » . . « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » .. إلى آخر ما قال ـ سبحانه ـ عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء ..

فالحق هو ما قال . وليس للعقل أن يقول ـ بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التى تنشئها ـ إننى لاأجد هذا فى مقرراتى ، أو فى علمى ، أو فى تجاربى . . فكل ما يبلغه العقل فى هذا معرض للخطأ والصواب . وما قرره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الحق والصواب .

وإذا قال الله سبحانه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » . . « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . . . » . . « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن . . » . . إلى آخر ماقال فى شأن منهج الحياة البشرية فالحق هو ماقال ـ سبحانه ـ وليس للعقل أن يقول : ولكننى أرى المصلحة فى كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله ، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس .. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب ، وتدفع إليه الشهوات والنزوات . . وما يقرره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الصحة والصلاح . .

وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات ، أو من منهج الحياة ونظامها ، سواء فى موقف العقل إزاءه . . متى صح النص ، وكان قطعى الدلالة ؛ ولم يوقت بوقت . . فليس للعقل أن يقول : آخذ فى العقائد والشعائر التعبدية ؛ ولكنى أرى أن الزمن قد تغير فى منهج الحياة ونظامها .. فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته . فما دام النص مطلقا فإنه يستوى زمان نزوله وآخر الزمان .. احترازا من الجرأة على الله ، ورمى علمه بالنقص والقصور ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . . إنما يكون الاجتهاد فى تطبيق النص العام على الحالة الجزئية ؛ لا فى قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أى مقولة من مقولات العقل فى جيل من الأجيال !

وليس فى شىء من هذا الذى نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره فى الحياة البشرية . . فإن المدى أمامه واسع فى تطبيق النصوص على الحالات المتجددة ـ بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح ـ والمدى أمامه أوسع فى المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته ؛ وطبيعة الكائنات فيه والأحياء ؛ والانتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء ؛ وتنمية الحياة وتطورها

Marfat.com

Marfat.com

وترقيتها ـ فى حدود منهج الله ـ لا كما تبتغى الشهوات والأهواء التى تضل العقل وتغطى الفطرة بالركام[1] ! .

* * *

ونقف من هذه اللفتة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقفة أخرى :

نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم ـ تجاه البشرية كلها . . وهى تبعة ثقيلة بمقدار ما هى عظيمة . .

إن مصائر البشرية كلها فى الدنيا وفى الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم . فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم .. فى الدنيا والآخرة .

إنه أمر هائل عظيم . . ولكنه كذلك . . ومن ثم كان الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ يحسون بجسامة ما يكلفون . وكان الله ـ سبحانه ـ يبصرهم بحقيقة العبء الذى ينوطه بهم . . وهذا هو الذى يقول الله عنه لنبيه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . . ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . . إناسنلقى عليك قولا ثقيلا » . . « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . . وهذا هو الذى يُشعر به نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يأمره أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول : « قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا . . إلا بلاغاً من الله ورسالاته » . . « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » . .

إنه الأمر الهائل العظيم . . أمر رقاب الناس . . أمر حياتهم ومماتهم . . أمر سعادتهم وشقائهم . . أمر ثوابهم وعقابهم . . أمر هذه البشرية ، التى إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها

---

(١) يراجع كذلك فصل « الربانية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول منه .

Marfat.com

وتتبعها فتسعد فى الدنيا والآخرة . وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى فى الدنيا والآخرة. وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها ، وتكون تبعة شقائها فى الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ !

فأما رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل . . وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها ـ مع هذا ـ قدوة ممثلة فى العمل ، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق . . سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك ، وضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم فى الدين . كما صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين . بما أنه المبلغ الأخير . وبما أن رسالته هى خاتمة الرسالات . فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان . إنما أزالها كذلك بالسنان « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ..

وبقى الواجب الثقيل على من بعده .. على المؤمنين برسالته .. فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجىء بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبليغ هذه الأجيال منوط ـ بعده ـ بأتباعه . ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة ـ تبعة إقامة حجة الله على الناس ؛ وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا ـ إلا بالتبليغ والأداء .. على ذات المنهج الذى بلغ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأدى .. فالرسالة هى الرسالة ؛ والناس هم الناس .. وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات .. وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة ؛ وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة .. الموقف هو الموقف ؛ والعقبات هى العقبات ، والناس هم الناس .

ولا بد من بلاغ ، ولا بد من أداء . بلاغ بالبيان . وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون . وبلاغ بإزالة العقبات التى تعترض طريق الدعوة ؛ وتفتن الناس بالباطل وبالقوة .. وإلا فلا بلاغ ولا أداء ..

إنه الأمر المفروض الذى لا حيلة فى النكوص عن حمله .. وإلا فهى التبعة الثقيلة . تبعة ضلال البشرية كلها ؛ وشقوتها فى هذه الدنيا ، وعدم قيام حجة الله عليها فى الآخرة ! وحمل التبعة فى هذا كله ، وعدم النجاة من النار ..

فمن ذا الذى يستهين بهذه التبعة ؟ وهى تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟!

إن الذى يقول : إنه « مسلم » إما أن يبلغ ويؤدى هكذا . وإلا فلا نجاة له فى دنيا ولا فى أخرى .. إنه حين يقول : إنه « مسلم » ثم لا يبلغ ولا يؤدى .. كل ألوان البلاغ والأداء هذه، إنما يؤدى شهادة ضد الإسلام الذى يدعيه ! بدلا من أداء شهادة له ، تحقق فيه قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١)

وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته . ثم بيته وعائلته . ثم بأسرته وعشيرته ، صورة واقعية من الإسلام الذى يدعو إليه .. وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة ـ بعد دعوة البيت والأسرة والعشيرة ـ إلى تحقيق الإسلام فى حياتها كلها .. الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. وتنتهى شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التى تضل الناس وتفتنهم من أى لون كانت هذه العوائق .. فإذا استشهد فى هذا فهو إذن « شهيد » أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه .. وهذا وحده هو « الشهيد » .

* * *

وفى نهاية المطاف نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته ؛ ممثلة فى علمه ، وعدله ، ورعايته ، وفضله ، ورحمته وبره .. بهذا الكائن الإنسانى الذى يجحد ويطغى ..

نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن ؛ وما أودعه من القوى والطاقات ؛ وما ركب فى كينونته من استعدادات الهدى والضلال . وما رتبه على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله وحده .. على عظمة هذه الأداة التى وهبها له ؛ وعلى كثرة ما فى الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموجبات الإيمان . فلقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تنوشها الشهوات والنزوات ؛ وأن الدلائل المبثوثة فى تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى ، ويحجبها الجهل والقصور .. ومن ثم لم يكل إلى العقل البشرى تبعة الهدى والضلال ـ إلا بعد الرسالة والبيان ـ ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة ، إنما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذى يقرره له الله .. ثم ترك له ماوراء ذلك ـ وهو ملك عريض ـ يبدع فيه ما شاء ، ويغير فيه ما شاء ، ويركب فيه ما شاء ، ويحلل فيه ما شاء . منتفعا بتسخير الله لهذا الملك كله لهذا الإنسان وهو الذى يخطىء عقله ويصيب ، وتعثر قدمه وتستقيم على الطريق !

---

(١) يراجع كتاب : « شهادة الحق » للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

ونقف أمام عظمة العدل الذى يرتب للناس حجة على الله ـ سبحانه ـ لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق ، ووحدانيته ، وتدبيره وتقديره ، وقدرته وعلمه . . ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق فى الكون والنفس . . ومع هبة العقل الذى يملك أن يحصى الشواهد ويستنبط النتائج .. ولكن الله ـ سبحانه ـ بما يعلم من عوامل الضعف التى تطرأ على هذه القوى كلها ، فتعطلها ، أو تفسدها ، أو تطمسها ، أو تدخل فى حكمها الخطأ والشطط ، قد أعفى الناس من حجية الكون ، وحجية الفطرة ، وحجية العقل ، مالم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها . وليضبطوا بموازين الحق الإلهى الممثل فى الرسالة ، هذه الأجهزة ، فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهى .. وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع ؛ أو تسقط حجتها وتستحق العقاب ..

ونقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرحمة والبر بهذا المخلوق الذى يكرمه الله ويختاره ، على ما يعلم به من ضعف ونقص ؛ فيكل إليه هذا الملك العريض . . خلافة الأرض . . وهو بالقياس إليه ملك عريض ! وإن كان فى ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع فى ملكه الكبير !

ثم تشاء رعايته وفضله ورحمته وبره ، ألا تدعه لما أودع فى كينونته من فطرة هادية ولكنها تطمس ؛ ومن عقل هاد ولكنه يضل ؛ بل يتفضل عليه ربه فيرسل إليه الرسل تترى .. وهو يكذب ويعاند ؛ ويشرد ويتأى ؛ فلا يأخذه ربه بأخطائه وخطاياه ؛ ولا يحبس عنه بره وعطاياه ، ولا يحرمه هداه على أيدى رسله الهداة .. ثم لا يأخذه بالعقاب فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تبلغه الرسل ؛ فيعرض ويكفر ، ويموت وهو كافر لا يتوب ولا ينيب ..

ومن عجب أن يأتى على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه .. استغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره .. استغنى عن هدايته ودينه ورسله . . استغنى بالأداة التى علم ربه أنها لا تغنيه ـ ما لم تقوّم بمنهج الله ـ فلم يكتب عليه عقابا إلا بعد الرسالة والبيان .. فيتمثل لنا الطفل الذى يحس ببعض القوة فى ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التى تسنده ، ليتكفأ ويتعثر !

Marfat.com

Marfat.com

غير أن الطفل فى هذا المثال أرشد وأطوع للفطرة . إذ أنه بمحاولة الاستقلال عن اليد التى تسنده يجيب داعى الفطرة فى استحثاث طاقات كامنة فى كيانه ؛ وإنماء قدرات ممكنة النماء ؛ وتدريب عضلات وأعصاب تنمو وتقوى بالتدريب .. أما إنسان اليوم الذى يبعد عنه يد الله ، ويتنكب هداه ، فإن كينونته ـ بكل ما يكمن فيها من قوى ـ يعلم الله أنها لا تشتمل على قوة مكنونة تملك الاستغناء عن يد الله وهداه . وقصارى ما فى قواه أنها ترشد وتضبط وتستقيم برسالة الله . وتضل وتختل وتضطرب إذا هى استقلت بنفسها ، وتنكبت هداه !

وخطأ وضلال ـ إن لم يكن هو الخداع والتضليل ـ كل زعم يقول : إن العقول الكبيرة كانت حرية أن تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة .. فالعقل ينضبط ـ مع الرسالة ـ بمنهج النظر الصحيح ؛ فإذا أخطأ بعد ذلك فى التطبيق كان خطؤه كخطأ الساعة التى تضبط ، ثم تغلبها عوامل الجو والمؤثرات ، وطبيعة معدنها الذى يتأثر بهذه المؤثرات ، لا كخطأ الساعة التى لم تضبط أصلا ، وتركت للفوضى والمصادفة ! وشتان شتان !

وآية أن ما يتم بالرسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتم بغيرها ؛ فلا يغنى العقل البشرى عنها . . أن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلا واحدا من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية المتوسطة بالرسالة .. لا فى تصور اعتقادى ؛ ولا فى خلق نفسى ، ولا فى نظام حياة ، ولا فى تشريع واحد لهذا النظام ..

إن عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعا . . بل إنهم ليقولون : إن عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشرية ـ بعيدا عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن راجعنا تصوره لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة الهائلة التى تفصله عن تصور المسلم العادى لإلهه مهتديا بهدى الرسالة .

وقد وصل أخناتون ـ فى مصر القديمة ـ إلى عقيدة التوحيد ـ وحتى مع استبعاد تأثره فى هذا بإشعاع عقيدة التوحيد فى رسالة إبراهيم ورسالة يوسف ـ فإن الفجوات والأساطير التى فى عقيدة أخناتون تجعل المسافة بينها وبين توحيد المسلم العادى لإلهه بعيدة بعيدة .

وفى الخلق نجد فى الفترة التى هيمن فيها الإسلام فى صدر الإسلام نماذج للأوساط ممن رباهم

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تتطاول إليها أعناق الأفذاذ على مدار التاريخ ممن لم تخرجهم رسالة سماوية .

وفى المبادىء والنظم والتشريعات لا نجد أبدا ذلك التناسق والتوازن ، مع السمو والرفعة التى نجدها فى نظام الإسلام ومبادئه وتشريعاته . ولا نجد أبدا ذلك المجتمع الذى أنشأه الإسلام يتكرر لا فى زمانه ولا قبل زمانه ولا بعد زمانه فى أرض أخرى ، بتوازنه وتناسقه ويسر حياته وتناغمها ..

إنه ليس المستوى الحضارى المادى هو الذى يكون عليه الحكم . فالحضارة المادية تنمو بنمو وسائلها التى ينشئها « العلم » الصاعد .. ولكن ميزان الحياة فى فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وأجهزتها وأوضاعها .. هو التوازن الذى ينشىء السعادة والطمأنينة، والذى يطلق الطاقات الإنسانية كلها لتعمل دون كبت ودون مغالاة فى جانب من جوانبها الكثيرة .. والفترة التى عاشت بالإسلام كاملا لم تبلغها البشرية ـ بعيدا عن الرسالة ـ فى أى عصر .. والخلخلة وعدم الاتزان هو الطابع الدائم للحياة فى غير ظل الإسلام ؛ مهما التمعت بعض الجوانب ؛ ومهما تضخمت بعض الجوانب . فإنما تلتمع لتنطفىء جوانب أخرى . وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى .. والبشرية معها تتأرجح وتختار وتشقى[1]

* * *

ونقف عند هذا الحد ـ المناسب لسياق الظلال ـ فى الحديث عن الإيحاءات القوية العميقة ، التى يثيرها فى النفس قول الله تعالى :

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ..

لنمضى بعدها مع السياق القرآنى :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك . أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا »

فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة ـ وهى جارية على سنة الله فى إرسال

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » فصل : « تخبط واضطراب »

Marfat.com

Marfat.com

الرسل لعباده « مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وأهل الكتاب يعترفون بالرسل قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهود يعترفون بمن قبل عيسى ـ عليه السلام ـ والنصارى يعترفون بهم ، وبعيسى الذى ألهوه كما سيجىء .. فإذا أنكروا رسالتك ـ يا محمد ـ فلا عليك منهم . فلينكروا :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك . أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا »..

وفى هذه الشهادة من الله .. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله .. إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب . فمن هم والله يشهد ؟ والملائكة تشهد ؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية ؟!

وفى هذه الشهادة تسرية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم .

وفيها كذلك تصديق وتثبيت وتطمين المسلمين ـ فى أول عهدهم بالإسلام بالمدينة ـ أمام حملة يهود التى يدل على ضخامتها هذه الحملة القرآنية المنوعة الأساليب والإيحاءات فى ردها والقضاء عليها .

* * *

وعندئذ يجىء التهديد الرعيب للمنكرين فى موضعه ، بعد شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا . وكان ذلك على الله يسيرا » ..

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات ـ مع كونها عامة ـ تنطبق أول ماتنطبق ، على حال اليهود ، وتصور موقفهم من هذا الدين وأهله ؛ بل من الدين الحق كله ؛ سواء منهم من عاصروا فجر الدعوة فى المدينة ، ومن سبقرهم منذ أيام موسى عليه السلام ، ومن جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا ـ إلا القلة النادرة المستثناة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله .

Marfat.com

وهؤلاء ـ وكل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد ـ قد ضلوا ضلالا بعيدا . ضلوا عن هدى الله ؛ وضلوا طريقهم القويم فى الحياة . ضلوا فكرا وتصورا واعتقادا ؛ وضلوا سلوكا ومجتمعا وأوضاعا . ضلوا فى الدنيا وضلوا فى الآخرة . ضلوا ضلالا لا يرتجى معه هدى..

« ضلوا ضلالا بعيدا » . .

ويعيد السياق وصفهم بالكفر ، ليضم إليه الظلم :

« إن الذين كفروا وظلموا » . .

والكفر فى ذاته ظلم : ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . . والقرآن يعبر عن الكفر أحيانا بأنه الظلم كقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . . وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » بعدما قرر أنهم الكافرون فى الآية السابقة عليها . . (كما سيجىء فى موضعه فى هذا الجزء فى سورة المائدة) . . وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الشرك وحده ، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصد عن سبيل الله أيضا ، فأمعنوا فى الكفر . . أو أمعنوا فى الظلم . . ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير :

« إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ـ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا » . .

فليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يغفر لأمثال هؤلاء ، بعدما ضلوا ضلالا بعيدا ، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة . . وليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يهديهم طريقا إلا طريق جهنم . وقد قطعوا على أنفسهم كذلك كل طريق للهدى ، وأوصدوا فى وجوه أنفسهم كل طريق إلا طريق جهنم ، فأبعدوا فيه وأوغلوا ، واستحقوا الخلود المؤبد فيها بإبعادهم فى الضلال والكفر والصد والظلم ، بحيث لا يرجى لهم من هذا الإبعاد مآب !

« وكان ذلك على الله يسيرا » .

فهو القاهر فوق عباده . وليس بينه وبين أحد من العباد صهر ولا نسب ، يجعل أخذهم بهذا الجزاء العادل المستحق عليهم عسيرا . وليس لأحد من عباده قوة ولا حيلة تجعل أخذه عسيرا على الله أيضا . .

ولقد كان اليهود ـ كما كان النصارى ـ يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه . وكانوا يقولون : «لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » . وكانوا يقولون : نحن شعب الله المختار ... فجاء القرآن لينفى هذا كله . ويضعهم فى موضعهم .. عبادا من العباد .. إن أحسنوا أثيبوا ، وإن أساءوا ـ ولم يستغفروا ويتوبوا ـ عذبوا .. وكان ذلك على الله يسيرا ..

* * *

ومن ثم دعوة شاملة إلى الناس كافة ـ بعد هذه البيانات كلها ـ أن هذا الرسول إنما جاءهم بالحق من ربهم . فمن آمن به فهو الخير . ومن كفر فإن الله غنى عنهم جميعا ، وقادر عليهم جميعا ، وله ما فى السماوات والأرض . وهو يعلم الأمر كله ، ويجريه وفق علمه وحكمته : « يا أيها الناس ، قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم . فآمنوا خيرا لكم . وإن تكفروا فإن لله مافى السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما » . .

وهى دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب ، وكشف جبلة اليهود ومناكرهم فى تاريخهم كله ، وتصوير تعنتهم الأصيل ، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم ، كما سبقها بيان طبيعة الرسالة وغايتها . وهذه الغاية وتلك الطبيعة تقتضيان أن يرسل الله الرسل ، وتقتضيان أن يرسل الله محمدا ختما . فهو رسول إلى العالمين . إلى الناس كافة ـ بعدما غبرت الرسالات كلها خاصة بقوم كل رسول ـ فلم يكن بد من تبليغ عام فى ختام الرسالات ، يبلغ إلى الناس كافة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . . ولو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة لكان للناس ـ ممن سيأتون من أجيال وأمم ـ حجة على الله . فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان ، وكانت هى الرسالة الأخيرة . فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بنى إسرائيل غير عيسى ، أو بعد عيسى ـ عليه السلام ـ لايتفق مع عدل الله ، فى أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ .. ولم يسبق أن كانت هناك رسالة عامة . ولم يكن بد من هذه الرسالة العامة .. فكانت بعدل الله ورحمته بالعباد .. وكان حقاً قول الله سبحانه « ومأأرسلناك إلا رحمة للعالمين » .. رحمة فى الدنيا ورحمة فى الآخرة . كما يتجلى من هذا البيان ..

Marfat.com

Marfat.com

« يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ ، إِنمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِّنْهُ . فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ . ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ . إِنَّمَا ٱللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ! لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ . وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَبِّكُمْ ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ؛ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا » ﴿١٧٥﴾

هذا الدرس جولة مع النصارى من أهل الكتاب ، كما كان الدرس الماضى جولة مع اليهود . منهم وهؤلاء وهؤلاء من أهل الكتاب ، الموجه إليهم هذا الخطاب .

وفى الدرس الماضى أنصف القرآن عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود ، وأنصف العقيدة الصحيحة فى حكاية صلب المسيح ـ عليه السلام ـ وأنصف الحق نفسه من يهود ، وأفاعيل يهود ، وعنت يهود !

وفى هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة ، وإنصاف عيسى ابن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح ـ عليه السلام ـ ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام ، وشتى الملل ، التى احتكت بها النصرانية ؛ سواء فى ذلك أساطير الإغريق والرومان ، وأساطير قدماء المصريين ، وأساطير الهنود !

Marfat.com

ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير ؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين ، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية !

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة فى الله للبشر أجمعين ؛ وينقذها من كل انحراف وكل اختلال ، وكل غلو ، وكل تفريط ، فى تفكير البشر أجمعين .. فصحح ـ فيما صحح ـ اختلالات تصور التوحيد فى آراء أرسطو فى أثينا قبل الميلاد ، وأفلوطين فى الإسكندرية بعد الميلاد ؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات فى شتى الفلسفات التى كانت تخبط فى التيه ، معتمدة على ذبالة العقل البشرى ، الذى لا بد أن تعينه الرسالة ، ليهتدى فى هذا التيه[1] !

والقضية التى يعرض لها السياق فى هذه الآيات ، هى قضية « التثليث » وما تضمنه من أسطورة « بنوة المسيح » لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح .

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التى يعتنقها النصارى ـ على اختلاف المذاهب ـ هى عقيدة أن الإله واحد فى أقانيم ثلاثة : الآب ، والابن ، والروح القدس . والمسيح هو « الابن » . . ثم تختلف المذاهب بعد ذلك فى المسيح . هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية ؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط . وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالآب أو مخلوق .. إلى آخر ماتفرقت به المذاهب ، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة .. (وسيأتى شىء من تفصيل هذا الإجمال فى مناسبته فى سياق سورة المائدة) .

والثابت من التتبع التاريخى لأطوار العقيدة النصرانية ، أن عقيدة التثليث ، وكذلك عقيدة بنوة المسيح لله ـ سبحانه ـ (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم ، ودخولها فى التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى . إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ ، مع الوثنيين الذين دخلوا فى النصرانية ، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة . . والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبسا من الديانات المصرية القديمة ، من

---

(١) يراجع فصل : « تيه وركام » وفصل « الربانية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

تثليث « أوزوريس وإيزيس ، وحوريس » والتثليثات المتعددة فى هذه الديانة . .

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان ، والمجامع المقدسة الموالية للدولة (اللوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادى على الرغم من كل مالاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيدا عن أيدى السلطات الرومانية !

وما تزال فكرة « التثليث » تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق ، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لاينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل مافى السماوات وما فى الأرض !

يقول القس بوطر صاحب رسالة : « الأصول والفروع » أحد شراح العقيدة النصرانية ، فى هذه القضية :

« قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل ، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات والأرض »[1] .

ولا نريد هنا أن ندخل فى سرد تاريخى للأطوار وللطريقة التى تسللت بها هذه الفكرة إلى النصرانية . وهى إحدى ديانات التوحيد الأساسية . فنكتفى باستعراض الآيات القرآنية الواردة فى سياق هذه السورة ، لتصحيح هذه الفكرة الدخيلة على ديانة التوحيد !

* * *

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد . له مافى السماوات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » . .

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق ، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق ؛ فيزعموا له ولدا ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة . .

وقد تطورت عندهم فكرة البنوة ، وفكرة التثليث ، حسب رقى التفكير وانحطاطه .

---

(١) نقلا عن كتاب : « محاضرات فى النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

Marfat.com

ولـكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطرى من نسبة الولد لله ، والذى تزيده الثقافة العقلية ، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر . ولـكن عن « المحبـة » بين الآب والابن . وأن يفسروا الإله الواحد فى ثلاثة .. بأنها « صفات » لله سبحانه فى « حالات » مختلفة .. وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضـة إلى الإدراك البشرى . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لاتنـكشف إلا بانـكشاف حجـاب السماوات والأرض ..

والله ـ سبحانه ـ تعالى عن الشركة ؛ وتعالى عن المشابهة . ومقتضى كونه خالقا يستتبع .. بذاته .. أن يـكون غير الخلق . وما يملك إدراك أن يتصور إلا هـذا التغاير بين الخالق والخلق. والمالك والملك .. وإلى هذا يشير النص القرآنى :

« إنمـا الله إله واحد . سبحانه ! أن يكون له ولد ؟ له ما فى السماوات وما فى الأرض .. »

وإذا كان مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب عجيبا فى عرف البشر ، خارقا لما ألفوه، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف . والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود . والقوانين الـكونية التى يعرفونها ليست هى كل سنة الله . والله يخلق السنة ويجريها ، ويصرفها حسب مشيئته . ولا حد لمشيئته .

والله ـ سبحانه ـ يقول ـ وقوله الحق ـ فى المسيح :

« إنما المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه » ..

فهو على وجه القصد والتحديد :

« رسول الله » ..

شأنه فى هذا شأن بقية الرسل . شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ، وبقية الرهط الـكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان ..

« وكلمته ألقاها إلى مريم »

وأقرب تفسير لهذه العبارة ، أنه سبحانه ، خلق عيسى بالأمر الـكونى المباشر ، الذى يقول عنه فى مواضع شتى من القرآن : إنه « كن .. فيكون » .. فلقد ألقى هذه الـكلمة إلى مريم

Marfat.com

Marfat.com

فخلق عيسى فى بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف فى حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التى تخلق كل شىء من العدم ، لا عجب فى أن تخلق عيسى ـ عليه السلام ـ فى بطن مريم من النفخة التى يعبر عنها بقوله :

« وروح منه » ..

وقد نفخ الله فى طينة آدم من قبل من روحه . فكان « إنسانا » .. كما يقول الله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . . وكذلك قال فى قصة عيسى : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » .. فالأمر له سابقة .. والروح هنا هو الروح هناك .. ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ـ إن آدم إله ، ولا أقنوم من أقانيم الإله . كما قالوا عن عيسى ؛ مع تشابه الحال ـ من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم : وعيسى خلق مع وجود أم .. وكذلك قال الله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » ..

ويعجب الإنسان ـ وهو يرى وضوح القضية وبساطتها ـ من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله ، فى أذهان أجيال وأجيال وهى ـ كما يصورها القرآن ـ بسيطة بسيطة ، وواضحة مكشوفة .

إن الذى وهب لآدم .. من غير أبوين .. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه ، لهو الذى وهب عيسى .. من غير أب .. هذه الحياة الإنسانية كذلك .. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التى لا تنتهى عن ألوهية المسيح ، لمجرد أنه جاء من غير أب . وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك ! .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا :

« فآمنوا بالله ورسله . ولا تقولوا : ثلاثة . انتهوا خيرا لكم » ..

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله ـ ومن بينهم عيسى بوصفه رسولا ، ومحمد بوصفه خاتم النبيين ـ والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تجىء فى وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح ..

« إنما الله إله واحد » ..

تشهد بهذا وحدة الناموس . ووحدة الخلق . ووحدة الطريقة : كن .. فيكون .. ويشهد بذلك العقل البشرى ذاته . فالقضية فى حدود إدراكه . فالعقل لا يتصور خالقا يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة فى واحد . ولا واحدا فى ثلاثة :

« سبحانه أن يكون له ولد » ..

والولادة امتداد للفانى ومحاولة للبقاء فى صورة النسل .. والله الباقى غنى عن الامتداد فى صورة الفانين ؛ وكل ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه على استواء :

« له ما فى السماوات وما فى الأرض » ..

ويكفى البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود ؛ وهو يرعاهم أجمعين ، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم ! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة :

« وكفى بالله وكيلا » ..

وهكذا لا يكتفى القرآن ببيان الحقية وتقريرها فى شأن العقيدة . إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم ؛ وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم ؛ ليكلوا إليه أمرهم كله فى طمأنينة ..

* * *

ويمضى السياق فى البيان ؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادى الصحيح ، وهى الحقيقة الاعتقادية التى تنشأ فى النفس من تقرير حقيقة الوحدانية .. حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق .. وأن هناك فقط : ألوهية وعبودية .. ألوهية واحدة ، وعبودية تشمل كل شىء ، وكل أحد ، فى هذا الوجود .

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى، أو شركا فى الألوهية كشركته فى الألوهية :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ـ ولا الملائكة المقربون ـ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم

Marfat.com

ويزيدهم من فضله ؛ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .

لقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه ؛ وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة فى صورة من الصور ؛ وعنى بتقرير أن الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شىء . فلا يشترك معه شىء فى ماهيـة ولا صفة ولا خاصية . كما عنى بتقرير حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وكل شىء (بما فى ذلك كل حى) وهى أنها صلة ألوهية وعبودية . ألوهية الله ، وعبودية كل شىء لله .. والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق ـ أو هـذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه ـ بحيث لا تدع فى النفس ظلا من شك أوشبهة أو غموض .

ولقد عنى الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هى الحقيقة التى جاء بهـا الرسل أجمعون . فقررها فى سيرة كل رسول ، وفى دعوة كل رسول ؛ وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام ، إلى عهد محمد خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية ـ وهى حاسمة وصارمة فى تقرير هذه الحقيقة ـ يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة ؛ وينسب لله ـ سبحانه ـ البنين والبنات ؛ أو ينسب لله ـ سبحانه ـ الامتزاج مع أحد من خلقه فى صورة الأقانيم ؛ اقتباسا من الوثنيات التى عاشت فى الجاهليات !

ألوهية وعبودية .. ولا شىء غير هذه الحقيقة . ولا قاعدة إلا هذه القاعدة . ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية ، وصلة العبودية بالألوهية ..

ولا تستقيم تصورات الناس ـ كما لا تستقيم حياتهم ـ إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش ، ومن كل شبهة ، ومن كل ظل !

أجل لا تستقيم تصورات الناس ، ولا تستقر مشاعرهم ، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم .. هو إله لهم وهم عبيده .. هو خالق لهم وهم مخاليق .. هو مالك لهم وهم مماليك .. وهم كلهم سواء فى هذه الصلة ، لا بنوة لأحد ، ولا امتزاج بأحد .. ومن ثم لا قربى

Marfat.com

Marfat.com

لأحد إلا بشىء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح . . وهذا فى مستطاع كل أحد أن يحاوله . فأما البنوة ، وأما الامتزاج فأنى بهما لكل أحد ؟!

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم فى الحياة ، إلا حين تستقر فى أخلادهم تلك الحقيقة : أنهم كلهم عبيد لرب واحد .. ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد .. فأما القربى إليه فهى متناول الجميع .. عندئذ تكون المساواة بين بنى الإنسان ، لأنهم متساوون فى موقفهم من صاحب السلطان .. وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة فى الوساطة بين الله والناس؛ وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس .. وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور فى حياة بنى الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم فى هذا النظام !

فالمسألة ـ على هذا ـ ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين ، فحسب ، إنما هى كذلك مسألة نظام حياة ، وارتباطات مجتمع ، وعلاقات أمم وأجيال من بنى الإنسان .

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام .. ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد .. ومن ثم لم تقم فى تاريخ الإسلام « كنيسة » تستذل رقاب الناس ، بوصفها الممثلة لابن الله ، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية ؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم . ولم تقم كذلك فى تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم « بالحق الإلهى » زاعمة أن حقها فى الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله !

وقد ظل « الحق المقدس » للكنيسة والبابوات فى جانب ؛ وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة فى جانب :. ظل هذا الحق أو ذاك قائما فى أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم . حتى جاء « الصليبيون » إلى أرض الإسلام مغيرين . فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على « الحق المقدس » وكانت فيما بعد ثورات « مارتن لوثر » و « كالفن » و « زنجلى » المسماة بحركة الإصلاح . . على أساس من تأثير الإسلام ، ووضوح

التصور الإسلامى ، ونفى القداسة عن بنى الإنسان ؛ ونفى التفويض فى السلطان .. لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية فى عقيدة الإسلام ..(١)

* * *

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل فى ألوهية المسيح وبنوته ؛ وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم) وفى كل أسطورة عن بنوة أحد لله ، أو ألوهية أحد مع الله ، فى أى شكل من الأشكال .. يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى ابن مريم عبد لله ؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبدا لله . وأن الملائكة المقربين عبيد لله ؛ وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله . وأن جميع خلائقه ستحشر إليه . وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم . وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ـ ولا الملائكة المقربون ـ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

إن المسيح عيسى ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله . لأنه ـ عليه السلام ـ وهو نبى الله ورسوله ـ خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان . وهو خير من يعرف أنه من خلق الله ؛ فلا يكون خلق الله كالله ؛ أو بعضاً من الله ! وهو خير من يعرف أن العبودية لله ـ فضلا على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة ـ لا تنقص من قدره . فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء . وهى المرتبة التى يصف الله بها رسله ، وهم فى أرقى حالاتهم وأكرمها عنده .. وكذلك الملائكة المقربون ـ وفيهم روح القدس جبريل ـ شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء ـ فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة ؟ !

« ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » . .

---

(١) يراجع فصل «التوحيد» فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

Marfat.com

Marfat.com

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه .. سلطان الألوهية على العباد .. شأنهم فى هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين لله ..

فأما الذين عرفوا الحق ، فأقروا بعبوديتهم لله ؛ وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار ؛ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله .

« وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » . .

وما يريد الله ـ سبحانه ـ من عباده أن يقروا له بالعبودية ، وأن يعبدوه وحده ، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم ، ولا لأنها تزيد فى ملكه تعالى أو تنقص من شىء . ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم ، كما تصح حياتهم وأوضاعهم . فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع ، على أساس سليم قويم ، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار ، وما يتبع الإقرار من آثار ..

يريد الله ـ سبحانه ـ أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التى بيناها فى نفوس الناس وفى حياتهم . ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ليعرفوا مَنْ صاحب السلطان فى هذا الكون وفى هذه الأرض ؛ فلا يخضعوا إلا له ، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة ، وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه . يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ؛ ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه ؛ حين تعنو له وحده الوجوه والجباه . يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة ، حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله . يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجىء عن صهر ولا نسب . ولكن تجىء عن تقوى وعمل صالح ؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله . يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فتكون لهم غيرة على سلطان الله فى الأرض أن يدعيه المدعون باسم الله أو باسم غير الله فيردون الأمر كله لله . . ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس . .

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة ؛ وتعليق أنظار البشر لله وحده ؛ وتعليق قلوبهم برضاه ، وأعمالهم بتقواه ؛ ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه . . إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية فى حياتها الأرضية ؛

وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به فى الأرض . . فى هذه الحياة . . فأما ما يجزى الله به المؤمنين المقرين بالعبودية العاملين للصالحات ، فى الآخرة ، فهو كرم منه وفضل فى حقيقة الأمر . وفيض من عطاء الله .

وفى هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله فى الصورة الناصعة التى جاء بها الإسلام؛ وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعاً ؛ قبل أن يحرفها الأتباع ، وتشوهها الأجيال . . يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان ؛ تتوافر له معه الكرامة والحرية ، والعدل والصلاح ، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده فى الشعائر وفى نظام الحياة سواء .

والذين يستنكفون من العبودية لله ، يذلون لعبوديات فى هذه الأرض لا تنتهى . . يذلون لعبودية الهوى والشهوة . أو عبودية الوهم والخرافة . ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم ، ويمنون لهم الجباه . ويحكمون فى حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله . . ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون الله . . هذا فى الدنيا . . أما فى الآخرة « فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . .

إنها القضية الكبرى فى العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية فى هذا السياق فى مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى فى ذلك الزمان . وفى مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان . .

* * *

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة ـ كتلك الدعوة التى أعقبت المواجهة مع أهل الكتاب من اليهود فى الدرس الماضى ـ أن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله . وهى نور كاشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى بها واعتصم بالله فسيجد رحمة الله تؤويه ؛ وسيجد فضل الله يشمله ؛ وسيجد فى ذلك النور والهدى إلى صراط الله المستقيم :

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ؛ وأنزلنا إليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » . .

وهذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم »

Marfat.com

إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه ؛ يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر .. فى مبناه وفى فحواه سواء . وهى قضية واضحة يدركها أحيانا من لا يفهمون من العربية حرفا واحدا ، بصورة تدعو إلى العجب ..

كنا على ظهر الباخرة فى عرض لأطلنطى فى طريقنا إلى نيويورك ، حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب .. ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب أهل النوبة . وألقيت خطبة الجمعة متضمنة آيات من القرآن فى ثناياها . وسائر ركاب السفينة من جنسيات شتى متحلقون يشاهدون !

وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا ـ من بين من جاء يعبر لنا عن تأثره العميق بالصلاة الإسلامية ـ سيدة يوغسلافية فارة من الشيوعية إلى الولايات المتحدة ! جاءتنا وفى عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفى صوتها رعشة . وقالت لنا فى انجليزية ضعيفة : أنا لا أملك نفسى من الإعجاب البالغ بالخشوع البادى فى صلاتكم .. ولكن ليس هذا ما جئت من أجله .. إننى لا أفهم من لغتكم حرفا واحدا . غير أننى أحس أن فيها إيقاعا موسيقيا لم أعهده فى أية لغة .. ثم .. إن هناك فقرات مميزة فى خطبة الخطيب . هى أشد إيقاعا . ولها سلطان خاص على نفسى !!!

وعرفت طبعا أنها الآيات القرآنية ، المميزة الإيقاع ذات السلطان الخاص !

لا أقول : إن هذه قاعدة عند كل من يسمع ممن لا يعرفون العربية .. ولكنها ولا شك ظاهرة ذات دلالة !

فأما الذين لهم ذوق خاص فى هذه اللغة ، وحس خاص بأساليبها ، فقد كان من أمرهم ما كان ؛ يوم واجههم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القرآن .. وقصة الأخنس ابن شريق ، وأبى سفيان ابن حرب ، وأبى جهل وعمرو ابن هشام ؛ فى الاستماع سرا للقرآن ، وهم به مأخوذون ، قصة مشهورة[1] . وهى إحدى القصص الكثيرة .. والذين لهم ذوق فى أى جيل يعرفون ما فى القرآن من خصوصية وسلطان وبرهان من هذا الجانب ..

---

(١) من الجزء الأول من السيرة لابن هشام ص ٣٣٧ : نشر المكتبة التجارية : مطبعة حجازى : قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى . أنه حدث، أن أباسفيان ابن حرب وأباجهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة ؛ خرجوا ليلة ليستمعوا =

Marfat.com

Marfat.com

فأما فحوى القرآن .. التصور الذى يحمله . والمنهج الذى يقرره . والنظام الذى يرسمه . و « التصميم » الذى يضعه للحياة .. فلا نملك هنا أن نفصله .. ولكن فيه البرهان كل البرهان على المصدر الذى جاء منه ؛ وعلى أنه ليس من صنع الإنسان ، لأنه يحمل طابع صنعة كاملة ليس هو طابع الإنسان (١)

وفى هذا القرآن نور :

« وأنزلنا إليكم نورا مبينا » ..

نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة ؛ ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددا مرسوما .. فى داخل النفس وفى واقع الحياة سواء .. حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولا ؛ فترى كل شىء فيها ومن حولها واضحا . . حيث يتلاشى الغبش وينكشف ؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية ؛ وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة ؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه فى الجو القرآنى فترة ؛ ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه، يحس يسرا وبساطة ووضوحا فى رؤية الأمور . ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة فى حسه قد راحت تأخذ أماكنها فى هدوء ؛ وتلتزم حقائقها فى يسر ؛ وتنفى ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو فى براءتها الفطرية ، ونصاعتها كما خرجت من يد الله ..

= من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ؛ وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لأوقعتم فى نفسه شيئاً . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك .. ثم تفرقوا ... إلى آخر الخبر » .

(١) يراجع فى الظلال فى مواضع متفرقة ما جاء عن هذا المنهج الذى يحمله القرآن على سبيل المثال : مقدمة الجزء الأول من الطبعة الثانية بعنوان : « فى ظلال القرآن » وسورة الحجرات ص ١٢٤ ـ ١٥١ جزء ٢٦ سورة الذاريات ص ٥ ـ ٣٠ جزء ٢٧ ، سورة العصر ص ٢٣٥ ـ ٢٤٥ جزء ٣٠ ويراجع كتاب : « هذا الدين » للمؤلف ، وكتاب : « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب ، وكتاب : « منهج التربية فى القرآن » لمحمد شديد .

ومهما قلت فى هذا التعبير : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا » . فإننى لن أصور بألفاظى حقيقته ، لمن لم يذق طعمه ولم يجده فى نفسه ! ولا بد من المكابدة فى مثل هذه المعانى ! ولا بد من التذوق الذاتى ! ولا بد من التجربة المباشرة !

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ..

والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به .. متى صح الإيمان ، ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له . فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده . وهو صاحب السلطان والقدرة وحده .. وهؤلاء يدخلهم الله فى رحمة منه وفضل . رحمة فى هذه الحياة الدنيا ـ قبل الحياة الأخرى ـ وفضل فى هذه العاجلة ـ قبل الفضل فى الآجلة ـ فالإيمان هو الواحة الندية التى تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال فى تيه الحيرة والقلق والشرود . كما أنه هو القاعدة التى تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه ؛ فى كرامة وحرية ونظافة واستقامة ـ كما أسلفنا ـ حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته . عبد لله وسيد مع كل من عداه .. وليس هذا فى أى نظام آخر غير نظام الإيمان ـ كما جاء به الإسلام ـ هذا النظام الذى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . حين يوحد الألوهية ؛ ويسوى بين الخلائق جميعا فى العبودية . وحيث يجعل السلطان لله وحده والحاكمية لله وحده ؛ فلا يخضع بشر لتشريع بشر مثله، فيكون عبدا له مهما تحرر !

فالذين آمنوا فى رحمة من الله وفضل ، فى حياتهم الحاضرة ، وفى حياتهم الآجلة سواء ..

« ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ..

وكلمة « إليه » .. تخلع على التعبير حركة مصورة . إذ ترسم المؤمنين ويد الله تنقل خطاهم فى الطريق إلى الله على استقامة ؛ وتقربهم إليه خطوة خطوة .. وهى عبارة يجد مدلولها فى نفسه من يؤمن بالله على بصيرة ، فيعتصم به على ثقة . . حيث يحس فى كل لحظة أنه يهتدى : وتتضح أمامه الطريق ؛ ويقترب فعلا من الله كأنما هو يخطو إليه فى طريق مستقيم .

إنه مدلول يذاق .. ولا يعرف حتى يذاق !

Marfat.com

« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ : ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ . إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَا وَلَدٌ . فَإِنْ كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ . وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ. يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا . وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ﴿١٧٦﴾

وهكذا تختم السورة التى بدأت بعلاقات الأسرة ، وتكافلها الاجتماعى ؛ وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية فى ثناياها .. تختم بتكملة أحكام الكلالة ـ وهى على قول أبى بكر رضى الله عنه وهو قول الجماعة : ما ليس فيها ولد ولا والد .

وقد ورد شطر هذه الأحكام فى أول السورة . وهو الشطر المتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبة . وقد كان نصه هناك : « وإن كان رجل يورث كلالة ـ أو امرأة ـ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ـ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ـ وصية من الله ، والله عليم حليم » ..

فالآن يستكمل الشطر الآخر فى وراثة الكلالة .. فإن كانت للمتوفى ، الذى لا ولد له ولا والد ، أخت شقيقة أو لأب ، فلها نصف ما ترك أخوها . وهو يرث تركتها ـ بعد أصحاب الفروض ـ إن لم يكن لها ولد ولا والد كذلك . فإن كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان مما ترك . وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين ـ حسب القاعدة العامة فى الميراث ـ والإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب حين يجتمعون .

وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآنى الذى يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات ، والأموال وغير الأموال بشريعة الله :

« يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » ..

Marfat.com

Marfat.com

صيغة جامعة شاملة « بكل شىء » من الميراث وغير الميراث . من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات . من الأحكام والتشريعات . . فإما اتباع بيان الله فى كل شىء ، وإما الضلال .. طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما : طريق بيان الله فهو الهدى . وطريق من عداه فهو الضلال ..

وصدق الله : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

سورة المائدة

مدنية وآياتها ١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينشئ به أمة ؛ وليقيم به دولة ؛ ولينظم به مجتمعاً ؛ وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا ؛ وليحدد به روابط ذلك المجتمع ؛ فيما بينه ؛ وروابط تلك الدولة مع سائر الدول ؛ وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم . . وليربط ذلك كله برباط قوى واحد ، يجمع متفرقه ، ويؤلف أجزاءه ، ويشدها كلها إلى مصدر واحد ، وإلى سلطان واحد ، وإلى جهة واحدة . . وذلك هو الدين ، كما هو فى حقيقته عند الله ؛ وكما عرفه المسلمون . أيام أن كانوا « مسلمين » !

ومن ثم نجد فى هذه السورة ـ كما وجدنا فى السور الثلاث الطوال قبلها ـ موضوعات شتى ؛ الرابط بينها جميعاً هو هذا الهدف الأصيل الذى جاء القرآن كله لتحقيقه : إنشاء أمة ، وإقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ؛ على أساس من عقيدة خاصة ، وتصور معين ، وبناء جديد . . الأصل فيه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ؛ وتلقى منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك . .

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادى وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية ، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم .. إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها ، وطبيعة طريقها وما فى هذا الطريق من مزالق وأشواك ، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين . . إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التى تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة ؛ وتربطها بربها . إلى جانب التشريعات الاجتماعية التى تنظم روابط مجتمعها ؛

Marfat.com

Marfat.com

والتشريعات الدولية التى تنظم علاقاتها بغيرها . . إلى جانب التشريعات التى تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح ؛ أو ألوانا من الأعمال والمسالك .. كل ذلك حزمة واحدة فى السورة الواحدة يمثل معنى « الدين » كما أراده الله وكما فهمه المسلمون . أيام أن كانوا مسلمين.

على أن السياق القرآنى ـ كما يبدو فى هذه السورة وكما رأيناه فى سورتى آل عمران والنساء من قبل لا يكتفى بهذا المعنى الضمنى المستفاد من سوق هذه الموضوعات كلها فى إطار سورة واحدة ؛ وسوقها كذلك فى ثنى سور القرآن المتفرقة التى تؤلف هذا الكتاب ، وتمثل المنهج الربانى الذى يتضمنه .. لا يكتفى السياق القرآنى هنا بهذا المعنى الضمنى ؛ إنما ينص عليه نصا ؛ ويؤكده تأكيداً ؛ ويتكئ عليه اتكاء شديداً وهو ينص على أن هذا كله هو « الدين » ؛ وأن الإقرار به كله هو « الإيمان » ؛ وأن الحكم به كله « هو الإسلام » .. وأن الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون . الظالمون . الفاسقون .. وأنهم ـ إذن ـ يبتغون حكم الجاهلية ولا يبتغى حكم الجاهلية المؤمنون المسلمون .

وهذا الأصل الكبير هو الذى يبرز فى هذه السورة بروزاً واضحاً مقرراً منصوصا عليه نصا . إلى جانب تصحيح التصور الاعتقادى الذى يقوم عليه هذا الأصل الكبير ..

ويحسن أن نصور من سياق النصوص القرآنية فى السورة كيف برز هذان الأصلان الكبيران فى سياقها كله ، وكيف يقوم هذا على ذاك قياما طبيعياً ومنطقياً .

إن السياق القرآنى يستند فى تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو « الإسلام » ؛ وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو « الدين » إلى أن الله هو « الإله الواحد » لا شريك له فى ألوهيته ؛ وإلى أن الله هو الخالق الواحد لا شريك له فى خلقه. وإلى أن الله هو المالك الواحد لاشريك له فى ملكه .. ومن ثم يبدو حتمياً ومنطقياً ألا يقضى شىء إلا بشرعه وإذنه. فالخالق لكل شىء ، المالك لكل شىء ، هو صاحب الحق ، وصاحب السلطان فى تقرير المنهج الذى يرتضيه لملكه ولخلقه . . هو الذى يشرع فيما يملك؛ وهو الذى يطاع شرعه وينفذ حكمه ؛ وإلا فهو الخروج والمعصية والكفر .. إنه هو الذى يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ؛ كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواء بسواء . والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التى يقررها؛ ويتبعون النظام

الذى يرتضيه . هذه كتلك سواء بسواء . وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ، ويعبدونه باتباع الشرائع، بلا تفرقة بين الشعيرة والشريعة ؛ فكلتاهما من عند الله ، الذى لا سلطان لأحد فى ملكه وعباده معه . بما أنه هو الإله الواحد . المالك الواحد . العليم بما فى السماوات والأرض جميعاً . . ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبى ؛ لأنه هو دين الله ، ولا دين سواه .

ومن ثم تتوارد النصوص هكذا فى ثنايا السورة ؛ فى تقرير الألوهية الواحدة ؛ ونفى كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله ـ سبحانه ـ وبين غيره . أو بين خصائص الألوهية ، وخصائص العبودية على الإطلاق :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم . لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل . فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء . والله على كل شىء قدير . وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ! قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير . يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شىء قدير » ..

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ... »

ولأن الله هو وحده الإله ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده المالك .. فهو وحده الذى يشرع ، هو وحده الذى يحلل ويحرم ، وهو وحده الذى يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل . كما أنه هو وحده الذى يعبد ، وهو وحده الذى يتوجه إليه العباد بالشعائر .. وقد أخذ الميثاق على

Marfat.com

Marfat.com

عباده بهذا كله ؛ فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ؛ ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود ؛ كما وقع من بنى إسرائيل قبلهم :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ... »

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ... »

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم : سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون »

« ولقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ؛ وقال الله : إنى معكم ، لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلا منهم - فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»

ويتضمن سياق السورة أحكاما شرعية منوعة : منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام فى فترة الإحرام وفى المسجد الحرام . ومنها مايتعلق بالحلال والحرام من النكاح . ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة . ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه . ومنها ما يتعلق بالحدود فى السرقة وفى الخروج على الجماعة المسلمة . ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام . ومنها ما يتعلق بالكفارات فى قتل الصيد مع الإحرام وفى اليمين . ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت . ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى من الأنعام ، ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص فى التوراة مما جعله الله كذلك شريعة المسلمين . . وهكذا تلتقى الشرائع بالشعائر فى سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل !

وإلى جوار هذه الأحكام الشرعية المنوعة يجىء الأمر بالطاعة والتقيد بما شرعه الله وما أمر به ؛ والنهى عن التحريم والتحليل إلا بإذنه ، ويجىء النص على أن هذا هو الدين الذى ارتضاه الله للأمة المؤمنة بعد أن أكمله وأتم به نعمته :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . . » ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ... » ..

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ... » ..

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ..

ولا يدع السياق أمر الطاعة والاتباع فى التحليل والتحريم مجملا . إنما هو ينص نصا على وجوب الحكم بما أنزل الله ـ دون سواه ـ وإلا فهو الكفر والظلم والفسق . . وتتوارد النصوص القرآنية فى هذا الأمر حاسمة جازمة على هذا النسق :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه ؛ يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ـ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ـ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ..

Marfat.com

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .. فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ؛ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون .. أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

وهكذا تتبين القضية . . إله واحد . وخالق واحد . ومالك واحد . . وإذن حاكم واحد . ومشرع واحد . ومتصرف واحد .. وإذن فشريعة واحدة ، ومنهج واحد ، وقانون واحد .. وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق . . وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه ، وكما جاء به كل الرسل من عنده .. أمة محمد والأمم قبلها على السواء . .

ولم يكن بد أن يكون « دين الله » هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله الا الله .

وهذه الحتمية : حتمية هذا التلازم بين « دين الله » و « الحكم بما أنزل الله » لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسى . إنما السبب الأول والرئيسى ، والقاعدة الأولى والأساس فى حتمية هذا التلازم هى أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ، ونفى لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . وهذا هو « الإسلام » بمعناه اللغوى : «الاستسلام» وبمعناه الاصطلاحى كما جاءت به الأديان .. الإسلام لله .. والتجرد عن

Marfat.com

ادعاء الألوهية معه ؛ وادعاء أخص خصائص الألوهية ، وهى السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون .

ولا يكفى إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله . أو حتى شريعة الله نفسها بنصها ، إذا هم نسبوها إلى أنفسهم ، ووضعوا عليها شاراتهم ؛ ولم يردوها لله ؛ ولم يطبقوها باسم الله ، إذعانا لسلطانه ، واعترافا بألوهيته ؛ وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذى يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية ، إلا تطبيقا لشريعة الله ، وتقريرا لسلطانه فى الأرض .

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذى تقرره الآيات فى سياق السورة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .. ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله ـ سبحانه ـ ورفضهم لإفراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ؛ ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق ، أخذا من رفضهم لألوهية الله ـ حين يرفضون حاكميته المطلقة ؛ وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله

وعلى هذ المعنى يتكىء سياق السورة ونصوصها الواضحة الصريحة كذلك .

* * *

شأن آخر يتناوله سياق السورة ؛ غير بناء التصور الاعتقادى الصحيح ، وبيان الانحرافات التى تتلبس به عند أهل الكتاب وأهل الجاهلية ؛ وغير بيان معنى « الدين » وأنه الاعتقاد الصحيح والطاعة والتلقى من الله وحده فى التحريم والتحليل ، والحكم بما أنزل الله وحده دون تعديل أو تحريف أو تبديل .

ذلك هو شأن هذه الأمة المسلمة ؛ دورها الحقيقى فى هذه الأرض ؛ وموقفها تجاه أعدائها ؛ وكشف هؤلاء الأعداء ، وكيدهم لهذه الأمة ولهذا الدين ؛ وبيان ما هم عليه من الضلالة والانحراف فى عقيدتهم ؛ وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها ..

Marfat.com

إنها المعركة التى يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة ؛ والتى سبق الحديث عنها فى السور الثلاث الطوال السابقة ..

إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر ؛ وهو يصدق ما بين يديه من الكتاب فى أصل الاعتقاد والتصور ؛ ولكنه ـ بما أنه هو الكتاب الأخير ـ يهيمن على كل ما سبقه وإليه تنتهى شريعة الله التى ارتضاها لعباده إلى يوم الدين ؛ فما أقره من شرائع أهل الكتاب قبله فهو من شرع الله ؛ وما نسخه فقد فقد صفته هذه وإن كان واردا فى كتاب من الكتب المنزلة :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »..

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه »..

ومن ثم فإن دور هذه الأمة هو أن تكون الوصية على انبشرية ؛ تقيم العدل فى الأرض ، غير متأثرة بمودة أو شنآن ، وغير ناظرة فى إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس فهذه هى تكاليف القوامة والوصاية والهيمنة . . وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم ؛ فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم ؛ لاسترضاء أحد أو لتأليف قلب ؛ وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ؛ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ..

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ؛ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ؛ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ..

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون »

Marfat.com

ومن مقتضيات أن هذه الأمة هى وارثة الرسالات ؛ وصاحبة الرسالة الأخيرة ، والدين الأخير ؛ وصاحبة الوصاية والقوامة على البشرية بهذا الدين الأخير .. ألا تتولى من يكفرون بهذا الدين ؛ ومن يتخذون فرائضه وشعائره هزوا ولعبا . إنما تتولى الله ورسوله ، ولا تركن إلى ولاية غير للمؤمنين بالله ورسوله . فإنما هى أمة بعقيدتها لا بجنسها ، ولا بأرضها ، ولا بموروثاتها الجاهلية . إنما هى « أمة » بهذه العقيدة الجديدة ، وبهذا المنهج الربانى ، وبهذه الرسالة الأخيرة .. وهذه هى آصرة التجمع الوحيدة :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ؛ بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . .

أما أعداء هذه الأمة فهم أعداء الهدى ، وأعداء منهج الله الصحيح دائما . وهم لا يريدون رؤية الحق ؛ كما أنهم لا يريدون ترك العداء المستحكم فى قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد . وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم ، من تاريخهم القديم مع رسل الله ؛ ومن موقفهم الجديد منها ومن رسولها ودينها القويم :

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ؛ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ؛ وقال الله : إنى معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ؛ ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم

Marfat.com

فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم . فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين .. ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ؛ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ..

« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ؛ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ؛ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون . قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ؛ فلا تأس على القوم الفاسقين » ..

... « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » ..

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ؛ ومن الذين هادوا . سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت ... الخ »..

« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ؛ وأن أكثركم فاسقون ؟ قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله

Marfat.com

Marfat.com

وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت .. أولئك شر مكانا وأضل عن سواءالسبيل .. »

« وإذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ؛ والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ؛ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ؛ ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » .

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين » ..

« لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا ؛ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا . ثم تاب الله عليهم . ثم عموا وصموا . . كثير منهم . . والله بصير بما يعملون »

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون » ..

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .. الخ

* * *

وهذه الحملة الكاشفة على أعداء الجماعة المسلمة ؛ والتركيز فيها على اليهود والمشركين بصفة

Marfat.com

خاصة مع إشارات إلى المنافقين والنصارى أحيانا ، تؤدى بنا إلى شان آخر مما تعالجه هذه السورة :

إنها تعالج موقفا حاضرا فى حياة الجماعة المسلمة فى المدينة يومذاك .. كما تعالج موقف الأمة المسلمة ، فى تاريخها كله تجاه المعسكرات المعادية لها .. وإنها لهى هى .. على مدار الزمان !

فى أية فترة تاريخية من حياة الجماعة المسلمة فى المدينة تنزلت هذه السورة ؟

فى روايات كثيرة أن هذه السورة نزلت بعد سورة الفتح .. وسورة الفتح معروف أنها نزلت فى الحديبية فى العام السادس من الهجرة .. وفى بعض هذه الروايات أنها نزلت مرة واحدة فيما عدا الآية الثالثة ، التى فيها : « اليوم أكملت لكم دينكم ... » فإنها نزلت فى حجة الوداع فى السنة العاشرة ..

ولكن المراجعة الموضوعية للسورة مع أحداث السيرة تكاد تنفى هذه الرواية التى تقول : إن السورة نزلت بكاملها بعد « الفتح » ؛ فضلا على أن هناك حادثة من حوادث السيرة فى غزوة بدر ، تقطع بأن الآيات الخاصة بموقف بنى إسرائيل مع موسى ـ عليه السلام ـ من دخول الأرض المقدسة ، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر فى السنة الثانية الهجرية . وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد ابن معاذ الانصارى ـ رضى الله عنه ـ فى رواية ، وعلى لسان المقداد ابن عمرو فى رواية ، وهو يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .. » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون ... الخ » ..

أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود ـ فى ذلك الوقت الذى نزلت فيه الآيات الخاصة بهم ـ قوة ونفوذ وعمل فى المدينة ، وفى الصف المسلم ؛ مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم . وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بنى قريظة ، عقب غزوة الخندق، وقد تطهرت الأرض من القبائل الثلاثة اليهودية القوية : بنى قينقاع ، وبنى النضير وبنى قريظة . فلم يكن لهم بعد الحديبية ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد . ثم لقد كانت فترة المهادنة معهم والخطة السلمية قد انتهت ولم يعد لها موضع بعد الذى بدا منهم . فقول الله تعالى

لنبيه الكريم : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم ـ إلا قليلا منهم ـ فاعف عنهم واصفح .. » لا بد سابق على هذه الفترة . وكذلك أمره بالحكم بينهم أو الإعراض عنهم ..

ومن هذه الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هى التى نزلت بعد سورة الفتح ؛ بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك ، كما أن الآية التى فيها قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك . فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال . وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء فى إحدى الروايات

وكما قلنا من قبل فى تقديم سورة البقرة (١) ، وتقديم سورة آل عمران (٢) ، وتقديم سورة النساء(٣) ، نقول هنا عن المعركة التى كان القرآن يخوضها ، بالجماعة المسلمة ، مع أعداء هذه الجماعة ، وأعداء دينها ، وفى مقدمتهم اليهود والمشركون والمنافقون ، وذلك مع بناء التصور الإسلامى فى نفوس المؤمنين ؛ ومع تنظيم المجتمع الإسلامى بالتوجيهات والتشريعات .. كل ذلك فى وقت واحد ؛ وفى منهج واحد ؛ وفى نفس واحد !

وأهم قواعد البناء : تخليص عقيدة التوحيد من كل غبش . وبيان معنى « الدين » وأنه هو منهج الحياة ؛ وأن الحكم بما أنزل الله وحده ، والتلقى فى شئون الحياة كلها من الله وحده هو الإيمان ، وهو الإسلام ؛ وبغير هذا لا يكون هناك توحيد لله . فتوحيد الله هو إفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية ؛ وبخصائص الألوهية بحيث لا يكون له فيها شريك . والحاكمية والتشريع للناس من خصائص الألوهية ، كتعبيدهم بالعبادة الشعائرية سواء بسواء .. وهذه السورة أشد تركيزا على هذه النقطة كما أسلفنا ..

* * *

ومع تقارب الموضوعات التى تعالجها السور الطوال الثلاث السابقة مع الموضوعات التى تعالجها هذه السورة ـ كما يبدو من هذا الاستعراض السريع ـ فإنه تبقى لكل سورة « شخصيتها » وجوها وظلالها وأسلوبها الخاص فى معالجة هذه الموضوعات ، والزوايا التى تعالجها منها ،

---

(١) ص ٢٧ ـ ٣٠ من الجزء الأول الطبعة الثانية المنقحة.
(٢) ص ١١٩ ـ ١٣٢ من الجزء الثانى من الطبعة نفسها .
(٣) ص ٢٠١ ـ ٢٢٩ من الجزء الرابع .

Marfat.com

والأضواء التى تسلطها عليها ؛ ونوع المؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ بحيث تتميز « شخصية » كل سورة تماماً ؛ ويبرز طابعها الخاص .

والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم فى التعبير .. سواء فى ذلك الأحكام الشرعية التى تقتضى بطبيعتها التقرير والحسم فى القرآن كله ؛ أو المبادىء والتوجيهات ، التى قد تتخذ فى غير هذه السورة صوراً أخرى ؛ ولكنها فى هذه السورة تقرر فى حسم وصرامة ؛ فى أسلوب التقرير الدقيق ، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة .. من بدئها إلى منتهاها .

* * *

وقبل أن ننهى هذا التقديم للسورة لا يسعنا إلا أن نبرز الحقيقة التى تتضمنها الآية الثالثة منها .. فإن قول الله سبحانه لهذه الأمة : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .. يتضمن توحيد المصدر الذى تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها ، وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة ، كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية ؛ فلا تعديل فيها ولا تغيير ؛ فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره . وتعديل شىء فيه كإنكاره كله ؛ لأنه إنكار لما قرره الله من تمامه وكماله ؛ وهذا الإنكار هو الكفر الذى لا جدال فيه .. أما العدول عنه كله إلى منهج آخر ، ونظام آخر ، وشريعة أخرى ؛ فلا يحتاج منا إلى وصف ، فقد وصفه الله ـ سبحانه ـ فى السورة . ولا زيادة بعد وصف الله ـ سبحانه ـ لمستزيد ..

إن هذه الآية تقرر ـ بما لا مجال للجدال فيه ـ أنه دين خالد ، وشريعة خالدة . وأن هذه الصورة التى رضيها الله للمسلمين دينا هى الصورة الأخيرة .. إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان ؛ وليس لكل زمان شريعة ، ولا لكل عصر دين .. إنما هى الرسالة الأخيرة للبشر ، قد اكتملت وتمت ، ورضيها الله للناس دينا . فمن شاء أن يبدل ، أو يحور ، أو يغير ، أو يطور ا إلى آخر هذه التعبيرات التى تلاك فى هذا الزمان ، فليبتغ غير الإسلام دينا .. « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه »

إن هذا المنهج الإلهى المشتمل على التصور الاعتقادى ، والشعائر التعبدية ، والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله ؛ يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله ؛ وهو يسمح للحياة بأن تنمو

Marfat.com

فى إطاره وترتقى وتتطور ؛ دون خروج على أصل فيه ولا فرع ، لأنه لهذا جاء . ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين ..

إن تطور الحياة فى ظل هذا المنهج لا يعنى مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع ؛ ولكن يعنى أن طبيعة المنهج تحتوى كل الإمكانيات التى تسع ذلك التطور ؛ بلا خروج على أصل أو فرع. ويعنى أن كل تطور فى الحياة كان محسوبا حسابه فى ذلك المنهج ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ لم يكن يخفى عليه ـ وهو يضع هذا المنهج فى صورته الأخيرة ، ويعلن إكماله وارتضاءه للناس دينا ـ أن هناك تطورات ستقع ، وأن هناك حاجات ستبرز ، وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات والحاجات . فلا بد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعا ..

وما قدر الله حق قدره من يظن غير هذا فى أمر من هذه الأمور ..

وبهذا ننهى هذا التقديم العام المجمل للسورة ، ونأخذ فى التفصيل ..

Marfat.com

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ ـ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ـ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ ٱللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللهِ ، وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ، وَلَا ٱلْهَدَىَ ، وَلَا ٱلْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ؛ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ؛ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ؛ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى ؛ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ، وَٱلدَّمُ ، وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ ، وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ، وَٱلْمَوْقُوذَةُ ، وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ، وَٱلنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ـ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ـ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ، وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ . ذٰلِكُمْ فِسْقٌ . ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا . فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ـ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ـ فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَسْأَلُونَكَ : مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ : أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ ، وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللهُ ؛ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ، وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ ، إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ، وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ، وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ـ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ

Marfat.com

أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ ، غَيْرَ مُسَافِحِينَ . وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ـ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ . مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ ، وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ؛ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ؛ وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » ⑪

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ..

إنه لا بد من ضوابط للحياة .. حياة المرء مع نفسه التى بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من

الناس ومن الأحياء والأشياء عامة .. الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة، ومن الجماعة والأمة ؛ ومن الأصدقاء والأعداء .. والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان فى هذا الكون العريض .. ثم .. حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهى أساس كل حياة .

والإسلام يقيم هذه الضوابط فى حياة الناس . يقيمها ويحددها بدقة ووضوح ؛ ويربطها كلها بالله سبحانه ؛ ويكفل لها الاحترام الواجب ، فلا تنتهك ، ولا يستهزأ بها ؛ ولا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات المتقلبة ؛ ولا للمصالح العارضة التى يراها فرد ، أو تراها مجموعة أو تراها أمة ، أو يراها جيل من الناس فيحطمون فى سبيلها تلك الضوابط .. فهذه الضوابط التى أقامها الله وحددها هى « المصلحة » ما دام أن الله هو الذى أقامها للناس .. هى المصلحة ولو رأى فرد ، أو رأت مجموعة أو رأت أمة من الناس أو جيل أن المصلحة غيرها ! فالله يعلم والناس لا يعلمون ! وما يقرره الله خير لهم مما يقررون ! وأدنى مراتب الأدب مع الله ـ سبحانه ـ أن يتهم الإنسان تقديره الذاتى للمصلحة أمام تقدير الله . أما حقيقة الأدب فهى ألا يكون له تقدير إلا ما قدر الله . وألا يكون له مع تقدير الله ، إلا الطاعة والقبول والاستسلام ، مع الرضى والثقة والاطمئنان . .

هذه الضوابط يسميها الله « العقود » .. ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بهذه العقود ..

وافتتاح هذه السورة بالأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضى بعد هذا الافتتاح فى بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفى بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفى بيان حقيقة العقيدة الصحيحة . وفى بيان حقيقة العبودية وحقيقة الألوهية . وفى بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل . وفى بيان تكاليف الأمة المؤمنة فى القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها ، والحكم فيها بما أنزل الله كله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر الشخصية والمودة والشنآن ...

افتتاح السورة على هذا النحو ، والمضى فيها على هذا النهج يعطى كلمة « العقود » معنى أوسع

Marfat.com

Marfat.com

الجزء السادس

من للعنى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التى قررها الله .. وفى أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذى تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر العقود ؛ وسائر الضوابط فى الحياة .

وعقد الإيمان بالله ؛ والاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته ؛ ومقتضيات هذا الاعتراف من العبودية الكاملة ، والالتزام الشامل والطاعة المطلقة والاستسلام العميق .. هذا العقد أخذه الله ابتداء على آدم ـ عليه السلام ـ وهو يسلمه مقاليد الخلافة فى الأرض ، بشرط وعقد هذا نصه القرآنى : « قلنا : اهبطوا منها جميعا . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. فهى خلافة مشروطة باتباع هدى الله الذى ينزله فى كتبه على رسله ؛ وإلا فهى المخالفة لعقد الخلافة والتمليك . المخالفة التى تجعل كل عمل مخالف لما أنزل الله ، باطلا بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح المستأنف ! وتحتم على كل مؤمن بالله ، يريد الوفاء بعقد الله ، أن يرد هذا الباطل ، ولا يعترف به ؛ ولا يقبل التعامل على أساسه . وإلا فما أوفى بعقد الله .

ولقد تكرر هذا العقد ـ أو هذا العهد ـ مع ذرية آدم . وهم بعد فى ظهور آبائهم . كما ورد فى السورة الأخرى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » .. فهذا عقد آخر مع كل فرد ؛ عقد يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه أخذه على بنى آدم كلهم وهم فى ظهور آبائهم .. وليس لنا أن نسأل : كيف ؟ لأن الله أعلم بخلقه ؛ وأعلم كيف يخاطبهم فى كل طور من أطوار حياتهم . بما يلزمهم الحجة . وهو يقول : إنه أخذ عليهم هذا العهد ، على ربوبيته لهم .. فلا بد أن ذلك كان ، كما قال الله سبحانه .. فإذا لم يفوا بتعاقدهم هذا مع ربهم لم يكونوا أوفياء !

ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ـ كما سيجىء فى السورة ـ يوم نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة

وظنوا أنه واقع بهم .. وسنعلم ـ من السياق ـ كيف لم يفوا بالميثاق ؛ وكيف نالهم من الله ماينال كل من ينقض الميثاق .

والذين آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تعاقدوا مع الله ـ على يديه ـ تعاقدا عاما على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله »

وبعضهم وقعت له بعد ذلك عقود خاصة قائمة على ذلك التعاقد العام .. ففى بيعة العقبة الثانية التى ترتبت عليها هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة ، كان هناك عقد مع نقباء الأنصار .. وفى الحديبية كان هناك عقد الشجرة وهو « بيعة الرضوان » .

وعلى عقد الإيمان بالله ، والعبودية لله ، تقوم سائر العقود .. سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهى فى شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء والأشياء فى هذا الكون فى حدود ما شرع الله ـ فكلها عقود ينادى الله الذين آمنوا ، بصفتهم هذه ، أن يوفوا بها . إذ أن صفة الإيمان ملزمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم كذلك على الوفاء .. ومن ثم كان هذا النداء :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ..

ثم يأخذ فى تفصيل بعض هذه العقود :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. أحلت لكم بهيمة الأنعام ـ إلا ما يتلى عليكم ـ غير محلى الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم مايريد .. يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا ، ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب . حرمت عليكم الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ـ إلا ما ذكيتم ـ وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام . ذلكم فسق .. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون .. اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ..

Marfat.com

فمن اضطر فى مخمصة ـ غير متجانف لإثم ـ فإن الله غفور رحيم » ..

إن هذا التحريم والتحليل فى الذبائح ، وفى الأنواع ، وفى الأماكن ، وفى الأوقات .. إن هذا كله من « العقود » .. وهى عقود قائمة على عقد الإيمان ابتداء . فالذين آمنوا يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده ؛ ولا يتلقوا فى هذا شيئا من غيره .. ومن ثم نودوا هذا النداء ، فى مطلع هذا البيان .. وأخذ بعده فى بيان الحلال والحرام :

« أحلت لكم بهيمة الأنعام ـ إلا ما يتلى عليكم ـ » ..

وبمقتضى هذا الإحلال من الله ؛ وبمقتضى إذنه هذا وشرعه ـ لا من أى مصدر آخر ولا استمدادا من أى أصل آخر ـ صار حلالا لكم ومباحا أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام » من الذبائح والصيد ـ إلا ما يتلى عليكم تحريمه منها ـ وهو الذى سيرد ذكره محرما .. إما حرمة وقتية أو مكانية ؛ وإما حرمة مطلقة فى أى مكان وفى أى زمان . وبهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ؛ ويضاف إليها الوحشى منها ، كالبقر الوحشى ، والحمر الوحشية والظباء .

ثم يأخذ فى الاستثناء من هذا العموم .. وأول المستثنيات الصيد فى حال الإحرام :

« غير محلى الصيد وأنتم حرم » ..

والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها . فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله فى بيته الحرام ، الذى جعله الله مثابة الأمان .. ومن ثم ينبغى عنده الكف عن بسط الأكف إلى أى حى من الأحياء .. وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ؛ تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء فى واهب الحياة ؛ وتأمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التى أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله ، لترتفع فى هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتتطلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضىء .

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق :

Marfat.com

Marfat.com

« إن الله يحكم ما يريد » ..

طليقة مشيئته ، حاكمة إرادته ، متفردا ـ سبحانه ـ بالحكم وفق ما يريد . ليس هنالك من يريد معه ؛ وليس هنالك من يحكم بعده ؛ ولا راد لما يحكم به .. وهذا هو حكمه فى حل ما يشاء وحرمة ما يشاء ..

ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . ولا الشهر الحرام . ولا الهدى . ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا .. »

وأقرب ما يتجه إليه الذهن فى معنى « شعائر الله » فى هذا المقام أنها شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم للحج أو العمرة حتى يتنهى حجه بنحر الهدى الذى ساقه إلى البيت الحرام ؛ فلا يستحلها المحرم فى فترة إحرامه ؛ لأن استحلالها فيه استهانة بحرمة الله الذى شرع هذه الشعائر . وقد نسبها السياق القرآنى إلى الله تعظيما لها ، وتحذيرا من استحلالها .

والشهر الحرام يعنى الأشهر الحرم ؛ وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ـ وقد حرم الله فيها القتال ـ وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها ـ ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء ؛ فينسئونها ـ أى يؤجلونها ـ بفتوى بعض الكهان ، أو بعض زعماء القبائل القوية ! من عام إلى عام . فلما جاء الإسلام شرع الله حرمتها ، وأقام هذه الحرمة على أمر الله ، يوم خلق الله السماوات والأرض كما قال فى آية التوبة : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم .. » وقرر أن النسىء زيادة فى الكفر . واستقام الأمر فيها على أمر الله .. ما لم يقع الاعتداء فيها على المسلمين ، فإن لهم حينئذ أن يردوا الاعتداء ؛ وألا يدعوا المعتدين يحتمون بالأشهر الحرم ـ وهم لا يرعون حرمتها ـ ويترسون خلفها للنيل من المسلمين ، ثم يذهبون ناجين ! وبين الله حكم القتال فى الأشهر الحرم كما مر بنا فى سورة البقرة (١)

والهدْى وهو الذبيحة التى يسوقها الحاج أو المعتمر ؛ وينحرها فى آخر أيام الحج أو العمرة ،

---

(١) يراجع الجزء الأول من هذه الطبعة الثانية المزيدة المنقحة من الظلال ص ١٦٢ ـ ص ١٦٦

فينهى بها شعائر حجه أوعمرته . وهى ناقة أو بقرة أوشاة .. وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأى غرض آخر غيرما سيقت له ؛ ولا ينحرها إلا يوم النحر فى الحج وعند انتهاء العمرة فى العمرة . ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها بشىء ؛ بل يجعلها كلها للفقراء .

والقلائد . وهى الأنعام المقلدة التى يقلدها أصحابها ـ أى يضعون فى رقبتها قلادة ـ علامة على نذرها لله ؛ ويطلقونها ترعى حتى تنحر فى موعد النذر ومكانه ـ ومنها الهدى الذى يُشعر : أى يعلم بعلامة الهدْى ويطلق إلى موعد النحر ـ فهذه القلائد يحرم إحلالها بعد تقليدها ؛ فلا تنحر إلا لما جعلت له .. وكذلك قيل : إن القلائد هى ما كان يتقلد به من يريدون الأمان من ثأر أو عدو أو غيره ؛ فيتخذون من شجر الحرم ما يتقلدون به ، وينطلقون فى الأرض لا يبسط أحد يده إليهم بعدوان ـ وأصحاب هذا القول قالوا : إن ذلك قد نسخ بقول الله فيما بعد . « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .. وقوله : « خذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم » . . والأظهر القول الأول ؛ وهو أن القلائد هى الأنعام المقلدة للنذور لله ؛ وقد جاء ذكرها بعد ذكر الهدْى المقلد للنحر للحج أو العمرة ، للمناسبة بين هذا وذاك .

كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا .. وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله . . حجاجا أو غير حجاج .. وأعطاهم الأمان فى حرمة بيته الحرام .

ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، فى غير البيت الحرام ، فلا صيد فى البيت الحرام : « وإذا حللتم فاصطادوا » . .

إنها منطقة الأمان يقيمها الله فى بيته الحرام ؛ كما يقيم فترة الأمان فى الأشهر الحرم . . منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى . وأن يروعها العدوان . . إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت ؛ استجابة لدعوة إبراهيم ـ أبى هذه الأمة الكريم ـ ويرفرف على الأرض كلها أربعة أشهر كاملة فى العام ـ فى ظل الإسلام ـ وهو سلام يتذوق القلب البشرى حلاوته وطمأنينته وأمنه ؛ ليحرص عليه ـ بشروطه ـ وليحفظ عقد الله وميثاقه ، وليحاول أن يطبقه فى الحياة كلها على مدار العام ، وفى كل مكان ..

Marfat.com

وفى جو الحرمات وفى منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاقدوا معه ، أن يفوا بعقدهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذى ناطه بهم . . دور القوامـــة على البشرية ؛ بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعوطف الذاتية ، واللابسات العارضة فى الحياة .. يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام فى عام الحديبية ؛ وقبله كذلك ؛ وتركوا فى نفوس المسلمين جروحا وندوبا من هذا الصد ؛ وخلفوا فى قلوبهم الكره والبغض . فهذا كله شىء ؛ وواجب الأمة المسلمة شىء آخر . شىء يناسب دورها العظيم :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » ..

إنها قمة فى ضبط النفس ؛ وفى سماحة القلب .. ولكنها هى القمة التى لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضىء .

إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس .. التبعة التى لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجا من السلوك الذى يحققه الإسلام ، ومن التسامى الذى يصنعه الإسلام . وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة ؛ تجذب الناس إليه وتحببهم فيه .

وهو تكليف ضخم ؛ ولكنه ـ فى صورته هذه ـ لا يعنت النفس البشرية ، ولا يحملها فوق طاقتها . فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب ، ومن حقها أن تكره . ولكن ليس من حقها أن تعتدى فى فورة الغضب ودفعة الشنآن .. ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة فى البر والتقوى ؛ لا فى الإثم والعدوان ؛ ويخوفها عقاب الله ، ويأمرها بتقواه ، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط ، وعلى التسامى والتسامح ، تقوى لله ، وطلبا لرضاه .

ولقد استطاعت التربية الإسلامية ، بالمنهج الربانى ، أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية ، والاعتياد لهذا السلوك الكريم .. وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى وعن هذا الاتجاه .. كان المنهج العربى المسلوك والمبدأ العربى المشهور : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .. كانت حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية . كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب

Marfat.com

Marfat.com

وأرجح من التعاون على البر والتقوى ؛ وكان الحلف على النصرة ، فى الباطل قبل الحق . ونذر أن قام فى الجاهلية حلف للحق . وذلك طبيعى فى بيئة لا ترتبط بالله ؛ ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله . . يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلى المشهور : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .. وهو المبدأ الذى يعبر عنه الشاعر الجاهلى فى صورة أخرى ، وهو يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

ثم جاء الإسلام .. جاء المنهج الربانى للتربية .. جاء ليقول للذين آمنوا :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » ..

جاء ليربط القلوب بالله ؛ وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله . جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها - من حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية ، وضغط الشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية فى مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد « الإنسان » من جديد فى الجزيرة العربية .. ولد الإنسان الذى يتخلق بأخلاق الله .. وكان هذا هو المولد الجديد للعرب ؛ كما كان هو المولد الجديد للإنسان فى سائر الأرض .. ولم يكن قبل الإسلام فى الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . كذلك لم يكن فى الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء !

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية ، وأفق الإسلام ؛ هى المسافة بين قول الجاهلية المأثور : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . وقول الله العظيم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

وشتان شتان !

* * *

ثم يأخذ السياق فى تفصيل ما استثناه فى الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام :

« حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ،

Marfat.com

والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ـ إلا ماذكيتم ـ وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام . . ذلكم فسق .. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا .. فمن اضطر فى مخمصة ـ غير متجانف لإثم ـ فإن الله غفور رحيم » .

والميتة والدم ولحم الخنزير ، سبق بيان حكمها ، وتعليل هذا الحكم فى حدود ما يصل إليه العلم البشرى بحكمة التشريع الإلهى ، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات (ص٥٦ـص٥٨ من الجزء الثانى من الظلال الطبعة الثانية المنقحة) وسواء وصل العلم البشرى إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل ، فقد قرر العلم الإلهى أن هذه المطاعم ليست طيبة ؛ وهذا وحده يكفى . فالله لا يحرم إلا الخبائث . وإلا مايؤذى الحياة البشرية فى جانب من جوانبها . سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه .. وهل علم الناس كل ما يؤذى وكل ما يفيد ؟ !

وأما ما أهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان . فالإيمان يوحد الله ، ويفرده ـ سبحانه ـ بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته . وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل ؛ وأن يهل باسمه ـ وحده ـ فى كل عمل وكل حركة ؛ وأن تصدر باسمه ـ وحده ـ كل حركة وكل عمل . فما يهل لغير الله به ؛ وما يسمى عليه بغير اسم الله (وكذلك مالا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد) حرام ؛ لأنه ينقض الإيمان من أساسه ؛ ولا يصدر ابتداء عن إيمان .. فهو خبيث من هذه الناحية ؛ يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأما المنخنقة (وهى التى تموت خنقا) والموقوذة (وهى التى تضرب بعصا أو خشبة أوحجر فتموت) والمتردية (وهى التى تتردى من سطح أو جبل أو تتردى فى بئر فتموت) والنطيحة (وهى التى تنطحها بهيمة فتموت) وما أكل السبع (وهى الفريسة لأى من الوحش) .. فهى كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح : (إلا ماذكيتم) فحكمها هو حكم الميتة .. إنما فصل هنا لنفى الشبهة فى أن يكون لها حكم مستقل .. على أن هناك تفصيلا فى الأقوال الفقهية واختلافا فى حكم « التذكية » ، ومتى تعتبر البهيمة مذكاة ؛ فبعض الأقوال يخرج من المذكاة ، البهيمة التى يكون ماحل بها من شأنه أن يقتلها سريعا ـ أو يقتلها حتما ـ فهذه حتى لو أدركت

Marfat.com

بالذبح لا تكون مذكاة . بينما بعض الأقوال يعتبرها مذكاة متى أدركت وفيها الروح ، أيا كان نوع الإصابة .. والتفصيل يطلب فى كتب الفقه المختصة ..

وأما ماذبح على النصب ـ وهى أصنام كانت فى الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة فى الجاهلية ، ومثلها غيرها فى أى مكان ـ فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام ـ حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله .

ويبقى الاستقسام بالأزلام . والأزلام : قداح كانوا يستشيرونها فى الإقدام على العمل أو تركه . وهى ثلاثة فى قول ، وسبعة فى قول . وكانت كذلك تستخدم فى الميسر المعروف عند العرب ؛ فتقسم بواسطتها الجزور ـ أى الناقة التى يتقامرون عليها ـ إذ يكون لكل من المتقامرين قدح ، ثم تدار ، فإذا خرج قدح أحدهم كان له من الجزور بقدر ماخصص لهذا القدح .. فحرم الله الاستقسام بالأزلام ـ لأنه نوع من الميسر المحرم ـ وحرم اللحوم التى تقسم عن هذا الطريق..

... « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

فالمضطر من الجوع ـ وهو المخمصة ـ الذى يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ؛ ما دام أنه لا يتعمد الإثم ، ولا يقصد مقارفة الحرام. وتختلف آراء الفقهاء فى حد هذا الأكل : هل هو مجرد ما يحفظ الحياة . أو هو ما يحقق الكفاية والشبع . أو هو مايدخر كذلك لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . فلا ندخل نحن فى هذه التفصيلات . . وحسبنا أن ندرك مافى هذا الدين من يسر ، وهو يعطى للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج. مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ؛ والتقوى الموكولة إلى الله .. فمن أقدم مضطرا ، لا نية له فى مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب :

« فإن الله غفور رحيم » . .

وننتهى من بيان المحرم من المطاعم لنقف وقفة خاصة أمام ما تخلل آية التحريم من قوله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » . .

Marfat.com

سورة المائدة

وهى آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ليعلن كمال الرسالة ، وتمام النعمة ، فيحس عمر ـ رضى الله عنه ـ ببصيرته النافذة وبقلبه الواصل ـ أن أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأرض معدودة . فقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ؛ ولم يعد إلا لقاء الله . فيبكى ـ رضوان الله عليه ـ وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق .

هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم والتحليل لبعض الذبائح ؛ وفى سياق السورة التى تضم تلك الأغراض التى أسلفنا بيانها .. ما دلالة هذا ؟ إن بعض دلالته أن شريعة الله كل لا يتجزأ . كل متكامل . سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات؛ وما يختص بالحلال والحرام ؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية . وأن هذا فى مجموعه هو « الدين » الذى يقول الله عنه فى هذه الآية : إنه أكمله . وهو « النعمة » التى يقول الله للذين آمنوا : إنه أتمها عليهم . وأنه لا فرق فى هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية .. فكلها فى مجموعها تكون المنهج الربانى الذى ارتضاه الله للذين آمنوا ؛ والخروج عن هذا المنهج فى جزئية منه ، كالخروج عليه كله ، خروج على هذا « الدين » وخروج من هذا الدين بالتبعية . .

والأمر فى هذا يرجع إلى ما سبق لنا تقريره ؛ من أن رفض شىء من هذا المنهج ، الذى رضيه الله للمؤمنين ، واستبدال غيره به من صنع البشر ؛ معناه الصريح هو رفض ألوهية الله ـ سبحانه ـ وإعطاء خصائص الألوهية لبعض البشر ؛ واعتداء على سلطان الله فى الأرض ، وادعاء للألوهية بادعاء خصيصتها الكبرى . . الحاكمية . . وهذا معناه الصريح الخروج على هذا الدين ؛ والخروج من هذا الدين بالتبعية . .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . .

يئسوا أن يبطلوه ، أو ينقصوه ، أو يحرفوه . وقد كتب الله له الكمال ؛ وسجل له البقاء . . ولقد يغلبون على المسلمين فى موقعة ، أو فى فترة ، ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين . فهو

Marfat.com

وحده الدين الذى بقى محفوظا لايناله الدثور ، ولا يناله التحريف أيضاً ؛ على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه ؛ وعلى شدة ما كادوا له ، وعلى عمق جهالة أهله به فى بعض العصور .. غير أن الله لايخلى الأرض من عصبة مؤمنة ؛ تعرف هذا الدين ؛ وتناضل عنه ، ويبقى فيها كاملا مفهوما محفوظا ؛ حتى تسلمه إلى من يليها . وصدق وعد الله فى يأس الذين كفروا من هذا الدين !

« فلا تخشوهم واخشون » ...

فما كان للذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين فى ذاته أبدا . وما كان لهم أن ينالوا من أهله إلا أن ينحرف أهله عنه ؛ فلا يكونوا هم الترجمة الحية له ؛ ولا ينهضوا بتكاليفه ومقتضياته ؛ ولا يحققوا فى حياتهم نصوصه وأهدافه . .

وهذا التوجيه من الله للجماعة المسلمة فى المدينة ، لا يقتصر على ذلك الجيل : إنما هو خطاب عام للذين آمنوا فى كل زمان وفى كل مكان . . نقول : للذين آمنوا .. « الذين يرتضون لمارضيه الله لهم من هذا الدين ، بمعناه الكامل الشامل ؛ الذين يتخذون هذا الدين كله منهجا للحياة كلها .. وهؤلاء ـ وحدهم ـ هم المؤمنون ..

« اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا » . .

اليوم . . الذى نزلت فيه هذه الآية فى حجة الوداع . . أكمل الله هذا الدين . فما عادت فيه زيادة لمستزيد . وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل . ورضى لهم « الإسلام » دينا ؛ فمن لا يرتضيه منهجا لحياته ـ إذن ـ فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين .

* * *

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة ؛ فلا يكاد ينتهى من استعراض ما تحمله فى ثناياها من حقائق كبيرة ، وتوجيهات عميقة ، ومقتضيات وتكاليف . .

إن المؤمن يقف أولا : أمام إكمال هذا الدين ؛ يستعرض موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ فجر البشرية ، ومنذ أول رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة . رسالة النبى الأمى إلى البشر أجمعين . . فماذا يرى ؟ .. يرى هذا الموكب

المتطاول المتواصل . موكب الهدى والنور . ويرى معالم الطريق ، على طول الطريق . ولكنه يجد كل رسول ـ قبل خاتم النبيين ـ إنما أرسل لقومه . ويرى كل رسالة ـ قبل الرسالة الأخيرة ـ إنما جاءت لمرحلة من الزمان .. رسالة خاصة ، لمجموعة خاصة ، فى بيئة خاصة .. ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه ؛ متكيفة بهذه الظروف .. كلها تدعو إلى إله واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الدين ـ وكلها تدعو إلى التلقى عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف . .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر ؛ أرسل إلى الناس كافة ، رسولا خاتم النبيين برسالة « للإنسان » لا لمجموعة من الأناسى فى بيئة خاصة ، فى زمان خاص ، فى ظروف خاصة .. رسالة تخاطب « الإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التى لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .. وفصل فى هذه الرسالة شريعة تتناول حياة « الإنسان » من جميع أطرافها ، وفى كل جوانب نشاطها ؛ وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ؛ وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان . . وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة « الإنسان » منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان ؛ من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكى تستمر ، وتنمو ، وتتطور ، وتتجدد ؛ حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. وقال الله ـ سبحانه ـ للذين آمنوا :

« اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا » .. فأعلن لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معا .. فهذا هو الدين .. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نقصا يستدعى الإكمال . ولا قصورا يستدعى الإضافة . ولا محلية أو زمانية تستدعى التطوير أو التحوير .. وإلا فما هو بمؤمن ؛ وما هو بمقر بصدق الله ؛ وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين !

Marfat.com

إن شريعة ذلك الزمان الذى نزل فيه القرآن ، هى شريعة كل زمان ، لأنها ـ بشهادة الله ـ شريعة الدين الذى جاء « للإنسان » فى كل زمان وفى كل مكان ؛ لا لجماعة من بنى الإنسان ، فى جيل من الأجيال ، فى مكان من الأمكنة ، كما كانت تجىء الرسل والرسالات .

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هى . والمبادىء الكلية جاءت لتكون هى الإطار الذى تنمو فى داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان ؛ دون أن تخرج عليه ، إلا أن تخرج من إطار الإيمان !

والله الذى خلق « الإنسان » ويعلم من خلق ؛ هو الذى رضى له هذا الدين ؛ المحتوى على هذه الشريعة . فلا يقول : إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم ، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان ؛ وبأطوار الإنسان !

ويقف المؤمن ثانيا : أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين ، بإكمال هذا الدين ؛ وهى النعمة التامة الضخمة الهائلة . النعمة التى تمثل مولد « الإنسان » فى الحقيقة ، كما تمثل نشأته واكتماله. « فالإنسان » لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له . وقبل أن يعرف الوجود الذى يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين . وقبل أن يعرف نفسه ودوره فى هذا الوجود وكرامته على ربه ، كما يعرف ذلك كله من دينه الذى رضيه له ربه . و« الإنسان » لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده ؛ وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه .

إن معرفة « الإنسان » بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هى بدء مولد « الإنسان » .. إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوى ؛ يمكن أن يكون « حيوانا » أو أن يكون « مشروع إنسان » فى طريقه إلى التكوين ! ولكنه لا يكون « الإنسان » فى أكمل صورة للإنسان ، إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن .. والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة ، وسائر الصور التى اصطنعها البشر فى كل زمان (١) ،

---

(١) تراجع مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة الثانية المنقحة ص ٣ ـ ص ١٢ وكتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

Marfat.com

وإن تحقيق هذه الصورة فى الحياة الإنسانية ، لهو الذى يحقق « للإنسان » « إنسانيته » كاملة .. يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادى ، فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من دائرة الحس الحيوانى الذى لا يدرك إلا المحسوسات ، إلى دائرة « التصور » الإنسانى ، الذى يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات .. عالم الشهادة وعالم الغيب .. عالم المادة وعالم ما وراء المادة .. وينقذه من ضيق الحس الحيوانى المحدود ![1] ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد الله ، من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده ، والتساوى والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه . فإلى الله وحده يتجه بالعبادة ، ومن الله وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام ، وعلى الله وحده يتوكل ومنه وحده يخاف[2] .. ويحققها له ، بالمنهج الربانى ، حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه ، ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء ، والاستعلاء على نوازع الحيوان ، ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام ![3]

ولا يدرك حقيقة نعمة الله فى هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها ـ والجاهلية فى كل زمان وفى كل مكان هى منهج الحياة الذى لم يشرعه الله ـ فهذا الذى عرف الجاهلية وذاق ويلاتها .. ويلاتها فى التصور والاعتقاد ، وويلاتها فى واقع الحياة .. هو الذى يحس ويشعر ، ويرى ويعلم ، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله فى هذا الدين ..

الذى يعرف ويعانى ويلات الضلال والعمى ، وويلات الحيرة والتمزق ، وويلات الضياع والخواء ، فى معتقدات الجاهلية وتصوراتها فى كل زمان وفى كل مكان .. هو الذى يعرف ويتذوق نعمة الإيمان .[4]

والذى يعرف ويعانى ويلات الطغيان والهوى ، وويلات التخبط والاضطراب ، وويلات

---

(١) يراجع تفسير سورة الفاتحة ص ١٣ ـ ص ١٦ وتفسير مطلع سورة البقرة : ص٣٩ ـ ص ٤١ من هذه الطبعة .

(٢) راجع كتاب « هذا الدين » ص ١٥ ـ ص ٢٠ .

(٣) راجع تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » الجزء الثانى من الظلال : ص ١٣٤ ـ ١٤١ .

(٤) يراجع فصل : « تيه وركام » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

Marfat.com

التفريط والإفراط فى كل أنظمة الحياة الجاهلية ، هو الذى يعرف ويتذوق نعمة الحياة فى ظل الإيمان بمنهج الإسلام [1] .

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات . لأن مدلولاتها كانت متمثلة فى حياتهم ، فى ذات الجيل الذى خوطب بهذا القرآن ..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية . . ذاقوا تصوراتها الاعتقادية . وذاقوا أوضاعها الاجتماعية . وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية . وبلوا من هذا كله مايدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذ الدين ؛ وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بالإسلام .

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية ؛ وسار بهم فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة ـ كما فصلنا ذلك فى مستهل سورة النساء [2] ـ فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم ؛ نظرتهم إلى ماضيهم فى جاهليتهم كذلك .

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام ، والملائكة ، والجن ، والكواكب ، والأسلاف ؛ وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة ؛ لينقلهم إلى أفق التوحيد . إلى أفق الإيمان بإله واحد ، قادر قاهر ، رحيم ودود ، سميع بصير ، عليم خبير . عادل كامل . قريب مجيب . لاواسطة بينه وبين أحد ؛ والكل له عباد ، والكل له عبيد . . ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة ، ومن سلطان الرياسة ، يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة . .

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى الأوضاع الاجتماعية . من الفوارق الطبقية؛ ومن العادات الزرية ؛ ومن الاستبداد الذى كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية !) .

« فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه فى عرف السيد والمسود من أمراء

---

(١) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .
(٢) يراجع مقدمة الحديث عن سورة النساء فى الجزء الرابع من الظلال من هذه الطبعة ص ٢٠١ ـ ص ٢٢٩ .

Marfat.com

Marfat.com

الجزيرة من أقصاها فى الجنوب إلى أقصاها فى الشمال . وما كان الشاعر النجاشى إلا قادحا مبالغا فى القدح حين استضعف مهجوه ، لأن :

قبيلته لا يغـدرون بذمـــة ولا يظلمون الناس حبة خردل

« وما كان حجر ابن الحارث إلا ملـكا عربيا حين سام بنى أسد أن يستعبدهم بالعصا ، وتوسل إليه شاعرهم عبيد ابن الأبرص حيث يقول :

أنت الملك فيهـــم وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثلـا ذل الأشيقر ذو الخزامة

« وكان عمر ابن هند ملـكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ؛ وحين استـكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره .

« وكان النعمان ابن المنذر ملـكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ؛ ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء .

« وقد قيل عن عزة كليب وائل : إنه سمى بذلك لأنه كان يرمى الـكليب حيث يعجبه الصيد ، فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه . وقيل : « لاحر بوادى عوف » لأنه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية فى جواره . فـكلهم أحرار فى حكم العبيد . . » (١) .

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية .. كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة ، والمرأة المنـكودة ، والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية ، والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتهـا ، والثارات والغارات والنهب والسلب ، مع تفرق الـكلمة وضعف الحيلة أمام أى هجوم خارجى جدى ، كالذى حدث فى عام الفيل من هجوم الأحباش على الـكعبة ، وتخاذل وخذلان القبائل كلها ، هذه القبائل التى كان بأسها بينها شديدا (٢) !

---

(١) من كتاب : « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ـ ص ١٥١ .
(٢) يراجع تفسير سورة الفيل فى الجزء الثلاثين من الظلال ؛ وكذلك الجزء الرابع من الطبعة المنقحة من ص ١١٧ ـ ص ١٣٥ .

Marfat.com

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة ؛ تطل من القمة السامقة على البشرية كلها فى السفح ، فى كل جانب من جوانب الحياة . فى جيل واحد . عرف السفح وعرف القمة . عرف الجاهلية وعرف الإسلام . ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » ..

ويقف المؤمن ثالثا : أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا . . يقف أمام رعاية الله ـ سبحانه ـ وعنايته بهذه الأمة ، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه . . وهو تعبير يشى بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها ، حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقى على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا ، يكافئ هذه الرعاية الجليلة .. أستغفر الله .. فما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شىء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه .. وإنما هو جهد الطاقة فى شكر النعمة ، ومعرفة المنعم .. وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه ، وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه .

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة ، ليقتضى منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار . ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما فى الطاقة من وسع واقتدار .. وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل ـ بله أن يرفض ـ ما رضيه الله له ، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله ! . . وإنها ـ إذن ـ لجريمة نكدة ؛ لا تذهب بغير جزاء ، ولا يترك صاحبها يمضى ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له الله .. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم ، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين .. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه .. واتخذوا لأنفسهم مناهج فى الحياة غير المنهج الذى ارتضاه لهم الله .. فلن يتركهم الله أبدا ولن يمهلهم أبدا ، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون !

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا فى هذه الوقفات أمام تلك الكلمات الهائلة . فالأمر يطول . فنقنع بهذه اللمحات ، فى هذه الظلال ، ونمضى مع سياق السورة إلى مقطع جديد :

* * *

Marfat.com

« يسألونك : ماذا أحل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه . واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب . اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم – إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان – ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . .

إن هذا السؤال من الذين آمنوا عما أحل لهم ؛ يصور حالة نفسية لتلك الجماعة المختارة ، التى سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة ؛ ويشى بما خالج تلك النفوس من التحرج والتوقى من كل ما كان فى الجاهلية ؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه ؛ وبالحاجة إلى السؤال عن كل شىء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ويقره .

والناظر فى تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذى أحدثه الإسلام فى النفس العربية .. لقد هزها هزاً عنيفاً نفض عنها كل رواسب الجاهلية .. لقد أشعر المسلمين – الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة السامقة – أنهم يولدون من جديد ؛ وينشأون من جديد . كما جعلهم يحسون إحساسا عميقاً بضخامة النقلة ، وعظمة الوثبة ، وجلال المرتقى ، وجزالة النعمة . فأصبح همهم أن يتكيفوا وفق هذا المنهج الربانى الذى لمسوا بركته عليهم . وأن يحذروا عن مخالفته .. وكان التحرج والتوجس من كل ما ألفوه فى الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق ، وثمرة تلك الهزة العنيفة .

لذلك راحوا يسألون الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد ما سمعوا آيات التحريم :

« ما ذا أحل لهم ؟ » .

ليكونوا على يقين من حله قبل أن يقربوه .

وجاءهم الجواب :

« قل : أحل لكم الطيبات ... » ..

وهو جواب يستحق التأمل . . إنه يلقى فى حسهم هذه الحقيقة : إنهم لم يحرموا طيباً ، ولم

يمنعوا عن طيب ؛ وإن كل الطيبات لهم حلال ، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث .. والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية . كالميتة والدم ولحم الخنزير. أو ينفر منه القلب المؤمن كالذى أهلّ لغير الله به أو ما ذبح على النصب ، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام . وهو نوع من الميسر .

ويضيف إلى الطيبات ـ وهى عامة ـ نوعاً منها يدل على طيبته تخصيصه بالذكر بعد التعميم ؛ وهو ما تمسكه الجوارح المعلمة المدربة على الصيد كالصقر والبازى ، ومثلها كلاب الصيد ، أو الفهود والأسود . مما علمه أصحابه كيف يكلب الفريسة : أى يكبلها ويصطادها :

« وما علمتم من الجوارح مكلبين ، تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب » . .

وشرط الحل فيما تمسكه هذه الجوارح المكلبة المعلمة المدربة ، أن تمسك على صاحبها : أى أن تحتفظ بما تمسكه من الصيد ؛ فلا تأكل منه عند صيده ؛ إلا إذا غاب عنها صاحبها ، فجاعت . فإنها إن أكلت من الفريسة عند إمساكها لها ، لا تكون معلمة ؛ وتكون قد اصطادت لنفسها لا لصاحبها فلا يحل له صيدها . ولو تبقى منها معظم الصيد لم تأكله ؛ ولو جاءت به حيا ولكنها كانت أكلت منه ؛ فلا يذكى ؛ ولو ذبح ما كان حلالا ..

والله يذكر المؤمنين بنعمته عليهم فى هذه الجوارح المكلبة ؛ فقد علموها مما علمهم الله فالله هو الذى سخر لهم هذه الجوارح ؛ وأقدرهم على تعليمها ؛ وعلمهم هم كيف يعلمونها .. وهى لفتة قرآنية تصور أسلوب التربية القرآنى ، وتشى بطبيعة المنهج الحكيم الذى لا يدع لحظة عمر، ولا مناسبة تعرض ، حتى يوقظ فى القلب البشرى الإحساس بهذه الحقيقة الأولى : حقيقة أن الله هو الذى أعطى كل شىء . هو الذى خلق، وهو الذى علم ، وهو الذى سخر ؛ وإليه يرجع الفضل كله ، فى كل حركة وكل كسب وكل إمكان ، يصل إليه المخلوق . . فلا ينسى المؤمن لحظة ، أن من الله ، وإلى الله ، كل شىء فى كيانه هو نفسه ؛ وفيما حوله من الأشياء والأحداث ؛ ولا يغفل المؤمن لحظة عن رؤية يد الله وفضله فى كل عزمة نفس منه ، وكل هزة عصب ، وكل حركة جارحة .. ويكون بهذا كله « ربانياً » على الاعتبار الصحيح .

Marfat.com

والله يعلم المؤمنين أن يذكروا اسم الله على الصيد الذى تمسك به الجوارح . ويكون الذكر عند إطلاق الجارح إذ أنه قد يقتل الصيد بنابه أو ظفره ؛ فيكون هـذا كالذبح له ؛ واسم الله يذكر عند الذبح ، فهو يذكر كذلك عند إطلاق الجارح سواء .

ثم يردهم فى نهاية الآية إلى تقوى الله ؛ ويخوفهم حسابه السريع .. فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذى هو المحور لكل نية وكل عمل فى حياة المؤمن ؛ والذى يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعوراً بجلاله ، ومراقبة له فى السر والعلانية :

« واتقوا الله إن الله سريع الحساب » ..

ويستطرد فى بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح :

« اليوم أحل لكم الطيبات . وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم . وطعامكم حل لهم. والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » ..

وهكذا يبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله :

« اليوم أحل لكم الطيبات » . .

فيؤكد المعنى الذى أشرنا إليه ؛ ويربط بينه وبين الألوان الجديدة من المتاع . فهى من الطيبات .

وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلامية ؛ فى التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى « فى دار الإسلام » ، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد ، من أهل الكتاب . .

إن الإسلام لا يكتفى بأن يترك لهم حريتهم الدينية ؛ ثم يعتزلهم ، فيصبحوا فى المجتمع الإسلامى مجفوين معزولين ـ أو منبوذين ـ إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمودة ، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم كذلك . ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة ، وليظل المجتمع كله فى ظل المودة والسماحة . . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم ـ وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر ـ طيبات للمسلمين ، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات . وهى سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع

Marfat.com

Marfat.com

الديانات والنحل . فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية ، أو المارونية المسيحية . ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة !

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يسمح بقيام مجتمع عالمى ، لاعزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة ، التى تظلها راية المجتمع الإسلامى . فيما يختص بالعشرة والسلوك (أما الولاء والنصرة فلها حكم آخر سيجىء فى سياق السورة) .

وشرط حل المحصنات الكتابيات ، هو شرط حل المحصنات المؤمنات :

« إذا آتيتموهن أجورهن محصنين ، غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان » .

ذلك أن تؤدى المهور ، بقصد النكاح الشرعى ، الذى يحصن به الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقا إلى السفاح أو المخادنة . . والسفاح هو أن تكون المرأة لأى رجل ؛ والمخادنة أن تكون المرأة لخدين خاص بغير زواج . . وهذا وذلك كانا معروفين فى الجاهلية العربية ، ومعترفا بهما من المجتمع الجاهلى . قبل أن يطهره الإسلام ، ويزكيه ، ويرفعه من السفح الهابط إلى القمة السامقة . .

ويعقب على هذه الأحكام تعقيبا فيه تشديد ، وفيه تهديد :

« ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » ..

إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان ؛ وتنفيذها كما هى هو الإيمان ؛ أو هو دليل الإيمان . فالذى يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده . والذى يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح ردا عليه لا يقبل منه ، ولا يقر عليه . . والحبوط مأخوذ من انتفاخ الدابة وموتها إذا رعت مرعى سامما . . وهو تصوير لحقيقة العمل الباطل . فهو ينتفخ ثم ينعدم أثره كالدابة التى تتسمم وتنتفخ وتموت .. وفى الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه فى الدنيا ..

وهذا التعقيب الشديد ، والتهديد المخيف ، يجىء على إثر حكم شرعى يختص بحلال وحرام فى المطاعم والمناكح . . فيدل على ترابط جزئيات هذا المنهج ؛ وأن كل جزئية فيه

Marfat.com

هى « الدين » الذى لا هوادة فى الخلاف عنه ، ولا قبول لما يصدر مخالفا له فى الصغير أو فى الكبير .

* * *

وفى ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجىء ذكر الصلاة ، وأحكام الطهارة للصلاة .

« يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم، وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنبا فاطهروا . وإن كنتم مرضى ، أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » . .

* * *

إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء . وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام .. إن هذا لا يجىء اتفاقا ومصادفة لمجرد السرد ، ولا يجىء كذلك بعيدا عن جو السياق وأهدافه . . إنما هو يجىء فى موضعه من السياق ، ولحكمته فى نظم القرآن .

إنها ـ أولا ـ لفتة إلى لون آخر من الطيبات . . طيبات الروح الخالصة . . إلى جانب طيبات الطعام والنساء .. لون يجد فيه قلب المؤمن مالا يجده فى سائر المتاع . إنه متاع اللقاء مع الله ، فى جو من الطهر والخشوع والنقاء .. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة ؛ استكمالا لألوان المتاع الطيبة فى حياة الإنسان .. والتى بها يتكامل وجود « الإنسان » .

ثم اللفتة الثانية .. إن أحكام الطهارة والصلاة ؛ كأحكام الطعام والنكاح ؛ كأحكام الصيد فى الحل والحرمة ؛ كأحكام التعامل مع الناس فى السلم والحرب . . . كبقية الأحكام التالية فى السورة . . . كلها عبادة لله . وكلها دين الله . فلا انفصام فى هذا الدين بين ما اصطلح أخيرا

Marfat.com

ـ فى الفقه ـ على تسميته « بأحكام العبادات » ، وما اصطلح على تسميته «بأحكام المعاملات» ..

هذه التفرقة ـ التى اصطنعها « الفقه » حسب مقتضيات « التصنيف » و « التبويب » ـ لا وجود لها فى أصل المنهج الربانى ، ولا فى أصل الشريعة الإسلامية .. إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء . وحكم هذه كحكم تلك فى أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه ؛ وليست هذه بأولى من تلك فى الطاعة والاتباع . لا، بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر. والدين لا يستقيم إلا بتحققهما فى حياة الجماعة المسلمة على السواء .

كلها « عقود » من التى أمر الله المؤمنين فى شأنها بالوفاء . وكلها « عبادات » يؤديها المسلم بنية القربى إلى الله . وكلها « إسلام » وإقرار من المسلم بعبوديته لله .

ليس هنالك « عبادات » وحدها و « معاملات » وحدها . . إلا فى « التصنيف الفقهى » . . وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحى . . كلها « عبادات » و « فرائض » و « عقود » مع الله . والإخلال بشىء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله [1] !

وهذه هى اللفتة التى يشير إليها النسق القرآنى ؛ وهو يوالى عرض هذه الأحكام المتنوعة فى السياق .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . . » . .

إن الصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه ـ سبحانه ـ ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى وإسرار . فلا بد لهذا الموقف من استعداد . لا بد من تطهر جسدى يصاحبه تهيؤ روحى . ومن هنا كان الوضوء ـ فيما نحسب والعلم لله ـ وهذه هى فرائضه المنصوص عليها فى هذه الآية :

غسل الوجه . وغسل الأيدى إلى المرافق . ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين.

وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة . . أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذى ذكرت به ؟ أم هى تجزئ على غير ترتيب ؟ قولان : .

---

(١) يراجع فصل : « الشمول » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » . .

Marfat.com

هذا فى الحدث الأصغر .. أما الجنابة – سواء بالمباشرة أو الاحتلام – فتوجب الاغتسال ..

ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء ، والغسل، أخذ فى بيان حكم التيمم. وذلك فى الحالات الآتية:

حالة عدم وجود الماء المحدث على الإطلاق ..

وحالة المريض المحدث حدثا أصغر يقتضى الوضوء ، أو حدثا أكبر يقتضى الغسل والماء يؤذيه..

وحالة المسافر المحدث حدثا أصغر أو أكبر ..

وقد عبر عن الحدث الأصغر بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » .. والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه .. والمجىء من الغائط كناية عن قضاء الحاجة تبولا أو تبرزاً.

وعبر عن الحدث الأكبر بقوله : « أو لا مستم النساء » .. لأن هذا التعبير الرقيق يكنى فى الكناية عن المباشرة . .

ففى هذه الحالات لا يقرب المحدث ـ حدثا أصغر أو أكبر ـ الصلاة ، حتى يتيمم .. فيقصد صعيدا طيبا .. أى شيئاً من جنس الأرض طاهراً ـ يعبر عن الطهارة بالطيبة ـ ولو كان ترابا على ظهر الدابة، أو الحائط . فيضرب بكفيه ، ثم ينفضهما ، ثم يمسح بهما وجهه ، ثم يمسح بهما يديه إلى المرفقين .. ضربة للوجه واليدين . أو ضربتين .. قولان . .

وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى : « أو لا مستم النساء » .. أهو مجرد اللامسة ؟ أم هى المباشرة ؟ وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة ؟ خلاف . .

كذلك هل المرض بإطلاقه يجيز التيمم ؟ أم المرض الذى يؤذيه الماء ؟ خلاف ..

ثم . . هل برودة الماء من غير مرض ؛ وخوف المرض والأذى يجيز التيمم . . الأرجح نعم ..

وفى ختام الآية يجىء هذا التعقيب :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون » ..

والتطهر حالة واجبة للقاء الله ـ كما أسلفنا ـ وهو يتم فى الوضوء والغسل جسما وروحا .

فأما فى التيمم فيتم الشطر الأخير منه ؛ ويجزىء فى التطهر عند عدم وجود الماء ، أو عند ما يكون هناك ضرر فى استعمال الماء . ذلك أن الله — سبحانه — لا يريد أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة ؛ وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها .. فهو الرفق والفضل والواقعية فى هذا المنهج اليسير القويم .

وتقودنا حكمة الوضوء والغسل والتيمم التى كشف النص عنها هنا :

« ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ..

تقودنا إلى تلك الوحدة التى يحققها الإسلام فى الشعائر والشرائع على السواء . فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد ، ليقول متفلسفة هذه الأيام : إننا لسنا فى حاجة إلى هذه الإجراءات ، كما كان العرب البدائيون ! لأننا نستحم وننظف أعضاءنا بحكم الحضارة ! إنما هى محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسم وطهارة الروح فى عمل واحد ؛ وفى عبادة واحدة يتوجه بها المؤمن إلى ربه . وجانب التطهر الروحى أقوى . لأنه عند تعذر استخدام الماء ، يستعاض بالتيمم ، الذى لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوى .. وذلك كله فضلا على أن هذا الدين منهج عام ليواجه جميع الحالات ، وجميع البيئات ، وجميع الأطوار ، بنظام واحد ثابت ، فتتحقق حكمته فى جميع الحالات والبيئات والأطوار ؛ فى صورة من الصور ، بمعنى من المعانى ؛ ولا تبطل هذه الحكمة أو تتخلف فى أية حال .

فلنحاول أن نتفهم أسرار هذه العقيدة قبل أن نفتى فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ولنحاول أن نكون أكثر أدبا مع الله ؛ فيما نعلم وفيما لا نعلم على السواء [1] .

كذلك يقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل أو ضررها إلى لفتة أخرى عن الصلاة ذاتها . عن حرص المنهج الإسلامى على إقامة الصلاة ؛ وإزالة كل عائق يمنع منها .. فهذا الحكم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف والصلاة فى حالة

---

(١) كذلك الحال فى الزكاة والضرائب المالية . فهذه غير تلك ، ولا تغنى غناءها .. وسيجىء شىء عن هذا فى هذا الجزء .

Marfat.com

Marfat.com

المرض من قعود أو من استلقاء حسب الإمكان .. كل هذه الأحكام تـكشف عن الحرص البالغ على إقامة الصلاة ؛ وتبين إلى أى حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية فى النفس البشرية . إذ يجعل من لقاء الله والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر ، لا يفرط فيها فى أدق الظروف وأحرجها ؛ ولا يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء . . لقاء العبد بربه .. وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب .. إنها نداوة القلب ، واستراوح الظل ، وبشاشة اللقاء ..

* * *

ويعقب على أحكام الطهارة ، وعلى ما سبقها من الأحكام بتذكير الذين آمنوا بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وبميثاق الله معهم على السمع والطاعة ، وهو الميثاق الذى دخلوا به فى الإسلام ـ كما تقدم ـ كما يذكرهم تقوى الله ، وعلمه بما تنطوى عليه الصدور :

« واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم : سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله . إن الله عليم بذات الصدور » ..

وكان المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعرفون ـ كما قدمنا ـ قيمة نعمة الله عليهم بهذا الدين. إذ كانوا يجدون حقيقتها فى كيانهم ، وفى حياتهم ، وفى مجتمعهم ، وفى مكانهم من البشرية كلها من حولهم . ومن ثم كانت الإشارة ـ مجرد الاشارة ـ إلى هذه النعمة تكفى ، إذ كانت توجه القلب والنظر إلى حقيقة ضخمة قائمة فى حياتهم ملموسة .

كذلك كانت الإشارة إلى ميثاق الله الذى واثقهم به على السمع والطاعة ، تستحضر لتوها حقيقة مباشرة يعرفونها . كما كانت تثير فى مشاعرهم الاعتزاز حيث تفهم من الله ذى الجلال موقف الطرف الآخر فى تعاقد مع الله ، وهو أمر هائل جليل فى حس المؤمن ، حين يدرك حقيقته هذه ويتملاها ..

ومن ثم يكلهم الله فى هذا إلى التقوى . إلى إحساس القلب بالله ، ومراقبته فى خطراته الخافية :

« واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » ..

والتعبير « بذات الصدور » تعبير مصور معبر موح، نمر به كثيرا فى القرآن الكريم . فيحسن أن ننبه إلى ما فيه من دقة وجمال وإيحاء . وذات الصدور : أى صاحبة الصدور ، اللازمة لها ، اللاصقة بها . وهى كناية عن المشاعر الخافية ، والخواطر الكامنة ، والأسرار الدفينة . التى لها صفة اللازمة للصدور والمصاحبة . وهى على خفائها وكتمانها مكشوفة لعلم الله ، المطلع على ذات الصدور ..

* * *

ومن الميثاق الذى واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل .. العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى فى حال من الأحوال . العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات.. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور .. ومن ثم فهذا النداء :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » ..

لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على الاعتداء . وكانت هذه قمة فى ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوى الربانى القويم . فهاهم أولاء يُنهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل .. وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق . فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض ! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء . فأما التكليف الثانى فأشق لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين !

والمنهج التربوى الحكيم يقدر ما فى هذا المرتقى من صعوبة . فيقدم له بما يعين عليه :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ... »

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا :

« واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » ..

Marfat.com

إن النفس البشرية لا ترتقى هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل فى هذا الأمر مباشرة مع الله. حين تقوم لله ، متجردة عن كل ما عداه . وحين تستشعر تقواه ، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور .

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمـكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق، ويثبتها عليه . وما غير القيام لله ، والتعامل معه مباشرة ، والتجرد من كل اعتبار آخر ، يملك أن يستوى بهذه النفس على هذا المرتقى .

وما من عقيدة أو نظام فى هذه الأرض يـكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين ، كما يـكفله لهم هذا الدين ؛ حين ينادى المؤمنين به أن يقوموا لله فى هذا الأمر ؛ وأن يتعاملوا معه ، متجردين عن كل اعتبار .

وبهذه المقومات فى هذا الدين كان الدينَ العالمى الإنسانى الأخير ؛ الذى يتكفل نظامه للناس جميعا ـ معتنقيه وغير معتنقيه ـ أن يتمتعوا فى ظله بالعدل ؛ وأن يـكون هذا العدل فريضة على معتنقيه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن ..

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية . مهما يـكن فيها من مشقة وجهاد .

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة ؛ وأدت تكاليفها هذه ؛ يوم استقامت على الإسلام . ولم تـكن هذه فى حياتها مجرد وصايا ، ولا مجرد مثل عليا ، ولـكنها كانت واقعا من الواقع فى حياتها اليومية ، واقعا لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد ، ولم تعرفه فى هذا المستوى إلا فى الحقبة الإسلامية المنيرة .. والأمثلة التى وعاها التاريخ فى هذا المجال كثيرة مستفيضة . تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية ، قد استحالت فى حياة هذه الأمة منهجا فى عالم الواقع يؤدى ببساطة ، ويتمثل فى يوميات الأمة المألوفة .. إنها لم تـكن مثلا عليا خيالية ، ولا نماذج كذلك فردية . إنما كانت طابع الحياة الذى لا يرى الناس أن هناك طريقا آخر سواه .

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية فى كل أعصارها وكل ديارها ـ بما فيها جاهلية العصور الحديثة ـ ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه الله للبشر ، ومناهج يصنعها الناس للناس . ونرى المسافة التى لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد فى الضمائر والحياة .

Marfat.com

الجزء السادس

إن الناس قد يعرفون المبادىء ؛ ويهتفون بها .. ولكن هذا شيء . وتحقيقها فى عالم الواقع شيء آخر .. وهذه المبادىء التى يهتف بها الناس للناس طيبى ، ألا تتحقق فى عالم الواقع .. فليس المهم أن يدعى الناس إلى المبادىء ؛ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها .. المهم هو الجهة التى تصدر منها الدعوة .. المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. المهم هو المرجع الذى يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادىء ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادىء التى تدعو إليها ، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله . فما يقوله فلان وعلان علام يستند ؟ وأى سلطان له على النفوس والضمائر ؟ وماذا يملك الناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم فى تحقيق هذه المبادىء ؟

يهتف ألف هاتف بالعدل . وبالتطهر . وبالتحرر . وبالتسامى . وبالسماحة . وبالحب . وبالتضحية . وبالإيثار ... ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ؛ ولا يفرض نفسه على القلوب . لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان !

ليس المهم هو الكلام .. ولكن المهم مَن وراء هذا الكلام !

ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادىء والمثل والشعارات ـ مجردة من سلطان الله ـ ولكن ما أثرها ؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم . تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور . فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس . فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان ! ولا يكون لها فى كيانهم من هزة ، ولا يكون لها فى حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر !

ثم إن قيمة هذه «الوصايا» فى الدين ، أنها تتكامل مع «الإجراءات» لتكييف الحياة . فهو لا يلقيها مجردة فى الهواء . . فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا ؛ وإلى مجرد شعائر ؛ فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق ! كما نرى ذلك الآن فى كل مكان . .

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين ؛ وفى ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه . ينفذها فى أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات ! .. وهذا هو « الدين » فى المفهوم الإسلامى دون سواه : . الدين الذى يتمثل فى نظام يحكم كل جوانب الحياة .

Marfat.com

Marfat.com

وحين تحقق « الدين » بمفهومه هذا فى حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة ؛ والتى ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة ؛ كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء . . وحين تحول « الدين » إلى وصايا على المنابر ؛ وإلى شعائر فى المساجد ؛ وتخلى عن نظام الحياة .. لم يعد لحقيقة الدين وجود فى الحياة !

* * *

ولا بد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذى يتعاملون معه وحده ؛ يشجع ويقوى على النهوض بتكاليف القوامة ؛ وعلى الوفاء بالميثاق . ولا بد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله :

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

إنه الجزاء الذى يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا ـ وهم ينهضون بالتكاليف العليا ـ والذى تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها فى هذه الأرض .. ثم هو العدل الإلهى الذى لا يسوى بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار !

ولا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل وبذلك الجزاء . لتتعامل مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة من ملابسات الحياة . . وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء الله ؛ وتتذوق حلاوة هذا الرضى ؛ كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق .. ولكن المنهج يتعامل مع الناس جميعاً . مع الطبيعة البشرية . والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم . وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين ! إن هذا وذاك يرضى هذه الطبيعة . يطمئنها على مصيرها وجزائها ؛ ويشفى غيظها من أفاعيل الشريرين ! وبخاصة إذا كانت مأمورة بالعدل مع من تكره من هؤلاء ! بعد أن تلقى منهم ما تلقى من الكيد والإيذاء . . والمنهج الربانى يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه الله من أمرها ؛ ويهتف لها بما تنفتح له مشاعرها ، وتستجيب له كينونتها . . ذلك فوق أن المغفرة والأجر العظيم دليل رضى الله الكريم ؛ وفيهما مذاق الرضى فوق مذاق النعيم .

ويمضى السياق يقوى فى الجماعة المسلمة روح العدل والقسط والسماحة ؛ ويكفكف فيها شعور العدوان والميل والانتقام .. فيذكر المسلمين نعمة الله عليهم فى كف المشركين عنهم ، حين هموا فى عام الحديبية ـ أو فى غيره ـ أن يبسطوا إليهم أيديهم بالعدوان :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم . واتقوا الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون» . .

وتختلف الروايات فى من تعنيهم هذه الآية . ولكن الأرجح أنها إشارة إلى حادثة المجموعة التى همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالمسلمين ؛ فتأخذهم على غرة . فأوقعهم الله أسارى فى أيدى المسلمين (كما فصلنا ذلك فى تفسير سورة الفتح) (١) .

وأيا ما كان الحادث ، فإن عبرته فى هذا المقام هى المنشودة فى المنهج التربوى الفريد ، وهى إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم فى صدور المسلمين . كى يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالئهم . وفى ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس ، وسماحة القلب ، وإقامة العدل ميسورة . ويستحيي المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله ؛ وهو يرعاهم ويكلؤهم ، ويكف الأيدى المبسوطة إليهم .

ولا ننسى أن نقف وقفة قصيرة أمام التعبير القرآنى المصور :

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم » ..

فى مقام : إذ هم قوم أن يبطشوا بكم ويعتدوا عليكم فحماكم الله منهم . .

إن صورة و« حركة » بسط الأيدى وكفها أكثر حيوية من ذلك التعبير المعنوى الآخر.. والتعبير القرآنى يتبع طريقة الصورة والحركة . لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة فى التعبير ؛ كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى ، مصاحبا للواقعة الحسية التى يعبر عنها . مبرزاً لها فى صورتها الحية المتحركة .. وتلك طريقة القرآن (٢)

---

(١) ص ٨١ـ١٢٢ جزء ٢٦

(٢) يراجع بتوسع : « فصل طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » ، وفصل « القيم التعبيرية » فى كتاب : « النقد الأدبى : أصوله ومناهجه » .

Marfat.com

Marfat.com

« وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللهُ : إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ؛ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ⑫ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ؛ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ؟ وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، أَنْ

Marfat.com

تَقُولُوا : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ؛ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ؛ فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » ﴿٢٦﴾

فى نهاية الدرس الماضى ، ذكر الله المسلمين بميثاقهم الذى واثقهم به ؛ وذكرهم نعمته التى أنعم بها عليهم فى هذا الميثاق . ذلك كى يؤدوا من جانبهم ما استحفظوا عليه ؛ ويتقوا أن ينقضوا ميثاقهم معه .

فالآن يستغرق هـذا الدرس كله فى استعراض مواقف أهـل الكتاب من مواثيقهم ؛ واستعراض ما حل بهم من العقـاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق ؛ لتكون هذه ـ من جانب ـ تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم، وليكشف الله ـ من جانب ـ عن سنته التى لا تتخلف ولا تحابى أحـداً . ومن الجانب الثالث ليكشف عن

Marfat.com

حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم ؛ وذلك لإبطال كيدهم فى الصف المسلم ؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم ؛ التى يلبسونها ثوب التمسك بدينهم ؛ وهم فى الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل ؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه ..

ويحتوى هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى ، عند إنقاذهم من الذل فى مصر ؛ ثم نقضهم لهذا الميثاق ؛ وما حاق بهم نتيجة نقضهم له ؛ وما أصابهم من اللعنة والطرد من مجال الهدى والنعمة .. وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا : إنا نصارى . ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة . ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة التى أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها ، فنكصوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم . وقالوا لموسى « فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون » ..

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها ، كشف لما وقع فى عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواثيق ؛ التى عاهدهم الله فيها على توحيده والإسلام له ؛ فى مقابل ما أعطاهم من النعم ، وما ضمن لهم من التمكين ؛ فأبوا ذلك كله على أنفسهم ؛ فباءوا باللعنة والفرقة والتشريد . .

كذلك يتضمن دعوتهم من جديد إلى الهدى .. الهدى الذى جاءتهم به الرسالة الأخيرة ؛ وجاءهم به الرسول الأخير. ودحض ما قد يدعونه من حجة فى أنه طال عليهم الأمد ، ومرت بهم فترة طويلة منذ آخر أنبيائهم ، فنسوا ولبس عليهم الأمر .. فهاهو ذا قد جاءهم بشير ونذير . فسقطت الحجة ، وقام الدليل .

ومن خلال هذه الدعوة ، تتبين وحدة دين الله ـ فى أساسه ـ ووحدة ميثاق الله مع جميع عباده : أن يؤمنوا به ، ويوحدوه ، ويؤمنوا برسله دون تفريق بينهم ، وينصروهم ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وينفقوا فى سبيل الله من رزق الله .. فهو الميثاق الذى يقرر العقيدة الصحيحة ، ويقرر العبادة الصحيحة ، ويقرر أسس النظام الاجتماعى الصحيح . .

فالآن نأخذ فى استعراض هذه الحقائق كما وردت فى السياق القرآنى الكريم :

* * *

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا . وقال الله : إنى معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم ؛ وأقرضتم الله قرضا حسنا .. لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل .. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ؛ وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم ـ إلا قليلا منهم ـ فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين ..

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ؛ فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ..

لقد كان ميثاق الله مع بنى إسرائيل ميثاقا بين طرفين ؛ متضمنا شرطا وجزاء . والنص القرآنى يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه ، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده .. لقد كان عقدا مع نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر ، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وهم ذرية الأسباط ـ أحفاد يعقوب ـ وعدتهم اثنا عشر سبطا .. وكان هذا نصه :

« وقال الله : إنى معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا .. لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم ، فقد ضل سواء السبيل » ..

.. « إنى معكم » .. وهو وعد عظيم . فمن كان الله معه ، فلا شىء إذن ضده . ومهما يكن ضده من شىء فهو هباء لا وجود ـ فى الحقيقة ـ له ولا أثر . ومن كان الله معه فلن يضل طريقه ، فإن معية الله ـ سبحانه ـ تهديه كما أنها تكفيه . ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى ، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده .. وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن ، وقد وصل ، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم .

ولكن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل معيته لهم جزافا ولا محاباة ؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده .. إنما هو عقد .. فيه شرط وجزاء .

Marfat.com

Marfat.com

شرطه : إقامة الصلاة .. لا مجرد أداء الصلاة .. إقامتها على أصولها التى تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب ؛ وعنصرا تهذيبيا وتربويا وفق المنهج الربانى القويم ؛ وناهيا عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدى الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر !

وإيتاء الزكاة .. اعترافا بنعمة الله فى الرزق ؛ وملكيته ابتداء للمال ؛ وطاعة له فى التصرف فى هذا المال وفق شرطه ـ وهو المالك والناس فى المال وكلاء ـ وتحقيقا للتكافل الاجتماعى الذى على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن ؛ وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذى يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وألا يكون تكدس المال فى أيد قليلة سببا فى الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهى إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته ؛ كما يفضى إلى الترف فى جانب والشظف فى جانب ، وإلى الفساد والاختلال فى المجتمع بشتى ألوانه .. كل هذا الشر الذى تحول دونه الزكاة ؛ ويحول دونه منهج الله فى توزيع المال ؛ وفى دورة الاقتصاد ..

والإيمان برسل الله .. كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله ؛ وكلهم جاء بدين الله . وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعا ، وكفر بالله الذى بعث بهم جميعا ..

وليس هو مجرد الإيمان السلبى ، إنما هو العمل الإيجابى فى نصرة هؤلاء الرسل ، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له ، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه .. فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به ، وليقيمه فى الأرض ، وليحققه فى حياة الناس . فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادى ، ولا مجرد شعائر تعبدية . إنما هو منهج واقعى للحياة . ونظام محدد يصرف شئون هذه الحياة . والمنهج والنظام فى حاجة إلى نصرة ، وتعزير ، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه . . وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق .

وبعد الزكاة إنفاق عام .. يقول عنه الله ـ سبحانه ـ إنه قرض لله .. والله هو المالك ، وهو الواهب .. ولكنه ـ فضلا منه ومنة ـ يسمى ما ينفقه الموهوب له ـ متى أنفقه لله ـ قرضا لله ..

ذلك كان الشرط . فأما الجزاء فكان .

Marfat.com

تكفير السيئات . . والإنسان الذى لا ينى يخطىء ، ولا ينى يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة . . تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة ، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره . .

وجنة تجرى من تحتها الأنهار . . وهى فضل خالص من الله ، لا يبلغه الإنسان بعمله ، إنما يبلغه بفضل من الله ، حين يبذل الجهد ، فيما يملك وفيما يطيق ..

وكان هنالك شرط جزائى فى الميثاق :

« فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ..

فلا هدى له بعد ذلك ، ولا أوبة له من الضلال . بعد إذ تبين له الهدى ، وتحدد معه العقد، ووضح له الطريق ، وتأكد له الجزاء ..

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل .. عمن وراءهم . وقد ارتضوه جميعا ؛ فصار ميثاقا مع كل فرد فيهم ، وميثاقا مع الأمة المؤلفة منهم .. فماذا كان من بنى إسرائيل !

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام ـ وهو آخر أنبيائهم ـ وحرفوا كتابهم ـ التوراة ـ ونسوا شرائعها فلم ينفذوها، ووقفوا من خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ موقفا لئيما ماكرا عنيدا ، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه . فباءوا بالطرد من هدى الله ، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى ..

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ... »

وصدق الله . فهذه سمات يهود التى لا تفارقهم . . لعنة تبدو على سيماهم ، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية . . وقسوة تبدو فى ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة ، وفى تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية ، ومهما حاولوا ـ مكرا ـ إبداء اللين فى القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعومة فى الملمس عند الكيد والوقيعة ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشى بجفاف القلوب والأفئدة .. وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه

Marfat.com

تحريف كتابهم أولا عن صورته التى أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله ! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث ! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم ، وعدم تنفيذها فى حياتهم ومجتمعهم ، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، إلا قليلا منهم ... » ..

وهو خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصور حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة . بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم معه فى المدينة ـ ثم فى الجزيرة كلها ـ وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ . على الرغم من أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملهم بالحسنى ، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه . ولكنهم كانوا دائما ـ كما كانوا على عهد الرسول ـ عقارب وحيات وثعالب وذئابا تضمر المكر والخيانة ، ولا تنى تمكر وتغدر . إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد ، وتآمروا مع كل عدو لهم ، حتى تحين الفرصة ، فينقضوا عليهم ، قساة جفاة لا يرحمونهم ، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة .. أكثرهم كذلك .. كما وصفهم الله سبحانه فى كتابه ، وكما أنبأنا عن جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

والتعبير القرآنى الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة ، تعبير طريف :

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » ..

الفعلة الخائنة ، والنية الخائنة ، والكلمة الخائنة ، والنظرة الخائنة .. يجمعها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة .. « خائنة » .. لتبقى الخيانة وحدها مجردة ، تملأ الجو ، وتلقى ظلالها وحدها على القوم . . فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هو جوهر موقفهم ، مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع الجماعة المسلمة ..

Marfat.com

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادى طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله . ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها ؛ وتسمع توجيهاته ؛ وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام .. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ؛ وحين اتخذت القرآن مهجورا ـ وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويذ ورقى وأدعية ! ـ أصابها ما أصابها .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يقص عليها ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ، لتحذر أن تنقض هى ميثاقها مع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد .. فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت فى طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية ؛ وتركها هكذا ذيلا فى القافلة ! حتى تثوب إلى ربها ؛ وحتى تستمسك بعهدها ، وحتى توفى بعقدها . فيفى لها الله بوعده من التمكين فى الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس .. وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة .. وعد الله لا يخلف الله وعده ..

ولقد كان توجيه الله لنبيه فى ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية :

« فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين » ..

والعفو عن تبأتهم إحسان ، والصفح عن خيانتهم إحسان ..

ولكن جاء الوقت الذى لم يعد فيه للعفو والصفح مكان . فأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجليهم عن المدينة . ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها . وقد كان ..

* * *

كذلك يقص الله ـ سبحانه ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الجماعة المسلمة ، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا : إنا نصارى ، من أهل الكتاب . ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك . فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق :

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ؛ فنسوا حظاً مما ذكروا به؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » .

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة :

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى » . .

ودلالة هذا التعبير : أنهم قالوها دعوى ، ولم يحققوها فى حياتهم واقعاً .. ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله . وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة فى خط النصرانية التاريخى . وهذا هو الحظ الذى نسوه مما ذكروا به ؛ ونسيانه هو الذى قاد بعد ذلك إلى كل انحراف . كما أن نسيانه هو الذى نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق ، التى لا تكاد تعد . فى القديم وفى الحديث (كما سنبين إجمالا بعد قليل) . وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة .. جزاء وفاقا على نقض ميثاقهم معه ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به .. ويبقى جزاء الآخرة عند ما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ؛ وعند ما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون !

ولقد وقع بين الذين قالوا : إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء فى التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله ـ سبحانه ـ فى كتابه الصادق الكريم ؛ وسال من دمائهم على أيدى بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم فى التاريخ كله . سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة ؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية ؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفى خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات . . وهى ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين ، جزاء على نقضهم ميثاقهم ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد ، الذى انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام . لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل (١) .

* * *

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله ..

---

(١) يراجع كتاب : « محاضرات فى النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . كما يراجع الجزء الثالث من الظلال الطبعة الجديدة ص ١٤١ ـ ص ١٤٢ .

Marfat.com

Marfat.com

وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعا .. هؤلاء وهؤلاء .. لإعلانهم برسالة خاتم النبيين ؛ وأنها جاءت إليهم ـ كما جاءت للعرب الأميين ، وللناس أجمعين . فهم مخاطبون بها ، مأمورون باتباع الرسول الأخير ـ وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف ـ وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذى بين أيديهم ؛ والذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه ، ولم تعد هناك ضرورة له فى الشريعة الجديدة .. ثم يتعرض لبعض الانحرافات التى جاء الرسول الأخير ليقومها فى معتقداتهم : كقول النصارى : إن المسيح عيسى ابن مريم هو الله . وكقولهم هم واليهود نحن أبناء الله وأحباؤه .. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله ، بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة ؛ ولن يكون لهم أن يقولوا : إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . . لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير .. وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ؛ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير .. يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم ـ على فترة من الرسل ـ أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شى قدير » ..

لقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبى ليس منهم .. نبى من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعالمون ؛ لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون ! فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين ، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة ، الشاملة

للبشر أجمعين . وعلم هؤلاء الأميين ، فإذا هم أعلم أهل الأرض ؛ وأرقاهم تصورا واعتقادا ؛ وأقومهم منهجا وطريقا ، وأفضلهم شريعة ونظاما ، وأصلحهم مجتمعا وأخلاقا .. وكان هذا كله من فضل الله عليهم ؛ ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم .. وما كان للأميين أن يكونوا أوصياء على هذه البشرية لولا هذه النعمة ؛ وما كان لهم ـ وليس لهم بعد ـ من زاد يقدمونه للبشرية إلا ما يزودهم به هذا الدين ..

وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب ، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام . مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده ، كما أخذ عليهم ميثاقه . ويسجل عليهم شهادته ـ سبحانه ـ بأن هذا النبي الأمى هو رسوله إليهم ـ كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس كافة ـ فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولا ؛ ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب ، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانيا :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » ..

فهو رسول الله إليكم . ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ، ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذى معكم .. سواء فى ذلك اليهود والنصارى .. وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين .. التوحيد .. وأخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة ؛ كرجم الزانى ، وتحريم الربا كافة . كما أخفوا جميعا خبر بعثة النبي الأمى « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » .. كما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه ؛ مما لم يرد به شرعه . فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمل فى المجتمع الإنسانى ، مما كانت له وظيفة وقتية فى المجتمعات الصغيرة الخاصة ، التى بعث إليها الرسل من قبل ولفترة محدودة ـ فى علم الله ـ من الزمان ، قبل أن تجىء الرسالة الشاملة الدائمة ، وتستقر ـ وقد أكملها الله وأتم بها نعمته ورضيها للناس دينا ـ فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل .

ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ، ووظيفته فى الحياة البشرية ، وما قدر الله من أثره فى حياة الناس

Marfat.com

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ..

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب .. القرآن .. وعلى طبيعة هذا المنهج .. الإسلام .. من أنه « نور » ..

إنها حقيقة يجدها المؤمن فى قلبه وفى كيانه وفى حياته وفى رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص .. يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان فى قلبه .. « نور » نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف . ويشرق به كل شىء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم .

ثقلة الطين فى كيانه ،وظلمة التراب ، وكثافة اللحم والدم ، وعرامة الشهوة والنزوة .. كل أولئك يشرق ويضىء ويتجلى .. تخف الثقلة ، وتشرق الظلمة ، وترق الكثافة ، وترف العرامة ..

واللبس والغبش فى الرؤية ، والتأرجح والتردد فى الخطوة ، والحيرة والشرود فى الاتجاه والطريق البهيم الذى لا معالم فيه .. كل أولئك يشرق ويضىء ويتجلى .. يتضح الهدف ويستقيم الطريق إليه وتستقيم النفس على الطريق ..

« نور . وكتاب مبين » . . وصفان للشىء الواحد . . لهذا الذى جاء به الرسول الكريم ..

« يهدى به الله ـ من اتبع رضوانه ـ سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

لقد رضى الله الإسلام دينا .. وهو يهدى من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله له .. يهديه .. « سبل السلام » ..

وما أدق هذا التعبير وأصدقه ؛ إنه « السلام » هو ما يسكبه هذا الدين فى الحياة كلها .. سلام الفرد . وسلام الجماعة . وسلام العالم .. سلام الضمير ، وسلام العقل، وسلام الجوارح .. سلام البيت والأسرة ، وسلام المجتمع والأمة ، وسلام البشر والإنسانية .. السلام مع الحياة . والسلام مع الكون . والسلام مع الله رب الكون والحياة .. السلام الذى لا تجده البشرية ـ ولم تجده يوما ـ إلا فى هذا الدين ؛ وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته ، ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته .

Marfat.com

Marfat.com

حقا إن الله يهدى بهذا الدين الذى رضيه ، من يتبع رضوان الله ، « سبل السلام » .. سبل السلام كلها فى هذه الجوانب جميعها .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب فى الجاهليات القديمة أو الحديثة .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشىء من عقائد الجاهلية فى أعماق الضمير . وحرب القلق الناشىء من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها فى أوضاع الحياة .

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم فى الجاهلية معنى هذا السلام . إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ؛ ويلتذون هذا المذاق المريح ..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة ؛ والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب فى الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون !

ما أحوجنا نحن الذين عشنا فى هذا السلام فترة من تاريخنا ؛ ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التى تحطم أرواحنا وقلوبنا ، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا ، وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا .. بينما نملك الدخول فى السلم التى منحها الله لنا ؛ حين نتبع رضوانه ؛ ونرضى لأنفسنا ما رضيه الله لنا !

إننا نعانى من ويلات الجاهلية ؛ والإسلام منا قريب . ونعانى من حرب الجاهلية وسلام الإسلام فى متناول أيدينا لو نشاء . . فأية صفقة خاسرة هذه التى نستبدل فيها الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ونشترى فيها الضلالة بالهدى ؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام ؟

إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة فى شتى الصور والألوان . ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية ، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا ، وقبل أن نفىء إلى ظلال السلام ، حين نفىء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام(١)

---

(١) يراجع بتوسع فى معنى السلام الذى يهدى إليه الله من اتبع رضوانه .. كتاب : « السلام العالمى والإسلام » وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وفى الظلال تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » ص ١٣٤ ـ ص ١٤٢ من الجزء الثانى الطبعة المنقحة . .

« ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه » ..

والجاهلية كلها ظلمات .. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات . وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات فى التيه . وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس . وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين .. والنور هو النور .. هو ذلك النور الذى تحدثنا عنه آنفا فى الضمير وفى العقل وفى الكيان وفى الحياة وفى الأمور ..

« ويهديهم إلى صراط مستقيم » ..

مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التى تحكمها . مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التى تصرفه . مستقيم إلى الله لا يلتوى ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات . .

إن الله الذى خلق الإنسان وفطرته ؛ وخلق الكون ونواميسه ؛ هو الذى وضع للإنسان هذا المنهج ؛ وهو الذى رضى للمؤمنين هذا الدين . فطبيعى وبديهى أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم . حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين !

وصدق الله العظيم . الغنى عن العالمين . الذى لا يناله من هداهم أو ضلالهم شىء ولكنه بهم رحيم !

ذلك هو الصراط المستقيم . فأما القول بأن الله هو المسيح ابن مريم فهو الكفر ؛ وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه ، فهو الافتراء الذى لا يستند إلى دليل .. وهذا وذلك من مقولات أهل الكتاب ، التى تخفى نصاعة التوحيد ؛ والتى جاءهم الرسول الأخير ليكشف عن الحقيقة فيها ، ويرد الشاردين المنحرفين عن هذه الحقيقة إليها :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير » ..

إن الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ من عند ربه هو التوحيد الذى جاء به كل رسول . والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول .. ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت

Marfat.com

عليها التحريفات ؛ بسبب دخول الوثنيين فى النصرانية ؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التى جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد ، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها .

ولم تجىء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة ؛ ولكنها دخلت على فترات ؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى ؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير ، الذى تحار فيه العقول . حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها !

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح ـ عليه السلام ـ فى تلامذته وفى أتباعهم . وأحد الأناجيل الكثيرة التى كتبت ـ وهو إنجيل برنابا ـ يتحدث عن عيسى ـعليه السلام ـ بوصفه رسولا من عند الله . ثم وقعت بينهم الاختلافات . فمن قائل : إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل . ومن قائل : إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة . ومن قائل : إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب ، ولكنه على هذا مخلوق لله . ومن قائل : إنه ابن الله وليس مخلوقا بل له صفة القدم كالأب ..

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع فى عام ٣٢٥ ميلادية « مجمع نيقية » الذى اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفا من البطارقة والأساقفة . قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخى النصرانية :

« وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان . فمنهم من كان يقول : إن المسيح وأمه إلهان من دون الله . وهم « البربرانية » .. ويسمون : « الريمتيين » . ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها . وهى مقالة « سابليوس » وشيعته . ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة دخلت فى أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها . وهى مقالة « إليان » وأشياعه . ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم ، وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون

Marfat.com

Marfat.com

بالكلمة ، ولا بروح القدس . وهى مقالة « بولس الشمشاطى » بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم « البوليقانيون » . ومنهم من كان يقول : إنهم ثلاثة آلهة لم تزل : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما . وهى مقالة « مرقيون » اللعين وأصحابه ! وزعموا أن «مرقيون » هو رئيس الحواريين وأنكروا « بطرس » . ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح. وهى مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا (١) ..

وقد اختار الإمبراطور الرومانى « قسطنطين » الذى كان قد دخل فى النصرانية من الوثنية ولم يكن يدرى شيئا من النصرانية ! هذا الرأى الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم ، وشرد أصحاب سائر المذاهب ؛ وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده ، وناسوتية المسيح .

وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه :

« إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه . وأنه لم يوجد قبل أن يولد . وأنه وجد من لا شىء . أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب . وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغير ، ويعتريه ظل دوران » .

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع « آريوس » وقد غلبت على القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية ، ومصر .

ثم ثار خلاف جديد حول « روح القدس » فقال بعضهم : هو إله ، وقال آخرون : ليس بإله ! فاجتمع « مجمع القسطنطينية الأول » سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف فى هذا الأمر .

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر فى هذا المجمع ، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية :

« قال ثيموثاوس بطريك الإسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله . وليس روح الله شيئا غير حياته . فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن روح الله مخلوق . وإذا قلنا : إن روح الله مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة . وإذا قلنا : إن حياته

---

(١) نقلا عن كتاب محاضرات فى النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .. وسائر ما نلخصه عن هذه المجامع فهو عن هذا المصدر والمصادر التى رجع إليها .

Marfat.com

مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حى . وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به . ومن كفر به وجب عليه اللعن » ! ! !

وكذلك تقررت ألوهية روح القدس فى هذا المجمع ، كما تقررت ألوهية المسيح فى مجمع نيقية . وتم « الثالوث » من الآب . والابن . وروح القدس ..

ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية .. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون .. فقد رأى « نسطور » بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوما وطبيعة . فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه ؛ وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم ، فمريم أم الإنسان ـ فى المسيح ـ وليست أم الإله ! ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم ـ كما نقله عنه ابن البطريق :

« إن هذا الإنسان الذى يقول : إنه المسيح .. بالمحبة متحد مع الابن .. ويقال : إنه الله وابن الله ، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة » ..

ثم يقول : « إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها فى حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ،فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمرا إداً »

وخالفه فى هذا الرأى أسقف رومه ، وبطريرك الإسكندرية ، وأساقفة أنطاكية ، فاتفقوا على عقد مجمع رابع . وانعقد « مجمع أفسس » سنة ٤٣١ ميلادية . وقرر هذا المجمع ـ كما يقول ابن البطريق ـ :

« أن مريم العذراء والدة الله . وأن المسيح إله حق وإنسان ، معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم » .. ولعنوا نسطور !

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأى جديد ، انعقد له « مجمع أفسس الثانى » وقرر :

« أن المسيح طبيعة واحدة ، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت »

ولكن هذا الرأى لم يسلم ؛ واستمرت الخلافات الحادة ؛ فاجتمع مجمع « خلقيدونية » سنة ٤٥١ وقرر : أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة . وأن اللاهوت طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحدها ، التقتا فى المسيح » .. ولعنوا مجمع أفسس الثانى !

Marfat.com

ولم يعترف المصريون بقرار هـذا المجمع . ووقعت بين المذهب المصرى « المنوفيسية » والمذهب « الملوكانى » الذى تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية ، التى سبق أن أثبتنا فيها مقالة : « سير . ت . و . أرنولد » فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » فى مطالع تفسير سورة آل عمران (١) ..

ونكتفى بهذا القدر فى تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح ؛ والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التى ثارت بسببها بين الطوائف ، وما تزال إلى اليوم ثائرة ..

وتجىء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق فى هذه القضية ؛ ولتقول كلمة الفصل ؛ ويجىء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » . . « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » .. (كما سيجىء فى السورة)

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع :

« قل : فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ، وأمه ، ومن فى الأرض جميعا ؟ » .

فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى ـ عليه السلام ـ وذات أمه ، وكل ذات أخرى . فى نصاعة قاطعة حاسمة . فذات الله ـ سبحانه ـ واحدة . ومشيئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئا فى رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ..

وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شىء ، وخالق كل شىء ، والخالق غير المخلوق . وكل شىء مخلوق :

« ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير » ..

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية ، ووضوحها وبساطتها .. وتزيد جلاء أمام ذلك

---

(١) ص ١٤١ ـ ص ١٤٢ من الجزء الثالث من هذه الطبعة .

Marfat.com

الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية . فى تقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين . بلا غبش ولا شبهة ولا غموض ..

واليهود والنصارى يقولون : إنهم أبناء الله وأحباؤه :

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه » ..

فزعموا لله ـ سبحانه ـ أبوة ، على تصور من التصورات ، إلا تكن أبوة الجسد فهى أبوة الروح . وهى أيا كانت تلقى ظلا على عقيدة التوحيد ؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية . هذا الفصل الذى لا يستقيم التصور ، ولا تستقيم الحياة ، إلا بتقريره . كى تتوحد الجهة التى يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية ؛ وتتوحد الجهة التى تشرع للناس ؛ وتضع لهم القيم والموازين والشرائع والقوانين ، والنظم والأوضاع ، دون أن تتداخل الاختصاصات ، بتداخل الصفات والخصائص ، وتداخل الألوهية والعبودية .. فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدى فحسب ، إنما هى كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف !

واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، كانوا يقولون ـ تبعا لهذا ـ إن الله لن يعذبهم بذنوبهم ! وإنهم لن يدخلوا النار ـ إذا دخلوا ـ إلا أياما معدودات . ومعنى هذا أن عدل الله لا يجرى مجراه ! وأنه ـ سبحانه ـ يحابى فريقا من عباده ، فيدعهم يفسدون فى الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ! فأى فساد فى الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ؟ وأى اضطراب فى الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف ؟!

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد فى التصور ، وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد فى الحياة ، ويقرر عدل الله الذى لا يحابى ؛ كما يقرر بطلان ذلك الادعاء :

« قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ..

بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة فى عقيدة الإيمان . يقرر بطلان ادعاء البنوة ؛ فهم بشر ممن خلق . ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد . على مشيئته التى تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه . لا بسبب بنوة أو صلة شخصية !

Marfat.com

ثم يكرر أن الله هو المالك لكل شىء ، وأن مصير كل شىء إليه :

« ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير » ..

والمالك غير المملوك . تتفرد ذاته ـ سبحانه ـ وتتفرد مشيئته ، ويصير إليه الجميع ..

* * *

وينهى هذا البيان ، بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب ، يقطع به حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام « المصير » وجها لوجه ، بلا غبش ولا عذر ، ولا غموض :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل .. أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير .. فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شىء قدير » ..

وبهذه المواجهة الحاسمة ، لا تعود لأهل الكتاب جميعا حجة من الحجج .. لا تعود لهم حجة فى أن هذا الرسول الأمى لم يرسل إليهم . فالله ـ سبحانه ـ يقول :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا » ..

ولا تعود لهم حجة فى أنهم لم ينبهوا ولم يبشروا ولم ينذروا فى مدى طويل ؛ يقع فيه النسيان ويقع فيه الانحراف .. فقد جاءهم ـ الآن ـ بشير ونذير ..

ثم يذكرهم أن الله لا يعجزه شىء .. لا يعجزه أن يرسل رسولا من الأميين . ولا يعجزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون :

« والله على كل شىء قدير » ..

وتنتهى هذه الجولة مع أهل الكتاب ؛ فتكشف انحرافاتهم عن دين الله الصحيح الذى جاءتهم به رسلهم من قبل . وتقرر حقيقة الاعتقاد الذى يرضاه الله من المؤمنين . وتبطل حجتهم فى موقفهم من النبى الأمى ؛ وتأخذ عليهم الطريق فى الاعتذار يوم الدين ..

وبهذا كله تدعوهم إلى الهدى من ناحية ؛ وتضعف تأثير كيدهم فى الصف المسلم من ناحية أخرى . وتنير الطريق للجماعة المسلمة ولطلاب الهدى جميعا .. إلى الصراط المستقيم ..

* * *

وفى نهاية الدرس يصل السياق إلى الموقف الأخير لبنى إسرائيل مع رسولهم ومنقذهم - موسى عليه السلام - على أبواب الأرض المقدسة التى وعدهم الله ؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم ؛ وكيف نقضوه ؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق الوثيق .

« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ؛ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين ؛ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ؛ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون . قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » .

إنها حلقة من قصة بنى إسرائيل التى فصلها القرآن أوسع تفصيل . . ذلك لحكمة متشعبة الجوانب . .

من جوانب هذه الحكمة أن بنى إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب فى المدينة وفى الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين فى المدينة ؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً . وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد فى الصف المسلم ؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم فى الحرب المعلنة الصريحة . . فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة ، لتعرف من هم أعداؤها . ما طبيعتهم ؟ وما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟ وما حقيقة المعركة التى تخوضها معهم ؟

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة فى تاريخها كله ؛ كما كانوا أعداء هدى الله فى ماضيهم كله . فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ؛ ووسائلهم كلها مكشوفة .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء السادس

ومن جوانب هـذه الحـكمة أن بنى إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسـلام فترة من التاريخ طويلة ؛ ووقعت الانحرافات فى عقيدتهم ؛ ووقع منهم النقض المتـكرر لميثاق الله معهم ؛ ووقع فى حياتهم آثار هذا النقض وهـذا الانحراف ، كما وقع فى أخلاقهم وتقاليدهم . . فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة ـ وهى وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ـ بتاريخ القوم ، وتقلبات هـذا التاريخ ؛ وتعرف مزالق الطريق ، وعواقبها ممثلة فى حياة بنى إسرائيل وأخلاقهم ، لتضم هـذه التجربة ـ فى حقل العقيدة والحياة ـ إلى حصيلة تجاربها ؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقى ـ بصفة خاصة ـ مزالق الطريق ، ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف ، على هـدى التجارب الأولى .

ومن جوانب هذه الحـكمة أن تجربة بنى إسرائيل ذات صحائف شتى فى المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها ؛ وتنحرف أجيال منها ؛ وأن الأمة المسلمة التى سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فيهـا فترات من حياة بنى إسرائيل ؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددى الدعوة فى أجيالها الـكثيرة ، نماذج من العقابيل التى تلم بالأمم ؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشـد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هى القلوب التى عرفت ثم انحرفت ! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها ، وينفض عنها الركام ، لجدته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد الذى يطرق فطرتها لأول مرة : فأما القلوب التى نوديت من قبل ، فالنداء الثانى لا تكون له جدته ، ولا تكون له هزته ؛ ولا يقع فيهـا الإحساس بضخامته وجديته ، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف ، وإلى الصبر الطويل !

وجوانب شتى لحـكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل ، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين ؛ القوامة على البشر أجمعين .. جوانب شتى لا تملك هنا المضى معها أكثر من هذه الإشارات السريعة .. لنعود إلى هذه الحلقة ، فى هذا الدرس ، فى هذه السورة :

* * *

Marfat.com

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ..

وإننا لنلمح فى كلمات موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب . فلقد جربهم من قبل فى « مواطن كثيرة » فى خط سير الرحلة الطويل .. جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ؛ وحررهم من الذل والهوان ، باسم الله وبسلطان الله الذى فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده . فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » .. وما يكاد يغيب عنهم فى ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامرى من الحلى التى سرقوها معهم من نساء المصريين عجلا ذهبا له خوار ؛ ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذى ذهب لميقاته ! .. وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع فى جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر ـ أرض الذل بالنسبة لهم ـ فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياة فى سبيل العزة والخلاص ، والهدف الأسمى ، الذى يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ! .. وجربهم فى قصة البقرة التى أمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا فى الطاعة والتنفيذ.. « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ! وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده . فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد مع ربهم ـ بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ـ ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقا فوق رؤوسهم ، « وظنوا أنه واقع بهم » ! ..

لقد جربهم فى مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل .. ثم هاهو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا . الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكا ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته . .

لقد جربهم حق له أن يشمئز ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات :

« يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم

Marfat.com

ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ..

نعمة الله . ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكا . وإيتاءه لهم بهذا وذلك مالم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ . والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله . فهى إذن يقين . . وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذى هم عليه قادمون .. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين . .

ولكن إسرائيل .. هى إسرائيل!!! الجبن. والتمحل. والنكوص على الأعقاب . ونقض الميثاق :

« قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين ؛ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . .

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل . ذلك أنهم أمام الخطر ؛ فلا بقية إذن من تجمل ؛ ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمحل. إن الخطر ماثل قريب ؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم ـ فهم يريدونه نصراً رخيصا ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصرا مريحا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى !

« إن فيهـا قوماً جبارين . . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . .

ولـكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود ! وهى فارغة القلوب من الإيمان !

« قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه . . فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم ! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس . فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين : مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة

الناس . . والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ؛ ولا يخاف شيئاً سواه . .

« ادخلوا عليهم الباب . فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » . .

قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب . . أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ؛ وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم . .

« وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » . .

فعلى الله ـ وحده ـ يتوكل المؤمن . وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته ؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه . .

ولكن لمن يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟ !

« قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا هاهنا قاعدون » . .

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون ؛ ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون ! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين ؛ بل إنهما لصنوان فى كثير من الأحيان . يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن . فيحرج بأنه نا كل عن الواجب ، فيسب هذا الواجب ؛ ويتوقح على دعوته التى تكلفه ما لا يريد !

« فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون » . .

هكذا فى وقاحة الماجز ، الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان !

« فاذهب أنت وربك » !..

فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال !

« إنا ها هنا قاعدون » . .

لانريد ملكا ، ولا نريد عزا ، ولا نريد أرض الميعاد .. ودونها لقاء الجبارين !

Marfat.com

هذه هى نهاية المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد . والسفر الطويل . واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل !

نعم ها هى ذى نهاية المطاف .. نكوصا عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . ونكولا عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق .. فماذا يصنع ؟ وبمن يستجير ؟

« قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » ..

دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام . وفيها ـ بعد ذلك ـ المفاصلة والحسم والتصميم !

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول . وفى إيمان النبي الكليم . وفى عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجها إلا الله . يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين . فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق . . ما يربطه بهم نسب . وما يربطه بهم تاريخ . وما يربطه بهم جهد سابق . إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله ، وهذا الميثاق مع الله . وقد فصلوه . فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق . وما عاد يربطه بهم رباط .. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون . . إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ..

هذا هو أدب النبي . وهذه هى خطة المؤمن . وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون .. لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا لغة . لا تاريخ .. لا وشيجة من كل وشائج الأرض ؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة ؛ وإذا اختلف المنهج والطريق ..

واستجاب الله لنبيه . وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين .

« قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين »

وهكذا أسلمهم الله ـ وهم على أبواب الأرض المقدسة ـ للتيه ؛ وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم . . والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة ؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ فى خشونة الصحراء وحريتها صلب العود..

Marfat.com

Marfat.com

جيل غير هذا الجيل الذى أفسده الذل والاستعباد والطغيان فى مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب .

ويتركهم السياق هنا ـ فى التيه ـ لا يزيد على ذلك .. وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفنى ، على طريقة القرآن فى التعبير (١)

* * *

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصه الله عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش فى غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم . « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون ..

وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة ؛ وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل ..

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ، قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ ، قَالَ : يَاوَيْلَتَا !

---

(١) يراجع : فصل « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » للمؤلف وكتاب « منهج الفن الإسلامى » لمحمد قطب .

أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا ٱلْغُرَابِ ، فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى ؟ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ .

« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ ، فَـكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَـكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً ؛ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

« إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَاداً ، أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ ، وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ؛ وَجَاهِـدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النارِ ـ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ـ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

« وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ـ نَكَالًا مِّنَ ٱللهِ ـ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » ⑩

Marfat.com

Marfat.com

سورة المائدة

يأخذ هـذا الدرس فى بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية فى الحياة البشرية . وهى الأحكام المتعلقة بحماية النفس والحياة فى المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله وشريعته . وحماية النظام العام وصيانته من الخروج عليه ، وعلى السلطة التى تقوم عليه بأمر الله ، فى ظل شريعة الله ؛ وعلى الجماعة المسلمة التى تعيش فى ظل الشريعة الإسلامية والحكم الإسلامى . وحماية المال والملكية الفردية فى هذا المجتمع ، الذى يقوم نظامه الاجتماعى كله على شريعة الله . .

وتستغرق هـذه الأحكام المتعلقة بهذه الأمور الجوهرية فى حياة المجتمع هذا الدرس ؛ مع تقدمة لهذه الأحكام بقصـة « ابنى آدم » التى تـكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها فى النفس البشرية ؛ كما تـكشف عن بشاعة الجريمة وفجورها ؛ وضرورة الوقوف فى وجههـا والعقاب لفاعلها ؛ ومقاومة البواعث التى تحرك النفس للإقدام عليها . .

وتبدو القصـة وإيحاءاتها ملتحمة التحاماً قويا مع الأحكام التالية لها فى السياق القرآنى يحس القارىء المتأمل للسـياق بوظيفة هذه القصة فى موضعها ؛ وبعمق الإيحاء الإقناعى الذى تسكبه فى النفس وترسّبه ؛ والاستعداد الذى تنشئه فى القلب والعقل لتلقى الأحكام المشددة التى يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء على النفس والحياة ؛ والاعتداء على النظام العام ؛ والاعتداء على المال والملـكية الفردية ؛ فى ظل المجتمع الإسلامى ؛ القائم على منهج الله ؛ المحكوم بشريعتـه .

والمجتمع المسلم يقيم حياته كلها على منهج الله وشريعته ؛ وينظم شؤونه وارتباطاته وعلاقاته على أسس ذلك المنهج وعلى أحكام هذه الشريعة .. ومن ثم يكفل لكل فرد ـ كما يكفل للجماعة ـ كل عناصر العـدالة والـكفاية والاستقرار والطمأنينة ، ويكف عنه كل عوامل الاستفزاز والإثارة ، وكل عوامل الـكبت و لقمع ، وكل عوامل الظلم والاعتداء ، وكل عوامل الحاجة والضرورة . وكذلك يصبح الاعتداء ـ فى مثل هذا المجتمع الفاضل العادل المتوازن المتكافل ـ على النفس والحيـاة ، أو على النظام العام ، أو على الملـكية الفردية ؛ جريمة بشعة منـكرة ، مجردة عن البواعث المبررة ـ أو المخففة ـ بصفة عامة . . وهـذا يفسر التشدد ضد الجريمة والمجرمين ، بعـد تهيئة الظروف المساعدة على الاستقامة عند الأسوياء من الناس ؛ وتنحية البواعث على الجريمة من حياة الفرد وحياة الجماعة . . وإلى جانب هذا كله ، ومع هذا كله ؛

يكفل النظام الإسلامى للمجرم المعتدى كل الضمانات لسلامة التحقيق والحكم ؛ ويدرأ عنه الحدود بالشبهات ؛ ويفتح له كذلك باب التوبة التى تسقط الجريمة فى حساب الدنيا فى بعض الحالات ، وتسقطها فى حساب الآخرة فى كل الحالات .

.. وسنرى نماذج من هذا كله فى هذا الدرس ، وفيما تضمنه من أحكام ..

ولكن قبل أن نأخذ فى المضى مع السياق وفى الحديث المباشر عن هذه الأحكام التى تضمنها لا بد أن نقول كلمة عامة ؛ عن البيئة التى تنفذ فيها هذه الأحكام ؛ والشروط التى تجعل لها قوة النفاذ ..

إن هذه الأحكام الواردة فى هذا الدرس ـ سواء فيما يتعلق بالاعتداء على النفس أو الاعتداء على النظام العام ؛ أو الاعتداء على المال ـ شأنها شأن سائر الأحكام الواردة فى الشريعة ، فى جرائم الحدود ؛ والقصاص ؛ والتعازير .. كلها إنما تكون لها قوة التنفيذ فى « المجتمع المسلم » فى « دار الإسلام » .. ولا بد من بيان ما تعنيه الشريعة بدار الإسلام :

ينقسم العالم فى نظر الإسلام وفى اعتبار المسلم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما :

الأول : « دار الإسلام » .. وتشمل كل بلد تطبق فيه أحكام الإسلام ، وتحكمه شريعة الإسلام ، سواء كان أهله كلهم مسلمين ، أو كان أهله مسلمين وذميين . أو كان أهله كلهم ذميين ولكن حكامه مسلمون يطبقون فيه أحكام الإسلام ، ويحكمونه بشريعة الإسلام[1]. أو كانوا مسلمين ، أو مسلمين وذميين ولكن غلب على بلادهم حربيون ، غير أن أهل البلد يطبقون أحكام الإسلام ويقضون بينهم حسب شريعة الإسلام .. فالمدار كله فى اعتبار بلد ما « دار إسلام » هو تطبيقه لأحكام الإسلام وحكمه بشريعة الإسلام ..

الثانى : دار الحرب . وتشمل كل بلد لا تطبق فيه أحكام الإسلام ، ولا يحكم بشريعة الإسلام .. كائنا أهله ما كانوا .. سواء قالوا : إنهم مسلمون ، أو إنهم أهل كتاب ، أو إنهم كفار . فالمدار كله فى اعتبار بلد ما « دار حرب » هو عدم تطبيقه لأحكام الإسلام وعدم حكمه بشريعة الإسلام ، وهو يعتبر « دار حرب » بالقياس للمسلم وللجماعة المسلمة .

والمجتمع المسلم هو المجتمع الذى يقوم فى دار الإسلام بتعريفها ذاك .

---

(١) لا يلزم الذمى بكل أحكام الإسلام . إنما يلزم فقط بما لا يتعارض مع عقيدته من أحكام الإسلام ..

Marfat.com

وهذا المجتمع ، القائم على منهج الله ، المحكوم بشريعته ، هو الذى يستحق أن تصان فيه الدماء ، وتصان فيه الأموال ؛ ويصان فيه النظام العام ؛ وأن توقع على المخلين بأمنه ، المعتدين على الأرواح والأموال فيه العقوبات التى تنص عليها الشريعة الإسلامية ، فى هذا الدرس وفى سواه .. ذلك أنه مجتمع رفيع فاضل ؛ ومجتمع متحرر عادل ؛ ومجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل وضمانات الكفاية لكل قادر ولكل عاجز ؛ ومجتمع تتوافر فيه الحوافز على الخير وتقل فيه الحوافز على الشر من جميع الوجوه . فمن حقه إذن على كل من يعيش فيه أن يرعى هذه النعمة التى يسبغها عليه النظام ؛ وأن يرعى حقوق الآخرين كلها من أرواح وأموال وأعراض وأخلاق ؛ وأن يحافظ على سلامة « دار الإسلام » التى يعيش فيها آمنا سالما غانما مكفول الحقوق جميعا ، معترفا له بكل خصائصه الإنسانية ، وبكل حقوقه الاجتماعية ـ بل مكلفا بحماية هذه الخصائص والحقوق ـ فمن خرج بعد ذلك كله على نظام هذه الدار ـ دار الإسلام ـ فهو معتد أثيم شرير يستحق أن يؤخذ على يده بأشد العقوبات ؛ مع توفير كل الضمانات له فى أن لا يؤخذ بالظن ، وأن تدرأ عنه الحدود بالشبهات .

فأما « دار الحرب » .. بتعريفها ذاك .. فليس من حقها ولا من حق أهلها أن يتمتعوا بما توفره عقوبات الشريعة الإسلامية من ضمانات ، لأنها ابتداء لا تطبق شريعة الإسلام ، ولا تعترف بحاكمية الإسلام .. وهى ـ بالنسبة للمسلمين (الذين يعيشون فى دار الإسلام ويطبقون على حياتهم شريعة الإسلام) ـ ليست حمى. فأرواحها وأموالها مباحة ؛ لا حرمة لها عند الإسلام ـ إلا بعهد من المسلمين ؛ حين تقوم بينها وبين دار الإسلام المعاهدات ـ كذلك توفر الشريعة هذه الضمانات كلها للأفراد الحربيين (القادمين من دار الحرب) إذا دخلوا دار الإسلام بعهد أمان ؛ مدة هذا العهد ؛ وفى حدود « دار الإسلام » التى تدخل فى سلطان الحاكم المسلم (والحاكم المسلم هو الذى يطبق شريعة الإسلام) .

وعلى ضوء هذا البيان نستطيع أن نمضى مع السياق :

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق : إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط

Marfat.com

يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين : إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال : ياويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين ...»

هذه القصة تقدم نموذجا لطبيعة الشر والعدوان ؛ ونموذجا كذلك من العدوان الصارخ الذى لا مبرر له . كما تقدم نموذجا لطبيعة الخير والسماحة ؛ ونموذجا كذلك من الطيبة والوداعة . وتقفهما وجها لوجه ، كل منهما يتصرف وفق طبيعته .. وترسم الجريمة المنكرة التى يرتكبها الشر ، والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير ؛ ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء ؛ وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة ؛ فإذا ارتكبها ـ على الرغم من ذلك ـ وجد الجزاء العادل ، المكافىء للفعلة المنكرة . كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه . فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش ، وأن تصان ، وأن تأمن ؛ فى ظل شريعة عادلة رادعة .

ولا يحدد السياق القرآنى لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة .. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن : « قابيل وهابيل » وأنهما هما ابنا آدم فى هذه القصة ؛ وورود تفصيلات عن القضية بينهما ، والنزاع على أختين لهما .. فإننا نؤثر أن نستبقى القصة ـ كما وردت ـ مجملة بدون تحديد . لأن هذه الروايات كلها موضع شك فى أنها مأخوذة عن أهل الكتاب ـ والقصة واردة فى العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذى تذكره هذه الروايات ـ والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل . وهو من رواية ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » .. رواه الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود .. وأخرجه الجماعة ـ سوى أبى داود ـ من طرق عن الأعمش .. وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع فى فترة طفولة الإنسان ، وأنه كان أول حادث قتل عدوانى متعمد ، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث ..

Marfat.com

وبقاء القصة مجملة ـ كما وردت فى سياقها القرآنى ـ يؤدى الغرض من عرضها ؛ ويؤدى الإيحاءات كاملة ؛ ولا تضيف التفصيلات شيئا إلى هذه الأهداف الأساسية .. لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله ..

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم ـ بالحق ـ إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين » ..

واتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية ـ بعد ما تلوت من قصة بنى إسرائيل مع موسى ـ اتله عليهم بالحق . فهو حق وصدق فى روايته ؛ وهو ينبىء عن حق فى الفطرة البشرية ؛ وهو يحمل الحق فى ضرورة الشريعة العادلة الرادعة .

إن ابنى آدم هذين فى موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء فى نفس طيبة . . فهما فى موقف طاعة بين يدى الله . موقف تقديم قربان ، يتقربان به إلى الله :

« إذ قربا قربانا » ..

« فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » ..

والفعل مبنى للمجهول ؛ ليشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية ؛ وإلى كيفية غيبية .. وهذه الصياغة تفيدنا أمرين : الأول ألا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير فى روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير « العهد القديم » .. والثانى الإيحاء بأن الذى قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبيت قتله ، فالأمر لم يكن له يد فيه ؛ وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية ؛ تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته .. فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه ، وليجيش خاطر القتل فى نفسه ! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة فى هذا المجال .. مجال العبادة والتقرب ، ومجال القدرة الغيبية الخفية التى لا دخل لإرادة أخيه فى مجالها ..

« قال : لأقتلنك » . .

وهكذا يبدو هذا القول ـ بهذا التأكيد المنبىء عن الإصرار ـ نابيا مثيرا للاستنكار لأنه ينبعث من غير موجب ؛ اللهم إلا ذلك الشعور الخبيث المنكر . شعور الحسد الأعمى ؛ الذى لا يعمر نفسا طيبة ..

Marfat.com

وهكذا نجدنا منذ اللحظة الأولى ضد الاعتداء : بإيحاء الآية التى لم تكمل من السياق ..

ولكن السياق يمضى يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة ؛ بتصوير استجابة النموذج الآخر ؛ ووداعته وطيبة قلبه :

« قال : إنما يتقبل الله من المتقين » .

هكذا فى براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله ؛ وفى إيمان يدرك أسباب القبول ؛ وفى توجيه رفيق للمعتدى أن يتقى الله ؛ وهداية له إلى الطريق الذى يؤدى إلى القبول ؛ وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يستثيره . .

ثم يمضى الأخ المؤمن التقى الوديع المسالم يكسر من شرة الشر الهائج فى نفس أخيه الشرير :

« لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين » . .

وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى ؛ فى أشد المواقف استجاشة للضمير الإنسانى ؛ وحماسة للمعتدَى عليه ضد المعتدِى ؛ وإعجابا بهدوئه واطمئنانه امام نذر الاعتداء ؛ وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين .

ولقد كان فى هذا القول اللين ما يفتأ الحقد ؛ ويهدّئ الحسد ، ويسكن الشر ، ويمسح على الأعصاب المهتاجة ؛ ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة ، وبشاشة الإيمان ، وحساسية التقوى .

أجل . لقد كان فى ذلك كفاية . . ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير :

« إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » . .

إذا أنت مددت يدك إلى لتقتلنى ، فليس من شأنى ولا من طبعى أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك . فهذا الخاطر ـ خاطر القتل ـ لا يدور بنفسى أصلاً ، ولا يتجه إليه فكرى إطلاقا . . خوفا من الله رب العالمين . . لا عجزاً عن إتيانه . . وأنا تاركك تحمل إثم قتلى وتضيفه إلى إثمك الذى جعل الله لا يتقبل منك قربانك ؛ فيكون إثمك مضاعفاً ، وعذابك مضاعفاً . « وذلك جزاء الظالمين » . .

Marfat.com

وبذلك صور له إشفاقه هو من جريمة القتل ، ليثنيه عما تراوده به نفسه ، وليخجله من هذا الذى تحدثه به نفسه تجاه أخ مسالم وديع تقى

وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه ، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف ، بالخوف من الله رب العالمين ؛ وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان فى صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان .

ولكن النموذج الشرير لا تكمل صورته ، حتى نعلم كيف كانت استجابته :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ..

بعد هذا كله . بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير . بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة ، فوقعت الجريمة . وقمت وقد ذللت له نفسه كل عقبة ، وطوعت له كل مانع . . طوعت له نفسه القتل . . وقتل من ؟ قتل أخيه .. وحق عليه النذير :

« فأصبح من الخاسرين » . .

خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك . وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق . وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة . وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير ..

ومثلت له سوأة الجريمة فى صورتها الحسية . صورة الجثة التى فارقتها الحياة وباتت لحماً يسرى فيه العفن ، فهو سوأة لا تطيقها النفوس .

وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه ـ وهو الباطش القاتل الفاتك ـ عن أن يوارى سوأة أخيه. عجزه عن أن يكون كالغراب فى أمة الطير :

« فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال: ياويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين » ..

وتقول بعض الروايات : إن الغراب قتل غرابا آخر ، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب ، فجعل يحفر فى الأرض ، ثم واراه وأهال عليه التراب .. فقال القاتل قوله . وفعل مثلما رأى الغراب يفعل ..

وظاهر أن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتاً يدفن ـ وإلا لفعل ـ وقد يكون ذلك لأن

Marfat.com

هـذا كان أول ميت فى الأرض من أبناء آدم . أو لأن هذا القاتل كان حدثا ولم ير من يدفن ميتا . . والاحتمالان قائمان . وظاهر كذلك أن ندمه لم يكن ندم التوبة ـ وإلا لقبل الله توبته ـ وإنما كان الندم الناشىء من عدم جدوى فعلته ، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق .

كما أن دفن الغراب لأخيه الغراب ، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس. وقد يكون حدثا خارقا أجراه الله .. وهذه كتلك سواء . . فالذى يودع الأحياء غرائزهم هو الذى يجرى أى حدث على يد أى حى .. هذا من قدرته ، وهذا من قدرته على السواء . .

وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التى تتركها فى النفس رواية النبأ بهذا التسلسل ، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذى فرض لتلافى الجريمة فى نفس المجرم ؛ أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التى تنتظره :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل : أنه من قتل نفسا ـ بغير نفس أو فساد فى الأرض ـ فكأنما قتل الناس جميعا ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » .

من أجل ذلك . . من أجل وجود هـذه النماذج فى البشرية . . من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين ، الذين لا يريدون شرا ولا عدوانا . . ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان فى بعض الجبلات المطبوعة على الشر ؛ وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور فى النفس . . من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعا ؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملا عظيما يعدل إنقاذ الناس جميعا .. وكتبنا ذلك على بنى إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة (وسيأتى فى الدرس التالى فى سياق السورة بيان شريعة القصاص مفصلة) .

إن قتل نفس واحدة ـ فى غير قصاص لقتل ، وفى غير دفع فساد فى الأرض ـ يعدل قتل الناس جميعا . لأن كل نفس ككل نفس ؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس . فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ؛ الحق الذى تشترك فيه كل النفوس . كذلك

Marfat.com

Marfat.com

دفع القتل عن نفس ، واستحياؤها به ذا الدفع ـ سواء كان بالدفاع عنها فى حالة حياتها أو بالقصاص لها فى حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى ـ هو استحياء للنفوس جميعا ، لأنه صيانة لحق الحياة الذى تشترك فيه النفوس جميعا .

وبالرجوع إلى البيان الذى قدمنا به لهذه الأحكام ، يتبين أن هذا التقرير ينطبق ـ فقط ـ على أهل دار الإسلام ـ من مسلمين وذميين ومستأمنين ـ فأما دم أهل دار الحرب فهو مباح ـ مالم تقم بينهم وبين أهل دار الإسلام معاهدة ـ وكذلك مالهم . فيحسن أن نكرن دائما على ذكر من هذه القاعدة التشريعية ؛ وأن نتذكر كذلك أن دار الإسلام هى الأرض التى تقام فيها شريعة الإسلام ، ويحكم فيها بهذه الشريعة ، وأن دار الحرب هى الأرض التى لا تقام فيها شريعة الله ، ولا يحكم فيها بهذه الشريعة ...

ولقد كتب الله ذلك المبدأ على بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا ـ فى ذلك الحين ـ هم أهل الكتاب ؛ الذين يمثلون «دار الإسلام» ماأقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء.. ولكن بنى إسرائيل تجاوزوا حدود شريعتهم ـ بعد ماجاءتهم الرسل بالبينات الواضحة ـ وكانوا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم . والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء ؛ بغير عذر ؛ ويسجل عليهم كذلك انقطاع حجتهم على الله وسقوطها بمجىء الرسل إليهم ، وبيان شريعتهم لهم :

« ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » ..

وهل من إسراف أشد من تجاوز حدود الله ؛ والتعدى على شريعته ، بالتغيير أو بالإهمال ؟

* * *

وفى الآية السابقة قرن الله قتل النفس بالفساد فى الأرض ؛ وجعل كلا منهما مبررا للقتل ، واستثناء من صيانة حق الحياة ، وتفظيع جريمة إزهاق الروح .. ذلك أن أمن الجماعة المسلمة فى دار الإسلام ، وصيانة النظام العام الذى تستمتع فى ظله بالأمان ، وتزاول نشاطها الخير فى

طمأنينة . . ذلك كله ضرورى كأمن الأفراد . . بل أشد ضرورة ؛ لأن أمن الأفراد لا يتحقق إلا به ؛ فضلا على صيانة هذا النموذج الفاضل من المجتمعات ، وإحاطته بكل ضمانات الاستقرار ؛ كيما يزاول الأفراد فيه نشاطهم الخير ، وكيما تترقى الحياة الإنسانية فى ظله وتثمر ، وكيما تتفتح فى جوه براعم الخير والفضيلة والإنتاج والنماء . . وبخاصة أن هـذا المجتمع يوفر للناس جميعا ضمانات الحياة كلها ، وينشر من حولهم جوا تنمو فيه بذور الخير وتذوى بذور الشر ، ويعمل على الوقاية قبل أن يعمل على العلاج ، ثم يعالج مالم تتناوله وسائل الوقاية ولا يدع دافعا ولا عذرا للنفس السوية أن تميل إلى الشر وإلى الاعتداء . . فالذى يهدد أمنه ـ بعد ذلك كله ـ هو عنصر خبيث يجب استئصاله ؛ مالم يثب إلى الرشد والصواب . .

فالآن يقرر عقوبة هـذا العنصر الخبيث ، وهو المعروف فى الشريعـة الإسلاميـة بحد الحرابة :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض . . ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » . .

وحدود هذه الجريمة التى ورد فيها هذا النص ، هى الخروج على الإمام المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، والتجمع فى شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهـل دار الإسلام ؛ وتعتدى على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم . ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيدا عن مدى سلطان الإمام . ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة ، وأخذها فى الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقا عليها . سواء خارج المصر أو داخله . وهذا هو الأقرب للواقع العملى ومجابهته بما يستحقه

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله ؛ المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة (سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد) لا يحاربون الحاكم وحـده ، ولا يحاربون الناس وحدهم . إنما هم يحاربون الله ورسوله . حينما يحاربون شريعته ، ويعتدون

Marfat.com

Marfat.com

على الأمة القائمة على هذه الشريعة ، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة . كما أنهم بحربهم لله ورسوله ، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التى تطبقها ، يسعون فى الأرض فسادا . . فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله ، وترويع الدار التى تقام فيها هذه الشريعة ..

إنهم يحاربون الله ورسوله .. وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم . فهم قطعا لا يحاربون الله ـ سبحانه ـ بالسيف ، وقد لا يحاربون شخص رسول الله ـ بعد اختياره الرفيق الأعلى ـ ولكن الحرب لله ورسوله متحققة ، بالحرب لشريعة الله ورسوله ، وللجماعة التى ارتضت شريعة الله ورسوله ، وللدار التى تنفذ فيها شريعة الله ورسوله .

كما أن للنص ـ فى صورته هذه ـ مفهوما آخر متعينا كهذا المفهوم ـ هو أن السلطان الذى يحق له ـ بأمر الله ـ أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة ، هو السلطان الذى يقوم على شريعة الله ورسوله ، فى دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله .. وليس أى سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة ، فى أية دار أخرى لا يتوفر لها هذا الوصف ..

نقرر هذا بوضوح ، لأن بعض أذناب السلطة فى كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة ، ولا يحققون وجود دار إسلام فى بلادهم ، ولو زعموا أنهم مسلمون .. كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات ـ باسم شريعة الله ـ بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله ؛ بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله . .

إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله فى دار الإسلام ، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله .. وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله ؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه ؛ فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه ؟ !

.. إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلحة ، التى تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله ؛ وتروع عباد الله فى دار الإسلام ، وتعتدى على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم .. أن يقتلوا تقتيلا عاديا . أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل

للترويع والإرهاب) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى . . من خلاف . .

ويختلف الفقهاء اختلافا واسعاً حول هذا النص: إن كان للإمام الخيار فى هذه العقوبات ، أم أن هناك عقوبة معينة لـكل جريمة تقع من الخارجين .

« ويرى الفقهاء فى مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمـد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التى وقعت . فمن قتل ولم يأخذ مالا قتل ، ومن أخذ المـال ولم يقتل قطع ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن أخاف السبيل ولـكنه لم يقتل ولم يأخذ مالا نفى :

« وعند مالك أن المحارب إذا قتل فلا بد من قتله وليس للإمام تخيير فى قطعه ولا فى نفيه ، وإنما التخيير فى قتله أو صلبه ، وأما إن أخذ المال ولم يقتل فلا تخيير فى نفيه ، وإنما التخيير فى قتله أو صلبه أو قطعه من خلاف . وأما إذا أخاف السبيل فقط ، فالإمام مخير فى قتله أو صلبه أو قطعه أو نفيه .. ومعنى التحيير عند مالك أن الأمر راجع فى ذلك إلى اجتهاد الإمام . فإن كان المحارب ممن له الرأى والتدبير فوجه الاجتهاد قتله أو صلبه ، لأن القطع لا يدفع ضرره . وإن كان لا رأى له وإنما هو ذو قوة وبأس قطعه من خلاف . وإن كان ليس له شىء من هاتين الصفتين أخذ بأيسر ذلك وهو النفى والتعزير » (١) .

ونحن نختار رأى الإمام مالك فى الفقرة الأخيرة منه ، وهى أن العقوبة قد توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل . لأن هـذا إجراء وقائى المقصود منه أولا منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين فى الأرض الذين يروعون دار الإسلام ؛ ويفزعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله فى هذه الدار . وهى أجدر جماعة وأجدر دار بالأمن والطمأنينة والسلام .

كذلك يختلفون فى معنى النفى من الأرض . . هل هو النفى من الأرض التى ارتـكب فيها جريمته ؟ أم هو النفى من الأرض التى يملك فيها حريته وذلك بحبسه . أم هو النفى من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت ؟

ونحن نختار النفى من أرض الجريمة ، إلى مكان ناء يحس فيه بالغربة والتشريد والضعف ؛ جزاء ما شرد الناس وخوّفهم وطغى بقوته فيهم . حيث يصبح فى منفاه عاجزا عن مزاولة جريمته بضعف عصبيته ، أو بعزله عن عصابته !

---

(١) عن كتاب : « التشريع الجنائى فى الإسلام مقارنا بالقانون الوضعى » لعبد القادر عودة .

Marfat.com

Marfat.com

« ذلك لهم خزى فى الدنيا .. ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ..

فالجزاء الذى يلقونه إذن فى الدنيا لايسقط عنهم العذاب فى الآخرة ، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى . وهذا كذلك تغليظ للعقوبة ، وتبشيع للجريمة . . ذلك أن الجماعة المسلمة فى دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة . وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذى يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره . وهذا هو النظام العادل الكامل الذى يجب أن يصان من المساس به ..

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم ، نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة ، وتوبة منهم إلى الله ورجوعا إلى طريقه المستقيم ـ وهم مايزالون فى قوتهم ، لم تنلهم يد السلطان ـ سقطت جريمتهم وعقوبتها معا ، ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل ، وكان الله غفورا لهم رحيما بهم فى الحساب الأخير :

« إلا الذين تابوا ـ من قبل أن تقدروا عليهم ـ فاعلموا أن الله غفور رحيم » ..

والحكمة واضحة فى إسقاط الجريمة والعقوبة فى هذه الحالة عنهم من ناحيتين :

الأولى : تقدير توبتهم ـ وهم يملكون العدوان ـ واعتبارها دليل صلاح واهتداء .

والثانية : تشجيعهم على التوبة ، وتوفير مؤنة الجهد فى قتالهم من أيسر سبيل .

والمنهج الإسلامى يتعامل مع الطبيعة البشرية بكل مشاعرها ومساربها واحتمالاتها ؛ والله الذى رضى للمسلمين هذا المنهج هو بارئ هذه الطبيعة ، الخبير بمسالكها ودروبها ، العليم بما يصلحها وما يصلح لها .. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ..

* * *

والمنهج الربانى لا يأخذ الناس بالقانون وحده . إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف . فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب ، وتقويم الطبع . وهداية الروح ـ ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذى تنمو فيه بذرة الخير وتزكو ، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوى ـ لذلك ما يكاد ينتهى السياق القرآنى من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب

والضمائر والأرواح ؛ يستجيش فيها مشاعر التقوى ؛ ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد فى سبيله رجاء الفلاح ؛ ويحذرها عاقبة الكفر به ؛ ويصور لها مصائر الكفار فى الآخرة تصويرا موحيا بالخشية والاعتبار :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون . إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم . ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ..

إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعا ؛ ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعا ؛ ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية .. إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف . والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة . وليست العقوبة غاية ، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة .

وهنا نرى أنه يبدأ هذا الشوط بنبأ ابنى آدم ـ بكل ما فيه من موحيات ـ ثم يثنى بالعقوبة التى تخلع القلوب . ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه . ومع الدعوة التصوير الرعيب للعقاب ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ..

فالخوف ينبغى أن يكون من الله . فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان . أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة . لا تحتاج إليها إلا النفوس الهابطة .. والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى .. على أن تقوى الله هى التى تصاحب الضمير فى السر والعلن ؛ وهى التى تكف عن الشر فى الحالات التى لا يراها الناس ، ولا تتناولها يد القانون . وما يمكن أن يقوم القانون وحده ـ مع ضرورته ـ بدون التقوى ؛ لأن ما يفلت من يد القانون حينئذ أضعاف أضعاف ما تناله . ولاصلاح لنفس ، ولا صلاح لمجتمع يقوم على القانون وحده ؛ بلا رقابة غيبية وراءه ، وبلا سلطة إلهية يتقيها الضمير .

« وابتغوا إليه الوسيلة » ..

Marfat.com

اتقوا الله ؛ واطلبوا إليه الوسيلة ؛ وتلمسوا ما يصلكم به من الأسباب .. وفى رواية عن ابن عباس : ابتغوا إليه الوسيلة ؛ أى ابتغوا إليه الحاجة . والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون فى الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية ؛ ويكونون - بهذا - فى أصلح أوضاعهم وأقربها إلى الفلاح . وكلا التفسيرين يصلح للعبارة ؛ ويؤدى إلى صلاح القلب ، وحياة الضمير ، وينتهى إلى الفلاح المرجو .

« لعلكم تفلحون » ..

وعلى الجانب الآخر مشهد الكفار ، الذين لا يتقون الله ولا يبتغون إليه الوسيلة ولا يفلحون .. وهو مشهد شاخص متحرك ؛ لا يعبر عنه السياق القرآنى فى أوصاف وتقريرات ، ولكن فى حركات وانفعالات .. على طريقة القرآن فى رسم مشاهد القيامة ؛ وفى أداء معظم الأغراض :

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ..

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض : هو أن يكون للذين كفروا كل ما فى الأرض جميعا . ولكن السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال فى عالم الافتراض . فيفرض أن لهم ما فى الأرض جميعا ، ومثله معه ؛ ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة . ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار . ثم عجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم فى العذاب الأليم المقيم ..

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات .. منظرهم ومعهم ما فى الأرض ومثله معه .. ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به . ومنظرهم وهم مخيبو الطلب غير مقبولى الرجاء .. ومنظرهم وهم يدخلون النار .. ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها .. ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . ويسدل الستار ، ويتركهم مقيمين هناك[1] !

---

(١) يراجع فصل « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » وكذلك كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن ».

Marfat.com

Marfat.com

وفى نهاية هذا الدرس يرد حكم السرقة :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ـ نكالا من الله ـ والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم . ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شىء قدير » ..

إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام ـ على اختلاف عقائدهم ـ ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة فى التوزيع . وفى الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه .. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. فمن حقه إذن أن يشدد فى عقوبة السرقة ، والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة .. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت ..

ولعله من المناسب أن نفصل شيئا فى هذا الإجمال ..

إن النظام الإسلامى كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر فى طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته . كذلك لا تصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملا ؛ ويعمل به جملة . أما الاجتزاء بحكم من أحكام الإسلام ، أو مبدأ من مبادئه ، فى ظل نظام ليس كله إسلاميا ، فلا جدوى له ؛ ولا يعد الجزء المقتطع منه تطبيقا للإسلام . لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق . الإسلام هو هذا النظام المتكامل الذى يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة ..

هذا بصفة عامة . أما بالنسبة لموضوع السرقة ، فالأمر لا يختلف ..

إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد ، فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ، فى الحياة . وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة .. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يسكن له بيت يكنه ويؤويه ، ويجد فيه السكن والراحة .. من حق كل فرد على الجماعة ـ وعلى الدولة النائبة عن الجماعة ـ أن يحصل على هذه الضروريات .. أولا عن طريق العمل ـ

ما دام قادرا على العمل ـ وعلى الجماعة ـ والدولة النائبة عن الجماعة ـ أن تعلمه كيف يعمل ، وأن تيسر له العمل ، وأداة العمل .. فإذا تعطل لعدم وجود العمل ، أو أداته ، أو لعدم قدرته على العمل ، جزئيا أو كليا ، وقتيا أو دائما . أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته . فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه : أولا : من النفقة التى تفرض له شرعا على القادرين فى أسرته . وثانيا على القادرين من أهل محلته . وثالثا : من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له فى الزكاة . فإذا لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الإسلام كلها فى دار الإسلام ، ما يحقق الكفاية للمحرومين فى مال اواجدين ؛ بحيث لاتتجاوز هذه الحدود ، ولا تتوسع فى غير ضرورة . ولا تجور على الملكية الفردية الناشئة من حلال ..

والإسلام كذلك يتشدد فى تحديد وسائل جمع المال ؛ فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال .. ومن ثم لا تثير الملكية الفردية فى المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون ؛ ولا تثير أطماعهم فى سلب ما فى أيدى الآخرين .. وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية ؛ ولا يدعهم محرومين .

والإسلام يربى ضمائر الناس وأخلاقهم ؛ فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب عن طريقه ؛ لا إلى السرقة والكسب عن طريقها .. فإذا لم يوجد العمل ، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم ، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة ..

وإذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟ إنه لا يسرق لسد حاجة . إنما يسرق للطمع فى الثراء من غير طريق العمل . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الجماعة المسلمة فى دار الإسلام . ويحرمها الطمأنينة التى من حقها أن تستمتع بها . ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

وإنه لمن حق كل فرد فى مثل هذا المجتمع ، كسب ماله من حلال ، لا من ربا ، ولا من غش ، ولا من احتكار ، ولا من أكل أجور العمال ، ثم أخرج زكاته ، وقدم ما قد يحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة .. من حق كل فرد فى مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص ، والا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات

Marfat.com

Marfat.com

فإذا سرق السارق بعد ذلك كله .. إذا سرق وهو مكفى الحاجة ، متبين حرمة الجريمة ، غير مهتاج لسلب ما فى أيدى الآخرين ، لأن الآخرين لم يغصبوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام.. إذا سرق فى مثل هذه الأحوال ، فإنه لا يسرق وله عذر . ولا ينبغى لأحـد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة .

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها ، فالمبدأ العام فى الإسلام هو درء الحدود بالشبهات. لذلك لم يقطع عمر ـ رضى الله عنه ـ فى عام الرمادة ، حينما عمت المجاعة . ولم يقطع كذلك فى حادثة خاصة ؛ عندما سرق غلمان ابن حاطب ابن أبى بلتعة ناقة من رجل من مزينة . فقد أمر بقطعهم ؛ ولـكن حين تبين له أن سيدهم يجيعهم ، درأ عنهم الحـد ؛ وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديبا له ..

وهكذا ينبغى أن تفهم حدود الإسلام ، فى ظل نظامه المتكامل ؛ الذى يضع الضمانات للجميع لا لطبقة على حساب طبقة .. والذى يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة . والذى لا يعاقب إلا المعتدين بلا مبرر للاعتداء ..

وبعد بيان هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نأخذ فى الحديث عن حد السرقة ..

السرقة هى أخذ مال الغير ، المحرّز ، خفية.. فلا بد أن يـكون المأخوذ مالا مقوّما ..والحد المتفق عليه تقريبا بين فقهاء المسلمين للمال الذى يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار .. أى حوالى خمسة وعشرين قرشا بنقدنا الحاضر .. ولا بد أن يـكون هذا المـال محرّزا وأن يأخذه السارق من حرزه ، ويخرج به عنه . . فلا قطع مثلا على المؤتمن على مال إذا سرقه . والخادم المـأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق لأنه ليس محرّزا منه . ولا على المستعير إذا جحد العارية . ولا على الثمار فى الحقل حتى يؤويها الجرين . ولا على المال خارج البيت أو الصندوق المعد لصيانته... وهكذا .. ولا بد أن يـكون هذا المـال المحرّز للغير .. فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريـكه لأن له فيه شركة فليس خالصـا للغير . والذى يسرق من بيت مال المسلمين لا يقطع لأن له نصيبا فيه فليس خالصا للغير كذلك .. والعقوبة فى مثل هذه الحالات ليست هى القطع، وإنما هى التعزير .. (والتعزير عقوبة دون الحد، بالجلد

أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة فى بعض الحالات التى يناسبها هـذا حسب رأى القاضى والظروف المحيطة)

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ . فإذا عاد كان القطع فى الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه فى القطع .. ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة .

والشبهة تدرأ الحد .. فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحـد . وشبهة الشركة فى المـال تدرأ الحد . ورجوع المعترف فى اعترافه ـ إذا لم يـكن هناك شهود ـ شبهة تدرأ الحـد . ونـكول الشهود شبهة ... وهكـذا ..

ويختلف الفقهاء فيما يعدونه شبهة . فأبو حنيفة مثلا يدرأ الحد فى سرقة ما هو مباح الأصل ـ حتى بعد إحرازه ـ كسرقة الماء بعد إحرازه ، وسرقة الصيد بعد صيده ، لأن كليهما مباح الأصل . وإباحة الأصل تورث شبهة فى بقائه مباحا بعد إحرازه . والشركة العامة فيه تورث شبهة فى بقاء الشركة بعد الإحراز . . بينما مالك والشافعى وأحمد لا يدرأون الحدّ فى مثل هذه الحالة . ويدرأ أبوحنيفة الحدّ فى سرقة كل ما يسارع إليه الفساد ، كالطعام الرطب والبقول واللحم والخبز وما أشبه . ويخالفه أبو يوسف ويأخذ برأى الثلاثة .

ولا نملك أن نمضى فى تفصيل اختلافات الفقهاء فى هذا المجال ، فتطلب فى كتب الفقه ؛ وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على سماحة الإسلام وحرصـه على ألا يأخـذ الناس بالشبهات .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ادرأوا الحدود بالشبهات » وعمر ابن الخطاب يقول : « لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلى من أن أقيمها بالشبهات » .. (١)

ولـكن لا بد من كلمة فى ملاءمة عقوبة القطع فى السرقة ؛ بعد بيان موجبات التشدد فى أخـذ السارق بالحـد ، فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ؛ بعد توافر أسباب الوقاية وضمانات العدالة ..

« وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر فى السرقة إنما يفـكر فى أن يزيد كسبه بكسب غيره . فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه من طريق

(١) يراجع كتاب : التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى لعبد القادر عودة.

Marfat.com

الحرام . وهو لا يكتفى بثمرة عمله ، فيطمع فى ثمرة عمل غيره . وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل . أو ليأمن على مستقبله . فالدافع الذى يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء .. وقد حاربت الشريعة هذا الدافع فى نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع . لأن قطع اليد أو الرجل يؤدى إلى نقص الكسب ، إذ اليد والرجل كلاهما أداة العمل أيا كان . ونقص الكسب يؤدى إلى نقص الثراء . وهذا يؤدى إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل .

« فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبةُ القطع دفعت العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة . فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان فى العقوبة والمرارة التى تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

« ذلك هو الأساس الذى قامت عليه عقوبة السرقة فى الشريعة الإسلامية . وإنه لعمرى خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتى الآن ...

« وتجعل القوانين الحبس عقوبة السرقة . وهى عقوبة قد أخفقت فى محاربة الجريمة على العموم . والسرقة على الخصوص . والعلة فى هذا الإخفاق أن عقوبة الحبس لا تخلق فى نفس السارق العوامل النفسية التى تصرفه عن جريمة السرقة . لأن عقوبة الحبس لا تحول بين السارق وبين العمل إلا مدة الحبس[1]، وما حاجته إلى الكسب فى المحبس وهو موفر الطلبات مكفى الحاجات ؟ فإذا خرج من محبسه استطاع أن يعمل وأن يكسب . وكان لديه أوسع الفرص لأن يزيد من كسبه وينمى ثورته ، من طريق الحلال والحرام على السواء ! واستطاع أن يخدع الناس وأن يظهر أمامهم بمظهر الشريف ، فيأمنوا جانبه ، ويتعاونوا معه . فإن وصل فى الخاتمة إلى ما يبغى فذلك هو الذى أراد ؛ وإن لم يصل إلى بغيته فإنه لم يخسر شيئاً ، ولم تفته منفعة ذات بال .

---

(١) بعضهم يزاول الكسب فى محبسه بطرق شتى حتى لتربو مكاسبه فى محبسه عليها فى خارجه !

Marfat.com

« أما عقوبة القطع فتحول بين السارق وبين العمل ، أو تنقص من قدرته على العمل والكسب نقصاً كبيراً ؛ ففرصة زيادة الكسب مقطوع بضياعها على كل حال ، ونقص الكسب إلى حد ضئيل أو انقطاعه هو المرجح فى أغلب الأحوال، ولن يستطيع أن يخدع الناس أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه رجل يحمل أثر الجريمة فى جسمه ، وتعلن يده المقطوعة عن سوابقه . فالخاتمة التى لا يخطئها الحساب أن جانب الخسارة مقطوع به إذا كانت العقوبة القطع ؛ وجانب الربح مرجح إذا كانت العقوبة الحبس . وفى طبيعة الناس كلهم ـ لا السارق وحده ـ أن لا يتأخروا عن عمل يرجح فيه جانب المنفعة ، وألا يقدموا على عمل تتحقق فيه الخسارة .

« واعجب بعد ذلك ممن يقولون : إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية فى عصرنا الحاضر . كأن الإنسانية والمدنية أن تقابل السارق بالمكافأة على جريمته ، وأن نشجعه على السير فى غوايته ، وأن نعيش فى خوف واضطراب ، وأن نكد ونشقى ليستولى على ثمار عملنا العاطلون واللصوص !

« ثم اعجب بعد ذلك مرة ثانية ممن يقولون : إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية ، كأن للمدنية والإنسانية أن ننكر العلم الحديث والمنطق الدقيق ؛ وأن ننسى طبائع البشر ، ونتجاهل تجارب الأمم؛ وأن نلغى عقولنا ، ونهمل النتائج التى وصل إليها تفكيرنا، لنأخذ بما يقوله قائله فلا يجد عليه دليلا إلا التهويل والتضليل !

« وإذا كانت العقوبة الصالحة حقاهى التى تتفق مع المدنية والإنسانية ، فإن عقوبة الحبس قد حق عليها الإلغاء ، وعقوبة القطع قد كتب لها البقاء . لأن الأخيرة تقوم على أساس متين من علم النفس . وطبائع البشر وتجارب الأمم ، ومنطق العقول والأشياء . وهى نفس الأسس التى تقوم عليها المدنية والإنسانية . أما عقوبة الحبس فلا تقوم على أساس من العلم ولا التجربة ، ولا تتفق مع منطق العقول ولا طبائع الأشياء .

« إن أساس عقوبة القطع هو دراسة نفسية الإنسان وعقليته . فهى إذن عقوبة ملائمة للأفراد، وهى فى الوقت ذاته صالحة للجماعة ، لأنها تؤدى إلى تقليل الجرائم، وتأمين المجتمع وما دامت العقوبة ملائمة للفرد وصالحة للجماعة ، فهى أفضل العقوبات وأعدلها » .

Marfat.com

«ولـكن ذلك كله لا يـكفى عند بعض الناس لتبرير عقوبة القطع ، لأنهم يرونها ـ كما يقولون ـ عقوبة موسومة بالقسوة . وتلك حجتهم الأولى والأخيرة . وهى حجة داحضة . فإن اسم العقوبة مشتق من العقاب ، ولا يكون العقاب عقابا إذا كان موسوما بالرخاوة والضعف ، بل يكون لعباً أو عبثاً أو شيئاً قريباً من هذا . فالقسوة لا بد أن تتمثل فى العقوبة حتى يصح تسميتها بهذا الاسم » (١) .

والله ـ سبحانه ـ وهو أرحم الراحمين يقول وهو يشدد عقوبة السرقة :

« فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نـكالا من الله . . »

فهى تنـكيل من الله رادع . والردع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدثه نفسه بها ، لأنه يكفه عنها . ورحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة . . ولن يدعى أحد أنه أرحم بالناس من خالق الناس ، إلا وفى قلبه عمى ، وفى روحه انطماس ! والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبق فى خلال نحو قرن من الزمان فى صدر الإسلام إلا فى آحاد ؛ لأن المجتمع بنظـامه ، والعقوبة بشدتها ، والضمانات بكفايتها لم تنتج إلا هذه الآحاد .

ثم يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب ، على أن يندم ويرجع ويكف ؛ ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية ، بل يعمل عملا صالحاً ، ويأخذ فى خير إيجابى :

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم » ..

فالظلم عمل إيجابى شرير مفسد ؛ ولا يكفى أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد : بل لا بد أن يعوضه بعمل إيجابى خير مصلح .. على أن الأمر فى المنهج الربانى أعمق من هذا .. فالنفس الإنسانية لا بد أن تتحرك ، فإذا هى كفت عن الشر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح بقى فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد . فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح فإنهـا تأمن الارتداد إلى الشر والفساد ؛ بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء .. إن الذى يربى بهذا المنهج هو الله .. الذى خلق والذى يعلم من خلق ..

---

(١) عن كتاب: « التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى » لعبد القادر عودة .. الجزء الأول ص ٦٥٢ ـ ص ٦٥٤

Marfat.com

Marfat.com

وعلى ذكر الجريمة والعقوبة ، وذكر التوبة والمغفرة ، يعقب السياق القرآنى بالمبدأ الكلى الذى تقوم عليه شريعة الجزاء فى الدنيا والآخرة . فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه ، وصاحب السلطان الكلى فى مصائره . هو الذى يقرر مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذى يشرّع للناس فى حياتهم ، ثم يجزيهم على عملهم فى دنياهم وآخرتهم .

« ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قدير » .

فهى سلطة واحدة .. سلطة الملك .. يصدر عنها التشريع فى الدنيا ويصدر عنها الجزاء فى الآخرة ، ولا تعدد ولا انقسام ولا انفصام .. ولا يصلح أمر الناس إلا حين تتوحد سلطة التشريع وسلطة الجزاء ، فى الدنيا والآخرة سواء .. و« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .. « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » ..

« يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا . سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ : إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا . وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ؛ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ؛ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ؛ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ ـ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ـ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذٰلِكَ ؟ وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

« إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ

Marfat.com

هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ . وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ . وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟ » ٥٠

Marfat.com

يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية ، والمنهج الإسلامى . ونظام الحكم والحياة فى الإسلام .. وهى القضية التى عولجت فى سورتى آل عمران والنساء من قبل.. ولكنها هنا فى هذه السورة تتخذ شكلا محدداً مؤكدا ؛ يدل عليها النص بألفاظه وعباراته ، لا بمفهومه وإيحائه ..

إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضى ـ ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان ـ والقضية فى جوهرها تتلخص فى الإجابة على هذا السؤال :

أيكون الحكم والشريعة والتقاضى حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التى استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى ؛ وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التى لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذى يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ وبتعبير آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله فى الأرض وفى حياة الناس ؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟

الله ـ سبحانه ـ يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو . وإن شرائعه التى سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها ؛ هى التى يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهى التى يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهى التى يجب أن يقضى بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام ..

والله ـ سبحانه ـ يقول : إنه لا هوادة فى هذا الأمر ، ولا ترخص فى شىء منه ، ولا انحراف عن جانب ولو صغير . وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح ليه قبيل ، مما لم يأذن به الله فى قليل ولا كثير !

والله ـ سبحانه ـ يقول : إن المسألة ـ فى هذا كله ـ مسألة إيمان أو كفر ؛ أو إسلام أو جاهلية ؛ وشرع أو هوى . وإنه لا وسط فى هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله ـ لا يخرمون منه حرفا ولا يبدلون منه شيئا ـ والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله . وأنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله

Marfat.com

كاملة فهم فى نطاق الإيمان . وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون . وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه فى أمورهم فهم مؤمنون .. إلا فما هم بالمؤمنين .. ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ؛ ولا حجة ولا معذرة ، ولا احتجاج بمصلحة . فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس ؛ ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية . وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة . وليس لأحد من عباده أن يقول : إننى أرفض شريعة الله ، أو إننى أبصر بمصلحة الخلق من الله .. فإن قالها ـ بلسانه أو بفعله ـ فقد خرج من نطاق الإيمان ..

هذه هى القضية الخطيرة الكبيرة التى يعالجها هذا الدرس فى نصوص تقريرية صريحة .. ذلك إلى جانب ما يصوره من حال اليهود فى المدينة ، ومناوراتهم ومؤامراتهم مع المنافقين : « من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . وما يوجه به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمواجهة هذا الكيد الذى لم تكف عنه يهود ، منذ أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ..

والسياق القرآنى فى هذا الدرس يقرر أولا: توافى الديانات التى جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزل الله ؛ وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ؛ وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر ؛ وبين الإسلام والجاهلية ؛ وبين الشرع والهوى .. فالتوراة أنزلها الله فيها هدى ونور : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ».. « وعندهم التوراة فيها حكم الله » .. « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... الخ » .. والإنجيل آتاه الله عيسى ابن مريم « مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » .. والقرآن أنزله الله على رسوله « بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » وقال له : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .. « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » .. وكذلك تتوافى الديانات كلها على هذا الأمر ، ويتعين حد الإيمان وشرط الإسلام ، سواء للمحكومين أو للحكام .. والمناط هو الحكم بما أنزل الله من الحكام ،

Marfat.com

وقبول هذا الحـكم من المحـكومين ، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام ..

والمـألة فى هذا الوضع خطيرة ؛ والتشدد فيها على هذا النحو يستند إلى أسباب لا بد خطيرة كذلك . فما هى يا ترى هذه الأسباب ؟ إننا نحاول أن نتلمسها سواء فى هـذه النصوص أو فى السياق القرآنى كله ، فنجدها واضحة بارزة ..

إن الاعتبار الأول فى هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر ـ بلا شريك ـ أو رفض هذا الإقرار .. ومن هنا هى قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام ..

.. والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة ..

إن الله هو الخالق .. خلق هذا الـكون ، وخلق هذا الإنسان . وسخر ما فى السماوات والأرض لهذا الإنسان .. وهو ـ سبحانه ـ متفرد بالخلق ، لا شريك له فى كثير منه أو قليل.

وإن الله هو المالك .. بما أنه هو الخالق .. ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما .. فهو ـ سبحانه ـ متفرد بالملك . لا شريك له فى كثير منه أو قليل .

وإن الله هو الرازق .. فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئا . لا من الـكثير ولا من القليل ..

وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف فى الـكون والناس .. بما أنه هو الخالق المـالك الرازق .. وبمـا أنه هو صاحب القدرة التى لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر . وهو ـ سبحانه ـ المتفرد بالسلطان فى هذا الوجود .

والإيمان هو الإقرار لله ـ سبحانه ـ بهذه الخصائص . الألوهية ، والملك ، والسلطان ... متفردا بها لا يشاركه فيها أحد . والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص .. هو إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله ـ وحياة الناس ضمنا ـ والاعتراف بسلطانه الممثل فى قدَره ؛ وللممثل كذلك فى شريعته . فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو ـ قبل كل شىء ـ الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه . ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة ، واتخاذ شريعة غيرها فى أية جزئية من جزئيات الحياة ، هو ـ قبل كل شىء ـ

رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه .. ويستوى أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول .. وهى من ثم قضية كفر أو إيمان؛ وجاهلية أو إسلام. ومن هنا يجىء هذا النص : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « الظالمون » .. « الفاسقون » .

والاعتبار الثانى هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس .. هذه الأفضلية التى تشير إليها الآية الأخيرة فى هذا الدرس : « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، فى كل طور من أطوار الجماعة ، وفى كل حالة من حالاتها . . هو كذلك داخل فى قضية الكفر والإيمان .. فما يملك إنسان أن يدعى أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، فى أية حالة أو فى أى طور من أطوار الجماعة الإنسانية .. ثم يدعى ـ بعد ذلك ـ أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين ..إنه يدعى أنه أعلم من الله بحال الناس ؛ وأحكم من الله فى تدبير أمرهم . أو يدعى أن أحوالا وحاجات جدت فى حياة الناس ، وكان الله ـ سبحانه ـ غير عالم بها وهو يشرع شريعته ؛ أو كان عالما بها ولكنه لم يشرع لها ! ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام . مهما قالها باللسان!

فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها . فإن حكمة شرائع الله لاتنكشف كلها للناس فى جيل من الأجيال . والبعض الذى ينكشف يصعب التوسع فى عرضه هنا .. فى الظلال.. فنكتفى منه ببعض اللمسات :

إن شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية ؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ؛ فى جميع حالاتها ، وفى كل صورها وأشكالها ..

وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنسانى ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ؛ وبطبيعة النواميس التى تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية .. ومن ثم لا يفرط فى شىء من أمور هذه الحياة ؛ ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أى تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنسانى ؛ ولا أى تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية ؛ إنما

Marfat.com

يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق.. الأمر الذى لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذى لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر ؛ وإلا الجانب المكشوف فى فترة زمنية معينة ؛ ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنسانى ؛ ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض. والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم [1] .

وهو منهج قائم على العدل المطلق .. أولا .. لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق .. وثانيا .. لأنه ـ سبحانه ـ رب الجميع ؛ فهو الذى يملك أن يعدل بين الجميع ؛ وأن يجىء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف ـ كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط ـ الأمر الذى لا يمكن أن يتوافر فى أى منهج أو فى أى شرع من صنع الإنسان ، ذى الشهوات والميول ، والضعف والهوى ـ فوق ما به من الجهل والقصور ـ سواء كان المشرع فردا ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلا من أجيال البشر .. فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى فى الحالة الواحدة فى الجيل الواحد ..

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كونى ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ؛ بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التى تحكمها .. ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذى يعيش فيه ؛ وتأخذ الشريعة التى تنظم حياته طابعا كونيا ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بنى جنسه فحسب ! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء فى هذا الكون العريض ، الذى يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بد له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم .. إنه المنهج الوحيد الذى يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان .. ففى كل منهج ـ غير المنهج الإسلامى ـ يتعبد الناس الناس . ويعبد الناس الناس . وفى المنهج الإسلامى ـ وحده ـ يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك ..

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » فصل : « تخبط واضطراب » .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء السادس

إن أخص خصائص الألوهية ـ كما أسلفنا ـ هى الحاكمية .. والذى يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها . فهم عبيده لا عبيدالله ، وهم فى دينه لا فى دين الله.

والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان . بل يعلن « ميلاد الإنسان » .. فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله ؛ وإلا حين يتساوى فى هذا الشأن مع الناس جميعا أمام رب الناس ..

إن هذه القضية التى تعالجها نصوص هذا الدرس هى أخطر وأكبر قضايا العقيدة .. إنها قضية الألوهية والعبودية . قضية العدل والصلاح . قضية الحرية والمساواة . قضية تحرر الإنسان ـ بل ميلاد الإنسان ـ وهى من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان ، وقضية الجاهلية أو الإسلام ..(١)

والجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ إنما هى حالة توجد كلما وجدت مقوماتها فى وضع أو نظام .. وهى فى صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوى أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس .. فكلها .. ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله .. أهواء ..

يشرع فرد لجماعة فإذا هى جاهلية . لأن هواه هو القانون .. أو رأيه هو القانون .. لا فرق إلا فى العبارات !

وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هى جاهلية . لأن مصالح تلك الطبقة هى القانون ـ أو رأى الأغلبية البرلمانية هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات !

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات فى الأمة لأنفسهم فإذا هى جاهلية .. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدا من الأهواء ، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبدا من الجهل ، هو القانون ـ أو لأن رأى الشعب هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات !

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وكتاب : « هذا الدين » وكتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

Marfat.com

وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هى جاهلية . لأن أهدافها القومية هى القانون ـ أو رأى المجامع الدولية هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات !

ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هى شريعة الله التى لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته ـ سبحانه ـ أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط .

ويشرع غير الله للناس .. فإذا هم عبيد من يشرع لهم . كائنا من كان . فردا أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم ..

ويشرع الله للناس .. فإذا هم كلهم أحرار متساوون ، لا يخنون جباههم إلا لله، ولا يعبدون إلا الله .

ومن هنا خطورة هذه القضية فى حياة بنى الإنسان ، وفى نظام الكون كله : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج فى النهاية عن نطاق الإيمان .. بنص القرآن ..

* * *

« يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا .. سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم . لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .سماعون للكذب ، أكالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك ـ وعندهم التوراة فيها حكم الله ـ ثم يتولون من بعد ذلك ؟ وما أولئك بالمؤمنين » ..

هذه الآيات تشى بأنها مما نزل فى السنوات الأولى للهجرة ؛ حيث كان اليهود ما يزالون

Marfat.com

بالمدينة ـ أى قبل غزوة الأحزاب على الأقل وقبل التنكيل ببنى قريظة إن لم يكن قبل ذلك أيام أن كان هناك بنو النضير وبنو قينقاع ، وأولاهما أجليت بعد أحد والثانية أجليت قبلها ـ ففى هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه ؛ وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحية إلى الجحر ! وكان هؤلاء وهؤلاء يسارعون فى الكفر ؛ ولو قال المنافقون بأفواههم : آمنا .. وكان فعلهم هذا يحزن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويؤذيه ..

والله ـ سبحانه ـ يعزى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويواسيه ؛ ويهون عليه فعال القوم، ويكشف للجماعة المسلمة حقيقة المسارعين فى الكفر من هؤلاء وهؤلاء ؛ ويوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المنهج الذى يسلكه معهم حين يأتون إليه متحاكمين ؛ بعد ما يكشف له عما تآمروا عليه قبل أن يأتوا إليه وما بيتوه :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا : آمنا ، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا .. سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ... »

روى أن هذه الآيات نزلت فى قوم من اليهود ارتكبوا جرائم ـ تختلف الروايات فى تحديدها ـ منها الزنا ومنها السرقة .. وهى من جرائم الحدود فى التوراة ؛ ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها ؛ لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم فى مبدأ الأمر . ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع ، وأحلوا محلها عقوباب أخرى من عقوبات التعازير (كما صنع الذين يزعمون أنهم مسلمون فى هذا الزمان !) .. فلما وقعت منهم هذه الجرائم فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تآمروا على أن يستفتوه فيها .. فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها ، وكانت هذه حجة لهم عند الله .. فقد أفتاهم بها رسول ! .. وإن حكم فيها بمثل ما عندهم فى التوراة لم يأخذوا بحكمه .. فدسوا بعضهم يستفتيه .. ومن هنا حكاية قولهم :

« إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا » ..

وهكذا بلغ منهم العبث ، وبلغ منهم الاستهتار ، وبلغ منهم الالتواء أيضا فى التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المبلغ.. وهى صورة تمثل أهل كل كتاب حين

Marfat.com

يطول عليهم الأمد ، فتقسو قلوبهم ؛ وتبرد فيها حرارة العقيدة ، وتنطفئ شعلتها ؛ ويصبح التفصى من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذى يبحث له عن الوسائل ؛ ويبحث له عن « الفتاوى » لعلها تجد مخرجا وحيلة ؛ أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون : إنهم مسلمون : « من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » ! أليسوا يتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين ؟ أليسوا يتمسحون بالدين أحيانا لكى يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها ! فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم الحق فلا حاجة بهم إليه .. « يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه ؛ وإن لم تؤتوه فاحذروا » ! إنه الحال نفسه . ولعله لهذا كان الله ـ سبحانه ـ يقص قصة بنى إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل ، لتحذر منها أجيال « المسلمين » وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق .

والله ـ سبحانه ـ يقول لرسوله فى شأن هؤلاء المسارعين بالكفر ، وفى شأن هؤلاء المتآمرين المبيتين لهذه الألاعيب : لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر . فهم يسلكون سبيل الفتنة ، وهم واقعون فيها ، وليس لك من الأمر شىء ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها ولجوا فيها :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » ..

وهؤلاء دنست قلوبهم ، فلم يرد الله أن يطهرها ، وأصحابها يلجون فى الدنس :

« أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » ..

وسيجزيهم بالخزى فى الدنيا والعذاب العظيم فى الآخرة :

« لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ..

فلا عليك منهم ، ولا يحزنك كفرهم ، ولا تحفل بأمرهم . فهو أمر مقضى فيه ..

ثم يمضى فى بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد فى الخلق والسلوك ، قبل أن يبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف يتعامل معهم إذا جاءوا إليه متحاكمين :

« سماعون للكذب ، أكالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين » ..

كرر أنهم سماعون للكذب . مما يشى بأن هذه أصبحت خصلة لهم .. تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل ، وتنقبض لسماع الحق والصدق . . وهذه طبيعة القلوب حين تفسد ، وعادة الأرواح حين تنطمس . . ما أحب كلمة الباطل والزور فى المجتمعات المنحرفة ، وما أثقل كلمة الحق والصدق فى هذه المجتمعات .. وما أروج الباطل فى هذه الآونة وما أشد بوار الحق فى هذه الفترات الملعونة !

وهؤلاء : سماعون للكذب . أكالون للسحت .. والسحت كل مال حرام .. والربا والرشوة وثمن الكلمة والفتوى ! فى مقدمة ما كانوا يأكلون ، وفى مقدمة ما تأكله المجتمعات التى تنحرف عن منهج الله فى كل زمان ! وسمى الحرام سحتا لأنه يقطع البركة ويمحقها . وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة . كما نرى ذلك بأعيننا فى كل مجتمع شارد عن منهج الله وشريعة الله .

ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار فى أمرهم إذا جاءوه يطلبون حكمه ـ فإن شاء أعرض عنهم ـ ولن يضروه شيئا ـ وإن شاء حكم بينهم . فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط ، غير متأثر بأهوائهم ، وغير متأثر كذلك بمسارعتهم فى الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم ..

« إن الله يحب المقسطين » ..

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحاكم المسلم ، والقاضى المسلم ، إنما يتعامل مع الله فى هذا الشأن ؛ وإنما يقوم بالقسط لله . لأن الله يحب المقسطين . فإذا ظلم الناس وإذا خانوا ، وإذا انحرفوا ، فالعدل فوق التأثر بكل ما يصدر منهم . لأنه ليس عدلا لهم ؛ وإنما هو لله .. وهذا هو الضمان الأكيد فى شرع الإسلام وقضاء الإسلام ، فى كل مكان وفى كل زمان .

وهذا التخيير فى أمر هؤلاء اليهود يدل على نزول هذا الحكم فى وقت مبكر . إذ أنه بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضى لشريعة الإسلام حتميا . فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا شريعة الله . وأهلها جميعا ملزمون بالتحاكم إلى هذه الشريعة . مع اعتبار المبدإ الإسلامى الخاص بأهل الكتاب فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ؛ وهو ألا يجبروا إلا على ما هو وارد فى شريعتهم من الأحكام ؛ وعلى ما يختص بالنظام العام . فيباح لهم ما هو مباح فى شرائعهم ، كامتلاك الخنزير

Marfat.com

Marfat.com

وأكله ، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم . ويحرم عليهم التعامل الربوى لأنه محرم عندهم. وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقة لأنها واردة فى كتابهم وهكذا . كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد فى الأرض كالمسلمين سواء ، لأن هذا ضرورى لأمن دار الإسلام وأهلها جميعا : مسلمين وغير مسلمين . فلا يتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام ..

وفى تلك الفترة التى كان الحكم فيها على التخيير ، كانوا يأتون ببعض قضاياهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثال ذلك ما رواه مالك ، عن نافع ، عن عبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : « إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . قال عبد الله ابن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال عبد الله ابن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم ! فأمر بهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجما . فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة » .. (أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى)

ومثال ذلك ما رواه الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال :

« أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مئة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمئة وسق فقالت الذليلة : وهل كان فى حيين دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطينا كم هذا ضيما منكم لنا ، وفرقا منكم . فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ! فكادت الحرب تهيج بينهما . ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكما بينهم . ثم ذكرت العزيزة ، فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم ! فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه .. إن

أعطاكم ما تريدون حكمتموه . وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ! فدسوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاءوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمرهم كله وما أرادوا . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ، إلى قوله : « الفاسقون » .. ففيهم والله أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل .. (أخرجه أبو داود من حديث أبى الزناد عن أبيه) . . وفى رواية لابن جرير عين فيها « العزيزة » وهى بنو النضير « والذليلة » وهى بنو قريظة .. مما يدل ـ كما قلنا ـ على أن هذه الآيات نزلت مبكرة قبل إجلائهم والتنكيل بهم ..

وقد عقب السياق بسؤال استنكارى على موقف يهود ـ سواء كان فى هذه القضية أو تلك فهو موقف عام منهم وتصرف مطرد ـ فقال :

« وكيف يحكمونك ـ وعندهم التوراة فيها حكم الله ـ ثم يتولون من بعد ذلك ؟ » ..

فهى كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيحكم بشريعة الله وحكم الله ، وعندهم ـ إلى جانب هذا ـ التوراة فيها شريعة الله وحكمه ؛ فيتطابق حكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما عندهم فى التوراة ؛ مما جاء القرآن مصدقا له ومهيمنا عليه .. ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون . سواء كان التولى بعدم التزام الحكم ؛ أو بعدم الرضى به ..

ولا يكتفى السياق بالاستنكار . ولكنه يقرر الحكم الإسلامى فى مثل هذا الموقف :

« وما أولئك بالمؤمنين » ..

فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة . والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم « مؤمنون » ثم هم لا يحكمون شريعة الله فى حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم .. إنما يدعون دعوى كاذبة ؛ وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع : « وما أولئك بالمؤمنين » . فليس الأمر فى هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب ؛ بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين ، يخرجهم من دائرة الإيمان ، مهما ادعوه باللسان .

Marfat.com

وهذا النص هنا يطابق النص الآخر ، فى سورة النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .. فكلاهما يتعلق بالمحكومين لا بالحكام . وكلاهما يخرج من الإيمان ، وينفى صفة الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله ورسوله ، ومن يتولى عنه ويرفض قبوله .

ومرد الأمر كما قلنا فى مطلع الحديث عن هذا الدرس .. أن القضية هى قضية الإقرار بألوهية الله ـ وحده ـ وربوبيته وقوامته على البشر . أو رفض هذا الإقرار . وأن قبول شريعة الله والرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته وربوبيته وقوامته ؛ ورفضها والتولى عنها هو مظهر رفض هذا الإقرار .

* * *

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله فى حياتهم .. فالآن يجىء حكمه ـ تعالى ـ على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله . الحكم الذى تتوافى جميع الديانات التى جاءت من عند الله عليه :

ويبدأ بالتوراة :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ؛ فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ..

لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية . جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجىء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى فى الهيكل والمحراب . فهذه وتلك ـ على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما فى تربية الضمير البشرى ـ لا يكفيان

Marfat.com

الجزء السادس

وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ؛ ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا فى حياة الناس ؛ ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ؛ ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزى الناس وفق شرائعه فى الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه فى الحياة الآخرة .

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقى .. حين تكون السلطة لله فى الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره فى الأنظمة والشرائع .. وحين تكون السلطة لله فى جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره فى عقوبات الدنيا .. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين .. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذى تشير إليه آيات القرآن فى مناسبات شتى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .. « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة فى جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التى تنشىء التصور الصحيح للحياة ، إلى جانب الشعائر التعبدية التى تربط القلوب بالله .. وكانت هذه الجوانب الثلاثة هى قوام دين الله . حيثما جاء دين من عند الله . لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة (١) .

وفى القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى ، التى ربما جاءت لقرية من القرى ، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل ، فى الصورة المناسبة للمرحلة التى تمر بها القرية

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب « المستقبل لهذا الدين » وكتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

Marfat.com

أو القبيلة .. وهنا يعرض هذا التكامل فى الديانات الثلاث الكبرى .. اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ..

ويبدأ بالتوراة فى هذه الآيات التى نحن بصددها فى هذه الفقرة :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ..

فالتوراة ـ كما أنزلها الله ـ كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم فى الحياة .. وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى . وتحمل كذلك شريعة :

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب . ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة فى إطار هذا المنهج . ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ؛ فليس لهم فى أنفسهم شىء ؛ إنما هى كلها لله ؛ وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى فى خصيصة من خصائص الألوهية ـ وهذا هو الإسلام فى معناه الأصيل ـ يحكمون بها للذين هادوا ـ فهى شريعتهم الخاصة نزلت لهم فى حدودهم هذه وبصفتهم هذه ـ كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ؛ وهم قضاتهم وعلماؤهم . وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة فى أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة فى قومهم بإقامة شريعته بينهم .

وقبل أن ينتهى السياق من الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجهها فى شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف ، وجزاء نكوله أو مخالفته :

Marfat.com

« فلا تخشوا الناس واخشون ؛ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه ـ فى كل زمان وفى كل أمة ـ معارضة من بعض الناس ؛ ولن تتقبله نفوس هـــذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام .. ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث . ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذى يدعونه ؛ ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله .. وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقى على مصالحهم الظالمة.. وستواجهه معارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها .. وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك ؛ ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح فى الأرض .

علم الله ـ سبحانه ـ أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات ؛ وأنه لابد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ؛ وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها فى النفس والمال .. فهو يناديهم :

« فلا تخشوا الناس واخشون » ..

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار ـ من ثم ـ بتفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية . أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التى تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها .. لاتقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضى فى تحكيم شريعة الله فى الحياة . فالله ـ وحده ـ هو الذى يستحق أن يخشوه . والخشية لا تكون إلا لله ..

كذلك علم الله ـ سبحانه ـ أن بعض المستحفظين على كتاب الله للستشهدين ؛ قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا ؛ وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ،

Marfat.com

لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعا ، طمعا فى عرض الحياة الدنيا ـ كما يقع من رجال الدين المحترفين فى كل زمان وفى كل قبيل ؛ وكما كان ذلك واقعا فى علماء بنى إسرائيل .

فناداهم الله :

« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » . .

وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة !

وكل ثمن هو فى حقيقته قليل . ولو كان ملك الحياة الدنيا . . فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة ؛ يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين ؟!

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن ؛ وليس أبشع من تفريط المستحفظ ؛ وليس أخس من تدليس المستشهد . والذين يحملون عنوان : « رجال الدين » يخونون ويفرطون ويدلسون ، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوى السلطان على حساب كتاب الله . .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . .

بهذا الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم الذى تحمله « من » الشرطية وجملة الجواب . بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطلق حكما عاما ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، فى أى جيل ، ومن أى قبيل . .

والعلة هى التى أسلفنا . . هى أن الذى لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية . الله فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها فى جانب ، ويدعى لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها فى جانب آخر . . وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل ـ وهو أقوى تعبيرا من الكلام ـ ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟!

إن المماحكة فى هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعنى إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول فى مثل هذا الحكم لا يعنى إلا محاولة تحريف الكلم

Marfat.com

Marfat.com

عن مواضعه . . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر فى صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد .

وبعد بيان هذا الأصل القاعدى فى دين الله كله ، يعود السياق ، لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا ـ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء :

« وكتبنا عليهم فيها : أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ..

وقد استبقيت هذه الأحكام التى نزلت بها التوراة فى شريعة الإسلام ؛ وأصبحت جزءا من شريعة المسلمين ، التى جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان . وإن كانت لا تطبق إلا فى دار الإسلام ، لاعتبارات عملية بحتة ؛ حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام . وحيثما كان ذلك فى استطاعتها فهى مكلفة تنفيذها وتطبيقها ، بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة ، للأزمان كافة ، كما أرادها الله .

وقد أضيف إليها فى الإسلام حكم آخر فى قوله تعالى :

« فمن تصدق به فهو كفارة له » ..

ولم يكن ذلك فى شريعة التوراة . إذ كان القصاص حتما ؛ لا تنازل فيه ، ولا تصدق به ، ومن ثم فلا كفارة ..

ويحسن أن نقول كلمة عن عقوبات القصاص هذه على قدر السياق فى الظلال .

أول ما تقرره شريعة الله فى القصاص ، هو مبدأ المساواة .. المساواة فى الدماء والمساواة فى العقوبة .. ولم تكن شريعة أخرى ـ غير شريعة الله ـ تعترف بالمساواة بين النفوس ، فتقتص للنفس بالنفس ، وتقتص للجوارح بمثلها ، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس ..

النفس بالنفس . والعين بالعين . والأنف بالأنف . والأذن بالأذن . والسن بالسن .

Marfat.com

والجروح قصاص .. لا تميز . ولا عنصرية . ولا طبقية . ولا حاكم . ولا محكوم .. كلهم سواء أمام شريعة الله . فكلهم من نفس واحدة فى خلقة الله .

إن هذا المبدأ العظيم الذى جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقى الكامل لميلاد «الإنسان» الإنسان الذى يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة .. أولا فى التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد . وثانيا فى المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة .

وهو أول إعلان .. وقد تخلفت شرائع البشر الوضعية عشرات من القرون حتى ارتفعت إلى بعض مستواه من ناحية النظريات القانونية ، وإن ظلت دون هـــذا المستوى من ناحية التطبيق العملى .

ولقد انحرف اليهود الذين ورد هذا المبدأ العظيم فى كتابهم ـ التوراة ـ عنه ؛ لا فيما بينهم وبين الناس فحسب ، حيث كانوا يقولون : « ليس علينا فى الأميين سبيل » بل فيما بينهم هم أنفسهم . على نحو ما رأينا فيما كان بين بنى قريظة الذليلة ، وبنى النضير العزيزة ؛ حتى جاءهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فردهم إلى شريعة الله ـ شريعة المساواة .. ورفع جباه الأذلاء منهم فساواها بجباه الأعزاء !

والقصاص على هذا الأساس العظيم ـ فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان ـ هو العقاب الرادع الذى يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل ، أو الاعتـداء عليها بالجرح والكسر ، يفكر مرتين ومرات قبل أن يقدم على ما حدثته به نفسه ، وما زينه له اندفاعه ؛ وهو يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل ـ دون نظر إلى نسبه أو مركزه ، أو طبقته ، أو جنسه ـ وأنه مأخوذ بمثل ما أحدث من الإصابة . إذا قطع يدا أو رجلا قطعت يده أو رجله ؛ وإذا أتلف عيناً أو أذنا أو أنفا أو سـنا ، أتلف من جسمه ما يقابل العضو الذى أتلفه . . وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه هو السجن ـ طالت مدة السجن أو قصرت ـ فالألم فى البدن ، والنقص فى الكيان ، والتشويه فى الخلقـة شىء آخر غير آلام السجن . . على نحو ما سبق بيانه فى حد السرقة . .

والقصاص على هذا الأساس العظيم ـ فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان ـ هو القضاء

Marfat.com

الذى تستريح إليه الفطرة ؛ والذى يذهب بحزازات النفوس ، وجراحات القلوب ، والذى يسكن فورات الثأر الجامحة ، التى يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية .. وقد يقبل بعضهم الدية فى القتل والتعويض فى الجراحات . ولكن بعض النفوس لا يشفيها إلا القصاص ..

وشرعُ الله فى الإسلام يلحظ الفطرة ـ كما لحظها شرع الله فى التوراة ـ حتى إذا ضمن لها القصاص المريح .. راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو ـ عفو القادر على القصاص :

« فمن تصدق به فهو كفارة له »

من تصدق بالقصاص متطوعا . . سواء كان هو ولى الدم فى حالة القتل (والصدقة تكون بأخذ الدية مكان القصاص ، أو بالتنازل عن الدم والدية معاً وهذا من حق الولى ، إذ العقوبة والعفو متروكان له ويبقى للإمام تعزير القاتل بما يراه) أو كان هو صاحب الحق فى حالة الجروح كلها ، فتنازل عن القصاص . . من تصدق فصدقته هذه كفارة لذنوبه ؛ يحط بها الله عنه .

وكثيراً ما تستجيش هذه الدعوة إلى السماحة والعفو ، وتعليق القلب بعفو الله ومغفرته . نفوساً لا يغنيها العوض المالى ؛ ولا يسليها القصاص ذاته عمن فقدت أو عما فقدت . . فماذا يعود على ولى المقتول من قتل القاتل ؟ أو ماذا يعوضه من مال عمن فقد ؟ . . إنه غاية ما يستطاع فى الأرض لإقامة العدل ، وتأمين الجماعة .. ولكن تبقى فى النفس غية لا يمسح عليها إلا تعليق القلوب بالعوض الذى يجىء من عند الله . .

روى الإمام أحمد . قال : حدثنا وكيع ، حدثنا يونس ابن أبى إسحاق ، عن أبى السفر ، قال : « كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار . فاستعدى عليه معاوية . فقال معاوية: سنرضيه . . فألح الأنصارى . . فقال معاوية : شأنك بصاحبك ! ـ وأبو الدرداء جالس ـ فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة ، أو حط به عنه خطيئة » .. فقال الأنصارى : فإنى قد عفوت » . .

وهكذا رضيت نفس الرجل واستراحت بما لم ترض من مال معاوية الذى لوح له به للتعويض » . .

وتلك شريعـة الله العليم بخلقه ؛ وبما يحيك فى نفوسهم من مشاعر وخواطر ، وبما يتعمق قلوبهم ويرضيها ؛ ويسكب فيها الاطمئنان والسلام من الأحكام .

وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة ، التى صارت طرفا من شريعة القرآن ، يعقب بالحكم العام :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . .

والتعبير عام ، ليس هناك ما يخصصه ؛ ولـكن الوصف الجديد هنا هو « الظالمون » .

وهذا الوصف الجديد لا يعنى أنها حالة أخرى غير التى سبق الوصف فيها بالـكفر . وإنما يعنى إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله . فهو كافر باعتباره رافضا لألوهيـة الله ـ سبحانه ـ واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهيـة بادعائه حق التشريع للناس . وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم . فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلـكة ، وتعريضها لعقاب الـكفر . وبتعريض حياة النـاس ـ وهو معهم ـ للفساد .

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط : « ومن لم يحكم بما أنزل الله » . . فجواب الشرط الثانى يضاف إلى جواب الشرط الأول ؛ ويعود كلاهما على المسـند إليه فى فعل الشرط وهو « من » المطلق العام .

* * *

ثم يمضى السياق فى بيان اطراد هذا الحـكم العام فيما بعد التوراة .

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة . وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . .

لقد آتى الله عيسى ابن مريم الإنجيل ، ليـكون منهج حياة ، وشريعة حكم . . ولم يتضمن الإنجيل فى ذاته تشريعا إلا تعديلات طفيفة فى شريعـة التوراة . وقد جاء مصدقا لما بين يديه

Marfat.com

Marfat.com

من التوراة ، فاعتمد شريعتها ـ فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة .. وجعل الله فيه هدى ونوراً، وهدى وموعظة . . ولـكن لمن ؟ . . « للمتقين » . فالمتقون هم الذين يجدون فى كتب الله الهدى والنور والموعظة ، هم الذين تتفتح قلوبهم لما فى هذه الـكتب من الهدى والنور ؛ وهم الذين تتفتح لهم هذه الـكتب عما فيها من الهدى والنور .. أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة ، فلا تبلغ إليها الموعظة ؛ ولا تجد فى الـكلمات معانيها ؛ ولا تجد فى التوجيهات روحها ؛ ولا تجد فى العقيدة مذاقها ؛ ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب.. إن النور موجود ، ولـكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة ، وإن الهدى موجود ، ولـكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة ، وإن الموعظة موجودة ، ولـكن لا يلتقطها إلا القلب الواعى .

وقد جعل الله فى الإنجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين ، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل .. أى إنه خاص بهم ، فليس رسالة عامة للبشر ـ شأنه فى هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول ، قبل هذا الدين الأخير ـ ولـكن ما طابق من شريعته ـ التى هى شريعة التوراة ـ حكم القرآن فهو من شريعة القرآن . كما مر بنا فى شريعة القصاص.

وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التى أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة :

« وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » .

فالقاعده هى الحـكم بما أنزل الله دون سواه . وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ـ قبل الإسـلام ـ وما أنزل إليهم من ربهم ـ بعد الإسلام ـ فـكله شريعة واحدة ، هم ملزمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هى الشريعة المعتمدة :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . .

والنص هنا كذلك على عمومه وإطلاقه . . وصفة الفسق تضاف إلى صفتى الـكفر والظلم من قبل . وليست تعنى قوماً جددا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى . إنما هى صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أى جيل ، ومن أى قبيل .

الـكفر برفض ألوهية الله ممثلا هذا فى رفض شريعته . والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله

وإشاعة الفساد فى حياتهم . والفسق بالخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه .. فهى صفات تضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل . ويبوء بها جميعا دون تفريق .

* * *

وأخيرا يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة ؛ وإلى الشريعة الأخيرة .. إنها الرسالة التى جاءت تعرض « الإسلام » فى صورته النهائية الأخيرة ؛ ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعا ؛ ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هى المرجع النهائى ؛ ولتقيم منهج الله للحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها . المنهج الذى تقوم عليه الحياة فى شتى شعبها ونشاطها ؛ والشريعة التى تعيش الحياة فى إطارها وتدور حول محورها ؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادى ، ونظامها الاجتماعى ، وآداب سلوكها الفردى والجماعى .. وقد جاءت كذلك ليحكم بها ، لا لتعرف وتدرس ، وتتحول إلى ثقافة فى الكتب والدفاتر ! وقد جاءت لتتبع بكل دقة ، ولا يترك شىء منها ويستبدل به حكم آخر فى صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة .. فإما هذا وإما فهى الجاهلية والهوى . ولا يشفع فى هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل فى الدين . فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة . إنما يريد الله أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم . واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .. »

ويقف الإنسان أمام هذه الصاعة فى التعبير ، وهذا الحسم فى التقرير ، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهجس فى الخاطر من مبررات لترك شىء - ولو قليل - من هذه الشريعة فى بعض

Marfat.com

الملابسات والظروف .. يقف الإنسان أمام هذا كله ، فيعجب كيف ساغ لمسلم ـ يدعى الإسلام ـ أن يترك شريعة الله كلها ، بدعوى الملابسات والظروف ! وكيف ساغ له أن يظل يدعى الإسلام بعد هذا الترك الكلى لشريعة الله ! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم « مسلمين » ؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم ، وهم يخلعون شريعة الله كلها ؛ ويرفضون الإقرار له بالألوهية ، فى صورة رفضهم الإقرار بشريعته ، وبصلاحية هذه الشريعة فى جميع الملابسات والظروف ، وبضرورة تطبيقها كلها فى جميع الملابسات والظروف !

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ..

يتمثل الحق فى صدوره من جهة الألوهية ، وهى الجهة التى تملك حق تنزيل الشرائع ، وفرض القوانين . . ويتمثل الحق فى محتوياته ، وفى كل ما يعرض له من شئون العقيدة والشريعة ، وفى كل ما يقصه من خبر ، وما يحمله من توجيه .

« مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » ..

فهو الصورة الأخيرة لدين الله ، وهو المرجع الأخير فى هذا الشأن ، والمرجع الأخير فى منهج الحياة وشرائع الناس ، ونظام حياتهم ، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل .

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه . سواء كان هذا الاختلاف فى التصور الاعتقادى بين أصحاب الديانات السماوية ، أو فى الشريعة التى جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة . أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم ، فالمرجع الذى يعودون إليه بآرائهم فى شأن الحياة كله هو هذا الكتاب ، ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير .

وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة :

« فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ..

والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين . ولكنه ليس خاصا بهذا السبب ، بل هو عام .. وإلى آخر

Marfat.com

Marfat.com

الزمان ..طالما أنه ليس هناك رسول جديد ، ولا رسالة جديدة ، لتعديل شيء ما فى هذا المرجع الأخير !

لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين . ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله ، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى . وقد علم الله حين رضيه للناس ، أنه يسع الناس جميعا . وعلم الله حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا . وأنه يسع حياة الناس جميعا ، إلى يوم الدين . وأى تعديل فى هذا المنهج ـ ودعك من العدول عنه ـ هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة . يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين !

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين . . وأن هواجس قد تتسرب فى ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه ، فى بعض الملابسات والظروف . فحذر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه ..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية فى تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة ، والاتجاهات والعقائد المتجمعة فى بلد واحد . ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل فى الأمور الطفيفة ، أو التى يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة !

وقد روى أن اليهود عرضوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح فى أحكام بعينها منها حكم الرجم . وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض .. ولكن الأمر ـ كما هو ظاهر ـ أعم من حالة بعينها وعرض بعينه . فهو أمر يعرض فى مناسبات شتى ، ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة فى كل حين .. وقد شاء الله ـ سبحانه ـ أن يحسم فى هذا الأمر ، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية فى التساهل

مراعاة للاعتبارات والظروف ، وتأليفا للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء . فقال لنبيه : إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهاجا ؛ وجعلهم مبتلون مختبرون فيما آتاهم من الدين والشريعة ، وما آتاهم فى الحياة كلها من عطايا . وأن كلا منهم يسلك طريقه ؛ ثم يرجعون كلهم إلى الله ، فينبئهم بالحقيقة ، ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق .. وأنه إذن لا يجوز أن يفكر فى التساهل فى شىء من الشريعة لتجميع المختلفين فى المشارب والمناهج .. فهم لا يتجمعون :

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

بذلك أغلق الله ـ سبحانه ـ مداخل الشيطان كلها ؛ وبخاصة ما يبدو منها خيرا وتأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف ؛ بالتساهل فى شىء من شريعة الله ؛ فى مقابل إرضاء الجميع ! أو فى مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف !

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها فى مقابل شىء قدر الله ألا يكون ! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد ، ولكل منهم مشرب ، ولكل منهم منهج ، ولكل منهم طريق . ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين . وقد عرض الله عليهم الهدى ؛ وتركهم يستبقون . وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه ، وهم إليه راجعون !

وإنها لتعلة باطلة إذن ، ومحاولة فاشلة ، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله ، أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها . فالعدول أو التعديل فى شريعة الله لا يعنى شيئا إلا الفساد فى الأرض ؛ وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم ؛ وإلا انتفاء العدالة فى حياة البشر ؛ وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض ، واتخاذ بعضهم لبعض أربابا من دون الله .. وهو شر عظيم وفساد عظيم .. لا يجوز ارتكابه فى محاولة عقيمة لا تكون ؛ لأنها غير ما قدره الله فى طبيعة البشر ؛ ولأنها مضادة للحكمة التى من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشارع ، والاتجاهات والمشارب . . وهو خالق الخلق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير. وإليه المرجع والمصير . .

إن محاولة التساهل فى شىء من شريعة الله ، لمثل هذا الغرض ، تبدو ـ فى ظل هذا النص

Marfat.com

الصادق الذى يبدو مصداقه فى واقع لحياة البشرية فى كل ناحية ـ محاولة سخيفة ؛ لا مبرر لها من الواقع ؛ ولا سند لها من إرادة الله ؛ ولا قبول لها فى حس المسلم ، الذى لا يحاول إلا تحقيق مشيئة الله . فكيف وبعض من يسمون أنفسهم « مسلمين » يقولون : إنه لا يجوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر « السائحين » ؟!!! أى والله هكذا يقولون !

ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة ، ويزيدها وضوحا . فالنص الأول : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .. قد يعنى النهى عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم ! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ..

فالتحذير هنا أشد وأدق ؛ وهو تصوير للأمر على حقيقته .. فهى فتنة يجب أن تحذر .. والأمر فى هذا المجال لا يعدو أن يكون حكما بما أنزل الله كاملا ؛ أو أن يكون اتباعا للهوى وفتنة يحذر الله منها .

ثم يستمر السياق فى تتبع الهواجس والخواطر ؛ فيهون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة ، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا ؛ أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله (فى ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتما فى دار الإسلام) :

« فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيرا من الناس لفاسقون»

فإن تولوا فلا عليك منهم ؛ ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته ولا تجعل إعراضهم يفت فى عضدك أو يحولك عن موقفك .. فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم . فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض : لا أنت ولا شريعة الله ودينه ؛ ولا الصف المسلم المستمسك بدينه .. ثم إنها طبيعة البشر : « وإن كثيرا من الناس لفاسقون» فهم يخرجون وينحرفون . لأنهم هكذا ؛ ولا حيلة لك فى هذا الأمر ؛ ولا ذنب للشريعة ! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق !

Marfat.com

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ؛ ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هـذه الشريعة ؛ لغرض من الأغراض ؛ في ظرف من الظروف ..

ثم يقفهم على مفرق الطريق .. فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل .. حكم الله يقوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر .. أو أنه حكم الجاهلية ، وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية .. فأيهما يريدون؟

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية ـ كما يصفها الله ويحددها قرآنه ـ هي حكم البشر للبشر ، لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله ..

إن الجاهلية ـ في ضوء هذا النص ـ ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غدا ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام .

والناس ـ في أي زمان وفي أي مكان ـ إما أنهم يحكمون بشريعة الله ـ دون فتنة عن بعض منها ـ ويقبلونها ويسلمون بها تسليما ، فهم إذن في دين الله . وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر ـ في أي صورة من الصور ـ ويقبلونها فهم إذن في جاهلية ؛ وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله . والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش في الجاهلية .

وهذا مفرق الطريق ، يقف الله الناس عليه . وهم بعد ذلك بالخيار !

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية ؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله .

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

وأجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟

Marfat.com

ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض ؟

أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إن الله سبحانه ـ وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل رسوله الأخير ؛ ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان ـ سبحانه ـ يجهل أن أحوالا ستطرأ ، وأن حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع ؛ فلم يحسب حسابها فى شريعته لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان ؟!

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ؛ ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟

ما الذى يستطيع أن يقوله .. وبخاصة إذا كان يدعى أنه من المسلمين ؟!

الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟ .. ألم يكن هذا كله فى علم الله ؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك فى علم الله ؛ وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير ؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء .. ولكن المسلم .. أو من يدعون الإسلام .. ما الذى يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شىء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شىء من الإسلام ؟

إنه مفرق الطريق ، الذى لا معدى عنده من الاختيار ؛ ولا فائدة فى المماحكة عنده ولا الجدال ..

إما إسلام وإما جاهلية . إما إيمان وإما كفر . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية ..

Marfat.com

والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون. والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين ..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة فى ضمير المسلم ؛ وألا يتردد فى تطبيقها على واقع الناس فى زمانه ؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء !

وما لم يحسم ضمير المسلم فى هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان ؛ ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق فى ضميره بين الحق والباطل ؛ ولن يخطو خطوة واحدة فى الطريق الصحيح .. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو ماثعة فى نفوس الجماهير من الناس ؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا ماثعة فى نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم ..

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى ٱللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا : أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *

Marfat.com

إنما وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِباً ـ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ ـ أَوْلِيَاءَ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِباً ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

« قُلْ : يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ؟ * قُلْ : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللهِ ؟ مَن لَّعَنَهُ ٱللهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ، وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ . أُولٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ .

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَقَدْ دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ! * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ !

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودَ : يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ . غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ؛ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً ، وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ .

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ

Marfat.com

جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » ⑪

نصوص هذا الدرس كله تؤيد ماذهبنا إليه فى تقديم السورة ، من أن هذه السورة لم تنزل كلها بعد سورة الفتح التى نزلت فى الحديبية فى العام السادس الهجرى ؛ وأن مقاطع كثيرة فيها يرجح أن تكون قد نزلت قبل ذلك ؛ وقبل إجلاء بنى قريظة فى العام الرابع ـ عام الأحزاب ـ على الأقل ، إن لم يكن قبل هذا التاريخ أيضا .. قبل إجلاء بنى النضير بعد أحد ، وبنى قينقاع بعد بدر ..

فهذه النصوص تشير إلى أحداث ، وإلى حالات واقعة فى الجماعة المسلمة بالمدينة ، وإلى ملابسات ومواقف لليهود وللمنافقين ، لا تكون أبدا بعد كسر شوكة اليهود ؛ وآخرها كان فى وقعة بنى قريظة .

فهذا النص عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وهذا التحذير ـ بل التهديد ـ بأن من يتولهم فهو منهم . وهذه الإشارة إلى أن الذين فى قلوبهم مرض يوالونهم ، ويحتجون بأنهم يخشون الدوائر . وتنفير المسلمين من الولاء لمن يتخذون دينهم هزوا ولعبا ، والإشارة إلى أن هؤلاء يتخذون صلاة المسلمين ـ إذا قام المسلمون إلى الصلاة ـ هزوا ولعبا ... كل أولئك لا يكون إلا ولليهود فى المدينة من القوة والنفوذ والتمكن ، ما يجعل من الممكن أن تقوم هذه الملابسات ، وأن تقع هذه الحوادث ؛ وأن يحتاج الأمر إلى هذا التحذير المشدد ، وإلى هذا التهديد المكرر ؛ ثم إلى بيان حقيقة اليهود ؛ والتشهير بهم والتنديد ؛ وإلى كشف كيدهم ومناوراتهم ومداوراتهم على هذا النحو ، المنوع الأساليب .

وقد ذكرت بعض الروايات أسبابا لنزول آيات فى هذا الدرس ؛ يرجع بعضها إلى حادث

Marfat.com

Marfat.com

بنى قينقاع بعد غزوة بدر . وموقف عبد الله بن أبى بن سلول . وقوله فى ولائه لليهود وولاء اليهود له : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى !

وحتى بدون هذه الروايات ، فإن الدراسة الموضوعية لطبيعة النصوص وجوّها ، ومراجعتها على أحداث السيرة ومراحلها وأطوارها فى المدينة ، تكفى لترجيح ما ذهبنا إليه فى تقديم السورة عن الفترة التى نزلت فيها . .

* * *

وتشير نصوص هذا الدرس إلى طريقة المنهج القرآنى فى تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لدورها الذى قدره الله لها ؛ كما تشير إلى مقوّمات هذا المنهج والمبادىء التى يريد تقريرها فى النفس المسلمة وفى الجماعة المسلمة فى كل حين . وهى مقومات ومبادىء ثابتة ، ليست خاصة بجيل من هذه الأمة دون جيل . إنما هى أساس النشأة للفرد المسلم وللجماعة المسلمة فى كل جيل . .

إن هذا القرآن يربى الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذى يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسول الله ؛ ولا ينضم إلى الجماعة التى تمثل حزب الله . وإشعاره أنه موضع اختيار الله ، ليكون ستارا لقدرته ، وأداة لتحقيق قدره فى حياة البشر وفى وقائع التاريخ . وأن هذا الاختيار ـ بكل تكاليفه ـ فضل من الله يؤتيه من يشاء . وأن موالاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله ، والنكول عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلى عن هذا التفضل الجميل . .

وهذا التوجيه واضح فى النصوص الكثيرة فى هذا الدرس : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . بعضهم أولياء بعض . . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . . « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم » . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » . .

ثم يربى القرآن وعى المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة . فالعقيدة هى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه . . وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أى شىء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل . وأن أكثركم فاسقون ؟ ؟ » فهذه هى العقدة ؛ وهذه هى الدوافع الأصيلة !

وقيمة هذا المنهج ، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية فيه ، عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها .. أمران مهمان سواء فى تحقيق شرائط الإيمان أو فى التربية الشخصية للمسلم ، أو فى التنظيم الحركى للجماعة المسلمة .. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلا ، ولا يكونون فى ذواتهم شيئاً ، ولا يحققون فى واقع الأرض أمراً ما لم تتم فى نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التى لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التى يخوضونها معهم ، وما لم يستيقنوا أنهم جميعاً إلب عليهم ، وأن بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء .

والنصوص فى هذا الدرس لا تقف عند كشف بواعث المعركة فى نفوس أعداء الجماعة المسلمة . بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم ، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه ، وليطمئن ضميره الى المعركة التى يخوضها ، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة ، وأنه لا مفر منها :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض » .. « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا ـ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار ـ أولياء . واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

« وإذا جاءوكم قالوا : آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون .

Marfat.com

Marfat.com

وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ! »..
« وقالت اليهود : يد الله مغلولة، غلتأيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل من ربك طغياناً وكفرا » . : ومن هذه صفاتهم ، ومواقفهم من الجماعة المسلمة ، وتألبهم عليها ، واستهزاؤهم بدينها وصلاتها ، لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير ..

كذلك تقرر النصوص نهاية المعركة ونتيجتها ، وقيمة الإيمان فى مصائر الجماعات فى هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء فى الحياة الآخرة : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .. « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ..

كما تقرر صفة المسلم الذى يختاره الله لدينه ، ويمنحه هذا الفضل العظيم فى اختياره لهذا الدور الكبير : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ..

وكل هذه التقريرات خطوات فى المنهج ، وفى صياغة الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة على الأساس المتين .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين : ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم ، فأصبحوا خاسرين » ..

ويحسن أن نبين أولا معنى الولاية التى ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى ..

Marfat.com

إنها تعنى التناصر والتحالف معهم . ولا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم . فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين . إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم ، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله . بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة . .

وهذا المعنى معروف محدد فى التعبيرات القرآنية . وقد جاء فى صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين فى المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام. فقال الله سبحانه : « ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا » . . وطبيعى أن المقصود هنا ليس الولاية فى الدين . فالمسلم ولى المسلم فى الدين على كل حال . إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون . فهى التى لا تقوم بين المسلمين فى دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم .. وهذا اللون من الولاية هو الذى تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال ، بعد ما كان قائماً بينهم أول العهد فى المدينة .

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شىء ، واتخاذهم أولياء شىء آخر ، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين ، الذين لم تتضح فى نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته ، بوصفه حركة منهجية واقعية ، تتجه إلى إنشاء واقع فى الأرض ، وفق التصور الإسلامى الذى يختلف فى طبيعته عن سائر التصورات التى تعرفها البشرية ؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة ، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله ، وتدخل فى معركة لا حيلة فيها ، ولا بد منها ، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذى تريده ، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة ..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقى بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعى الذكى لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة فى معاملة أهل الكتاب والبر بهم فى المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه مكفولى الحقوق ، وبين الولاء الذى لا يكون إلا لله

ورسوله وللجماعة المسلمة . ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب .. بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة . . وأن هذا شأن ثابت لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم . وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة . وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة .

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب ، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه . ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض فى حربه والكيد له ..

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين ! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا فى هذا الزمان وفى كل زمان ؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا فى أيدى أهل الكتاب فى الأرض للوقوف فى وجه المادية والإلحاد ـ بوصفنا جميعا أهل دين ! ـ ناسين تعليم القرآن كله ؛ وناسين تعليم التاريخ كله . فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة فى المدينة ، وكانوا لهم درعا ورداءً . وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مئتى عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شردوا العرب المسلمين فى فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين فى هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين فى كل مكان .. فى الحبشة والصومال واريترية والجزائر ، ويتعاونون فى هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية ، فى يوغسلافيا والصين والتركستان والهند ، وفى كل مكان !

ثم يظهر بيننا من يظن ـ فى بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة ـ أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر . ندفع به المادية الإلحادية عن الدين !

Marfat.com

Marfat.com

إن هؤلاء لايقرأون القرآن . وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التى هى طابع الإسلام ؛ فظنوها دعوة الولاء الذى يحذر منه القرآن .

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام فى حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد فى الأرض ؛ تقف فى وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس . الموقف الذى لا يمكن تبديله . لأنه الموقف الطبيعى الوحيد !

وندع هؤلاء فى إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآنى ، لنعى نحن هذا التوجيه القرآنى لصريح :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض .. ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة فى المدينة ـ ولكنه فى الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم فى أى ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة .. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة : « الذين آمنوا » . .

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا ، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين فى المدينة وبعض أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف ، وعلاقات اقتصاد وتعامل ، وعلاقات جيرة وصحبة .. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخى والاقتصادى والاجتماعى فى المدينة قبل الإسلام ، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة .. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم فى الكيد لهذا الدين وأهله ؛ بكل صنوف الكيد التى عددتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة ؛ والتى سبق استعراض بعضها فى الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال ؛ والتى يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك فى هذه النصوص .

ونزل القرآن ليبث الوعى اللازم للمسلم فى المعركة التى يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد فى واقع الحياة . ولينشىء فى ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمى

إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة . المفاصلة التى لا تنهى السماحة الخلقية . فهذه صفة المسلم دائما . ولكنها تنهى الولاء الذى لا يكون فى قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا .. الوعى والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم فى كل أرض وفى كل جيل .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

بعضهم أولياء بعض .. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن .. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء .. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة فى أى أرض ولا فى أى تاريخ .. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة .. لقد ولى بعضهم بعضا فى حرب محمد — صلى الله عليه وسلم — والجماعة المسلمة فى المدينة . وولى بعضهم بعضا فى كل فجاج الأرض ، على مدار التاريخ .. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ؛ ولم يقع فى هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم ، فى صيغة الوصف الدائم ، لا الحادث المفرد . . واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو .. بعضهم أولياء بعض .. ليست مجرد تعبير ! إنما هى اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل !

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ..فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم . والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم ، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام » وينضم إلى الصف الآخر . لأن هذه هى النتيجة الطبيعية الواقعية :

« ومن يتولهم منكم فإنه منهم » ..

وكان ظالما لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة .. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله فى زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه . ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم :

« إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

Marfat.com

لقد كان هذا تحذيرا عنيفا للجماعة المسلمة فى المدينة . ولـكنه تحذير ليس مبالغا فيه . فهو عنيف. نعم ؛ ولـكنه يمثل الحقيقة الواقعة . فما يمـكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى ـ وبعضهم أولياء بعض ـ ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته فى الصف المسلم ، الذى يتولى الله ورسوله والذين آمنوا .. فهذا مفرق الطريق ..

وما يمـكن أن يتميع حسم المسلم فى المفاصـلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسـلام ؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ؛ ثم يـكون فى وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة فى الحركة الإسلامية الضخمة التى تستهدف ـ أول ما تستهدف ـ إقامة نظام واقعى فى الأرض فريد ؛ يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ؛ ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم ، الذى لا أرجحة فيه ولا تردد ، بأن دينه هو الدين الوحيد الذى يقبله الله من الناس ـ بعد رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبأن منهجه الذى كلفه الله أن يقيم الحياة عليه ، منهج متفرد ؛ لانظير له بين سائر المناهج ؛ ولا يمـكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ؛ ولا يمـكن أن يقوم مقامه منهج آخر ؛ ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ؛ ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته فى إقامة هذا المنهج بكل جوانبه : الاعتقادية والاجتماعية ؛ لم يأل فى ذلك جهدا ، ولم يقبل من منهجه بديلا ـ ولا فى جزء منه صغير ـ ولم يخلط بينه وبين أى منهج آخر فى تصور اعتقادى ، ولا فى نظام اجتماعى ، ولا فى أحكام تشريعية ، إلا ما استبقاه الله فى هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الـكتاب . . .

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو ـ وحده ـ الذى يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذى رضيه للناس ؛ فى وجه العقبات الشاقة ، والتكاليف المضنية ، والمقاومة العنيدة ، والـكيد الناصب ، والألم الذى يكاد يجاوز الطاقة فى كثير من الأحيان .. وإلا فما العناء فى أمر يغنى عنه غيره ـ مما هو قائم فى الأرض من جاهلية .. سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة فى وثنية الشرك ، أو فى انحراف أهل الـكتاب ، أو فى الإلحاد السافر .. بل ما العناء فى

Marfat.com

Marfat.com

إقامة المنهج الإسلامى ، إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة ؛ يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة ؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة ، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح . فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون فى المعاملات الشخصية ، لا فى التصور الاعتقادى ولا فى النظام الاجتماعى .. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم فى نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل فى الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ؛ ولا يقبل فيه تعديلا ـ ولو طفيفا ـ هذا اليقين الذى ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر : « إن الدين عند الله الإسلام » .. « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .. « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .. « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .. وفى القرآن كلمة الفصل .. ولا على المسلم من تمييع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين !

ويصور السياق القرآنى تلك الحالة التى كانت واقعة ؛ والتى نزل القرآن من أجلها بهذا التحذير :

« فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » ..

روى ابن جرير ، قال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا إدريس ، قال : سمعت أبى ، عن عطية ابن سعد . قال : جاء عبادة ابن الصامت من بنى الحارث ابن الخزرج إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله . إن لى موالى من يهود كثير عددهم ؛ وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله ابن أبى (رأس النفاق) : إنى رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالىّ . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبد الله ابن أبى : « يا أبا الحباب . ما نحلت به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت فهو لك دونه » ! قال : قد قبلت ! فأنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » ...

وقال ابن جرير . « حدثنا هناد ، حدثنا يونس ابن بكير ، حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن عن الزهرى ؛ قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود: أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر . فقال مالك ابن الصيف : أغركم أن أصبتم رهطا من قريش ، لا علم لهم بالقتال ؟ أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا . فقال عبادة ابن الصامت : يا رسول الله إن أوليائى من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم . وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لى إلا الله ورسوله . فقال عبد الله ابن أبى : لكنى لا أبرأ من ولاية يهود . إنى رجل لا بد لى منهم . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ : « يا أبا الحباب أرأيت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت ؟ فهو لك دونه ! » فقال : إذن أقبل ..

قال محمد ابن إسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنو قينقاع . فحدثنى عاصم ابن عمر ابن قتادة . قال : فحاصرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلوا على حكمه . فقام إليه عبد الله ابن أبى ابن سلول ـ حين أمكنه الله منهم ـ فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ قال : فأبطأ عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ . قال : فأعرض عنه . قال : فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أرسلنى » وغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رأوا لوجهه ظللا . ثم قال : « ويحك ! أرسلنى » . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى . أربعمئة حاسر ، وثلاثمئة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى امرؤ أخشى الدوائر . قال . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هم لك » ..

قال محمد ابن إسحق : فحدثنى أبى إسحق ابن يسار ، عن عبادة ، عن الوليد ابن عبادة ابن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشبث بأمرهم عبد الله ابن أبى وقام دونهم ؛ ومشى عبادة ابن الصامت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أحد بنى عوف ابن الخزرج . له من حلفهم مثل الذى لعبد الله ابن أبى فجعلهم إلى رسوله

Marfat.com

Marfat.com

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . ففيه وفى عبد الله ابن أبى نزلت الآية فى المائدة : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض » إلى قوله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ابن سعيد ، حدثنا يحيى ابن زكريا ابن أبى زيادة ، عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عودة ، عن أسامة ابن زيد ، قال : « دخلت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عبد الله ابن أبى نعوده ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « قد كنت أنهاك عن حب يهود » فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد ابن زرارة فمات ..

(وأخرجه أبو داود من حديث محمد ابن إسحق)

فهذه الأخبار فى مجموعها تشير إلى تلك الحالة التى كانت واقعة فى المجتمع المسلم ؛ والمتخلفة عن الأوضاع التى كانت قائمة فى المدينة قبل الإسلام ؛ وكذلك عن التصورات التى لم تكن قد حسمت فى قضية العلاقات التى يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتى لا يمكن أن تقوم .. غير أن الذى يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود ، ولم يجىء ذكر فى الوقائع للنصارى .. ولكن النص يجمل اليهود والنصارى .. ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى ، سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيجىء فى سياق هذا الدرس) .. ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى فى جملتها فى العهد النبوى ، ومع إشارة القرآن الكريم فى موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف فى قوله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ... الخ » .. مع هذا الاختلاف الذى كان يومذاك ، فإن النص هنا يسوى بين اليهود والنصارى ـ كما يسوى النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار .. فيما يختص بقضية المحالفة والولاء . ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة . هى : أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم ؛

وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة .. ويستوى بعد ذلك كل الفرق فى هذا الأمر .. مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين فى بعض الظروف ..

على أن الله ـ سبحانه ـ وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة ، كان علمه يتناول الزمان كله ، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وملابساتها الموقوتة .. وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة فى معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود .. وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر فى حسن استقبال الإسلام ، فإننا نجد الرقعة النصرانية فى الغرب ، قد حملت للإسلام فى تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن ، وشنت عليه من الحرب والكيد ، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم فى أى زمان ! حتى الحبشة التى أحسن عاهلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام ، عادت فإذا هى أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد ؛ لا يجاريها فى هذا إلا اليهود ..

وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم الأمر كله . فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة . بغض النظر عن واقع الفترة التى كان هذا القرآن يتنزل فيها وملابساتها الموقوتة ! وبغض النظر عما يقع مثلها فى بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان .

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به ـ ولو أنهم ليسوا من الإسلام فى شىء ـ يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى فى كل مكان على سطح الأرض ، ما يصدق قول الله تعالى : « بعضهم أولياء بعض » .. وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم . بل بأمره الجازم ، ونهيه القاطع ؛ وقضائه الحاسم فى المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله ، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله ..

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة . فالولاء والعداء لا يكونان فى تصور المسلم وفى حركته على السواء إلا فى العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء ـ وهو التناصر ـ بين المسلم وغير المسلم؛ إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا فى مجال العقيدة.. ولا حق أمام الإلحاد مثلا ـ كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن ا ـ وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه ؟

Marfat.com

Marfat.com

إن بعض من لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون حقيقة الإسلام ؛ وبعض المخدوعين أيضا .. يتصورون أن الدين كله دين ! كما أن الإلحاد كله إلحاد ! وأنه يمكن إذن أن يقف « التدين » بجملته فى وجه الإلحاد . لأن الإلحاد ينكر الدين كله ، ويحارب التدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك فى التصور الإسلامى ؛ ولا فى حس المسلم الذى يتذوق الإسلام . ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة ، وحركة بهذه العقيدة ، لإقامة النظام الإسلامى .

إن الأمر فى التصور الإسلامى وفى حس المسلم واضح محدد .. الدين هو الإسلام .. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام .. لأن الله ـ سبحانه ـ يقول هذا . يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » .. ويقول : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .. وبعد رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام» .. فى صورته التى جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل . كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام ، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى ـ من أهل الكتاب ـ بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس معناه أن الله يقبل منهم ما هم عليه ؛ أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهى .. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير .. أما بعد بعثته فلا دين ـ فى التصور الإسلامى وفى حس المسلم ـ إلا الإسلام .. وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام .. لأنه « لا إكراه فى الدين » ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه « دينا » ويراهم على « دين » ..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام فى وجه الإلحاد ! هناك « دين » هو الإسلام .. وهناك « لا دين » هو غير الإسلام .. ثم يكون هذا اللادين .. عقيدة أصلها سماوى ولكنها محرفة ، أو عقيدة أصلها وثنى باقية على وثنيتها . أو إلحادا ينكر الأديان .. تختلف فيما بينها كلها . ولكنها تختلف كلها مع الإسلام . ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء ...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هولاء ؛ وهو مطالب بإحسان معاملتهم ـ كما سبق ـ ما لم يؤذوه فى الدين ؛ ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن ـ على خلاف فقهى فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته، وفيمن تعتقد التثليث أهى كتابية تحل أم مشركة تحرم ـ وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة .. فإن حسن المعاملة وجواز النكاح ، ليس معناها الولاء والتناصر فى الدين ؛ وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب ـ بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو دين يقبله الله ؛ ويستطيع الإسلام أن يقف معه فى جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد !

إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب ؛ كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء . ودعاهم إلى الإسلام جميعا ، لأن هذا هو « الدين » الذى لا يقبل الله غيره من الناس جميعا . ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، وكبر عليهم أن يدعوا إليه ، جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام ، فإن تولوا عنه فهم كافرون !

والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام ، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء . وهو غير مأذون فى أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام . لأن العقائد لا تنشأ فى الضمائر بالإكراه . فالإكراه فى الدين فوق أنه منهى عنه ، هو كذلك لا ثمرة له .

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب ـ بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو دين يقبله الله .. ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام !.. إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد ؛ هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين . وأنه يدعوهم إلى الدين .

وإذا تقررت هذه البديهية ، فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل فى ولاء أو تناصر للتمكين للدين فى الأرض ، مع من لا يدين بالإسلام .

إن هذه القضية فى الإسلام قضية اعتقادية إيمانية . كما أنها قضية تنظيمية حركية !

من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهذا البيان الذى أسلفناه ، وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب .

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك .. فإذا كان سعى المؤمن كله ينبغى أن يتجه إلى إقامة منهج الله فى الحياة ـ وهو المنهج الذى ينص عليه الإسلام كما جاء به

Marfat.com

Marfat.com

محمد صلى الله عليه وسلم ـ بكل تفصيلات وجوانب هـذا المنهج ، وهى تشمل كل نشـاط الإنسان فى الحياة .. فـكيف يمـكن إذن أن يتعاون المسلم فى هذا السعى مع من لا يؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ؛ ومن يتجه فى سعيه إلى أهداف أخرى ـ إن لم تـكن معادية للإسلام وأهدافه فهى على الأقل ليست أهداف الإسلام ـ إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا فى ذاته صالحا ـ « والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » ..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية فى السعى اليومى فى حياة المسلم عن الإسلام .. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامى .. ولا يتصور أن هناك جوانب فى الحياة خارجة عن هذا المنهج يمـكن التعاون فيها مع من يعادى الإسلام ، أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه ، كما نص الله فى كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه ! .. إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد الله ابن أبى ابن سلول ، وهو من الذين فى قلوبهم مرض ، عن مسارعته واجتهاده فى الولاء ليهود ، والاستمساك بحلفه معها ، هى قوله : إننى رجل أخشى الدوائر ! إنى أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة ، وأن تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هى علامة مرض القلب وضعف الإيمان .. فالولى هو الله ؛ والناصر هو الله ؛ والاستنصار بغيره ضلالة ، كما أنه عبث لا ثمرة له .. ولـكن حجة ابن سلول ، هى حجة كل ابن سلول على مدار الزمان ؛ وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب ، لا يدرك حقيقة الإيمان .. وكذلك نفر قلب عبادة ابن الصامت من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا . لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به ، حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد الله ابن أبى سلول !

إنهما نهجان مختلفان ، ناشئان عن تصورين مختلفين ، وعن شعورين متباينين ، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان !

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم .. يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذى يفصل فى الموقف ؛ أو يكشف المستور من النفاق .

« فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين »

وعندئذ ـ عند الفتح ـ سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجىء أمر الله ـ يندم أولئك الذين فى قلوبهم مرض ، على المسارعة والاجتهاد فى ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الذى انكشف أمره ، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين ، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران !

« ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم ، فأصبحوا خاسرين ! »..

ولقد جاء الله بالفتح يوما ، وتكشفت نوايا ، وحبطت أعمال ، وخسرت ذوات . ونحن على وعد من الله قائم بأن يجىء الفتح ، كلما استمسكنا بعروة الله وحده ؛ وكلما أخلصنا الولاء لله وحده . وكلما وعينا منهج الله ، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا . وكلما تحركنا فى المعركة على هدى الله وتوجيهه . فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا ..

* * *

وإذ ينتهى السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى ، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم ، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام ـ وهم لا يشعرون أو لا يقصدون ـ يرسل بالنداء الثانى ، يهدد من يرتد منهم عن دينه ـ بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب ـ بأنه ليس عند الله بشىء ، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه ، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين فى علم الله ، إن ينصرف هؤلاء يجىء بهؤلاء . ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة فى علم الله لدينه ، وهى ملامح محببة جميلة وضيئة . ويبين جهة الولاء الوحيدة

Marfat.com

Marfat.com

الق يتجه إليها المسلم بولائه . ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التى يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتى يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » . .

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا ـ على هذه الصورة . وفى هذا المقام ـ ينصرف ـ ابتداء ـ إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام . وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم ، منسلخاً من الجماعة المسلمة منضما إليهم : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .. وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثانى فى السياق توكيداً وتقريرا للنداء الأول .. يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذى يلى هذا النداء والسياق ، وهو منصب على النهى عن موالاة أهل الكتاب والكفار ، يجمع بينهم على هذا النحو ، الذى يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء ، وأن تفرقة الإسلام فى المعاملة بين أهل الكتاب والكفار ، لا تتعلق بقضية الولاء ، إنما هى فى شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء . .

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » . .

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهى فى إقرار دين الله فى الأرض ، وتمكين سلطانه فى حياة البشر ، وتحكيم منهجه فى أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ شريعته فى أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء فى الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة .. إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته . فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة .. فهو وذاك . والله غنى عنه ـ وعن العالمين . والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم .

والصورة التى يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب :

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . .

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم . . الحب . . هذا الروح السارى اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش . . هو الذى يربط القوم بربهم الودود .

وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله ـ سبحانه ـ بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها . . أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذى يعرف حقيقة المعطى . . الذى يعرف من هو الله . . من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذى يلخص الكون وهو جرم صغير ! من هو فى عظمته . ومن هو فى قدرته . ومن هو فى تفرده . ومن هو فى ملكوته . . من هو ومن هذا العبد الذى يتفضل الله عليه منه بالحب . . والعبد من صنع يديه ـ سبحانه ـ وهو الجليل العظيم، الحى الدائم ، الأزلى الأبدى ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها . . وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما ، وفضلا غامرا جزيلا ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذى لا نظير له فى مذاقات الحب كلها ولا شبيه . . هو إنعام هائل عظيم . . وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا فى فلتات قليلة من كلام المحبين . . وهذا هو الباب الذى تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين ـ وهم قليل من بين ذلك الحشد الذى يلبس مسوح التصوف ويعرف فى سجلهم الطويل ـ ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسى مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهى تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

Marfat.com

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع فى هذا الوجود ويسرى فى هذا الكون العريض ، وينطبع فى كل حى وفى كل شىء ، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنسانى كله ممثلا فى ذلك العبد المحب المحبوب..

والتصور الإسلامى يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب . . ولبست مرة واحدة ولا فلتة عابرة . . إنما هو أصل وحقيقة وعنصر فى هذا التصور أصيل : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » . . « إن ربى رحيم ودود » . . « وهو الغفور الودود » .. « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . . « والذين آمنوا أشد حبا لله » . . «قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . . . وغيرها كثير . . .

وعجبا لقوم يمرون على هذا كله ، ليقولوا : إن التصور الإسلامى تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع .. . لا كالتصور الذى يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله ، فيربط بين الله والناس ، فى هذا الازدواج !

إن نصاعة التصور الإسلامى ، فى الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تخفف ذلك الندى الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهى علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهى علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهى علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه . . إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية فى علاقتها برب العالمين .

وهنا ـ فى صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ـ يرد ذلك النص العجيب : « يحبهم ويحبونه » ويطلق شحنته كلها فى هذا الجو ، الذى يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق . شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ..

ثم يمضى السياق يعرض بقية السمات :

« أذلة على المؤمنين » ..

Marfat.com

وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللاين .. فالمؤمن ذلول للمؤمن .. غير عصى عليه ولا صعب . هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود . . وهذه هى الذلة للمؤمنين .

وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة . إنما هى الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هى التى تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه . فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه ، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصى به .. وماذا يبقى له فى نفسه دونهم ، وقد اجتمعوا فى الله إخوانا ؛ يحبهم ويحبونه ، ويشيع هذا الحب العلوى بينهم ويتقاسمونه ؟!

« أعزة على الكافرين » ..

فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. ولهذه الخصائص هنا موضع.. إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس . إنما هى العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التى يقفون تحتها فى مواجهة الكافرين . إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذى معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين ! ثم هى الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ؛ وبغلبة قوة الله على تلك القوى ؛ وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية .. فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون فى بعض المعارك ، فى أثناء الطريق الطويل ..

« يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ..

فالجهاد فى سبيل الله ، لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته فى الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس .. هى صفة العصبة المؤمنة التى يختارها الله ليصنع بها فى الأرض ما يريد ..

وهم يجاهدون فى سبيل الله ؛ لا فى سبيل أنفسهم ؛ ولا فى سبيل قومهم ؛ ولا فى سبيل وطنهم ؛ ولا فى سبيل جنسهم .. فى سبيل الله . لتحقيق منهج الله ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ

Marfat.com

Marfat.com

شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق .. وليس لهم فى هذا الأمر شىء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفى سبيل الله بلا شريك ..

وهم يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. وفيم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ، ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ؛ ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس ؛ أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم ؛ وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالى ما يقول الناس وما يفعلون . كائنا هؤلاء الناس ما كانوا ؛ وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان ، وكائنة « حضارة » هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ماتكون!

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ؛ ولما يفعل الناس ؛ ولما يملك الناس ؛ ولما يصطلح عليه الناس ؛ ولما يتخذه الناس فى واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين .. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذى يجب أن نرجع إليه فى الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج الله وشريعته وحكمه .. فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ؛ ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال فى عشرات القرون !

إنه ليست قيمة أى وضع ، أو أى عرف ، أو أى تقليد ، أو أية قيمة .. أنه موجود ؛ وأنه واقع ؛ وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم .. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامى . إنما قيمة أى وضع ، وأى عرف ، وأى تقليد ، وأية قيمة ، أن يكون لها أصل فى منهج الله ، الذى منه ـ وحده ـ تستمد القيم والموازين ..

ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة فى سبيل الله ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المؤمنين المختارين ..

ثم إن ذلك الاختيار من الله ، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين ، وتلك السمات التى يجعلها طابعهم وشعارهم ، وهذا الاطمئنان إلى الله فى نفوسهم ، والسير على هداه فى جهادهم .. ذلك كله من فضل الله .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم » ..

يعطى عن سعة ، ويعطى عن علم .. وما أوسع هذا العطاء ؛ الذى يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير .

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التى تتفق مع صفة الإيمان ؛ ويبين لهم من يتولون :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ..

هكذا على وجه القصر الذى لا يدع مجالا للتمحل أو التأول ؛ ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور ..

ولم يكن بد أن يكون الأمر كذلك ! لأن المسألة فى صميمها ـ كما قلنا ـ هى مسألة العقيدة . ومسألة الحركة بهذه العقيدة . وليكون الولاء لله خالصا ، والثقة به مطلقة ، وليكون الإسلام هو « الدين » . وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التى لا تتخذ الإسلام دينا ، ولا تجعل الإسلام منهجا للحياة . ولتكون للحركة الإسلامية جديتها ونظامها ؛ فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة ورابة واحدة . ولا يكون التناصر إلا بين العصبة المؤمنة ؛ لأنه تناصر فى المنهج المستمد من العقيدة . .

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان ، أو مجرد راية وشعار ، أو مجرد كلمة تقال باللسان ، أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مجرد وصف يلحق القاطنين فى مكان ! فإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا :

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون » ..

فمن صفتهم إقامة الصلاة ـ لا مجرد أداء الصلاة ـ وإقامة الصلاة تعنى أداءها أداء كاملا ، تنشأ عنه آثارها التى يقررها قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. والذى لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يقم الصلاة ؛ فلو أقامها لنهته كما يقول الله !

Marfat.com

Marfat.com

ومن صفتهم إيتاء الزكاة .. أى أداء حق المـال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية ، إنما هى كذلك عبادة . أو هى عبادة مالية . وهذه هى ميزة المنهج الإسلامى . الذى يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة . وليس كذلك الأنظمة الأرضية التى تحقق هدفا وتفرط فى أهداف ..

إنه لا يغنى فى إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة (مدنية !) أو أن يأخذ المـال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة ، أو باسم الشعب ، أو باسم جهة أرضية ما .. فهى فى صورتها هذه قد تحقق هدفا واحدا ؛ وهو إيصال المال للمحتاجين ..

فأما الزكاة .. فتعنى اسمها ومدلولها .. إنها قبل كل شىء طهارة ونماء .. إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله . وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء ، بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء فى الآخرة ، كما يرجو منها نمـاء المال فى الحياة الدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادى المبارك . ثم بالشعور الطيب فى نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم ؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم فى أموال الأغنياء ؛ ولا يشعرون معها بالحقد والتشفى من إخوانهم الأغنياء (مع تذكر أن الأغنياء فى النظام الإسلامى لا يكسبون إلا من حلال ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصابهم من المال) .. وفى النهاية تحقق هدف الضريبة المالية فى هذا الجو الراضى الخير الطيب . جو الزكاة والطهارة والنماء ..

وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله فى شئون الحياة ؛ فهى إقرار منهم بسلطان الله فى أمرهم كله .. وهذا هو الإسلام ..

« وهم راكعون » ..

ذلك شأنهم ، كأنه الحالة الأصيلة لهم .. ومن ثم لم يقف عند قوله : « يقيمون الصلاة » .. فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل . إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم . فأبرز سمة لهم هى هذه السمة ، وبها يعرفون ..

وما أعمق إيحاءات التعبيرات القرآنية فى مثل هذه المناسبات !

والله يعد الذين آمنوا ـ فى مقابل الثقة به ، والالتجاء إليه ، والولاء له وحده ـ ولرسوله

Marfat.com

وللمؤمنين بالتبعية .. ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذى يتمحض لله .. يعدهم النصر والغلبة :

« ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان فى ذاتها .. وأنها هى الولاء لله ورسوله وللمؤمنين ؛ وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجا من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى ، وارتدادا عن الدين ..

وهنا لفتة قرآنية مطردة . . فالله ـ سبحانه ـ يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير ! لا لأنه سيغلب ، أو سيمكن له فى الأرض ؛ فهذه ثمرات تأتى فى حينها ؛ وتأتى لتحقيق قدر الله فى التمكين لهذا الدين ؛ لا لتكون هى بذاتها الإغراء على الدخول فى هذا الدين .. والغلب للمسلمين لا شىء منه لهم . لا شىء لذواتهم وأشخاصهم . وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم ، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم ! فيكون لهم ثواب الجهد فيه ؛ وثواب النتائج التى تترتب عليه من التمكين لدين الله فى الأرض ، وصلاح الأرض بهذا التمكين ..

كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم ؛ وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم ـ وهى عوائق ساحقة فى أحيان كثيرة ـ فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة ؛ وتخطى العقبة ، والطمع فى أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة ، فيكون لهم ثواب الجهاد ، وثواب التمكين لدين الله ، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين .

كذلك يشى ورود هذا النص فى هذا المجال ، بحالة الجماعة المسلمة يومذاك ، وحاجتها إلى هذه البشريات . بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله .. مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطاع من السورة .

ثم تخلص لنا هذه القاعدة ؛ التى لا تتعلق بزمان ولا مكان .. فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التى لا تتخلف . وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف . فالسنة التى لا تنقض هى أن حزب الله هم الغالبون .. ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور فى بعض

Marfat.com

مراحل الطريق ! وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدى لتحقق وعد الله فى نهاية الطريق !

* * *

وبعد فلقد سلك المنهج القرآنى فى هذا السياق طرقا منوعة ، لنهى الذين آمنوا عن تولى المخالفين لهم فى عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين ، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية فى ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم . مما يدل على أهمية هذه القاعدة فى التصور الإسلامى ؛ وفى الحركة الإسلامية على السواء ..

وقد رأينا من قبل أنه سلك فى النداء الأول طريق النهى المباشر ، وطريق التخويف من أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده ، فينكشف ستر المنافقين .. وسلك فى النداء الثانى طريق التحذير من الردة بموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ؛ وطريق التحبيب فى أن يكونوا من العصبة المختارة . ممن يحبهم الله ويحبونه ؛ وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..

فالآن نجده فى النداء الثالث فى هذا الدرس للذين آمنوا يثير فى نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التى يتخذها أعداؤهم هزوا ولعبا . ونجده يسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهى بتقوى الله ؛ ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان؛ ويقبح فعلة الكفار وأهل الكتاب ويصفهم بأنهم لا يعقلون :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا ـ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار ـ أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا قمتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . .

وهى ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ؛ الذى لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدى ربه مادة للهزء واللعب .. فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ؛ ويرتكبونها لنقص فى عقولهم . فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به ، إنسان سوى العقل ؛ فالعقل ـ حين يصح ويستقيم ـ يرى فى كل شىء من حوله موحيات الإيمان بالله . وحين يختل وينحرف لا يرى

هذه الموحيات ، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله . فالوجود كله يوحى بأن له إلها يستحق العبادة والتعظيم . والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك ، فلا يتخذها هزوا ولعبا وهو صحيح مستقيم

ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار ، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب ، فى الفترة التى كان هذا القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للجماعة المسلمة فى ذلك الحين . ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى .. ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة . وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين . وها نحن أولاء رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا : إنهم نصارى كانوا أكثر عددا من اليهود ومن الكفار مجتمعين ! فهؤلاء ـ كهؤلاء ـ قد ناصبوا الإسلام العداء ، وترصدوه القرون تلو القرون ، وحاربوه حربا لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ حتى كانت الحروب الصليبية ؛ ثم كانت « المسألة الشرقية » التى تكتلت فيها الدول الصليبية فى أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة ؛ ثم كان الاستعمار الذى يخفى الصليبية بين أضلاعه فتبدو فى فلتات لسانه ؛ ثم كان التبشير الذى مهد للاستعمار وسانده ؛ ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامى فى أى مكان فى الأرض .. وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون ..

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة فى حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب الذى يبنى تصورها الاعتقادى ، كما يبنى نظامها الاجتماعى ، كما يبنى خطتها الحركية .. سواء .. وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ وينهاها أن يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين . ويجزم ذلك الجزم الحاسم فى هذه القضية ، ويعرضها هذا العرض المنوع الأساليب .

إن هذا الدين يامر أهله بالسماحة ، وبحسن معاملة أهل الكتاب ؛ والذين قالوا : إنهم نصارى منهم خاصة .. ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعا .. لأن السماحة وحسن المعاملة

Marfat.com

Marfat.com

مسألة خلق وسلوك . أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم . إن الولاء هو النصرة . هو التناصر بين فريق وفريق ؛ ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب ـ كما هو الشأن فى الكفار ـ لأن التناصر فى حياة المسلم هو ـ كما أسلفنا ـ تناصر فى الدين ؛ وفى الجهاد لإقامة منهجه ونظامه فى حياة الناس ؛ ففيم يكون التناصر فى هذا بين المسلم وغير المسلم . وكيف يكون ؟!

إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع ، ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم ؛ الجد الذى يليق بالمسلم فى شأن الدين . .

* * *

وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا ، يتوجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليواجه أهل الكتاب ، فيسألهم : ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة ؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ، وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب ..؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون ، وأنهم هم ـ أهل الكتاب ـ أكثرهم فاسقون ؟ وهى مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق :

« قل : يا أهل الكتاب ، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزلَ من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ؟ قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت .. أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل » ..

إن هذا السؤال الذى وجه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب ، هو من ناحية سؤال تقريرى لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم ؛ وكشف حقيقة البواعث التى تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها . وهو من ناحية سؤال استنكارى ، لاستنكار هذا الواقع منهم ، واستنكار البواعث الدافعة عليه .. وهو فى الوقت ذاته توعية للمسلمين ، وتنفير لهم من موالاة القوم ، وتقرير لما سبق فى النداءات الثلاثة من نهى عن هذه الموالاة وتحذير .

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامى ـ إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب ..

إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى . ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهى مصدقة لما بين أيديهم ـ لا ما ابتدعوه وحرفوه ـ ولا يؤمنون بالرسول الأخير ، وهو مصدق لما بين يديه ؛ معظم لرسل الله أجمعين .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التى لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوراها طوال ألف وأربعمئة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان فى المدينة ؛ وتميزت لهم شخصية ؛ وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشىء من دينهم المستقل ، وتصورهم المستقل ، ونظامهم المستقل ، فى ظل منهج الله الفريد .

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم ـ قبل كل شىء ـ مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ؛ فيصبحوا غير مسلمين .. ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين !

والله ـ سبحانه ـ يقرر هذه الحقيقة فى صورة قاطعة ، وهو يقول لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السورة الأخرى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .. ويقول له فى هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقة بواعثهم وركيزة موقفهم :

« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؛ وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟ » ..

وهذه الحقيقة التى يقررها الله سبحانه فى مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين ، هى التى يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب ، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » .. باسم تعاون « المتدينين » فى وجه المادية والإلحاد كما يقولون ! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها ، لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامى ـ أو الذى كان إسلاميا بتعبير أصح ـ وتخدير الوعى الذى كان قد

بنه فيهم الإسلام بمنهجه الربانى القويم . ذلك أنه حين كان هذا الوعى سليما لم يستطع الاستعمار الصليبى أن يقف للمد الإسلامى ، فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامى .. ولم يكن بد لهؤلاء ـ بعد فشلهم فى الحروب الصليبية السافرة ، وفى حرب التبشير السافرة كذلك ـ أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير ، فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين ، أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت ؛ وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا ! ثم تنور العالم و « تقدم » فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة .. وإنما الصراع اليوم على المادة ! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب ! وإذن فما يجوز للمسلمين ـ أو ورثة المسلمين ـ أن يفكروا فى الدين ولا فى صراع الدين !

وحين يطمئن أهل الكتاب ـ وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين ـ إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير ؛ وحين تتميع القضية فى ضمائرهم ؛ فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله ؛ وللعقيدة .. الغضبة التى لم يقفوا لها يوما .. ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير .. ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها . بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والحمامات ؛ ويغلبون فى معركة « المادة » بعد ما يغلبون فى معركة « العقيدة » .. فهما قريب من قريب ..

وعملاء أهل الكتاب فى الوطن الإسلامى ، ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو فى خفية ، يقولون القول نفسه .. لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود .. وهؤلاء يقولون عن « الحروب الصليبية » ذاتها : إنها لم تكن « صليبية » !!! ويقولون عن « المسلمين » الذين خاضوها تحت راية العقيدة : إنهم لم يكونوا « مسلمين » وإنما هم كانوا « قوميين » !

وفريق ثالث مستغفل مخدوع ؛ يناديه أحفاد « الصليبيين » فى الغرب المستعمر : أن تعالوا إلينا . تعالوا نجتمع فى ولاء ؛ لندفع عن « الدين » غائلة « الملحدين » ! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ؛ ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا فى كل مرة مع الملحدين ؛ صفا واحدا ، حينما كانت المواجهة للمسلمين ! على مدار القرون ! وما يزالون ! وأنهم لا يعنيهم

Marfat.com

Marfat.com

الجزء السادس

حرب المـادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام ، ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارىء وعدو موقوت ؛ وأن الإسـلام أصل ثابت وعدو مقيم ! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامى ؛ وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين ـ فى الوقت ذاته ـ ليـكونوا وقود المعركة مـع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون ! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين .. حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعى الذى يربيه عليه المنهج الربانى القويم ..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق ، فيحسبون أهل الـكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء فى دفع الإلحاد عن « الدين » إنما ينسون واقع التاريخ فى أربعة عشر قرنا ـ لا استثناء فيهـا ـ كما ينسون تعليم ربهم لهم فى هذا الأمر بالذات ، وهو تعليم لا مواربة فيه ، ولا مجال للحيدة عنه ، وفى النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول !

إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التى تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الـكتاب ؛ وأن يتسامحوا معهم فى المعيشة والسلوك . ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم ؛ والتقريرات الواعية عن بواعثهم ، والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية ، وخطة التنظيم ، التى تحرم التناصر والموالاة ، لأن التناصر والموالاة لا يـكونان عند المسلم إلا فى شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه فى الحياة الواقعية ، وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقى عليها المسلم مع أهل الـكتاب فى شأن دينه ـ مهما يكن هناك من تلاق فى أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها ـ إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين ، ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين .. كما يقول رب العالمين ..

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين ؛ يجزئونه ويمزقونه ، فيأخذون منه ما يشاءون ـ مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها ـ ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب !

ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله ، فى هذه القضـية ، على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين ! وكلام الله ـ سبحانه ـ فى هذه القضية حاسم واضح صريح مبين ..

ونقف وقفة قصيرة فى هذا الموضع عند قوله تعالى ـ بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ـ أن بقية السبب :

Marfat.com

« وأن أكثركم فاسقون »

فهذا الفسق هو شطر الباعث ! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم .. وهى قاعدة نفسية واقعية ؛ تثبتها هـذه اللفتة القرآنية العجيبة .. إن الذى يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم .. إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه . إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه .. ومن ثم يكرهه وينقم عليه . يكره استقامته وينقم منه التزامه ؛ ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه ؛ أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده !

إنها قاعدة مطردة ، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة فى المدينة ، إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة . إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة .. والحرب المشبوبة دائما على الخيرين فى مجتمع الأشرار ، وعلى المستقيمين فى مجتمع الفاسقين ، وعلى الملتزمين فى مجتمع المنحرفين .. هذه الحرب أمر طبيعى يستند إلى هذه القاعدة التى يصورها النص القرآنى العجيب ..

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر ، وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين .

وعلم الله ـ سبحانه ـ أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها ، وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف . وأنها معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق ألا يخوضها فى وجه الباطل . لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ..

وغفلة ـ أى غفلة ـ أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف ؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة ؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة ! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعى والعدة ؛ من أن يستسلموا للوهم والخديعة .. وهم يومئذ مأكولون مأكولون !

ثم نمضى مع السياق القرآنى فى توجيه الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لمواجهة أهل الكتاب ، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث فى النقمة على المسلمين .. فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم ، وشأن لهم مع ربهم ، وعقاب أليم :

« قل : هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل ! »

وهذا تطالعنا سحنة يهود ، وتاريخ يهود !

إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير . إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت ..

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة فى مواضع شتى من القرآن الكريم ؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير .. فأما قضية عبادتهم للطاغوت ، فتحتاج إلى بيان هنا ، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة فى سياق هذه السورة . .

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق .. والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا ، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظا ومعنى ..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله . فسماهم الله عبادا لهم ؛ وسماهم مشركين .. وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق . فهم عبدوا الطاغوت .. أى السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها .. وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع ، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة . وهى عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله (١)

والله ـ سبحانه ـ يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ .. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة.. يوجهه ليقول لهم : إن هذا شر عاقبة :

---

(١) يراجع كتاب : « المصطلحات الأربعة » للسيد أبى الأعلى المودودى ، أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .. فصل : « العبادة » .. ويراجع كتاب : « هذا الدين » فصل : « منهج متفرد » ويراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فصل : « التوحيد » .

Marfat.com

« قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » ..

أى شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين ، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم . وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه ، وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل :

« أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل » ..

ويمضى السياق فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم - بعد عرض تاريخهم وجزائهم - ويجىء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون .. ويبرز اليهود كذلك فى الصورة ، لأن الحديث عن وقائع جارية ، ومعظم الشر كان يجىء من قبل يهود :

« وإذا جاءوكم قالوا : آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان . وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود : يد الله مغلولة . . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ؛ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء - وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله . ويسعون فى الأرض فسادا . والله لا يحب المفسدين » ..

إنها عبارات تنشىء صورا متحركة ومشاهد حية - على طريقة التعبير القرآنية الفريدة [1] - ومن وراء القرون يملك قارىء هذه الآيات أن يشهد - بعين التصور - هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود - على الأرجح - فالسياق يتحدث عنهم ، وإن كان من الجائز أنه يعنى كذلك بعض المنافقين فى المدينة . . يشهدهم يجيئون للمسلمين فيقولون : آمنا .. ويشهد فى جعبتهم « الكفر » وهم يدخلون به ويخرجون ؛ بينما ألسنتهم تقول غير ما فى الجعبة من كفر . يحملونه داخلين خارجين !

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

Marfat.com

ولعلهم من يهود أولئك الذين كانوا يبيتون البلبلة وهم يقولون بعضهم لبعض : آمنوا بهذا القرآن وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون .. أى لعل المسلمين يرجعون عن دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيك الخبيث اللئيم .

« والله أعلم بما كانوا يكتمون » ..

يقولها الله ـ سبحانه ـ لأنها الحقيقة ؛ ثم لكى يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم ، وحفظهم من كيد عدوهم ؛ وإحاطته علما بهذا الكيد المكتوم ، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون !

ويمضى السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة تشهد وتلحظ من خلال التعبير :

« وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون ..

والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا فى الإثم والعدوان ، وأكل الحرام . وهى صورة ترسم للتبشيع والتشنيع ، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشرى فيها الفساد ؛ وتسقط القيم ؛ ويسيطر الشر .. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التى انتهت إلى مثل هذه الحال ، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر .. إلى الإثم والعدوان قويهم وضعيفهم سواء .. فالإثم والعدوان ـ فى المجتمعات الهابطة الفاسدة ـ لا يقتصران على الأقوياء ؛ بل يرتكبهما كذلك الضعفاء .. فحتى هؤلاء ينساقون فى تيار الإثم . وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء ؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا . ولكن يعتدى بعضهم على بعض . ويعتدون على حرمات الله . لأنها هى التى تكون فى المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذى لا حارس له من حاكم ولا محكوم ؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد ؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات !

وكذلك كان مجتمع يهود فى تلك الأيام .. وكذلك أكلهم للحرام .. فأكل الحرام كذلك سمة يهود فى كل آن !

« لبئس ما كانوا يعملون » !

Marfat.com

Marfat.com

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة ؛ وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة ، والأحبار القائمين على أمر العلم الدينى .. سكوتهم على مسارعة القوم فى الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ وعدم نهيهم عن هذا الشر الذى يتسابقون فيه :

« لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ! » ..

فهذه السمة ـ سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الدينى عما يقع فى المجتمع من إثم وعدوان ـ هى سمة المجتمعات التى فسدت وآذنت بالانهيار .. وبنو إسرائيل « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .. كما حكى عنهم القرآن الكريم ..

إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحى القوى المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهى ، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر .

وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ووصف بنى إسرائيل فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .. فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين .

أما هنا فينحى باللائمة على الربانيين والأحبار ، الساكتين على المسارعة فى الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله .

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين . فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ والأمر كما قلنا من قبل فى الظلال ، يقتضى « سلطة » تأمر وتنهى [1] ، والأمر والنهى أمر غير الدعوة . فالدعوة بيان ،

---

(١) الجزء الرابع من الطبعة الثانية المنقحة : ص ٢٥ـ٢٦ .

والأمر والنهى سلطان . وكذلك ينبغى أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذى يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته فى المجتمع ؛ فلا يكون مطلق كلام !

وكنموذج من قولهم الإثم فى أبشع صوره يحكى القرآن الكريم قول اليهود الغبى اللئيم :

« وقالت اليهود يد الله مغلولة ـ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ » ..

وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه . فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك . وقد قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : يد الله مغلولة ، يعللون بذلك بخلهم ؛ فالله ـ بزعمهم ـ لا يعطى الناس ولا يعطيهم إلا القليل . . فكيف ينفقون ؟ !

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ؛ فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا فقالوا : يد الله مغلولة !

ويجىء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم :

« غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » .

وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمال !

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم . وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب :

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ..

وعطاياه التى لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان .. شاهدة باليد المبسوطة ، والفضل الغامر ، والعطاء الجزيل ، ناطقة بكل لسان . ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللام والضم ، وبالكنود والجحود ، وبالبذاءة حتى فى حق الله !

ويحدث الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما سيبدو من القوم ، وعما سيحل بهم ،

Marfat.com

بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ؛ وبسبب مانكشفه هذه الرسالة من أمرهم فى القديم والحديث :

« وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا » ..

فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله ، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا . لأنهم وقد أبوا الإيمان ، لابد أن يشتطوا فى الجانب المقابل ؛ ولابد أن يزيدوا تبجحا ونكرا ، وطغيانا وكفرا . فيكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة للمؤمنين ، ووبالا على المنكرين .

ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادى والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو فى أشد سعيره تلهبا ؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة :

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » . .

وما تزال طوائف اليهود متعادية . وإن بدا فى هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ! ولكن ينبغى ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة . ففى خلال ألف وثلاثمئة عام . . بل من قبل الإسلام .. واليهود فى شحناء وفى ذل كذلك وتشرد . ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه . مهما تقم حولهم الأسناد . ولكن مفتاح الموقف كله فى وجود العصبة المؤمنة ، التى يتحقق لها وعد الله .. فأين هى العصبة المؤمنة اليوم ، التى تتلقى وعد الله ، وتقف ستارا لقدر الله ، ويحقق الله بها فى الأرض ما يشاء ؟

ويوم تفىء الأمة المسلمة إلى الإسلام : تؤمن به على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته .. يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله .. واليهود يعرفون هذا ، ومن ثم يسلطون كل ما فى جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما فى أيديهم من بطش وفتك ، على طلائع البعث الإسلامى فى كل شبر من الأرض ، ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدى عملائهم ـ ضربات وحشية منكرة ؛ لا ترعى فى العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة .. ولكن الله غالب على أمره . ووعد الله لا بد أن يتحقق :

Marfat.com

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » ..

إن هذا الشر والفساد الذى تمثله يهود ، لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ؛ فالله لا يحب الفساد فى الأرض ؛ ومالا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويقضى عليه :

« ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » . .

* * *

وفى نهاية الدرس تجىء القاعدة الإيمانية الكبرى ـ قاعدة أن إقامة دين الله فى الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح فى حياة المؤمنين فى هذه الدنيا وفى الآخرة على السواء . لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة . فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة ؛ للدنيا وللدين .. تجىء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ؛ وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض .. واتباع دين الله كان أجدى عليهم فى الأرض والسماء ، وفى الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق :

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ؛ ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » ..

إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامى ، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة فى الحياة الإنسانية . ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل ؛ وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هى اليوم ؛ والعقل البشرى ، والموازين البشرية ، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج ، بإزاء هذا الأمر الخطير ..

إن الله ـ سبحانه ـ يقول لأهل الكتاب ـ ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب ـ إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم ـ وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا فى حياتهم الدنيا منهج الله الممثل فى التوراة والإنجيل وما أنزله

Marfat.com

Marfat.com

الله إليهم من التعاليم ـ كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل ـ لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهممن فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة . . ولـكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله ـ إلا قلة منهم فى تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها « وكثير منهم ساء ما يعملون»

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله فى واقع الحياة البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده ـ وإن كان هو المقدم وهو الأدوم ـ ولـكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة .. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية .. يرسمها فى صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض فى قوله : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ..

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء فى الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة فى الدنيا . إنما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا والآخرة ، فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة..هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهى فى الحياة الدنيا ..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبى وتقوى فحسب ، ولـكنه كذلك ـ وتبعا لذلك ـ منهج حياة إنسانية واقعية ، يقام ، وتقام عليه الحياة .. وإقامته ـ مع الإيمان والتقوى ـ هى التى تكفل صلاح الحياة الأرضية ، وفيض الرزق ، ووفرة النتاج ، وحسن التوزيع ، حتى يأكل الناس جميعا ـ فى ظل هذا المنهج ـ من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

إن المنهج الإيمانى للحياةلا يجعل الدين بديلا من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا ، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا .. وهذه هى الحقيقة الغائمة اليوم فى أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية .

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة فى تفكير الناس وضميرهم وواقعهم ، بحيث أصبح الفرد العادى ـ وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة ـ لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين . ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ؛ وإما

Marfat.com

أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما فى تصور ولا واقع .. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم فى هذه الفترة من الزمان توحى بهذا ..

حقيقة : إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله ، وعن منهجه للحياة ، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، وتحتم على الذين يريدون البروز فى المجتمع ، والكسب فى مضمار المنافع الدنيوية ، أن يتخلوا عن طريق الآخرة ؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف ، الذى يحض عليه الدين . كما تحتم على الذين يريدون النجاة فى الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة ، والوسائل التى يصل بها الناس فى مثل هذه الأوضاع إلى البروز فى المجتمع ، والكسب فى مضمار المنافع ، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ، ولا مرضية لله سبحانه ..

ولكن .. تراها ضربة لازب ! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؟

كلا .. إنها ليست ضربة لازب ! فالعداء بين الدنيا والآخرة ؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ليس هو الحقيقة النهائية التى لا تقبل التبديل .. بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا . إنما هى عارض ناشئ من انحراف طارئ !

إن الأصل فى طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقى فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا . وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة فى عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا ؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هى أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هى وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروى ..

هذا هو الأصل فى طبيعة الحياة الإنسانية .. ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذى رضيه للناس .. فهذا المنهج هو الذى يجعل العمل عبادة ، وهو الذى يجعل الخلافة فى الأرض وفق شريعة الله فريضة . والخلافة عمل وإنتاج ، ووفرة ونماء ، وعدل فى التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما يقول الله فى كتابه الكريم.

Marfat.com

إن التصور الإسلامى يجعل وظيفة الإنسان فى الأرض هى الخلافة عن الله ، بإذن الله ، وفق شرط الله .. ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر ، وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها ـ بل الخامات والموارد الكونية كذلك ـ هو الوفاء بوظيفة الخلافة. ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة ـ وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف ـ طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التى سخرها الله له ؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه ، كما يصور التعبير القرآنى الجميل !

ووفق التصور الإسلامى يعتبر الإنسان الذى لا يفجر ينابيع الأرض ، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له ، عاصيا لله ، ناكلا عن القيام بالوظيفة التى خلقه الله لها ، وهو يقول للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . وهو يقول كذلك للناس : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه » ، ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد .. وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا !

والمنهج الإسلامى ـ بهذا ـ يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة فى توافق وتناسق . فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته ، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه . فهما ليسا نقيضين ولا بديلين فى التصور الإسلامى .

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة ، وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التى تقوم فى الأرض على منهج الله .. فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف .. إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة ـ فى المنهج الإسلامى ـ لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان .. فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية فى العمل والإنتاج ؛ وأن يبتغى فى العمل والإنتاج وجه الله ، فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون ، ولا يأكل من سحت ، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج فى الجماعة شيئا يملكه ـ مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها فى ماله فى حدود ما فرض الله وما شرع ـ والمنهج يسجل للفرد عمله ـ فى هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات ـ عبادة لله يجزيه عليها بالبركة فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ..

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التى يفرضها عليه ؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله فى اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة ، وفى العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان ، وفى العمر كله بحج بيت الله . وفى كل موسم أو فى كل عام بإخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية فى المنهج الإسلامى . إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلى للحياة . وهى قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج ، الذى ينظم أمر الحياة كلها ، ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس فى علاقاتهم وفى خلافاتهم . ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التى يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلى المتكامل ، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف فى الطريق .. وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء ، والجهاد لإقرار منهج الله فى الأرض ، وتقرير سلطانه فى حياة الناس .. إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج ، المعين على أداء شطره الآخر .. وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله فى الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض . كما يعد الله الناس فى هاتين الآيتين الكريمتين ..

إن التصور الإسلامى ، وكذلك المنهج الإسلامى المنبثق منه ، لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا ـ ولا العكس ـ إنما يقدمهما معا فى طريق واحد ، وبجهد واحد . ولكنهما لا يجتمعان كذلك فى حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده فى الحياة ـ دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله ، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التى لم تضبط بهذا المنهج ـ ففى هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل .

والتصور الإسلامى ـ وكذلك المنهج الإسلامى المنبثق منه ـ لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى ، بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين فى واقع الحياة المادية .. وليس هو المنهج الذى يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ؛ بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدى إلى فردوس الدنيا ـ كما يتصور بعض السطحيين فى هذا الزمان ! ـ فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين فى واقع الحياة الدنيا تمثل فى التصور الإسلامى ـ والمنهج

Marfat.com

الإسلامى ـ فريضة الخلافة فى الأرض . والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى ، تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج فى حياة الناس .. وهذه وتلك معا هى مؤهلات الفردوس الأرضى والفردوس الأخروى معا ؛ والطريق هو الطريق ، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع فى الأوضاع الجاهلية القائمة فى الأرض كلها اليوم . والتى منها يقوم فى أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ، ولا يجمعوا بينهما فى تصور أو فى واقع .. لأنهما لا تجتمعان .. !

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة فى حياة الناس ، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وبين العبادة الروحية والإبداع المادى ، وبين النجاح فى الحياة الدنيا ، والنجاح فى الحياة الأخرى .. إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية ! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهى تشرد عن منهج الله ، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها ، معادية لمنهج الله فى الأساس والاتجاه ..

وهى ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم فى الحياة الدنيا ، فوق ما يؤدونه منها فى الآخرة وهو أشد وأنكى ..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر ، من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه ، إذا هم آثروا اطراح الدين كله ، على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة ، والنجاح الفردى والجماعى فى المعترك العالمى ! ذلك أنهم فى هذه الحالة يصارعون فطرتهم ، يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ، ولا تطيق الفراغ والخواء . وهى جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية ، أو فلسفية ، أو فنية .. على الإطلاق .. لأنها جوعة النزعة إلى إله ..

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر ، إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة فى الله ، وحاولوا معها مزاولة الحياة فى هذا المجتمع العالمى الذى يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته ، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله ، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الدينى ، والسلوك الدينى ، مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة فى هذا المجتمع المنكود .

Marfat.com

Marfat.com

وتعانى البشرية كلها ذلك الشقاء ، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية ، أو المذاهب المادية التى تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية .. وتتصور ـ أو يصور لها أعداء البشرية ـ أن الدين لله ، وأن الحياة للناس ! وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق ، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل !

وتؤدى البشرية هذه الضريبة الفادحة .. ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء .. لأنها لا تهتدى إلى منهج الله الذى لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء فى الدنيا والرخاء فى الآخرة ، بل ينسق . .

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة ، فى فترة موقوتة ، إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقى ، ولا تقيم منهج الله فى حياتها ، وهى موفورة الخيرات ، كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء ...

إنه رخاء موقوت ، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت . وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادى والمنهج الربانى .. والآن تظهر بعض هذه الآثار فى صور شتى :

تظهر فى سوء التوزيع فى هذه الأمم ، مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء ، وحافلا بالأحقاد ، وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة .. وهو بلاء على رغم الرخاء ! ..

وتظهر فى الكبت والقمع والخوف فى الأمم التى أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والارهاب ونشر الخوف والذعر ، لإقرار الاجراءات التى تأخذ بها لإعادة التوزيع .. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة فى سلام !

وتظهر فى الانحلال النفسى والخلقى الذى يؤدى بدوره ـ إن عاجلا أو آجلا ـ إلى تدمير الحياة المادية ذاتها . فالعمل والإنتاج والتوزيع ، كلها فى حاجة إلى ضمانة الأخلاق . والقانون الأرضى وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى فى كل مكان !

وتظهر فى القلق العصبى والأمراض المنوعة التى تجتاح أمم العالم ـ وبخاصة أشدها رخاء ماديا ـ مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال . ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج ،

وينتهى إلى تدمير الاقتصاد المادى والرخاء ! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار !

وتظهر فى الخوف الذى تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمى المتوقع فى كل لحظة ؛ فى هذا العالم المضطرب ؛ الذى تحوم حوله نذر الحرب المدمرة .. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية .. ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر فى أمم الرخاء !

وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة فى ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار ـ وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى فى الشعب الفرنسى ـ وليس هذا إلا مثلا للآخرين ، فى فعل الافتراق بين النشاط المادى والمنهج الربانى ؛ وافتراق الدنيا والآخرة ، وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله ، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس !

وقبل أن ننهى هذا التعليق على التقرير القرآنى لتلك الحقيقة الكبيرة ، نحب أن نؤكد أهمية التناسق فى منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج فى الحياة الواقعية للناس ، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة فى الأرض ؛ فهذا التناسق هو الذى يحقق شرط الله لأهل الكتاب ـ ولكل جماعة من الناس ـ أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم فى الدنيا ، وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم فى الآخرة ؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضى ـ بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة ـ وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ..

ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هى الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الربانى فى الحياة الواقعية .. فهذا يتضمن فى ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة .. فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذى يغير كل طعوم الحياة ؛ ويرفع كل قيم الحياة ؛ ويقوّم كل موازين الحياة .. فهذا هو الأصل فى التصور الإسلامى وفى المنهج الإسلامى ، وكل شىء فيه يجىء تبعا له ، ومنبثقا منه ومعتمدا عليه .. ثم يتم تمام الأمر كله فى الدنيا والآخرة فى تناسق واتساق .

Marfat.com

الجزء السادس

وينبغى أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله فى الحياة .. كل أولئك ثمرته للإنسان ، وللحياة الإنسانية . فالله ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين .. وإذا شدد المنهج الإسلامى فى هذه الأسس ، وجعلها مناط العمل والنشاط ؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها ، وعده باطلا لا يقبل ، وحابطا لا يعيش ، وذاهبا مع الريح .. فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شىء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة .. ولكن لأنه ـ سبحانه ـ يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج ..

فى الحديث القدسى : عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا .. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .. ياعبادى ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيطُ إذا أدخل البحر .. يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله ؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .. (رواه مسلم)

وعلى هذا الأساس ينبغى أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله فى الحياة والحكم بشريعة الله .. فهى كلها لحسابنا نحن .. لحساب هذه البشرية .. فى الدنيا والآخرة جميعا .. وهى كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية فى الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا فى حاجة لأن نقول : إن هذا الشرط الإلهى لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب . فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله للتمثل

Marfat.com

Marfat.com

فى ما أنزل إليهم فى التوراة والإنجيل. وما أنزل إليهم من ربهم - وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة - فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن .. أولى بالشرط الذين يقولون : إنهم مسلمون.. فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل ، والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله فى شرعهم من شرع من قبلهم .. وهم أصحاب الدين الذى لا يقبل الله غيره من أحد .. وقد انتهى إليه كل دين قبله ؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره .. أو يقبل من أحد غيره .

فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم .. وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم ، وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة فى الآخرة ؛ ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم فى الدنيا ..

إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذى يعيشون فيه فى كل أرجاء الوطن الإسلامى - أو الذى كان إسلاميا بتعبير أصح - وشرط الله قائم ؛ والطريق إليه معروف .. لو كانوا يعقلون ..

« يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ؛ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ؛ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا ، وَٱلصَّابِئُونَ ، وَالنصارى . . مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا . . فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ

Marfat.com

فَعَمُوا وَصَمُّوا ، ثُمَّ تَابَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ، كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

« لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللهَ ، رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ . وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَٱللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟ * مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ . ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ، ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَٱللهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ؟ * قُلْ : يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ .

« لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ، ذٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ! * تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ، أَن سَخِطَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَلٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » ﴿٨١﴾

يمضى هذا الدرس فى بيان حال أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ وكشف الانحراف فيما يعتقدون ، وكشف السوء فيما يصنعون ؛ فى تاريخهم كله ـ وبخاصة اليهود ـ كما يمضى فى تقرير نوع العلاقة بينهم وبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجماعة المسلمة ؛ وواجب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تعامله معهم وواجب المسلمين .. ذلك إلى تقرير حقائق أساسية ضخمة فى أصول التصور الاعتقادى ؛ وفى أصول النشاط الحركى للجماعة المسلمة ، تجاه المعتقدات المنحرفة وتجاه المنحرفين .

لقد نادى الله ـ سبحانه ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه .. كل ما أنزل إليه .. لا يستبقى منه شيئا ، ولا يؤخر منه شيئا مراعاة للظروف والملابسات ، أو تجنبا للاصطدام بأهواء الناس . وواقع المجتمع .. وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ ..

ومن هذا الذى كلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبليغه أن يجابه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. هكذا قاطعة جازمة صريحة جاهرة .. وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء ، وكفر النصارى بقولهم : إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . كما يعلن أن المسيح ـ عليه السلام ـ أنذر بنى إسرائيل عاقبة الشرك ، وتحريم الله الجنة على المشركين .. وأن بنى إسرائيل لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم بعصيانهم وعدوانهم .

وينتهى الدرس بكشف موقف أهل الكتاب من مظاهرة المشركين على المسلمين . وإعلان أن هذا ناشىء من عدم إيمانهم بالله والنبى . وأنهم مدعوون إلى الإيمان بما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلا فما هم بالمؤمنين ..

ونأخذ بعد هذا الإجمال فى مواجهة النصوص بالتفصيل :

* * *

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدى القوم الكافرين .. قل : يا أهل الكتاب لستم على شىء

Marfat.com

Marfat.com

حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين . إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى .. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

إنه الأمر الجازم الحاسم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملا ، وألا يجعل لأى اعتبار من الاعتبارات حسابا وهو يصدع بكلمة الحق .. هذا ، وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة .. والله يتولى حمايته وعصمته من الناس ، ومن كان الله له عاصما فماذا يملك له العباد المهازيل !

إن كلمة الحق فى العقيدة لا ينبغى أن تجمجم ! إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة ؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء ؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل ؛ فإن كلمة الحق فى العقيدة لا تملق الأهواء ؛ ولا تراعى مواقع الرغبات ؛ إنما تراعى أن تصدع حتى تصل إلى القلوب فى قوة وفى نفاذ ..

وكلمة الحق فى العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التى يكمن فيها الاستعداد للهدى .. وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التى لا استعداد فيها للإيمان ؛ وهى القلوب التى قد يطمع صاحب الدعوة فى أن تستجيب له لو داهنها فى بعض الحقيقة !

« إن الله لا يهدى القوم الكافرين » ..

وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة .. والهدى والضلال إنما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها ، لا المداهنة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو فى كلمة الحق !

إن القوة والحسم فى إلقاء كلمة الحق فى العقيدة ، لا يعنى الخشونة والفظاظة ؛ فقد أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وليس هنالك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة ـ والحكمة والموعظة الحسنة لا تجافيان الحسم والفصل فى بيان كلمة الحق . فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شىء غير مادة التبليغ وموضوعه . والمطلوب هو عدم المداهنة فى بيان كلمة الحق كاملة فى العقيدة ، وعدم اللقاء فى منتصف الطريق فى الحقيقة ذاتها . فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول ..

Marfat.com

ومنذ الأيام الأولى للدعوة كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة فى طريقة التبليغ ، وكان يفاصل مفاصلة كاملة فى العقيدة ، فكان مامورا أن يقول : « يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون .. » فيصفهم بصفتهم ؛ ويفاصلهم فى الأمر ، ولا يقبل أنصاف الحلول التى يعرضونها عليه ، ولا يدهن فيدهنون ، كما يودون ! ولا يقول لهم : إنه لا يطلب إليهم إلا تعديلات خفيفة فيما هم عليه ، بل يقول لهم : إنهم على الباطل المحض ، وإنه على الحق الكامل .. فيصدع بكلمة الحق عالية كاملة فاصلة ، فى أسلوب لا خشونة فيه ولا فظاظة ..

وهذا النداء ، وهذا التكليف ، فى هذه السورة :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ـ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ـ والله يعصمك من الناس .. إن الله لا يهدى القوم الكافرين » .

يبدو من السياق ـ قبل هذا النداء وبعده ـ أن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه ، وبحقيقة صفتهم التى يستحقونها بما هم عليه .. ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شىء .. ليسوا على شىء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان . . ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم . ومن ثم فلا شىء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين :

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم .. » .

وحينما كلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شىء من الدين والعقيدة والإيمان . . بل ليسوا على شىء أصلا يرتكن عليه ! حينما كلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمواجهتهم هذه المواجهة الحاسمة الفاصلة ، كانوا يتلون كتبهم ؛ وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية ؛ وكانوا يقولون : إنهم مؤمنون . . ولكن التبليغ الذى كلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم به ، لم يعترف لهم بشىء أصلا مما كانوا يزعمون لأنفسهم ، لأن «الدين» ، ليس كلمات تقال باللسان ؛ وليس كتبا تقرأ وترتل ؛ وليس صفة تورث وتدعى . إنما الدين منهج حياة . منهج يشمل العقيدة المستقرة فى الضمير ، والعبادة

للمثلة فى الشعائر ، والعبادة التى تتمثل فى إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج .. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه ، فقد كلف « الرسول » ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين ؛ وليسوا على شىء أصلا من هذا القبيل !

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، مقتضاها الأول الدخول فى دين الله الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه . وصفة محمد وقومه عندهم فى التوراة وعندهم فى الإنجيل ـ كما أخبر الله وهو أصدق القائلين ـ فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم : (سواء كان المقصود بقوله : « وما أنزل إليهم من ربهم » هو القرآن ـ كما يقول بعض المفسرين ـ أو هو الكتب الأخرى التى أنزلت لهم كزبور داود) .. نقول إنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم إلا أن يدخلوا فى الدين الجديد ، الذى يصدق ما بين يديهم ويهيمن عليه . . فهم ليسوا على شىء ـ بشهادة الله سبحانه ـ حتى يدخلوا فى الدين الأخير .. والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كلف أن يواجههم بهذا القرار الإلهى فى شأنهم ؛ وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم ؛ وإلا فما بلغ رسالة ربه .. ويا له من تهديد !

وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة ، وبهذه الكلمة الفاصلة ، ستؤدى إلى أن تزيد كثيرا منهم طغياناً وكفراً ، وعناداً ولجاجا . . ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم بها ؛ وألا يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود بسبب مواجهتهم بها ؛ لأن حكمته ـ سبحانه ـ تقتضى أن يصدع بكلمة الحق ؛ وأن تترتب عليها آثارها فى نفوس الخلق . فيهتدى من يهتدى عن بينة ، ويضل من يضل عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة :

« وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين » . .

وكان الله ـ سبحانه ـ يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ؛ ويطلعه على حكمة الله فى هذا المنهج ؛ ويسلى قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون ، إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغياناً وكفرا ؛ فهم يستحقون هذا المصير البائس ؛ لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق ؛ ولا خير

Marfat.com

فى أعماقها ولا صدق . فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق ؛ ليظهر ما كمن فيها وما بطن ؛ ولتجهر بالطغيان والكفر ؛ ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين !

* * *

ونعود إلى قضية الولاء والتناصر والتعاون بين المسلمين وأهل الكتاب ـ على ضوء هذا التبليغ الذى كلفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ضوء نتائجه التى قدر الله أن تكون فى زيادة الكثيرين منهم طغياناً وكفرا .. فماذا نجد .. ؟

نجد أن الله ـ سبحانه ـ يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وحتى يدخلوا فى الدين الأخير تبعاً لهذه الإقامة كما هو بديهى من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبى . فى المواضع الأخرى المتعددة . . فهم إذن لم يعودوا على « دين الله » ولم يعودوا أهل « دين » يقبله الله .

ونجد أن مواجهتهم بهذه الحقيقة قد علم الله أنها ستزيد الكثيرين منهم طغياناً وكفرا . . ومع هذا فقد أمر رسوله أن يواجههم بها دون مواربة . ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها !

فإذا نحن اعتبرنا كلمة الله فى هذه القضية هى كلمة الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يبق هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب . . أهل دين . . يستطيع « المسلم » أن يتناصر معهم فيه للوقوف فى وجه الإلحاد والملحدين ؛ كما ينادى بعض المخدوعين وبعض الخادعين ! فأهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ؛ حتى يعتبرهم المسلم « على شىء » وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره الله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .. وكلمة الله باقية لا تغيرها الملابسات والظروف !

وإذا نحن اعتبرنا كلمة الله هى كلمة الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة ، فى هياجهم علينا ، وفى اشتداد حربهم لنا ، ولم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على دين نرضاه منهم ونقرهم عليه ، ونتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه ـ كما ندفع الإلحاد عن ديننا الذى هو الدين الوحيد الذى يقبله الله من الناس ..

Marfat.com

إن الله ـ سبحانه ـ لا يوجهنا هذا التوجيه . ولا يقبل منا هذا الاعتراف . ولا يغفر لنا هذا التناصر ، ولا التصور الذى ينبعث التناصر منه . لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر ؛ ونختار فى أمرنا غير ما يختار ؛ ونعترف بعقائد محرفة أنها « دين » إلهى ، يجتمع معنا فى آصرة الدين الإلهى .. والله يقول : إنهم ليسوا على شىء ، حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وهم لا يفعلون !

والذين يقولون : إنهم مسلمون ـ ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم ـ هم كأهل الكتاب هؤلاء ، ليسوا على شىء كذلك . فهذه كلمة الله عن أهل أى كتاب لا يقيمونه فى نفوسهم وفى حياتهم سواء . والذى يريد أن يكون مسلما يجب عليه ـ بعد إقامة كتاب الله فى نفسه وفى حياته ـ أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شىء حتى يقيموه . وأن دعواهم أنهم على دين ، يردها عليهم رب الدين . فالمفاصلة فى هذا الأمر واجبة ؛ ودعوتهم إلى « الإسلام » من جديد هى واجب « المسلم » الذى أقام كتاب الله فى نفسه وفى حياته . فدعوى الإسلام باللسان أو بالوراثة دعوى لا تفيد إسلاما ، ولا تحقق إيمانا ، ولا تعطى صاحبها صفة التدين بدين الله ، فى أى ملة ، وفى أى زمان !

وبعد أن يستجيب هؤلاء أو أولئك ؛ ويقيموا كتاب الله فى حياتهم ؛ يملك « المسلم » أن يتناصر معهم فى دفع غائلة الإلحاد والملحدين ، عن « الدين » وعن « المتدينين » .. فأما قبل ذلك فهو عبث ؛ وهو تمييع ، يقوم به خادع أو مخدوع !

إن دين الله ليس راية ولا شعارا ولا وراثة ! إن دين الله حقيقة تتمثل فى الضمير وفى الحياة سواء . تتمثل فى عقيدة تعمر القلب ، وشعائر تقام للتعبد ، ونظام يصرف الحياة .. ولا يقوم دين الله إلا فى هذا الكل المتكامل ؛ ولا يكون الناس على دين الله إلا وهذا الكل المتكامل متمثل فى نفوسهم وفى حياتهم .. وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة ، وخداع للضمير ؛ لا يقدم عليه « مسلم » نظيف الضمير !

وعلى « المسلم » أن يجهر بهذه الحقيقة ؛ ويفاصل الناس كلهم على أساسها ؛ ولا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة . والله هو العاصم . والله لا يهدى القوم الكافرين ..

وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله ؛ ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس ، إلا

Marfat.com

إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة : ووصف لهم ما هم عليـه كما هو فى حقيقته ، بلا مجاملة ولا مداهنة .. فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شىء ، وأن ما هم عليه باطل كله من أساسه ، وأنه هو يدعوهم إلى شىء آخر تماما غير ما هم عليه .. يدعوهم إلى نقلة بعيدة ، ورحلة طويلة ، وتغيير أساسى فى تصوراتهم وفى أوضاعهم وفى نظامهم وفى أخلاقهم .. فالناس يجب أن يعرفوا من الداعية أين هم من الحق الذى يدعوهم إليه .. « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة » ..

وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسى بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق ، وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلهم .. حين يفعل صاحب الدعوة هذا ـ مراعاة للظروف وللابسات ، وحذرا من مواجهة واقع الناس الذى يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم ـ فإنه يـكون قد خدعهم وآذاهم ، لأنه لم يعرّفهم حقيقة المطلوب منهم كله ، وذلك فوق أنه يـكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه !

إن التلطف فى دعوة الناس إلى الله ، ينبغى أن يـكون فى الأسلوب الذى يبلغ به الداعية ، لا فى الحقيقة التى يبلغهم إياها .. إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة . أما الأسـلوب فيتبع المقتضيات القائمة ، ويرتـكز على قاعدة الحـكمة والموعظة الحسنة ..

ولقد ينظر بعضنا اليوم ـ مثلا ـ فيرى أن أهل الـكتاب هم أصحاب الـكثرة العددية وأصحاب القوة المادية . وينظر فيرى أن الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين فى الأرض ، وهم أصحاب كلمة مسموعة ، فى الشئون الدولية . وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمرة . وينظر فيرى الذين يقولون : إنهم مسلمون ليسوا على شىء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم .. فيتعاظمه الأمر ، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة ، ويرى عدم الجدوى فى أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شىء ! وأن يبين لهم « الدين » الحق !

وليس هذا هو الطريق . . إن الجاهلية هى الجاهلية ـ ولو عمت أهل الأرض جميعا ـ وواقع الناس كله ليس بشىء ما لم يقم على دين الله الحق . وواجب صاحب الدعوة هو واجبه

Marfat.com

Marfat.com

لا تغيره كثرة الضلّال ؛ ولا ضخامة الباطل .. فالباطل ركام .. وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة : أنهم ليسوا على شيء .. كذلك ينبغى أن تستأنف .. وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وناداه :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ـ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ـ والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدى القوم الكافرين . قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم » .

* * *

وينتهى هذا المقطع بالبيان الأخير عن « الدين » الذى يقبله الله من الناس ، أيا كان وصفهم وعنوانهم وما كانوا عليه قبل بعثة النبى الأخير ؛ والذى يلتقى عليه المتفرقون فى الملل والنحل فيما غبر من التاريخ :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى .. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا .. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

والذين آمنوا هم المسلمون . والذين هادوا هم اليهود . والصابئون هم فى الغالب تلك الفئة التى تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة، ومنهم من العرب أفراد معدودون . والنصارى هم أتباع المسيح ـ عليه السلام .

والآية تقرر أنه أيا كانت النحلة ، فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا ـ ومفهوم ضمنا فى هذا الموضع، وتصريحا فى مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير ـ فقد نجوا : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك ؛ ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات .. فالمهم هو العنوان الأخير ..

وهذا الذى نقرر أنه مفهوم من الآية ضمنا يعتبر من « المعلوم من الدين بالضرورة » . فمن بديهيات هذه العقيدة ، أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو خاتم النبيين ، وأنه أرسل إلى البشر كافة ، وأن الناس جميعا ـ على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم ـ مدعوون إلى الإيمان بما جاء به ، وفق ما جاء به ؛ فى عمومه وفى تفصيلاته . وأن

من لا يؤمن به رسولا ، ولا يؤمن بما جاء به إجمالا وتفصيلا ، فهو ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين ، ولا يدخل فى مضمون قوله تعالى : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » :

وهذه هى الحقيقة الأساسية « المعلومة من الدين بالضرورة » التى لا يجوز للمسلم الحق أن يجمجم فيها أو يتمتم ؛ أمام ضخامة الواقع الجاهلى الذى تعيش فيه البشرية . والتى لا يجوز للمسلم أن يغفلها فى إقامة علاقاته بأهل الأرض قاطبة ؛ من أصحاب الملل والنحل . فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلى على اعتبار أحد من أصحاب هذه الملل والنحل على « دين » يرضاه الله ؛ ويصلح أن يتناصر معه فيه ويتولاه !

إنما الله هو الولى « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » مهما تكن ظواهر الأمور .. ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ـ على أساس هذا الدين الذى هو وحده الدين ـ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. لا خوف عليهم فى الدنيا ولا فى الآخرة .. لا خوف عليهم من قوى الباطل والجاهلية المتراكمة . ولا خوف عليهم من أنفسهم المؤمنة العاملة الصالحة .. ولا هم يحزنون ...

* * *

بعد ذلك يأخذ السياق فى عرض طرف من تاريخ بنى إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلى فيه كيف أنهم ليسوا على شىء ؛ ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة ، ومخاطبتهم بالإسلام ، ليأووا منه إلى دين الله . ثم لتتبين حقيقتهم التى لم تتغير ؛ وتنكشف للمسلمين هذه الحقيقة ، فتسقط فى أعينهم قيمة يهود ، وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم ، وهم على مثل هذه الحال فى أمر الحق والدين :

« لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وأرسلنا إليهم رسلا . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم : فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة . فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا ـ كثير منهم ـ والله بصير بما يعملون » ..

إنه تاريخ قديم ! فليس موقفهم من رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأول

Marfat.com

ولا بالأخير ! إنهم مردوا على العصيان والإعراض ؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله ؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله ، ولا هدى الرسل ؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله :

« لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » ..

وسجل بنى إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض ؛ حافل بالقتل والاعتداء ؛ حافل بتحكيم الشهوات والأهواء .

ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بنى إسرائيل على الأمة المسلمة فى تفصيل وتطويل .. لعلها تتقى أن تكون كبنى إسرائيل ؛ ولعلها تحذر مزالق الطريق ، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق ؛ أو يتأسون بأنبياء بنى إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا وأجيال من ذرارى المسلمين تنتهى إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل ، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ؛ فتحكم الهوى ؛ وترفض الهدى ، وتكذب فريقا من الدعاة إلى الحق ، وتقتل فريقا ؛ كما صنع بغاة بنى إسرائيل ، فى تاريخهم الطويل !

لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها ؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ، ولن يأخذهم بالعقاب . حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله ؛ وغرورا منهم بأنهم « شعب الله المختار » !

« وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا » ..

طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئا ؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئا ..

« ثم تاب الله عليهم » ..

وأدركهم برحمته .. فلم يرعووا ولم ينتفعوا :

« ثم عموا وصموا . كثير منهم . . »

« والله بصير بما يعملون » ..

Marfat.com

Marfat.com

وهو مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم . . وما هم بمفلتين ..

ويكفى أن يعرف الذين آمنوا هذا التاريخ القديم عن يهود ، وهذا الواقع الجديد ؛ لتنفر قلوبهم المؤمنة من ولائهم ، كما نفر قلب عبادة ابن الصامت ؛ فلا يتولاهم إلا المنافقون من أمثال عبد الله ابن أبى ابن سلول !

* * *

ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب .. فأما شأن النصارى فيبينه السياق القرآنى فى حسم وتوكيد يتمشيان مع طبيعة السورة ؛ وطبيعة الموقف الذى تعالجه ..

ولقد سبق فى سياق السورة وصف الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم بالكفر . فالآن يكرر هذا الوصف ، سواء لمن قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . مع ذكر شهادة عيسى ـ عليه السلام ـ عليهم بالكفر ، وتحذيره لهم من وصف أحد بالألوهية إلا الله ـ سبحانه ـ واعترافه بأن الله هو ربه وربهم على السواء . ثم تحذير الله لهم فى النهاية من المضى فيما هم عليه من الكفر ، بسبب هذه المقولات التى لا يقول بها المؤمنون بالله وبدينه الصحيح :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار .. لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟ والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون . قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟ والله هو السميع العليم ؟ قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل » ..

ولقد سبق أن بينا ـ باختصار ـ كيف ومتى تسربت هذه المقولات المنحرفة من المجامع إلى العقيدة النصرانية التى جاء بها عيسى عليه السلام رسولا من عند الله ؛ كإخوانه الرسل ؛ الذين

جاءوا بكلمة التوحيد خالصة ؛ لا يشوبها ظل من الشرك ؛ لأن الرسالات كلها ، جاءت لتقرير كلمة التوحيد فى الأرض وإبطال كلمة الشرك .

فالآن نذكر ـ باختصار كذلك ـ ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك ، على النحو الذى أسلفناه ..

« جاء فى كتاب « سوسنة سليمان » لنوفل ابن نعمة الله ابن جرجس النصرانى : أن عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بإله واحد : آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى . وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء ، والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه . والإيمان بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الابن يسجد له ، ويمجده ، الناطق بالأنبياء »

« وقال الدكتور « بوست » فى تاريخ الكتاب المقدس : طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس . فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن . وإلى الابن الفداء . وإلى الروح القدس التطهير [1] »

ونظرا لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة فى واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث ، فإن الكتاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلى فى هذه القضية ، التى يرفضها العقل ابتداء . ومن ذلك ما كتبه القس « بوطر » فى رسالة « الأصول والفروع » حيث يقول : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض . وأما فى الوقت الحاضر فنى القدر الذى فهمناه كفاية [2] »

---

(١) ، (٢) نقلا عن كتاب « محاضرات فى النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة .

Marfat.com

والله ـ سبحانه ـ يقول : إن هذه المقولات كلها كفر . وهى تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح عليه السلام ؛ والقول بأن الله ثالث ثلاثة .. وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » ..

وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار .. ونسوا قول المسيح ـ عليه السلام ـ :

« يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » ..

حيث أعلن لهم أنه هو وهم فى العبودية سواء ، لربوبية الله الواحد الذى ليس له من شركاء .

ويستوفى القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » ..

ويقرر الحقيقة التى تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله :

« وما من إله إلا إله واحد » ..

ويهددهم عاقبة الكفر الذى ينطقون به ويعتقدونه :

« وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » ..

والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التى حكم عليها الله بالكفر الصراح ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب :

« أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » ..

ليبقى لهم باب التوبة مفتوحا ؛ وليطمعهم فى مغفرة الله ورحمته ، قبل فوات الأوان ... ثم واجههم بالمنطق الواقعى القويم ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم . مع التعجيب

Marfat.com

Marfat.com

من أمرهم فى الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح :

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات . ثم انظر أنى يؤفكون .. »

وأكل الطعام مسألة واقعية فى حياة المسيح ـ عليه السلام ـ وأمه الصديقة. وهى خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتى ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لامراء فيها . ولا يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ليعيش . فالله حى بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته ـ سبحانه ـ أو يخرج منها شىء حادث كالطعام ..

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعى ونصاعته التى لا يجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين :

« انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » ..

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السلام ، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح عليه السلام وناسوتيته ـ كما ذكرنا ذلك من قبل باختصار(١)

واستطرادا فى ذلك المنطق القرآنى المبين من زاوية أخرى يجىء هذا الاستنكار :

« قل : أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؛ والله هو السميع العليم » ؟ . .

ويختار التعبير بكلمة « بما » بدل كلمة « من » فى هذا الموضع قصدا . ليدرج « المخلوقات » التى تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ فى سلك واحد . لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية . فيدخل عيسى ، ويدخل روح القدس ، وتدخل

---

(١) ص ١١٨ ـ ١٢١ من هذ الجزء

مريم ، كلهم فى «ما» لأنهم بماهيتهم من خلق الله . ويلقى هذا التعبير ظله كذلك فى هذا المقام ؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقا للعبادة ؛ وهو لا يملك لهم ضرا ولا نفعا :

« والله هو السميع العليم » . .

الذى يسمع ويعلم ؛ ومن ثم يضر وينفع . كما أنه هو الذى يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه ، ويعلم ماتكنه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة .. فأما ماسواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء . .

وينهى هذا كله بدعوة جامعة ، يكلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوجهها إلى أهل الكتاب :

« قل : ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا . وضلوا عن سواء السبيل » .

فمن الغلو فى تعظيم عيسى ـ عليه السلام ـ جاءت كل الانحرافات . ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم ، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذى أرسل به المسيح ، فبلغه بأمانة الرسول ، وهو يقول لهم : « يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » . .

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب ؛ ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذى خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . .

* * *

ونقف من هذا المقطع الذى انتهى بهذا النداء أمام ثلاث حقائق كبيرة ، يحسن الإلمام بها فى إجمال :

الحقيقة الأولى : هى حقيقة هذا الجهد الكبير ، الذى يبذله المنهج الإسلامى ، لتصحيح

Marfat.com

التصور الاعتقادى ؛ وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة ؛ وتنقيته من شوائب الوثنية والشرك التى أفسدت عقائد أهل الكتاب ؛ وتعريف الناس بحقيقة الألوهية ؛ وإفراد الله ـ سبحانه ـ بخصائصها ، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص . .

وهذا الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادى ، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل الحاسم ، يدل على أهمية هذا التصحيح . وأهمية التصور الاعتقادى فى بناء الحياة الإنسانية وفى صلاحها ، كما يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنسانى ، ولكل ارتباط إنسانى كذلك .

والحقيقة الثانية : هى تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؛ أو قالوا : إن الله ثالث ثلاثة : فلم يعد لمسلم ـ بعد قول الله سبحانه ـ قول . ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله . والله سبحانه يقول : إنهم كفروا بسبب هذه المقولات .

وإذا كان الإسلام ـ كما قلنا ـ لا يكره أحدا على ترك ماهو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام ، فهو فى الوقت ذاته لا يسمى ماعليه غير المسلمين دينا يرضاه الله . بل يصرح هنا بانه كفر ولن يكون الكفر دينا يرضاه الله .

والحقيقة الثالثة : المترتبة على هاتين الحقيقتين ، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذى يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام ، ويعتقد بأن الإسلام فى صورته التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده « الدين » عند الله . .

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل « الأديان » أمام الإلحاد كلاما لا مفهوم له فى اعتبار الإسلام ! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل ، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ماسواها . فكل شىء فى الحياة يقوم أولا على أساس العقيدة . . فى اعتبار الإسلام . .

* * *

Marfat.com

وفى النهاية يجىء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بنى إسرائيل من كفار بنى إسرائيل ، على مدى التاريخ ؛ ممثلا فى موقف داود وموقف عيسى ـ عليهما السلام ـ وكلاهما لعن كفار بنى إسرائيل ، واستجاب الله له . بسبب عصيانهم وعدوانهم ، وبسبب انحلالهم الاجتماعى ، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه ؛ وبسبب توليهم الكافرين ؛ فباءوا بالسخط واللعنة ، وكتب عليهم الخلود فى العذاب .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون » . .

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق . وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، هم فى النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله ؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى إسرائيل .

والذين كفروا من بنى إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة ؛ وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ـ كما مر فى المواضع القرآنية المتعددة فى هذه السوره وفى السور غيرها ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرنّ كل رسول ويعزروه ويتبعونه :

« ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . .

فهى المعصية والاعتداء ؛ يتمثلان فى كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء . وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل بالمعصية والاعتداء . . كما فصل الله فى كتابه الكريم .

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى إسرائيل . ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها ؛ وأن يسكت عنها المجتمع . ولا يقابلها بالتناهى والنكير :

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ! » . .

إن العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين . فالأرض لا تخلو من الشر ؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر

Marfat.com

Marfat.com

والمنكر أن يصبح عرفا مصطلحا عليه ؛ وأن يصبح سبيلا يجترئ عليه كل من يهم به . . وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير فى مجتمع من المجتمعات ؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه ؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه . . عندئذ يتزوى الشر ، وتنحسر دوافعه . وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه . وعندئذ ينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة ؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة . ولا تصبح هى الطابع العام !

والمنهج الإسلامى ـ بعرضه لهذه الظاهرة فى المجتمع الإسرائيلى ـ فى صورة الكراهية والتنديد ، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حى متجمع صلب ؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة ؛ ويريد للمجتمع الإسلامى أن يكون صلبا فى الحق ، وحساسا تجاه الاعتداء عليه؛ ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها ، فيقفوا فى وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء . . ولا يخافوا لومة لائم . سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم ؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال ؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى ؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء .

والإسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هى سكتت عليه ؛ ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد ، بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة .

روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عبد الله ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم . . . (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ متكئا فجلس ، فقال : « ولا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » .

وروى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أ كيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ، ثم قال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم » ـ إلى قوله : « فاسقون » ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ـ أو تقصرنه على الحق قصرا ـ »

فليس هو مجرد الأمر والنهى ، ثم تنتهى المسألة ، إنما هو الإصرار ، والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء .

وروى مسلم ـ بإسناده ـ عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .. وذلك أضعف الإيمان » .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عدى ابن عميرة قال ـ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ـ وهم قادرون على أن ينكروه ـ فلا ينكرونه . فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة » .

وروى أبو داود والترمذى ـ بإسناده ـ عن أبى سعيد قل : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » . .

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى فى هذا المعنى ؛ لأن هذا التماسك فى كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ : وأنا مالى ؟ ! وهذه الحمية ضد الفساد فى المجتمع ، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسرى ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بى الأذى ؟ ! وهذه الغيرة على حرمات الله ، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله . . هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذى لا قيام لها إلا به . .

Marfat.com

وهذا كله فى حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله ؛ ومعرفة تكاليف هذا الإيمان . وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله ؛ ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة . وإلى الجد فى أخذ العقيدة بقوة ، والجهد لإقامة المنهج الذى ينبثق منها فى حياة المجتمع كله . . فالمجتمع المسلم الذى يستمد قانونه من شريعة الله ؛ ويقيم حياته كلها على منهجه ؛ هو المجتمع الذى يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا فى الخضم ؛ أو يجعله غير ممكن أصلا فى كثير من الأحيان ! كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم فى أرجاء الأرض ؛ والتى تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد فى شأن أحد ؛ وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية » ! ليس لأحد أن يتدخل فى شأنها . . كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه ، ويعقد الألسنة ، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف فى وجه الطغيان . .

إن الجهد الأصيل ، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذى يقوم على منهج الله . . قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية ، شخصية وفردية ؛ عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله ؛ وحين تطغى الجاهلية ، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله ؛ وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله . فينبغى عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس ، وأن تنبت من الجذور ؛ وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله فى الأرض .. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئا يرتكن إلى أساس .

وهذا يحتاج إلى إيمان . وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله فى نظام الحياة . فالإيمان على هذا المستوى هو الذى يجعل الاعتماد كله على الله ؛ والثقة كلها بنصرته للخير ـ مهما طال الطريق ـ واحتساب الأجر عنده ، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء فى هذه الأرض ، ولا تقديرا من المجتمع الضال ، ولا نصرة من أهل الجاهلية فى أى مكان !

Marfat.com

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التى ورد فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم فى مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، فى بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم فى بعض الاحيان .. وهكذا نجد فى قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » . .فهو « إمام » ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله ؛ وبتحكيم شريعته . فالذى لا يحكم شريعة الله لا يقال له : « إمام » إنما يقول عنه الله ـ سبحانه ـ « و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . .

فأما المجتمعات الجاهلية التى لا تتحاكم إلى شريعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها والأهم ، هو المنكر الذى تنبع منه كل المنكرات . . هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة . . وهذا المنكر الكبير الأساسى الجذرى هو الذى يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدخول فى المنكرات الجزئية ، التى هى تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه ، وعرض له . .

إنه لا جدوى من ضياع الجهد .. جهد الخيرين الصالحين من الناس .. فى مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول . . منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية ، ورفض ألوهية الله ، برفض شريعته للحياة .. لا جدوى من ضياع الجهد فى مقاومة منكرات هى مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال .

على أنه إلام نحاكم الناس فى أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأى ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول : إن هذا منكر ؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك : كلا ! ليس هذا منكرا . لقد كان منكرا فى الزمان الخالى ! وللدنيا « تتطور » ، والمجتمع « يتقدم » وتختلف الاعتبارات !.

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتى بهذا الميزان ؟

Marfat.com

Marfat.com

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم ـ وهى متقلبة لا تثبت على حال ؟ إننا ننتهى إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلابد ابتداء من إقامة الميزان . . ولا بد أن يكون هـذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء . .

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله .

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف ـ ابتداء ـ بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله ؟

ألا يكون جهدا ضائعا ، وعبثا هازلا ، أن تقوم فى مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فى جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئيا على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون فى الآراء والأهواء ..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهى عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة . . وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها فى جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذى عليه وحده يقام البنيان !

وإن الإنسان ليرثى أحيانا ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم فى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » فى الفروع ؛ بينما الأصل الذى تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مقطوع !

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلا فى مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ؛ فيستحيل ماله كله حراما ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال . . لأن نظامه الاجتماعى

Marfat.com

والاقتصادى كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلا فى مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة ـ إلا فى حالة الإكراه ـ ولا يعاقب حتى فى حالة الإكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر فى مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين فى الطريق العام . وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله . لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين ؛ فى مجتمع لا يعترف بسلطان الله ؛ ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أربابا من دونه ؛ ينزلون له شريعته وقانونه ؛ ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه . والساب والمسبوب كلاهما ليس فى دين الله . . إنما هما وأهل مجتمعهما طرا فى دين من ينزلون لهم الشرائع والقوانين ؛ ويضعون لهم القيم والموازين ؟ !

ما غناء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهى عن هذه الكبائر ـ فضلا عن أن يكون النهى عن الصغائر ـ والكبيرة الكبرى لا نهى عنها .. كبيرة الكفر بالله ، برفض منهجه للحياة ؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء « الطيبون » جهدهم وطاقتهم واهتمامهم .. إنه ـ فى هذه المرحلة ـ ليس أمر تتبع الفرعيات ـ مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هى حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ؛ تتمثل فى اعتبار شريعة الله هى المصدر الوحيد للتشريع ؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هى المصدر الوحيد للسلطة .. فكل جهد فى الفروع ضائع ؛ وكل محاولة فى الفروع عبث .. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات ..

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » . .

Marfat.com

وقد يجىء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيــه تغيير المنــكر بأيديهم ؛ ولا يستطيعون فيــه تغيير المنــكر بألسنتهم ؛ فيبقى أضعف الإيمان ؛ وهو تغييره بقلوبهم ؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقا على الإسلام !

وليس هذا موقفا سلبيا من المنــكر ـ كما يلوح فى بادىء الأمر ـ وتعبير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابى فى طبيعته . فإنــكار المنــكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنــكر .. إنه ينــكره ويــكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعى الذى يخضع له ويعترف به . . وإنــكار القلوب لوضع من الأوضــاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنــكر ، ولإقامة الوضــع « المعروف » فى أول فرصــة تسنح ، وللتربص بالمنــكر حتى تواتى هــذه الفرصــة . . وهذا كله عمل إيجابى فى التغيير .. وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الاستسلام للمنــكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطا ـ قد يــكون ساحقا ـ فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلى حتى عن أضعف الإيمان !

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التى حقت على بنى إسرائيل :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصــوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منــكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! » ..

* * *

ثم يمضى السياق إلى نهــاية هذا المقطع فى الحديث عن بنى إسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء . فيصف حالهم على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى حالهم فى كل زمان وفى كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك ـ مــع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى ، وأنهم لم يدخــلوا فى دين الله الأخير .. فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين :

« ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط

Marfat.com

الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولـكن كثيرا منهم فاسقون » . .

وهـذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود – على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم – ينطبق على حالهم اليوم وغـدا ، وفى كل حين . كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الـكتاب فى معظم أرجاء الأرض اليوم . . مما يدعو إلى التدبر العميق فى أسرار هذا القرآن ، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل آن . .

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ؛ ويؤلبونهم على المسلمين ؛ « ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهـدى من الذين آمنوا سبيلا » . . كما حكى عنهم القرآن الـكريم . وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ؛ إلى اللحظة الحاضرة . . وما قامت إسرائيل فى أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الـكافرين الجدد من الماديين الملحدين !

فأما الفريق الآخر من أهل الـكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين ! وهم يتعـاونون مع الوثنية المشركة كذلك ، كلما كانت المعركة مع المسلمين ! حتى و « المسلمون » لا يمثـلون الإسـلام فى شىء . إلا فى أنهم من ذرارى قوم كانوا مسلمين ! ولـكنها الإحنة التى لا تهدأ على هـذا الدين ؛ ومن ينتمون إليـه ، ولو كانوا فى انتمائهم مدعين !

وصدق الله العظيم : « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا » . .

« لبئس ماقدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون » . .

فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم . . إنها سخط الله عليهم . وخلودهم فى العذاب . فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ؛ وياالهلمن ثمرة مرة . ثمرة توليهم للـكافرين !

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخـذ من عنـد نفسـه مقررات لم

يأذن بهـا الله : في الولاء والتنـاصر بين أهـل هـذا الدين ؛ وأعـدائه الذين يتولون الـكافرين !

وما الدافع ؟ مادافع القوم لتولى الذين كفروا ؟ إنه عـدم الإيمـان بالله والنبي :

« ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليـه ما اتخذوهم أوليـاء . ولـكن كثيرا منهم فاسقون » . .

هـذه هى العـلة . . إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى .. إن كثرتهم فاسقـة .. إنهم يتجانسون ـ إذن ـ مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة ؛ فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين ..

وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآنى ثلاث حقائق بارزة :

الحقيقة الأولى : أن أهل الـكتاب جميعا ـ إلا القلة التى آمنت بمحمد صلى الله عليـه وسلم ـ غير مؤمنين بالله . لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير . ولم ينف القرآن الـكريم عنهم الإيمان بالنبي وحـده . بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك . « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليهما اتخذوهم أولياء » وهو تقرير من الله ـ سبحانه ـ لا يقبل التأويل . مهما تكن دعواهم فى الإيمان بالله . . وبخاصة إذا اعتبرنا ماهم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف فى آيات هذا الدرس وفى غيرها من آيات القرآن الـكريم .

والحقيقة الثـانية : أن أهل الـكتاب جميعا مدعوون إلى الدخول فى دين الله ، على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن استجابوا فقد آمنوا ، وأصبحوا على دين الله . وإن تولوا فهم كما وصفهم الله .

والحقيقة الثالثة : أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين ، فى شأن من الشئون . لأن كل شأن من شئون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين .

ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الـكتاب فى العشرة والسلوك ؛ وبحماية

Marfat.com

أرواحهم وأموالهم وأعراضهم فى دار الإسلام ؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون ؛ وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ومجادلتهم بالحسنى كذلك . والوفاء لهم ـ ما وفوا ـ بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين .. وهم ـ فى أية حال ـ لا يكرهون على شئ فى أمر الدين ..

هذا هو الإسلام .. فى وضوحه ونصاعته . وفى بره وسماحته ..

والله يقول الحق . وهو يهدى السبيل .

انتهى الجزء السادس
ويليه الجزء السابع مبدوءا بقوله تعالى :
لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

Marfat.com

Marfat.com

فهرس المجلد الثاني
في ظلال القرآن

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة آل عمران : مدنية وآياتها مائتان		٥ – ٢٠٠	الرابع
الآية : ٩٣ – ١٢٠	كل الطعام كان حلاً لبني	٧ – ٤٤	
« ١٢١ – ١٧٩	وإذ غدوت من اهلك	٤٤ – ١٧١	
« ١٨٠ – ١٨٩	ولا يحسبن الذين يبخلون	١٧١ – ١٨٥	
« ١٩٠ – ٢٠٠	إن في خلق السموات والأرض . . .	١٨٥ – ٢٠٢	
سورة النساء : مدنيه وآياتها ١٧٦		٢٠٣ – ٦٢٢	
الآية : ١ – ١٤	يا ايها الناس اتقوا ربكم	٢٣١ – ٤٧٣	
« ١٥ – ٢٣	واللّاتي يأتين الفاحشة	٢٧٣ – ٢٩٥	
« ٢٤ – ٣٥	والمحصنات من النساء	٣٠٣ – ٣٦٥	الخامس
« ٣٦ – ٤٣	واعبدوا الله ولا تشركوا	٣٦٥ – ٣٨٦	
« ٤٤ – ٥٧	الم تر إلى الذين اوتوا نصيبًا	٣٨٧ – ٤٠٦	
« ٥٨ – ٧٠	إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات . .	٤٠٦ – ٤٣٣	
« ٧١ – ٨٦	يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم . .	٤٣٣ – ٤٧٢	
« ٨٧ – ٩٤	الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم	٤٧٢ – ٤٨٩	
« ٩٥ – ١٠٤	لا يستوي القاعدون من المؤمنين . . .	٤٨٩ – ٥١٠	
« ١٠٥ – ١١٣	إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق	٥١٠ – ٥٢٠	
« ١١٤ – ١٢٦	لا خير في كثير من نجواهم	٥٢٠ – ٥٣٢	
« ١٢٧ – ١٣٤	ويستفتونك في النساء	٥٣٣ – ٥٤٥	
« ١٣٥ – ١٤٧	يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين . .	٥٤٥ – ٥٦٧	
« ١٤٨ – ١٧٠	لا يحب الله الجهر بالسوء	٥٧٥ – ٦٠٧	السادس
« ١٧١ – ١٧٥	يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم . .	٦٠٧ – ٦٢١	
« ١٧٦	يستفتونك . قل : الله يفتيكم . . .	٦٢١ – ٦٢٢	

السورة	مطالع الآيات	الصفحة
سورة المائدة : مدنية وآياتها ١٢٠		٦٢٣ – ٨٣٠
الآية : ١ – ١١	يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود . . .	٦٣٨ – ٦٧١
» ١٢ – ٢٦	ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل . .	٦٧٢ – ٦٩٨
» ٢٧ – ٤٠	واتل عليهم نبأ ابني آدم	٦٩٨ – ٧٢٢
» ٤١ – ٥٠	يا ايها الرسول لا يحزنك الذين . .	٧٢٢ – ٧٥٣
» ٥١ – ٦٦	يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود . .	٧٥٣ – ٨٠٢
» ٦٧ – ٨١	يا ايها الرسول بلغ ما أنزل إليك . . .	٨٠٢ – ٨٣٠

Marfat.com

Marfat.com